تأليف: نخبة من فلاسفة وكتاب القرنين الأخيرين

40 قضية لتحرير العقل



ترجمة:
إبراهيم قيس جركس

الدار الليبرالية
Liberal Library

الدار الليبرالية

إن الدار الليبرالية غير مسؤولة بشكل مباشر عن آراء الكتاب إنما تنشر ثقافة مفتوحة بحيادية، وكُل كتاب يعبر عن آراء مؤلفه وإن كنا لا ننشر إلا ما نحن مقتنعون بأهميته ثقافياً سواء وافقنا الكاتب أم لا.

نحن ملتزمون بقيم الحرية الفكرية بأعلى مستوياتها والاختلاف حالة طبيعية فلا نلزم أحد بقراءة منشوراتنا.

Liberal Library

Deutschland – Berlin
Schlachthofstrasse 20
004917621419894
llliberallabrary@gmail.com

شعارنا

حرية الاختيار تعني اختيار الحرية، فالحرية لا تختار إلا ذاتها.

نخبة من المؤلفين

40 قضية لتحرير العقل

ترجمة وتقديم

إبراهيم قيس جركس

الليبرالية 2021

المحتويات

7

ستة دلائل تشير إلى أنّ الدين يضرّ أكثر ممّا ينفع

إبراهيم جركس

هل الدين ظاهرة ضارة أم مفيدة بالمسبة للمجتمع والإنسان؟... ماذا لو كان إلحاق الضرر بالمجتمع هو أحد الآليات البقائية للدين؟... ماذا لو كان إفساد المجتمع هو أحد وسائل الدين للحفاظ على بقائه واستمراره؟

لايتخلف اثنان في وطننا العربي يشهدان ما يجري فيه من تخريب ودمار وتقطيف رؤوس وأوصال وتفجير واغتصاب وسبي بأنّ الدين ذو تأثير سلبي على المجتمع _الخلاف قد يبدو على أي دين هو الصحيح، أو أنّ هذا ليس هو الدين الصحيح. والغريب أنّنا قد نسمع هذا الرأي من بعض الأشخاص المتدينين الذين يقولون أنّ الدين ضار للمجتمع. ويعود الفضل للإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي التي تبثّ جميع عمليات الإجرام بحق الأبرياء في سبيل الدين والله من قطع الرؤوس على يد داعش، إلى قضايا التحرّش بالنساء والأطفال في الكنائس، وما إلى هنالك من معتقدات غريبة ومضحكة، إلخ.

في عام 2010 نشر عالم الاجتماع فيل زوكرمان كتابه الرائع الذي عملنا على ترجمته بعنوان "مجتمع بدون إله: ماذا تخبرنا الأمم الأقل تديناً عن الرضى والقناعة". وقد ساق العالِم برهاناً بأنّ المجتمعات الأقل تديناً تميل أيضاً لأكون تكون أكثر سلاماً واستقراراً وازدهاراً ومساواةً، وتتمتّع بسياسات عامّة تساعد مواطنيها على الازدهار في الوقت الذي تعمل فيه على تخفيض مستويات اليأس والركود والاقتصادي.

يمكننا أن نجادل ما إذا كان الازدهار والسلام يقودان البشر إلى أن يكونوا أقل تديناً أو العكس. طبعاً الدليل يدعم المذهب القائل بأنّ الدين يزدهر على أساس القلق

الوجودي. لكن حتى وإن كان الأمر كذلك، هناك أسباب جيدة للاعتقاد بأنّ الصلة بين الدين والمجتمعات المعطّلة والمتخلّفة يمضي في كلا الطريقين. هنا سنتحدّث عن ستّة دلائل تشير إلى أنّ الدين يصعّب من تحقيق الازدهار.

1) الدين يروّج للعصبية القبلية: (كافر، زنديق، مهرطق) الدين يفصل الداخل عن الخارج. بدلاً من افتراضه وجود نوايا حسنة، فإنّه يبرمج أتباعه ويعلّمهم معاملة الآخرين بحذر وريبة. يقول القرآن {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} [النساء: 91]. أمّا الكتاب المقدّس فيقول «لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ» [2كورنثوس 6: 14].

في أحسن الأحوال، تعاليم كهذه تمنع أو حتى تحرّم أنواع الصداقات والزواج المختلط الذي يساعد القبائل والمجتمعات المختلفة على الاتحاد وتشكيل مجتمع أكبر وأقوى. في أسوأ الأحوال، يُنظَر إلى الآخرين من الخارج على أنهم أعداء الله وضالّون، عملاء محتملون للشيطان يريدون الوقيعة والنيل من الدين، يفتقدون للأخلاق ولاينبغي الثقة بهم. قد يتقوقع المؤمنون مع بعضهم، ويشاركون في أعمال انتحارية تحت مسمّى الشهادة في سبيل الله. وعندما يُنفَخُ الرماد الذي يغطّي الجمر وتنفجر التوتّرات، تنشقّ المجتمعات وتنشرخ، وتظهر الانشقاقات والنعرات الطائفية، وحالة سوريا والعراق الآن من أوضح الأمثلة على ذلك.

2) الدين يعيد المؤمنين إلى العصر الحجري: (إماء، جواري، عبيد، ملك يمين، عزائم سحرية، شعب مختار، خير الأمم أخرجت للناس، الرجم، قطع الأيدي...) كان العصر الحجري الفترة الزمنية التي سادت فيها الخرافة، الجهل، التفرقة،

والعنصرية، كره الغرباء والنساء، والعنف. كانت العبودية أمراً إلهياً، وكان مسموحٌ بها، بل مرغوب في عيني الله. كان النساء والأولاد ممتلكات شخصية للرجل بالمعنى الحرفي للكلمة. كان أسياد الحرب يمارسون استراتيجية الأرض المحروقة على الشعوب التي يغزونها. وكان الناس اليائسين يضحّون بالحيوانات، والغلال والمحاصيل الزراعية، بل والأعداء أيضاً يقدّمونهم كأضاحي بإلقائهم بالنار لإرضاء آلهتهم المنتقمة والغيورة.

النصوص الدينية ومن ضمنها القرآن والإنجيل والتوراة كلها تحتوي أجزاء من ثقافة العصر الحجري، وتضع اسم الله على أسوأ وأخطر الدوافع الإنسانية بدائيةً.

أي مؤمن يبحث عن تبرير لأفعاله أو مزاجه، أو شعوده بالتفوّق، أو توقه للحرب والغزو، كرهه للمرأة _جميعها صفات داعش وغيرها من الجماعات المتشدّدة التابعة لأي دين من الأديان_ يمكنه إيجاد تبرير ضمن تلك الكتابات القديمة التي يُزعَم أنّ الله هو من كتبها.

اليوم، تطوّر الحس والوعي الأخلاقي لدى الإنسان المعاصر، إذ يقوم في أساسه على فهم أعمق وأوسع لما يسمّى بالقاعدة الذهبية **Golden Rule**. لكنّ أغلب المؤمنين المتطرفين لايستطيعون التقدّم والمضي أبعد من ذلك. إنّهم سجناء العصر الحجري. وهذه الحال تضعهم في موقف مضادّ للتغيّر والتقدّم وفي صراع دائم لاينتهي يستنفذ الطاقات العامة ويعيق الطرق الإبداعية لحلّ المشكلات العالقة.

3) الدين يجعل من الإيمان فضيلة: (هناك حكمة إلهية من ذلك/ أو هذا امتحان من الله/ أو الرب يعمل بطرق غامضة) هذا مايقوله رجال الدين من جميع الديانات لكل المؤمنين الذين أصابتهم مصيبة أو حلّت بهم كارثة طبيعية أو أصيبوا بأمراض قاتلة ومميتة. «الإيمان فضيلة».

وكلّما احتلّ العلم مساحة أكبر ضاقت رقعة الخرافة وتآكلت المساحة التي يحتلّها الدين، اجتاحت المعتقدات الدينية التقليدية دفاعات عقلية أكثر ضدّ المعلومات الكثيرة المتوافدة التي تهدّد بقائها. وليبقى الدين قوياً وحصيناً، فإنّه يبرمج المؤمنين به ليمارسوا عملية خداع الذات، أن يرفضوا الدلائل البيّنة والتي تتناقض مع إيمانهم ومعتقداتهم، وأن يثقوا بمرجعياتهم الدينية أو الطائفية أو المذهبية أوالسياسية/ الإيديولجية ثقة عمياء، بدلاً من الاعتماد على تفكيرهم ومنطقهم الخاص. تتسرّب هذه النظرة إلى نواحي أخرى من الحياة. وتصبح الحكومة بالتحديد صراعاً بين إيديولوجيات وعقائد متصارعة ومتنافسة بدلاً من أن تكون سعياً ديمقراطياً لاستشفاف حلول عملية قائمة على أساس الدليل والبرهان والتعقّل، وبذلك تصل المجتمعات إلى الانهيار والتفكّك، المجتمع السوري خير مثال.

4) الدين يحرّف الدوافع الحميدة ويحوّل النوايا الحسنة: (التبرّع بالأموال لجمعيات دينية من أجل قضية مدنية في الأساس لاعلاقة لها بالدين). النداءات والاستغاثات المالية السمجة والبليدة في أوقات الأزمات ليست شائعة كثيراً، لكنّ الدين دائماً يعمل على توجيه خاصية الكرم والعطاء الإنسانيين بغرض ضمان ديمومته وبقائه. الأشخاص الذين يتسمون بالكرم والعطاء قد يقعون فريسة رجال الدين وينجحون هؤلاء بإقناعهم بتقديم أموالاً طائلة للمساجد أو الكنائس أو منظمات ومؤسسات دينية محدّدة بغية استخدامها واستغلالها لأغراض تخدم الكنيسة أو المسجد بدلاً من الاستفادة منها في قضايا عامّة أو أمور تخدم المجتمع والصالح العام. في كل عام نجد مئات المحطات التلفزيونية التي يطلّ علينا منها شوخاً ورجال دين أشبه بالقرود وليس البشر يكرّرون كلاماً

عمره أكثر من ألف عام دون أن يأتوا بشيء جديد أو مفيد، ولكم أن تتخيّلوا حجم الأموال المنفوقة على هكذا محطات دعوية وحملات بليدة. آلاف المبشرين يتسابقون في كل عام لإنقاذ ملايين الأرواح دون أن ينقذوا حياةً واحدة أو يقدّموا شيئاً مفيداً للمجتمع أو البشرية. هؤلاء معفيون من الضرائب، إضافة إلى أنّهم يهدرون الموارد البشرية والاقتصادية والثقافية للدولة. بالإضافة إلى استغلال الطاقات الأخلاقية الإيجابية كاللطف أو الكرم، نلاحظ أنّ الدين غالباً يقوم بإعادة توجيه وحرف مشاعر الامتعاض والاشمئزاز الأخلاقية، رابطاً هذه المشاعر بقواعد دينية اعتباطية بدلاً من ربطها بمسائل دنيوية. اليهود الأرثوذكس يهدرون المال على الباروكات والملابس الدينية. الآباء المسيحيين يفرضون على أبناءهم نوعاً متزمّتاً من التربية ويرسلون أموالهم للكنائس بدلاً من إرسال أولادهم بهذه الأموال إلى جامعات مرموقة وعلمانية. المسلمون يرسلون أموالهم لرجال الدين والدعاة ليجمعوها ويبنوا بها قصورهم وسياراتهم الفارهة أو ليموّلوا عصابات الموت والتطرف والإرهاب.

5) الدين يعلّم الإنسان العجز والتواكل: (شو بدو الله بصير... هذا ما أراده الله... هذه هي مشيئة الله) جميعنا سمعنا ونسمع هذه العبارات طوال الوقت وفي كل مكان تقريباً، لكنّنا في بعض الأحيان لاندرك العلاقة العميقة بين التديّن والاستقالة أو التواكل. في أكثر اللامذاهب تطرفاً وتزمّتاً في اليهودية والمسيحية والإسلام، يُنظر إلى المرأة نظرة أكثر استحساناً إذا كانت تقية ومستسلمة لله. جميع الأمراض والمآسي والكوارث تُنسَب إلى الله وإرادته بدلاً من إرجاعها إلى قرارات سيئة كنا قد اتخذناها ومسؤولون عنها أو أنظمة سيئة وعاطلة، المؤمنون ينتظرون الله لكي يحلّ مشاكلهم العالقة التي لايقدرون هم على حلّها بأنفسهم.

هذا الموقف يسيء للمجتمع ويضرّ به على النطاق الواسع، بالإضافة إلى ضرره على مستوى الأشخاص والأفراد. فعندما ظهرت الأديان الكبرى اليوم، كان لدى الناس العاديين القليل من القدرة والإرادة على إحداث تغيّرات في البنية الاجتماعية المحيطة. كانت أعمال الخير والسعي لحياة أفضل مجرّد مسائل شخصية. وعندما استمرّت هذه العقلية، استلهم البشر من الدين شعور الشفقة الشخصية من دون أي مسؤولية اجتماعية. وظنوا أنّهم بإمكانهم تجاهل المشاكل البنيوية طالما أنّ المؤمن طيّب مع أصدقائه وعائلته وكريمٌ تجاه أفراد مجتمعه من "المؤمنين".

6) الدين يسعى خلف السلطة والحكم: فكروا بجميع العلاقات والروابط التي كانت تربط بين طبقة الحكّام ورجال الدين في جميع العصور والأماكن. الدين عبارة عن مؤسّسة من صنع الإنسان، على غرار الشركات الرابحة تماماً. وكأي شركة، على الدين أن يجد طريقة لبناء سلطته وثروته وأن ينجح في لعبة التنافس في السوق الدينية مع الأديان الأخرى ليضمن بقاءه واستمراره. الهندوسية، البوذية، المسيحية، اليهودية، الإسلام _أو أي مؤسسة دينية كبرى_ هي عبارة عن شركة أو عمل أو بيزنس لها خبرة تعادل خبرة شركات كبرى مثل بيبسي أو كوكا كولا أو نايك. ومثل حيتان الربح العملاقة، فإنّها تسعى لتحصيل قوتها وسلطتها وثروتها لخدمة بقائها واستمرارها الخاص، حتى وإن كان ذلك يضرّ بالمجتمع على نطاقٍ واسع. في الحقيقة، ومن دون أي دراية من المتدينين الملتزمين أو الذي يمارسون طقوسهم الدينية، أو ربّما يدرون ذلك ويساهم البعض منهم في ذلك، فإنّ إلحاق الضرر والأذى والعجز للمجتمع قد يكون جزءاً حيوياً من استراتيجيات البقاء التي يلجأ إليها المجتمع. وحسب تعبير عالم الاجتماع فيل زوكرمان والباحث غريغوري بول: «ليس هناك

ديمقراطية متقدّمة حميدة واحدة تتمتّع بوضع اقتصادي واجتماعي متقدّم ومتطوّر تحتوي على درجات عالية من التديّن». عندما يشعر الناس بالازدهار والأمان، تضعف قبضة الدين على أعناقهم ويتحرّرون من نيره.

الإله: الفرضية الخاطئة

(كيف يثبت العلم أنّ الله غير موجود)

فيكتور ستينغر

مقدّمة

«العلوم لا تحاول التفسير، حتى أنها بالكاد تحاول الترجمة، بل تصنع النماذج بشكل رئيسي. والمقصود بالنموذج التركيب الرياضي الذي، بالإضافة مجموعة من الترجمات اللفظية المحدّدة، يصف الظاهرة المدروسة. فتعليل هذا البناء الرياضي هو مجرّد التوقّع أنّه قابل للتطبيق» [جون فون نيومان][1].

وجهة نظر من الجانب

عبر التاريخ الطويل، كانت الحجج المتعلقة بوجود أو عدم وجود الله مقتصرة على كلٍ من الفلسفة واللاهوت. أمّ في الوقت الحالي، وطأ العلم على الخطوط الجانبية وراقب هذه اللعبة بالكلمات بهدوء التي تتقافز في المجال. بغضّ النظر عن حقيقة أنّ العلم قد قلب كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية وأشعل فيها ثورة ووضّح طريقة فهمنا للعالم من حولنا كثيراً، بطريقة ما ظهرت الفكرة وأظهرت أنّ ليس هناك شيء ليقال عن وجود الكائن الأسمى الذي يعبده كلّ البشر كمصدر وحيد للحقيقة.

في كتابه: "صخور العصور Rocks of Ages" الصادر عام 1999، أشار عالم الدراسات القديمة الشهير ستيفن جاي غولد Stephen Jay Gould إلى العلم

---

[1] جون فون نيومان، نشرة الجمعية الأمريكية للميكانيكا الحسابية 6، رقم 3.
(September 1993). Online at:
http: / /www.usacm.org /Odenslacceptancelremarks.htm

والدين كـ "عملاقين غير متداخلين"، فالعلم يهتمّ بفهم العالم الطبيعي، في حين أنّ الدين يتعامل مع المسائل الأخلاقية[2]. بأي حال، كما أشار عدد غير قليل من المراجعين، بلغ ذلك إلى إعادة تعريف الدين كفلسفة أخلاقية. في الحقيقة، أغلب الديانات تقوم بأكثر من التنظير الأخلاقي لكنها تقدّم تصريحات أساسية حول الطبيعة، وهي من الأمور التي يملك العلم الحرية المطلقة لتقييمها. علاوة على ذلك، للعلم دور واضح في دراسة الأجسام المادية، ككفن تورين Shroud of Turin، التي قد يكون لها مضامين دينية. و، لا يمكن للعلم أن يبحث في المسائل الأخلاقية، التي تتضمّن بعض التصرّفات الإنسانية التي يمكن ملاحظتها والتي في بعض الأحيان يمكن قياسها؟

في استطلاع للرأي العام سنة 1998، فقط 7٪ من أعضاء الأكاديمية الأمريكية للعلوم، من نخبة العلماء الأمريكان، قالوا بأنّهم يؤمنون بإله شخصي[3]. وبالرغم من ذلك، معظم العلماء يبدو أنهم يفضّلون كمسألة عملية أنّ العلم يجب أن يبقى صافياً وخالياً من القضايا والمسائل الدينية. ربّما هذه استراتيجية جيدة بالنسبة لأولئك الذين يرغبون بتفادي الصدامات ما بين العلم والدين، والتي قد تقود إلى قبول أقل للعلم، من دون الحاجة لذكر العواقب الأكثر إخافةً _تخفيض التمويل. بأيّ حال، تزعم الأديان ادّعاءات فعلية لا تمتلك أي مناعة خاصّة تحميها من إجراءات الفحص تحت عدسة العقل الباردة والملاحظة الموضوعية.

---

(2) ستيفن جاي غولد، صخور العصور: العلم والدين في امتلاء الحياة.

Stephen J. Gould, Rock of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life (New York: Ballantine, 1999).

(3) إدوارد لارسون ولاري ويتهام "علماء بارزون ما زالوا يرفضون الله"، مجلّة الطبيعة 394

Edward J. Larson and Larry Witham, "Leading Scientists Still Reject God," Nature 394 (1998): 313.

علاوةً على ذلك، الحجج والبراهين العلمية المقدّمة لإثبات وجود الله، التي هي، حجج قائمة ومستندة على الملاحظة بدل المرجعية، قد تمّ تقديمها منذ أقدم العصور _حتى قبل سنة 77 ق.م على يد ماركوس توليوس شيشرون Marcus Tullius Cicero (توفي عام 43 ق.م) في عمله الهام: "في طبيعة الآلهة De Natura Deorum"[4]. وقد تأثّر به جداً وليم بيلي William Paley (توفّي عام 1805) في كتابه: "اللاهوت الطبيعي أو دلائل على وجود وأسماء للإله مجموعة من الظواهر الطبيعية، Natural Theology or Evidences of the Existence and Attributes of the Deity Collected from the Appearance of Nature"، والذي نشر لأول مرة عام 1802[5]. خلال السنوات القريبة الماضية، بدأ رجال اللاهوت وعلماء الدين بالبحث عن علم لتقديم إثبات على معتقداتهم بوجود كائن أسمى. العديد من الكتب تمّ نشرها تقدّم أوهاماً وأضاليل بأنّ العلم النظري والعلمي يدعمان فكرة وجود الله، وقامت أجهزة الإعلام الشعبية بدورها في نشر وإذاعة هذه النظرة[6]. قليلة جداً هي الكتب والقصص الإعلامية التي تحدّت بشكل مباشر تلك المزاعم. لكن إذا كانت الحجج والبراهين العلمية عن وجود الله قد سمح لها بالدخول في الجدال الثقافي العام، فتلك التي تنفي وجود الله كان لها مكانها المناسب أيضاً.

---

(4) ماركوس تولوس شيشرون: في طبيعة الآلهة.
Marcus Tullius Cicero, De Natura Deorum or On the Nature of the Gods, ed. and trans. H. Rackham (New York: Loeb Classical Library, 1933).

(5) وليم بايلي: اللاهوت الطبيعي أو دليل على وجود وخصائص الله مجموعة من الظواهر الطبيعية
(London: Halliwell, 1933).

(6) شارون بيغلي: العلم يعثر على الله
Sharon Begley, "Science Finds God," Newsweek, July 20, 1998.

في كتابي الصادر عام 2003، "هل وجد العلم الله؟ Has Science Found God" كنت قد بحثت بدقّة وبطريقة نقدية في المزاعم التي تقول أنّ هناك دلائل علمية على وجود الله ووجدت أنها غير مناسبة على الإطلاق[7]. وفي الكتاب الحالي، سأمضي إلى أبعد من ذلك وسأناقش أنه وفي هذا الوقت بالذات لأنّ العلم قد قطع مسافة طويلة في تقدّمه وبات قادراً على تقديم إجابة محدّدة بشأن مسألة وجود أو عدم وجود الله آخذاً بعين الاعتبار الصفات والنعوت المرتبطة بشكل تقليدي بالإله اليهودي_ المسيحي_ الإسلامي.

أصبح لدينا الآن كمية معتبرة من البيانات التجريبية والكثير من النماذج العلمية الناجحة التي يمكن أن تؤثّر على السؤال حول مسألة وجود الله. وقد حان الوقت للبحث عمّا تخبرنا به تلك البيانات والنماذج حول صلاحية الفرضية الإلهية.

للتأكّد، الإله اليهودي_ المسيحي_ الإسلامي ليس محدّد بشكل جيد. ولا يقتصر الأمر بأنّ كلاً من هذه الديانات الثلاث تنظر نظرة مختلفة إلى الله، بل حتى في الديانة الواحدة هناك اختلاف في النظر إلى إله تلك الديانة _بين رجال الدين والمؤمنين من العامة وكذلك بين الطائفة والأخرى. وسأركّز على تلك الأسماء والنعوت التي يطلقها المؤمنون في كل من تلك الفرق المختلفة على الإله الذي يعبدونه. بعض تلك الأسماء يشترك فيها العديد من الآلهة من الديانات الأخرى غير الديانات الكبرى الثلاث.

(7) فيكتور ستينغر: هل وجد العلم الله؟ آخر النتائج التي تمّ التوصّل إليها في البحث عن معنى في الكون. راجع الإشارات في نفس المكان للمزاعم الأصلية.

Victor J. Stenger, Has Science Found God? The Latest Results in the Search for Purpose in the Universe (Amherst, NY: Prometheus Books, 2003).

أنا أدرك جيداً أنّ رجال الدين المحنّكين قد طوّروا مفاهيم عالية التجريد عن الإله حيث يزعمون بأنها متساوقة مع تعاليم معتقداتهم وأديانهم. فيمكننا دائماً أن نجرّد أي مفهوم ليصبح خارج عالم البحث العلمي. لكنّ هذه الآلهة لن يتمّ الاعتراف بها من قبل المؤمن النموذجي.

- في الديانات التوحيدية الثلاث، يظهر الإله ككائن خارق وكلّي القدرة _موجود ما وراء المادة، المكان، والزمان_ ومع أنّ أصل كل ذلك يقابل أحاسيسنا الموصوفة في سياق المادّة، المكان، والزمان. علاوةً على ذلك، هذا الإله ليس هو إله الإلهية deism، الذي خلق العالم ثمّ تركه يسير من تلقاء نفسه، أو إله الحلولية pantheism، الذي حلّ في كل الموجودات. الإله اليهودي_ المسيحي_ الإسلامي هو مشارك لحظة بلحظة في كل حدث يحدث في كل نانو متر مكعّب من الكون، من تفاعل الكواركات داخل نويّات الذرات إلى تطوّر النجوم في أبعد المجرّات. والأكثر من ذلك، الله يستمع إلى كل فكرة ويشارك في كل فعل من أفعال مخلوقاته الخاصّة، جزء دقيق جداً من مادّة منتظمة سمّيت إنسانية تتحرّك بسهولة بالغة فوق سطح حصاة صغيرة تسبح في الخواء الكوني الواسع.

لذا، عندما أستعمل الاستهلال ج، فعندها أكون أقصد الإله اليهودي_ المسيحي_ الإسلامي. الآلهة الأخرى سأستعمل معها الأحرف الاستهلالية الصغيرة. كما أني سأستخدم الضمائر المذكّرة التقليدية بالإشارة إلى الله. هذا الكتاب عبارة عن تحقيق في الدلائل على وجود الله _وليس جميع الآلهة. يمكن تشبيهه بالتحقيق الفيزيائي التي يتحرّى وجود جزيئة مشحونة معدومة الكتلة، لكن ليس كلّ الجزيئات. علم الماوراء أو الخارق للطبيعة.

ليس هناك إجماع بين فلاسفة العلم حول ماهية الفروقات التي تميّز العلم Science عن العلم الزائف pseudoscience أو اللا علم nonscience، على الرغم من أنّ أغلب العلماء سيقولون أنّ يعرفون العلوم الزائفة عندما يرونها. في هذا الكتاب، سآخذ العلم للإشارة إلى تطبيق الملاحظة الموضوعية عن طريق العين والأداة وبناء النماذج لوصف تلك الملاحظات. هذه النماذج ليست مجرّد تصويرات لتلك الملاحظات، بل هي تستعمل العناصر والعمليات أو الآليات التي تحاول أن تكون عالمية وعامّة وذلك لكي لا يتمّ وصف مجموعة واحدة من الملاحظات بل أيضا كافّة الملاحظات التي تدخل ضمن فئة كبيرة كاحتمال. فهي لا تتطلّب دائماً أن تكون رياضية، كما أشار جون فون نيومان John von Neumann في النقش في هذا الفصل.

قد يكون المثال (الرياضي) الحالي الأوضح يتمثّل في "النموذج القياسي للجزيئات والقوى الأولية standard model of elementary particles and forces" حيث أنّ كلّ أشكال المادّة المألوفة مؤلّفة من ثلاث جزيئات فقط: الكوارك الأعلى up quark، الكوارك الأدنى down quark، والإلكترون. تمّت صياغة هذا النموذج في سبعينات القرن العشرين وبقي حتى وقتنا الحاضر ثابتاً مع كافة الخاصيات المدروسة للمادة التي تمّ تطبيقها داخل أعقد مخابرنا و أكثرها تطوّراً على وجه الأرض وتمّت مشاهدتها في الفضاء من خلال أقوى تلسكوباتنا.

لاحظ أنّ الهدف الرئيسي من النماذج العلمية هو الوصف describe وليس التفسير أو الشرح explain. وهي، يمكن أن يقال عنها أنها صحيحة عندما تؤكّدها جميع ملاحظاتنا، وخصوصاً تلك التي تكذّب النموذج لديها تلك الملاحظات تبيّن أنها عكس ذلك. عادةً تتخذ هذه العملية لها شكل اختبار الفرضية hypothesis

testing، حيث يفترض النموذج كسلسلة من الفرضيات التي يتمّ اختبارها مقابل مجموعة من الاختبارات والملاحظات الصارمة والمسيطر عليها. سواءً أكانت العناصر والعمليات التي تصنع نموذجاً ناجحاً ينبغي أخذها كأجزاء جوهرية من الواقع ليس هو السؤال الذي يمكن الإجابة عليه بسهولة بما أننا لا يمكننا أن نعرف مطلقاً أنّه قد يكون من الممكن تكذيب النموذج في المستقبل. بأي حال، عندما يتمّ تكذيب نموذج، عندها يمكن الافتراض بشكل منطقي أنّ تلك العناصر والعمليات الغريبة عن النموذج والتي لا تشكّل جزءاً من نموج آخر، على الأرجح النموذج الناجح لا يشكّل أجزاء حقيقية أو جوهرية من الواقع.

تحليلي سيكون قائماً على فكرة أنّ الله يجب أن يكون قابلاً للقياس والملاحظة عن طريق الأدوات العلمية ببساطة واستناداً على حقيقة أنّه يجب أن يلعب مثل هذا الدور في طريقة عمل الكون وحياة البشر. فالنماذج العلمية الموجودة لا تحتوي أيّ مكان للإله ليعتبر كمكوّن من أجل أن يصف ملاحظات معيّنة. لذلك، إذا كان موجوداً، يجب أن يظهر بمكان ما داخل الثغرات أو الأخطاء التي تتخلّل النماذج العلمية.

بالتأكيد، كان "إله الفجوات God of the gaps" منذ زمن بعيد هو الحجّة الوحيدة على وجود الله. العلم لا يفسّر كل شيء، لذا سيكون هناك دائماً مجال لتفسيرات أخرى ويعتقد المؤمنون _بل حتى أنهم مقتنعون_ أنّ ذلك هو الله. بأي حال، حجّة إله الفجوات بذاتها هي حجّة فاشلة، على الأقل كحجّة علمية، ما لم تكن الظاهرة موضع السؤال غير قابلة للتوضيح والتفسير العلميين في الوقت الحالي بل يمكن إظهارها كتحدّي أبدي للوصف والتفسير الطبيعيين. لا يمكن إظهار الله إلا عن طريق البرهان على أنه ضروري، ويجب أن يكون مثبتاً أنّ العلم غير قادر على تقديم تفسير أو وصف مقبول للظاهرة استناداً على العمليات الطبيعية والمادية فقط.

قد يصدم ذلك القارئ كمطلب مستحيل. كيف لنا أن نعلم أنّ العلم لن يكون قادراً أبداً على تقديم تفسير "طبيعي" لبعض الظواهر الغامضة في الوقت الحالي؟ أنا أقول أنّ هذا ضمن عالم الحقيقة أو الواقع، إذا لم يكن ضمن حدود 100 بالمئة يقيناً، فضمن حدود الشك المعقول. باستخدام الترابط التاريخي بين الطبيعي natural والمادي material، سأقدّم هنا أمثلة افتراضية عن ظاهرة، إذا أمكن ملاحظتها ومراقبتها، لا يمكن أن تكون من أصل مادّي يتجاوز الشكّ العقلاني. بما أنّ الله وحسب جميع الآراء غير مادي، فوجوده سيكون ملاحظاً _فيما وراء الشك العقلاني_ من خلال التحقيق التجريبي الصارم لهذه الظاهرة.

قام بعض العلماء بإطلاق بعض الاعتراضات على الربط ما بين الطبيعي والمادي. فهم يقولون أنّ كافّة الظواهر القابلة للملاحظة "طبيعية"، بالتعريف. آخرون يقولون أنّ أيّ نظرية قابلة للتطبيق يمكن اعتبارها "طبيعية"، بالتعريف. وأنا أفضّل عدم الانغماس في هذه المناظرات الدائرية التي لا تفضي إلى نتيجة حول معاني كلمات لا يبدو أنه سيكون هناك إجماع حول معناها عمّا قريب. لقد ذكرت كيف سأستخدم كلمات مثل "طبيعي" و"خارق للطبيعي"، كمرادف لكلمات مثل "مادي" و"غير مادي". فالخارق للطبيعي لا يمكن إقصاؤه من العلم بالتعريف المجرّد.

أنا أعرّف المادّة كأيّ شيء يصدر عنه ردّ فعل عندما تطبّق عليه فعلاً من نوع ما. إنه عمل فيزيائي بحت. وبكلمة "فعل" فأنا أشير إلى عملية ملاحظة عالمية حيث الجزيئات، كالفوتونات التي يتألّف منها الضوء، تصطدم بالأجسام وترتدّ عنها. القياسات المطبّقة على الجزيئات المرتدّة عن الأجسام إلى أعيننا والحواس الأخرى تقدّم لنا معلومات عن الجسم الذي تتمّ مراقبته يطلق عليها: الكتلة، الحركة والطاقة وهي الخواص التي يمكننا تحديدها في المادة. تلك القياسات موصوفة بنماذج تحتوي

عمليات مادية بمعنى الكلمة _القوانين الديناميكية للفيزياء_ كل موضوع للاختبار والتكذيب التجريبيين(8).

العديد من العلماء سيعترضون بأنّ ما وراء الطبيعي أو اللامادي لا يمكن اختبارهما بأي أسلوب مماثل أو مألوف. بالتأكيد، خلال المعارك السياسية الحالية في الولايات المتحدة والتي وضعت العلم ضدّ الجماعات الدينية المحافظة التي ترى أنّ معتقداتها تتهدّد من قبل نظرية التطوّر، فالعلماء البارزون والمنظمات العلمية الدولية قد قامت بتصريحات علنية وقدّمت شهادات في المحاكم بأنّ العلم لا يمكن أن يتعامل إلا مع الأسباب المادية. بهذا وضعوا الكرة في ملعب هؤلاء الذين يحاولون الجدال بأنّ للعلم التزاماً دوغمائياً بالمذهب المادي الذي يمنعه من اعتبار أيّة بدائل أخرى حتى.

في هذا الكتاب، سأبيّن أنّ عدداً من العمليات اللامادية أو اللاطبيعية المفترضة قابلة للاختبار تجريبياً باستخدام المناهج والطرق العلمية المعيارية. علاوة على ذلك، هذا البحث قد تمّ تنفيذه على يد نخبة من العلماء المحترمين والمرتبطون بمؤسّسات محترمة ولها اعتبارها ونشر في مجلات ودوريات محترمة ولها قيمتها. إذن فالتصريحات العامة لبعض العلماء ومنظّماتهم الدولية الذي قالوا أنّ العلم لا يمتّ بصلة للخارق للطبيعة قد كذّبتهم الحقائق. تلك حقيقة أنّ العلم بشكل عام يجعل الافتراض يسمّى "بالطبيعية المنهجية methodological naturalism" والتي تشير إلى الاتفاق المفروض ذاتياً الذي يضع الحدود للملاحظة الموضوعية للعالم ويسعى بشكل عام (لكن، كما سنرى لاحقاً، ليس بالضرورة) خلف تفسيرات طبيعية لكافة الظواهر.

---

(8) فيكتور ستينغر، الكون القابل للفهم: من أين تأتي قوانين الفيزياء؟. يحتوي على مناقشة كاملة عن طبيعة المادّة وكيانات طبيعية أخرى. Victor J. Stenger, The Comprehensible Cosmos: Where Do the Laws of Physics Come From? (Amherst, NY: Prometheus Books, 2006).

وغالباً ما يتمّ الخلط بين "الطّبيعية المنهجية" وبين "الطبيعية الميتافيزيقية"، والتي تفترض أنّ الواقع بذاته طبيعي بحت، وهو مكوّن من الأجسام المادية فقط. في حين أنه من غير الممكن إنكار أنّ أغلب العلماء الفيزيائيين، على الأقل، يرون أنّ هذه هي الحقيقة، لا يستطيعون إثبات ذلك. علاوةً على ذلك، ليست لهم أي حاجة للمحاولة بها آنّه في النهاية ليس سؤالاً علمياً سهلاً للحكم التجريبي. فإذا كان كذلك، فسيكون عندها في مجال الفيزياء وليس الميتافيزيقا.

في هذا الكتاب سأبيّن أنّ ظواهر طبيعية، مادية معيّنة متضمّنة بفرضية الله. فمراقبة أي ظاهرة من هذه الظواهر سيتعارض مع أي محاولة وصف عقلانية طبيعية أو مادية.

بغضّ النظر عن الأدب الفلسفي والتاريخي خلال القرن الماضي الذي وصف تاريخ العلم كسلسلة من الثورات والانقلابات و"التغيّرات في النماذج Paradigm Shifts[9]"، فالفكرة الجوهرية عن المادّة والعمليات المادية لم تتغيّر منذ زمن نيوتن ـ بل تطوّرت فقط[10]. أيّ شيء يمكن إظهاره لانتهاك تلك المبادئ، لامتلاك خواص مختلفة عن تلك التي ارتبطت بالمادة منذ أمدٍ بعيد، سيكون ذو أهمية كبيرة أننا ـ بالرغبة لمصطلح أفضل ـ قد نطلق عليها خارقة للطبيعة.

كل ما يمكن أن نقول بالنظر إلى المعرفة العلمية الحالية، هذا الكون الذي نراقبه بحواسنا وأدواتنا العلمية يمكن وصفه في سياق المادة والعمليات الطبيعية المادية فقط. بالتأكيد سيبحث العلماء أولياً عن أيّ تفسير مادي لأي ظاهرة جديدة بما أنّ

---

(9) توماس كون: بنية الثورات العلمية. Thomas Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (Chicago: University of Chicago Press, 1970).

(10) ستيفن واينبرغ، الثورة التي لم تحصل. Steven Weinberg, "The Revolution That Didn t Happen," New York Review of Books, October 8, 1998.

الاقتصاد في التفكير يستلزم منّا أن نسعى وراء النماذج الأبسط أولاً، تلك النماذج التي تجعل القلّة الجديدة، فرضيات غير مجرّبة. بأيّ حال، هل يجب أن تفشل جميع التفسيرات المادية، فليس هناك أي شيء يوقف عملية الاختبار التجريبية للفرضيات التي تتجاوز فرضيات العلم المادية التقليدية.

فجوات للإله؟

مدركين جيداً بأنّ وجود الله ليس مثبتاً من عدم اكتمال العلم فقط، بعض رجال الدين والعلماء المؤمنين الآن يزعمون أنّهم أماطوا اللثام عن فجوات تتخلّل النظريات العلمية والتي لا يمكن ملؤها إلا بوجود كائن خارق من خارج عالمنا المادي. فهم يصرّحون وبجرأة أنّ العلم لا يمكنه تفسير مثل هذه الظواهر و _علاوةً على ذلك_ لن يستطيع إطلاقاً. "الدلائل" الجديدة مستندة على المزاعم التي تقول أنّ تعقيد الحياة لا يمكن اختصاره والتقليل منه، ولن يحدث ذلك أبداً، إلى عمليات طبيعية (مادية) خالصة. كما أنهم يؤكّدون أنّ الثوابت والقوانين الفيزيائية متناغمة بشكل جيد لدرجة أنه من غير المعقول أن تكون قد وجدت من تلقاء نفسها وبطريقة طبيعية، وأنّ أصل الكون الفيزيائي والقوانين التي تحكمه لا يمكن أن تكون قد "جاءت من العدم" من دون تدخّل أو رعاية ما ورائية. المؤمنون أيضاً يأتون بنتائج من تجارب صارمة مزعومة يقولون بأنهم من خلالها يقدّمون دليلاً تجريبياً عن عالم يقع في ما وراء المادة ولا يمكن تفسيره من خلال العمليات المادية وحدها.

من أجل التقدير وبكفاءة مصداقية هذه المزاعم، يجب أن نكون حذرين لتحديد موقع عبء البرهان بشكل صحيح. ذلك العبء يستقرّ على أكتاف أولئك الذين يؤكّدون أنّ العلم لن يقدر أبداً على تفسير بعض الظواهر بطريقة طبيعية، بمعنى، توصيف الظاهرة من خلال نموذج يتضمّن على عناصر وعمليات مادية فقط. فإذا

نجح نموذج علمي معقول في الثبات والتناسق مع كل المعرفة المتوفّرة لدينا، عندها ستسقط الادّعاءات. ذلك النموذج لا يحتاج إلى تقديم إثباتات وبراهين على أنه صحيح، بل يبقى أن نأتي ببراهين تكذّبه وتنفي عنه الصّحّة.

إذا أمكننا في أحد الأيام إيجاد طرق معقولة نملأ من خلالها كافة الثغرات والفجوات التي تتخلّل معرفتنا العلمية، عندها ستسقط كافة الحجّج والادّعاءات التي تشير إلى وجود الله مرة وإلى الأبد. عندها يمكننا الوصول إلى نتيجة أنّ الله لا يحتاج إلى أن نتوصّل إليه في النماذج التي نبنيها لوصف ظاهرة جديرة بالملاحظة من قبل البشر. طبعاً، هذا يبقى الاحتمال مفتوحاً أنّ هناك إلهاً موجوداً تظلّ الحاجة إليه لتفسير ظاهرة خارج عالم أو مجال الملاحظة الإنسانية الحالية. قد نجده في بعثة فضائية مستقبلية، أو من خلال تجربة نجريها في مسرّع عملاق للجسيمات. بأيّ حال، ذلك الإله سوف لن يكون الإله الذي يلعب دوراً محورياً هاماً في حياة البشر. فهذا ليس إلهاً.

استقصاء الدليل ضدّ الله

إنّ تقييم الحجج التي تقول أنّ العلم اكتشف برهاناً على الله هو جزء من عملي، والذي كان قد اكتمل وأنجز على أكمل وجه في كتابي "هل وجد العلم الله؟" وقلقي الأسامي هنا سيكون في تقييم الحجج الأقل ألفةً والتي قدّم من خلالها العلم دلائل ضدّ وجود الله.

العلمية التي سأتّبعها هي المنهج العلمي في اختبار الفرضيات. فوجود الله سيتمّ أخذه كفرضيّة علمية وسيتمّ بحث نتائج تلك الفرضية وفحصها في الملاحظات الموضوعية للعالم من حولنا. سيتم افتراض نماذج متعدّدة حيث لله خواص معيّنة يمكن اختبارها تجريبياً. بمعنى، إذا كان هناك إله موجود يحمل هذه الخواص، عندها

لابدّ أن نلاحظ ظواهر معيّنة. وأي فشل في تطبيق اختبار معيّن سيتمّ اعتباره فشلاً أو سقوطاً لذلك النموذج. علاوةً على ذلك، إذا كانت الملاحظات الفعلية كما هو متوقع عند غياب ذلك الإله، عندها يمكن اتخاذه كعلامة أو دليل إضافي ضدّ وجود الله.

حيث يحدث الفشل، ستظلّ هناك حجّة مفادها أنّ هناك إلهاً مخفياً ما زال موجوداً. وفي حين أنّ هذا التصريح صحيح من الناحية المنطقية، فالتاريخ والتجربة العامّة تقدّم لنا عدّة أمثلة حيث، في النهاية، أنّ غياب الدليل قد أصبح دليلاً على الغياب. بشكلٍ عام، عندما لا يكون لدينا دليل أو أي سبب آخر يجعلنا نؤمن بإله من نوع ما، عندها يمكننا أن نكون متأكّدين بأنّ ذلك الإله غير موجود. ليس لدينا أيّ دليل على وجود "بيغ فوت Bigfoot"، رجل الثلج البغيض، ووحش بحيرة نيس Loch Ness Monster، لذا فإننا لا نؤمن بوجودها. إذا لم يكن لدينا دليل أو أيّ سبب آخر للإيمان بالله، عندئذٍ يمكننا أن نكون متأكّدين بأنّ الله غير موجود.[11]

[11] كيث بارسونز، الله وعبء البرهان: بلانتينغا، سوينبورن، والدفاع التحليلي عن الإيمان بالله. Keith Parsons, God and the Burden of Proof: Platinga, Swinburne, and the Analytical (Defense of Theism (Amherst, NY: Prometheus Books, 1989

منبع الأخلاق: هل نستمدّ أخلاقنا من عند الله؟

مترجم عن : البروفسور فيكتور ستينغر

هل نستمدّ أخلاقنا من عند الله؟ العلم يقول: كلا...

- ما الحق؟

لطالما زعمت جميع أديان العالم، وبشكل خاص الديانة المسيحية، بأنّها الحَكَم الأقصى للسلوك الإنساني. وكثيراً ما تصرّ على أنّها تمتلك الحق لوضع الحدود بين الخير والشر، الخطأ والصواب، الجيّد والسيىء لأنّها خطّاً مباشراً يصلها إلى المكان الذي يتحدّد فيه الخير والشر: عقل الله.

وحتى المجتمعات العَلمانية تساهم في تعزيز هذا الزعم. فكلّما واجهتهم مسألة أخلاقية في السياسة، كموضوع الخلايا الجذعية أو الموت الرحيم، فإنّهم يستدعون رجال الدين لتقديم مشوراتهم وحكمتهم. من جهةٍ أخرى، نادراً ما يتمّ أخذ رأي الملحدين، المفكّرين الأحرار، والإنسانيين وكثيراً ما يتمّ إقصائهم.

إنّ خضوع أي مجتمع للدين في المسائل الأخلاقية يقوم على أساس الافتراض الشائع أنّ هناك مصدراً إلهياً مطلقاً للخير موجود في مكان ما. طبعاً كل هذا يعتمد على تعريف مفهوم الخير. إلا أنّ هناك إشكالية منطقية في ربط الخير بالأمر الإلهي. في محاورة "أوطيفرون" لأفلاطون، يلتقي سقراط بالشاب أوطيفرون يستعرض عليه معضلة. إذ يتمّ استدعاؤه لمحاكمة والده بجريمة القتل غير المتعمّد ويُطْلَبُ منه أن يقرّر بين ضميره ودعم والده أو كحاكمته وإعدامه بأمر من الآلهة.

يختار أوطيفرون محاكمة والده، بحجّة أنّه ينبغي عليه اتباع أوامر الآلهة. بأيّة حال، يخبره سقراط أنّه من الخطأ طاعة الآلهة إذا كنت تظنّ أنّ هناك خيراً أو مصلحةً أسمى.

والمؤمن يواجه معضلة مماثلة. هل يريدنا الله أن نقوم بأعمال معيّنة لأنّها صالحة وخيّرة بذاتها أو أنّها صالحة وخيّرة لأنّ الله يريد ذلك؟

لنفترض أنّ الله ظهر أمامك وطلب منك قتل ولدك، كما في قصّة إبراهيم في التوراة. هل ستطيع الله، كما فعل إبراهيم، أم أنّك ستبحث عن مصلحة أسمى بالغريزة؟

سيقول المؤمن أنّ الله لن يطلب منك شيئاً ليس ما لم يكن خيراً بالمطلق. لكنه بذلك يعترف صراحةً أنّ الله لا يحدّد ماهية الخير، وأنّ الخير موجود بشكل مستقل عن الله. فإذا كان الله وحده هو من يحدّد ما الخير وما هو الصالح، عندها بإمكانه أن يقرّر بأنّ قتل الابن هو عمل صالح.

إنّ إله العهد القديم غالباً ما يطالب بارتكاب مثل هذه الفظاعات باسمه. دعونا نلقي نظرة على بعض الأمثلة التي نادراً ما يتمّ التطرّق إليها في أيّام الآحاد.

بعد أن تمكن جيش موسى من أسر الكثير من الأسرى في إحدى المعارك، نراه يخبر جنده الذين قاموا بقتل وذبح كل ذكر بالغ باسم الرب: «فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا.17 لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ18» [العدد 31: 17-18].

في مكانٍ آخر يأمر موسى بقتل ثلاثة آلاف رجل ضرباً بالسيف بأمرٍ من الله: «27فَقَالَ لَهُمْ [موسى]: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ: ضَعُوا كُلُّ وَاحِدٍ سَيْفَهُ عَلَى

فَخْذِهِ وَمُرُّوا وَارْجِعُوا مِنْ بَابٍ إِلَى بَابٍ فِي الْمَحَلَّةِ، وَاقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ قَرِيبَهُ».» [خروج 32: 27].

أعلم أنّ أغلب المسيحيين سيبرّرون هذه الحوادث ويقولون عنها أنّها مفارقة تاريخية حَدَثَت في وقتها وقد أُلغِيَت مع مجيء المسيح. إلا أنّ المسيح في العهد الجديد يعيد تأكيد شريعة الأنبياء السابقين وترسيخها: «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ» [متّى 5: 17] كثيراً ما نرى المسيحيين وهم يتفاخرون بقيمهم "العائلية" ورغبتهم بنشر السلام والمحبّة في العالم.

لا أشكّ بأنّ أغلبهم مخلصون لعائلاتهم وأنّهم أعضاء فاعلون في المجتمع. لكنّهم ينسون أو يتناسون قول يسوع:

«لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا عَلَى الأَرْضِ. مَا جِئْتُ لأُلْقِيَ سَلاَمًا بَلْ سَيْفًا. 35فَإِنِّي جِئْتُ لأُفَرِّقَ الإِنْسَانَ ضِدَّ أَبِيهِ، وَالابْنَةَ ضِدَّ أُمِّهَا، وَالْكَنَّةَ ضِدَّ حَمَاتِهَا. 36وَأَعْدَاءُ الإِنْسَانِ أَهْلُ بَيْتِهِ. 37مَنْ أَحَبَّ أَبًا أَوْ أُمًّا أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي، وَمَنْ أَحَبَّ ابْنًا أَوِ ابْنَةً أَكْثَرَ مِنِّي فَلاَ يَسْتَحِقُّنِي» [متّى 10: 34_37].

من أين جاءت فكرة أنّ يسوع كان "أمير السلام"؟ إنّ تاريخ المسيحية مرتبط بالعنف الذي مارسته الكنيسة والذّي أقرّته بأنّه أمر إلهي و"خير". هذا الأمر الإلهي غير مقتصر على الكتاب المقدّس لكنّه متوفّر باستمرار لطبقة الكُهّان بشكل خاص. البابا أوربان الثاني (توفي سنة 1099) كان قد طمأن الملوك القروسطيين الصليبيين بأنّ قتل الكفّار والهراطقة لم يكن خطيئة. وهذا لم ينطبق فقط على المسلمين في الأرض المقدّسة. لقد تمّ قمع الديانة الكاثارية جنوبي فرنسا _التي كانت قائمة على أساس فكرة الآلهة الثنائية التي ظهرت باكراً في الديانتين الزرادشتية والمانوية[1]_ بوحشية في

[1] جان ماركل، مونتسكيو ولغز الكاثاريين

الحملة الصليبية ضدّها خلال القرن الثالث عشر. وعندما سقطت مدينة الكاثاريين المحاصرة "بيزييه" عام 1209، يقال أنّ الجنود قد سألوا مستشارهم البابوي حول كيفية تمييز المؤمنين عن الكافرين من بين الأسرى. فأشار عليهم: «اقتلوهم جميعاً. فالله يعرفهم». وبذلك تمّ قتل حوالي ألفي شخص _العديد منهم تمّ أولاً فقء عينيهم، جدع أنوفهم وبتر أطرافهم، وجرّهم خلف الأحصنة، أو التصويب عليهم بالسهام[2]. إذا كان حلّنا لمعضلة أوطيفرون يتمثّل في تحديد كل ما يقول الله أنّه "خير" كخير، حيث أنّ كلمة الله محدّدة كما جاءت في الكتب المقدّسة، عندئذٍ سيكون الجنود اليهود والمسيحيون مُلْزَمون أخلاقياً بقتل كل مدني أو جندي عدو _باستثناء الفتيات العذراوات، فهم لديهم التزام أخلاقي آخر يتمثّل في اغتصابهنّ والتمتّع بهن.

إذا كان المطلوب منهم أن يأخذوا الكتاب المقدّس على محمل الجدّ وبشكل حرفي كمرشد أخلاقي لهم، عندئذٍ سيكون لليهود والمسيحيين التزامات أخلاقية أخرى. على سبيل المثال، إنّهم ملزمون بقتل أي فرد من العائلة يحاول حرفهم عن ديانتهم ودفعهم لتغييرها إلى دين آخر:

«وَإِذَا أَغْوَاكَ سِرًّا أَخُوكَ ابْنُ أُمِّكَ، أَوِ ابْنُكَ أَوِ ابْنَتُكَ أَوِ امْرَأَةُ حِضْنِكَ، أَوْ صَاحِبُكَ الَّذِي مِثْلُ نَفْسِكَ قَائِلاً: نَذْهَبُ وَنَعْبُدُ آلِهَةً أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا أَنْتَ وَلاَ آبَاؤُكَ 7مِنْ آلِهَةِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ حَوْلَكَ، الْقَرِيبِينَ مِنْكَ أَوِ الْبَعِيدِينَ عَنْكَ، مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَائِهَا، 8فَلاَ تَرْضَ مِنْهُ وَلاَ تَسْمَعْ لَهُ وَلاَ تُشْفِقْ عَيْنُكَ عَلَيْهِ، وَلاَ تَرِقَّ لَهُ

Markale, Jean. Montségur and the Mystery of the Cathars. Translated by Jon Graham (Rochester, VT: Inner Traditions, 2003).

[2] للإطلاع أكثر على هذه القصة وغيرها من القصص الفظيعة في سبيل الدين، راجع كتاب جيمس هاوت، أهوال مقدّسة: تاريخ مصوّر للجنون والإجرام الدينيين

Haught, James A. Holy Horrors: An Illustrated History of Religious Murder and Madness (Amherst, NY: Prometheus Books, 1990).

وَلاَ تَسْتُرْهُ، 9بَلْ قَتْلاً تَقْتُلُهُ. يَدُكَ تَكُونُ عَلَيْهِ أَوَّلاً لِقَتْلِهِ، ثُمَّ أَيْدِي جَمِيعِ الشَّعْبِ أَخِيرًا.
10تَرْجُمُهُ بِالْحِجَارَةِ حَتَّى يَمُوتَ، لأَنَّهُ الْتَمَسَ أَنْ يُطَوِّحَكَ عَنِ الرَّبِّ إِلهِكَ الَّذِي
أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. 11فَيَسْمَعُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ وَيَخَافُونَ، وَلاَ
يَعُودُونَ يَعْمَلُونَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ الشِّرِّيرِ فِي وَسَطِكَ.» [التثنية 13: 6-11]

- كما أنّهم ملزمون أخلاقياً يقتل أي شخص يعمل في يوم السبت:

«وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابعُ فَفِيهِ سَبْتُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ صَنَعَ عَمَلاً فِي يَوْمِ السَّبْتِ يُقْتَلُ قَتْلاً» [خروج 31: 15]

تصوّروا الخراب والدمار اللذان سيحلاّن بالعالم إذا سيطر مسيحيو أمريكا على ما كل ما لديهم من ترسانة أسلحة نصف أوتوماتيكية ليقتلوا بها كل من سوّلت له نفسه بالعمل يوم الأحد.

يقترح بعض رجال الدين أنّ الرب لديه أساليب وأسباب غامضة ليصدر مثل هذه الأوامر الفظيعة لا نستطيع فهمها واستيعابها نحن البشر العاديون. هل هذا يعني أن ننفّذ هذه الأوامر بغضّ النظر عمّا يمليه علينا ضميرنا؟ حتى وإن ظهر الله أمامي وهدّدني بعذابه الأبدي إذا لم أقتل إبني، فلن أقدم على ذلك. وأتصوّر أنّ باقي الآباء والأمّهات سيفعلون نفس الشيء.

من الواضح أنّ بعض اليهود والمسيحيين المعاصرين يأخذون هذه المقاطع الكتابية على محمل الجدّ وبالمعنى الحرفي. لكن هذا من شأنه جعلهم معلّقين بين قرنيّ معضلة أوطيفرون. فإذا لم يكن الله هو من يحدّد ما هو الخير والصواب، فمن يفعل إذن؟

طبعاً القرآن كتاب دموي مثله كمثل العهد القديم. ويمكن قراءة الكثير من الآيات والإشارات للأهوال الفظيعة التي تنتظر الكفّار والمشركين. بطبيعة الحال، الله نفسه هو من ينفّذ تلك العقوبة بيديه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} [النساء 4: 56] أمّا أولئك الذين يحاربون الإسلام فيجب معاملتهم بقسوة وغلظة، لكن يمكن استتابتهم: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (33) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [المائدة 5: 33-34] طبعاً، كل دين يوجد فيه عدّة متطرّفين يتّبعون حرفياً ما يعتبرونه أنّه أمر الله ومشيئته:

_ يغال أمير، الذي اغتال رئيس الوزراء الإسرائيلي يتسحاق رابين عام 1995، كان يهودياً متطرّفاً، وقد قال معلناً في المحكمة قائلاً: "كل ما فعلته، فعلته في سبيل الله"[3]

_ بول هيل، الذي قتل الطبيب جون بريتون في فلوريدا عام 1994 لأنّه يمارس الإجهاض، وقد صرّح قبل إعدامه عام 2003 قائلاً: "يشرّفني جداً أنّهم سيقتلونني بفضل ما قمت به. بصراحة، أنا متأكّد تماماً بأني سأنال مكافأة عظيمة في السماء لطاعتي لأمر الله"[4]

---

[3] تقرير للسي إن إن، 27 آذار/ مارس 1996 على العنوان
http://www.cnn.com/WORLD/9603/amirlverdict/ (accessed December 9, 2004).

[4] أسوشياتيد برس 2 أيلول/ سبتمبر 2003 على العنوان
http://www.fadp.org/news/TampaBayOnline-20030903.htm%20(accessed%20December%209,%202004).

_ في 23شباط/ فبراير عام 1998، أعلن أسامة بن لادن: "نحن _بمشيئة الله_ ندعو كلّ مسلم يؤمن بالله وينتظر مكافأة في الآخرة أن يطيع أمر الله بقتل الأمريكان وسلب أموالهم حيثما ثقفهم"[5].

لكن، ولحسن الحظ، إنّهم يشكّلون الاستثناء، وليس القاعدة. علاوةً على ذلك، سيكون من الصعب أن نطلب من هؤلاء المتطرّفين إشارات من كتبهم المقدّسة وجدوا فيها أوامر إلهية يأمرهم فيها الله لارتكاب أعمالهم الوحشية.

كيف إذن بإمكان المؤمن تقرير ما الصواب والخطأ؟ فنادراً ما نجد أحدهم يمضي بعيداً جداً بادّعائه بأنّه يسمع صوت الله ويأخذ أوامره منه مباشرةً. بالإضافة إلى أنّهم يعتمدون على رجالات دياناتهم: حاخامات، كهنة، قساوسة، وأئمّة ليحدّدوا لهم أين الصواب وأين الخطأ. في أغلب الحالات، يقيم هؤلاء المستشارون أحكامهم بالرجوع إلى كتبهم المقدّسة وتعاليم مؤسّسي دياناتهم وزعمائهم الدينيين. لكنّ هؤلاء المؤسّسين والزعماء أيضاً يختارون ويحكمون بناءً على شيء معيّن _مصالحهم ومشاعرهم الداخلية الخاصّة. وكما سنرى لاحقاً، ليس لديهم أي سبب منطقي مقنع للقول بأنّ تلك المشاعر والأحاسيس الداخلية الخاصّة من لَدُن الله.

مُثُل نبيلة:

طبعاً إنّ الكتب المقدّسة الثلاث _اليهودية، المسيحية، والإسلامية_ تحتوي العديد من المقاطع والآيات التي تعلّمنا مُثُلاً وتعاليم نبيلة تبنّاها البشر واتّخذوها أنماطاً ومعايير أخلاقية للسلوك، وكانت مناسبة لتسجيلها على شكل شرائع وقوانين.

---

[5] اتحاد العلماء الأمريكيين على الشبكة العنكبوتية على العنوان
http: / /www.fas.org /irp /world /para /docs /980223-fatwa.htm%20(accessed%20December%209,%202004).

لكن ومن دون استثناء، تطوّرت هذه المبادئ بشكل مستقلّ عند ثقافات أخرى ويشير التاريخ إلى أنّها جرى اكتسابها بشكل طبيعي بدلاً من تعلّمها عن طريق دين. صحيح أنّ الديانات تبشّر بوصايا وتعاليم أخلاقية. كل ما في الأمر أنّها لا تمتلك أي أساس لزعمها بتأليف هذه الوصايا وابتكارها. على الأرجح أنّ المبدأ الأخلاقي الأساسي الذي يمكن العيش وفقه حياةً أخلاقية هو "القاعدة الذهبية": عامل الآخرين كما تحبّ أن يعاملوك.

في مجتمعنا الغربي ذو الأغلبية المسيحية، أغلب الناس يفترضون أنّ هذا المبدأ كان من أحد التعاليم الأساسية التي بشّر بها يسوع في موعظة الجبل. ولسبب ما، فإنّ مبشّريهم _العارفين أفضل من غيرهم_ قد عملوا جاهدين على تخليدهم هذا الزور.

في الحقيقة، يسوع نفسه لم يزعم لنفسه ذلك. هذا ما قاله بالضبط، حسب الإنجيل: «12فَكُلُّ مَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا هكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ» [متّى 7: 12]

طبعاً إنّ عبارة «بَلْ تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَمَا تُحِبُّ نَفْسِكَ» التي ترد في سفر اللاويين 19: 18 كانت معروفة بألف عام أو أكثر قبل المسيح. علاوةً على ذلك، إنّ القاعدة الذهبية ليست ملكية حصرية مقتصرة على قبيلة صحراوية صغيرة ذات اعتداد عال بالنفس. هنا نورد بعض المراجع الأخرى التي ذكرت القاعدة الذهبية:

_ يقول كونفوشيوس في "مذهب اللئيم 13" الذي كُتِبَ حوالي عام 500 ق.م «لا تعامل الآخرين كما تكره أن يعاملوك»

_ يقول إيسوقراط (375 ق.م): «لا تفعل للآخرين ما سيغضبك إذا هم فعلوه لك»

_ جاء في المهابهارتا الهندوسي الذي كُتِبَ حوالي عام 150 ق.م: "هذه خلاصة طريق الحق: عامل الآخرين كما تريد أن يعاملوك"(6)

يحثّ يسوع أتباعه في موعظته على الجبل: "لاَ تُقَاوِمُوا الشَّرَّ، بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الآخَرَ أَيْضًا" [متّى 5: 39]

وأيضاً: "سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. 44وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ" [متّى 5: 34-44] مرةً أخرى، تعتبر هذه التعاليم بشكلٍ عام على أنّها تعاليم مسيحية أصيلة. لكن هناك تعاليم مماثلة موجودة في مكان آخر(7):

_أعامل أولئك الجيّدين بشكلٍ جيد. وأعامل السيئين بشكلٍ جيد. وبهذا يتمّ تحقيق الخير. أنا صادق مع أولئك الصادقين. كما أنّي صادقٌ مع غير الصادقين. ولهذا تتحقّق النزاهة. [التاو، تاو تي تشينغ، 49]

_ تغلّب على الغاضب بالحب. تغلّب على الشرير بالخير. تغلّب على البخيل بالعطاء. تغلّب على الكذّاب بالصدق والحقيقة. [البوذية، دامّابادا 223]

_ الكائن السامي لا يردّ الشر بالشر، وهذا مبدأ علينا ملاحظته، فزينة العقلاء الأتقياء هي سلوكهم. لا يجب أن يؤذي الإنسان الشرير أو الصالح أو حتى المجرمين الذين يستحقّون الموت. الروح النبيلة ستتعامل بلطف وشفقة حتى مع أولئك الذين يجدون متعة في جرح الآخرين أو أصحاب الأفعال الغليظة والوحشية عندما

---

(6) لتصريحات تاريخية أخرى حول القاعدة الذهبية أنظر: مايكل شيرمر، علم الخير والشر: لماذا يغشّ الناس، يثرثرون، يهتمّون، يتشاركون، ويتبعون القاعدة الذهبية، صـ 23

Shermer, Michael, The Science of Good Evil: Why People Cheat, Gossip, Care, Share, and Follow the Golden Rule (New York: Times Books, 2004), p. 23.

(7) مع الشكر الجزيل لإليانور بينينغز لتقديمها لهذه الاقتباسات.

يرتكبونها بالفعل _فمن ذاك الذي لا يخطئ؟. [الهندوسية، رامايانا، يودا كاندا 115] لا يوجد مفهوم أخلاقي معتبر واحد أصيل في العهد الجديد.

في بداية القرن العشرين كتب الكاهن والمؤرّخ جوزيف مكّابي قائلاً: "التعاليم المنسوبة للمسيح هي... موجودة أصلاً في العهد القديم... كما أنّها كانت مألوفة ضمن المدارس اليهودية، ولجميع أولئك الفريسيين، قبل المسيح بزمنٍ طويل، كما أنّها كانت معروفة في جميع الحضارات: البابلية، المصرية، والفارسية، الإغريقية، والهندوسية"[8] وكما هو حال الكتاب المقدّس، فالقرآن يحتوي الكثير من التعاليم التي سيصنّفها أغلبنا على أنّها حميدة. إنّها تقول للمسلمين أن يعاملوا أهلهم بشكل حسن، وألا يسرقوا مال الأيتام، أن يحذروا الربا، أن يساعدوا المحتاجين، وألا يقتلوا أولادهم إلا إذا كانت في ذلك ضرورة. لكنّ هذه التعاليم ليست مبادئ أخلاقية أصيلة. إذ أنّنا نجد في الكتابات والتعاليم الأخرى للديانات التوحيدية الكبرى تكرار للمُثُل الشائعة التي ظهرت أثناء عملية التطور التدريجية للمجتمعات البشرية، كلّما أصبحت أكثر تحضّراً، وطوّرت عمليات تفكير عقلانية، واكتشفت كيف تعيش مع بعضها البعض بتناغم أكبر. يشير الدليل إلى مصدر آخر غير الوحي الإلهي المزعوم في هذه الكتب المقدّسة.

رصد السلوك الأخلاقي:

نادراً ما يتمّ إعمال المنظور العلمي ضمن نقاشات حول الأخلاق. بأيّة حال، إنّ سلوك الإنسان في السياقين الشخصي والاجتماعي يشكّل ظاهرة قابلة للرصد

[8] جوزيف مكّابي، أصل الأخلاق في الإنجيل، صـ 209

McCabe, Joseph. The Sources of Morality of the Gospels (London: Watts and Co., 1914), p. 209.

والملاحظة. هذه الملاحظات يمكن استخدامها كبيانات تجريبية ضمن دراسة علمية للقيم والمبادئ الأخلاقية. دعونا نلقي نظرة على بعض الحقائق حول السلوك الإنساني الذي بإمكاننا جميعاً ملاحظته بالنظر حولنا ببساطة.

غالبية الكائنات البشرية تتصرّف بأخلاقية أكثر أو أقل من خلال مجموعة من المعايير المقبولة بشكل عام. في حين أنّنا نعيش في مجتمع القانون، إلا أنّ أغلب ما نقوم به غير محدّد بقانون بل يؤدّى بشكل طوعي. على سبيل المثال، لدينا الكثير من الفرص للغشّ والسرقة في مواقف تكون فيها نسبة إمكانية الإمساك بنا شبه معدومة، إلا أنّ أغلبنا لا يفعل ذلك. في حين أنّ القاعدة الذهبية لا تطاع بشكل حرفي، لكننا لا نسعى لإلحاق الأذى بالآخرين بشكلٍ عام.

طبعاً غالباً ما نكون متعاطفين عندما نرى شخصاً أو حيواناً يمرّ بمحنة وسرعان ما نبذل جهدنا لمساعدته. نحن نتوقّف في حالات وقوع حوادث السيارات ونهبّ للمساعدة. نحن نتّصل بالشرطة عندما نشاهد جريمة. نحن نهتمّ بأولادنا، أهالينا العجزة، وغيرنا من الأشخاص الأقل حظاً منا. نحن نقوم بأعمال فيها الكثير من الخطر والمجازفة بشكل طوعي، كما في حالة الخدمة العسكرية والمدنية، وذلك لحماية المجتمع.

في حين أنّ غالبية الناس سينسبون سلوكهم الأخلاقي لتعاليم أديانهم، إلا أنّه لا يوجد دليل واحد يشير إلى أنّ الأشخاص الذين لا يتبعون أو يعتنقون أي دين يتصرّفون بشكل مختلف. بل يبدو أنّهم يطبّقون نفس المجموعة من المبادئ الأخلاقية.

طبعاً إنّ هذه المجموعة الشائعة من المبادئ الأخلاقية ليست مساوية لكامل المجموعة من المبادئ. فليس هناك اتفاق بين الجميع على كل مسألة أخلاقية.

هذه الاختلافات يمكن لمحها حتى ضمن مجتمعات دينية محدّدة، حيث يتمّ الرجوع إلى الكتابات المقدّسة لتبرير أعمالاً متناقضة.

مثال على ذلك، التأويلات المتناقضة والمتعارضة للوصايا ضدّ القتل التي نجدها ضمن المجتمع المسيحي. فالكاثوليك والبروتستانت المحافظين يؤوّلون هذه الوصايا بمنع الإجهاض، الموت الرحيم، وأبحاث الخلايا الجذعية من بين أعمال كثيرة أخرى. بأيّة حال، هناك العديد من الأشخاص ضمن هذه الجماعات من المؤمنين لا يرون تحريماً للعقوبة القصوى، بل إنّهم يشيرون إلى المبدأ التوراتي "العين بالعين". المسيحيون الليبراليون، من جهةٍ أخرى، قد يؤوّلون هذه الوصايا كتحريم للعقوبة القصوى، في حين أنّهم لا يرون مانعاً لإجراء عمليات الإجهاض، الموت الرحيم، وأبحاث الخلايا الجذعية.

يقول الفيلسوف تيودور شايك، كلا معسكريّ الخلاف حول مسألة الإجهاض يريان أنّ القتل عمل غير أخلاقي. أمّا ما يختلفان حوله فهو في طبيعة الجنين _حول ما إذا كان الجنين من نوع الكيانات التي يمكن قتلها. بمعنى آخر، غالبية الخلافات الأخلاقية ليست حول ما هو الخطأ وما الصواب، بل حول جانب آخر من الواقع.[9]

الكتاب المقدّس لا يوضّح لنا بالضبط ما يمكن قتله وما لا يمكن قتله. إنّه لا يحرّم ولا يحلّل قتل الجنين أو الخلايا الجذعية. لكنّه يحلّل قتل الأعداء بالتأكيد، أولئك الذين لا يؤمنون بيهوه.

---

[9] تيودور شايك الابن: "هل الأخلاق مسألة ذوق؟ لماذا يعتقد المفكرون الأخلاقيون المحترفون أنّ الأخلاق ذاتية بحتة". مجلّة سؤال حرّ، العدد الرابع، 1998؛ 32-34

Schick, Theodore Jr., "Is Morality a Matter of Taste? Why Professional Ethicists Think that Morality is Not Purely Subjective," Free Inquiry 18, No. 4 (1998): 32–34.

المجتمع الصالح:

طوال قرون عديدة، كان الأوروبيون (كغيرهم من الشعوب الأخرى) محكومين من قبل حكّام مستبدّين وطغاة عاشوا حياةً رغيدة في حين أنّ السواد الأعظم من الشعب كان يرزح تحت فقرٍ مدقع وتحت رحمة رغبات الحاكم ونزواته في كافة مجالات حياتهم. بغضّ النظر عن قسوته أو وحشيته أو عدم كفاءته، كان الحاكم يزعم لنفسه حقاً إلهياً مقتصراً على الملوك وحدهم. فما السبب وراء اعتلائه للعرش لولا أنّ الله لا يريده أن يكون هناك؟ بنفس الشكل، ولقرون طويلة كان الإسلام مشهوراً بالحكّام الطغاة ذوي السلطات المطلقة.

للإسلام والمسيحية تاريخ طويل من الطغيان والاستبداد ولم يظهرا ميلاً كبيراً نحو الحريات الشخصية العدالة. وقد تضاءل تأثيرهما بعد التنوير وحلول سلطة العقل.

إحدى الأساطير الشائعة في أمريكا المعاصرة هي أنّ الأمّة الأمريكية قد جرى تأسيسها على "المبادئ المسيحية". والحال أنّنا لا نجد ولا أيّة إشارة إلى الله في الدستور الأمريكي. وكلمة "الخالق" في إعلان الاستقلال ليست إشارة إلى الإله المسيحي بل الإله الربوبي للتنوير وتوماس جيفرسون. غالبية الرؤساء الأوائل لم يكونوا مسيحيين مخلصين أو حقيقيين وكانوا يقيمون التزاماتهم في الحرية، الديمقراطية، والعدالة على أساس فلسفة التنوير، وليس المصادر الكتابية.

لا يوجد في الكتاب المقدّس أيّة مبادئ تمّت إقامة أنظمة ديمقراطية وعدلية حديثة على أساسها. والرق خير مثال على ذلك. فالكتاب المقدّس لا يغفر الرق والعبودية ويتسمح معها فحسب، بل إنه يشجّع عليها:

«إِذَا اشْتَرَيْتَ عَبْدًا عِبْرَانِيًّا، فَسِتَّ سِنِينَ يَخْدِمُ، وَفِي السَّابِعَةِ يَخْرُجُ حُرًّا مَجَّانًا» [خروج 21: 2] «إِنْ أَعْطَاهُ سَيِّدُهُ امْرَأَةً وَوَلَدَتْ لَهُ بَنِينَ أَوْ بَنَاتٍ، فَالْمَرْأَةُ وَأَوْلاَدُهَا يَكُونُونَ لِسَيِّدِهِ، وَهُوَ يَخْرُجُ وَحْدَهُ» [خروج 21: 4]

توفّرت ليسوع فرص كثيرة للتبرّؤ من العبودية وإنكارها، لكنّه لم يفعل ذلك. ويؤكّد القدّيس بولس ذلك: «وَالْعَبِيدَ أَنْ يَخْضَعُوا لِسَادَتِهِمْ، وَيُرْضُوهُمْ فِي كُلِّ شَيْءٍ، غَيْرَ مُنَاقِضِينَ» [تيطس 2: 9]

خلال القرن التاسع عشر، كان يتمّ اللجوء للكتاب المقدّس بشكل واسع لتبرير الرّقّ في الولايات المتحدة. ريتشارد فورمان (توفي سنة 1825) _زعيم معمداني ومالك عبيد_ وضع أسس الحجج الكتابية التي تدعم العبودية والرق وتبرّرهما حتى الحرب الأهلية. وعندما كان يشغل منصب رئيس المؤتمر المعمداني الحكومي، كتب فورمان خطاباً وجّهه إلى حاكم ولاية جنوب كاليفورنيا يقول فيها: «إنّ الحقّ بامتلاك العبيد موجود في الكتاب المقدّس بالنصيحة والمثال»(10). جامعة غرينفيل بجنوبي كاليفورنيا تأسّست عام 1826 وسُمّيت تيمّناً به، ويمكن رؤية كتاباته ضمن أرشيفها.

يقول جيفرسون ديفيز، رئيس الائتلاف، زاعماً أنّه يلتزم بما جاء في الكتاب المقدّس: «[الرّقّ] قائم على شريعة الرب... وهو محلّل في الكتاب المقدّس، بكلا العهدين، من التكوين إلى الرؤيا»(11)

(10) ريتشارد فورمان.

http: / /alpha.furman.edu /benson /docs /rcd-fmn1.htm (accessed December 1, 2004).

(11) جيفرسون ديفيز، "في خطاب تنصيبه كرئيس مؤقّت للاتحاد".

كان بابوات الكنيسة الكاثوليكية وكرادلتها يملكون عبيداً حتى نهاية عام 1800. وكان اليسوعيون في مستعمرة ماريلاند والراهبات في أوروبا وأمريكا اللاتينية يملكون عبيداً أيضاً. الكنيسة لم تستنكر الرّق والعبودية حتى عام 1888، بعد أن أبطلت جميع أرجاء الأمة المسيحية هذه العادة(12).

يشير الباحث الكاثوليكي المشهور جون نونان الابن أنّ الكنيسة قد أنكرت تقليدياً أنّها قد حرّفت أو غيّرت أياً من تعاليم يسوع والرسل.(13) يستعرض لنا الباحث وبإسهاب من خلال مثال العبودية وغيرها من الأمثلة الأخرى كيف أنّ تعاليم الكنيسة قد تغيّرت مع الزمن.

والآن، سيقول المؤمنون أنّ الحملة لإلغاء العبودية في الولايات المتحدة وكل مكان كان يقودها مسيحيون، لكن من الواضح أنّ هؤلاء المناصرين لإلغاء العبودية لم يكونوا يسترشدون بكلام الكتاب المقدّس حرفياً بل بتأويلهم الخاص له وإحساسهم الداخلي بالصالح العام والخير الأسمى _وهذا دليل إضافي على أنّ القيم لم تأت من عند الله.

أخيراً دعونا نذكر وباختصار الاضطهاد التاريخي للمرأة وقمعها. يقول الرسول بولس: «أَيُّهَا النِّسَاءُ اخْضَعْنَ لِرِجَالِكُنَّ كَمَا لِلرَّبِّ، لأَنَّ الرَّجُلَ هُوَ رَأْسُ الْمَرْأَةِ كَمَا أَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضًا رَأْسُ الْكَنِيسَةِ، وَهُوَ مُخَلِّصُ الْجَسَدِ» [أفسس 5: 22-23]

Davis, Jefferson. " Inaugural Address as Provisional President of the Confederacy. " Montgomery, AL, Feb. 18 1861. Confederate States of America Congressional Journal 1 (1861): 64-66.

(12) جون نونان الابن، الكنيسة التي يمكنها ولا يمكنها التغيير: تطوّر التعاليم الأخلاقية الكاثوليكية، 2005
Noonan, John T. Jr, A Church that Can and Cannot Change: The Development of Catholic Moral Teaching (Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press, 2005).

(13) المصدر السابق.

لقد بدأت المجتمعات الغربية أخيراً بإدراك اللامعقولية والإجحاف في معاملة المرأة على أنّها كائن أدنى مرتبة، وهذا يقدّم دليلاً واضحاً آخر على كيفية تطوّر الشعور بالصواب والخطأ لدى الأمم باستقلال عن التعاليم الدينية.

مصدر داخلي:

غالبية اللاهوتيين سيعترفون علانية أنّه لا يمكن أخذ أي تصريح في الكتاب المقدّس أو القرآن على محمل الجدّ أو بمعناه الحرفي، حيث أنّ هناك العديد من المقاطع والآيات المجازية. إنّهم يصرّون على أنّ هناك الكثير من التعاليم الإيجابية والصالحة ضمن هذه الكتب المقدّسة، وأنا أوافقهم الرأي. وأقرّ هنا بأني قمت باختيار بعض الآيات السلبية والشريرة. لكنّني لم أختلق شيئاً من عنديّاتي. إنّها _وغيرها من الآيات التي تصبّ في نفس الإناء_ موجودة بالأبيض والأسود لتقرأها بنفسك. وقد حاولت اختيار بعض الإشارات الواضحة التي تشير إلى وجود حالة عدم التزام عالمية واسعة بما يفترض أنّه كلام الله نفسه، حتى بين أتقى الناس وأكثرهم إيماناً وتديّناً.

طبعاً بإمكان المؤمنين الخروج بمختلف التفاسير لأي شيء في الكتاب المقدّس والتي تناقض وجهة نظرهم الخاصّة حول ماهية الإله الرحيم. إنّهم يرسمون يسوع المسيح على صورتهم الخاصّة.

في كلّ مرّة يقوم فيها رجل دين بإعادة تفسير أو تأويل كلام موسى، أو عيسى، أو محمد، فإنّه يعيد تعزيز الفكرة التي أناقشها هنا: نحن البشر نحدّد ما الخير حسب معايير موجودة خارج الكتب المقدّسة. لا جدال أنّ الغالبية الساحقة من اليهود، المسيحيين، المسلمين، وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى لا يتبعون بشكل حرفي كل ما ورد في كتبهم المقدّسة، بل إنّما يقرّرون بأنفسهم ما الصالح وما الطّالح، وحسب معاييرهم الخاصة. بات من الصعب رؤية أي يهود أو مسيحيين، باستثناء الكثير من

المسلمين، وهم يرتكبون أعمال عنف اليوم في سبيل المقدّس وباسم الله. وباستثناء بعض المتطرّفين طبعاً، فإنّ أغلب رجالات الدين في يومنا هذا لا يشجّعون أتباعهم على ارتكاب مثل هذه الأعمال. بأيّة حال، مع أنّهم قد يعترضون على كلامي هذا، فأنا أرى أنّ رجال الدين هؤلاء وأتباعهم يعتمدون على حسّهم الأخلاقي الداخلي الخاص بالصواب والذي يتعالى ويتجاوز التعاليم الحرفية لكتبهم المقدّسة. وكحقيقة تجريبية عامّة، فنحن نلاحظ أنّ هناك عدد ضئيل من المؤمنين في أيّ دين يشعرون أنّهم مُلزَمون بإطاعة تعاليم كتبهم المقدّسة بشكل حرفي. لكنّ المجتمع كفيل بكبح ومعاقبة كل من تسوّل نفسه القيام بذلك.

الغالبية العظمى من المؤمنين يقرّرون لأنفسهم ما الأخلاقي من غير الأخلاقي. وعندما يقوم ملحد أو إنساني بنفس الشيء، فإنّهم يتّهمونه بـ"النسبية الأخلاقية" أو "بالنزعة الذاتية" حيث كل شيء "مقبول". إلا أنّه ليس جميع المتطرّفين لكن أغلبهم، هؤلاء الذين ينبغي سجنهم وإبعادهم عن المجتمع، يسترشدون بما يملي عليهم ضميرهم الخاص_ تماماً كما يفعل غير المؤمنون.

"النسبية الأخلاقية" تعني تقرير ما الصواب وما الخطأ حسب كل موقف وظرف على حدة. والحال أنّ أغلب الملحدين لا يغيّرون فكرتهم عن الخير والشر حسب رغباتهم ومزاجهم _كما يفعل أغلب المؤمنين. تعني "النزعة الذاتية" إلى أنّ كل فرد يتبنّى مجموعة مختلفة من الأخلاق والمبادئ الأخلاقية. لا يمكننا تصنيف لا المؤمنين ولا الملحدين على أنّهم ذوي نزعة ذاتية. فالفكرة الأساسية وراء الخير والشر التي نملكها جميعنا عالمية ومشتركة أغلبها.

يكتب عالم الإناسة البروفسور سولومون آش أنّ: «الدليل الأنثروبولوجي لا يدلّ على النزعة الذاتية بأي شكل من الأشكال. فنحن لم نرى مجتمعات تعتبر فيها

الشجاعة سمة سيئة والجبن سمة مشرّفة وخيّرة، حيث يعتبر الكرم رذيلة والبخل فضيلة»[14]. لا أتصوّر أي إنسان عقلاني اليوم يعتقد أنّ قتل الأسرى في الحرب واغتصاب الفتيات القاصرات والعذارى عملاً أخلاقياً.

أغلب المؤمنين لا يقتصر فكرهم على استنكار ورفض الفظاعات والأعمال الوحشية التي ارتكبها الله وأغلب الشخصيات المشهورة في الكتاب المقدّس فقط، بل إنّهم يتجاهلون حتى التعاليم الحميدة أيضاً. على سبيل المثال، بالكاد تستطيع إيجاد مسيحي ملتزم بأمر يسوع بالصلاة سراً:

«وَمَتَى صَلَّيْتَ فَلاَ تَكُنْ كَالْمُرَائِينَ، فَإِنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْ يُصَلُّوا قَائِمِينَ فِي الْمَجَامِعِ وَفِي زَوَايَا الشَّوَارِعِ، لِكَيْ يَظْهَرُوا لِلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ اسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ! 6وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَلَّيْتَ فَادْخُلْ إِلَى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ، وَصَلِّ إِلَى أَبِيكَ الَّذِي فِي الْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ الَّذِي يَرَى فِي الْخَفَاءِ يُجَازِيكَ عَلاَنِيَةً.» [متّى 6: 5-6]

في عصيان واضح وصريح لأوامر المسيح نرى أغلب المسيحيين في كل مكان يقيمون استعراضات هائلة لتقواهم من خلال صلواتهم في الكنائس بشكل علني وصاخب، في المناسبات السياسية، وحول سارية العَلَم في كل مدرسة. ونراهم يعترضون بغضب عندما تصدر المحاكم قوانين وتشريعات ضدّ الصلاة في المدارس العامة. كيف يمكن للمسيحيين تبرير ذلك أخلاقياً، إلا من خلال شعورهم الداخلي الخاص بأنّ الصلاة في العلن أمر حَسَن ومحمود بغضّ النظر عن تعاليم يسوع؟

كم عدد المسيحيين من أيّ مذهب كانوا ملتزمون بأمر ربهم: «أحبّوا أعدائكم» عندما يتعلّق الأمر بهتلر أو أسامة بن لادن؟ وهل عليهم ذلك؟

---

(14) سولومون آش، علم النفس الاجتماعي، صـ 378-379

Asch, Solomon, Social Psychology, (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, 1952), pp. 378–79.

باختصار، تشير الحقائق التجريبية إلى أنّ أغلب البشر هم كائنات أخلاقية، كائنات يتعارض إحساسها الداخلي بالصواب والخطأ مع الكثير من تعاليم الديانات التوحيدية الكبرى. ويمكننا بسهولة أن نتوصّل إلى نتيجة بأنّ ذلك الإحساس لم يتولّد عن مصدر ديني.

الأخلاق التجريبية:

إذا كانت الأخلاق والقيم الإنسانية ليست ذات مصدر إلهي، إذن من أين تنبع؟ وهناك الكثير من الكتابات والأعمال التي تشير إلى الأصل الطبيعي (بيولوجي، ثقافي، تطوّري) المحتمل للأخلاق والقيم والمبادئ الأخلاقية.[15] استطاع داروين رؤية المنفعة التطوّرية للتعاون والإيثار وقد أسهب مفكرون معاصرون في الحديث عن هذه الملاحظات، مظهرين بشكل تفصيلي كيف أنّ شعورنا الأخلاقي قد ظهر بطريقة طبيعية أثناء تطوّر الإنسانية المعاصرة.

يمكننا حتى رؤية علامات على السلوك الأخلاقي _أو أخلاقاً بدائية_ بين الحيوانات. فالخفافيش مصّاصة الدماء تتشارك طعامها. القرود والقردة العليا تطَمْئِن أفراد عائلتها المكتئبين وتعمل معاً من أجل الطعام. الدلافين تدفع الأفراد المرضى في مجموعتها بمنقارها إلى السطح لتتنفّس. الحيتان تضع نفسها في وجه الخطر لتساعد الأفراد المصابة أو المجروحة في مجموعتها. تبذل الدلافين جهدها لإنقاذ الأفراد المجروحة في عائلتها.

---

[15] لآخر مرجع وغير من المراجع الأخرى أنظر: مايكل شيرمر، علم الخير والشر: لماذا يغشّ الناس، يثرثرون، يهتمّون، يتشاركون، ويتبعون القاعدة الذهبية.

في هذه الأمثلة نلمح بدايات الأخلاق التي تطوّرت إلى مراحل متقدّمة عند البشر عن طريق التطوّر البيولوجي والثقافي.[16] يبدو من المرجّح أنّنا قد اكتسبنا إحساسنا بالخطأ والصواب من هذا المكان. لقد تعلّمنا درسنا وحفظناه.

[16] دي وال، صالح بالفطرة: أصل الصواب والخطأ عند الإنسان وغير من الحيوانات.
De Wall, Good Natured: The Origins of Right and Wrong in Humans and Other Animals (Cambridge, MS: Harvard University Press, 1996).

قضية ضدّ وجود الله

البروفيسور فيكتور ستينغر

«قضيّة علمية ضدّ وجود إله خالق للكون»

- هنا في هذه المقالة أقدّم لكم حجّة قائمة على علم الفيزياء الحديث والكوزمولوجيا تنفي وجود إله خالق للكون. ويمكن تلخيصها على النحو التالي:

1) تقول الفرضية بوجود إله عالي الذكاء والقوّة، إله ما ورائي غيبي هو الذي خلق هذا الكون المادي بكل ما فيه.

2) ومن المنطقي أن نتوقّع وجود دليل ملموس وقابل للتجريب والاختبار يثبت وجود هذا الإله، ويدلّنا على هدفه وغرضه من خلقه لهذا الكون، ويتمثّل الدليل على شكل خرق أو انتهاك واضح وجليّ لأحد قوانين الفيزياء الراسخة أو لأكثر من قانون.

3) لا يتوفر أيّ دليل تجريبي ملموس لهذا الخلق الغائي للكون. لا يوجد أي انتهاك أو خرق واضح لأحد قوانين الفيزياء في هذا الكون الذي نسكن فيه.

4) يشير علم الكونيات الحديث Cosmology أنّ الحالة البدائية لكوننا كان حالة فوضى كلية، لذا فهو لا يمتلك أي ذكرى لخالق.

5) بإمكان العلماء تقديم سيناريوهات معقولة وطبيعية بالكامل قائمة على نظريات كوزمولوجية مؤسّسة بشكل جيد تبيّن لنا أنّ كوننا قد ظهر من حالة بدائية من العدم.

6) وبإمكاننا الاستنتاج بما لا يدع أي مجال للشك "عدم" وجود إله على قدر هائل ومطلق من الذكاء والمقدرة والقدرة على الخلق.

من منظور العلم الحديث، ما هي النتائج التجريبية والنظرية لعملية الخلق الإلهية؟ علينا أن نبحث عن دليل يثبت أنّ الكون (1) له بداية وأصل ونشأة و(2) أنّ هذه البداية لا يمكن أن تحدث بشكل طبيعي. أحد الإشارات التي تشير إلى حدوث خلق إلهي ستكون تأكيداً تجريبياً مباشراً على حدوث معجزة أدّت إلى مجيء هذا الكون إلى الوجود. وهذا يعني: يجب على البيانات الكوزمولزجية إمّا أن تظهر وجود خرق لقانون _أو لأكثر_ من قوانين الطبيعة الثابتة أو أنّ النظريات التي تصف تلك البيانات بنجاح ستكون بحاجة لمكوّنات عَرَضة غائية لا يمكن فهمها في سياق العمليات الطبيعية_المادية. والآن، لقد سبق وأشار الفيلسوف ديفيد هيوم منذ قرون مضت إلى وجود عدّم مشاكل وإشكالات تتخلّل مفهوم المعجزة. ويمكن وجود إلى ثلاث أنواع ممكنة من المعجزات: (1) انتهاك لأحد قوانين الفيزياء الراسخة، (2) أحداث وظواهر غامضة وغير قابلة للتفسير والتعليل، و(3) مصادفات غير متوقّعة وغير مرجّحة على الإطلاق.

إذا تمّ رصد خرق وانتهاك واضحين لأحد القوانين الفيزيائية الراسخة بالطبيعة، عندها يمكننا الافتراض وببساطة شديدة أنّ هذا القانون كان خاطئاً بدلاً من القول بحدوث تدخّل إلهي من قبل الله. وإذا عرّفنا المعجزة بأنّها حَدَث أو ظاهر غير قابلة للتفسير أو التعليل، كيف لنا أن نكون متأكّدين وواثقين إذن من أنّه لن يتمّ العثور على تفسير منطقي لهذه الظاهرة في المستقبل القريب أو البعيد؟ وإن صادفنا حَدَثاً أو ظاهرة غير متوقّعة على الإطلاق وقلنا عنها أنّها معجزة، ما أدرانا أنّها كانت مجرّد

صدفة عشوائية بحتة؟ هذه الأسئلة تفرض إشكاليات أمام أي شخص يناقش موضوع وجود الله من منطلق المعجزات واحتمالات حدوثها.(17)

بأيّة حال، ليست هذه هي المهمّة التي تعهّدتها. يقترح الثيولوجي ريتشارد سواينبورن، أن نعرّف المعجزة كحدث استثنائي غير قابل للتكرار خارق لقوانين الطبيعة.(18) طبعاً، بإمكاننا دوماً إعادة تعريف القانون ليتضمّن الاستثناء، لكنّ ذلك سيكون عملاً اعتباطياً. فقد وُضِعَت القوانين لتصف أحداثاً متكرّرة. لذلك، سوف نبحث عن دليل يشير لحدوث انتهاكات واضحة لقوانين فيزيائية راسخة لا تكرّر نفسها ضمن أي سياق قانوني.

لا شكّ أنّ الله، إذا كان موجوداً، قادرٌ على إعادة تكرار المعجزات إذا شاء ذلك. بأيّة حال، الأحداث المتكرّرة تقدّم لنا معلومات أكثر تقودنا في النهاية إلى تفسير طبيعي للظاهرة، في حين أنّ الحدث غير المفسّر وغير المتكرّر سيظلّ وببساطة غير مفسّراً على الأرجح. دعونا نعطي فرضية الله فرصة ونعيد النظر فيها ونبقى عقولنا منفتحة على فكرة الأصل الإلهي [المعجزة] للأحداث غير المتوقعة والصدف غير المرجّحة، وندرس كل ظاهرة من هذه الظواهر على أساس فردي. حتى من خلال أوسع تعريف للمعجزة لا نستطيع إيجاد أي دليل على حدوثها، عندئذٍ سيكون لدينا دعم قوي لقضيّتنا ضدّ وجود الله الذي يتدخّل بطريقة إعجازية ويسيّر الأحداث حسب مشيئته.

---

(17) للاطلاع أكثر على هذه المشكلات راجع كتاب نيكولاس إيفيريت، لاوجود الله، الفصل السادس، وجاري ترجمة هذا الكتاب إلى العربية.
Everitt, The Non-existence of God (London: Routledge, 2004), chapter 6

(18) ريتشارد سواينبورن، وجود الله، صـ 229
Richard Swinburne, The Existence of God (Oxford: Clarendon, 1979), p. 229

دعونا نكمل بحثنا عن دليل يثبت حدوث خلق إلهي للكون من خلال ملاحظاتنا وأرصادنا للكون من حولنا.

خلق المادة

يحتوي الكون حالياً كمّيّة هائلة من المادة التي حدّدناها حسب مفاهيمنا الفيزيائية الحالية بالكتلة. قبل القرن العشرين، كان يعتقد أنّ المادة لا تفنى ولا تندثر، بل تتحوّل من شكلٍ إلى آخر. إذن فوجود المادة بحدّ ذاته يبدو معجزة، وكان يعتبر انتهاكاً بيّناً لقانون مصونية الكتلة، المعجزة التي حدثت لمرّة واحدة فقط خلال تاريخ الكون: أثناء الخلق.

إلا أنّ ألبرت آينشتاين، في نظريته النسبية الخاصة التي نشرها عام 1905، قد بيّن أنّ المادة تُخلَق من طاقة وتختفي متحوّلةً إلى طاقة. وقام من خلال معادلته الشهيرة E=mc2 بربط كتلة الجسم (m) بكمية طاقة معادلة (E)، حيث أنّ (c) عبارة عن ثابت كوني، سرعة الضوء في الفراغ. وهذا يعني: لأغراض عملية، أنّ الكتلة تساوي الطاقة، بالنسبة لجسم ساكن مازال يكتسب طاقة.

عندما يتحرّك الجسم، فإنّه يكتسب طاقة إضافية أثناء حركته تسمّى "طاقة حركية". ويمكن أن تتحوّل الطاقة الحركية في التفاعلات الكيميائية والذرية إلى "طاقة ساكنة"، تكون مساوية لكتلة المادة المولّدة للطاقة.[19] وقد يحدث العكس أيضاً، قد تتحوّل الكتلة أو الطاقة الساكنة إلى طاقة حركية. بهذا الشكل، يمكن للتفاعلات الكيميائية والنووية توليد طاقة حركية، يمكن استخدامها لإدارة محرّكات

---

[19] يعتقد بشكل عام أنّ التفاعلات النووية هي وحدها التي تتحوّل ما بين طاقة كامنة وحركية. إلا أنّ ذلك يحدث أيضاً في التفاعلات الكيميائية. بطبيعة الحال، إنّ التغيّرات في كتل المواد المتفاعلة صغيرة جداً وضئيلة وبالكاد يمكن ملاحظتها.

أو تفجير الأشياء. إذاً، وجود مادة في هذا الكون لا يخرق أي قانون من قوانين الطبيعة. إذ يمكن للمادة أن تأتي من طاقة. لكن من أين جاءت هذه الطاقة؟ أحد أهم أساسيات علم الفيزياء هو قانون مصونية الطاقة، والذي يعرف أيضاً بقانون الثيرموديناميكا الأول، الذي ينصّ على أنّ الطاقة تأتي من مكان ما. من حيث المبدأ، إنّ فرضية الخلق يمكن تأكيدها عن طريق الرصد المباشر أو البحث النظري بأنّ قانون مصونية الطاقة قد جرى انتهاكه منذ حوالي 7،13 مليار عام أثناء بداية الانفجار الكبير.

والحال هو أنّ لا الأرصاد ولا النظرية يشيران إلى ذلك. فالقانون الأول يسمح للطاقة بالتحوّل من نوع إلى آخر طالما أنّ الطاقة الكلية لنظام مغلق تبقى ثابتة. الأمر المذهل هو أنّ مجموع باقي الطاقات الحركية للأجسام في المراحل الأولى من الكون يبدو أنّها قد ألغيت تماماً بالطاقة السلبية المحتملة الناتجة عن تفاعلاتها الثقالية المتبادلة فيما بينها. وضمن نطاق ضئيل جداً وضيّق من أخطاء القياس واللايقين الكمومي، نرى أن كثافة الطاقة المتوسّطة للكون تساوي تماماً كثافة الطاقة اللازمة لظهور كون من حالة بدائية كمية الطاقة فيها تساوي الصفر.

علاوةً على ذلك، تنبأت النسخة الحديثة من نظرية الانفجار العظيم بوجود توازن قريب بين الطاقة السلبية والإيجابية، يطلق على هذه النظرية اسم "نظرية الانفجار التوسّعي العظيم"، وتقول هذه النظرية أنّ الكون قد مرّ بمرحلة من التوسّع الأسّي المتسارع خلال الجزء الأول من الثانية الأولى. لقد خضعت النظرية التوسّعية لعددٍ غير قليل من الاختبارات الرصدية الصارمة والكافية لإثبات خطأها أو عدم صحّتها. حتى الآن، تمكّنت النظرية من تجاوز جميع هذه الاختبارات وبسهولة.[20]

(20) أنظر على سبيل المثال كتاب ألان غوث: الكون التوسّعي.

باختصار، إنّ وجود المادّة في الكون لا يتطلّب انتهاك قانون مصونية الطاقة كما يزعم أنصار نظرية الخلق. في الحقيقة، البيانات تدعم وبقوّة فكرة أنّ هذا الحدث حَدَثَ بشكل طبيعي ومن دون أيّة معجزات. فإذا كان نقاشنا هنا حوا ما إذا حدثت هكذا معجزة أم لم تحدث، فالعلم والأرصاد لم يؤكّداها إطلاقاً.

خلق النظام

هناك تنبؤ آخر لأنصار فرضية الإله الخالق، لكن البيانات لم تؤكّده أبداً. إذا كان الكون مخلوق، عندئذٍ لابدّ أنّه كان يمتلك درجة من النظام لحظة خلقه _التصميم الذي وضعه الخالق العظيم في تلك اللحظة. هذا الافتراض بوجود نظام غالباً ما يعبّر عنه في سياق القانون الثاني في الثيرموديناميكا، والذي ينصّ على أنّ الإنتروبيا الكلية أو الفوضى ضمن نظام مغلق يجب أن تبقى ثابتة أو أن تزداد مع الزمن. لكن سيتبع عن ذلك أنّه إذا كان الكون كما هو حاله اليوم عبارة عن نظام مغلق، فهذا معناه أنّه لم يكن دائماً كما هو على النحو الذي هو عليه اليوم. ففي نقطة ما في الماضي، لابدّ أنّ النظام قد دخل من الخارج.

قبل عام 1929، كانت هذه حجّة قوية لصالح الخلق. لكن في تلك السنة كان الفلكي إدوين هابل قد أعلن أنّ المجرّات تتباعد عن بعضها بسرعة تتناسب تقريباً مع مسافتها، مشيراً إلى أنّ الكون يتمدّد. وقد شكّل هذا الاكتشاف المذهل الدليل الأول للانفجار الكبير. على سبيل المثال، يمكن أن يكون الكون المتمدّد قد بدأ بحالة من الفوضى الكلية ومازال في خضمّ تشكيل نظام محلّي متّسق مع القانون الثاني.

أبسط طريقة لاستيعاب ذلك هي عن طريق مثال منزلي بالمعنى الحرفي. تخيّل أنك كلّما نظّفت منزلك، فإنك ستفرغ سلّة القمامة عن طريق أخراجها من نافذتك إلى

Alan Guth, The Inflationary Universe (New York: Addison-Wesley, 1997).

حديقتك. في النهاية ستمتلئ الحديقة بالأوساخ والقمامة. في النهاية تستطيع الاستمرار في القيام بذلك بطريقة بسيطة جداً، كل ما عليك فعله هو أن تستمرّ في شراء الأراضي حول منزلك، وسيكون لديك مكان أوسع لترمي فيه فضلاتك. أنت قادر على الحفاظ على مستوى من النظام المحلي _منزلك النظيف_ على حساب الفوضى المتراكمة في بقية أنحاء أرضك.

بنفس الشكل، هناك أجزاء من الكون قد تصبح أكثر انتظاماً مع ازدياد مستوى الإنتروبيا أو الفوضى أثناء عملية التنظيم (فكّر بالعملية وكأنّها فوضى أزيلت من نظام جرى تنظيمه) وقد تمّ رميها في الفضاء الواسع المحيط بالمنطقة المنتظمة. كلّما ازداد اتساع الكون، ارتفعت نسبة الأنتروبيا في معظم أجزائه، وهذا ما ينصّ عليه القانون الثاني. بل إنّ الأنتروبيا القصوى تزداد بشكل أسرع حتى مفسحةً مجالاً أوسع لتشكّل النظام. وسبب ذلك هو أنّ كرة الأنتروبيا القصوى بنصف قطر معيّن (نحن نتكلّم عن الكون بوصفه كرة) يساوي ثقب أسود بنفس نصف القطر. الكون المتوسّع ليس ثقباً أسود لذلك فهو يمتلك أنتروبيا قصوى أقل. إذن، في حين أنّه يصبح أكثر فوضوية على المستوى الكلي مع مرور الزمن، فإنّ كوننا المتوسّع ليس فوضوياً بشكل كلي. لكنّه كان كذلك في وقتٍ مضى.

لنفترض أنّنا نخمّن أنّ هذا التوسّع يعود إلى حوالي 7،13 مليار عام إلى اللحظة التي كان فيها الكون محصوراً داخل أصغر منطقة ممكنة من الفضاء يمكن تصوّرها، كرة بلانك ذات نصف قطر يساوي طول ثابت بلانك 6،1×10–35م. وكما يخبرنا القانون الثاني، فإنّ الكون في تلك اللحظة كان يمتلك نسبة أنتروبيا أقل ممّا يمتلك الآن. إلا أنّ تلك النسبة كانت عالية أيضاً بالنسبة لكرة بذلك الحجم الضئيل، لأنّ أي كرة ذات أبعاد بلانكية فإنّها تعادل ثقباً أسود.

قد يتطلّب الأمر المزيد من الشرح والإسهاب. قد نبدو وكأنّنا نقول بأنّ أنتروبيا الكون كان في أقصاها عند نشأته، وما زالت آخذةً بالازدياد منذ ذلك الوقت. طبعاً هذا بالضبط ما نقوله. فعندما بدأ الكون، كان الأنتروبيا الخاصّة به هي الأعلى بالنسبة لشيء ما بحجمه، وذلك لأنّ الكون كان معادلاً لثقب أسود لا مجال لأيّة معلومات أن تخرج منه. حالياً، باتت نسبة الأنتروبيا أعلى، لكنّها ليست قصوى، وهذا يعني، أنّها ليست في أعلى درجة ممكنة بالنسبة لحجم كوننا الحالي. فالكون لم يعد ثقباً أسود.

عندما كانت الأنتروبيا في أقصى درجاتها عند بداية الانفجار الكبير، كانت الفوضى كلية ومطلقة ولم يكن هناك أي بُنَى. لذلك، بدأ الكون بدون أي بنية أو هيكل، لكنّه بات اليوم ذو بنية لأنّ الأنتروبيا الخاصّة به لم تعد قصوى.

باختصار، وحسب فهمنا الحالي للكون، بدأ كوننا من دون أي تنظيم أو بنية، أي أنّه لم يكن مصمماً. بل كان في حالة من الشواش المطلق.

من هنا، نحن مجبرون على الاستنتاج بأنّ النظام الذي نراه الآن في الكون هو أنّه ليس نتيجة أي تصميم أولي موضوع للكون منذ البداية، أو ما يسمّى بـ"الخلق". الكون لا يحتفظ بأي دليل أو إشارة تخبرنا عمّا حدث قبل الانفجار الكبير. فالخالق لم يترك لنا بصمته، هذا إن كان موجوداً.

البداية والسبب

لقد قادت حقيقة الانفجار الكبير التجريبية بعض اللاهوتيين للقول بأنّها _بحدّ ذاتها_ تمثّل برهاناً يثبت وجود الخالق. في عام 1951، قال البابا بيوس الثاني عشر أمام الكنيسة الأسقفية أنّ "الخلق قد حدث مع الزمن، لذلك فهناك إله خالق، لذا

فالله موجود".[21] إلا أنّ الكاهن والعالم الكوزمولوجي جورج هنري ليمات _الذي كان أول من اقترح فكرة الانفجار الكبير_ كان قد نصح البابا بألا يصرّ على عصمة هذا التصريح وعدم قابليته للتكذيب أو التفنيد.

المدافع المسيحي وليم لاين كريغ قد قدّم عدداً من الحجج المعقّدة التي زعم فيها أنّه قد بيّن أنّ الكون لابدّ أن يكون له خالق وأنّ البداية تتطلّب وجود خالق شخصي.[22] إحدى حججه تقوم على النسبية العامّة، فالنسخة الحديثة من نظرية الجاذبية كان آينشتاين قد نشرها عام 1916 والتي تمكّنت منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا من تجاوز الكثير من الاختبارات والفحوص التجريبية.[23]

في عام 1970، اقترح كل من عالم الفلك ستيفن هوكينغ والعالم الرياضي روجر بنروز _مستخدمين نظرية كان بنروز قد توصّل إلى في وقتٍ سابق_ أنّ المتفرّد Singularity كان موجوداً في بداية الانفجار الكبير.[24] إنّ إرجاع النسبية العامة إلى زمن الصفر، سيتقلّص الكون إلى حجم أصغر، في حين ستزداد كثافته وحقله

(21) البابا بيوس الثاني عشر "دلائل وجود الله في ضوء العلم الطبيعي الحديث" Pius XII, "The Proofs for the Existence of God in the Light of Modern Natural Science" محاضرة ألقاها البابا بيوس الثاني عشر أمام الأكاديمية الأسقفية للعلوم، 22 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1951. وأعيد طباعتها بعنوان "العلم الحديث ووجود الله"، نشرت في مجلة "العقل الكاثوليكي" " Modern Science and the Existence of God," The Catholic Mind 49 (1972): 182–92.

(22) الدين، الإلحاد، وكوزمولوجيا الانفجار الكبير، تحرير وليم لاين كريغ وغوينتين سميث
Theism, Atheism, and Big Bang Cosmology, edited by William Lane Craig and Quentin Smith (Oxford: Clarendon, 1993).

(23) انظر على سبيل المثال كتاب غليفورد ويل: أكان آينشتاين محقاً؟ وضع نظرية النسبية العامة تحت الاختبار.
Clifford M. Will, Was Einstein Right? Putting General Relativity to the Test (New York: Basic, 1986).

(24) ستيفن هوكينغ و روجر بنروز، "متفرّدات الانهيار الثقالي والكوزمولوجيا".
Stephen Hawking and Roger Penrose, "The Singularities of Gravitational Collapse and Cosmology," Proceedings of the Royal Society of London, series A, 314 (1970): 529–48.

الثقالي. مع تقلّص حجم الكون إلى الصفر، ستصبح كل من كثافته وحقله الثقالي _على الأقل حسب رياضيات النسبية العامة_ لا متناهيان. وعند تلك النقطة بالضبط، كما يزعم كريغ، سيتوقف الزمن، وبذلك لا يمكن وجود زمن سابق.

بأيّة حال، إنّ هوكينغ قد تراجع عن برهانه الأول. إذ أنّه يؤكّد في كتابه الأكثر مبيعاً "مختصر تاريخ الزمن": «في الحقيقة لم يكن هناك أي متفرّد عند بداية الكون».[25] أمّا نتيجته المعدّلة، التي تزامنت مع نتيجة بنروز، مستمدّة من الميكانيكا الكمومية، هي نظرية العمليات الذرية التي جرى تطويرها خلال السنوات التي عقبت تقديم آينشتاين لنظريته النسبيتين. تخبرنا ميكانيكا الكم، التي تمّ تأكيدها الآن على نطاق واسع، أنّ النسبية العامة، بصيغتها الحالية على الأقل، ستتوقف عن العمل عند زمن أقل من زمن بلانك (4،6×10−44) ثانية، وعلى مسافات أصغر من حاجز بلانك كما ذكرنا سابقاً. ينتج عن ذلك أنّ النسبية العامة لا يمكن استخدامها لإثبات أنّ المتفرّد قد حدث قبل زمن بلانك، واستخدام كريغ لفرضية المتفرّد من أجل بداية الزمن خاطئ تماماً وفي غير مكانه.

يقدّم كريغ وغير من المتديّنين حجّة أخرى ذات صلة بالموضوع تقول أنّ الكون لابدّ أنّه كانت له بداية في لحظة ما لأنّه إذا كان قديم أو أزلي، فهذا معناه أنّه احتاج زمناً لانهائياً ليصل إلى الشكل الذي هو عليه في الزمن الحاضر. بطبيعة الحال، وكما أشار الفيلسوف كيث بارسونز: «إنّ القول بأنّ الكون أزلي قديم يعني القول أنّه بلا بداية _لا بداية حدثت منذ زمن بعيدٍ جداً».[26]

---

[25] ستيفن هوكينغ، مختصر تاريخ الزمن: من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء، صـ 50
Stephen Hawking, A Brief History of Time: From the Big Bang to Black Holes (New York: Bantam, 1988), p. 50.

[26] كيث بارسونز: هل الله موجود؟ نقاش بين مؤمن وملحد، صـ187

اللانهاية عبارة عن تعبير رياضي مجرّد تمّت صياغته بالضبط في عمل للرياضي غيورغ كانتور في أواخر القرن التاسع عشر. بأيّة حال، إنّ رمز اللانهاية (∞-;-) يستخدم في الفيزياء كاختصار لـ "رقم كبير جداً". وتستمرّ الفيزياء. في علم الفيزياء الزمن عبارة عن عملية عَدّ لدقّات الساعة. ويمكنك عدّ الدقات إلى الأمام وإلى الوراء. أمّا بالعدّ إلى الأمام فيمكنك الحصول على عدد كبير جداً، لكنّه ليس عدد لامتناهي موجب رياضياً، ولن تصل إلى نهاية "بالزمن". أمّا بالعدّ إلى الوراء فيمكنك الحصول على عدد كبير جداً، لكنه ليس عدد لامتناهي سالب رياضياً، ولن تصل أبداً إلى "بداية" الزمن. تماماً كما أنّنا لن نصل إلى لانهايةٍ موجبة، فلن نصل أبداً إلى لانهاية سالبة. حتى وإن لم يكن للكون عدد لانهائي رياضياً من الأحداث في المستقبل، فما زال من غير الضروري أن يكون له نهاية. بنفس الشكل، حتى وإن لم يكن للكون عدد لامتناهي رياضياً من الأحداث في الماضي، فمازال غير محتاج إلى بداية بالضرورة. يمكن دائماً أن يكون لدينا أحداث تتبع أحداثاً قبلها، أو لدينا دائماً أحداث تسبق أحداثا أخرى بعدها.

يزعم كريغ أنّه إذا أمكن إثبات أنّ الكون له بداية، فهذا كافٍ لإثبات وجود خالق شخصي. وهو يقيم حجّته هذه على أساس (الحجة الكوزمولوجية من علم الكلام)، المستقاة من الفكر الإسلامي.(27) وتُعرَض الحجّة على شكل قياس منطقي:

Keith Parsons in J. P. Moreland and Kai Nielson, Does God Existl The Debate between Theists Atheists (Amherst, NY: Prometheus, 1993), p. 187.

(27) وليم لاين كريغ، الحجّة الكوزمولوجية من علم الكلام (The Kalâm Cosmological Argument ,London: Macmillan, 1979)، والإيمان العقلاني (Reasonable Faith ,Wheaton, IL: Crossways, 1994). وانظر أيضاً: الحجّة الكوزمولوجية من أفلاطون إلى لايبنتز (The Cosmological Argument from Plato to Leibniz ,London: Macmillan, 1980) للتعمّق في تاريخ الحجج الكوزمولوجية وتاريخها.

1) أي شيء يوجد ببداية فله مبدأ.

2) للكون بداية.

3) إذن للكون مبدأ/ علّة/ مسبّب.

لقد تمّ تحدّي "حجّة الكلام" من قبل العديد من الفلاسفة وعلى خلفيات منطقية،[28] ولسنا بحاجة لتكرارها هنا بما أنّنا ضمن مجال العلم. يقوم كريغ في كتابات بأخذ المقدّمة الأولى على أنّها واضحة ومثبتة بذاتها، من دون أي مبرّر منطقي واضح ما عدا التجربة اليومية المعتادة. وهو نفس نوع التجارب التي أخبرتنا من قبل أنّ الأرض مسطّحة.

في الحقيقة، إنّ الأحداث الفيزيائية على المستويين الذري وما دون الذري قد ثبت أنّها تحدث من دون سبب واضحة أو علّة بيّنة على الإطلاق. على سبيل المثال، عندما تقوم ذرّة ذات مستوى طاقي مثار تهبط إلى مستوى أدنى وتصدر فوتوناً، جزيء الضوء، فإنّنا لا نجد سبب غائي وراء هذا الحدث. وبنفس الشكل، لا يوجد أي سبب غائي أو علّة واضحة وراء تحلّل النوى المشعّة.

يردّ كريغ قائلاً أنّ الأحداث الكمومية لها "سبب"، لها سبب بطريقة غير محدّدة مسبقاً يطلق عليها "السببية الاحتمالية". وبذلك اعترف كريغ في واقع الأمر أنّ "السبب" في مقدّمته الأولى قد يكون سبباً عَرَضياً، شيء ما عفوي، تلقائي، ذاتي: شيء غير محدّد مسبقاً. ومن خلال قوله بالسببية الاحتمالية، فإنّه يحكم بالموت على قضيّته عن الخلق المصمّم والمقرّر مسبقاً.

نحن لدينا نظرية ناجحة وأنيقة في الأسباب الاحتمالية _الميكانيكا الكمومية. إنّها لا تتنبأ بموعد وقوع حدث معيّن، كما أنّها تفترض أنّ الأحداث المفردة غير مقرّرة

[28] عويتتين سميث: الدين، الإلحاد، وكوزمولوجيا الانفجار الكبير. إيفيريت: لا وجود الله، صـ68–27.

بشكل مسبق. والاستثناء الوحيد الذي يحدث في تفسير ميكانيكا الكمّ قدّمه الفيزيائي ديفيد بوم.[29] وهذا يفترض وجود قوى ما دون الكمومية غير مكتشفة بعد. في حين أنّ هذا التفسير له بعض الأنصار، إلا أنّه غير مقبول على مستوى عام لأنّه يتطلّب روابط داخلية فائقة تنتهك قوانين ومبادئ النسبية الخاصة.[30] والأهم من ذلك أنّه لم يتمّ العثور على أي دليل على القوى ما دون الكمومية.

فبدلاً من التنبّؤ بأحداث فردية، تستخدم الفيزياء الكمية للتنبّؤ بالتوزّع الإحصائي لنتائج مجموعات أحداث مماثلة. يمكن فعل ذلك بدقّة عالية. على سبيل المثال، ستخبرنا الحسابات الكمية عن عدد النوى ضمن عيّنة كبيرة والتي تحلّلت بعد مرور فترة معيّنة من الزمن. أو يمكنك أن تتنبّأ بشدّة ضوء من خلال مجموعة من الذرّات المثارة، وهذا قياس لمجموع العدد الكلي للفوتونات المنبعثة. لكن لا نظرية الكم ولا أي نظرية مثيرة أخرى _ومن ضمنها نظرية بوم_ تستطيع أن تقول أي شيء عن سلوك نوى أو ذرّات مفردة. الفوتونات المنبعثة أثناء الانتقالات والتحوّلات الذرية تدخل حيّز الوجود بشكل تلقائي، وتسبّب بانبعاث الجسيمات أثناء الإشعاع الذري. وهي بظهورها هذا _بدون تخطيط مسبق_ تناقض المسلّمة الأولى.

في حالة النشاط الإشعاعي، وُجِدَ أنّ عمليات التحلّل تخضع لقانون انحلال أسّي. بأيّة حال، هذا القانون الإحصائي هو ما تتوقّعه بالضبط إذا كانت إمكانية الانحلال

---

(29) ديفيد بوم وجي هايلي، الكون الموحّد: تفسير أنطولوجي لميكانيكا الكم
David Bohm and B. J. Hiley, The Undivided Universe: An Ontological Interpretation of Quantum Mechanics (London: Routledge, 1993).

(30) تمت مناقشة المسألة بشكل أوسع في كتاب لنفس الكاتب [فيكتور ستينغر] الكوانتوم غير الواعي: الميتافيزيقا في علم الفيزياء والكوزمولوجيا المعاصرة.
Victor J. Stenger, The Unconscious Quantum: Metaphysics in Modern Physics and Cosmology (Amherst, NY: Prometheus, 1995).

خلال فترة زمنية قصيرة هي نفسها بالنسبة لكافة الفترات الزمنية لنفس الديمومة. بمعنى آخر، خطّ الانحلال نفسه بيّن بالنسبة لكل حدث فردي يحدث بشكل غير متوقّع وبدون أن يكون قد تمّ التخطيط له مسبقاً.

في الحقيقة، لا يوجد انفصال بين ميكانيكا الكم والميكانيكا الكلاسيكية [النيوتونية] كما كان يعتقد بشكل عام. طبعاً إنّ ميكانيكا الكم تتحوّل بسلاسة إلى ميكانيكا كلاسيكية عندما تصل مقاييس أي نظام _كالكتل، المسافات، والسرعات_ إلى الحالة الكلاسيكية.(31) عندما يحدث ذلك، تنهار الاحتمالات الكمومية بنسبة صفر بالمئة أو مئة بالمئة، وهذا ما يمنحنا اليقين عند ذلك المستوى. والحال أنّنا لدينا الكثير من الأمثلة حيث الاحتمالية ليست صفراً أو مئة بالمئة. تتوافق حسابات الاحتمالية الكمومية تماماً مع الأرصاد لمجموعات من أحداث مماثلة.

لاحظوا أنّه حتى وإن كانت تبدو نتيجة الحجّة من الكلام صحيحة ومعقولة وأنّ للكون علّة أو سبب فعلاً، فما الضامن بأنّ هذه العلّة ليست طبيعية؟ المهم أنّ حجّة الكلام فاشلة من الناحيتين النظرية والتجريبية ولا حاجة للتطرّق إلى المسلّمة الثانية التي تقول أنّ للكون بداية.

وبالرغم من ذلك، هناك مسمار آخر يُدَقّ في كفن الحجّة من الكلام وذلك من خلال حقيقة أنّ المسلّمة الثانية فاشلة أيضاً. وكما رأينا سابقاً، إنّ القول بأنّ الكون بدأ مع الانفجار الكبير ليس له أي أساس في البناء المعرفي الفيزيائي والكوزمولوجي. تؤكّد الأرصاد أنّ الانفجار الكبير لا يستبعد احتمال أن يكون هناك كون سابق لكوننا. النماذج النظرية التي تمّ نشرها تقترح آليات يمكن من خلالها لكوننا الظهور عن كون سابق له، على سبيل المثال، عن طريق عملية تسمى "النفق الكمومي"

---

(31) تتحوّل ميكانيكا الكم إلى ميكانيكا كلاسيكية عندما يصبح ثابت بلانك (h) مساوياً للصفر.

وتعرف أيضاً بالتأرجحات الكمومية.[32] المعادلات الكوزمولوجية التي تصف الكون المبكّر تنطبق أيضاً على الجانب الآخر من محور الزمن، لذلك لا نملك أي سبب للافتراض بأنّ الكون قد بدأ مع الانفجار الكبير.

لقد رأينا مسبقاً أنّه لم تحدث أيّة معجزة واضحة في الانفجار الكبير. ومن الواضح أنّ حدوث هذا الحدث الهائل ليس إعجازياً، وإنّما هو حدث طبيعي. طبعاً هذه هي النتيجة الأكثر منطقية ومعقولية والقائمة على أساس غياب أي دليل أو إثبات لحدوث خرق أحد القوانين الفيزيائية المعروفة. علماء فيزيائيون وكونيون بارزون نشروا في أهم وأرقى الدوريات والمجلات العلمية المحترمة مجموعة من الاقتراحات حول بداية الكون وكيفية ظهوره من "اللاشيء" بشكل طبيعي.[33] تميل هذه الاقتراحات إلى التأمّلية، لكنّها قائمة على أساس علمي_ومعرفي متين. ولا واحد منها ينتهك أي قانون من قوانين الفيزياء المعروفة. هؤلاء العلماء لا يدّعون أنهم "يثبون"

---

[32] ديفيد أتكاتز وهاينز بيغلز "أصل الكون كحدث نفق كمومي"
David Atkatz and Heinz Paegels, "Origin of the Universe as Quantum Tunneling Event," Physical Review D25 (1982): 2065-73.

أكساندر فلينكين: "ولادة الكون التوسّعي"
Alexander Vilenkin, "Birth of Inflationary Universes," Physical Review D27 (1983): 2848-55

ديفيد أتكاتز "الكوزمولوجيا الكمومية من أجل الرؤساء"،
David Atkatz, "Quantum Cosmology for Pedestrians," American Journal of Physics 62 (1994): 619-27.

[33] إدوارد تريون، "هل الكون عبارة عن تأرجح فراغي؟" مجلة "الطبيعة"،
Edward P. Tryon, "Is the Universe a Vacuum Fluctuation?" Nature 246 (1973): 396-97.

فيلينكين "ولادة الكون التوسّعي"، أندريه ليند "الخلق الكمومي للكون التوسّعي"،
Andre Linde, "Quantum Creation of the Inflationary Universe," Lettere Al Nuovo Cimento 39 (1984): 401-5.

أنّ هذا ما حدث بالفعل. فعبء البرهان يقع على كاهل هؤلاء الذين يتوقون للزعم والادّعاء بأنّ تلك السيناريوهات مستحيلة.

في النهاية، لا يستطيع أحد إنكار أنّ البيانات التجريبية والنظرية قد نجحت في تفسير تلك البيانات التي تشير إلى أنّ الكون لم يظهر في حيّز الوجود بفعل معجزة أو عملية خلق إلهية. اعتماداً على معرفتنا العلمية الحديثة، نستنتج من دون شكّ عدم وجود إله ماورائي غيبي ذكي قادر خالق لهذا الكون.

هل عثر العلم على الله؟

البروفيسور فيكتور ستينغر *

عندما ظهرت نتائج القمر الصناعي المصمّم لإجراء عملية مسح لإشعاع الخلفية الكونية (COBE) على الملأ لأول مرّة عام 1992، قال العالم والمشرف على المهمّة جورج سمووت واصفاً الأمر: «إذا كنتَ متديّناً، فالأمر أشبه ما يكون بالنظر إلى الله». نال هذا الوصف إعجاب أجهزة الإعلام. وقد وضعت إحدى الصحف الشعبية على صفحتها الأولى صورة يسوع (كما صوّره فنّانو العصور الوسطى طبعاً) على خلفية صورة باهتة للكون.

وفي تقرير حول مؤتمر "العلم والبحث الروحاني" المنعقد في مركز اللاهوت والعلم ببيركلي هذا الصيف [2007]، ظهر على غلاف صحيفة نيوزويك (20 تموز/ يوليو) عنوان: «لقد عثر العلم على الله». كان هناك عدّة مئات من العلماء ورجال الدين الذين أجمعوا على الاتفاق بأنّ كِلا العلم والدين الآن في مرحلة تحوّل كبرى، أمّا موضوع التحوّل هو الله. عبّر عالم الكونيات الجنوبي الإفريقي وأحد أعضاء كنيسة الكواكر جورج إيليس عم هذا الإجماع بالقول:

«هناك كمّ هائل من البيانات التي تدعم وجود الله. والسؤال الآن يدور حول كيفية تقييمها».

ذكرت صحيفة النيوزويك في روايتها أنّ «إنجازات العلم الحديث تتناقض مع الدين وتهدم الإيمان». بأيّة حال، «بالنسبة لعدد كبير ومتزايد من العلماء، فإنّ هذه

---

* فيكتور ستينغر Victor Stenger: أستاذ الفيزياء والفلك في جامعة هاواي. والمقالة منشورة في مجلة:
Free Inquiry magazine Volume 19, Number 1, 2007.

الاكتشافات تقدّم دليلاً وبرهاناً قويين للروحانيات وتمنحنا بعض الأدلّة والإشارات حول طبيعة الله... لطالما تخبّط الفيزيائيون حول علامات تشير إلى أنّ الكون مصمّم خصّيصاً لاحتواء حياة ووعي».

وأنّ كوزمولوجيا الانفجار الكبير، وميكانيكا الكم، ونظرية الشواش جميعها محدّدة مسبقاً «لتفتح الباب أمام الله للتدخّل في هذا العالم».

في البداية، لا توجد أيّة عمليات مسح أو استبيان تظهر أنّ هناك "عدداً كبيراً ومتزايداً من العلماء" يعثرون على أدلّة وبراهين على للروحانيات في أبحاثهم العلمية. هناك استطلاع حديث لأعضاء الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتّحدة يظهر 7٪ فقط من العلماء الذين يؤمنون بوجود إله شخصي، وقد هبطت النسبة من 15٪ في عام 1933، و29٪ عام 1914. وهذا إن دلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّ أغلب العلماء يبتعدون عن الروحانيات أكثر فأكثر كلّما تقدّم العلم.

من الواضح تماماً أنّ ما نسمعه ليس هو صوت الأغلبية العظمى من العلماء، بل هو صوت أقلّيّة صاخبة، متضائلة، وممّولة بشكلٍ جيد من أدعياء العلم. فلقاء بيركلي هذا لم يكن أكثر من مجرّد سباق "لسَدَنَة هيكل المسلّمات" من الأكاديميين الساعين للحفاظ على مسلّمتهم الأولى وهي أنّ: الله موجود، في حين أنّ العلم مستمرٌ بالعمل بنجاح وفعالية وبدون حاجة لمسلّمتهم تلك.

تجاوز الخطوط الحمراء

يقول الصحفي جورج جونسون في تعليق على هذا اللقاء بصحيفة النيويورك تايمز إنّ:

«المؤمنون الدينيون يبدون أكثر توقاً من قبل لتجاوز الخطوط الحمراء، محاولين تأويل البيانات العلمية بما يتناسب مع حقائقهم الدينية التي يؤمنون بها».

بالنسبة للمؤمنين والمتدينين، تبدو الحياة خالية من أي معنى في كون من دون إله. إنهم ينكرون هذا الاحتمال مع توق شديد لمعنى أو هدف للوجود. لذلك لا يمكن وجود إلا لكون مخلوق، ولا يمكن للبيانات والمعطيات أن تقدّم شيئاً سوى دعم هذه "الحقيقة".

والحال أنّ ممارسة العلم الحقيقي تتطلّب أن يكون كل شيء موضع شكّ وتساؤل، ومن ضمنها المسلّمات التي تستخدم أثناء تأويل البيانات. في حين أنّ بعض الافتراضات تكون حاضرة دوماً خلال العملية العلمية، إلا أنّها جميعها معرّضة للتغيير ما أن تظهر افتراضات أكثر رسوخاً ومتانة واقتصادية. فسَدَنَة المسلّمات هؤلاء، المخلصون كدوافعهم، يمارسون علماً سيئاً ورديئاً عندما يحدّدون تأويلهم الخاص للأرصاد العلمية على كون مصمّم.

بالنسبة لسَادِن المسلّمات، فإنّ نظرية الانفجار الكبير تقدّم "دليلاً" بأنّ عملية الخلق قد حدثت مع مرور الزمن تماماً كما ورد في الأسطورة التوراتية (البابلية). لا يمكن لشيء أن يأتي من لا شيء، والكون بدوره بحاجة إلى خالق. أمّا أنّ فكرة أنّ الخالق دق جاء من لا شيء فهذه فكرة لا تخطر على بالهم. فالله هو "نمط منطقي" مختلف عن الكون، نمط لا يحتاج خلقاً. ولا يشرح لنا اللاهوتيون لماذا الكون بدوره ليس من ذلك النمط المختلف من الوجود.

يدرك سَدَنَة المسلّمات أنّهم عاجزون عن إثبات وجود الله. إنّه يعبّرون ببساطة عن شعورهم القوي بأنّ التصميم الذكي واضح وظاهر في النظام الذي يحكم الكون. لسوء الحظ، العلم لا يأخذ تلك المشاعر والرغبات بالحسبان بغضّ النظر عن صدقها وإخلاصها. الكون هو كما هو عليه بغضّ النظر عن أيّة رغبات أو أمنيات. إذا كانت البشرية مجرّد حفنة من الرمال في صحراء لا متناهية الأبعاد، كما تشير تلسكوباتنا،

عندها لا يمكن لأمنياتنا ورغبتنا بعدم صحّة هذه الحقيقة أن تغيّر شيئاً. علينا تقبّل هذه الحقيقة وتعلّم كيفية التعايش معها.

يدرك الملحدون أنّهم غير قادرين على إثبات عدم وجود الله. إنّهم يجادلون بأنّ الكون بدون خالق هي المسلّمة الأكثر توافقاً وتناسباً مع جميع البيانات والمعطيات. فالظهور الطبيعي وغير المصمّم أو المحدّد مسبقاً للكون من لا شيء لا ينتهك أي قانون من قوانين الفيزياء الراسخة والمعروفة. فمجموع الطاقة الكلية للكون يبدو أنّها تساوي الصفر، إذن ليست هناك معجزة طاقية خلقت من "لاشيء" كانت لازمة لإنتاجه. بنفس الشكل، لم تكن هناك حاجة لأيّة معجزات لظهور النظام. فالنظام يحدث بشكل تلقائي ضمن النظم الفيزيائية.

كون مصمّم ومضبوط لاحتواء حياة

خلال الأعوام السابقة، استحوذت فكرة أنّ قوانين الفيزياء مصمّمة ومضبوطة لاحتواء حياة في هذا الكون على عقول العلماء واللاهوتيين المؤمنين وتفكيرهم على حدٍ سواء. طبعاً لم يسبق لأي فكرة أن استحوذت على هذا القدر من الاهتمام خلال النقاشات الأخيرة حول الدين والعلم.

تقوم حجّة "التصميم المضبوط" على سلسلة من الحقائق العلمية التي تسمّى بـ"الصُدَف الأنثروبية". أساساً هم يقولون أنّه إذا كان الكون قد جاء مع وجود تغييرات طفيفة جداً في قيم الثوابت الكونية، لما كان الكون قد أنتج العناصر الأساسية كالكربون والأكسجين، والظروف الأخرى الضرورية من أجل الحياة.

تفترض حجّة التصميم المضبوط وجود شكل وحيد ممكن من أشكال الحياة. لكن من الممكن ظهور أشكال أخرى من الحياة مع وجود قواني فيزيائية وثوابت كونية مختلفة. الشيء الأهمّ هو أن تعيش النجوم لفترات زمنية كافية لإنتاج العناصر

الضرورية للحياة بالإضافة إلى الوقت اللازم لظهور وتطوّر أنظمة معقّدة غير خطية نسمّيها "حياة". لقد قمت ببعض الحسابات حيث قمت بتغيير قيم بعض الثوابت الكونية وألقيت نظرة على الكون الذي سيظهر تحت هذه الظروف وما هو شكله. لقد وجدت أنّ جميع المقادير تقريباً تؤدّي لظهور أكوان _بغضّ النظر عن غرابة بعضها_ بنجوم تعيش لمليارات السنوات وأكثر. وسيكون هناك إمكانية لظهور حياة من نمط معيّن في أغلب تلك الأكوان الممكنة.

إله المعادلات

نمط آخر من شبيه بالأول من الحجج نجده كثيراً ما يتكرّر في النقاشات الحالية: يُزعَمُ أنّ المعادلات الرياضية والفيزيائية تقدّم دليلاً على وجود نظام أفلاطوني للكون يتعالى عليه ويتخطّى أرصادنا وأبحاثنا.

الاتجاهات الجديدة في اللاهوت المسيحي ومقارباتها مع العلم قد قرّبت المسيحية أكثر إلى اتخاذها موقف العثور على إله ضمن نظام الطبيعة ككيان مبدع يتعالى على الزمان والمكان والمادة المسؤولة عن ذلك النظام. طبعاً إنّ الفكرة اللاهوتية الغربية العاصرة عن الله أقرب ما تكون إلى مثال الخير عند أفلاطون من العجوز الملتحي بلحية بيضاء كيهوه أو زيوس الذي يشبه الصورة المرسومة على سقف كنيسة السستين أو يسوع/ أبوللو ذو اللحية الخفيفة على الجدار.

وهنا حيث يلتقي بعض العلماء واللاهوتيون في الوقت الحالي حيث يبدو أنّهم عثروا على أرضية مشتركة بينهم _في فكرة أنّ هناك واقع مجرّد خالص لا يمكن العثور عليه في الكواركات أو الذرات أو الصخور أو الأشجار أو النجوم أو التجارب والأرصاد. بل يكمن ذلك الواقع في الكمال الرياضي للرموز والمعادلات الفيزيائية. فالإله هنا يتشارك وجوده مع هذه المعادلات في عالم ما أو كمال رياضي ما

يتجاوز الإحساس البشري. هذا الإله يمكن معرفته، ليس من خلال ظهوره المادي أمامنا بل من خلال وجوده كواقع أفلاطوني. فجميعنا موجودون "داخل عقل الله".

جميع الجدالات والخلافات السابقة حول وجود الله كانت مقتصرة على الفلاسفة واللاهوتيين. هذا النمط من النقاش المنطقي البحت، حيث لا يتمّ فيه الاعتماد على الأرصاد إلا قليلاً، مستبعد من قبل غالبية العلماء _المؤمنون منهم والملحدون على حدٍ سواء. العلماء من سَدَنَة المسلّمات يزعمون أنّهم يتجاوزون بذلك الحجج اللاهوتية التقليدية ويمضون أبعد منها، وأنّهم يشاهدون دليلاً مباشراً على التصميم الذكي ضمن أرصادهم ومعادلاتهم.

وقد عبّر عن ذلك الفيزيائي بول ديفيز بالقول:

"إنّ حقيقة الكون المبدع بحدّ ذاتها، وأنّ القوانين قد سمحت بظهور بنى معقّدة وتطوّرها لدرجة الوعي _بمعنى أنّ الكون قد نظّم وعيه الخاص_ هي بالنسبة لي دليلاً قوياً على أنّ هناك "شيئاً ما" يجري خلف كل ذلك. فهذا الإحساس بوجود تصميم ذكي غامرٌ بشدّة".

لاحظوا هنا استخدام تعبير "دليل Evidence" بدلاً من "برهان Proof" ضمن هذا الاقتباس.

ومع ذلك، لا توجد أيّة علاقة تربط بين الإله الأفلاطوني وإله إبراهيم أو أيّ من الآلهة الأخرى، ولا يوجد أي شبه بينهما حتى، لا شخصية ولا مجرّدة. والمعادلات لا تحتاج فعلياً لتقديم إله متعالي مفارق للعالم. كما أنّ الفيزيائيين الأفلاطونيين يرون أنّ المجالات الكمومية والمقاييس الزمكانية "أشياء واقعية" أكثر من الكواركات والإلكترونات. في المقابل، الفيزيائيون الماديون يرون أنّ الكواركات والإلكترونات أكثر واقعية من المقاييس أو المجالات من أي نوع، وأنّ الأخيرة ليست أكثر من مجرّد

مفاهيم بشرية ابتكرها الإنسان. لكن الأغلبية الساحقة من كِلا المعسكرين لا ينظرون إلى هذه المفاهيم المحتملة بوصفها آلهة. إنّهم لا يرون وجود حاجة أو ضرورة لحدوث "معجزة" وراء الكون أو الحياة.

وما زال البحث جارياً عن إله الفجوات

- من بعد كل ما سبق نستنتج سبب عدم ثبات هذا التآلف أو التقارب المزعوم بين الدين والعلم. انظروا إلى التاريخ: لطالما قام العلم بتفسير الظواهر والأرصاد في سياق العمليات الطبيعية (وليست الماوراء طبيعية). أمّا الدين فقد قام بتقديم تفسيرات غيبية ماورائية خارقة للطبيعة لملء تلك الفجوات التي لم يقدّم العلم فيها أي تفسير أو تعليل بعد، أو أنّه ظلّ صامتاً حيالها. مجال وحيد هو الذي ظلّ مشغولاً دوماً في كلا الحالتين: هو مجال الملاحظة البشرية.

تعلّم الشامان في الأدغال القديمة أنّ "الأرواح" هي التي تجعل الصخور تتدحرج على التلال، حتى جاء نيوتن وقال أنّ السبب هو الجاذبية. أمّا الكهنة الآن فقد تعلّموا أنّ "الله" هو من خلق البشر على صورته، حتى جاء داروين وقال أنّ التطوّر قد جعلنا على ما نحن عليه الآن. والآن بات لدينا هذا النوع الجديد من العلماء-اللاهوتيون الذين يجادلون بأنّ العلم طالما أنّه غير قادرٍ على تفسير هذا الشيء، أو تلك الظاهرة، فما زال هناك متّسع "لله".

لا يمكننا حتى الآن تفسير لماذا هذه الثوابت في الطبيعة تمتلك هذه القيم بالتحديد، إذن _حسب رأي هذا الصنف الجديد من العلماء_ لابدّ أنّ الله هو من وضع لها هذه القيم. لا يسعنا الآن تعليل هذا "التأثير والفعلية غير المعقولة للرياضيات"، إذن لابدّ أنّ الله هو من ابتكر الرياضيات.

ربّما... لكن هل هذا الإله الحديث _إله الفجوات_ مقبول ظاهرياً على الأقل أكثر من إله الشامان والكاهن؟... ربّما سيتمكّن العلم في أحد الأيام من ملء هذه الفجوات التي يطلّ منها ذلك الإله ويلغيه مرّةً وإلى الأبد.

لماذا يتحوّل الدين إلى عنف؟

جيمس جونز

(الإرهاب الديني من منظور التحليل النفسي)

[من أجل كل ضحايا الإرهاب الديني الذين سقطوا على أرض وطني الحبيب سوريا... إبراهيم]

القسم الأول:

هذا العمل قيد الإنجاز. قد يبدو للوهلة الأولى كأنه ورقة عمل أكاديمية منتهية نصّها مليء بعلامات الترقيم والفواصل والنقاط، لكن كل ذلك ما هو إلا وهم _بالمعنى الفرويدي للكلمة. إنها أمنية _ أمنية للانتهاء من هذا الموضوع الفظيع. فخلال صيف 2001 كنت قد أنهيت كتابي الإرهاب والتحوّل: إشكالية الدين في منظور التحليل النفسي [Terror and Transformation: The Ambiguity of Religion in Psychoanalytic Perspective (Jones، 2002)]. ولأنّ عنوانه كان يحمل كلمة "إرهاب Terror" وكان قد طبع قد عدّة أشهر من حوادث الحادي عشر من أيلول، كنت قد علقت في زوبعة من النقاشات والجدالات حول الدين والإرهاب، وهو موضوع لطالما وجدته غريباً بالكامل عن خبرتي وتمّ كثيراً تجنّب الخوض فيه. بالإضافة إلى أني _مثل الكثير من قاطني منطقة نيويورك_ أرى أنّ حوادث 11 سبتمبر ما زالت تلقي ظلالاً ثقيلة جداً على حياتي (بطرق مازلت أجد صعوبة بالغة في التكلّم عنها) ظلالاً أثقل بكثير من برجي

التجارة العالميين وهما يهويان متهاوقتين في منطقة مانهاتن. وبقدر ما أرغب بالتهرّب من تلك النقاشات، فإني لم أكن أقدر على ذلك.

أنا أكتب عن الدين بصفتي مختصّ في علم النفس السريري، ومهتمّ بالآليات السيكولوجية المتعلّقة بالدين وخصوصاً بالعنف الديني وما قد ينجم عن ذلك من تأثير بعلم النفس الديني. أنا لا أقترح نظرية عامّة عن الإرهاب بل بالأحرى أطرح تساؤلات عن الظاهرة التي يمكن أن تخبرنا عنها الدراسة النفسية، العقلية للإرهاب الديني وعن سيكولوجية الدين بشكل عام. فخلال قراءتي للأدب الذي يتناول هذا الموضوع كنت قد صدِمت من ندرة النقاشات التي تناولت هذين العاملين بالتحديد _العمليات العقلية للإرهاب الديني والجانب الديني ذاته. ذلك جزئياً لأنّ أغلب الأدب الأكاديمي العام مكتوب من قبل علماء النفس الاجتماعيين، وليس الأطبّاء السريريين، ومن قبل علماء السياسة بدل دارسي الظاهرة الدينية أو علماء النفس الدينيين. وهذه الورقة أعتبرها مساهمة متواضعة لملء تلك الفجوة التي تتخلّل النقاش.

هنا عامل يطرح فعلياً وبشكل دائم من قبل علماء النفس الاجتماعي وعلماء السياسة أثناء كتابتهم عن أنّ الإرهاب ذو الدافع الديني عبارة عن تجربة مريرة من الشعور بالعار والذل والمهانة. طوال سنوات، أكّد علم النفس القضائي الصلة بين الشعور بالعار، المهانة، والعنف. علماء النفس القضائي يضعون عدداً من الدراسات يتناولون فيها ظروف العار والمهانة ويربطونها مع واقع ازدياد نسبة العنف والجريمة، و بشكل خاص بين الذكور.[1] هناك دراسة طب-نفسية على تقارير قادمة من السجن تقترح أنّ كل عمل عنف داخل السجن كان مسبوقاً بحادثة إذلال أو إهانة

[1] Gilligan, 1996‚ Miller, 1993.

تلقاها السجين خلال حياته.[2] تبيّن الإحصائيات أنّه في الولايات المتّحدة، على الأقل، هناك تزايد ملحوظ في نسبة الجريمة يسبقه مباشرة تزايداً في أعداد العاطلين عن العمل. إنّ مشاعر المهانة والخزي من ناحية السكان العرب كانت واحدة من أكثر العوامل "الأساسية" المستشهد بها كثيراً للتحوّل إلى الإسلام الأصولي.[3] يقول أحد مدرّبي تنفيذ العمليات الإرهابية الفلسطينيين: «تسعون بالمئة من العمل تمّ إنجازها بالفعل عن طريق المعاناة التي مرّ بها هؤلاء الناس... أمّا أنا دوري فلا يتجاوز العشرة بالمئة. فالمعاناة وعيش الأشخاص منفيين بعيداً عن وطنهم أعطاهم تسعين بالمئة ممّا هم يحتاجونه ليتحوّلوا إلى شهداء».[4] تقرير نفسي فلسطيني يظهر لنا أنّ «الخزي أو العار من أهمّ العوامل الدافعة وراء العمليات الانتحارية للشباب».[5]

حسب إحدى التقديرات، أكثر من 90٪ من المجنّدين في صفوف الجماعات الفلسطينية المقاتلة قدموا من قرى ومعسكرات حيث أنّ معاناتهم كانت تتركّز على الوجود الإسرائيلي فيها، حيث يكون الإذلال أعظم والصراع أشدّ وأشرس.[6] يخبرنا حسّان: «كنت أسمعهم [العسكر] يقولون مراراً وتكراراً: "الإسرائيليون يذلوننا ويهينون كرامتنا. إنّهم يحتلون أرضنا، وينكرون تاريخنا وماضينا"»[7] وكالعديد من الحركات الدينية الجديدة، نرى أنّ الطائفة اليابانية "أوم شينريكيو Aum Shinrikyo" _أطلق بعض أتباعها غاز السارين المميت داخل نفق للمترو في طوكيو وقتلوا العديد من الأشخاص_ قد انخرطت باستمرار في طقوس الإذلال

[2] Gilligan, 1996.
[3] Abi-Hashem, 2004؛ Davis, 2003؛ Hassan, 2001.
[4] Davis, 2003, p. 154.
[5] مقتبس في Victoroff, 2005, p. 29
[6] Post, Sprinzak, Denny, 2003, p. 173
[7] p. 38.

والمهانة لأتباعها. غالباً ما كان الأعضاء يتقدون من قبل الغورو، ويحبسون في مكان معزول، أو يدفعونهم للانتظار ساعات طويلة قبل ظهور زعيمهم بينما يهتفون مراراً وتكراراً «أيها المعلّم، أرجوك اظهر» "Master please appear".[8]

في حين أنه غالباً ما يتمّ إرجاع كل من المهانة والعار لظروف سياسية، إلا أنهما عبارة عن شروط سيكولوجية أساساً، وكثيراً ما تكون روحية. من خلال التمسّك بهدف مثالي ومطلق _سواء أكان إلها أو سيدا أو معلما أو نص مقدّس_ ضدّ ما يمكن أن تسقط أمامه جميع القيم الأخلاقية وعن طريق الإصرار على "الاختلاف النوعي اللامحدود "infinite qualitative difference [حسب تعبير سورين كيركجارد] بين الكائنات الإنسانية والهدف الأعلى، يمكن للأديان وبسهولة أن تثير وتلعب على أي ميل إنساني طبيعي نو مشاعر الخزي والعار والإذلال.[9] وسأمضي لأبعد من ذلك في اقتراحي أنّه كلما رفع الدين أهدافه وغاياته وصعّدها، أو صوّر المقدّس كحضور مطلق القوة ويؤكّد الشرخ بين الكائنات البشرية المحدودة وتلك الأهداف حتى نشعر أننّا مثل «ديدان، ولسنا بشراً» [حسب لتعبير الوارد المزامير]، كلما كانت مساهمته أكبر وكان أقدر على تعزيز تجارب الخزي والعار والذل أكثر.

بالإضافة إلى أنّ هناك العديد من الكتّاب قد لاحظوا الصلة بين مشاعر الإذلال والقرف والاشمئزاز مع الجسد والتجسيد. وكما علّق الكثير من الكتّاب والمؤلفين، هناك مثال تقليدي في الغرب يتمثّل بالقدّيس أوغسطين St. Augustine، الذي صاغ فعلياً وبشكل منفرد مذهب الخطيئة الأصلية original sin وجعله المذهب الرسمي والمركزي للفهم المسيحي الغربي للطبيعة الإنسانية. ليس مصادفةً أنّ هذا

---

[8] Lifton, 2000؛ وآخرون، حتى أنّ هناك أعمالاً أكثر إذلال وامتهاناً لكرامة الإنسان يتمّ تطبيقها وقد جرى وصفها في "القارئ Reader, 2000, pp. 137–141"

[9] McNish, 2004؛ Pattison, 2000.

النصير لفكرة أنّا خلقنا أشراراً ومخطئين يعبر باستمرار (في كتاب الاعترافات) اشمئزازه من أي شيء مرتبط بجسده. لكنّ هذه العلاقة الثيولوجية بين الجسد والشعور بالذنب والعار (لسوء الحظ) ليست فريدة أو مقتصرة عند القديس أوغسطين فحسب، بل يمكن إيجادها في النصوص التراثية عند العديد من الأديان. أحد زعماء الإرهابيين المسؤولين عن هجمات الحادي عشر من أيلول كتب قبل عدّة سنوات في وصيّته ألا يُمَسَّ جسده من قبل امرأة أو أي شخص غير طاهر وأن يتمّ غسل أعضاءه التناسلية من قبل أشخاص يرتدون كفوفاً بأيديهم. وحتى الطائفة العلمانية والقائمة على أفكار مصنّفة بأنّها من الخيال العلمي "بوّابة السماء Heaven s Gate" في الولايات المتحدة الأمريكية _أغلب أعضاءها ارتكبوا عملية انتحار جماعية خلال طقوس لهم عام 1997_تأمر بإخصاء جميع الرجال المنتمين فيها.

إنّها مسألة وجود صلة _كما تقترح دراسات كثيرة_ بين الذنب، العار، والإذلال وبين العنف، إحدى أشكال مساهمة الدين في الإرهاب هي عن طريق خلق و/أو تعزيز وتنشيط مشاعر الخزي والعار، والتي بدورها تزيد من إمكانية حدوث انفجارات عنيفة. وهذه الاحتمالية المتزايدة للعنف تحتاج لأن تكون محوّلة بطرق مقبولة اجتماعياً. بتكميد وإثارة الحملات الصليبية، لا أنسنة الآخرين، التشجيع على ارتكاب أعمال العنف، الأديان المنغلقة والمتشدّدة تنتج أهدافاً جاهزة، مقرّرة دينياً، لأجل أي زيادة بالعنف والعدوان. في حين أنّ معظم مشاعر الإذلال التي تغذّي نار أعمال إرهابية معيّنة قد تبدأ ضمن ظروف اجتماعية وثقافية، فالأديان المنغلقة قد أسسها على ذلك وتؤسّس حلقة حيث أنّ تعليماتها وممارساتها تزيد من مشاعر الخزي والإذلال، والتي تقوّي المشاعر العدوانية، بالإضافة إلى أنّها بعد ذلك تقدّم أهدافاً لتوجيه تلك المشاعر العدوانية نحوها.

أحد المعتقدات الشائعة، التي يذكرها العديد من المعلّقين، عن الحركات الدينية المتشدّدة التي تمارس العنف هي وجهة نظرها الرؤيوية الأخروية عن الصراع الكوني بين قوى الخير المطلق وقوى الشر المطلق.[10] عملياً جميع الإرهابيين الدينيين يوافقون أنّهم يخوضون معركة أخروية ضدّ قوى شيطانية، وعادةً ما تكون متمثّلة في قوى العلمانية. يقول الحاخام ماير كاهان Meir Kahane _بعد الهجمات التي تعرّض لها المسلمون من قبل اتحاد الدفاع اليهودي في كلٍ من الولايات المتحدة وإسرائيل_ وبشكل صريح: «الحكومة العلمانية هي العدو الحقيقي»[11] عدوّ كاهان الرئيسي، مؤسّس حركة حماس، الشيخ أحمد ياسين، قال لأحد الصحفيين: «هناك حرب دائرة» ليس ضدّ الفساد الإسرائيلي فقط، بل أيضاً ضدّ كل الحكومات العلمانية ومن ضمنها السلطة الفلسطينية لأنّه «ليس هناك شيء يسمى بالدولة العلمانية في الإسلام».[12] يقال أنّ أساهارا Asahara_مؤسّس طائفة أوم شينريكيو_ كان ينادي مراراً وتكراراً على أتباعه: «ألم تدركوا بعد أنّ هذه حرب!!»،[13] وكان يصرّ دائماً أنّ جماعته «كانت على أعتاب حرب وشيكة».[14] الأب بيتر هيل Peter Hill _الذي أطلق النار على طبيب وأرداه قتيلاً أمام عيادة لتحديد النسل في الولايات المتّحدة الأمريكية_ برّر فعلته هذه خلال مقابلة صحفية معه على أنّها جزء من «حملة عظيمة جرت عن طريق ثقافية تحتية مسيحية في أمريكا تعتبر نفسها في حالة حرب ضدّ المجتمع الأكبر، وأنها وقعت ضحيةً له إلى حدٍ ما».[15] يتوصّل يورغنماير (2000) من خلال أبحاثه

---

(10) Juergensmeyer, 2000؛ Kimball, 2002؛ Wessinger, 2000.

(11) Juergensmeyer, 2000, p. 55.

(12) Juergensmeyer, 2000, p. 76.

(13) Lifton, 2000, p. 56.

(14) Lifton, 2000, p. 60.

(15) Juergensmeyer, 2000, p. 36.

وتحقيقاته حول الإرهاب الديني حول العالم، الإرهاب في عقل الرب Terror in the Mind of God، إلى نتيجة مفادها أنّ: «الأمر الذي يجمع بين مختلف المجتمعات التي جاؤوا منها [الإرهابيون الدينيون] هو اعتقادهم وإيمانهم العميق بأنّ العالم في حالة حرب».[16] كلاين Klein، فيربايرن Fairbairn، وآخرون، كتبوا عن السوابق التحليلية-النفسية الواضحة لهذا الانقسام للعالم إلى معسكرين: معسكر الأخيار، ومعسكر الأشرار.

الحركات الأخروية العنيفة لا تكتفي بتقسيم العالم إلى نظراء متناقضين للخير والشر، بل إنها أيضاً تتطلّع نحو نهاية مناخية للتاريخ، حيث سيتمّ استئصال الشر بشكل نهائي من العالم. الأديان الرؤيوية لا تعنى فقط بتقسيم العالم، بل تعنى أيضاً بتطهيره purify. حسب العقلية الأخروية، يجب أن يكون التطهير دموياً دائماً. فبدلاً من تصوّر عملية روحية يتحوّل من خلالها المدنس إلى شيء مقدّس، فالأديان الأخروية مليئة بأوهام وخرافات وصور عن العنف، الحرب، وسفك الدماء حيث يتمّ تحطيم الشيطاني والمدنّس بأقبح طريقة يمكن تصوّرها. هنا يصبح التطهير مرتبطاً بالموت العنيف. علينا أن نبحث في الآليات السيكولوجية المتضمّنة في هذه الصلة التي تربط بين عملية التطهير والموت العنيف. السمة الأساسية للموت والبعث تعتبر سمة مشتركة فعلياً بين جميع أديان العالم. عملياً، جميع التقاليد التراثية تقول أنّ عملية الموت بشكل من الأشكال _بالنسبة للاستقلال الذاتي، لنفس مخطئة، لشهوات دنيوية بعيدة عن الروحانية_ ضرورية وحيوية جداً من أجل عملية التحوّل الروحاني. الديانة الأخروية تأخذ هذه السمة وتضعها ضمن إطار تاريخي. فالموت والبعث هما الآن عبارة عن شيئين يجب أن يحدثا _ويحدثان_ داخل التاريخ، خلال الزمن الحقيقي

(16) p. 151.

والفعلي. سمة أخرى تجري عبر هذه المادة وهي زيادة مستوى الانحدار الأخلاقي والروحاني للعالم، الأمر الذي يتمّ تصويره غالباً كحالة غرق سريعة في عالم الضياع والنسيان الروحي والأخلاقي، عالم يتجه نحو كارثة. يعبر أحد أعضاء طائفة أوم شينريكيو عن مشاعره بالقول: «أنّ العالم تزداد حالته سوءاً، وهو يتجه بنفسه نحو حرب عالمية فانية مع قوى الشر المتزايدة فيه».[17] كل هذا الإنتان والفساد في العالم ما هو إلا صرخة نداء لكي تتمّ إعادة الأمور لنصابها بعملية التطهير. فالأمور تزداد سوءاً ولا يمكن إلا لعملية تدخّل عنيفة ومتطرّفة أن تقلب الأمور. يصف ليفتون (2000) طائفة أوم شينريكيو، بعبارة يمكن أن تنطبق بشكل متساوٍ على العديد من الجماعات الإرهابية الدينية أو المدفوعة دينياً، عندما يكتب بأنها كانت مدفوعة من خلال «اندفاع مستمر وعنيد نحو عالم يرفض التطهير»[18].

يجب علينا ملاحظة أنّ تفسير ليفتون، بينما تذكر طائفة أوم شينريكيو في كتب تتناول موضوع الإرهاب الديني بسبب جذوره الضاربة في البيئة الدينية اليابانية، توضّح أنّ الطائفة تعتمد بنفس القدر على العلم، الخيال العلمي، وتبجيل التكنولوجيا المتطوّرة كالدين[19] بهذا المعنى يربطها ليفتون مع طائفة اليوفو "بوّابة السماء". فكلتا الطائفتين كان قيامهما محالاً بعيداً عن بيئة مشبعة بالعلم، الخيال العلمي، وثقافة ألعاب الفيديو (بدمجها لكلٍ من العلم والعنف معاً)، وتبجيل التكنولوجيا. ومع ذلك في التفسيرات الشعبية الشائعة لطائفة أوم شيرنيكيو، يتمّ إبراز الدين وإظهاره وإهمال العلم والتقنية. لكنّ سمة العنف الأخروي والبعث من

(17) Lifton, 2000, p. 93.
(18) p. 204.
(19) انظر أيضاً: Reader, 2000, pp. 185–187

خلال الموت لا تغيب عن ثقافة الخيال العلمي في كلٍ من الولايات المتحدة واليابان.

إنّ سمة التطهير _سواء جرى وضعها ضمن إطار تاريخي أخروياً أم لم يتمّ ذلك_ غالباً ما ترتبط بسمات الموت والبعث، تبدو حيوية في كل تراث ديني رئيسي. جادل البعض، دوركهايم Durkheim (1965) على سبيل المثال، أنّ الانقسام بين المقدّس والمدنّس، النقي والملوّث، الخاصية المميزة للوعي الديني. وهذا يبدو صحيحاً بشكل خاص على الأديان المنغلقة والمتشدّدة التي تخوض حرباً مع العالم المدنّس والضال الذي يحيط بها. الاستجابة الطائفية التقليدية كانت الانسحاب من هذا العالم الآثم، وخلق جزر من الفضيلة والنقاء معزولةً عنه (على سبيل المثال، شعب الأميش). الإرهابيون الدينيون لا يرضون بالانسحاب ببساطة ولاكتفاء بحماية جزرهم النقية، بل إنهم يسعون بفعالية لتحويل وتطهير العالم الخارجي. وصف أساهارا بأنه يطوّر "رؤية لحدث أخروي أو سلسلة من الأحداث الأخروية التي ستدمّر العالم ممهّدةً لعملية التجديد".[20]

في العديد من الأديان تكون سمة التطهير مرتبطة مع سمة التضحية sacrifice. الجذر اللاتيني sacri-ficium معناه "جعله مقدساً". التضحية طريقة أو سبيل لجعل شيء ما مقدّساً، أي تنقيته وتطهيره. التضحية هي تقدمات وعروض للمقدّس وللمجتمع. لكنها نوع خاص جداً من التقدّمات حيث يتمّ فيها تدمير ما تمّ تقديمه. لكن يبقى هناك أمر لم يتمّ تدميره فحسب، بل تحويله (هو أو أي شيء آخر مرتبط به، كالمجتمع الديني مثلاً) أيضاً. شيء ما تمّ تقديمه، شيء ما تمّت تنقيته وتطهيره، ومن ثمّ قدسنته. إنّ فعل التضحية يعود في تاريخه إلى الجذور البدائية الأولى للدين.

---

[20] Lifton, 2000, p. 203.

فالفيدا الأوائل في الهند تتركّز حول عدّة طقوس تضحوية مختلفة، ومعظم التوراة العبرية مليئة بتعليمات لتقديم الأضاحي. طبعاً، الهندوسية لاحقاً أخرجت الأوبانيشاد بنقاشاتها الميتافيزيقية المفصّلة بالإضافة إلى مدى واسع من ممارست اليوغا، والطقوس التأمّلية والتكريسية. علاوةً على ذلك، قام الأنبياء العبريين والكتابات اللاحقة السخرية من فكرة أنّ الله بحاجة لأضاحي دموية، مؤكّدين بدلاً من ذلك على «على القلب المفطور والتائب» [كما في سفر إشعيا] و«العدل، الرحمة، والتواضع» [سفر ميخا]. لكنّ سمة التضحية لم تختفي أو تموت بشكل نهائي. بل تمّ تبنّيها من قبل بعض المذاهب المسيحية التي استمرّت في إصرارها، مع كاتب الرسالة إلى العبرانيين(على ما يبدو أنّه كان أحد مهتدي القرن الأول من اليهود المحافظين إلى الديانة المسيحية) على مبدأ أنّه «من دون سفك للدماء، لن تكون مغفرة الخطايا أمراً ممكناً». أحد الأعباء التي تثقل عاهل هذه الورقة ستكون في محاولة كشف الغطاء على الآليات السيكولوجية الكامنة وراء هذه الصلة بين التطهير أو الخلاص وسفك الدم، بما أنّ تلك السمة تبدو كسمة مركزية لمثل هذا الإرهاب الديني.

سمة التضحية غالباً ما تبدو محورية في سياق الديانات الأكبر التي تنبثق منها "القنابل البشرية".[21] على سبيل المثال، قائد هجمات الحادي عشر من أيلول طلب من رفاقه أن «نقّوا أرواحكم وصفّوها من كافة الرذائل» وطلب منهم «الطاعة العمياء

---

[21] لتعييات المحايدة شبه مستحيلة هنا. فالمسلمون، وحتى أولئك الذين يرفضون قضية الشهادة وتمجيدها، يرفضون تعيين "الانتحاريين الإرهابيين"، بما أنّ هؤلاء الأفراد لا يملكون أيّة سمات أو خصائص سيكولوجية لأولئك الذين يرتكبون أعمالاً انتحارية، وعلاوةً على ذلك، نرى أنّ الانتحار أو قتل النفس محرّم في القرآن. في حين أني أعتبرهم إرهابيون، وكم يشقّ عليّ هذا الأمر، أشعر أنّ هذه التسمية لا يجب أن تهيمن على النص العلمي والبحثي. سأتابع هنا اتفاق رافائيل إسرائيلي Raphael Israeli (Strenski, 2003) وأشير إليهم في أغلب الأحيان باسم "الانتحاريين" أو "القنابل البشرية".

والخضوع» في «هذه الساعات الأخيرة».[22] هنا يشير أيضاً إلى أولئك الذين سيقتلهم بصفتهم حيوانات ويجب التضحية بهم. ذلك يؤكّد الطبيعة القربانية _الدينية، بمعنى آخر_ لهذه الأعمال. فالإرهابي يضحّي بنفسه من جهة ويضحيّته من جهةٍ أخرى.

بالإشارة إلى هذه السمة للتضحية بالنفس، يكتب سترينسكي (2003) أنّ «الأشخاص الذين يجسّدون "القنابل البشرية" يعتبرون "مقدّسين" ضمن مجتمعاتهم التي خرجوا منها. فقد تمّ "قدستهم" في عيون المجتمع الذي "يقبل" بهم وبأفعالهم. فهم يرفعون إلى مراتب عليا، وطبعاً، إلى مستويات دينية خاصّة ومميّزة، بصفتهم ضحايا قربانية ضحّوا بأنفسهم أو بصفتهم نوع من الأولياء والقدّيسين».[23] على سبيل المثال، يخبرنا حسّان (2001) أنّه في الحواري والأحياء الفلسطينية:

«يتمّ طباعة تقويات مرفقة بصور "شهيد الشهر". صور لانتحاريين مزيّنون بأحزمتهم الناسفة وهم في الجنّة، منتصرين فائزين تحت سربٍ من الطيور خضراء اللون. هذا الرمز تم تأسيسه على قول للنبي محمد أنّ روح الشهيد تُحمَل إلى الله في صدور طيور الجنة... وإذا قرأنا سيرة حياة أي شهيد... نجد كيف أنّ روحه صعدت إلى السماء على متن شظية من قنبلة... ويشرح لنا [إمام] ذلك بأنّ أول نقطة دم تسقط من شهيد خلال الجهاد فإنّها تغسل ذنوبه ومعاصيه كلها على الفور. وفي يوم القيامة، فإنّه لم ن يواجه أي حساب. وفي يوم البعث، بإمكانه التوسّط أو التشفّع عند الله للعديد من أقاربه ويصبح الأقرب والأعزّ لدخول السماء».[24]

العلماء المعتادين على التقاليد السِيَرِيَّة لأديان العالم سيرون العديد من السمات العامّة والشائعة هنا _على سبيل المثال، صور القدّيسين المسيحيين والمتنوّرين البوذيين

---

[22] عطا في رسالته الأخيرة، تمّت مناقشتها لاحقاً ضمن هذه الورقة. Atta, n.d., Last Letter.

[23] Strenski (2003) p. 8.

[24] Hassan (2001) p. 39.

وهم يحملون إلى الجنّة ويدخلون السماوات العُلى حيث، يُطَهّرون من آثامهم، يمكنهم التشفّع من أجل الآخرين. فمن خلال تضحيتهم، يتحوّل الانتحاريون وغيرهم من الشهداء إلى قدّيسين. وعلى طول هذا الخط، يقول مقاتل فلسطيني "إنّها هجمات حيث يقدمّ العضو حياته التي تنال أعلى مراتب الاحترام والتبجيل ورفع الانتحاريين لأعلى مستوى ممكن من الشهادة."[25] بطريقة مماثلة، يصف نمور التاميل عملياتهم الانتحارية التفجيرية في سيريلانكا بعبارة تحمل معنى «نقدّم أنفسنا». فأعمالهم تعتبر «هبة للنفس». فعند الانضمام للنمور يقسم الفرد بأنّ «القسم الوحيد هو أني سأهب كل ما أملك، ومن ضمنها حياتي. وهذا القسم من أجل الأمّة».[26] خلال إحدى القابلات رفض فلسطيني ورفاقه القول عن التفجيرات الانتحارية بأنها انتحار وعارضوا هذا القول بغضب قائلين: «هذا ليس انتحاراً. فالانتحار فعل أناني، ضعيف وناجم عن اضطراب عقلي. بل هذا استشهاد في سبيل الله».[27] ينبغي هنا ملاحظة أنّ هذا الفهم لمفهوم الشهادة والتضحية بالنفس ليس تقليدياً ضمن الإسلام، بل تمّت إدانته من قبل العديد من رجال الدين المسلمين والعلماء حول العالم.[28] في الواقع، يمثّل هذا المفهوم تجديداً ثيولوجياً رئيسياً من جهة الإسلاميين المتطرّفين كبن لادن.

تلك «العمليات الاستشهادية» مفهومة من قبل المشاركين فيها كأعمال دينية وهذا واضح من خلال الطقوس التي تحيط بها. ترك محمد عطا، منفّذ هجمات الحادي عشر من أيلول، رسالة توجيهية إلى الأجيال القادمة، السمات الرئيسية التي تتلخّص في

---

(25) Post et al., 2003, p. 179.
(26) Strenski, 2003, p. 22.
(27) Post et al., 2003, p. 179.
(28) للاطلاع أكثر حول هذه النقطة أنظر: Davis, 2003 Strenski, 2003.

الطاعة، الصلاة، الاتحاد مع الله، والتضحية. ينادي عطا على رفاقه للانشغال في الولاء والطاعة كتحضير لمهمتهم: "تذكّروا كلام الله عزّ وجلّ... ذكّروا أنفسكم بالابتهال والتضرّع... طهّروا أجسامكم ببعض آي القرآن الكريم... صلّوا صلاة الفجر بشكل جماعي وتأمّلوا الفوز العظيم بتلك الصلاة. ادعوا الله بعد ذلك، ولا تتركوا شقّتكم إذا لم تؤدّوا الصلاة قبل مغادرتها... اقرؤوا كلام الله".[29]

مثل هذا التطقيس الديني لم يكن فريداً أو مقتصراً على خليّة منفّي هجمات الحادي عشر من أيلول، بل يعتبر ذلك جزءاً طبيعياً هاماً وحسّاساً في مهمّة الانتحاريين: "قبل أن يمضي الانتحاري في رحلته الأخيرة، فإنّه يؤدّي عملية وضوء طقسية، يرتدي ملابس نظيفة، ويحاول تأدية صلاة جماعية واحدة على الأقل في المسجد. يلفظ الصلاة الإسلامية التقليدية المتّبعة قبل الدخول في المعركة، ويسأل الله أن يغفر خطاياه ويبارك مهمّته. يضع مصحفاً في جيبه الأيسر على صدره، فوق القلب تماماً، ثمّ يربط الشحنة الانفجارية حول خصره أو يلتقط حقيبة يدوية بداخلها القنبلة. يودّعه المخطّط بالكلمات الوداعية التالي: "ليكن الله معك، ليمنحك القوة والقدرة لتنفيذ مهمّتك وليعينك للوصول إلى الجنة". يجب المنفّذ الذي سيكون بمثابة مشروع شهيد: "إنشاء الله، سنلتقي في الجنة". بعد ذلك بعدّة ساعات، ومع ضغطه على الزناد، يصيح قائلاً: "الله أكبر"".[30]

تمضي رسالة عطا لتؤكّد الحاجة للتضرّع الابتهال خلال عملية خطف طائرات 9/11 وضمان الحماية الإلهية، العفو، والجائزة:. يكتب عطا لرفاقه في رسالة قائلاً: "في كل مكان تذهب إليه، أدّي الصلاة، وابتسم وكن هادئاً، إذ أنّ الله مع المؤمنين.

---

[29] Atta, n.d., Last Letter.
[30] Hassan, 2001, p. 41.

وستحميك الملائكة من دون أن تشعر بأي شيء». هناك إشارات قليلة في رسالته هذه إلى الغضب أو الانتقام: لكن في الواقع، الدافع المحفّز الرئيسي هو اللقاء مع الله. توضّح الرسالة أنّ الإرهابيين لم يكونوا يسعون وراء أهداف سياسية واجتماعية بل إنهم كانوا «متّجهين إلى جنّات الخلد». قال زعيم حركة حماس: «إنّ حبّ الشهادة هو شعور عميق داخل القلب. في حين أنّ هذه الجوائز ليست أهداف أو غايات الشهادة بحدّ ذاتها. الهدف الوحيد لنيل رضا الله. ويمكن تحقيق ذلك بأبسط وأسرع وسيلة ممكنة وذلك من خلال الموت في سبيل الله».(31)

نفس الموقف يظهر خلال مقابلة مع انتحاري فلسطيني كان قد نجا من محاولة فاشلة ومعركة بالأسلحة النارية مع الغزاة الإسرائيليين. وعلى غرار عطا وصف عملية تجهيزه لتنفيذ «عمليته الاستشهادية» كمبدأ ديني روحاني:

«كنّا في حالة دائمة من العبادة. لقد أخبرنا بعضنا البعض أنّه إذا كان الإسرائيليون فقط يعلمون كم كنّا مسرورين لكانوا يجلدوننا بالسوط حتى الموت. تلك كانت أسعد أيام حياتي...كنّا نطوف، نسبح، نعوم في المشاعر بأنّنا كنّا على وشك الولوج في الأبدية. لم تكن لدينا أيّة شكوك. كنّا قد أقسمنا على القرآن الكريم، وبحضرة الله... أنا أعلم أنّ هناك طرقاً أخرى للجهاد. لكنّ هذا السبيل أحلى _إنّه أحلاها. جميع العمليات الاستشهادية، إذا كانت في سبيل الله، لن تؤلم أكثر من عضّة بعوضة».(32)

بنفس الملاحظة، قاتل الطبيب خارج عيادة تحديد النسل في الولايات المتحدة يقول أنّه كان مرتاحاً عبر قراءة المزامير خلال طريقه لارتكاب جريمته. أحد مرتكبي تفجيرات مبنى التجار العالمي عام 1993 يقال أنّه أخبر الصحفيين أنّ العلمانيين

(31) Hassan, 2001, p. 36.
(32) Hassan, 2001, pp. 36–37.

الأمريكان لن يفهموا مطلقاً سبب قيامه بفعلته هذه لأنهم يفتقدون إلى «الروح... روح الدين، هذا ما يفتقدونه».[33]

[33] Juergensmeyer, 2000, p. 69.

القسم الثاني:

«منذ مدة قريبة جداً ومن خلال مسلسل أعمال العنف القربانية التي ملأت بلدي الحبيب والغالي سوريا شاهدت مقطعاً تلوى له القلوب لجماعة من الملثمين وخلفهم الأعلام السوداء كتبت عليها عبارة "الشهادة" الإسلامية وأمامهم مجموعة من القتلى وبقي هناك شاب واحد لم يكونوا قد قتلوه بعد، قرأ الملثّم "أشهد أن لا إله إلا الله، محمداً رسول الله، الله أكبر ولله الحمد... اللهم إنّا نتقرّب إليك بهذا القربان..." ثم يقومون بذبحه... المسلسل لم ينتهي هنا، بل قاموا بحزّ رأسه ورفعه استعراضاً أمام الكاميرا والجميع يصيحون "الله أكبر... الله أكبر"»

نستنتج ممّا سبق في الحلقة الماضية أنّ هجمات الحادي عشر من أيلول لم تكن عملاً سياسياً، بل كانت عملاً دينياً بالمرتبة الأولى. لذلك، العمليات النفسية المشاركة هنا هي عمليات دينية. مع أنّ الإذلال والحرمان النسبي من الواضح أنّهما يلعبان دوراً كبيراً في أغلب العمليات الإرهابية في الشرق الأوسط، فالمتغيّرات السوسيولوجية المعتادة ___ الفقر، الأمية وانخفاض مستوى التعليم، وما إلى هنالك من أسباب أخرى_ لا تلعب إلا دوراً بسيطاً ولا تقدّم لنا إلا قيمة تنبؤية ضيئلة. إحدى أفضل التنبؤات هي التديّن. تقرير لبرلمان السنغافوري حول أعضاء الخلية الإرهابية التي تمّ إلقاء القبض عليهم في جنوب شرق آسيا يؤكّد هذه الصلة: «هؤلاء الرجال لم يكونوا جهلة، معدمين، أو محرومون من حقوقهم الشرعية. فهؤلاء البالغ عدد 31 شخصاً تلقّوا تعليماً مدنياً علمانياً... وكانت لديهم أعمالاً ووظائف محترمة... كمجموعة، أغلب المحتجزين كانوا يعتبرون الدين بصفته قيمتهم الشخصية الأكثر أهمية».(1)

(1)Atran, 2003, p. 1537.

أحد أكثر الأمثلة تطرّفاً عن العلاقة بين الموت والتطهير يتمثّل في مذهب أساهارا في قتل الشخص وذلك بغية إنقاذه (ويسمى هذا المبدأ بـ "بوا poa")، والذي أخذت أهميته بالتزايد مع شعور طائفة أوم المتزايد بالخطر الذي يتهدّدها من جهة المجتمع الذي يحيط بها. هذا المذهب، قائمٌ على قراءة أساهارا للفكر الباطني البوذي التيبتي، من الواضح أنّه يقدّم نوع من التقديس للقتل موجود في جميع حالات الإرهاب الديني. بالإضافة إلى أنّ هذا المذهب يدعم خاصيّة عدم قابلية الشخص في التعاطف مع الضحايا، وبذلك يتمّ الترويج وبسهولة لما يطلق عليه العالم النفس الاجتماعي والتر (2002) اسم "الموت الاجتماعي Social Death". أغلب أعضاء طائفة أوم الباقين يظهرون افتقاراً مريعاً لمشاعر الشفقة تجاه ضحايا أعمال مجموعتهم. والأكثر تطرّفاً من ذلك هو ذلك الشخص من أحد أعضاء طائفة أوم الذي بعث ردّه لمجلّة القارئ (2000) يذكر هجمات أنفاق المترو ويعلّق عليها بعبارة: "رائعة، أليس كذلك؟" _وذلك بسبب الأنظار التي تمّ لفتها وتوجيهها للطائفة.[2]

ألقى كل من شيمازونو (2001)، إلى حدٍ ما، و واتانابي (1998، 2005)، بشكل كبير، اللوم على مذهب البوا عند أساهارا الذي كان السبب وراء جرائم أوم. وهذا سيكون مثالاً آخر عن أفكار التضحية (أمّا الشخص بنفسه أو بالآخرين) ممّا يؤدي إلى تقديس الشخص الأمر المركزي في الإرهاب الديني أو المدفوع دينياً. لكن في حالة طائفة أوم، علينا أن نتساءل سيكولوجياً، كيف يمكن لمذهب متطرّف وأصولي كمذهب البوا أن يجد طريقاً له إلى عقول البشر ويترسّخ داخلها؟ هل ذلك _كما يشير كل من شيمازونو وليفتون بكل بساطة_ بسبب إخلاصهم التام والمطلق لمعلّمهم

(2) Reader (2000) p. 222; see Maekawa, 2000 وذلك للاطلاع على العديد من الأمثلة الأخرى عن هذا الافتقار الشديد لحسّ التعاطف والشفقة تجاه الضحايا.

أساهارا؟ أم هل هناك سبب سيكولوجي أعمق يدفع الناس لقبول فكرة التضحية بالنفس (والآخرين أيضاً، في حالة البوا) عبر الموت؟ مرةً أخرى نعود إلى الصلة السيكوديناميكية بين القداسة والتطهير وبين الموت التي يمكن ملاحظتها أيضاً في العديد من الأمثلة عن الإرهاب المدفوع دينياً. إنّ سمة التطهير كانت تعتبر محورية في رسالة أساهارا منذ البداية تقريباً، هذه التقنيات يفترض أن تجعل الأفراد قادرين على تخليص أنفسهم من "الكارما السيئة" وغيرها من الشوائب الأخرى. إنّ سمات النقاوة والتطهير سمات محورية في الديانة الشنتوية باليابان، ولذلك من المؤكّد أنّه كانت واضحة في وعي أساهارا ووعي أتباعه. لكن هذه السمات موجودة بشكل معيّن في كل دين تقريباً. وهي ليست مقتصرة على الشنتوية، أوم أو الجماعات التي تمارس العنف الديني. مرةً أخرى، من الناحية السيكولوجية نحن لسنا هنا بصدد سمات التقديس والتطهير. بل تهمّنا هنا صلتها مع العنف والموت الأمر الذي يعتبر محورياً في سيكولوجية الإرهاب المدفوع دينياً. إنّ سمة التضحية بالنفس وبالآخر هذه في سبيل التقديس أو التطهير تصبحان كلتاهما بارزتان بوضوح في خطب أساهارا الدينية مع ميلان طائفة أوم شيرنيكيو أكثر نحو العنف وسعي أساهارا لتبرير أفعال مجموعته الإجرامية.[3]

بما أنّ منفّذي التفجيرات من البشر وأعضاء طائفة أوم شيرنيكيو يقومون بفعل تضحية دينية، يجادل سترينسكي (2003)، فإنّ أفعالهم موجّهة بشكل أساسي من خلال «حساب براغماتي نفعي».[4] إحدى النتائج الهامّة وربّما غير السارّة لهذا الموقف هي أنّه يخطئ في السعي لفهم الإرهابيين المدفوعين دينياً باستخدام لعبة نماذج الخيار

---

[3] Shimazono, 2001l Watanabe, 1998, 2005.

[4] Strenski 2003 p. 26.

النظري أو العقلاني الشائعة في مجال العلوم الاجتماعية في يومنا هذا.[5] استندت سياسات مكافحة الإرهاب إمّا على مداعبة رغبات الإرهابيين الدينيين الشخصية أو على إخافتهم حتى يسلّموا أنفسهم بعد استعراض مرعب للقوة لن يأتي بأي نتيجة على الأرجح. الدافع الديني إلى التضحية وقدسنة حياة شخص أو هدفه وغايته من شأنّه أن يصعّد ويُضَمَّنَ أيّة دوافع شخصية أو براغماتية بحتة. فمجرّد إدراكهم لحقيقة أنّهم يخوضون حرباً مقدّسة ويقومون بأعمال مقدسة في التضحية، وفهمهم لواقع توجّه الغرب بعيداً عن الروحانية واتجاهه نحو النفعية والبراغماتية هي أحد الأسباب لإصرار المليشيات الإسلامية مراراً وتكراراً على أنّ الغرب لن يفهمهم أبداً [*].

واقعياً، يؤكّد كل تقرير وارد عن المليشيات الإسلامية على جائزة دخول الجنة كدافع ومحفّز رئيسي للقيام بأفعالهم.[6] في الدوائر الغربية، غالباً ما يكون ذلك مصحوباً بوصف الأعداد الكبيرة من الحور العين والعذارى الجميلات اللواتي ينتظرن الشهداء الأغرار للترحيب بهم، ومع أنّ أغلب علماء المسلمين يصرّون أنّ متع ومباهج الجنّة لا تحمل الطابع الجنسي. لكن من الواضح أنّ الرغبة للقاء الله هي ذاتها بمثابة دافع ومحفّز قوي هنا.

يجيب مقاتل فلسطيني عندما سئل عن دافعه: «قوّة الروح وعزّتها هما اللتان تدفعاننا»[7] قال عطا لرفاقه الخاطفين: «عليكم أن تشعروا بهدوء كامل، لأنّ الزمن

---

(5) لاستعراض آراء ذات صلة، أنظر أيضاً: Victoroff, 2005, as well as Moghaddam & Marsella, 2004

* هناك أمثلة كثيرة عن هذا التأكيد يمكن إيجادها عبر أعمال كل من ديفز (2003) وحسّان (2001) وفي أماكن أخرى. (2003) حيث تقول النتيجة أنّه، وعلى العكس من الغرب، في المجتمعات الإسلامية بالشرق الأوسط "الليبرالية والحرية الدينية هي القيم التي تحدّد النجاح، وليس النجاح الأكاديمي أو الاقتصادي بالضرورة" [ص 175]

(6) Davis, 2003; Post et al., 2003; Hassan, 2001.

(7) Hassan, 2001, p. 37.

بينكم وبين زوجاتكم [في الجنة] قصير جداً. بعد ذلك تبدأ الحياة الرغيدة، حيث يرضى الله عنكم ويهبكم الحياة الأبدية».[8] قال مجنّد فلسطيني عن طرقه وأساليبه في التجنيد: «نحن نركّز انتباهه على الجنة، وعلى وجوده في حضرة الله عزّ وجل، ومقابلة رسوله الله صلى الله عليه وسلم، ومقابلته أحبّائه وشفاعته لهم ليدخلوا جميعهم الجنة وينجّهم عذاب النار».[9] مقاتل فلسطيني آخر، تمّ إلقاء القبض عليه من قبل السلطات الفلسطينية قبل أن يتمكّن من الشروع في مهمّته، يقول عن الجنّة: «إنّها قريبة، قريبة جداً، إنّها على مرأى ناظري. مكانها تحت الإبهام. في الجانب الآخر من الصاعق».[10]

من الواضح تماماً أنّ هذا غير مقتصر على المتدينين المتشدّدين. على العكس تماماً. الرغبة بتجربة التوحّد مع عالم متعال أو قدسي تبدو جوهرية ومتأصّلة في جميع الأديان عملياً، سواء أكان مصدراً أولياً كونياً لا اسم له للأوبانيشاد، تصوفاً مسيحياً من مذهب الأفلاطونية المحدثة، بوذية الماهايانا، أو المعبود الشخصي الآخر في الهندوسية التعبدية، المسيحية التقوية، أو معلم يوغا تيبتي، أو الخالق عزّ وجلّ في الديانتين التقليديتين اليهودية والإسلام. هذه الرغبة في الاتحاد الروحي ربما قد تكون بمثابة القلب النابض في كل دين حي.

الأمر المحصور والمقتصر على الديانات المنغلقة والمتشدّدة هو العلاقة بين الرغبة في الاتحاد الروحي وبين العنف، وخصوصاً العنف الذي يميّز أفعال القتل القربانية أو أعمال التطهير الأخروية. قد تكون هذه العلاقة القوية جداً بين الرغبة الروحية العالمية

---

(8) Atta, n.d., Last Letter..
(9) Hassan, 2001, p. 40.
(10) Hassan, 2001, p. 40.

والروحية مع سمات التضحية الدموية والتطهير عن طريق العنف هي التي تحوّل التوق الروحي إلى أعمال إرهابية.

من ناحية سيكولوجية، لماذا يكون سفك الدم ضرورياً من أجل الخلاص؟

يبدو أنّ الأمر متعلّق هنا بصورة الله _صورة الإله المنتقم، المعاقب، والذي يمثل صورة السلطة الأبوية القاسية والمستبدّة. يجب على المؤمن أن يجد طريقة للارتباط بكائن قدير يظهر رغبة بتدمير المؤمن. لذا يجب على المؤمن أن يذلّ ويهين نفسه، شاعراً بنفسه بأنّه لا قيمة له وأنه غارق في مشاعر الذنب وتأنيب الضمير. علاوةً على ذلك، على البشر استرضاء هذا الكائن القدير والجبّار، واسترضاؤه. لذا يجب تقديم قربان دموي. لذلك فإننا نعود مرة أخرى إلى تركيبة صورة الإله المنتقم الجبّار والقاسي، الإصرار على التطهير والخلاص بأي شكل، وخاصية القربان الدموي[**].

الإله الذي يطلب قرابين أو أضاحي كوسيلة للتطهير هو عبارة عن إله غاضب ومنتقم. هنا يمكن لعالم النفس الديني أن يساهم في المناقشة من خلال الإشارة إلى بعض الارتباطات في هذه الصورة لله. هنالك بحث يقترح أنّ _على الأقل بالنسبة للسكان الملتزمين دينياً_ الصورة الغاضبة والناقمة لله مرتبطة بموقع خارجي

** روث شتاين (Stein, n.d.-b, p. 6) تقترح نموذجاً مساعداً للغاية للتعاقب الخطي للمراحل السيكولوجية في عملية تحويل التضحية إلى إرهاب انتحاري□ المرحلة الأولى تتضمّن التفريق والتمييز بين النقي أو الصافي وبين الدنس والرغبة في حماية كل ما هو مقدّس ونقيه□ المرحلة الثانية هي الاستخراج من نشاك أكثر نشاطاً، على سبيل المثال، التزاماً أكثر صرامةً وشدةً بالطقوس، إذا نمت الحاجة لفصل المقدّس عن المدنّس وأصبحت أكثر إلحاحاً. وهذا من شأنه أن يتعاظم من محاولات لتجاوز عملية فصل المدنّس وغير المقدّس ليتحوّل إلى عملية لإزالتهما، بشكل عنيف إذا لزم الأمر. وهنا تبدأ الرغبة في إرضاء الله والرغبة بالقتل بالظهو□ المرحلة الثالثة تمثّل انتقال هذا الموقف إلى موقف الشهادة، حيث لا يضحّي الشخص بأعداء الله بل يسعى أيضاً لتنقية ذاته من خلال عملية التطهير الذاتي.

للسيطرة، القلق والكآبة، وعلاقات أخرى أقل صلة بالموضوع.[11] وقد وجد أنّ العكس يصحّ أيضاً، فكلّما كان التمثيل الداخلي الخيّر لله أكثر ارتباطاً مع التطوّر النفسي الناضج والقدرة على إقامة علاقات أكثر نضوجاً. إنّ استيعاب أي مؤمن أو مؤمنة لعلاقات الموضوع يوجّه تعبيراته أو تعبيراتها الدينية.[12] وهذا يضعنا أمام سياق نظري وتجريبي في آنٍ معاً حيث أنّ أي شخص يتصوّر الله ككائن منتقم أو جبّار سيميل أيضاً نحو انشقاق أكثر تطرّفاً ويكون أقل قدرةً على التعاطف _نفس الآثار التي تميّز العديد من أنماط الإرهاب الديني.

لذلك فالتضحية والخلاص، هما عبارة عن تحوّل دموي وروحي أصبحا مرتبطين عندما كان استرضاء الإله بالتضحية عملية مذلّة وتأديبية. لكن لم يكن هناك إله متعالي في طائفة أوم. وكما يشير واتانابي بذكاء ودهاء، عندما كانت لدى أساهارا رؤيته التي أضفت عليه مسحة مسيحية، لم تكن النتيجة ديناً يتضمّن إيماناً لذلك الإله ــــ بل بدلاً من ذلك طائفة تقوم على الإخلاص لأساهارا نفسه. لا هل كان أساهارا نفسه يخدم كائناً مقدّساً وجباراً آخر ينبغي استرضاؤه عن طريق الخضوع له والتضحية بالنفس وبالآخرين في سبيله؟ بإمكاننا أن نظنّ ذلك، لكننا لا نعرف حقاً. يمكننا أن نقترح أنّه مهما كانت الصلة السيكولوجية بين التطهير وسفك الدم، الذي يبدو فعالاً جداً في الكثير من أعمال العنف المدفوعة دينياً، ومن المحتمل أنه كان موجوداً عند بعض أعضاء طائفة أوم على الأقل.

من وجهة نظر سريرية، الأمر الأبرز والأكثر وضوحاً في التوجّه نحو العنف من ناحية الدين تتمثّل في مشاعر الخزي والعار، الانفصال الأبوكاليبتي للعالم إلى معسكر

---

(11) Brokaw & Edwards, 1994l Spear, 1994.
(12) Jones, 1991.

للخير من جهة ومعسكر الشر من جهة أخرى، الصورة الغاضبة للإله المنتقم والجبار، الدافع للتطهير، والاهتمام الاستبدادي بالاستسلام والإجحاف ضدّ الدخلاء.[13] تقترح الأبحاث أنّ مشاعر الذل والمهانة قد تكون عناصر حيوية وحاسمة في أغلب أعمال العنف الديني. بإمكان الدين أن يصبح مساهماً كبيراً في أعمال العنف الناتجة عن مشاعر الإذلال والعار بإحدى الطرق التالية أو بالأخرى أو بكلتيهما معاً. أولاً: قد يشعر الناس بالعار والإذلال بالظروف التي يمرّون بها خلال حياتهم (الظروف التي يعانيها الفلسطينيون تحت الاحتلال الإسرائيلي، الشيشان تحت الاحتلال الروسي، والعراقيين تحت الاحتلال الأمريكي)، وقد يلعب دينهم على تلك المشاعر بالذل والعار والمهانة، ممّا يعمل على تنشيطها وتحويلها لأغراضه [الدين] الخاصة. علينا ملاحظة أنّ الدين قد يُسْكِت ويحوّل ذلك الشعور بالذل بدلاً من تعزيزه أو تنشيطه، كمحاولة الدالاي لاما مع أبناء التيبت الذين يرزحون تحت الاحتلال الصيني، وكما فعل مارتن لوثر كينغ تجاه عمليات إذلال الأمريكيين الأفارقة من قبل العنصريين الأمريكان.

ثانياً، قد تحثّ الأديان بشكل مباشر وتفاقم مشاعر الذل والعار. فصور الإله المنتقم والغاضب، سيد أو زعيم ينتقد أو يذلّ أتباعه وعبيده، أو نص مقدّس يقرأ بطريقة تعزّز مشاعر الذل والمهانة، جميعها طرق يمكن للدين أن يعزّز من خلالها تلك المشاعر ويقوّيها. هنا أصبح بمقدورنا رؤية بعض العلاقات والارتباطات بين هذه الخصائص التي تُرى مع بعضها في حالات الإرهاب الديني، وهي الصورة الانتقامية للإله الجبّار والمتسلّط أو بعض الموضوعات الدينية الأخرى وسلوكها نحو العنف تحرّكها مشاعر الذل والعار. واقتراحي هو كالتالي أنّه عندما يتم تناول فكرة الإلهي

---

(13) Altemeyer & Hunsberger, 1992.

والمقدّس، أو المنحرف، أو النص المقدّس كمصدر للإذلال والشعور بالعار، يتزايد احتمال العنف. لقد جادلت سابقاً[14] أنّ التأليه كان أمراً محورياً ومركزياً للدين وللعنف الديني (وأيضاً لعملية التحوّل الديني، طالما أنّ العنوان الفرعي لكتابي هذا هو "غموض الدين"). هنا أنا أراجع تلك الأطروحة التي تقول أنّه ليس فقط التأليه هو الأمر المحوري في علم نفس الإرهاب الديني بل أيضاً المواضيع المقدّسة أو المؤلّهة التي هي بذاتها أيضاً تعتبر مصدراً للعار والإذلال. العلاقة السيكوديناميكية مع أي شيء مقدّس والتي تنتج عبر العنف الديني ليست مجرّد رابط لموضوع مؤلّه بل، بالإضافة إلى ذلك، لإذلال مؤلّه لموضوع قاهر ومطلق القوة. ربما لهذا السبب نرى الديانتين الهندوسية والبوذية، اللتان يتمتّع أتباعهما أيضاً بصلات مع مواضيع مؤلّهة _هياكل الكائنات الإلهية المقدّسة أو السادة المستنيرين_ نادراً ما تنتج أفعالاً عنفية. هذه المواضيع، في حين أنّها مؤلّهة، نادراً ما تكون مذلّةً و مستبدّة. وعندما تتحوّل إلى مستبدة ومذلّة (كما في حالة أوم شيرنيكيو وأتباع كالي)، عندئذٍ تتحوّل هذه المجموعات إلى جماعات عنيفة [***]. بالإضافة إلى أنّ الدراسات المطبّقة على المؤمنين

---

(14) Jones, 2002.

*** في سلسلة من الأوراق العلمية، اقترحت روث شتاين أنّ الرابط مع الموضوع المؤلّه أو المطلق أو المستبد ينتج في حالة سيكولوجية تصفها بأنّها "العلاقات الشهوانية والفاسدة بين نوع معين من المؤمن وإلهه، حيث أنّ الشهواني والعنف يجتمعان معاً" [Stein, n.d.–b, p. 6]. تسمّي شتاين هذه العلاقة بـ"الرغبة الأفقية vertical desire"، وهي التوق الباطني للاندماج مع الآخر المؤلّه المستبد والمذِلّ. حول هذه النقطة بالضبط الشروط والاستقطابات المتعارضة على نحو كبير مع التفكير الأصولي... فالأصولية ليست مجرّد نمط روحي للفصل أو للافتراق، بل إنّها نمط روحي للتباين والتفاوت... فالأصولية تدور حول التباين والأفضلية... [ومن ضمنها] تفضيل الله للمؤمنين" [p. 10]

تقترح روث شتاين أنّ الإرهاب الديني مدفوع عن طريق الحب، ليس كره–حب والرغبة المصاحبة للاتحاد مع أب مذلّ بدائي، تحت غطاء إله. لذلك إذا كان الإرهاب الديني عبارة عن حالة نكوص، فإنّه نكوص إلى الأب البدائي، وليس إلى الأم البدائية. كما أنّها تجادل أنّ العنف المتديّن يظهر عملية "تتضمّن تحوّلات للكراهية (والكراهية الذاتية) حب مؤلّه، حيث أنّ الموضوع الداخلي الاستبدادي يتحوّل إلى موضوع متسامي". لذلك "تستند الأصولية القسرية على علاقة أب–ابن عنيفة، شاذّة جنسياً" [صـ 10] هناك نوع من التعبير العلني عن الكره الذاتي خلال مقابلات

الدينيين في شمال أمريكا تشير إلى أنّ الصور المعاقبة لله تميل إلى أن تكون مرتبطة بمكان خارج عن السيطرة، الافتقار إلى التعاطف والشفقة تجاه الآخرين، النزوع تجاه الانفصال السيكولوجي احترام أقل للذات. مرةً أخرى، قد تكون هناك علاقات وارتباطات بين التجربة التأديبية للمقدس، الميزات الشخصية الاستبدادية، ونداء الاستقطاب الأبوكاليبتي للعالم. إضافةً إلى ذلك، التفخيم الذاتي الذي يجادل يورغنزماير[15] بأنه يأتي من كونه جزءاً من جيش الصالحين قد يكون له نداء خاص إلى أولئك الذين يحتاجون لتعزيز مشاعر احترام الذات وتقديرها.

مسجّلة مع إرهابيين دينيين. بأي حال، على اعتبار النزعة الحكموية المتطرّفة والمبادئ الأخلاقية المتشدّدة المسيرة عبر منطقة الأنا العليا في النفس البشرية عند العديد من الإرهابيين، فمن المعقول الاعتقاد أنّ النزعة المازوخية ومشاعر الكره الذاتي قد تكون كامنة تحت السطح. تجادل شتاين أنّ الدين الأصولي يحوّل هذه المشاعر بالكره الذاتي المازوخية إلى مشاعر حب تجاه الله الأب الذي يطلب من أتباعه أن يكرهوا أنفسهم ويزدروها. بناءً على أبحاثه في الآليات السيكولوجية للحركة النازية في ألمانيا، يجادل ريتشارد كونيغسبرغ Richard Koenigsberg (1975) أنّ الإرهاب والمجازر الجماعية كلاهما ينبثق من إخلاص وإيمان بموضوع مؤلّه، مطلق، قدير ومنيع سيكولوجياً، وليكن الدولة، الله، الحزب، وهلمّ جرا. (نسخ من أوراق كونيغسبرغ ذات الصلة بالموضوع متوفّرة في موقع Psy.BC على شبكة الإنترنت)

في مكان آخر [Jones, 2002]، كنت قد جادلت أنّ نفس الآليات يمكن إيجادها في نصّ أوتو الكلاسيكي، (1958) "فكرة المقدس The Idea of the Holy". إنّ وصف أوتو للمقدّس كـ " mysterium tremendum" يحمل نفس هذا السياق بالحضور الغامر والمطلق والذي لا يمكننا الخضوع لأي شيء آخر سواه. بطرق مختلفة، يوافق كل من شتاين وكونيغسبرغ وأنا أنّ "الآخر المؤلّه، المطلق، المستبدّ أو المذلّ هو المتورّط الوحيد في ارتكاب مختلف أعمال الإرهاب الديني والإبادة الجماعية".

(15) Juergensmeyer (2000).

القسم الثالث:

إنّ الدافع للاتحاد مع، عن طريق الخضوع له، هذا الموضوع المُذِل لكن المؤلّه يلغي كافة الرغبات البشرية. الرغبة في التقرب إلى الله تطغى على جميع الصلات التي تربط بين الكائنات البشرية وبديلها عن طريق إجمال الصلة مع الله وحده. عن طريق التماثل مع الله وما يفترض به أن يكون منظور الله، تبدو الكائنات الحية الأخرى ضئيلة وتافهة. مقابل تلك الأديان التي ترى أنّ كل روح بشرية جوهراً ثميناً بشكل مطلق ولا تقدّر بثمن، مخلوقة على صورة الإله، فإن الإرهابي يشكّل صوراً دينية في مخيّلته عن الكائنات البشرية كأشياء غير مهمّة ولا قيمة تذكر لها ضمن سياق خطّة الله الأبدية العظيمة. هذه ديانة مركّزة على الطاعة، الخضوع، التطهير، ونيل الفضل الإلهي. قد يسمّي البعض هذه الخصائص بأنها الخصائص المركزية في أي دين أبوي. مع أنّ هناك شهداء من النساء في كل من فلسطين والشيشان، إلا أنّ حوادث الحادي عشر من سبتمبر كانت أعمالاً ذكورية بحتة. طبعاً، أغلب الجماعات الدينية المتشدّدة محكومة من قبل ذكور. لذلك يشكّل علم النفس الديني الأبوي جزء لا يتجزّأ من علم النفس العام.

فرويد نفسه يقدّم لنا أحد أعمق التحليلات للديانة الأبوية في كتابه "الطوطم والتابو Totem and Taboo (تحليل أعمق لفكرة الطوطم والتابو يمكن إيجادها في عمل جونز Jones 1996). هنا، الازدواجية الغريزية هي المفتاح لفهم أصل ونشأة الدين والثقافة. في البداية يكّن أبناء القبيلة البدائية مشاعر الكره والضغينة لأبيهم، الذين يقفون في طريق رغباتهم اللامحدودة. لكنّهم يحبّونه ويكنّون له الاحترام أيضاً. وبعد قتله، تعاود عاطفتهم تجاهه بالظهور مرة أخرى، والتي ينبغي عليهم

إنكارها وذلك لقتله، كمشاعر ذنب وندم. وهكذا يتولّد الشعور بالذنب الذي تقوم عليه كافة الديانات.

الأبناء القتلة لذي اغتالوا أباهم البدائي، روّاد الثقافة والدين، عليهم أن يتصالحوا مع عودة مشاعر الذنب المكبوتة. ينبغي العثور على أب بديل. وكمريض فرويد الرهابي "هانز الصغير" _الذي أسقط خوفه من والده على حيوان_ فالأبناء المذنبون أسقطوا مشاعرهم على الحيوان، أو الطوطمية totemism، وبهذا الشكل، نشأ ما يسمى الآن بالدين. إنّ الطوطمية هي بداية كل دين، والإيمان بالإله الأب هو النهاية. بقي فرويد مقتنعاً أنّ جذور كل دين هي "التوق إلى الأب". الموضوع الديني الأول، الطوطم، يمكن وحده أن يكون الأب البديل. مع مرور الزمن ومع انطواء الجريمة البدائية بين طيّات اللاوعي، هناك موضوع دخل حيّز الوعي كان أكثر شبهاً بالأب الضائع _إله "حيث اتخذ فيه الأب لنفسه شكله وصورته الإنسانية".

الميراث الأوديبي للدين الأبوي قد أصبح العدسات التي يرى فرويد من خلالها كامل التاريخ الديني. "فإله كل واحدٍ منها تمّ تشكيله على صورة الأب، علاقته الشخصية بالإله تعتمد على علاقته بوالده... في القاع نجد أنّ الأب ليس أكثر من مجرد أب متعال". فرويد كان مقتنعاً أنّ قتل الأب وعملية رجوعه المستمر في الخيال والثقافة هي المفصل الذي يدور فيه تاريخنا، لذلك كان من السهل بالنسبة إليه قراءة عملية التطوّر الديني نحو الأمام والخلف ابتداءاً من تلك النقطة.

إنّ النظرية الأصلية لعملية الاستبطان في كتاب "الحِداد والميلانخوليا Mourning and Melancholia" تتضمّن فكرة أنّ الولد قد يستبطن صورة لوالدته، لأنّها الموضوع المفقود. لكن في الفصل الثالث من كتاب "الأنا والهوية The Ego and the Id"، يعقّد فرويد النظرية المبكّرة (على سبيل المثال، باستحضار

صنف الثنائية الجنسية) للمجادلة في أنّه لكي يتخلّص ذكور _أي نوع_ من عقدة أوديب، يقوم صُنّاع الثقافة، بترك ارتباطهم آنياً بأمهم ويستبطنون صورة أباهم. حيث أنّ الصورة المستبطنة للأب، كأنا مثالي، هي مصدر الثقافة والدين. في حالة حلّ عقدة أوديب الذكرية يتمّ استبدال الارتباط بالأم بتماثل مع الأب.

نفس الاستبدال للتأثير النسوي بآخر ذكوري يجري في عملية التنظير التحليل-نفسية، كما أنّ الفترة ما قبل الأوديبية، أو فترة الهيمنة الأمومية قد قلّت قيمتها لصالح المركزية التطويرية للمرحلة الأوديبية التي تهيمن عليها سلطة الأب. بالالتزام بالتوازي بين التطوّر الفردي والثقافي، يعترف فرويد بأنه لا يستطيع إيجاد أي مكان "للإلهة الأم العظيمة، التي قد تكون سابقة للآباء الآلهة بشكل عام". هذه الملاحظة توازي بالتأكيد حقيقة أنّه لا يقدر على إيجاد أي مكان مناسب ضمن نظريته للفترة الأمومية ما قبل الأوديبية في مسيرة تطوّر الكائن البشري باستثناء استبدالها بنظام أبوي معياري. مع مجيء المرحلة الأوديبية شخصياً وما قبل تاريخياً، عادت الأخلاقيات المعيارية للنظام الأبوي. "مع إنتاج الآلهة الأبوية تحوّل المجتمع اللا-أبوي إلى مجتمع منظّم على أساس أبوي بطرياركي. كانت العائلة إعادة تجميع أو لم شمل القبيلة البدائية الأولى وقد أعادت إلى الآباء جزءاً كبيراً من حقوقهم السابقة".

في رسالة وجّهها إلى فرويد، رداً على كتابه "مستقبل وهم The Future of an Illusion "، طرح صديق فرويد وتلميذ الديانات الهندوسية ومؤرّخ راماكريشنا وفيفيكيناندا، رومain رولاند Romain Rolland أصل ما قبل أوديبي للدين في "الشعور بشيء لا متناهي، غير محدود كما كان، شاسع... حقيقة ذاتية شخصية بحتة، وليست مقالة من مقالات الإيمان". أنكر فرويد _إذ أنّه ألزم نفسه بمركزية الأب، الإله الأب، الصراع الأوديبي، والجنس الذكري_ زعم رولاند أنّ الدين ينبثق من

الآليات المادية ما قبل الأوديبية. التعريف الوحيد للدين الذي سيأخذه فرويد بعين الاعتبار هو الدين البطرياركي للشريعة ومشاعر الذنب المبنية حول الإله الأب.

تحليل فرويد للدين يعتمد على صورة محدّدة للإله. الإله الأبوي للشريعة والضمير هو الدين الوحيد الذي سيأخذه فرويد بعين الاعتبار. فإذا كان فرويد قد تخلّى عن التمثيل الأبوي للإله كمعيار، لفقدت حجّته معظم قوّتها. يعيد فرويد إنتاج الفكر التوحيدي الحصري والبطرياركي للدين الغربي في نظريته عن الأصول الأوديبية والأبوية للثقافة، الدين، والأخلاق. يجب أن يصرّ فرويد بأنّ الدين أبوي جوهرياً، إذ أنّه الدين الوحيد الذي يتناسب مع إطار الدراما الأوديبية والقادر على اشتقاقه بسهولة من نظرية الغريزة.

في عملية ربط الأخلاق بقوة مع عقدة أوديب حتى "يتلاقي الدين، الأخلاق، والمجتمع في عقدة أوديب"، يصرّ فرويد أنّ الأخلاق تتضمّن بشكل أساسي على قواعد ومحرّمات. ميل فرويد لتحديد الأخلاق على مجموعة من المحرّمات والموانع، كتقييده للدين على الإيمان بالإله الأبوي، ينبع بشكل طبيعي من مركزية المرحلة الأوديبية في نظريته. مرةً أخرى، تمّ نسيان أهمية المرحلة المادية الأوديبية. تماماً كما يمكن لمختلف أشكال الدين أن يكون لها جذورها العميقة في الآليات الأوديبية المادية، فكذلك الأخلاق. بجانب الأخلاق ما بعد الأوديبية الأبوية للشريعة والسلطة، قد يكون هناك أيضاً أخلاق مادية ما قبل أوديبية للارتباط والعلاقة. إنّ تقدير سلامة ومركزية الآليات الما قبل أوديبية قد يدلّ على أخلاق ارتباط حيث يكون الحفاظ على العلاقات بين الناس أكثر مركزية من فرض القواعد. مثل هذه الأخلاق قد تمّ اتخاذها من قبل العديد من الكاتبات النسويات. هذه النظرة العلائقية النسوية

إلى التفكير الأخلاقي توازي النظرة العلائقية للطبيعة البشرية الموجودة في مجال التحليل النفسي المعاصر.

يشير تحليل فرويد إلى العلاقات السيكوديناميكية العميقة بين الثقافات الأبوية، الآلهة الأبوية، والأديان القائمة على مشاعر الذنب. هذه العلاقات، شائعة في تاريخ الأديان، ليست عرضية، بل يمكن تفسيرها عن طريق عقدة أوديب وفهمها ليس كضرورة بيولوجية بل كتعبير ثقافي. إنّ عملية استكشاف للآليات الأوديبية تكشف لنا عن الأساليب التي يتماثل من خلالها الذكور في أي ثقافة أبوية مع الأب ويستبطنون حوافز السيطرة والخضوع، مميّزين التجارب غير الشخصية للقوة والسلطة، والحجة للمسافة والبعد. عندما يُواجَه ما يعتبر مقدّساً في إطار هذه التماثلات الذكرية، يتمّ اختبار الدين في سياق الهيمنة والخضوع والسلطة المتعالية السيطرة. علاوةً على ذلك، عندما تكون الأخلاق محسوبة في هذا السياق، تكون النتيجة مرةً أخرى مبادئ وقواعد أخلاقية مدعّمة بالسلطة والقوة المقدّسة. هذا من شأنه أن يطوّر ديانة أبوية تتركّز على شريعة وسلطة إلهيتين حيث يكون الخضوع لسلطة الأب وقانونه هو الفرض الأخلاقي الأول والشعور بالذنب هو العاطفة الدينية الرئيسية.

جنباً إلى جنب مع آليات النظام البطرياركي، هنالك عنصر سيكوديناميكي آخر في أغلب أعمال الإرهاب الديني وهو هذا الانقسام المانوي للعالم إلى خير مطلق وشر مطلق، إلى صافي ومدنّس، فئات وجماعات. يصف فايربرين كوكبة سريرية تظهر على خارطة جماعات إرهاب ديني معينة. من أجل الحفاظ على تجربة الأهل بصفتها "خير"، يقوم الطفل غير المستقلّ بفصل أيّة تجربة عن السوء أو الشر عن الأهل ويسقطها على نفسه. يحافظ الطفل على نظرة مؤلّهة للأبوين وذلك على حسابه هو،

مختبراً نفسه كشخص سيء ويرى الأبوين، اللذين يعتمد على خيرهما، كخير مطلق. يقوم الطفل بتعقيم صورة الأبوين وتطهيرها على حساب احترامه الخاص لذاته، حيث يقوم بحماية تأليهه لهما عن طريق إسقاط ألم ومرض علاقتهما على نفسه، حيث أنّه يحمل على عاتقه "عبء السوء". وبذلك تمّ خلق حالة انقسام في تجربة الطفل، ولاحقاً في تجربة البالغ، بين موضوع أبوي خارجي مؤلّه، مطلق الخير وذات سيئة بالكامل.

يمكن للشخص عندها قلب تجربة كونه سيئاً على نفسه. هنا يمكن للدين أن يلعب دوراً رئيسياً حاسماً. ضمن ذلك السياق السيكولوجي، فالتلاقي مع آخر مؤلّه ومطلق (إله ربما، أو معلّ ديني، نص، أو مؤسّسة تدّعي لنفسها القداسة والكمال) يثير تجربة انفصال إلى منطقة خير كلّي ومنطقة شر كلّي. إنّ تأليه الآخر تعني تشويه الذات والتقليل من قيمتها وكل شيء يمتّ لها بصلة. هذا الانفصال شائع في تلك المجتمعات الدينية التي تطلب من أتباعها أن يتذلّلوا ويقلّلوا من قيمة أنفسهم وأن يتحسّروا على تفاهتهم ويبكونها في وجه آخر مثالي ومطلق الكمال. ليس من قبيل المصادفة أن يستخدم فايربرين لغة ثيولوجية لوصف هذا العَرَض الإكلينيكي وفصل تلك النتيجة منه، مطلقاً عليها تسمية "الدفاع الأخلاقي ضدّ الأشياء السيئة" ويقول "أنه من الأفضل أن تكون مخطئاً في عالم محكوم من قبل إله من أن تعيش في عالم محكوم من قبل الشيطان".

هناك إمكانية أخرى _بالإضافة إلى تحويل عبء السوء ضدّ النفس_ لطرد الشعور بالسوء من النفس عن طريق إسقاطه على العالم الخارجي. هنا مرةً أخرى، يمكن للدين أن يسهّل مثل هذه الحركة. قد يتماثل الشخص _تحت ثقل هذا الإحساس بالسوء_ مع تراث مقدّس أو جماعة مؤلّهة ثم يسقط الشعور بالسوء على

شخص آخر أو جماعة خارجية أخرى، وبذلك يرى الجماعة الأخرى، أو الجنس، أو الدين الآخر كشر مطلق. إنّ تجربة السوء التي خبرها الشخص داخل نفسه مؤلمة جداً لدرجة أنّ عليه أن يفرّغها في معظم الأحيان عن طريق إسقاطها أو تسليطها على جماعة أخرى محتَقَرة. الجماعات الدينية التي تشجّع على مثل هذا الفصل للعالم إلى خير مطلق وشر مطلق غالباً ما تجد الآخرين أنّهم شياطين ويسقطون مشاعر السوء عليهم. قدّمت دراسات وأبحاث أجريت على التطرّف والإرهاب الديني أمثلة عديدة عن هذه الآليات. ليس من قبيل المصادفة أنّ هذه الأبحاث قد وجدت أنّ أكثر الجماعات المتطرّفة في أيضاً أكثرها عنصرية، كراهيةً، ومعاداةً للسامية. وهذا هو الدافع السيكولوجي لما يطلق عليه يورغنزماير اسم "الشيطنة satanization". هذا الاستصغار والاحتقار للآخرين، هو نتيجة حتمية تقريباً للدفاع الأخلاقي بتأليهه المبالغ لفكرة انفصال العالم وانشقاقه إلى معسكرين مطلقين، يجعل من الآخر المحتقر أو المستصغر ضحية جاهزة للعنف الإرهابي.

في وجه الموضوع غير النقدي والمبالغ في تأليهه، يختبر أتباع الديانات مشاعر الذل والعار والشعور بالسوء، والتي يقلبونها ضدّ أنفسهم من جهة، خلال طقوس وشعائر الاستنكار الذاتي والدّنس، والآخرين من جهةٍ أخرى، عن طريق شيطنتهم بصفتهم دَنِسين وضالّين. هذه المشاعر من العار والذل قد تثير لاحقاً مشاعر شديدة من العدائية، والتي يمكن إسقاطها فيما بعد على الآخر المشيطن إمّا في عالم الخيال أو عن طريق إنزال تدمير أبوكاليبتي أو، إذا زادت شدّة عدائيتها، عن طريق أعمال إرهابية فعلية لتطهير العالم.

اقتراحي في هذه الورقة هو أنّ الخصائص والسمات الدينية العامة كالتطهير purification أو البحث عن حالة توحّد مع مصدر الحياة يمكن أن تصبح

متضمّنة ضمن الآليات اللاواعية كعملية الفصل والانقسام المانوي للعالم إلى معسكر للخير المطلق، معسكر للشر المطلق، أو في الدافع للاتصال مع آخر أبوي مؤلّه مُذِلّ أو مهين واسترضاءه. النتيجة هي الظروف أو الشروط السيكولوجية المسبقة للإرهاب الديني.

الدين السياسي: بديل عن الدين، أم أنه دين جديد؟*

إميليو جينتيل**

«من المعروف أنّ جهازنا المنطقي هو عبارة عن آلة ناقصة وعاجزة. فالكلمة، تلك الأداة التي لا غنى عنها، كانت دائمًا لديها الميل لخداعنا وتضليلنا بإظهارها البرّاق للحقيقة اللامعة والمباشرة، وكلما ازداد اهتزاز ميزان الزمن أو الوقت، كلّما عظمت مخاطر الكلمات التي تدّعي انضواء الحقيقة بين حروفها. من جهةٍ أخرى، يجب أن يكون نقاشنا بسيطاً قدر الإمكان. إذ أننا سنترك مهمّة الدراسة العميقة للآخرين.» [جوان هوزينغا]

دين عَلماني

تنتمي الديانات المدنية والسياسية لظاهرة أكثر عمومية وشمولية: "الدين العَلماني Secular Religion". ويستخدم هذا المصطلح لوصف نظام متطوّر بدرجة أكبر أو أقل من المعتقدات، الأساطير الطقوس، والرموز التي تخلق هالة من القداسة حول كينونة تنتمي في الأصل لهذا العالم وتحوّلها إلى طائفة وموضوع للعبادة والتكريس. والسياسة ليست وحدها في هذا الأمر، فأي نشاط إنساني من العلم حتى التاريخ أو من التسلية والترفيه حتى الرياضة يمكن أن استثماره في مجال "القداسة الدنيوية أو العلمانية Secular Sacredness" وأن تصبح موضوعاً للعبادة والتقديس عند

* يمثّل هذا المقال الفصل الأول من كتاب جينتيل السياسة كدين Politics as Religion.

** بروفيسور التاريخ المعاصر في جامعة لاسابينزا La Sapienza في روما، معروفٌ عالميًا بدراساته وأبحاثه التي تتناول موضوع الدين في مجال السياسة. ألّف أول دراسة شاملة ومستفيضة عن الإيديولوجيات الفاشية ومنظمة الأحداث السياسية والثقافية. يرى الكاتب أنّ الفاشية كانت التجربة التوتاليتارية الأولى في التاريخ لأنها ولّدت شكلاً جديدًا من أشكال الحكم السياسي الذي غطّى كافة نواحي الحياة المدنية للمواطنين.

طائفة علمانية معيّنة، وهذا ما يدعى "ديناً علمانياً". في مجال السياسة، غالباً ما يؤخذ مصطلح "الدين العلماني" كمرادف لمفهوم الدين المدني أو الدين السياسي.

قد لا يبدو هناك أي شك حول نسب مفهوم "الدين المدني" لجان جاك روسو Jean Jacques Rousseau، الذي قدّمه لتعريف دين المواطن الجديد الذي اعتبره عنصراً أساسياً من عناصر الديمقراطية. كان هذا الدين المدني متميّزاً ومختلفاً عن المسيحية، وبطريقة ما كان معادياً له. وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين، تمّ تبنّي تعبير الدين العلماني بوضوح للتعريف الإيديولوجيات والنماذج التي حاولت استبدال الأديان الميتافيزيقية التقليدية بالمفاهيم الإنسانية الجديدة التي خلقت منظومة عقائدية خاصة بالإنسانية، التاريخ، الأمة، والمجتمع. من جهةٍ أخرى، تمّ إرجاع مفهوم "الدين العلماني" بشكلٍ عام إلى عالم الاجتماع الفرنسي رايموند آرون Raymond Aron، الذي استخدمه في مقالة له كتبها عام 1944 لتعريف المذاهب التي تعِد بالخلاص للجنس البشري في هذا العالم. في الحقيقة، كان هذا المصطلح يستخدم منذ بواكير الثلاثينات. محرّر مجموعة المقالات التي تتناول الدكتاتورية، التي نشرت عام 1933، لاحظ أنّ الطرافة غير المألوفة للدكتاتورية المعاصرة المتعلّقة بدكتاتوريات العالم القديم كان يمكن إيجادها في:

"التقنيات القوية والفعّالة في السيطرة على الجماهير من خلال وسائل الدعاية عن طريق الراديو، السينما، الصحافة، التعليم والديانات العلمانية التي قاموا بصنعها وقولبتها بأنفسهم".

في عام 1936 كتب عالم اللاهوت البروتستانتي أدولف كيللير Adolf Keller يقول أنّ البلشفية حوّلت النظام الفلسفي العلمي الذي تمتاز به الماركسية إلى "دين علماني". وبعد عامين، أجرى الصحفي الإنكليزي فريدريك فويت Frederick A.

Voigt تحليلاً مقارناً بين الماركسية والاشتراكية القومية، آخذاً بمعالجتهم كأديان علمانية.

لذا، كان مفهوم الدين العلماني قيد الاستخدام خلال فترة الثلاثينات كتعريف معترف به للأشكال التي خلقت فيها الأنظمة الاستبدادية طوائف وشيع سياسية. أمّا بالنسبة لمصطلح "الدين السياسي Political Religion"، فيُنسب بشكلٍ عام إلى الفيلسوف النمساوي إيريك فوغلين Eric Voegelin، الذي نشر كتابه "الأديان السياسية The Political Religions" عام 1938. هنا مرةً أخرى، تمّ استخدام المصطلح قبل نشر كتاب فوغلين، استعمله كوندورسيه Condorcet في زمن الثورة الفرنسية. أبراهام لينكولن Abraham Lincoln عرّف تبجيل وتوقير القوانين التي وردت في الدستور وإعلان الاستقلال بأنها "الدين السياسي للدولة". أطلق لويجي سيتيمبريني Luigi Settembrini على حركة "إيطاليا الشابّة Giovine Italia" _الحركة الوطنية_ تسمية "الدين السياسي الجديد". استخدمت الفاشية بشكل واضح المصطلح منذ العشرينات لتحديد وتعريف وجهة نظرها التوتاليتارية الفاشية في السياسة. وفي عام 1935، قام المؤرّخ النمساوي كارل بولانيي Karl Polanyi بدراسة "الميل نحو الاشتراكية القومية لإنتاج الأديان السياسية"، في حين أنّ اللاهوتي الأمريكي راينولد نيبور Reinhold Neibuhr طبّق هذا المصطلح على الماركسية والشيوعية.

مع أنّ هذه المصطلحات كانت مستخدمة منذ زمن ليس بقليل، إلا أنه لم يحدث إلى في منتصف الستينات أن أصبحت الأديان المدنية والسياسية موضوعاً للبحث المنظّم والنقاشات الجادة التي يمكن أن تثار أحياناً. ويمكننا تذكّر الجدال الويل الذي أثارته مقالة تناولت موضوع الدين المدني الأمريكي والتي قام بنشرها عالم الاجتماع

الأمريكي روبرت بيلاه Robert Bellah عام 1967. فبعد تعريف الدين بأنه «مجموعة من المعتقدات، الرموز، والطقوس بالإضافة إلى احترام وتبجيل عميق للأشياء المقدّسة والمؤسّسة في مجموع الشعب ككل» صرّح بيلاه أنّه كان هناك بعد ديني للسياسة إلى جانب الديانات التقليدية لكنه متميّز ومختلف عنهم. مستعيراً المصطلح من روسو، قام بتعريفه على أنه دين مدني، تطوّر وتأسّس من خلال منظومة متكاملة من المعتقدات ، الرموز، والطقوس التي منحت بعداً دينياً للتجربة القومية الأمريكية.

في الفترة الأكثر حداثةً، ازداد الانتباه إلى الدين العلماني وأصبح موضوع دراسات جديدة كإحدى الظواهر في عالم السياسة. ركّزت هذه الدراسات بشكل أساسي معالمها الطقسية والرمزية، وغالباً ما عزلتها عن الاعتقادات، الأساطير، والدوغما التي كانت مجرّد تعبير، من أجل معالجتها بشكل مجرّد أو مبدأي كأدوات سياسية نافعة في الغزو والحفاظ على القوة. اليوم يمكننا الروع إلى العديد من الأبحاث والدراسات التي تحتوي على أوصاف مفصّلة وتحليلات مقارنة للعلامات الرئيسية للتقديسات السياسية في كل من الدول الديمقراطية والشمولية أو التوتاليتارية، بالرغم من أنّ تعريف الدين العلماني ما زال موضوع نقاش حاد. يتضمّن الخلاف حتمياً أيضاً ديانات مدنية وسياسية وسماتها ومميّزاتها الخاصّة.

أيضاً أبديت بعض الشكوك حول الوجود الفعلي لدين مدني أمريكي. ورفعت أيضاً الاعتراضات في وجه مفهوم الدين العلماني، وهناك أيضاً أولئك الذين يرفضون فكرة أنّ أي ظاهرة سياسية يمكن تعريفها كدين أو كظاهرة دينية. على سبيل المثال، هؤلاء الذين يقولون أنّ النظم العقائدية التي تشير إلى وجود كائن خارق ومفارق للعالم يمكن اعتبارها ديانات صحيحة وحقيقية يجادلون بأنه لا يمكن أن يكون هناك

شيء يمكن تسميته بالدين العلماني. فبالنسبة لهم يبدو مصطلح "الدين العلماني" كنوع من المصطلحات التصورية التي تتكوّن من لفظتين متناقضتين على غرار "دائرة مربّعة". يجادل آخرون بأننا يجب أن نتجنّب استعمال مصطلح "الدين" عندما نصف حركات سياسية تتبنّى أشكالاً معيّنة من الكلمات، طقوس، ورموز دينية، وبأقصى الحالات الرغبة في التسليم بأنّ تلك الحركات يمكن تعريفها "كأديان مزيّفة أو كاذبة Pseudo-religions" لأنها ببساطة ظاهرة سياسية ترتدي عباءة دينية من أجل خداع وتضليل الجماهير. ومع ذلك يدّعي آخرون أنّ اعتبار الحركة السياسية بأنها ديانة ليس أكثر من مجرّد استعمال كناية أو استعارة لفظية من نوع ما. وهذا يعني أنّ الحركة السياسية لا يمكن اعتبارها ديانة أصلية ودراستها من هذا المنظور. نستنتج من ذلك، أنّ وجهات النظر هذه تقترح أنّ الدين العلماني _وبذلك الدين المدني أو السياسي_ غير موجود ببساطة. فأي إنسان يقول أي شيء غير ذلك قد أساء فهم الكناية أو المجاز الذي يعبّر من خلاله عن هذا العالم وبذلك لم يعرف حقيقة الدين. وبدلاً من ذلك، فإنهم ضحايا وهم قادهم للاعتقاد "بدين الرفض".

من الواضح أنّ تعريف الظاهرة الدينية يلعب دوراً مضللاً ضمن هذا الخلاف والجدال الدائر حول ما إذا كان هناك ما يسمى بالدين العلماني في العالم الحديث. على سبيل المثال، إذا كان تعريفك للدين مستند على وجود لاهوت خارق للطبيعة ومفارق للعالم، فإنك ستنكر حقيقة أنّ أي نظام عقائدي يمتلك كياناً دنيوياً مقدساً يمكن أن يكون ظاهرة دينية. بأيّة حال، إذا قبلنا بهذا التعريف، فسنكون ملزمين بأن ننكر البوذية كظاهرة دينية، لأنها لا تسمح بوجود الله، بينما الدين السياسي النازي يمكن اعتباره كظاهرة دينية، لأنه لم ينكر وجود إله، بالرغم من أنه قولب ذلك الإله وفق عقيدته الخاصة. بأية حال، ليس جميع العلماء والباحثين يربطون الظاهرة الدينية

بوجود كيان لاهوتي خارق للطبيعة. هذا الوجود لا يعتبر بأنه لا غنى عنه من قبل علماء الاجتماع وعلماء الإنسانيات، الذين ينظرون إلى الدين كظاهرة اجتماعية وثقافية، بمعنى منظومة مكوّنة من اعتقادات، أساطير، طقوس، ورموز تعبّر عن المبادئ العامة والقيم الشائعة بين أفراد المجتمع الكلي. أساساً، هناك مجموعة ضخمة ومتنوعة من التفسيرات والتأويلات للظاهرة الدينية، والبعض منها يجعل من الممكن أن يتضمّن بعض الظواهر السياسية ضمن سياق أوسع للظاهرة الدينية.

تضليل الجماهير

في نهاية القرن التاسع عشر، غايتانو موسكا Gaetano Mosca، أحد مؤسّسي علم السياسة، زوّدنا بصياغة كلاسيكية ما يمكن أن يطلق عليه "بتضليل الجماهير Crowd manipulation" كتفسير للدين وتقديس السياسة أدرِك كمجرّد وسيلة أو حيلة مخترعة من أساطير دينية على ما يبدو، ورموز وطقوس تمّ تبنّيها بشكل شعوري لأسباب دعائية وديماغوجية. في مقالة "الطبقة الحاكمة The Ruling Class" (العنوان الأصلي لهذه المقالة هو: Elementi di scienza politica, 1895) يناقش موسكا في نفس الفصل الكنائس، الشيع والمذاهب الدينية، والأحزاب السياسية، ويضع مؤسّسي الأديان ومؤسّسي المدارس الاجتماعية-السياسية ضمن نفس الفئة. فقد لاحظ أنّ المجموعة الأخيرة "هي أنصاف أديان خالية من العنصر القدسي". وهو يرى أنّ المذاهب الدينية والأحزاب السياسية تتصرّف بنفس الطريقة، و "طالما أنّ أتباعها مخلصين لها وللعَلَم، فإنهم يتسترون عنها ويبرّرون أعمالهم الخبيثة السيئة". طالما أنهم مهتمّون، من يأخذ العادة فإنه يتحوّل لشخص مختلف تماماً. موسكا يرى أنّ السمات القطسية والرمزية للحركات السياسية

كانت شكلاً علمانياً ودنيوياً من أشكال المكر اليسوعي التي تستخدم لخداع وتضليل الجماهير:

«يمكن لأي مدقق أن يلاحظ _عند التدقيق القريب_ أنّ الحيل التي يستخدم لإقناع الجماهير متشابهة تقريباً في جميع الأزمان والأماكن، بما أنّ المشكلة هي دائماً محاولة استغلال نفس نقاط الضعف عند الإنسان. فكافة الديانات، وحتى تلك التي تنكر وجود كيانات خارقة، لها أسلوبها الحماسي الخاص بها، وطقوسها التي تميّزها عن غيرها، نصوصها، وخطاباتها التي تحمل أفكارها ومكوّناتها. كل منها لديها طقوسها وعروضها المبهرة والبرّاقة التي تستثير الخيال. بعضها يقدّم استعرضه بالشموع الموقدة وبإنشاد الابتهالات والتضرّعات. وأخرى تسير خلف أعلام ورايات حمراء على نغمة النشيد الوطني الفرنسي Marseillaise. كل الأديان وكل الأحزاب التي تأسّست مع جرعة خفيفو أو ثقيلة من الحماسة الخالصة لتقود الإنسان نحو أهداف معيّنة قد استخدمت _بدرجات متفاوتة_ أساليب مماثلة للأساليب اليسوعية الماكرة، وفي بعض الأحيان أسوأ بكثير إذ أنّ المذاهب والأحزاب السياسية في يومنا هذا ماهرة جداً في خلق السوبرمان، البطل الأسطوري، الرجل النزيه بالمطلق، الذي يسعى _بدوره_ للحفاظ على بريق العصابة ويجلب الثروة والقوة للماكرين ليستخدموها».

لا وجود لأيّ دراسات أو اعتبارات أخرى حول طبيعة الدين السياسي أو المدني مطلوبة لأولئك الذين يشتركون في هذا التفسير: إنه وببساطة شديدة وسيلة ديماغوجية للسيطرة على الجماهير. فقد طبّق المؤرّخ ألفونس أولارد Alphonse Aulard هذا التفسير على المظاهر الدينية للثورة الفرنسية، كطائفة تؤلّه العقل والكائن الخارق. فقد قال أنّ المذاهب أو الطوائف الثورية لم تكن سوى حلولاً مؤقتة فرضتها الحرب كان حلمها هو نشر النزعة الوطنية بين الجماهير وحثّهم للقتال ضدّ

أعداء الثورة في الداخل والخارج. بنفس الشكل، ترجم غوغليلمو فيريرو Guglielmo Ferrero عام 1942 عملية تقديس وتأليه السياسة كعملية شرعنة وتبرير للسلطة عن طريق إحاطتها "بحالة تأجّج ديني تمجّدها وتقدسنها وتضفي عليها قيمة متعالية":

«هذا الإعلاء والتعالي لا يمكن إدراكه إلا من خلال عملية بلورة عاطفية من الإعجاب، الامتنان، الحماس، والحب حول مبدأ الشرعية الذي يحوّل نقائصها، قيودها وعجزها وافتقارها للقواعد والمبادئ العامة إلى شيء آخر مطلق وملهم ومتعالي. هذا التأججّ وهذا الاعتراف الكلي والقوي والخالص والممتع _لكن الواهم_ للسلطة المتفوقة هو صاحب الفضل في إضفاء الشرعية لتحقيق أنضج وأكمل درجة من الفعالية، والتي بدورها تحوّل تلك الشرعية إلى نوع من أنواع السلطة الأبوية.

ما هي الغاية لتحقيق هذا الاكتمال للشرعية؟ هناك العديد من الأدوات التي يمكن استخدامها، إلا أنّ الفن كان أحد أهم تلك الأدوات وأقواها. الرسم، النحت، والهندسة لم تكن متعاونة فقط مع الحكومات الملكية والأرستقراطيات التي كانت سائدة في العهد القديم، بل مع كافة أشكال الحكومات وفي جميع الأزمنة والعهود، عن طريق تقديم الأعمال الرائعة للجماهير والتي تستعرض عظمة وتفوّق السلطة فيما يتعلّق بكونها نقطة مركزية في العالم وفي حياة الناس الدنيوية التي يجب أن نضيف إليها هذه الاستعراضات، الآراء العسكرية، عروض الانتصار، جمعيات المحاربين، المهرجانات العظيمة العامة، بهاء العظمة الدينية، والاحتفالات العامة ومراسيم أخرى من هذا النوع».

حسب ما ورد في هذا التفسير، تمثيل السياسة من خلال الأساطير، الطقوس، والرموز لا يمكن اعتباره كظاهرة دينية على الإطلاق، بل ينبغي تفسيره وبشكل حصري في سياق الابتكار الواعي للأساطير والممارسات الشعائرية لطبيعة نفعية وذات فاعلية جوهرياً. فهي وسائل ديماغوجية تحتاج إلى طرق جديدة لتأسيس شرعية السلطة وصونها وتأكيدها في مجتمع الجماهير.

الكثير من الأمثلة التاريخية يمكنها أن تؤكّد أنّ هذا في الحقيقة كان مصدر وطبيعة بعض العلامات ومظاهر تقديس السياسة وتبجيلها. من جهة أخرى، النظرية التي تقول أنّ كل المظاهر التي تدلّ على تقديس السياسة يمكن تفسيرها من خلال ظاهرة التلاعب بالجماهير أو تضليل الجماهير، هي نظرية غير مقنعة، وخصوصاً إذا طبّقت على المظاهر أو السمات الدينية للحركات الجماهيرية، والتي ثبت أنها ليست في جميع الأحيان غايات نهائية. فبتحديد نفسها كتفسيرات نفعية لحالة التقديس السياسية، يسعى تفسير التلاعب بالجماهير بشكل فعال ليجد حلاً بالغ البساطة لتبسيط السؤال المعقد والثقيل الذي يتعلّق بالبعد اللاعقلاني للإيمان Faith والاعتقاد Beliefe في السياسات الجماهيرية وبشكل أكثر عموميةً في التجربة الإنسانية ككل.

الحاجة إلى الإيمان

هذا التفسير الإيماني للدين، كما عبّر عنه غوستاف لوبون Gustave Le Bon في نهاية القرن التاسع عشر، جاعلاً وجود الديانات السياسية والمدنية من الأمور التي تبدو معقولة. فحسب قول لوبون، إنّ مفهوم الدين لا يفترض بالضرورة وجود كيان لاهوتي متعال. فالآلهة ما هي إلا من ابتكار خيالنا:

"من دون شك أن الإنسان هو من اخترع الآلهة، لكنه سرعان ما أصبح فيما بعد خاضعاً لهم بعد أن اخترعهم بفترة جد قصيرة. فهي ليست نتاج الخوف، كما يزعم

لوكريتيوس Lucretius، بل هي نتيجة الأمل، ولذلك يتحوّل تأثيرهم إلى تأثير أبدي... طبعاً، الآلهة ليست خالدة، لكن جوهر الدين هو الأزلي والأبدي. هذا الجوهر يتحوّل إلى جوهر بليد لفترة، ثمّ يستيقظ من جديد ما أن يخترع كيان مقدّس جديد».

لوبون، الذي درس سيكولوجية الجماهير، اعتبر أنّ الدين بأي شكلٍ كان فإنه يظهر نفسه على أنه تعبير عن مشاعر إنسانية لم يقدر على كبتها. إذ ينشأ الدين من أكثر الغرائز الإنسانية تحتّماً، ويطلق عليها تسمية "الحاجة إلى إخضاع الذات لعقيدة دينية، أو سياسية أو اجتماعية، مهما كانت الظروف".

هذه العاطفة الوجدانية تتمتّع بخصائص بسيطة جداً، كالخوف من كائن يفترض بأنه خارق، الخوف من القوة التي يفترض أنّ ذك الكائن الخارق يمتلكها، الخضوع الأعمى لأوامره ونواهيه، عدم مساءلة أو مناقشة نواقصه، الرغبة في نشرها، والميل إلى اعتبار جميع الذي لا يقبلون بها على أنهم أعداء أزليين وأبديين. وسواء أكان هذا الشعور ينطبق على إله غير مرئي، أن على وثن مصنوع من الخشب أو من الحجر، على بطل أو على فكرة أو مفهوم سياسي، فجوهره يبقى دائماً دينياً. فالفرد لا يعدّ متديّناً فقط عندما يعبد إلها أو كينونة مقدّسة ما، بل عندما يضع كل مصادره وطاقاته العقلية، ويخضع بإرادته الكاملة، وحماسته الروحية الكاملة وتعصّبه الأعمى في خدمة قضية أو فرد يمثل الهدف والمشروع الأساسي لأفكاره وأفعاله».

المعتقدات الدينية التي ظهرت نتيجة هذا الشعور الوجداني هي القوى الأساسية والمبدئية التي تخلق وتؤسّس الإمبراطوريات والحضارات. فقوة الدين يمكن إيجادها في قدرته على قولبة وتشكيل شخصية الجماهير بتلقينهم المشاعر والاهتمامات والأفكار المشتركة وزرعها في أذهان الأفراد الذين يتمثلونها بدورهم. وهذا ما ينتج

عنه قوة هائلة لتوليد الحماس والفعل ولتوجيه الطاقات الفردية والجماعية باتجاه هدف واحد وغاية واحدة، الانتصار لمعتقداتهم: فغالبية الأحداث التاريخية خلقت بشكل غير مباشر من خلال تنوّع الأفكار الدينية واختلافها. فالتاريخ الإنساني يسير بشكلٍ متوازٍ مع تاريخ الآلهة. إذ أنّ ولادة آلهة جديدة حدّد فجر حضارة جديدة".

استخدم لوبون مثال الثورة الفرنسية لدعم تفسيراته عن تقديس السلطة السياسية، حين رأى العالم عندها "ما الذي تقدر الروح الدينية على فعله، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه كان ديناً جديداً ذلك الذي تمّ تأسيسه، والإلهام الذي كانت تقدّمه لجميع الناس. الإلهيات التي كانت تزدهر حينذاك كانت من دون شك هشّة للغاية لكي تستمرّ، لكن خلال فترة وجودها، كانت تطبق سيطرتها الكاملة". كان يرى أنّ المجتمع الحديث أو المعاصر، حيث كان يدور في صراع بين الأديان التقليدية البائدة وبين التطلّعات الجماهيرية إيجاد كيانات إلهية وعقائد جديدة، سيكون بمثابة تربة خصبة لخلق وترسيخ الديانات العلمانية الجديدة والقوية. كان لوبون يؤمن أنّ الاشتراكية هي التي ستكون المثال.

المفكرون الآخرون الذين درسوا الاشتراكية خلال العقود الأولى من القرن العشرين تبنّوا أيضاً هذه النظرة. فعندما كان روبرت ميتشيلز Robert Michels يدرس سوسيولوجية الأحزاب السياسية، لاحظ أنّ الجماهير "تختبر نوعاً من الحاجة الماسّة إسقاط وتحطيم أنفسهم، ليس ببساطة أمام مذبح الأفكار والنماذج العظيمة، بل أيضاً أمام الأفراد الذين يعكسون في أعينهم تلك النماذج. إنّ إعجابهم بهذه الكيانات الإلهية الدنيوية هو الجزء الأكثر عماءً بالنسبة لحياتهم البسيطة".

هنري دي مان Henri De Man المفكّر والناشط الاشتراكي، اعتبر ترسيخ الاشتراكية كديانة جماعية جديدة قائمة على الإيمان، الذي كان يمثّل "حاجة

سيكولوجية" عميقة عند الجماهير. فقد نشأت وسحبت بشكل مستمر صفة الاستمرارية والحماس من "الغريزة الغيبية Eschatological Instinct" التي حوّلت تماسك الطبقة وتكافلها من مجرّد حافز اقتصادي بحت إلى "قضية للحماسة والاتقاد والثورة". أضاف دي مان أنه ما أن يحدث هذا التحوّل، فإنه يتبع "بظواهر من السيكولوجيا الجماهيرية _أو علم النفس الجماعي_ تكون انبثاقات الوعي العقلاني في الفرد لمصالحه صغيرة جداً" ولا يمكن وصفها إلا من خلال "استخدام مصطلح تاريخ الأديان the history of religions وسيكولوجية المعتقدات Psychology of beliefs". أهمّ شيء في هذه الظواهر هو الغريزة الغيبية، "الحنين إلى أوضاع وظروف أفضل في المستقبل"، والتي تعبّر عن نفسها على هيئة "خير مطلق Absolute Good"، وكان هذا هو "الميل أو الاتجاه نحو المطلق الذي أفعم حركة العمّال الاشتراكيين بطبيعتها الغيبية الدينية". حسب ما يرى دي مان، هذا التلهّف الغيبي كان "الأساس العام والمسيحي لكافة منظومات الأساطير والرموز التي تعبّر عن الحياة العاطفية للحركة الاشتراكية"، وبالاجتماع مع الأسطورة الأساسية للثورة، التي "حفّزت بشدّة المشاعر التي تسترجع الرؤى الغيبية الأخروية للنهاية التنبؤية الإنكشافية، نهاية العالم، الحكم الأخير، مملكة الرب، وما إلى هنالك"...

يقترب التفسير الإيماني من دراسة السمات الدينية للحركات السياسية من الناحية المقابلة الأخرى، لأنه لا يدّعي أنّ القادة دائماً ليس هم وحدهم المعنيون في عملية الإنتاج الاصطناعي للأساطير والطقوس السياسية لخداع وتضليل الجماهير والتحكّم بهم. بالمقابل، إنه يتقبّل حقيقة أنّ الأساطير والطقوس يمكن أيضاً أن تكون هي وسيلة التعبير التلقائية والعفوية للجماهير، ناتجة عن حاجتهم إلى الإيمان والمعتقدات، والتي يشبعونها حينئذٍ عن طريق خضوعهم وإخلاصهم لقائد ما أو إيديولوجيا

تعدهم بحياة أفضل وبالخلاص. الدين المدني أو السياسي، الذي جرى إدراكه وفهمه بهذا الأسلوب، ليس مجرّد حيلة ويمكن في الحقيقة أن يشكّل نواة ديانة جديدة تستجيب لحاجة الجماهير إلى الإيمان والمعتقدات الجديدة لتسيير حياتهم وتوجيهها، كما يحدث خصيصاً أثناء فترات الجيشان العميق عندما تكون المعتقدات القديمة في حالة انحدار ويصبح الأمل في عالم أفضل وأكثر أمناً هو الحالة الملحّة.

آلهة المجتمع

النظرية الوظيفية Functionalist Theory للدين التي طوّرها إيميل دوركهايم Emile Durkheim عام 1912 تتعلّق في جزء منها بالنظرية الإيمانية للظاهرة الدينية. فقد رأى أنّ الدين هو عبارة عن "نظام موحّد من المعتقدات والممارسات المتعلّقة بأشياء وأمور مقدّسة، بمعنى آخر، أشياء مميّزة ورفيعة ومحاطة بمنظومة من التابوهات والمحرّمات _معتقدات وممارسات توحّد أتباعها في مجتمع أخلاقي واحد يدعى الكنيسة".

ووظيفتها تتمثل في رفع الناس إلى ما وراء أنفسهم ومساعدتهم على عيش حياتهم بمستوى رفيع داخل المجتمع الكلي الذي ينتمون إليه. الدين هو الحالة التي يدخل فيها الفرد، في حالة نفسية "انفعالية"، في حالة نشوء أو حماس، حيث يتجاوز نفسه أو نفسها من خلال الانغماس العميق والكلي في الجموع ككل التي ينتمي هو أو هي إليها. بهذا السياق أو المعنى، التجربة الدينية "هي قبل كل شيء دفء، حياة، حماس، إعلاء لكل النشاطات العقلية، انتقال الفرد إلى ما وراء ذاته".

بالنسبة لدوركهايم، لا يتطلّب الدين وجود كائن متعال وخارق للطبيعة، لأنّ التجربة الدينية عنده ليست أكثر من مجرّد تعبير عن جملة أو كلية الحياة الجمعية. أمّا المقدّس فهو المجتمع ذاته، والمجتمع يبجّل نفسه.

"الصور الدينية هي صور جمعية تعبّر عن عوالم جمعية، والطقوس هي طرق أو أساليب تمثيلية تتولّد فقط ضمن جماعات مجتمعة والقصد منها الاستثارة والتحفيز لإعادة خلق حالات عقلية وذهنية معينة في هذه الجماعات".

الأشخاص الذين يؤسّسون مجموعة يشعرون بأنهم موحّدون ويحافظون على تلك الوحدة قدر الإمكان طالما أنهم يتشاركون مجموعة من الأعراف والمعتقدات ويمارسون بانتظام الطقوس والشعائر اللازمة لتلك المعتقدات. "وقوة الدين هي الشعور بالإلهام الجمعي الذي يفعل فعله في أفراده، لكن الإلهام المتوقع من الخارج والمجسّم عن طريق العقول التي تشعر به. فهو يصبح مجسّماً من خلال رسوّه في الجسم الذي سيصبح عندئذٍ مقدساً، لكن يمكن لأي جسم أو شيء أن يعلب نفس الدور".

تعبّر المعتقدات الدينية عن وحدة وهوية المجتمع الكلي، في حين أنّ الطقوس هي أشكال من السلوك التي تلعب دوراً في تحفيز، الحفاظ، وتجديد وحدة وهوية الجماعة من خلال رجوعهم إلى كيانات دينية مشتركة، والتي مكن أن تتمثل في أشياء، حيوانات [طوطم]، أشخاص أو أفكار. فعملية مشاركة الأفكار والمعتقدات المتعلقة بأشياء مقدّسة، كالأعلام أو الرايات مثلاً، الأرض الأم، الوطن، شكل من أشكال المنظمات السياسية، بطل، أو حادثة تاريخية هي معتقدات إلزامية لن تتمكّن أي جماعة من رفضها أو تدنيسها.

"فبالنسبة لنا يمثل الوطن الأب، الثورة الفرنسية، جان دارك كيانات مقدّسة ورموز مبجّلة ولن نسمح لأيّ أحد أن يهينا أو يدنّسها".

لذلك حسب دوركهايم، حتى منظومات المعتقدات الجمعية أو الكلية وأساطيرها وطقوسها التي تمّ تأسيسها لكي تعيد التأكيد وبانتظام وحدة وهوية الجماعة السياسية

ما هي إلا ظواهر دينية أو، بمعنى أكثر تحديداً، هي دين علماني ليس مرتبط بالضرورة بعقيدة أو إيمان بوجود كائن مفارق وخارق للطبيعة. إنه يستخدم مصطلح الثورة الفرنسية ليبيّن ميل جماعة معيّنة، وبشكل أخص خلال فترات "الانفعال والجيشان الجماعي Collective Effervescence" لخلق كيانات لاهوتية جديدة عن طريق تقديس معتقداتها وأفكارها. خلال السنوات الأولى للثورة، وتحت تأثير النزعة الحماسية التي انتشرت كالنار في الهشيم، كان يوجد نوع من الدعم الشعبي للدين الجديد وكل ما يتعلّق فيه من المعتقدات، الأفكار، الرموز، المراكز، والنشاطات التي أنتجت بشكل تلقائي مثل هذه الكيانات المقدّسة كالوطن، الحرية، والعقل، والتي كانت مجرّد أمور ومفاهيم علمانية ودنيوية بحتة. مالت الثورة إلى مكافأة هذه "التطلّعات العفوية أو التلقائية" بشكل رسمي عن طريق التأسيس لمذهب العقل والكائن الأعلى.

يزعم دوركهايم بأنّ الدراسات التي أجريت على الطوائف أو الشيع الثورية على يد المؤرّخ ألبرت ماثييز Albert Mathiez أكّدت اعتباراته الخاصّة للثورة الفرنسية، وهذه الدراسات بدورها استخدمت مفهوم دوركهايم للدين. بعكس أولارد، اعتبر ماثييز الطوائف الثورية على أنها علامات عفوية وتلقائية لديانة جديدة ولدت من رحم التجربة السياسية للثورة. وقد عرّفها بأنها "الدين الحقيقي True Religion"، لكنه دين عابر، لأنه يتضمّن كل العناصر الأساسية الشائعة التي تشترك فيها جميع الأديان: الإيمان faith، بمعنى آخر، مجموعة من المعتقدات الإلزامية التي تمّ التصريح عنها كعناصر وأفكار دوغمائية غير قابلة للجدل، والعبادة worship، بمعنى، مجموعة من الرموز والشعائر التي تعبّر عن تلك المعتقدات والأفكار. إنّ الجوهر السياسي لهذا الدين كان يتمثل في الوطنية patriotism

والأمل أو التوقع المسيحي في إعادة التجديد أو الانبعاث من جديد regeneration، أمّا الدوغما الخاصة به فكانت تتمثل في القانون Law، الدستور The Constitution، المساواة Equality، التحرّر Liberty، وسيادة الشعب Sovereignty of the People.

يعتبر التفسير الوظيفي أنّ أصل أي ظاهرة دينية هو نتاج أصولي تلقائي لأي جماعة موحّدة، ولذلك فإنه لا يستثني إمكانية أن تكون ولادة الأديان الجديدة التي تؤلّه المجتمع والسياسة هي في الواقع ظاهرة دينية. طبعاً، غالبية العلماء والباحثين الذين يجرون دراساتهم على ظاهرة الأديان المدنية، والتي يمكن ملاحظتها كمنظومات عقائدية، أساطير، مبادئ، وأنماط من التصرفات الرمزية تعبّر عن القيم الأساسية والمتطرّفة في المجتمع، وتخضع للنظرية الأصولية.

علامات القداسة في العالم المعاصر

في النهاية، إنّ وجود الدين السياسي أو المدني يبدو معقولاً، إذا كنا نشير إلى مفهوم "المقدّس sacred" الذي طوّره اللاهوتي الألماني رودولف أوتو Rudolf Otto عام 1917. فحسب هذه النظرية، المقدّس، والذي يعتبر بأنه "نوع من التأويل والتقدير الخاص بمجال الدين"، هي تجربة روحية متعذّر وصفها ولا يمكن استيعابها وفهمها بطريقة عقلانية ويمكن خوضها أثناء الخشوع. هذا المصطلح، الذي صاغه أوتو، يشير إلى مظاهر القوة الهائلة، الغامضة، والجليلة التي، من خلال سحرها وطبيعتها الملهمة، تستثير مشاعر التبعية المطلقة في كل من يختبرها، لكن في نفس الوقت نلاحظ أنها تنتج طاقة غير عقلانية "تشغل مشاعر الإنسان، تقوده إلى حالة من "التأجّج الدؤوب" وتملأه بشعور من التوتر الديناميكي غير المحدود وكلا الحالتين في سياق الزهد والحماس مقابل العالم واللحم، وفي سياق السلوك البطولي

حيث ينفجر الحماس الداخلي نحو إلى العالم الخارجي". والأديان تتولّد من التجربة الخشوعية الروحية للمقدّس.

الأمر هنا يستلزم افتراضاً نظرياً للزعم بأنّ البعد السياسي لا يمكن أن يكون بمثابة مرحلة التجارب الخشوعية الروحية والمظاهر التي يتمثّل فيها المقدّس. فعلى مرّ التاريخ، لطالما استغِلّت القوة أو السلطة السياسية ذات الطبيعة المقدّسة، وحتى عندما لم ترتبط بلاهوت مفارق بشكل مباشر. فحسب علم الأجناس البشرية الديني Religious Anthropology، القوة المطلقة هي من أهم خواص المقدّس، في حين أنّ علم الأجناس البشرية السياسي Political Anthropology يوضّح أنّ هالة من القداسة تنبثق دائماً من أولئك الذين يملكون القوة أو السلطة. في العصر الحديث، قد تظهر الدولة _بعد أن حرّرت نفسها من التقديس الذي منحها إياه الدين التقليدي_ كواقع روحي وكقوة مطلقة وملهمة تستثير مشاعر التبعية الكاملة. وحتى الحرب الحديثة يمكن إدراكها كتجربة مقدّسة عنيفة وبذلك تسهيل عملية تشكّل معتقدات دينية جديدة موجّهة نحو كيانات دنيوية، كالأمّة على سبيل المثال، الشعب، أو العرق. على الأرجح أنه ليس من قبيل الصدفة أنّ كتاب أوتو عن المقدّس قد نشر خلال فترة الحرب العالمية الأولى وقد حقق نجاحا فورياً. الفيلسوف الإيطالي أدريانو تيلغير Adriano Tilgher اتجه بشكل واضح إلى نظرية الخشوع numinous ليفسّر عوامل انتشار الأديان العلمانية الجديدة التي أخذت بعد الحرب العالمية الأولى مكان الأديان الإنسانية، التطوّر، والعلم، "من خلال محاولة الحضارة الغربية ملء الفراغ الذي حلّ بالروح جرّاء انحدار الديانة المسيحية وهبوطها." في بداية الحرب العظمى، وعقب انحدار الديانات العلمانية للقرن التاسع عشر، كتب تيلغير عام 1938 يقول:

"هامت المشاعر الروحية في حالة من الحرية والنقاوة بحثاً عن أهداف ومصطلحات جديدة لتفرغ نفسها فيها، تماماً كما تهيم الشحنة الكهربائية في الغيوم حتى تجد لنفسها مكاناً مناسباً تفرغ نفسها فيه. وبعد الحرب مباشرةً، أفرغت نفسها داخل أهداف جديدة: الدولة، الوطن، الأمة، العرق، الطبقة، والتي بدورها كانت كيانات يجب الدفاع عنها ضدّ الأخطار الأخلاقية أو أحد تلك الأخطار التي يتوقع منها كل شيء".

فترة ما بعد الحرب [الحرب العالمية الأولى] شهدت إحدى أكثر الفترات التي انتشر فيها التوجّه الروحاني على الإطلاق . فقد شهدنا ولادة آلهة جديدة بأمّ أعيننا. ولا بدّ أن تكون أعمى وأصمّ عن كافة العوالم الحالية إذا لم تكن قادراً على أن تدرك حقيقة أنّ العديد من دولنا وأوطاننا وأعراقنا وطبقاتنا المعاصرة ليست مجرّد موضوعات لحماسنا التبجيلي والتقديسي فحسب بل هي أيضاً موضوعات لتبجيلنا الخرافي. فهي عبارة عن مصطلحات تنتمي في الأصل إلى عالم المشاعر الروحية لأنّها يتمّ إدراكها كحالة حضور يتعالى على حياتنا اليومية وهي بذلك تحفّز وتستثير كافة المشاعر المتناقضة والأحاسيس الجيّاشة، ولا يمكن ملاحظتها إلا في حالات الخشوع الروحي numinous: الحب والرعب، الإلهام والخوف. فهي تولّد الدوافع التي تقود إلى التبجيل والتقديس والإخلاص. يعدنا القرن العشرين بإضافة بعض الفصول الجديدة في تاريخ الحروب والصراعات الدينية (حيث يعتقد أنّ القرن التاسع عشر قد انقضى وبأننا قد تجاوزناه): تلك هي نبوءتي التي قد يثبت صحتها في جميع الحالات".

المواقف الروحية في عالم السياسة الحالي تحدث خلال الثورات، عندما تتحوّل السياسة إلى مكان "للجيشان الجماعي" العنيف والتي ترتبها بنفسها لتسيطر عليها

بنجاح يمكن الافتراض بأنها شرارة مقدّسة، لأنها تظهر كعلامة لقوة جبّارة ورهيبة. في العصر الحديث، أصبحت الثورة بذاتها عبارة عن كيان دنيوي مقدّس في الحالة التي يتمّ تخيّلها بها، الرغبة فيها، السعي ورائها، واختبارها.

أخيراً، يمكن للحداثة أن تكون المكان المفضّل لولادة أديان جديدة، لدرجة أنها فترة الغليانات والانتفاضات التي تحطّم كافة اليقينيات الألفية وتجرّ الإنسانية إلى دوّامة التغيير الدائم. "العالم المعاصر بأسره هو _من جديد_ في حالة بحث عن ديانة"، كتب بينيديتو كروك Benedetto Croce في بداية القرن العشرين. فقد قال أنّ مشكلة الحضارة المعاصرة كانت فوق كل المشاكل الدينية: إذ ينبع الشعور الديني من الحاجة إلى مفهوم جوهري عن الحياة والعالم، ولتوجيه وإرشاد العلاقة بينهما. فمن دون الدين وبغياب إرشاداته، لا يعود بمقدورك عيش حياتك، أو أنك ستعيش حياةً تفتقر للسعادة، وستعاني روحك من التشتت والاضطراب. طبعاً، من الأفضل أن يكون لدينا ديانة تتوافق مع الحقيقة الفلسفية إلى حدٍ ما، على أن تكون لدينا ديانة قائمة على الأساطير والرموز. لكن من الأفضل أن يكون لدينا أي ديانة قائمة على الأساطير، على ألا يكون لدينا دين على الإطلاق. مع الأخذ بعين الاعتبار أنه لا أحد يتمنى أن يقضي حياته تعيساً، فكل إنسان يسعى جاهداً _بشكلٍ واعٍ أو من دون وعي_ ليخلق ديناً من أجله.

خلال نفس الفترة، ارتأى دوركهايم أنّ الحداثة ستفضّل عملية خلق أديان جديدة حتى خارج الميدان التلقيدي للأديان التاريخية، كما حدث بالضبط خلال الثورة الفرنسية، لأنّ الحداثة تفرز مواقف كثيرة من التفتت والتصدّع، وعدم اليقين، وحالات الاضطراب الدائم. فكل مجتمع يشعر بالحاجة لإعادة تأكيد وإعادة تجديد "المشاعر والأفكار الجماعية التي تشكّل وحدته وهويته وشخصيته".

الآن، هذه الرؤيا الأخلاقية يمكن تحقيقها من خلال وسائل اللقاء، الاجتماع أو الجمهرة والتجمّعات، حيث يتواصل الأفراد فيما بينهم بشكلٍ أقرب، ويؤكّدون بشكل عام على مشاعرهم المشتركة: لذلك تلك المناسبات لا تختلف أهدافها، نتائجها، وأساليبها عن المناسبات الدينية. ما الاختلاف الجوهري بين تجمّع للمسيحيين وهم يحيون ذكرى لحظة معيّنة من حياة المسيح، أو اليهود الذين يحتفلون إمّا بعيد الخروج من مصر أو يحيون ذكرى مناسبة إعطائهم الوصايا العشر، ولقاء بين المواطنين الذين يحيون ذكرى تشريع أخلاقي ما أو قانون معيّن أو ذكرى حدث عظيم في تاريخ الأمة؟

لقد فقد الإنسان المعاصر إيمانه بالديانات التقليدية، إلا أنّ حاجته للدين بقيت حية وموجودة وتفرض نفسها بقوة. بأية حال، المحاولات المبذولة لإرضاء تلك الحاجة، كالأحزاب الثورية أو مشروع لتأسيس دين علماني للإنسانية يمّ تنظيمه على يد الفيلسوف الوضعي أوغست كونت August Comte الذي علّم دوركهايم، أنّ كل يقين أو إثبات هو قصير الأجل، وبسبب هذه الحاجة الملحّة، توصّل عالم الاجتماع الفرنسي إلى نتيجة مفادها أنّ بني البشر لن يتوقفوا أبداً عن اختراع آلهة جديدة وأديان جديدة.

"باختصار، فالآلهة القديمة تكبر، تهرم، أو تموت، وأخرى لم تولد بعد، لكنّ هذه الحالة من اللايقين الهيّاج المشوّش لا يمكن أن تستمر للأبد، فسيأتي يوم حيث ستختبر فيه مجتمعاتنا مرةً أخرى أوقاتاً من الانفعال الخلاّق، وستظهر أشكال جديدة على السطح، وتشكيلات جديدة لتقود الإنسانية لمدّة من الزمن. وكون أنّ هناك بشراً عاشوا خلال تلك الفترة وعاصروها، سيختبرون بشكلٍ دائم الحاجة لإعادة إحيائهم من خلال الفكر الآن ولاحقاً، وذلك لحفظ ذكرى عنهم من خلال الاحتفالات

والمهرجانات التي تعيد اختلاق ثمارهم من جديد. فقد شاهدنا مسبقاً كيف أنّ الثورة الفرنسية أسّست دورة كاملة من المهرجانات والاحتفالات للحفاظ على المبادئ التي استمدّت إلهامها منها في حالة من الشباب الدائم. فإذا ماتت المؤسّسة بسرعة أو اندثرت، فذلك بسبب أنّ الإيمان أو المعتقد الثوري دام لفترة قصيرة نسبياً، ثمّ تتالت الخيبات والإحباطات وراء بعضها البعض وبسرعة بعد انقضاء اللحظة الأولى من الحماس. لكن وبالرغم من أنّ العمل قد تمّ إجهاضه، إلا أنه يفتح الباب أمامنا لنتصوّر ما الذي كان يمكن أن يحدث تحت ظروف أخرى مغايرة، وكل شيء يقودنا للتفكير أنه عاجلاً أم آجلاً سيعاود الكرّة مرةً أخرى. ليس هناك نصوص مقدّسة خالدة، ولا يوجد أي سبب يدفعنا للاعتقاد بأنّ الإنسانية منذ الآن فصاعداً غير قادرة على خلق نصوص جديدة. أمّا بالنسبة لمعرفة الرموز التي سيظهر فيها الدين الجديد مسبقاً، إذا كانت تشابه أو لا تشابه الرموز التي كانت في الماضي، إذا كانت كافية لمضاهاة الواقع التي هي خلقت من أجله في الدرجة الأولى لترجمته وتأويله، فهذه مسألة تتجاوز القدرات البشرية في التنبؤ بها".

اليوم العديد من العلماء والباحثين الذين يدرسون الظاهرة الدينية يعتقدون أنّ العصر الحديث لا يمرّ بعملية علمنة غير قابلة للعكس متضمّنة حالة من الاختفاء التدريجي للمقدّس من العالم الغارق في تهكّمه وفكاهيته، إلا أنه حالة تتضمّن تحوّلاً مستمراً ودائماً للمقدّس في السياسة وفي أبعاد أخروى من النشاطات الإنسانية. المختص في تاريخ الأديان ميرسيا إلياد Mircea Eliade لاحظ أنّ تجربة المقدّس ليست غريبة عن وعي الإنسان المعاصر الذي يزعم الآن أنّه قد تحرّر من المعتقدات الدينية القديمة وأصبح "إنساناً غير متديّن": هذا التحرّر هو محض وهم للعديد من البشر، لأنّ هذا "الإنسان غير المتديّن" ينحدر من جدّه الإنسان المتديّن Homo

Religiosns، وسواءً أحبّ ذلك أم لم يحب، فإنه نتاج الإنسان المتديّن، إذ بدأ تشكّله من الحالات المفترضة التي وضعها أسلافه من الإنسان المتديّن. فالإنسان الحالي أو المعاصر يثور ضدّ ماضيه ويحاول جاهداً أن يحرّر نفسه منه، لكن "ليفعل ما يريد، فإنه مجرّد وريث. فهو لا يستطيع إلغاء ماضيه ومحوه بشكل كامل، بما أنه هو الذي صنعه بنفسه".

"بالنسبة... للإنسان غير المتديّن في حالته الطبيعية هو ظاهرة نادرة للغاية، حتى في أكثر المجتمعات الإنسانية الحديثة علمانية: فغالبية البشر غير المتدينين ما زالوا يتصرفون بطريقة دينية بشكلٍ أو بآخر، ومع أنهم ما زالوا غير مدركين لحقيقة أنّ الإنسان المعاصر الذي يشعر ويدّعي أنّه غير متديّن ما زال يحتفظ بحصّة كبيرة من الأساطير المموّهة والطقوس المتحلّلة على وجه التحديد، فالغالبية العظمى من هؤلاء الزناديق irreligious أو غير المتديّنين لم يتحرّروا من التصرّفات الدينية كما كانوا يتوهّمون، أي من اللاهوتيات والميثولوجيات. باختصار، غالبية البشر "الذين هم بلا دين" ما زالوا متمسّكين بالأديان والميثولوجيات الدينية الزائفة والمتحلّلة".

في العصر الحالي، أظهر المقدّس مقاومة شرسة وحيوية استثنائية. فقد فصلت عملية العلمنة المقدّس عن الديانات المؤسّساتية التي خلطته ومزجته في عقائدها وطقوسها، وأطاقته حراً طليقاً، إذا استخدمنا تعبير عالم الاجتماع روجر باستيد Roger Bastide، حيث أنه كان يعني بتعبير "حراً" إيجاد طرق وأساليب جديدة لإظهار نفسه في كافة النشاطات الإنسانية حتى تتمّ السيطرة عليه في النهاية من قبل عقيدة أو دوغما أخرى. "فموت الآلهة المؤسّساتية" لا يعني إطلاقاً "زوال التجربة المؤسّسة للمقدّس في البحث عن أشكال جديدة يجسّد فيها نفسه"، وموت الإله،

الحدث الذي أعلنه الفيلسوف نيتشه Nietzsche، "لا يعني بالضرورة موت المقدّس، طالما أنّ تعبير (المقدّس) يوحي إلى بعد جوهري للجنس البشري".

من هذه الزاوية، فتجربة المقدّس لا تستنزف ذاتها مع تقدّم عملية العلمنة. فالذي يسمى عموماً "بعملية العلمنة Progress of secularization" غالباً ما يحجب حقيقة الانتشار الوحشي والبربري للتديّن" يكتب العالم الأنثروبولوجي كلود ريفير Claude Rivire، إذ أنه من المستحيل إنكار أنّ "المقدّس [مرعب termendum و مذهل fascinans] هو بعد أنثروبولوجي متطرّف، والذي لا يمكن لمجاله أو حقله أن يتحدّد من قبل الأديان المؤسّساتية، ولا حتى لمظاهره أو علاماته أن تتحدّد بالشعائر أو المارسات الدينية". كما لاحظ المختص بتاريخ الأديان جيوفاني فيلورامو Giovanni Filoramo، في حين أنه من الصحيح تماماً أنّ "عملية العلمنة حرمت أديان تقليدية كثيرة من كافة الحقول عن طريق جعلها دنيوية وثنية ومستقلة بذاتها، ويصحّ الأمر على حدٍ سواء بأنّ هذه المجالات أو الحقول هي التي خلقت هذا المقدس مرةً أخرى، وباستقلالية تامّة عن الديانات التقليدية".

في مجتمع حديث ومعاصر، يشكّل المقدّس "أحد الطرق الممكنة لوضع الوسائل المشتركة اجتماعياً بالترتيب وخلق بعض التماسك والترابط بينها. لتوخّي الدقة أكثر، فقد انطلقت عملية العلمنة عن طريق منح أفراد أو جماعات من البشر قيمة مطلقة للموضوعات والرموز من أجل استيعاب وإدراك وجودهم الفردي أو الجماعي (فهم يكرّسونها ومن ثمّ يعزلونها)".

لذا يصبح الحديث أو المعاصر modern جزئياً "مكاناً لصناعة الأديان"، "في حين أنّ الحداثة modernity قامت من دون شك بعلمنة الأديان التقليدية، فهي ليست عدائية أو بغيضة بشكل غير قابل للعكس بالنسبة للدين بشكلٍ خاص

وللمقدّس بشكلٍ عام". بالمقابل، "إنّ إعادة هيكلة الحداثة تتطلّب بدورها ظهور الأسباب والديناميات الجوهرية القائمة على المقدّس والتديّن اللذين لم يزولا حتى الآن". فخلال عصر الحداثة، ظهرت أشكال أخرى جديدة من الإيمان بجانب الإيمان بالخارق للطبيعة، وهذه بدورها قدسنت عدّة خصائص وسمات مختلفة من النشاط الإنساني. فقد لاحظ عالم الاجتماع سالفادور جينر Salvador Giner أنّ الأوقات أو الأزمنة الحديثة، بالرغم من أنها غير حسّاسة للخارق للطبيعة وبطرق عدّة، استبدلت غالباً بالتعالي الاجتماعي "Social Transcendence" مثل:

«... كأساطير الثورة، الأمة، العهود الجديدة، العلموية، الإنسان الجديد، الحرية الكاملة، الصلة مع الكون والطبيعة، الصحّة الأبدية، المتعة هي الطريقة الوحيدة للحياة، وأساطير أخرى هي الآن أشكال متنوّعة من التعالي، سواء أكانت منفصلة أو متّصلة في تشكيلات متنوعة وسواء أكانت أو لم تكن مرتبطة بالأديان الخارقة للطبيعة. إذ يعود السبب إليهم في أننا واجهنا حاجزاً صلباً أمام عملية تدنيس العالم، والتي بدأت مع عصر النهضة. هذه الأساطير هي المادة الخام في عملية التحوّل العلمانية الدنيوية للأساطير القديمة والتي وجدت طريقها للعودة إلى الحياة لاستعادة مكانتها».

في الوقت الحالي، إنّ التعبيرات التي تمثل التقديس الجاري على نواحٍ مختلفة من الحياة الإنسانية قد ازدادت عن طريق التاريخ، الفلسفة، الفن، وأخيراً وليس آخراً: السياسة. الفيلسوف السياسي مانويل غارسيا بيلايو Manuel Garcia Pelayo كيف يقول أنّ هناك عصور أو جماعات في حقب معينة لم تفهم السياسة "كنظام تتطوّر ضمنه حياة الإنسان، وكحقل جوهري كغيره من الحقول، لكنه الأساس

الأنطولوجي ومصدر الوجود الإنساني". بناءً على ذلك، كان يتوقع من السياسة ليس فقط أن تجد حلاً لبعض المشاكل العالقة، بل أن تجد حلاً لمشكلة الوجود ككل":

«باختصار، وبتقديم الممارسات الدينية إلى السياسة، فإنهم يختبرون السياسة كحياة كطريقة للخلاص. إمّا لأنهم يؤمنون كما كان يؤمن العالم القديم، أنّ الخلاص، بالرغم من أنه عملاً إلهياً، قد تكشّف من خلال النظام السياسي الذي تأسّس على يد زعيم يتمتع بكاريزما معينة ذو طبيعة مقدّسة، أو لأنّ الإنسان، بالرغم من أنه فقد إيمانه بالله، لم يفقد حسّه بأنه عبارة عن روح سيئة الحظ، وأنه ما زال يضع كامل آماله وتطلّعاته للخلاص في مذهب أو نظام سياسي. هذه الظاهرة أدّت إلى ظهور ما يسميه البعض "الديانات السياسية". ونحن لن نشغل أنفسنا في الجدال حول صحّة أو خطأ هذا المصطلح، لكنه من الواضح على الأقل أنّ بعض الإيديولوجيات وبعض الحركات الدينية لا يمكن فهمها بشكلٍ كاملٍ بدون مساعدة التعريفات التي كانت دينية في الأصل بالرغم من أنها تترجم الآن وتصنّف على أنها غير دينية».

لذلك أصبح عالم السياسة المعاصر، وفق ما يرى عالم الاجتماع الديني جان بيير سيرونيو Jean-Pierre Sirroneau، "المكان المفضّل لاختلاق وانتشار المقدّس في المجتمعات الدنيوية العلمانية". «إنها حقيقة أنّ معاصرينا مالوا لتوجيه جزء من طموحاتهم وتطلّعاتهم وشغفهم الديني نحو عالم السياسة، وحوّلوا العقائد والإيديولوجيات السياسية إلى أساطير، ونظروا إلى العديد من الزعماء والقادة السياسيين والطغاة على أنهم شخصيات بطولية أو إلهية. فعالم السياسة المعاصر مليء بالأشخاص "المقدّسين". هذه الشخصيات مريعة من ناحية [مرعبة tremendum] لأنها تمتلك كافة أساليب القوة والسلطة التقنية والعسكرية والسيكولوجية للدولة المعاصرة وتحتكرها، ولديهم قدرة جبّارة لفرض إرادتهم

وسيطرتهم، وهي شخصيات مطمئنة وصديقة [مذهلة fascinanse] من ناحية أخرى لأنهم يمثلون قوة عظمى قد تكون إلهية قادرة على تأمين الحماية والأمان للإنسان الحالي والذي كان مقتلعاً ومثقلاً بالعقد الصناعية والمدنية. السياسة هي التي أنجبت أصنام عصرنا الحالي... وتظهر السياسة بسهولة أكثر التعبيرات التقليدية للديانات، وبالأخصّ الأساطير- الطقوس، الروابط، والإيمان. إذ أخذت السياسة على عاتقها دور المشرّع للنظام الاجتماعي، هو الدور الذي كان يلعبه الدين فيما مضى".

يتضح لنا في النتيجة النهائية أنّه من المشروع تماماً اعتبار عملية قدسنة السياسة ككهنوت حديث ومعاصر modern hierophany بمعناه اللاتيني، ويعني ذلك ظهور المقدّس في عالم الحداثة ودراسة الأديان المدنية والسياسية كأشكال جديدة من التديّن تولّدت خلال العصر الحديث وتنتمي إليه.

ماكس فيبر Max Webber، الذي كان بمثابة المنظّر الذي يساعد على التحرّر من الأوهام disillusionment التي تملأ عالمنا المعاصر، كتب عام 1890 أنّ الأديان القديمة لم تكن مبعدة بشكل كامل، بل كانت تعود باستمرار لكن بأشكال مختلفة:

"الآلهة القديمة، ذهب سحرها وفقدت هيبتها، ولذلك تحوّلت إلى قوى لاشخصية، انبعثت من قبورها ومضت مرة أخرى في الصراع الأزلي الدائر بينها على أمل الحصول على السيادة على الحياة".

إنّ تجربة الأديان التوتاليتارية تسمح لنا بالبرهنة على أنّ السياسة كانت ساحة الوغى التي خاضت فيها الآلهة الجديدة معاركها لفرض السيطرة والسيادة على حياة البشر في القرن العشرين. وهؤلاء الذين شهدوا قدوم الديانات التوتاليتارية كانوا

مقتنعين بذلك، واعتبروا أنّ هذه الديانات ما هي إلا تهديد مباشر وخطر داهم يواجه الإنسانية جمعاء.

الموت للكفرة(1)

[العنف السياسي بوصفه إرهاباً: دراسة سوسيو-سيكولوجية]

د. ريتشارد كوينغبيرغ*

أولاً: العنف السياسي بوصفه إرهاباً

تقول الكاتبة روث شتاين في ورقتيها «الشر بوصفه حباً وتحرّراً» و«الأصولية، الأب والابن والرغبة العمودية»(2) أنّ الأعمال الإرهابية التي ارتكبها الإرهابي محمد عطا وبقية الإرهابيين الذين نفّذوا حوادث الحادي عشر من أيلول عام 2001 كانوا قد ارتكبوها وهم في قمة إخلاصهم: على أساس علاقتهم العميقة والوثيقة بالله. وقد نظّرت شتاين بأنّ أعمال العنف الإرهابية قد تمّ ارتكابها باسم الحب. إنّ مصطلح "شهيد martyr" يعني "الشاهد". فالشهيد يشهد على حبه لله عن طريق قتله للكفار. فهو يخضع لإرادة الله ومشيئته عن طريق تضحيته بحياته، وبذلك يجبر "الآخرين" بالخضوع لإرادة الله ومشيئته_ وبالتضحية بحياتهم.

عندما ارتطمت الطائرة بالأرض في بنسلفانيا في الحادي عشر من سبتمبر، كانت آخر الكلمات التي نطلق بها منفّذي الهجمات الانتحارية هي «الله أكبر». فقد شهد الإرهابيون بعظم إيمانهم بالله _استناداً إلى رغبتهم بالموت والقتل في سبيله. ضحّى منفّذو العمليات الإرهابية-الانتحارية بحياتهم في سبيل الله، وضحّوا بحياة من معهم من الأمريكيين [الكفرة].

---

(1) Evil as Love and liberation, Ruth Stein.

* ريتشار كوينيغسبيرغ Richard Koenigsberg حصل على درجة الدكتوراه في علم النفس الاجتماعي من هيئة خريجي الكلية الجديدة للعلوم الاجتماعية. ويشغل الآن منصب مدير مكتبة العلوم الاجتماعية.

(2) Fundamentalism, Father and Son and Vertical Desire, Ruth Stein.

"الله" هو الاسم الذي يُطلق على ذلك الكيان أو الشيء الذي يعبده بعض البشر. مجموعات أخرى من البشر يعبدون كيانات أخرى من نوع آخر. قد يعبد البشر إلهاً، أو إيديولوجية معينة أو يعبدون أمّتهم الخاصة. في كل الحالات، يتطلّع البشر لمعبودهم، يتصوّرونه أنّه مطلق القدرة والقوة، وهم مستعدون للتضحية بأنفسهم وبغيرهم في سبيل كيانهم المؤلّه.

لماذا يربط الأفراد والجماعات هوياتهم بكيانات وأشياء ينظرون إليها بأنّها كلية القدرة؟ ماهي العلاقة بين الارتباط بكائن مطلق القدرة _إله، إيديولوجيا، أو أمّة_ والميل نحو العنف؟ لماذا يقوم الناس بارتكاب أعمال عنف متطرّفة وعمليات قتل جماعية باسم الكيانات والأشياء التي يؤلّهونها ويعبدونها؟

خلال لقاء جماعي لدراسة الأصولية الدينية (قام بتأسيس المجموعة عالم النفس دان هيل) في ديسمبر عام 2004، قدّم عالم النفس المتخصّص في مجال التحليل النفسي دونالد موس مصطلح "المنقول، أو المستبدل **fungible**" للإشارة إلى قابلية تبادل الكيانات أو الأشياء المتنوّعة ضمن الحياة الروحية للأفراد والجماعات. فعندما يرتبط الناس بكيان يعتبر مطلق القدرة ويقومون بارتكاب أعمال عنف باسمه وفي سبيله، لابد أنّ هناك آلية سيكولوجية شائعة تكون قيد العمل_ بغضّ النظر عن طبيعة الكيان المعبود.

قد يعبد الناس "الله"، أو [أمّة] أمريكا. النازيون عبدوا هتلر وألمانيا. اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية عبدوا إمبراطورهم. وبالنسبة للكثير من الأمم والدول خلال فترة القرن العشرين، كانت الإيديولوجيا الشيوعية هي المعبود الأساسي. في كل حالة من هذه الحالات، كانت أعمال العنف الجماعية تُرتَكَب باسم أو في سبيل الدفاع عن، أو نشر الكيانات المقدّسة والمعبودة.

إنّ عبارة "الموت للكفرة Death to the non-believers" تحمل المعنى الأساسي لجميع أشكال العنف الجماعي. فأفراد مجموعة معينة يسعون لفرض سيادتهم أو لقتل أفراد مجموعة أخرى لا يعتنقون أن يسجدون لكيانهم المقدّس. العنف الإرهابي موجّه لفرض المعتقد بالإرغام والإكراه: لإجبار أفراد مجموعة أخرى للخضوع لإرادة ومشيئة الكيان المقدّس للمجموعة المعتدية والتي تمارس العنف والإرهاب.

ثانياً: النازية بوصفها ديناً

دراستي الأساسية ترتكز على هتلر، الإيديولوجيا النازية والمحرقة/ الهولوكوست. وقد بدأت دراستي للأصولية الدينية بعد قراءتي لأوراق روث شتاين. كنت مندهشاً لاكتشافي أنّ النتائج التي توصّلت إليها شتاين عن محمد عطا خلال أحداث الحادي عشر من سبتمبر كانت متطابقة مع النتائج التي توصّلت إليها بعد دراستي لآليات العنف النازية: تتصاعد أعمال العنف الجماعي من الارتباط بشيء أو كيان محبوب ومقدّس ومعبود.

كانت النازية شكلاً من أشكال التديّن. فقد أعلن هتلر قائلاً: «نحن لانريد أي إلهٍ آخر، ماعدا ألمانيا». كان هتلر أشبه بالواعظ أو المبشّر، يلهم أتباعه وجماهيره لعبادة الأمة الألمانية. «ألمانيا فوق الجميع Deutschland uber Alles»، وقد علّق هتلر مفسّراً مقولته هذه «إنّها شهادة تملأ الملايين بقوة أعظم من أي قوة أرضية». وقال هتلر أيضاً، "حبّنا لشعبنا، وإيماننا بألمانيا، خالدان» الوجهة الآخر لحب هتلر لألمانيا وإيمانه بها كان يتمثّل في الغضب تجاه أولئك الذين _كما تصوّرهم_ لم يشاركوه حبّه وإيمانه. وقد أعلن:

"نحن متطرّفون في حبّنا لشعبنا. ويمكننا أن نمضي بوفاء الكلاب مع أولئك الذين يشاركوننا إخلاصنا، لكننا سنلاحق بحقد متطرّف أولئك الذين يعتقدون أنّهم يمكنهم التلاعب بحبّنا وممارسة الخداع» قبل أن يبزر التطرّف الإسلامي حتى، استخدمت عبارة "الموت للكفرة" لبلورة فهمي عن سبب شعور هتلر بأنّه ملزم بإبادة اليهود والقضاء عليهم. كان هتلر ينظر إلى اليهود بوصفهم شعباً لم يكن يعبد ألمانيا كما ينبغي: لم يكونوا مستعدين لاعتناق المجتمع القومي والاستسلام له بشكلٍ تام. شعر هتلر بالغضب عندما تفطّن في فكرة أنّ بعض الناس سعوا لتجنّب التضحية بأنفسهم من أجل ألمانيا. فجوهر اليهودي، كما كان يرى هتلر، كان يتمثّل في إحجامه وامتناعه عن التضحية. كان عاجزاً عن الارتباط والالتزام بوطن قومي.

بن لادن من جهةٍ أخرى _على غرار هتلر_ كان يشعر بأنّ على الجميع أن يعتنقوا ويعبدوا الموضوع أو الكيان الذي كان يعتنقه ويعبده هو. لا يوجد استثناءات. فقد صرّح بن لادن بأنّ _حسب دين الإسلام_ الله «قد خلقنا بغرض عبادته». وكنتيجة بديهية لهذا المقترح، يطلب الله من المسلمين معاقبة جميع أولئك الذين لايعبدونه.

باقتباسه آيات من القرآن، شجّع بن لادن المؤمنين للقتال في سبيل الله، وقتل المشركين والوثنيين «حيثما وجدوا». فعندما يلتقي مؤمن بكافر، حسب قول بن لادن، على المؤمن أن "يضرب عنق" الكافر: أن يقاتل أولئك «الذين لا يؤمنون بالله». فالهدف من الجهاد إثارة المؤمنين من أجل «إنزال غضبهم على الكفّار».

خسب هتلر، كل فرد ألماني مطالبٌ باعتناق الأمّة الألمانية وخدمتها بإخلاص. لا أحد مستثنى من ذلك. فقد أعلن هتلر: «لايمكن أن يستثني أي أحد نفسه من هذا الالتزام». فالهدف الأساسي من الاشتراكية الوطنية كان حكم «الشعب كله، المجتمع».

بالرغم من الشعبية الواسعة التي حظيت بها الإشتراكية الوطنية، آمن هتلر أنّه ما زال هناك بعض «الأفراد الذين لايمكن شفائهم» والذين «لم يفهموا معنى السعادة الحقيقية في الانتماء لمجتمع أكبر وأعظم وأكثر إلهاماً». تمحورت النازية حول استئصال هذه العناصر التي لا يمكن شفائها، «المفتقرون للانتماء الحزبي» الذين _حسب تصوّر هتلر_ رفضوا اعتناق الأمة الألمانية ورفضوا الإخلاص لها ولقضاياها.

على غرار بن لادن، شجّع هتلر أتباعه على «دقّ أعناق» الذين لم يعتنقوا ألمانيا ويعبدوها: قتل الناس الذين لم يكونوا يؤمنون بالفكر أو الإيديولوجيا النازية (حيثما وجدوا). والحل النهائي كان يتمثّل في أعمال العنف الإرهابية الجماعية التي كان الغرض منها معاقبة الكفّار/ المخالفين واستئصالهم.

ثالثاً: معاقبة أولئك الذين يشكّكون بالرموز المقدّسة

مستشهداً بآيات من القرآن، يزعم بن لادن أنّ الله أمر المسلمين بالجهاد والقتال حتى «تكون كلمة الله هي العليا وليخسأ المشركون». عندما أمر الله المسلمون بالجهاد والقتال والقتل، قال لهم {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}. حسب بن لادن، أمرنا الله بالجهاد وفرضه علينا، لذلك، لا يجب على أي إنسان مسلم رفض الجهاد في سبيل الله لأنّه: لا يوجد سبيل آخر لقهر الكفّار. من وجهة نظر بن لادن، أعمال العنف الإرهابية هذه هي أعمال صالحة وخيّرة وفاضلة لأنّها تمثّل أساليب وطرق معاقبة غير المؤمنين ولشفاء صدور المؤمنين. الكافر هو شخص يرفض عبادة الله والخضوع لإرادته. أعمال العنف ترتكب باسم الله، وهي لمعاقبة الكفار وإرغامهم على الاستسلام والخضوع. يدافع بن لادن عن الأعمال الإرهابية باسم الله. أمّا هتلر يشرّع أعمال العنف باسم ألمانيا. تنطلق أعمال العنف الإرهابي لمعاقبة الناس الذين _كما يتصوّر المؤمنون_ لا يعبدون

نفس الكيان المقدّس الذي يعبده المؤمنون. أعمال العنف الجماعية موجّهة لمعاقبة غير المؤمنين لرفضهم الإيمان من أصله، ولإجبارهم على الإيمان. يسعى العنف الإرهابي لاستعراض قوّة الكيان أو الشيء المقدّس الذي يعبده أفراد الجماعة التي ترتكب هذه الأعمال _عن طريق سحق والقضاء على أفراد المجموعة غير المؤمنين. أعمال العنف موجّهة لتشهد على عظمة الإله المعبود، أو الأمّة أو الإيديولوجيا. يشرع المؤمنون بأعمال العنف بغية إرهاب غير المؤمنين _ليزرعوا مشاعر الصدمة والرهبة في عقول وقلوب المؤمنين وغير المؤمنين على حدٍ سواء. تماماً كما ابتكر هتلر الحل النهائي بغية إثبات أنّ ألمانيا كانت كلية ومطلقة، ابتكر بن لادن أحداث الحادي عشر من سبتمبر للشهادة على قوّة الله وعظمته. في كلتا الحالتين، كان الهدف إقناع الناس بأنّ الكيانات والأشياء المقدّسة التي يعبدها الناس محتومة _لا يمكن تفاديها. لا أحد مستثنى أو معفى من الالتزام بالخضوع والاستستلام لها. أمّا هؤلاء الذين لم يخضعوا طواعية، فيجب إرغامهم على ذلك. إنّ ضحايا هجمات الحادي عشر من سبتمبر الانتحارية كان مطلوباً منهم _كما صاغت روث شتاين المسألة_ الخضوع أو الانحناء للإرهابي بطريقة مماثلة للطريقة التي "يخضع فيها الإرهابيون ويعبدون الله". فكما ضحّى الإرهابيون بحياتهم الخاصّة في سبيل الله، كذلك كان الناس في برجي التجارة العالميين مرغمين بالموت في سبيله أيضاً. فقد أرغم الإرهابيون الآخرين بالخضوع لله وعبادته كما يعبدونه هم أنفسهم.

رابعاً: العنف بوصفه قضاءً على الشكوك

جزء هام من أي معتقد متطرّف يتمثّل في الفكرة القائلة أنّ "الجميع" يجب أن يعبدوا نفس الإله أو الأمة أو الإيديولوجيا التي تعبدها جماعة معينة. المؤمنون الحقيقيون والملتزمون أمثال هتلر وبن لادن يصبحون أكثر اضطراباً عندما يدركون أنّ

هناك أشخاصاً وشعوباً في العالم لا يشاركونهم قناعاتهم ومعتقداتهم. الأكثر من ذلك، أنّ أشخاصاً مثل هتلر وبن لادن غالباً مايتصوّرون أنّ الكفار أو غير المؤمنين يعملون بشكلٍ محموم لتقويض وهدم إلههم أو أمّتهم أو عقيدتهم [كثيراً مانسمع هذه الاسطوانة المشروخة يردّدها على مسامعنا دعاة التلفزة وحكّامنا ليل نهار من وجود مؤامرة غربية ماسونية أو أجندة إلحادية غرضها تهديم عقيدتنا ومجتمعاتنا]. يصرّح بن لادن، على سبيل المثال، أنّه من الضروري الوقوف في وجه الكفار ومخطّطاتهم. أمّا هتلر فقد زعم أنّ اليهود كانوا يمثّلون "قوى الإنحلال" التي تعمل على تجزئة وتقسيم ألمانيا إلى أجزاء. وقد صدر أمر في الأول من نوفمبر عام 1944 لسلاح الجو (حيث أنّ القوات الألمانية المسلحة كانت تعرف مسبقاً أنّهم خسروا الحرب) جاء فيه أنّ أي شخص يشكّك بالفوهرر _أي شخص انتقده أو انتقد مناهجه أو مبدّه_ هو إنسان بلا شرف و"يستحق الموت". وقد صرّح هيملر وهو يحاضر رجاله من قوات الصاعقة أنّ أي شخص لايخلص للفوهرر أو للرايخ "حتى وإن بفكره فقط"، يجب عليهم أن يتأكّدوا من "طرده من الأخوية" [قتله وتصفيته]. كانت النازية تستلزم إيماناً مطلقاً وأعمى بهتلر وألمانيا. كانت الإشتراكية القومية تتمحور حول القضاء على الأشخاص الذين لم يخلصوا لهتلر وألمانيا وتصفيتهم. أفترض أنّه حيثما وجد معتقد متطرف _حيث يعتقد الإنسان أنّ كياناً ما أو شيئاً ما مطلق القدرة والوجود_ كان لابد من وجود شك ومعارضة. لا يمكن الفصل بين الشك وبين المعتقد المتطرّف _لأنّه في الواقع لايوجد شيء اسمه "مطلق القدرة". فإذا لم يكن هناك وجود لأي شيء صحيح بالمطلق أو أي شيء كلي القدرة بالمطلق، فوجود أشخاص يؤمنون بأنّ شيئاً ما صحيح بشكل مطلق ومطلق القدرة يستلزم عنه وجود شك ومعارضة. ترتكب أعمال العنف الإرهابية من أجل القضاء على الشك والتخلّص

منه. فعندما يبدأ المؤمن بإدراك أنّه الشيء الذي يقدّسه ويعبده ليس مطلق القدرة _وأنّه ليس هناك أي شيء مطلق في هذا العالم_ عندها يتولّد شعور بالشك والريبة قد ينعكس على مجموعة أخرى أو فئة أخرى من الناس. هذه المجموعة أو الفئة الأخرى من الناس تمثّل أو تجسّد "عدم الإيمان/ أو الكفر بصلاحية وقوة وعظمة المقدّس الذي تعبده المؤمنة". ومن أجل المحافظة على الإيمان _المحافظ على الصلة أو الرابط التي تربط المؤمن بالمقدّس وتلزمه به_ يجب على المؤمن أن يخلّص نفسه من مشاعر الشك والريبة. قد يسعى الإنسان لإنقاذ المقدّس _لاستئصال مشاعر الشك والريبة_ عن طريق ارتكاب أعمال عنف ضدّ جماعة أو فئة أخرى من الناس تجسّد هي بدورها الشك والريبة. هؤلاء الذين يشكّون أن لايؤمنون بالمقدّس الذي يعبده أفراد المجموعة المؤمنة يُطلَق عليهم لقب "كفّار، كفرة، أو أعداء". هؤلاء المشكّكون أو الكفار _الأعداء_ يجب سحقهم والقضاء عليهم والتخلّص منهم: يجب استئصالهم. علاوةً على ذلك، مجموعة أخرى قد يكون لديها كيانها المقدس الخاص بها أو عقيدتها الخاصّة التي يبدو أنّها تتناقض مع عقيدة وإله المجموعة الأولى. أمّة أخرى، أو إله أو إيديولوجيا أخرى _استناداً إلى وجودها الخاص_ تهدّد وجود وعقيدة الأمة أو الإله أو الإيديولوجيا التي تعتنقها المجموعة المعتدية. إذا كانت الأمة الأخرى أو الإله الآخر أو الإيديولوجيا الأخرى مطلقة القدرة والقوة، كيف يمكن للمرء أن يضمن أن تكون أمّته أو إلهه أو عقيدته مطلقة أيضاً؟ طوال مسيرة التاريخ الغربي، سعت الجماعات لتأكيد منظوماتها العقائدية وترسيخها عن طريق إبادة الشعوب الأخرى وتدمير حضاراتها لأنّ عقائدها كانت تتناقض وتتعارض مع معتقدات الجماعة الغازية أو المعتدية. عبارات وشعارات على غرار "الموت للكفرة" أو "اقتلوا الكفّار" و"احرقوا الهارطقة"، "اقتلوا اليهود"، أو "الموت للأعداء" تبيّن

لنا مشاعر الفرد بأنّ عليه "تدمير مجموعة أخرى أو طبقة أخرى من البشر من أجل المحافظة على مقدّسة وصونه". إحدى السمات الرئيسية والأساسية في القرن العشرين كانت متمثّلة في الصراع بين الإيديولوجيات كالشيوعية والرأسمالية. أحد الطرفين صاح معلناً "الموت للرأسماليين"، في حين أنّ الطرف الآخر كان يصيح "الموت للشيوعيين". وكان الجنس البشري على وشك أن يُفنى فقط لأنّ أحد الأطراف يعتنق إيديولوجيا شعر باستحالة وجود طرف آخر معه في هذا العالم يعتنق إيديولوجيا أخرى متناقضة مع إيديولوجيته. الصراع بين الإيديولوجيات المتنافسة _كل طرف منها يزعم امتلاكه الحقيقة المطلقة_ هو المصدر الأساسي لجميع أشكال العنف الجماعي. فوجود إيديولوجيا أخرى مغايرة بحدّ ذاته _تدّعي لنفسها حقيقة مطلقة أو القدرة المطلقة_ يجعل الطرف الآخر يشعر بأنّها تعمل لتقويض أو هدم إيديولوجيته وعقيدته. إذن، تندلع أعمال العنف لتأكيد "الحقيقة" المطلقة مرة واحدة وإلى الأبد.

خامساً: الازدواجية: "أنت لاشيء، المقدّس كل شيء"

هناك ازدواجية متأصّلة داخل العلاقة التي تربط بين الفرد والمقدّس الذي يؤلّهه. ويتضمّن تعريف هذا المصطلح تكافؤاً سلبياً وإيجابياً في آنٍ معاً. فمن جهة، يتصوّر الفرد أنّ أناه قد ازداد اتساعاً _وتصبح أقوى وأقوى_ استناداً إلى العلاقة التي تربطها مع المقدّس. من جهةٍ أخرى، قد يشعر الفرد بأنّه عاجز أو معاق كنتيجة لربط أناه بكيان يبدو أكبر بكثير وأعظم من الذات. وجوهر هذه الازدواجية هو العلاقة مع مقدّس مطلق القدرة معبّرٌ عنها ضمن السياق الذي ساقه هتلر في خطاباته. فقد خاطب شعبه قائلاً: «أنتم لاشيء، وأمّتكم كل شيء». كلمة «كل شيء» تتضمّن البعد الإيجابي للتعريف. ومع توافد الحشود إلى نورمبرغ، اجتمع عشرات الآلاف من

الألمان في موقع واحد _كأنّهم متحّدون ومترابطون مع بعضهم البعض ليشكّلوا جسداً واحداً ووحدة متماسكة كلية القدرة. الألمان الذي توافدوا إلى هذا التجمّع ربّما شعروا بشعور الاندماج في شيء مطلق والتوحّد مع "كل شيء". كلمة "لاشيء" تتضمّن مكافئاً سلبياً عندما يُتَصَوّر أنّ الفرد مرتبط مع أو متوحّد أو مندمج في مقدّس مطلق القدرة. واستناداً إلى ارتباط الفرد مع هذا الكيان المقدّس _الذي يعتقد أنّه مطلق العظمة والقدرة_ يتناقص أنا الفرد بالمقابل. قد يصبح الإنسان مغموراً بالمقدّس [ضائعاً فيه]، ويفقد شعوره بالفردانية والأنا. عندما يرتبط الإنسان بمقدّس مطلق القدرة، لابد من وجود ازدواجية. ونفس الآليات التي تمكّن الشعور بالأنا (الارتباط والتعلّق بكيان أكبر وأعظم) تعمل في نفس الوقت على إعاقة وشلّ الذات. الآليات التي تسمح للفرد بالشعور بأنّه أو أنّها كل شيء أيضاً تولّد شعوراً بأنّه أصبح لاشيء. يبدأ المؤمن بالتمرّد على الكيان _محاولاً الهروب من الشعور بأنه أصبح لاشيء_ عن طريق فصل نفسه عنه. بأية حال، قد يكون المؤمن قد مضى بعيداً جداً بالأساس. لقد أصبحت الذات مغمورة وضائعة في المقدّس. وحتى مع شعور الفرد بأنّه مقموع أو مكبوحٌ بسبب تعلّقه بالمقدّس، قد لاتكون لديه الإرادة للتحرّر منه والانفصال عنه. ومع ذلك فإنّ مشاعر الانسحاق أو الإعاقة _نتيجة الارتباط والتعلّق بالمقدّس_ تبقى وتستمرّ. كيف يمكن للمرء مجاراة هذه المشاعر أو هذه التجربة من دون التخلّي عن المقدس والانفصال عنه؟ مايحدث دوماً هو أنّ الفرد يسقط مشاعر الانسحاق والقمع _أو مشاعر العدائية والعنف تجاه المقدس_ نحو مجموعة أخرى أو فئة أخرى من الناس. هذه الجماعة أو الفئة من البشر _التي يُنْظَر إليها بوصفها أعداء أو كفّار_ يُتَصوّر أنّها تتمرّد ضدّ المقدّس وتعمل ضدّه لهدمه، لهذا يتمّ قولبه الفئة أو الجماعة ضمن إطار العمل لتدمير المقدّس وتقويضه. إنّ رغبة

الإنسان بالانفصال عن المقدّس تتحوّل إلى إيمان بأنّ العدو ينوي تدمير المقدّس وهدمه. "العدو" يجسّد رغبة الفرد في الانفصال عن المقدس. والهدف من أعمال العنف هو "سحق الرغبة بالانفصال عن المقدّس والتخلّص منها"_ عن طريق سحق، وهزيمة وقتل الجماعة أو الفئة من البشر التي تمثّل التمرّد ضدّ المقدس. ما يجب التخلّص منه وسحقه _إذا أراد الإنسان المحافظة على صلته وارتباطه بالمقدس_ هو الرغبة في "التحرّر من المقدس مطلق القدرة". (الذي يشعر به الإنسان كحالة قمع للذات).

سادساً: الخضوع القسري

العنف الإرهابي يسعى لسحق جميع الشكوك والكفر _عن طريق التأكيد المستمرّ للقدرة الكلية للمقدس الذي يعبده أفراد المجموعة التي تمارس العنف والإرهاب. عبارة "الموت للكفرة" تعني «كيف تجرؤون على التشكيك بقداسة الكيان الذي نعبده وقدرته المطلقة؟ كيف تجرؤون على الكفر بقوة أمّتنا أو عقيدتنا وعدم الإيمان بها؟» أعمال العنف الجماعي تعلن: «سنلقّنكم درساً. هذا سيثبت لكم ماذا سيحلّ بالذين يشكّون بعظمة أمّتنا أو عقيدتنا أو إلهنا». تندلع أعمال العنف لتؤكّد أو لتعيد التأكيد على قوّة المقدس الذي يعبده أفراد الجماعة أو العثة المعتدية: لإعادة تشكيل أسطورة المقدس المطلق القدرة. تندلع أعمال العنف "لمعاقبة" الكفار أو غير المؤمنين، و لإقناعهم "بمدى قوّة وقدرة المقدّس". في صلب الإيديولوجيا النازية كانت تكمن فكرة التضحية الذاتية القومية. فقد أكّد هتلر مراراً وتكراراً بأنّ أي إنسان يجب شعبه يثبت ذلك من خلال"التضحيات التي هو مستعدٌ لأن يقدّمها في سبيله". كان يُنظَر إلى اليهود بوصفهم "شعباً أنانياً" _على النقيض تماماً من الشعب المستعدّ للتضحية بنفسه من أجل أمّته. فالصفة الأساسية لليهود (التي أضفيت عليهم بطريقة

عرقية)، وحسب هتلر نفسه، كانت "الغياب الكامل لأي حس بالتضحية". والحل النهائي كان يتمثّل في نقل الرسالة التالية لليهود: «لاتتصوّروا أنّكم مستثنون من الالتزام بالتضحية بحياتكم». فأعمال العنف التي تقوم بها إحدى الجماعات مصمّمة لإرهاب أفراد المجموعة الأخرى وإدخال الخوف في قلوبهم: لإرغامهم على الخضوع، والاستسلام لإله أو معتقد الجماعة الأولى. تسعى أعمال العنف لتحويل الكفّار أو الأعداء وهدايتهم إلى الإيمان. لهذا السبب يجب أن يكون القتل حقيقياً وحيوياً. الحل الأخير أو النهائي كان أعمال عنف إرهابية جماعية واسعة موجّهة لخلق صدمة ورهبة في قلوب وعقول اليهود (الكفار المثاليون). وكأنّ هتلر كان يقول لهم: «أرأيتم أيها اليهود الآن أنّنا قادرون، ولدينا الرغبة، بارتكاب هذه الأشكال العنيفة والمتطرّفة من العنف في سبيل بلادنا؟ هل مازلتم تشكّون أنّ ألمانيا هي العظمى والقادرة على كل شيء؟». كانت المحرقة أحد أشكال العنف الإرهابي التي صُمّمت لإثبات أو "للشهادة" بعمق الإخلاص والإلتزام النازيين لهتلر وألمانيا. إنّ تفجيرات برجي التجارة العالميين ومبنى البنتاغون ارتكبت على يدي بن لادن والإرهابيين كرسالة لأمريكا: «أتؤمنون الآن بعظمة الله وقدرته؟ هل تشكّون بعمق وعظم إيماننا_ أتشكّون بعمق إيماننا وإخلاصنا لله؟» لقد تحوّل الإرهابيون الانتحاريون إلى شهداء بناءً على إرادتهم ورغبتهم في الموت والقتل: الشهادة لمحبتهم لله والموت في سبيله.

سابعاً: نتيجة العنف السياسي

يتضمّن على رسالة واضحة مفادها: "الموت للكفرة"، "الموت لكل من لايؤمن أو يعترف بإلهنا أو أمتنا أو عقيدتنا". إنّ الهدف من أعمال العنف الجماعية هو إرغام الآخرين على الخضوع للمقدّس الذي يؤمن به ويؤلّهه أعضاء الجماعة المعتدية. فأعمال العنف الإرهابي ترتكب من أجل "الشهادة" على عمق إيمان الشخص وإخلاصه

والتزامه بقضيته المقدسة. أعمال العنف الجماعية هي بمثابة صرحات تحدٍ: «الآن ترون مدى قوة وعظمة أمّتنا/ إلهنا/ عقيدتنا». تسعى أعمال العنف الجماعية لإقناع الجماعات الأخرى بأنّ إله الجماعة المعتدية أو أمّتها أو عقيدتها هي الأقوى والأعظم. فوظيفة العنف هي إثبات: أنّ هذا ما سيحدث بالضبط لجميع أولئك الذين لايعترفون بقوة وعظمة إلهنا أو أمّـتنا. هذا ما سيحلّ بالشعوب التي لا تعتنق عقيدتنا. نقرأ في رواية "الأخوة كارامازوف" (1879) قول المفتش الأكبر بأنّه طالما أنّ الإنسان بقي حراً، فإنه كان يكافح دائماً بعناد وبألم "ليعثر على أحدٍ ليعبده". مصدر البؤس الأساسي لكل إنسان من الناحية الفردية _وكل الإنسانية حسب المفتش الأكبر_ ليس فقط العثور على شخص ما لنعبده، بل أن نشارك في "مجتمع يمارس العبادة". البشر يسعون وراء العبادة، ليس حسب أذواقهم الخاصة، بل حسب ما جرى تأسيسه ليصبح "ما لا يقبل النقاش فيه"، حتى اتفق جميع البشر وفي الآن نفسه على عبادته. يتابع المفتش الأكبر قائلاً، لقد ذبح الجنس البشري بعضه الآخر بالسيف من أجل موضوع العبادة. لقد نصّبوا آلهةً وتحدّوا بعضهم العض: «ضع آلهتك جانباً وتعال اعبد آلهتنا أو سنقتلك أنت وآلهتك!». فرد من أحد الجماعات _يؤمن بعمق وإخلاص بقدرة إلهه المطلقة_ يبدو غير قادرٍ للتساهل مع فكرة أنّ أتباع مجموعة أخرى يؤمنون بإله آخر ويعتقدون أنّه مطلق القدرة أيضاً. وكأنّ من غير الممكن أن يتواجد كلا الإلهين. كل جماعة تطالب الجماعة الأخرى بالتخلّي عن مقدّسها وعقيدتها واعتناق المعتقد الخاص بها. العنف الجماعي يحمل رسالة مضمونها _كما عبّر عنها دستويفسكي_ «أترك إلهك [أو عقيدتك أو أمتك] وتعال واعبُد إلهي [أو عقيدتي أو أمتي]. إذا لم تعبد المقدّس الذي أعبده أنا، عندها سنأتي ونقتلك [وندمّر

إلهك، أو عقيدتك أو أمّتك]». العنف الإرهابي يسعى لإرغام أفراد الجماعات والفئات الأخرى للانحناء للمقدس الذي يعبده المجموعة المعتدية.

المأزق الأخلاقي للحروب

كيري باتون

تمهيد:

لم تفارقني تلك المشاعر والأحاسيس التي خبرتها في إحدى المرّات وأنا في معرض للمقاومة الفلسطينية بجامعة دمشق عندما رأيت صورة معلقة على لوح الجرائم الإسرائيلية بحق الشعب الفلسطيني حيث كلن في الصورة ثلاث جنود إسرائيليين يضعون أرجلهم فوق جثّة شاب فلسطيني كانوا قد قتلوه للتو وأمامهم جندي رابع يصورهم تلك الصورة التذكارية التي لطالما آلمتني وخلّفت ندبة لن تمحي أبداً في قلبي. هل هذا الشعور بالنصر عندما يقتل القاتل أو الصياد ضحيته هو شعور شائع عند جميع البشر، ألم نرى صوراً لأناس يقفون متباهين وهم يمسكون بفرائسهم: رجل يقف مبتسماً وهو يمسك بذيل سمكة انتشلها من البحر، رجل يمسك بأذني ارنب ميت مضرّج بالدماء مفاخراً بصيده، ظبي مصرح على الأرض والدماء تسيل منه وثلاثة رجال يقفون فوقه مفاخرين بجائزتهم...

رجل يحمل رأس شاب وينشد أدعية مفاخراً ببطولته التي حقّقها بذبحه إياه "كالنعاج"!!!!... صبي يحمل بيده رزمة من أيادٍ بشرية مقطوعة ...

أتركك عزيزي القارئ مع هذه المقالة القصيرة التي كتبها الصحفي والناشط كيري باتون والتي قد تلخّص المسألة برمّتها...

بصفتي صيّاد قوس نهم، لا يسعني إلا التفكير بذلك الظبي المرقّط الذي يدخل ضمن نطاق مرمى سهمي. آخذ نفساً عميقاً، قبل أن أفلت السهم.

لم يسبق لي أن فكّرت بتلك الظبية نائمة في عشّها تحضن صغارها الرضّع قبل أن تخرج بهم إلى المرعى. لا... فأنا صيّاد. يجب استبعاد تلك الأفكار كلياً من رأسي وذلك لكي أجل من عملية القتل سريعة وغير مؤلمة قدر الإمكان.

لا يمكنني أن أفكر بحياة الظبي العاطفية لأنّني إن فكّرت فهذا الأمر سيصعّب عليّ مهمّتي. أنا المفترس، وكثيراً ما آخذ صوراً لضحاياي، إذ أنّها جائزتي التي غنمتها.

بعض المعادين للصيد سيقولون عني بأني مهووس بحبّي لممارسة الصيد. وآخرون يمكنهم أن يتعلّقوا بشغفي بسهولة ليحصلوا على تلك الجائزة السنوية. فقط أولئك الذين يمارسون عملية الصيد يفهمون ماذا أعني.

عملية صيد الحيوانات شبيهة جداً بعملية صيد أعداء أمريكا، قد تختلف الضحية، لكنّ الدواعي السيكولوجية هي نفسها تماماً. ما أن أغادر مسكني، أقوم بضغط الزر وأبدأ سيكولوجياً تغيير حالة الوعي لديّ. أنا في حالة صيد. جنودنا، على غرار أعدائنا، يمرّون عبر عملية سيكولوجية مماثلة. وتعرف هذه العملية باسم لاأنسنة الآخرين أو تشويه صورتهم الإنسانية dehumanization أو تحت مسمّى آخر شيطنة الآخر Demonization. وهذه الحالة هي الحالة النفسية التي تنظر من خلالها إلى عدوّك بصفته شرّاً صافياً. ولاأنسنة الآخر هي الحالة النفسية عند فرد يرغب بقتل الآخر. وبشكل ملفت للانتباه، نلاحظ أنّ القاتل لا يظهر ضحيته بمظهر إنساني، بل يظهرها بأي بمظهر آخر ما عدا المظهر الإنساني.

هذه التغيّرات السيكولوجية هامّة جداً وحسّاسة خلال فترة الصراع. فإذا لم يستطع الشخص تغيير حالته العقلية حين يشتبك مع العدو، فمن المحتمل جداً أن يتحوّل هو إلى الضحية.

خلال الحرب العالمية الثانية، ضُمِنَت قابلية أمريكا للبقاء بينما كنّا نقاتل أعدائنا. لقد ضمنت لأنّ الأمريكيين اعتنقوا قابلية محاربينا للتجريد من الإنسانية. في الواقع، حتى فرانكلين د. روزفلت انخرط في هذه العملية من التجريد عندما قبل هدية مميّزة من عضو الكونغرس فرانسيس والتر _افتتاحية رسالة مكتوبة بعظم ساعد جندي ياباني. كتب عضو الكونغرس والتر معتذراً إلى روزفلت: «أنا آسف فهذا جزء صغير جداً من التشريح الياباني».

في الثاني والعشرين من شهر مايو عام 1944، قامت مجلّة **Life magazine** بنشر صورة الأسبوع، وهي عن امرأة أمريكية تحمل رأس جندي ياباني متحلّل. كان هذا الرأس هدية أرسلها إليها حبيبها الذي يخدم ملازم أول في الباسيفيك. كانت تمسك الرأس المقطوع بفخر، وذلك جرّاء معرفتها أنّ حبيبها قتل واحداً من أعداء أمريكا.

حدث ذلك في الفترة التي كان فيها سلاح البحرية الأمريكية يستخدم جميع أساليب التجريد الإنساني والشيطنة المتوفّرة آنذاك. خلال الحرب العالمية الثانية، أصدر سلاح البحرية رخصاً رسمية للقتل جاء فيها: «موسم الصيد... بدون حدود... رخصة لقتل اليابانيين... ذخيرة لا تنتهي ومعدّات مجانية والدفع مباشرةً... انضم إلى سلاح البحرية الأمريكية وقتل بين صفوف قوات المارينز».

كانت الحرب العالمية الثانية هي الحرب الأخيرة، ومن دون أي شك، كتب النصر للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها. لقد أثبتت عملية اللاأنسنة نفعها، لكن مع الزمن، تمّ وضع تعليمات معيّنة لقواتنا للحفاظ على كرامة الموتى وحمايتها.

بعد ذلك بحوالي سبعين عاماً، خاض جنودنا أطول حرب دخلتها أمريكا. انتقدت الكثير من وسائل الإعلام أعمال جنودنا الانتقاصية، كحرق القرآن مثلاً والتبوّل عليه. والآن نشرت صحيفة لوس أنجلس تايمز LA Times صوراً عمرها سنتين لجنود أمريكان من فرقة النخبة المجوقلة الثانية والثمانون وهم يتصوّرون مع جثث قتلى من طالبان. كم واحداً من النقّاد قام بالضغط على الزناد لينهي حياة إنسان آخر؟

أنا لا أدافع هنا عن الأفعال الانتقاصية لجنودنا السالفة الذكر، لكن من الصعب جداً فهم التغيرات السيكولوجية التي يمرّ بها جنودنا من أجل الحفاظ على البقاء. بمقارنة هذه الحالة بالظبي الذي غنمته يصبح الأمر مفهوماً بالنسبة للصياد النهم. فذلك الصياد سيفهم ما أعنيه هنا. وبينما قد لا يعجبنا نحن الأمر، يفهم العديد من المقاتلين معنى أخذك لصورة مع قتلاك. وهذا أمر خاطئ من الناحيتين الاجتماعية والثقافية... لكن من الناحية النفسية، يبدو الأمر حقيقياً فعلاً.

والتاريخ يثبت ذلك...

تصوّروا عالماً بلا أديان...

ريتشارد دوكينز

«تخيّل عالماً بلا أديان» أغنية غنّاها جون لينون في أحد الأيام.

تخيّلوا عالماً لم تحصل فيه أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، ولا أحداث السابع من يوليو، ولا الحملات الصليبية، ولا حملات ملاحقة الساحرات، ولا أزمة كشمير، ولا عملية تقسيم الهند/ باكستان، ولا الحروب الإسرائيلية الفلسطينية، ولا المذابح بين السرب والكروات، ولا المشاكل التي عانت منها إيرلنده الشمالية. تخيّلوا عالماً لا توجد فيه طالبان لتفجّر التماثيل القديمة، وتجلد النساء لأنّهن أظهروا بضع إنشات من أجسادهن، أو تقطع رؤوس الكفّار والمرتدين علناً. تخيّلوا عالماً لم يضطهد فيه اليهود _طبعاً لن يكون هناك اضطهاد لليهود، لأنه لن يكون هناك دين فسيكونون قد تزاوجوا واختلطوا مع سكّان محيطهم.

طبعاً إنّ حالات القتل والاضطهاد التي تحدث في يومنا هذا ليست مدفوعة بالنزعات اللاهوتية. فالجيش الجمهوري الإيرلندي المسلّح لا يقتل البروتستانت (أو العكس) بسبب خلافات بشأن المفاهيم اللاهوتية المجرّدة كالاستحالة الجوهرية مثلاً. فالحافز غالباً ما يتخذ شكل الانتقام أو الثأر القبلي والعشائري. الأمر أنّ "فرداً منهم" قتل "فرداً منّا". إنهم طردوا جدّنا الأكبر من أرضنا. إنّ الشكاوى الاقتصادية والسياسية، وليس الدينية، والثأر تعيش وتبقى لمدّة طويلة جداً.

لكن ومع أنّ الخلافات القبلية ذاتها ليس لها علاقة مع الدين، الحقيقة أنّ هناك قبيلتان لهما صلة ما بالدين. هناك، من دون شك، فوارق قبلية في النشأة الجينية أو اللغوية، لكن في إيرلنده الشمالية ماذا هناك غير الدين؟ ونفس الشيء ينطبق على الهند

والباكستان، على كرواتيا الصربية، والكثير من الأقاليم والمناطق في إندونيسيا وإفريقيا. إنّ الدين هو العامل المفرّق الأقوى في العالم الذي يفرّق بين الجماعات من ناحية الهوية والعدوانية. إذا حاول مهندس اجتماعي اليوم أن يبتكر أكثر الأنظمة شراً إدامةً للعداوات، فإنه لن يخرج بتركيبة أفضل من التعليم الطائفي. المدارس الدينية التي تدرّس عن جميع الأديان قد تقدّم بعض الفائدة، لكنّ الفكرة الأساسية من الإيمان هي أنّ أولاد قبيلتنا يجب أن يتعلّموا دينهم الخاص. إلا أنّ أولاد القبيلة الأخرى قد يتعلّمون بشكل آني شيئاً عن الدين المنافس لدينهم، إلا أنّ ذلك يتمّ في أغلب الأوقات كتاريخ للثأر والانشقاقات، وهذا متوقع جداً.

ولكن ما المغرى من التكلّم عن دين طفل ما؟ تخيّلوا عالماً من الطبيعي فيه أن نتكلّم عن طفل كنيسي، أو يسوعي، أو حتى طفل ماركسي. أو تخيّلوا إمكانية الاقتراح لصبّ المال الحكومي على المدارس الابتدائية المستقلّة والمنفصلة لأطفال حزب العمل، أطفال حزب المحافظين... إلى ما هنالك من انقسامات؟ الكل يوافق أنّ الأطفال هم صغار جداً ليدركوا ما إذا هم يسوعيين أو ماركسيين، عمّالاً أو محافظين... إنّهم صغارٌ جداً ليتحمّلوا أعباء مثل هذه التحزّبات. لماذا إذن نجد مجتمعنا سعيداً بالكامل ليضفي صفةً أو انتماءً ما كالكاثوليكي أو البروتستانتي، كالمسلم أو اليهودي على سبيل المثال على طفل صغير؟ أليس ذلك، إذا ما فكّرت فيه بعقلانية، هو نوع من الإساءة العقلية للأطفال؟

في إحدى المرّات أثرت نفس النقاط السابقة خلال حديث مع متحدّثة باسم كنيسة الروم الكاثوليك. لقد نسيت اسمها الآن لكنّها على الأرجح كانت أشبه بالعمّة حلاّلة المشاكل. عندما قلت أنّ الطفل في المرحلة الابتدائية صغيرٌ جداً على أن

يعرف انتماؤه الديني: أو طفل كاثوليكي أم طفل بروتستانتي، انتصبت وقالت: "فقط تعال وتحدّث مع بعض الأطفال الذين يدرسون في مدرستنا الكاثوليكية المحلّيّة! أؤكّد لك أنّهم يعرفون جيداً بأنهم أطفال كاثوليك". حسناً، نعم أنا أظنّ أنّ هذا صحيح. إنّ التفاخر اليسوعيّ ـ"أعطني طفلاً في السابعة من عمره، وسأجعل منه رجلاً"ـ ليس أقلّ شرّاً لأن يكون مألوفاً (في نسخ مختلفة) حتى يصل حدّ الكليشيات؟

لكن، قد يتساءل البعض منّا، ماذا لو كان الدين حقيقياً؟ (ماذا لو كان ديني مثلاً حقيقياً، والأفضل أن تقول، حيث أنّ المعتقدات والأفكار المتناقضة من غير الممكن أن تكون جميعها حقيقية أو صحيحة) هل يكون التعليم أو التلقين الطائفيين إساءة عقلية للطفل إذا كان سينقذ روحه الفانية؟ بغضّ النظر عن هذا التطاول المتكبّر، أستطيع أن أرى كيف أنك قد تأخذ هذه النظرة إذا آمنت بصدق أنك الله قد منحت المعرفة والحقيقة الكلية. اسمح لي عندئذٍ أن أكون طموحاً إن لم أكن متكبّراً، وأحاول أن أقنعك بأنك لا تملك الحقيقة المطلقة. فثقتك العمياء بالله خطأ فادح!.

لماذا تؤمن بالله؟ ألأنه يتحدّث إليك من داخل رأسك؟ هذه بالتأكيد ليست حجّة مقنعة. كانت جرائم ومذابح يوركشاير قد حدثت عن طريق إلهام من يسوع في رأس الجزّار. إنّ العقل البشري عبارة عن آلة متكاملة لتوليد وخلق الأوهام، والأوهام بدورها لا تشكل أرضية جيّدة لإقامة أسس وقواعد ثابتة لفهم ودراسة العالم الحقيقي. ربما أنت تؤمن بالله لأنّ احتمال الحياة سيكون أصعب من دون الله. وهذه حجّة أضعف من سابقتها. ربّما الحياة صعبة ببساطة. صعبة! جميع الأمور والمشاكل صعبة، ولكن ذلك لا يجعل منها غير حقيقية. قد يكون الشعور بالجوع صعباً، لكنك

لن تجعل الحجر صالحاً للأكل عن طريق الإيمان _ مهما كانت إيمانك صادقاً وخاشعاً _ أو أن تجعله يتحوّل إلى قطعة من الجبن.

حتى الآن إنّ السبب المفضّل للإيمان بالله هو الحجة من اللااحتمالية Improbability. العيون والهياكل العظمية، القلب والخلايا العصبية من غير المحتمل أن تكون قد جاءت من خلال المصادفة. الآلات التي صنعها الإنسان من غير المحتمل أن تكون قد جاءت من تلقاء نفسها، فقد جرى تصميمها على يد المهندسين لأداء مهام معيّنة. طبعاً يمكن لأي أحمق أن يلاحظ أنّ الكلى والأجنحة، الآذان والكريات الدموية أيضاً يجب أن يكون هناك مهندس قد صمّمها من اجل أداء مهام محدّدة، مهندس ذكي جداًا. حسناً، ربّما لن يخفى ذلك عن أي أحمق، لكن دعونا الآن نتوقّف عن أداء دور الأحمق، وننضج. لقد مضى 146 عاماً منذ أن قدّم لنا تشارلز داروين ما يعتبر أنه أذكى فكرة خطرت على بال إنسان. لقد قدّم فكرة عن عملية تجري حيث تكون فيها قوى الطبيعة، ومن دون أي تصميم مسبق، ومن خلال خطوات وقفزات بطيئة وتدريجية أن تخلق وهماً رائعاً للتصميم، إلى مستوى لا نهائي من للتعقيد والتركيب.

لقد ألّفت كتباً عديدة حول هذا الموضوع، ومن الواضح أني لا أستطيع إعادة وتكرار الحجّة بكاملها ثمّ اختزالها ضمن مقالة واحدة. أولاً، إنّ المغالطة المشتركة بشأن الانتقاء الطبيعي هي أنه مجرّد نظرية عن المصادفة. فإذا كان الانتقاء الطبيعي فعلاً مجرّد عملية تحدث بالصدفة العمياء، من الواضح تماماً أنّه لا يمكن أن يفسّر سبب هذا الوهم بوجود تصميم. لكنّ الانتقاء الطبيعي، يمكن فهمه بشكل مناسب أكثر، بأنه نقيض المصادفة. ثانياً، يقال غالباً أنّ الانتقاء الطبيعي يجعل الله يبدو غير

ضرورياً، لكنّه يجعل إمكانية وجوده مفتوحة بشكلٍ كامل. أعتقد أننا يمكن أن نمضي أكثر من ذلك. إنّ الحجّة من اللاحتمالية، التي توظّف عادةً لصالح فكرة الله، تبيّن أنها، عندها تفكّر فيها جيداً، هي الحجّة الأقوى ضدّه.

إنّ جمال نظرية التطوّر الداروينية هي أنها تستطيع تفسير اللامحتمل، من خلال التدرّج المتسلسل. إنها تبدأ من البسيط البدائي (والسهل على الفهم نسبياً) ثمّ تنتهي بعد خطوات صغيرة ومعقولة إلى كينونة معقّدة ومركّبة ستكون، بعد عملية غير تدريجية، غير محتملة للتفكير الجدي. التصميم هو بديل حقيقي، لكن فقط إذا كان المصمّم نفسه هو نتيجة عملية تصاعدية ارتقائية كما هو الحال في نظرية التطوّر عن طريق الانتقاء الطبيعي، سواءً على هذا الكوكب أو كوكب آخر. قد تكون هناك أشكال غريبة من الحياة متقدّمة جداً بحيث أننا سنعبدها كآلهة. لكنّ تلك الكائنات الغريبة يجب أن تكون قد جاءت عن طريق التصاعد والانتقاء التدريجيين. الآلهة التي توجد منذ البداية تستثنى من الحجّة اللاحتمالية.

إنّ الإيمان الديني ليس فقط عاملاً رئيسياً للشرّ في العالم. بل إنّ أساساته هشّة وتمّ تقويضها وهدمها بالمنطق والتفكير العلميين. تخيّلوا عالماً حيث لا أحد فيه يخاف من اتباع مثل هذه الأفكار مهما كانت نتيجتها.

الأسباب الجيدة والسيئة للإيمان

ريتشارد دوكينز

تعريف هذه الرسالة: هي رسالة أرسلها البروفسور ريتشادر دوكينز إلى ابنته في عيد ميلادها العاشر، أرجو أن يستفيد منها القرّاء الأعزّاء وأن يعلّموا أولادهم طريقة التفكير هذه عسى أن تكون الأجيال القادمة أفضل ويكون عالمها أفضل من عالمنا الحالي، خالياً من التنانين والأشباح.

عزيزتي جولييت

لقد بلغتِ الآن سنّ العاشرة، أريد بهذه المناسبة أنّ أكتب لك عن شيء هام جداً بالنسبة لي. هل تساءلتِ يوماً عن كيفية معرفتنا بالأشياء التي نعرفها؟ كيف نعرف على سبيل المثال أنّ النجوم، تلك النقاط الصغيرة البرّاقة في سماء الليل، هي كرات عملاقة من النار كالشمس وبعيدةً جداً عنا؟ وكيف نعرف أنّ الأرض هي مجرّد كرة صغيرة تدور في مدار حول أحد تلك النجوم: الشمس؟ الجواب عن هذه الأسئلة هو "الدليل والبرهان". في بعض الأحيان يعني الدليل الرؤية فعلياً (أو السمع، الشعور، الشم...) وهذا صحيح إلى حدٍ ما. لقد سافر روّاد الفضاء إلى مسافة بعيدة جداً عن الأرض ليروا بأمّ أعينهم أنها كروية. في بعض الأحيان تحتاج عيوننا إلى المساعدة. "فنجمة المساء" تبدو أكثر لمعاناً وبريقاً في السماء، لكنها عند رؤيتها من خلال التلسكوب سترين أنّها عبارة عن كرة جميلة _ كوكب نطلق عليه اسم فينوس/ الزهرة. إنّ عملية التعلّم وتحصيل المعرفة عن طريق الرؤية المباشرة (أو السمع أو الشعور...) يطلق عليها اسم "الملاحظة".

معظم الأحيان لا ينحصر معنى الدليل في الملاحظة فقط، لكنّ الملاحظة دائماً تكمن خلفه الدليل. إذا وقعت جريمة ما، غالباً لا يلاحظها أحد (باستثناء القاتل والضحيّة!). لكن بإمكان المحقّقين جمع الكثير من المشاهدات والملاحظات والتي تشير جميعها إلى مشتبه معيّن. فإذا كانت بصمات أنامل شخص ما تتطابق مع تلك الموجودة على الخنجر، فذلك دليل على أنّه لمسه بشكلٍ ما. هذا لا يثبت أنه ارتكب الجريمة، لكنّه قد يساعد عندما يتمّ إضافته إلى مجموعة من الدلائل الأخرى. في بعض الأحيان قد يفكّر أحد المحقّقين حول مجموعة كاملة من الملاحظات وفجأةً يدرك أنها تتجمّع مع بعضها بشكل منطقي تسلسلي يستطيع من خلالها أن يعرف من الذي ارتكب الجريمة ومن لم يرتكبها.

العلماء _الخبراء في اكتشاف حقيقة العالم والكون_ غالباً ما يكون عملهم شبيهاً بعمل المحقّقين. إنّهم يفترضون أمراً (يدعى فرضية) حول مسألة ينطلقون من بأنها حقيقية صحيحة. ثمّ يقولون لأنفسهم: إذا كان ذلك حقيقياً، علينا أن نرى النتائج التالية تحدث على الشكل التالي، كذا وكذا. ويسمّى هذا بالتوقّع. مثلاً، إذا كان العالم كروياً حقاً، فبإمكاننا التوقّع أنّ المسافر الذي سيسافر في خطٍّ مستقيم، يجب أن يجد نفسه في النهاية في النقطة التي انطلق منها. وعندما يقول الطبيب أنك تعانين من الحصبة، فإنّه لن يلقي عليك نظرة واحدة ويقول لك بأنك مصابة بالحصبة. ما يحدث هنا أنّ نظرته الأولى تساعده في تكوين فرضية بأنك قد تكونين مصابةً بهذا المرض. ثمّ يقول لنفسه: إذا كانت مصابةً بالحصبة فيجب أن ألاحظ الأعراض التالية.... ثمّ يمرّ على قائمة توقّعاته ويفحصها بعينيه (هل هناك طفح جلدي؟) ثمّ بيديه على جبهتك (هل حرارتك مرتفعة؟) ثمّ بأذنيه (هل يصدر من صدرك صوت أزيز؟). وعندها فقط يتّخذ قراره ويقول: "تشخيصي يقول أنّ الطفلة مصابة بالحصبة". في بعض

الأحيان يحتاج الأطبّاء ليقوموا بفحوصات أخرى كتحليل الدم أو التصوير بالأشعّة السينية، والتي تساعد أعينهم وأيديهم وآذانهم ليقوم بالمراقبة.

إنّ الطريقة التي يستخدم فيها العلماء الأدلّة للتعرّف على العالم أكثر ذكاءً وأكثر تعقيداً من أن أتكلّم عنها في رسالة قصيرة. ولكن الآن أريد أن أنتقل من الدليل، والذي هو سبب جيّد للاعتقاد بصحّة شيء ما، وأحذّرك من ثلاثة أسباب سيئة للاعتقاد أو الإيمان بصحّة أي شيء. إنها تسمّى "التقاليد"، "السلطة"، "الإيحاء".

أولاً، التقاليد: منذ بضعة أشهر، ظهرت على التلفزيون لأتحاور مع حوالي خمسين ولداً. هؤلاء الأولاد تمّت دعوتهم لأنهم قد تربّوا في بيئات دينية مختلفة. بعضهم كان قد تلقى تربية مسيحية، بعضهم يهود، هندوس، أو سيخ. كان الرجل الذي يحمل ميكروفوناً ينتقل من طفل إلى آخر ويسألهم عمّا يؤمنون به. وما قالوه يظهر بالضبط ما أعنيه بالتقاليد. تبيّن أنّ معتقداتهم لا تمّت للدليل بصلة. هم فقط ورثوا وتشرّبوا معتقدات آبائهم وأجدادهم، والتي هم بدورهم لم يتناولوها من خلال الدليل. كانوا يقولون أموراً مثل: "نحن الهندوس نؤمن بكذا وكذا"، "نحن المسلمون نؤمن بهذا وذاك"، "نحن المسيحيون نؤمن بشيء آخر مختلف".

طبعاً، بما أنهم كانوا يؤمنون بأشياء مختلفة، لا يمكنهم لجميعهم أن يكونوا على حق. أمّا المذيع بدا أنه يشرع في الاعتقاد بأنّ هذا صحيح وذاك أصحّ، ولم يحاول على الأقل جعلهم يناقشون اختلافاتهم مع بعضهم البعض. ولكن ليس هذا هو المهم الذي أريد أن أتكلّم عنه هنا الآن. أريد أن أسأل ببساطة من أين أتت أفكارهم ومعتقداتهم؟ لقد جاءت عن طريق الأعراف والتقاليد. تعني "التقاليد" المعتقدات التي تنتقل من الأجداد إلى الآباء إلى الأولاد، ثمّ إلى الأجيال التالية. أو عن طريق كتب تتناقلها الأجيال عبر القرون. المعتقدات التقليدية غالباً ما تنشأ من لا شيء هام،

ربّما اختلقها أحدهم من قبيل التسلية أو العبرة أصلاً، مثل القصص عن ثور زيوس. ولكن بعد أن يتمّ تناقلها عبر القرون، فحقيقة أنها أصبحت قديمة جداً تجعلها تبدو مميّزة. يؤمن البشر بأشياء معيّنة ببساطة لأنهم آمنوا بالأشياء ذاتها على مدى قرون عديدة. وهذه هي التقاليد.

المشكلة في التقاليد أنها _بغضّ النظر عن الفترة الزمنية التي مرّت على اختلاقها_ ما زالت تتمتّع بنفس الصحّة الموثوقية التي كانت تتمتّع بها القصص الأصلية. إذا ألّفت قصّة ما غير صحيحة، فجعلها تمرّ بمجموعة من الأجيال على مرّ القرون لا يجعلها حقيقية أيضاً.

معظم الناس في بريطانيا تمّ تعميدهم في الكنيسة الإنكليزية، لكنّها واحدة من الفروع الكثيرة للديانة المسيحية. هناك أفرع وطوائف أخرى كالكنيسة الروسية الأرثوذوكسية، الرومانية الكاثوليكية، والكنائس المنهجية. وجميعها تؤمن بأفكار مختلفة. الديانة اليهودية والديانة الإسلامية مختلفتان بعض الشيء، وهناك أنواعاً مختلفة من اليهود والمسلمين. الناس الذين يؤمنون حتى بأشياء لا تختلف كثيراً جداً عن بعضها البعض يخوضون حروباً طاحنة من أجل تلك الاختلافات. لذا قد يعتقدون أنّهم لا بد وأن يكون لديهم أسباباً جيّدة لحروبهم وللإيمان بأفكارهم. لكن في الحقيقة، إنّ معتقداتهم المختلفة سببها العادات والتقاليد المختلفة.

لنتكلّم قليلاً عن تقليد معيّن. الروم الكاثوليك يعتقدون أنّ ماري، والدة يسوع، كانت متميّزة جداً حتى أنها لم تمت بل صعدت بجسدها إلى السماء. إلا أنّ هناك بعض الطوائف المسيحية التي تخالف هذا الرأي، وتقول أن ماري ماتت ككل الناس. تلك الطوائف الأخرى لا تتحدّث عن هذه المسألة كثيراً، على العكس من الروم الكاثوليك، حتى أنهم لا يطلقون عليها لقب "ملكة السماء Queen of

Heaven". إنّ المعتقد الذي يقول أنّ جسد ماري صعد إلى السماء ليس معتقداً قديماً. لا يقول الإنجيل أي شيء عن الطريقة التي ماتت بها، في الواقع، بالكاد ورد ذكر هذه المرأة المسكينة في الكتاب المقدّس. إنّ الاعتقاد بأنّ جسدها صعد إلى السماء تمّ اختراعه بعد مضي ستة قرون على عهد يسوع. في البداية، تمّ ابتكاره فحسب، بنفس الشكل الذي تمّ فيه ابتكار قصّة "بياض الثلج". لكن وعلى مرّ القرون، نمت القصّة وتجذّرت حتى أصبحت معتقداً وعرفاً وبدأ الناس بأخذها على محمل الجد لأنّ القصّة وببساطة شديدة تمّ تناقلها من خلال عدّة أجيال. كلّما أصبح عمر المعتقد أكبر، كلّما ازداد ولع الناس بأخذه على محمل الجد. ثمّ في النهاية تمّ تدوينه مؤخّراً كاعتقاد روماني كاثوليكي رسمي، في عام 1950، عندما كنت في مثل سنك تقريباً. لكنّ القصّة لم تكن بهذه الدرجة من الصّحّة عام 1950 أكثر ممّا كانت قبل ذلك، أي عندما تمّ ابتكارها للمرّة الأولى.

سأعود إلى موضوع التقاليد في نهاية رسالتي، وأنظر إليها بطريقة أخرى. لكن أولاً، عليّ أن أتعامل مع السببين السيئين الآخرين للإيمان بأي شيء: السلطة والوحي.

السلطة، كسبب للإيمان بشيء ما، يعني الإيمان به لأنه تمّ إخبارك بالإيمان به من قبل شخص ما مهم. في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، البابا هو الشخصيّة الأهم، والناس يرون أنه معصوم عن الخطأ فقط لأنه البابا. في أحد الطوائف الإسلامية، نلاحظ أنّ أهمّ الناس هم أولئك الكبار في السن الملتحين الذين يطلق عليهم اسم "آية الله". معظم المسلمين في هذا البلد مستعدّين للقتل، فقط لأنّ آية الله في بلد بعيد أمرهم بالقيام بذلك.

عندما قلت أنه في العام 1950 أقرّت كنيسة الروم الكاثوليك الإيمان بأن ماري والدة يسوع صعدت بجسدها إلى السماء، ما أعنيه هنا هو أنّه في العام 1950، أخبر الباب الناس أنّهم يجب أن يؤمنوا بذلك. وهكذا تمّ الأمر. قال البابا أنّ هذه حقيقة، لا يجب أن يؤمن الناس بهذه الحقيقة!. الآن، على الأرجح أنّ بعض الأمور التي أخبرها البابا على مدى سنوات قد تكون صحيحة وبعضها قد يكون خاطئاً. لكن ليس هناك أي سبب منطقي جيد يدفعك للإيمان المطلق بأنّ أي شيء يقوله البابا صحيح، فقط لأنّ البابا نطق به. البابا الحالي (1995) أمر أتباعه بعدم اتباع قانون "تحديد النسل" أي بألاّ يحدّوا من عدد أطفالهم. إذا اتبع الناس هذه السلطة بالشكل الخاضع الذي كان يتمنّاه، ستكون النتيجة مجاعات فظيعة، أمراض، وحروب، سببها الازدحام السكاني في العالم ومحدودية المصادر.

طبعاً، حتى في العلم، في بعض الأحيان لا نتمكّن نحن العلماء من رؤية الدليل بأنفسنا، وبذلك نكون ملزمين بأن نأخذ كلام أحد ما. أنا لم أرى بأمّ عيني أنّ الضوء يسافر بسرعة 186000 ميل في الثانية الواحدة. إلا أني أصدّق الكتب التي تقول لي أنّ الضوء يسافر بهذه السرعة. فهذا شبيه "بالسلطة". لكن في الواقع، هذه السلطة أفضل بكثير من السلطة التقليدية، لأنّ الذين ألّفوا الكتب قد رأوا الدليل والجميع أحرار في مراجعة ما كتبوا والتحقّق منه ورؤية الأدلّة بأنفسهم في أي وقت يشاؤون. هذا أمر يبعث على الراحة. لكن في الجانب الآخر لا يمكن حتى للكهنة ورجال الدين الادّعاء أنّ هناك أي دليل يدعم قصصهم عن صعود ماري بجسدها إلى السماء.

النوع الثالث من الأسباب السيئة للإيمان بصحّة أي شيء يطلق عليه تسمية "الإيحاء أو الوحي". لو سألتِ البابا عام 1950 عن كيفية معرفته بأنّ ماري صعدت

بجسدها إلى السماء، لكان ردّه على الأرجح أنّ ذلك قد "أوحي" إليه. أغلق على نفسه في غرفة معزولة وصلّى راجياً الهداية والإرشاد الإلهي. فكّر وفكّر، لوحده، وأصبح مقتنعاً أكثر فأكثر داخل نفسه. عندما يشعر المؤمنون بإحساس غريب في داخلهم بأنّ شيئاً ما صحيح وحقيقي، حتى وإن لم يكن هناك أي دليل على صحّته، فإنهم يطلقون على شعورهم ذاك تسمية "الوحي". ليس فقط آ باء الكنيسة هم وحدهم الذين يدّعون الوحي، بل هناك الكثير من الناس المتديّنين يفعلون ذلك. إنّه السبب الرئيسي الذي يؤمنون من أجله. لكن هل هو سبب جيّد وكافٍ؟

افترض بأني أخبرتكِ أنّ كلبكِ ميّت. ستنزعجين كثيراً، وعلى الأرجح ستقولين: "هل أنت متأكّد؟ كيف عرفت ذلك؟ كيف حدث ذلك؟" لنفترض الآن أنّي قد أجبت "أنا لا أعرف بالضبط إذا كان كلبك ميّت. ليس لديّ أيّ دليل. لقد شعرت بشعور غريب في داخلي يخبرني بأنّه ميّت". عندها ستغضبين جداً مني وتمتعضين لأني أخفتك لهذه الدرجة، لأنك ستعرفين أنّ الإحساس أو الشعور الداخلي لوحده ليس سبباً كافياً للاعتقاد بأنّ كلبكِ ميّت. أنتِ بحاجة إلى دليل. نحن جميعاً نمرّ بتجربة المشاعر والأحاسيس الداخلية بين فترة وأخرى، في بعض الأحيان يتبيّن لنا أنها كانت صحيحة، وفي أحيان أخرى تكون العكس. بأيّة حال، تختلف المشاعر الداخلية باختلاف البشر، إذن كيف لنا أن نحدّد من مشاعره الحقيقية ومن المخطئة؟ والطريقة الوحيدة للتأكّد من أنّ الكلب ميّت هي أن نراه ميتاً بأمّ أعيننا، أو أن نستمع إلى قلبه لنتأكّد بأنه قد توقف عن الخفقان؟ أو أن نستمع إلى أحد كان قد سمع أو رأى دليلاً حقيقياً يثبت موت الكلب.

يقول الناس في بعض الأحيان أنّني يجب أن أؤمن بمشاعري الداخلية، وإلا، فإني لن أكون واثقاً من أي شيء على سبيل المثال "هل زوجتي تحبّني حقاً؟". لكنّ هذه

الحجّة هي حجّة رديئة وضعيفة. يمكن أن يكون هناك عدد كبير من الأدلّة والبراهين التي تشير إلى أنّ أحداً ما يحبّك. فخلال اليوم الذي تقضينه من الشخص الذي يحبّك ستلاحظين الكثير والكثير من الدلائل والإشارات التي تشير إلى محبّته لك. وهذا ليس شعوراً أو إحساساً داخلياً بمعنى الكلمة، كالإحساس الذي يطلق عليه رجال الدين تسمية "الوحي". هناك أمور خارجية كثيرة يمكن أن تدعم الشعور الداخلي، كالنظرات المتبادلة، نغمات لطيفة في الصوت، طريقة المعاملة واللطف، جميعها دلائل حقيقية.

في بعض الأحيان يشعر الناس بشعور قوي في داخلهم يخبرهم أنّ أحداً ما يحبّهم ولا يكون شعورهم قائماً على أي دليل، ثمّ يتبيّن أنهم كانوا مخطئين بالكامل. هناك أناس لديهم شعور داخلي قوي يخبرهم أنّ النجم السينمائي الفلاني يحبّهم، أمّا الواقع هو أنّ ذلك النجم لم يسبق أن قابلهم في حياته. هؤلاء الناس مرضى عقليين. المشاعر الداخلية يجب أن تكون مدعومة بالدلائل، أمّا غير ذلك فلا يمكنكِ أن تؤمني بها.

المشاعر والأحاسيس الداخلية لها أهمّيتها في العلم أيضاً، ولكن تنحصر أهمّيتها في أن تمنحك أفكاراً تتحقّق منها لاحقاً بالبحث عن دلائل لها. قد يشعر العالم بشعور غريب بشأن فرضية معيّنة بأنها صحيحة. وهذا الأمر بذاته، ليس سبباً كافياً للاعتقاد به. لكنه قد يكون سبباً جيداً للمضيّ بإجراء بعض الاختبارات والتجارب. يستخدم العلماء إحساسهم الداخلي في جميع الأوقات للحصول على أفكار جيدة. لكنّ تلك الأفكار لا تساوي شيئاً حتى يتمّ إثبات صحّتها بالدليل والبرهان القاطع.

وعدتك من قبل أني سأعود للتكلّم عن التقاليد، وأنظر إليها من وجهة نظر مختلفة. أريد أن أحاول تفسير لماذا التقاليد والأعراف على هذه الدرجة من الأهمية بالنسبة إلينا. جميع الحيوانات مصمّمة (عن طريق عملية تسمى بالتطوّر) للبقاء في

الوسط الطبيعي الذي يعيش فيه كافّة أقرانها الأخرى. الأسود مصمّمة أن تبقى في سهول أفريقية. جراد البحر مصمّم أن ينجو في المياه العذبة النقيّة، بينما السلطعون مصمّم للبقاء في المياه المالحة. البشر كائنات حيّة أيضاً، ونحن مصمّمون على البقاء والنجاة في عالم مليء بالــ.. بالبشر الآخرين. معظمنا لا يؤذي البشر الآخرين من أجل الحصول على الغذاء كما تفعل الأسوِد والسلطعونات، فنحن نشتريه من أناس آخرين جاؤوا به هم بدوهم من أناس آخرين. نحن "نسبح" عبر "بحر من الناس". وكما تحتاج السمكة إلى الخياشيم للبقاء في الماء، يحتاج البشر إلى العقول والأدمغة التي تجعلهم قادرين على التعامل مع البشر الآخرين. وكما أنّ البحر مليء بالمياه المالحة، فإنّ بحر البشر مليء بالعقبات التي يصعب تعلّمها. كاللغة مثلاً.

أنتِ تتكلّمين اللغة الإنكليزية، لكنّ صديقتك آن كاثرين تتحدّث الألمانية. كلّ واحدةٍ منكما تتحدّث اللغة التي تساعدها في التكيّف والبقاء في البحر البشري الخاص بكلّ واحدةٍ منكما. يتمّ تناقل اللغة عن طريق التقاليد. وهناك الآن طريقة أخرى. في بريطانيا، يسمّى الكلب "Dog" أمّا في ألمانيا يسمّى "ein Hund". كلا الكلمتين صحيح وحقيقي تماماً. وقد تمّ تناقل الكلمتين من جيل إلى آخر ببساطة. ولكي يكونوا جيّدين في السباحة خلال البحر البشري يجب على الأولاد أن يتعلّموا لغة بلدهم الخاصّة، والعديد من الأشياء الأخرى المتعلّقة بأبناء بلدهم، وهذا يعني أنهم يجب أن يمتصّوا _كما يفعل الإسفنج_ كمّيّة كبيرة من المعلومات التقليدية. (تذكّري جيداً أنّ المعلومات التقليدية تعني الأشياء التي يتمّ تمريرها وتوريثها من الأجداد إلى الآباء ثم الأولاد). يجب أن يتمتّع دماغ الأولاد بقابلية للامتصاص للمعلومات التقليدية. ولكن ليس متوقعاً من الأولاد أن يتمكّنوا من التفرقة بين التقاليد الجيّدة

والمفيدة كتعلّم اللغة، وبين التقاليد السيئة والسخيفة كالإيمان بالساحرات والشياطين والحوريات.

إنه أمر محزن، لكنه أمر هام ومحوري، أنّ الأولاد يجب أن يتمتّعوا بالقدرة على امتصاص المعلومات التقليدية، فإنهم يميلون إلى الإيمان بأيّ شيء يخبرهم إيّاه الكبار، سواءً أكان سيئاً أو جيداً، صحيحاً أم خاطئاً، حقيقياً أم مزيّفاً. أغلب الأشياء التي ينقلها الكبار إلى الصغار حقيقية وقائمة على الأدلّة، أو على الأقل معقولة. لكن إذا كانت تلك الأشياء زائفة، خاطئة، سخيفة، أو حتى منحرفة، فليس هناك أي شيء يمكنه ردع الأولاد من الإيمان بها. والآن عندما يكبر الأولاد، ما الذي يفعلونه؟ حسناً، طبعاً إنهم ينقلون هذه المعلومات التقليدية إلى الجيل التالي من الأولاد. لذا، ما أن تترسّخ أية فكرة كمعتقد يؤمن به الناس _حتى وإن كان هذا المعتقد خاطئاً بالكامل ولم يكن هناك أي سبب معقول للإيمان به_ فإنه سيستمرّ إلى الأبد.

هل يمكن أن يكون الأمر نفسه مع الدين؟ الإيمان بأنّ هناك إله أو آلهة، الإيمان بالسماء، الإيمان بأنّ ماري لم تمت، والإيمان بأنّ يسوع لم يمت ولم يكن له والد بشري، الإيمان بأنّ الصلوات يسمعها الله، الإيمان بأنّ النبيذ قد يتحوّل إلى دم... ولا واحد من هذه المزاعم مدعوم بدليل أو برهان قاطع. ومع ذلك هناك ملايين الناس الذين يؤمنون بها إيماناً مطلقاً. وربّما سبب ذلك أنه قد تمّ إخبارهم عندما كانوا أطفالاً بالإيمان بها.

هناك الملايين من البشر الذين يؤمنون بأشياء مختلفة أخرى، لأنهم تمّ إخبارهم بتلك الأشياء ليؤمنوا بها عندما كانوا أطفالاً. الأطفال المسلمين يتمّ إخبارهم أشياء مختلفة عن الأطفال المسيحيين، والأطفال من كلا الديانتين يكبرون وهم مؤمنين بأنّ ديانتهم الصحيحة والأخرى خاطئة. حتى داخل المسيحية، يؤمن الروم الكاثوليك

بأمور مختلفة عن الكنيسة البريطانية أو الأسقفيون، المورمون أو المتحمّسون الدينيّون، والكل مقتنع تماماً بأنهم الأحق والآخر على خطأ. إنهم يؤمنون بأشياء مختلفة لنفس السبب الذي يجعلك تتحدّثين أنتِ باللغة الإنكليزية وصديقتك آن كاثرين باللغة الألمانية. لكن قد يصحّ أيضاً أنّ الديانات المختلفة صحيحة في بلدانها، لأنّ الديانات على اختلافها تزعم أنّ الأشياء المختلفة صحيحة. لا يمكن لماري أن يكون حيةً في إيرلنده الجنوبية الكاثوليكية، لكنها ميتة في إيرلنده الشمالية البروتستانتية.

ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا الأمر؟ ليس سهلاً بالنسبة لكِ أن تفعلي شيئاً، لأنك في العاشرة فقط. لكن بإمكانك محاولة ذلك. في المرّة القادمة عندما يخبرك أي أحد أي شيء يبدو هاماً، فكري بينك وبين نفسك: "هل هذا الشيء من النوع الذي يؤمن به الناس بناءً على دليل وبرهان؟ أم أنّه يؤمن به الناس بسبب التقاليد، السلطة، والوحي؟" وفي المرّة القادمة التي يخبرك فيها أحد ما أنّ شيئاً ما حقيقياً، باستطاعتك أن تقولي لهم "ما الدليل على ذلك؟" وإذا لم يكن هناك دليل جيد وكافٍ، آمل أن تفكّري بحذر قبل أن تؤمني بأي شيء يخبرك به الناس.

أحبك جداً

والدك.

ما الفائدة من الدين؟

ريتشارد دوكينز

كأحد الداروِنيين، إنّ السمة التي تجذب انتباهي في الدين هي إسرافه المدمّر، وعرضه المفرط للاجدوى الباروكية. الطبيعة عبارة عن محاسب بخيل، يحقد على النقود، يراقب الساعة، ويعاقب على أصغر تبذير. وإذا قامت الحيوانات البرية بأي عمل فيه هدر أو نشاط لا داعي له، فالانتخاب الطبيعي سيفضّل نجاة الأفراد التي يقضون أوقاتهم في البقاء والتكاثر: الطبيعة لا تحتمل التصرّفات الطائشة. تقوم النفعية عديمة الرحمة بلعب الورقة الرابحة، حتى وإن لم تكن دائماً تبدو على أنها كذلك. "الحمّام النملي" وهو عبارة عن عادة غريبة في الطيور، كأن يستحمّ طائر القيق بالنمل حيث يجلس بالقرب من عشّ النمل، وعلى ما يبدو أنه يحرّض النمل على غزو ريشه. لا أحد يعلم بالضبط ما الغاية من هذا السلوك الغريب: قد يكون شكلاً من أشكال التنظيف، تفلية ريش الطائر من الحشرات والطفيليات. [ونلاحظ هذا النوع من السلوك عند العديد من الكائنات الحية: فهناك التمساح الذي يفتح فمه ويسمح لطائر بالدخول إليه ليتغذى على ما علق من الطعام بين أسنان التمساح، كما أنّ هناك الأسماك القمّامة التي تلتصق على أجساد الأسماك الأكبر منها وتتغذّى على العوالق العالقة على جسد تلك الأسماك، كما أنّ هناك أنواعاً من الجراثيم والميكروبات التي تعي داخل جسم الإنسان، وخصوصاً في المعدة والأمعاء، وتساعد على هضم بعض المواد والمركّبات الغذائية. ويطلق على هذه العملية في علم الأحياء اسم التعايش _المترجم]. فكرتي الرئيسية هنا هي أنّ الحيرة والارتباك بشأن مسألة الغاية لا تمنع

ولا يجب أن تفعل ذلك الداروينيين من الاعتقاد بثقة بالغة أنّ عملية الاستحمام بالنمل هي عملية مفيدة من أجل هدف معيّن.

السلوك الديني عند فصيلة الرئيسيات المنتصبة تأخذ مساحة شاسعة من وقتهم. كما أنه يستنزف طاقات كبيرة. حيث أن الكاتدرائية في العصور الوسطى أهدرت مئات القرون من عمر الإنسانية من أجل بنائها. كما أنّ الموسيقى الدينية والتراتيل والرسومات الجدارية قد تمّ احتكارها منذ العصور الوسطى بشكلٍ واسع، ولم تتحرّر من قبضتها إلا في عصر النهضة. آلاف، وربّما ملايين، من البشر لاقوا حتوفهم، وهم على أعمدة التعذيب من اجل الدين والكنيسة مقابل بديل متميّز ومفيد. مات المؤمنون من أجل آلهتهم، قتلوا في سبيلهم، صاموا لهم، تحمّلوا التعذيب بالسياط، أخذوا على أنفسهم عهود العفّة وحياة العزوبة، وأقسموا على الصمت الإنعزالي داخل صوامعهم من أجل الدين. التفاصيل تختلف من ثقافة لأخرى، إلا أنه لا توجد ثقافة واحدة تخلو من بعض النسخ من الطقوس المثيرة للعداوة، والمستهلكة للوقت الثمين والثروة، والممارسات الدينية العبثية.

كل هذه الأمور تقود إلى الحيرة والمتاهة العقلية بالنسبة لأي شخص يفكّر بالطريقة الداروينية. لقد حزرنا لماذا يستحمّ طائر القيق بالنمل. أليس الدّين تحدّياً مماثلاً؟ تحدٍ بديهي بالنسبة للداروينية، ويتطلّب تفسيراً تحليلياً مقنعاً؟...

لماذا نصلي وننغمس في ممارسات مكلفة، وقد تكلّف بشكلٍ أو بآخر حياة الفرد؟ طبعاً، ينبغي على الإنذار أن يسقط الآن.

يعتبر السلوك الديني Religious Behavior عملاً داروينياً فقط في حال إذا كان منتشراً بشكلٍ كبير، وليس مجرّد عادة غريبة أو شاذّة. إلا أنه من الواضح أنّ الدين شيء عالمي، ولن تزول المشكلة لمجرد أنّ التفاصيل تختلف بين الثقافات. كما هو

الحال في اللغة، ظاهرة عالمية، بالرغم من أنها تختلف من لإقليم لآخر. فليس جميع الأفراد متدينون، ويشهد على ذلك قرّاء مقالات هذا الموقع. على أية حال، الدين هو ظاهرة إنسانية عالمية: كل ثقافة، وفي أي مكان من العالم، لها موضة دينية خاصة بها، حتى أنّ غير الممارسين والمتقلّدين لتلك الموضة يمكن تمييزهم كمعيار يميّز ذلك المجتمع، كأسلوب اللباس، أسلوب القضاء والمغازلة، وأسلوب خدمة وجبات الطعام.

إذن ما هي الحاجة إلى الدين؟؟...

هناك بعض الأدلة التي تشير إلى أنّ الإيمان الديني يحمي الناس من الأمراض المتعلّقة بالتوتر. هذه الأدلّة ليست كافية وضعيفة، كما أنها لن تكون مفاجئة أو تدعو للعجب. فأيّ عزاء هذا الذي سيقدّمه الطبيب لمريضه عندما يواجه مصير الموت. على أية حال، كثيرة هي الحالات التي شفيت فيها من بعض الأعراض البسيطة عن طريق طمأنتي بصوت هادئ صادر عن شخص يحمل سمّاعه طبية. فمفعول البلاسيبو Placebo Effect موجود حقيقة وموثّق. الحبوب الزائفة، التي ليس لها أي مفعول دوائي على الإطلاق، تحسّن الحالة الصحية للمريض. لهذا السبب يجب أن تستعمل الاختبارات الدوائية البلاسيبو من أجل السيطرة. لهذا السبب تظهر تبدو طرق المعالجة المثلية بأنها تعمل، بالرغم من أنّها مخفّفة جداً بحيث تحتوي على نفس كمية المكوّنات الفعّالة كعامل بلاسيبو مسيطر، بلا جزيئات. فهل نستنتج من هذا أنّ الدين أشبه بالدواء المزيف أو البلاسيبو؟ والذي يطيل الحياة من خلال التقليل من حدّة التوتر والإجهاد. ربّما، بالرّغم من أنّ النظرية يجب أن تتعرّض لهجوم المتشكّكين والباحثين الذين يشيرون إلى العديد من حالات التوتر الإجهاد التي أدّى الدين إلى ارتفاعها، بدل تخفيضها والتقليل منها. في أي حالٍ من الأحوال، أنا أجد أنّ نظرية

البلاسيبو هزيلة جداً لتفسير ظاهرة الدين الهائلة والواسعة. لا أعتقد أننا لدينا الذين لأنّ أسلافنا الدينيون كانوا يقلّلون من توترهم لذلك كانوا يعيشون فترة أطول. أنا لا أعتقد أنها نظرية كبيرة بشكلٍ كافٍ لمثل هذا العمل. النظريات الأخرى تخطئ في فهم واستيعاب غاية التفسيرات الداروينية. أنا أشير إلى اقتراحات على شاكلة: "الدين يرضي فضولنا حول الكون والعالم ومكانتنا فيه". أو: "الدّين عزاء. الناس يخافون الموت وينجذبون إلى الديانة أو المعتقد الذي يعدهم بالنجاة والحياة الأخرى". هنا قد نلمح بعض مظاهر الحقيقة السيكولوجية، لكنها ليست في ذاتها التفسير الدارويني الذي تحدّثت عنه. وكما قال ستيف بينكر في كتابه (كيف يعمل العقل؟ منشورات بينكوين 1997): "... إنه لا يثير سوى التساؤل ما الغاية من تطوّر عقل حتى يجد العزاء والراحة في معتقدات وأفكار يعرف في صميمه أنها خاطئة ومغلوطة. فالشخص الذي يتجمّد من البرد لا يجد العزاء والدفء في الاعتقاد بأنه دافئ، كما أنّ الشخص الذي يقف وجهاً لوجه أمام أسد جائع لن يجد راحة بال بأن يقنع نفسه أنّ هذا الذي أمامه هو أرنب". [ص 555]

إنّ النسخة الداروينية لنظرية الخوف من الموت ستكون على الشكل التالي "إنّ الاعتقاد بالحياة بعد الموت لا يفيد شيئاً سوى لتأجيل اللحظة التي سيختبر فيها الشخص تجربة الموت". قد يكون هذا الكلام صحيحاً وقد يكون خاطئاً، وربما هو نوع آخر من أنواع العزاء أو الإجهاد ونظرية البلاسيبو، لكنني لن أسعى خلف هذه المسألة. إنّ فكرتي الأساسية هنا هي أنّ هذه هي الطريقة التي يجب على الدارويني أعادة صياغة السؤال وفقها. فالتصريحات السيكولوجية للأثر الذي يجد فيه الناس بعض الاعتقاد الموافق أو الرافض هو ليس تفسير نهائي. وكأحد الداروينيين، فأنا مهتمٌ بالأسئلة النهائية. الداروينيون يجنون الكثير من هذا التفريق بين التقريبي

والنهائي. فالأسئلة التقريبية تقودنا إلى علم وظائف الأعضاء وعلم تشريح الأعصاب. وليس هناك أيّ غبار على التفسيرات التقريبية. فهي على درجة من الأهمية، بالإضافة إلى أنها تتميّز بأنها علمية. على كل حال، فجلّ اهتمامي ينصبّ على التفسيرات الداروينية النهائية. فإذا عثر علماء الأعصاب على "مركز الإله" في الدماغ، فإنّ العلماء الداروينيين أمثالي يريدون أن يعرفوا لماذا تطوّر "مركز الإله" مع الدماغ؟ لماذا أسلافنا الذين كان لهم ميل وراثي لإنماء "مركز الإله" حظوا بفرص للنجاة أفضل من الحيوانات الأخرى التي يتطوّر "مركز الإله" في دماغها؟ التساؤل الدارويني النهائي هو ليس أفضل الأسئلة على الإطلاق، كما أنه ليس أعمق الأسئلة، وليس أكثر الأسئلة العلمية أهمية كما هو السؤال العصبي التقريبي. على كل حال، هذا أحد القضايا التي صدف أن تناولتها هنا. بعض التفسيرات النهائية المزعومة تبيّن أنها نظريات اختيارية جماعية. فالاختيارات الجماعية هي من الفكرة الأكثر إثارة للجدل التي يختارها الانتقاء الدارويني من بين جماعات من الأفراد، بنفس الطريقة، حسب نظرية داروين الطبيعية، إنها تختار أو تنتقي بين الأفراد ضمن الجماعات. فالعالم الأنثروبولوجي _كولين رينفرو_ من جامعة كامبريدج على سبيل المثال يقترح أنّ المسيحية نجت من خلال شكل معيّن من أشكال الانتقاء الجماعي لأنها تبنّت فكرة الولاء للجماعة والحب الأخوي. هناك مفكّر تطوّري أمريكي أخر _ديفيد سلوان ولسون_ قدّم اقتراحاً مماثلاً في كاتدرائية داروين. ها أنا أقدّم هنا مثالاً مفبركاً لأبيّن الطريقة الأخرى التي تعمل فيها نظرية الاختيار الجماعي في الدين. قبيلة تعبد إله جبّار عاتٍ "إله الحرب" يثير قريحة الحرب والدماء لدى أتباعه تشنّ حروباً ضدّ قبيلة تعبد إلهاً يحثّ على السلام والانسجام، أو قبيلة من دون إله مطلقاً. فالمحاربون الذين يؤمنون أنّ البطل الذي يسقط في المعركة هو شهيد وثوابه الجنّة مباشرةً سيقاتلون

بشراسة واستبسال، لدرجة أنهم سيضحّون بحياتهم. لذلك، على الأرجح أن تكون فرصة القبيلة المحاربة في البقاء أفضل من المسالمة خلال عملية الانتقاء الجماعي القبلي، سرقة مواشي وأنعام القبيلة المهزومة، وأسر نسائها وأخذهنّ سبايا. مثل هذه القبائل الناجحة تبيض وتخلّف قبائل صغيرة والتي بدورها تنفجر وتتكاثر لتخلّف قبائل صغيرة أخرى، وجميعها تعبد الإله العشائري ذاته. لحظ أنّ ذلك مختلف تماماً عن القول بأنّ فكرة الدين المحارب تنجو وتبقى وتستمرّ. طبعاً، إنه سيستمرّ، لكن في هذه الحالة، النقطة هي أنّ المجموعات البشرية التي تقبض على الفكرة أو تمتلكها هي التي تنجو وتبقى. هناك اعتراضات هائلة على نظيرات الاختيار أو الانتقاء الجماعي. هناك اعتراض معروف، يجب أن أحذر من الابتعاد عن صلب الموضوع. النماذج الرياضية تظهر بشروط خاصّة جداً تحت أيّ من الاختيارات الجماعية التي ستعمل ضمنها. فالأديان في القبائل البشرية توفّر مثل تلك الشروط. وهذا خط مثير للاهتمام لنبني عليه نظرية، ولكني لن أقوم بذلك هنا. هل يمكن أن يكون الدين ظاهرة حديثة، ظهر منذ أن تخطّت جيناتنا معظم مراحل الانتقاء الطبيعي الممارس عليها؟ فوجوده المطلق يتعارض مع أي نسخة بسيطة من هذه الفكرة. وبالرغم من ذلك، هناك نسخةً منه أريد الدفاع عنها وتأييدها. النزعة التي تمّ انتقاءها طبيعياً في أسلافنا لم تكن ديناً بحدّ ذاتها. بل كان لها منفعة أخرى، وهي لا تتمثّل على سبيل المصادفة في يومنا هذا على شكل سلوك ديني. فنحن سنفهم السلوك الديني فقط بعد تغيير اسمه. من الطبيعي بالنسبة إليّ كعالم إحيائي استخدام قياس أو معيار معيّن مستنبط من الحيوانات غير البشرية. "فالهيمنة التراتبية أو الهيراركية" قد اكتشفت للمرّة الأولى على شكل "نظام تسلسل اجتماعي" عند الدّجاج. حيث أنّ كلّ دجاجة تتعلّم أيّ من أقرانها تستطيع هزيمتها في عراك وأيها لا تستطيع. وفي نظام تراتبي مؤسّس بشكل

جيد، نادراً ما نشاهد صراعاً أو قتالاً علنياً. فالتجمّعات المستقرّة للدّجاج، والتي كان عندها الوقت الكافي لتصنيف أنفسها في نظام تسلسل اجتماعي تراتبي، يضع بيوضاً أكثر من التجمّعات التي تتغيّر عضويتها بشكلٍ مستمر. وهذا قد يعتبر مثال لصالح فكرة تراتبية الهيمنة. على أيّة حال، تلك ليست هي الداروينية الحقيقية، لأنّ الهيمنة التراتبية هي ظاهرة على مستوى الجماعة. فقد يهتمّ المزارع بمستوى إنتاجية الجماعة، ولكن، باستثناء الظروف الغريبة جداً والتي لا تنطبق على هذه الحالة هنا، فالانتقاء الطبيعي لا يهتمّ. فبالنسبة للدارويني، إنّ السؤال "ما هي القيمة البقائية للهيمنة التراتبية؟" هو سؤال غير مشروع. فالسؤال المناسب في هذه الحالة هو: "ما هي القيمة البقائية الفردية لمراعاة الدجاجات الأقوى؟ ومعاقبة والتقليل من احترام الدجاجات الأضعف؟". على الأسئلة الداروينية أن توجّه الانتباه تجاه المرحلة التي تتواجد فيها المتغيّرات الجينية. الميول العدوانية في أفراد الدجاج هي هدف مناسب لأنهم إمّا متفاوتين من الناحية الجينية أو أنهم قد يحتمل أن يكونوا كذلك. إنّ الظواهر الجماعية كالهيمنة التراتبية مثلاً غير متفاوتة في الجماعة من الناحية الجينية، لأنّ الجماعات لا يمتلك أيّة جينات. على الأقل، ستقاطع عملك في مجادلة بعض الإحساس الغريب الذي في الظاهرة الجماعية يمكن أن تكون خاضعة للاختلاف الوراثي. وفكرتي هنا هي أنّ الدين يمكن أن يكون على غرار الهيمنة الهيراركية التراتبية. "ما هي القيمة البقائية للدين؟" قد لا يكون هذا السؤال هو السؤال المناسب. والسؤال قد يكون على الشكل التالي: "ما هي القيمة البقائية لبعض مظاهر السلوك الفردي غير المحدّد، أو الخاصية السيكولوجية التي تظهر نفسها _في ظلّ ظروف مناسبة_ كدين؟" علينا أن نعيد صياغة السؤال قبل أن نتمكّن من الإجابة عليه بدقّة. فالداروينيين الذين يسعون خلف القيمة البقائية للدين يطرحون السؤال الخاطئ. وبدلاً من ذلك، علينا

التركيز على شيء في تطوّر أسلافنا لا نعتبره عندها على أنه دين، ولكن ما الذي بإمكاننا تمييزه كدين في سياق المجتمع الحضاري المتغيّر باستمرار. أنا استشهدت بنظام التسلسل الاجتماعي للدجاج، والفكرة هنا مركزية جداً بالنسبة لأطروحتي التي أتمنى بأنك ستغفر لمثال حيواني آخر بالتأكيد على أهميتها: ذباب العثّ عندما ينجذب إلى لهب الشمعة، وهذا لا يبدو حادثاً أو من قبيل المصادفة. إنها تخرج عن طريقها لتجعل من نفسها قرابين في النار. بإمكاننا اعتبار ذلك "سلوك تضحية ذاتي" وأن نتساءل كيف يفضّل الانتقاء الطبيعي الدارويني هذا السلوك. فكرتي هنا من جديد هي أننا بحاجة إلى إعادة صياغة السؤال قبل أن نحاول الإجابة عليه جواباً ذكياً ودقيقاً. إنّ هذا السلوك ليس انتحاراً. فالانتحار يظهر كعرَض جانبي غير مقصود. فالضوء الصناعي هو حَدَث جديد في مشهد الليل. حتى فترة قصيرة، كان الضوء الوحيد الذي ينير الليل هو ضوء النجوم والقمر. فكونهم في النهاية البصرية، فإنّ أشعّتهم متوازية، وهي التي تجعل بوصلاتهم مثالية. ومن المعروف أنّ الحشرات تستخدم الأجسام السماوية للملاحة بدقّة في خطّ مستقيم. فالنظام العصبي لدى الحشرات بارع في وضع طريقة مؤقتة ومجرّبة مثل: فاتجاه اصطدام شعاع الضوء بعينك هو بزاوية 30°. وبما أنّ الحشرات تمتلك عيوناً مركّبة، فإنّ ذلك سيجتمع باتساق في عصب بصري معيّن، وهو في الحشرات عبارة عن أنبوب بصري مفرد يخرج من مركز العين المركّبة. على أيّة حال، تعتمد البوصلة الخفيفة بشكل حرج على الجسم السماوي الواقع في اللانهاية البصرية. أمّا إذا لم يكن كذلك، فالأشعّة لا تكون متوازية بل تتباعد مثل أشعّة العجلة. النظام العصبي الذي يستخدم شعاع قياسه 30° للشمعة، كما لو أنه القمر، وسيقود الحشرة صاحبته في لولب لوغاريتمي رتيب، باتجاه اللهب. هو ما زال، في المعدّل، قياساً جيداً. ونحن لا نلاحظ مئات من حشرات

العثّ التي تسير بشكلٍ صامت بالقمر أو النجوم اللامعة أو بهدي أضواء المدينة البعيدة. نحن لا نرى سوى العثّ الذي يقود نفسه نحو أضويتنا، ونطرح دائماً السؤال الخاطئ. لماذا تسلك تلك الحشرات سلوكاً انتحارياً؟ وبدلاً من ذلك، علينا أن نتساءل لماذا تلك الحشرات تمتلك أجهزة عصبية تقودهم بشكل ثابت وآلي ومستقيم نحو ضوء الأشعّة، وهي وسيلة لا نلاحظها إلا في الأوقات التي تعمل فيها بشكل غير صحيح. عند صياغة السؤال مرّةً ثانية، ينقشع الغيام ويُحَلّ اللغز. ليس صحيحاً أن نطلق عليه اسم انتحار. مرّةً أخرى، طبّق الدرس على السلوك الديني عن الإنسان. سنلاحظ أنّ عدداً كبيراً من الناس، في العديد من المناطق المحلّيّة تبلغ نسبة الذين يحملون المعتقدات والأفكار التي تناقض الحقائق العلمية المثبتة بشكلٍ قاطع حوالي 100٪، كما هو الحال في الأديان المنافسة. هم لا يحملون فقط هذه المعتقدات، بل إنهم يكرّسون أوقاتاً ومصادر من أجل النشاطات المكلفة التي تنبع من اعتناقها. إنهم مستعدّون للموت في سبيلها، وللقتل من اجلها. إننا نتعجّب من كل هذا، كما تعجّبنا عندما لاحظنا سلوك حشرة العثّ الانتحاري. نتساءل بحيرة وارتباك: "لماذا؟" مرّةً أخرى، إنّ النقطة التي أثيرها هنا هي أنّنا قد نكون قد طرحنا السؤال غير المناسب. قد يكون السلوك الديني إخفاقاً، ظهور مؤسف لميل نفسي داخلي قد يكون مفيداً في أوقات وظروف أخرى مختلفة. ما الذي يمكن أن يكونه ذلك الميل النفسي؟ ما هو المكافئ لاستعمال الأشعّة المتوازية القادمة من القمر كبوصلة مفيدة؟ هنا سأقدّم اقتراحاً، لكني يجب أن أؤكّد بأن هذا مجرّد مثال عن الشيء الذي أتكلّم عنه هنا. أنا متمسّك كثيراً بالفكرة العامّة التي تقول أنّ السؤال يجب أن يتمّ صياغته مجدّداً بدلاً من أن أقدّم جواباً معيّناً. وافتراضي بالتحديد هو عن الأطفال. فأكثر من أيّ نوع آخر، نحن نحافظ على بقائنا واستمرارنا من خلال التجربة المتراكمة للأجيال

السابقة. نظرياً، قد يتعلّم الأطفال بالتجربة ألا يسبحوا في مياه تملأها التماسيح. بأيّ حال، وعلى أقلّ تقدير، ستكون هناك فائدة انتقائية لأدمغة الأطفال بالطريقة المجرّبة مسبقاً: تقبّل كلّ ما أخبرك به الكبار. أطِع والديك. احترم كبار القبيلة، وخصوصاً عندما يتبنّون لهجة توعّدية تهديدية جدّيّة. أطِع بشكلٍ أعمى ولا تطرح أسئلة. أنا لن أنسى ما حييت طقساً مرعباً، حدث في مصلى المدرسة عندما كنتُ طفلاً صغيراً. كان طقساً مرعباً عند التفكير بما حدث: في ذلك الوقت، تقبّل دماغي الطفلي ذلك الطقس كما جاء من قبل الواعظ. أخبرنا قصّة فرقة من الجنود، الذين يحفرون بجانب سكّة حديدية. وفي لحظة حرجة، تشتّت انتبه قائد المثقاب، ونسي إعطاء الأمر بالتوقّف. وكان الجنود مدرّبين جيداً لإطاعة الأوامر بدون أي تردّد حيث أنهم استمرّوا في السير مباشرةً مع خطّ سير القطار القادم. والآن بالطبع، أنا لا أصدّق هذه القصّة من أساسها، لكنني صدّقتها بكل جوارحي الطفولية عندما في التاسعة من عمري. والنقطة هنا هي أنّ الواعظ أراد منّا أن نعتبر كمزيّة طاعة الجنود العمياء لأوامر قائدهم مهما كانت غير معقولة. علاوةً على ذلك، بالتكلّم عن نفسي، أعتقد بأننا عندها اعتبرناها مزية وفضيلة بحدّ ذاتها. أتساءل إذا ما كنت أمتلك الشجاعة للقيام بواجبي بالزحف إلى أمام مسار القطار. وكالجنود المثاليين، تقوم الكمبيوترات بعملها وتنفّذ جميع الأوامر التي تطلَب منها. إنها تطيع بطريقة عبودية التعليمات المدخلة إليها بلغتها البرمجية الخاصّة. هكذا تقوم الكمبيوترات بأعمال مفيدة كمعالجة الكلمات والعمليات الحسابية الضخمة. في النهاية، كناتج عَرَضي حتمي، ما هم إلا آلات على حدٍ سواء في إطاعة الأوامر والتعليمات السيئة. كما أنها لا تمتلك طريقة لإخبارنا ما إذا كانت العليمات لها أثر سيء أم إيجابي. إنها تطيع ببساطة، كما يفعل الجنود النموذجيون. فالطاعة العمياء والمطلقة تجعل الكمبيوترات عرضة لهجمات

الفيروسات والديدان. برنامج مصمّم بشكل دقيق وخبيث يقول للكمبيوتر باستمرار "قم بنسخي إلى كل اسم في أي قائمة عناوين بإمكانك أن تجدها على هذا القرص الصلب" وسيطيع الكمبيوتر ببساطة هذا الأمر ثمّ يطيعه مرّةً أخرى وأخرى ومن قبل الكمبيوترات الأخرى التي يرسل إليها البرنامج، وتحدث عملية توسّع أسّي.

من المستحيل تصميم جهاز كمبيوتر يطيع الأوامر والتعليمات المفيدة فقط، ومحصّن ضدّ العدوى والتعليمات السيئة وغير المفيدة. إذا أوصلت الفكرة المرجوّة بشكل جيد، فأنت ستكون قد أكملت الحجّة بشأن أدمغة الأطفال والدين. فالانتقاء الطبيعي يبني عقل الطفل ويزوّده بميل للإيمان تقبّل أي شيء يخبره إياه أهله أو كبار القبيلة. بالإضافة إلى أنّ هذه الخاصية بذاتها تجعلهم عرضة للعدوى تلقائياً بفيروسات العقل. ولأسباب بقائية منطقية، يحتاج دماغ الأطفال لأن يثق بالآباء وأن يأتمن الكبار الذين هم بدورهم وثقوا بآبائهم وأسلافهم. والنتيجة الآلية هي أنّ "الواثق" ليس له أي طريقة أو سبيل لتمييز النصيحة الجيدة الثمينة عن النصيحة السيئة الغثّة. فالطفل لا يمكنه أن يعرف أنّ النصيحة التي تقول "إذا نزلت في النهر فستلتهمك التماسيح" هي نصيحة جيدة، والنصيحة "إذا لم تقدّم قرباناً للإله عندما يصبح القمر بدراً، فسيموت الزرع" هي نصيحة سيئة. كلا النصيحتين تبدوان متشابهتين. وكلتاهما صادرتان عن مصدر موثوق، وجاءتا على لسان رجل أوامره محترمة ومطاعة. ونفس الأمر ينطبق على المقترحات والأفكار بشأن العالم، الكون، المبادئ الأخلاقية، والطبيعة البشرية. علاوةً على ذلك بالطبع، عندما يكبر الطفل وينجب أطفالاً، فسينقل بشكل طبيعي كل شيء تعلّمه إلى أطفاله، وسيستعمل نفس الأسلوب الرائع. في هذا النموذج، يجب أن نتوقع أنه في المناطق الجغرافية المختلفة، هناك معتقدات اعتباطية مختلفة ليس لها أي أساس أو قاعدة واقعية تستند إليها، ليتمّ

تبنّيها الاعتقاد بها بنفس الطريقة التي يتمّ فيها تبنّي القطع المفيدة من الحكمة التقليدية كالاعتقاد بأنّ السماد مفيد للمحاصيل. كما أننا يجب أن نتوقّع أنّ هذه المعتقدات التي لا أساس لها ستتطوّر وتتغيّر على مرّ الأجيال، من خلال التغيّر العشوائي أو باتباع نوع من أنواع الانتقاء الطبيعي الداروني، و في النهاية ستظهر نمط الانحراف الملحوظ من السلف المشترك. تتغيّر اللغات وتتحوّر من سلف مشترك كان له وقت كافٍ في عملية التباعد الجغرافي. ونفس الشيء يصحّ على المعتقدات والأوامر التقليدية، يتمّ تسليمها إلى الأجيال التالية، مبدئياً بفضل القابلية البرمجية لعقل الأطفال. يزوّد الانتقاء الداروني أدمغة الأطفال بميل أو نزوع فطري لأن يصدّقوا كلام كبارهم ويؤمنوا بصحّته. تكون الأدمغة مجهّزة بميل فطري لتقليد، ونشر الإشاعات، ونشر القصص والأساطير الشعبية، والإيمان بالأديان وإن بطريقة لاشعورية وغير مباشرة. على أية حال، في البداية يتمّ منح الأدمغة تلك العملية التي تشبه الانتقاء الجيني، ثمّ تتحوّل إلى نوع من الميراث اللاجيني، والذي قد يشكّل أساس أو قاعدة نوع جديد من الأبستمولوجيا، وعلى الأرجح نوع جديد من الانتقاء الداروني اللاجيني.

أنا أعتقد أنّ الدين هو واحد من مجموعة من الظواهر التي تفسّر من خلال هذا النوع من الأبستمولوجيا اللاجينية، بالمزج المحتمل للانتقاء الداروني اللاجيني. فإذا كنت محقاً، ليس للدين أي قيمة بقائية استمرارية بالنسبة للكائن البشري الفرد، أو بالنسبة لجيناته. أمّا الفائدة الوحيدة، إن كان ثمّة فائدة، هي للدين فحسب.

العلم والإيمان

(لا إيمان في العلم)

[لماذا العلماء لا يؤمنون بالعلم]

بقلم جيري كوين

لماذا جسيم هيغز لا يشبه بحر الحليب الذي يحتوي الآلهة...

هناك تكتيك شائع عند أولئك الذين يزعمون أنّ هناك توافقاً بين الدين والعلم أنهم غالباً ما يجادلون بأنّ العلم، مثله مثل الدين، يقوم على الإيمان والتسليم: التسليم بدقّة الأرصاد والملاحظات، ضمن قوانين الطبيعة، أو قيمة الفكر. كتب دانييل سيرفيتز، مدير مركز السياسات العلمية في جامعة أريزونا ستيت ومساهم آني في مجلّة سليت Slate، نفس الكلام حول بوزون هيغز في مجلّة "الطبيعة Nature"، المجلّة العلمية الرائدة على مستوى العالم: "بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستطيعون استيعاب الرياضيات أقول أنّ الاعتقاد بوجود بوزون هيغز هو فعل من قبيل الإيمان والتسليم، وليس من العقلانية بشيء" هذه التصريحات تشير إلى أنّ العلم والدين ليسا مختلفين عن بعضهما لأنّ كلاهما يسعى خلف الحقيقة ويلجأ إلى الإيمان والتسليم للعثور عليها. طبعاً، غالباً ما يوصَف العلم بأنّه نوع من أنواع الدين.

لكنّ هذا كلام مغلوط ومجحف، إذ أنّ "الإيمان/ التسليم" الذي في العلم مختلف تماماً عن إيمان المؤمنين بالله وبمعتقداتهم الدينية الدوغمائية. ولرؤية ذلك علينا أن نلقي نظرة أقرب إلى التصريحات الأربعة التالية:

- عندي إيمان بأني سألتقي بأصدقائي وعائلتي في الجنّة، لأنّ يسوع هو منقذي.

- إيماني يخبرني بأنّ المسيح لم يأتِ بعد، لكنّه سيجيء في يومٍ من الأيام.
- لديّ احتقان بيلعومي، لكنّني أعتقد أنّ هذا البنسلين سيعالجه.
- لديّ إيمان بأني حين أستشهد في سبيل الله، سيكون هناك 72 حورية بانتظاري في الجنّة.

كافة هذه التصريحات تعتمد على الاعتقاد أو الإيمان، لكن مفهوم الاعتقاد هنا يختلف بين تصريح وآخر. فالمزاعم الدينية الثلاث (اليهودية والمسيحية والإسلامية على التوالي) تجسّد الإيمان كما عرّفة الفيلسوف والتر كاوفمان: «اعتقاد شديد، وواثق عادةً، لا يقوم على دليل أو برهان كافيين يرضيان أي شخص عقلاني». طبعاً، ليس هناك أيْ دليل ما عدا الوحي، المرجعيات الدينية، والكتب المقدّسة يثبت صحّة المزاعم الدينية التي في الأعلى، وأغلب المؤمنين في العالم سيرفضون إحداها على الأقل. ولنقول بصراحة، هذا الإيمان أو الاعتقاد يتضمّن ادّعاء الشخص معرفة أشياء لا تعرفها أنت. خلف هذا الإيمان هناك مايسمى بالتفكير الرغبوي، كما هو معبّر عنه في سفر العبرانيين 11: 1 «وَأَمَّا الإِيمَانُ فَهُوَ الثِّقَةُ بِمَا يُرْجَى وَالإِيقَانُ بِأُمُورٍ لاَ تُرَى».

في المقابل، نلاحظ أنّ التصريح الثالث يقوم على "الدليل". فالبنسيلين يقتل بشكل كلي وأكيد تقريباً جراثيم المكوّر العقدية. في هذه الحالة إنّ كلمة "أعتقد" لا تعني «الإيمان بدون وجود جليل كاف»، بل «الثقة المستمدّة من تحاليل وأبحاث علمية صارمة ومكرّرة وموثّقة».

لديك إيمان، أو أنت تعتقد (يعني لديك ثقة) بأنّ الشمس ستشرق غداً لأنّها تشرق دائماً، وليس هناك أي دليل مرئي بأنّ الأرض قد توقّفت عن الدوران أو أنّ الشمس قد احترقت ونفذ وقودها النووي. لديك إيمان/ ثقة بطبيبك لأنّه تمكّن من معالجتك أنت وآخرين غيرك بنجاح، وأنت تعلم حق العلم أنّ ما يصفه لك أو

لغيرك من دواء مجرّب مخبرياً وعلمياً. لذلك لن تلجأ إلى الشامان أو رجل الدين أو المشعوذ ليعالج التهاب حلقك_ إلا إذا كنت تريد تضييع أموالك.

نحن لا نعرف اليوم عن الله أكثر ممّا كنّا نعرفه منذ ألف عام.

إنّ خلط الإيمان بوصفه "إيمان بدون دليل" والإيمان بوصفه "ثقة مبرهنة ومبرّرة" هو ببساطة خدعة كلامية لدعم الدين. في الحقيقة، لم تجد أبداً عالماً يقول: «أنا أؤمن بالتطوّر» أو «لديّ إيمان بالإلكترونات». هذه اللغة ليست غريبةً عنّا فحسب، بل إنّنا نعرف أيضاً تمام المعرفة كيف يجري إساءة استخدامها باسم الدين.

ماذا عن احترام العلماء العام لمرجعية العلماء الآخرين؟ أليس ذلك نوعاً من الإيمان؟... لا، ليس فعلاً. فعندما يتحدّث ريتشارد دوكينز أو يكتب عن التطوّر، أو عندما تتحدّث ليزا راندال عن الفيزياء، فالعلماء في مجالات أخرى _والجمهور أيضاً_ لديهم ثقة بأنّهم على حق. لكنّ ذلك أيضاً قائم على أساس الشكّ والنقد المتأصّلين في العلم (لكنّهما غير موجودين في الدين): وهذا يعني فهم أنّ خبرتهم قد جرى التدقيق فيها من قبل علماء فيزيائيين وبيولوجيين آخرين. في المقابل، إنّ مزاعم الكاهن وادّعاءاته حول مسألة وجود الله لا تزيد أو تنقص عن ادّعاءات ومزاعم أي شخص آخر. فنحن لا نعرف اليوم عن الله أكثر ممّا كنّا نعرفه منذ ألف عام.

الفحص والتدقيق الصارمين من قبل زملائنا يضمن بأنّ العلم ذاتي التصحيح بشكل كبير، لذلك يمكننا الاعتماد عليه بثقة خلال سعينا لفهم حقيقة الكون. وعندما زعم سيرفيتز بأنّ "الإيمان" بوجود بوزون هيغز كان من قبيل الإيمان والتسليم وليس من قبيل العقلانية في شيء، وعندما قارن ذلك بالإيمان الهندوسي ببحر الحليب الذي يحتوي آلهتهم، كان خاطئاً ومغلوطاً ببساطة شديدة. فنحن لدينا دليل قوي على وجود جسيم هيغز، وقد جرى تأكيده العام الفائت من خلال تجارب قام به فريقين مستقلين

تماماً عن بعضهما قاما باستخدام مصادم جسيمات عملاق وبإجراء العديد من التحليلات البيانية والإحصائية الصارمة. لكن ليس هناك _ولن يكون أبداً_ أي دليل على وجود بحر الحليب.

العلماء لا يعطون أي تصديق أو سلطة أو مرجعية خاصّة لأي من الكتب أيضاً، باستثناء تلك الكتب التي تقدّم نظريات مستفيضة وشاملة، تحليلات مسهبة ومفصّلة، أو حقائق مثبتة ومؤكّدة. عندما أصبحت عالم أحياء تطورية، لم يكن مطلوباً مني إلقاء قسم على حقيقة داروين واضعاً يدي على كتابه "أصل الأنواع". طبعاً ذلك الكتاب يتضمّن العديد من الأخطاء ومن عدّة محاور، ومن ضمنها نظريته الخاطئة في علم الوراثة. في المقابل، أغلب المؤمنين يطلب منهم القسم على الالتزام بمزاعم وادّعاءات دينية سخيفة وثابتة (تذكّروا مذهب نيقيا والأثناسيوسية [مذهب صوفي])، كما يطلب من الكهنة والقساوسة القسم للحفاظ على تعاليم الكنيسة ومذهبها.

إذن العلماء ليس لديهم إيمان شبه ديني بالمرجعيّات، أو افتراضات مسبقة من دون دعم تجريبي. هل لدينا إيمان بأيّ شيء؟ يقال أنّ الاعتقاد العلمي يقوم على شيئين أساسيين هما قوانين الفيزياء والفكر. فممارسة العلم تتطلّب إيماناً غير مثبت "بنظام الطبيعة" و"مجموعة غير مفسّرة من قوانين الفيزياء"، بالإضافة إلى قيمة الفكر في تقرير الحقيقة وتحديدها.

كلا الادّعائين خاطئين.

نظام الطبيعة _مجموعة ما يسمّى بقوانين الطبيعة_ ليس افتراض بل أرصاد وملاحظات. من الممكن منطقياً بأنّ سرعة الضوء قد تختلف من مكان لآخر، وفي حين أنّنا بحاجة لتعديل نظرياتنا لتتناسب مع ذلك، أو التخلّي عن نظريات معينة، إلا

أنّ الأمر لن يكون كارثة. قوانين الطبيعة الأخرى، كالكتل النسبية للنيوترونات والبروتونات، قد يكون من غير الممكن اختراقها أو انتهاكها في كوننا. فنحن لن نكون موجودين أصلاً لو أنّها كانت مغايرة لما هي عليه _فأجسامنا تعتمد على انتظام كلٍ من الفيزياء والكيمياء وتكاملهما. فنحن نأخذ الطبيعة كما نراها، وهي تتصرّف معظم الأحيان بطريقة يسهل التنبؤ بها.

ماذا عن الإيمان بالفكر؟ خطأ مرةً أخرى. الفكر _ممارسة التفكير النقدي، المنطقي، والتعلّم المستمدّ من التجربة والخبرة_ ليس افتراضاً مسبقاً بل أداةً أثبتت جدارتها وقدرتها على العمل. هذه الأداة قد أنتجت مضادات حيوية، حواسيب، إضافةً إلى قدرتنا على فكّ رموز شيفرتنا الوراثية. نحن لا نؤمن بالفكر، بل نستخدمه لأنّه _خلافاً للوحي_ يأتينا بنتائج ويمنحنا مقدرة على الفكر والاستيعاب. وحتى أنّنا نستخدم الفكر في مناقشة مسألة استخدامنا للفكر!

أخيراً، أليس العلم على الأقل قائم على الإيمان أو الاعتقاد أنّه من الجيّد معرفة الحقيقة؟ بالكاد. إنّ فكرة أنّ المعرفة أفضل من الجهل ليس إيماناً دينياً أو شبيه به، إنّما هي "تفضيل". فنحن نفضّل معرفة الحقيقي لأنّ الخطأ لا ينفعنا في شيء. نحن لا نصف السمكرة أو الميكانيك بأنّها مهنٌ تعتمد على الإيمان والأمل بأن تكون الأنابيب أو السيارات مرتبة قطعها بانتظام وأن تعمل بشكلٍ حسن، ومع ذلك فالناس في هذه المهن حتى يسعون وراء الحقائق.

يمكننا نفي إشاعة "العلم بوصفه إيماناً" وتكذيبها بعبارة واحدة، ويشرّفني أن أقتبس عن ريتشارد دوكينز:

«هناك فرق كبير وعلى درجة عظيمة من الأهمية بين الشعور القوي، والعاطفي حول أمرٍ معيّن لأنّنا فكّرنا فيه وفحصنا الدليل حوله من ناحية، والشعور القوي

والغامر حول أمر لأنّه كُشَف لنا بشكل باطني وخفي، أو لأنّه جرى الكشف عنه صوفياً من قبل شخص آخر تاريخياً وتمّ تقديسه تراثياً. هناك فرق شاسع بين الاعتقاد الذي يجد الشخص نفسه مستعداً للدفاع عنه عن طريق اقتباس البرهان واستخدام المنطق والإيمان غير المدعوم بأي شيء ماعدا التراث، المرجعيّة، أو الوحي».

إذن، في المرّة القادمة التي تسمع فيها أحداً يصف نفسه «رجل إيمان»، تذكّر على الرغم من أنّ المقصود هنا هو المديح، فهو إهانة وذَمّ في نفس الوقت.

نهاية الدين بعام 2038

نايجل باربر

البلدان التي تتمتّع بمستوى معيشي مرتفع تتحوّل إلى الإلحاد. هذا الانتقال المحوري يعطينا لمحة عن مستقبل العالم.

كثيراً ما ينزعج المتديّنون من القول بأنّ الإيمان بالله سينتهي أو سيندثر مع مرور الزمن، ولنفس السبب بالضبط، مع ارتفاع معيار تطوّر المستوى المعيشي وتقدّمه. إنّ الفكرة التي تقول أنّ الإيمان الديني سيسقط أمام الإلحاد تعرف أيضا باسم "أطروحة العلمانية". والنسخة المفضّلة لديّ[1] تعرف باسم "فرضية الأمن الوجودي Existential Security Hypothesis". والفكرة الأساسية في هذه الأطروحة أنّه كلّما ازداد الناس غنى وثراء ورفاهية، خفّ قلقهم بشأن نقص حاجاتهم الأساسية، أو الموت مبكّراً جرّاء المرض أو القتل. بمعنى آخر، إنّهم يشعرون بالأمان والاستقرار لوجودهم الخاص. إنّهم لايشعرون بالحاجة لاستجداء كيانات ماورائية غيبية وكسب عطفها لتخفيف مخاوفهم وتسكين قلقهم.

وهناك الكثير من الأدلّة التي تدعم الفكرة القائلة بأنّ تقدّم شروط الحياة وتحسّنها مرتبط بشكل مباشر مع انخفاض نسبة التديّن (1، 2، 3)... إلا أنّ ذلك لم يمنع

---

(1) Barber, N. (2012). Why atheism will replace religion: The triumph of earthly pleasures over pie in the sky. E-book, available at:
http: //www.amazon.com /Atheism-Will-Replace-Religion-book/dp /B00886ZSJ6 /

بعض الباحثين الجادّين أمثال العالم السياسي إيريك كاوفمان[2] من الوصول لنتيجة مختلفة وهي أنّ المتطرّفون الدينيون سيزدادون ويتجاوزوننا.

ومع ذلك فإنّ هذه الجماعات _بقدر ما تبدو عليه من صخب_ لا تشكّل سوى أقلّية ضئيلة من مجموع السكّان وسيغدون أكثر تهميشاً مع تقدّم وتزايد الازدهار العالمي وتحسّن الظروف المعيشية. علاوةً على ذلك، مع تزايد نسبة توحّد المتشدّدين الدينيين اقتصادياً، أخذت النسوة والشابات بالخروج للعمل وإنجاب عائلات أصغر، وهذا بالضبط ما يحدث الآن لدى المورمون في ولاية يوتاه. والإشارة الأوضح التي تدلّنا على أنّ الغالبي العظمى من البشر سيتحوّلون إلى الإلحاد قائمة على أساس النموّ الاقتصادي. وهذا أمر منطقي ومعقول لأنّ التقدّم الاقتصادي هو العامل الأساسي المسؤول عن عملية العلمنة. وقد توصّلت إلى استنتاجي هذا عندما درست حالة تسعة من أكثر البلدان اللادينية في العالم (باستثناء أستونيا باعتبارها بلد شيوعي سابق) تلك البلدان كانت: بلجيكا، جمهورية التشيك، الدنمارك، فرنسا، ألمانيا، اليابان، هولندا، السويد والمملكة المتحدة. كانت هذه البلدان التسعة من أكثر البلدان المتحوّلة للإلحاد بحلول عام 2004[3] إذا أنّ معدّل الذين لا يؤمنون بوجود الله فيها قد تجاوز النصف. وقد بلغ إنتاجهم المحلّي الإجمالي 29822-$- مقابل 10855-$- بالنسبة لبلد معتدل أو متوسط على مستوى العالم. كم سيمضي من الزمن قبل أن يتّسع الاقتصاد العالمي بما يكفي لمعدّل الإنتاج الإجمالي المحلي للبلدان المتوسطة أن ينتقل بها إلى بلدان ملحدة؟ وبالنظر إلى معدّل متوسط النموّ العالمي

(2) Norris, P., Inglehart, R. (2004). Sacred and secular: Religion and politics worldwide. Cambridge: Cambridge University Press.

(3) Barber, N. (2011). A Cross-National test of the uncertainty hypothesis of religious belief Cross-Cultural Research, 45, 318-333.

للإنتاج الإجمالي المحلي خلال الثلاثين سنة الماضية بنسبة 3،33٪ (اعتماداً على بيانات صندوق النقد العالمي مستمدّة من موقعه) نستنتج أنّ التحوّل سيحدث خلال عام 2038. طبعاً إنّ الإيمان بالله هو المعيار الوحيد للدين الآن. قد يؤمن الإنسان بالله بطريقة خرافية إلى حدٍ ما دون أي تديّن أو ارتباط ديني أو أي تأثير من قبل الدين على حياته أو حياتها. وأحد السبل لسبر عمق الالتزام الديني هو سؤال المشاركين بالاستبيان ما إذا كانوا يعتقدون أنّ الدين على درجة كبيرة من الأهمية في حياتهم كما فعلت منظّمة غالوب خلال استبياناتها الوطنية على مستوى العالم. فإذا وافقت نسبة تقلّ عن 50٪ من السكان بأنّ الدين مهم بالنسبة إليها، عندئذٍ يمكننا الاستنتاج بأنّ البلد قد تخطّى عتبة الأغلبية العلمانية وهو في طريقه إلى مرحلة العلمنة. البلدان الملحدة من ناحية التديّن كانت: اسبانيا، كوريا الجنوبية، كندا، سويسرا، الأورغواي، ألمانيا، وفرنسا. وبنسبة معدّل نمو 3،33٪ بالعام الواحد ستصل هذه البلدان إلى مرحلة العلمنة بحلول عام 2041. إذا كان ازدياد الثروة الوطنية يقود للعلمنة، فإنّ سكّان العالم سيدخلون مرحلة الأغلبية اللادينية أو الملحدة أو غير المتديّنة، التي سترى الدين عنصراً غير مهم خلال حياتها اليومية، بحلول عام 2041. وبانخاذنا نسبة متوسّطة بين هذين المعيارين للإلحاد، فإنّ أغلب سكّان العالم سيدخلون مرحلة الإلحاد بحلول عام 2038 (ما بين عام 2035 بدخولهم مرحلة الشك وعام 2041 بدخولهم مرحلة عدم التديّن). وبالرغم من أنّ عام 2038 يبدو تاريخاً قريباً وسريعاً، فإنّ ذلك لا يتطلّب سوى نقلة نوعية بمعدّل 1٪ بالعام سواء من ناحية التديّن أو الإيمان بالله. وبالنظر إلى جدول التطوّر الإنساني فإنّ الساعة تخبرنا بموعد أبكر للدخول في مرحلة التحوّل إلى الإلحاد.[4]

---

[4] Kaufmann, E. (2010). Shall the religious inherit the earth! London: Profile

هل فقدان معتقداتنا الدينية أمر يجب أن نقلق من أجله ونخافه؟ على عكس ما يزعم القادة والزعماء الدينيون، فالبلدان الملحدة هي من أكثر الأمم أخلاقيةً وتمسّكاً بالمبادئ الأخلاقية والقيم الإنسانية وذات مستوى غير عادي من العدالة الاجتماعية، المساواة الاقتصادية، معدّل جرائم منخفض، ومعدّل عالٍ من الالتزام والانخراط المدنيين.[5] لذا لا يجب أن نقلق من ذلك، بل علينا السعي لتحقيق لذلك.

books.

[5] Zuckerman, P. (2008). Society without God: What the least religious nations can tell us about contentment. New York: New York University Press.

أسوأ 12 فكرة زرعها الدين ونشرها بين البشر

إبراهيم جركس

يمكن لأي مراقب أن يلاحظ أنّ هذه الأديان الغبية تشجّع على النزاعات والصراعات والقسوة الوحشية وتمجّد المعاناة وتزيدها.

لا خلاف أنّ البشر أبدعوا في مخترعاتهم التقنية منذ أقدم العصور حتى الآن، ولا خلاف أنّ هناك بعض الابتكارات التقنية التي اخترعها البشر سيئة وغير ضرورية، وكنّا لنكون نحن البشر أفضل حالاً من دونها كأدوات التعذيب في القرون الوسطى، القنبلة الذرية والمسحوق المتفجّر (البارود). الأديان بدورها تنزع لابتكار مفاهيم وأفكار بدلاً من التقنيات، لكنّها مثلها كمثل أي مشروع إنساني خلّاق ومبتكر، تنتج بعض الأفكار السيئة والخطيرة على البشرية ومستقبلها.

هنا سنسلّط الضوء على أخطر وأسوأ المفاهيم والأفكار التي اخترعتها الأديان البشرية. هذه الأفكار والمفاهيم البشعة تروّج الصراعات والعنف والانقسامات والمعاناة والقسوة والموت، بدلاً من الحب والسلام والتعاطف والإحسان. وحسب تعبير كريستوفر هيتشنز، فإنّ هذه الأفكار والمفاهيم محلّها الحقيقي هو في مزبلة التاريخ، وعلينا إلقاءها هناك بأسرع ما يمكن.

1] الشعب المختار/ خير أمّة أخرجت للناس:

خير أمّةٍ أخرجت للناس أطلقها القرآن على المسلمين بوصفهم أنّهم أفضل أمّةٍ وأكثر أخلاقيةً من أي من الأمم الأخرى على وجه الأرض، كما أنّ الله فضلّها على العالمين، لكنهم مختلفون فيما بينهم على أية أمّه. فالواضح أنّ المسلمون الآن ليسوا أمّةً واحدة. فهناك حديث يقول أنّ هناك اثنان وسبعون فرقة في الإسلام، وفرقة واحدة

هي الناجية دون غير من الفرق الأخرى. فإيّاها هي تلك الفرقة الناجية والمختارة من الله؟!!! يتساءل مراقبون. أمّا عبارة "شعب الله المختار" فإنّها تشير إلى الشعب اليهودي في الكتاب المقدّس، تلك الفكرة المقيتة بأنّ الله منح قبائل معيّنة أرضاً موعودة (مع أنّها كانت مأهولة من قبل شعوب أخرى). لكن في الواضع نلاحظ أنّ بعض المذاهب تحوّر هذا المفهوم وتتبنّاه. فالعهد الجديد يعرّف المسيحيين كشعب الله المختار. أتباع الكلفينية يتحدّثون عن "الاصطفاء الإلهي"، معتقدين أنّهم هم الفئة المختارة والمميّزة عند الله حتى قبل بداية الزمن. شهود يهوه يعتقدون أنّ هناك فقط 144000 روح ستدخل الفردوس بعد الموت. في العديد من الثقافات هناك عدّة سلالات معينة تمتلك امتيازات خاصة يعتقد أنّها منحدرة مباشرة من الله أو من أحد رسله وأنبياءه (وهي موجوده في الإسلام: كالاعتقاد بأنّ الأسرة الحاكمة الفلانية هي من سلالة النبي أو أهل البيت. وفي المسيحية أيضاً كالاعتقاد أنّ السلالة العلانية هي من نسل المسيح).

المذاهب والفرق الدينية هي أمور عشائرية وخلافية أصلاً لأنّها تتنافس فيما بينها من خلال ادعائها امتلاك حقيقة مطلقة حصرية ومحصورة بها وحدها دون غيرها، وعن طريق نشر الخزعبلات عن البركة وصكوك الغفران وخرافات ومابعد الموت والفردوس، وأنّها الوحيدة القادرة على ضمان ذلك. هذه الأفكار تولّد لدى أتباع المعتقد أنّهم أفضل وأرقى من باقي الناس، وأنّهم الوحيدون الذين سينالون الجوائز والمكافآة التي يقدّمها مذهبهم وسيُحرَم الناس الآخرون منها. إنّهم يعتقدون أنّهم يمتلكون مفاتيح الجنان.

2] الكفّار، الهراطقة، الزناديق، المنافقين:

فهم ليسوا مجرّد خارجين، بل مشكوكٌ بأخلاقهم وإيمانهم وغالباً مايُنظَر إليهم بأنّهم أقل من البشر. في التوراه، نقرأ أنّ عبيد الغرباء لايرقون حتى لمرتبة العبيد اليهود. هؤلاء الذين لايؤمنون بالله فاسدون وضالّون، خطاّؤون ومذنبون وزناة. لاأحد منهم يفعل خيراً، حسب تعبير كاتب المزامير. الإسلام بدوره يعلّم مفهوم "الذميين، أو أهل الذمّة" ويقدّم لنا قواعد وتعاليم محدّدة لإخضاع الأقليات الدينية، حيث أنّ الموحّدين يلقون معاملة أفضل من الوثنيين أو المشركين. المسيحية بدورها تخلط بين مفهوم الكفّار أو غير المؤمنين والأشرار. في النهاية فالهراطقة أو الزنادقة أو الكفّار يشكّلون خطراً مهدّداً يجب إزالته نهائياً واستئصاله عن طريق الغزو، الاستعمار، العزلة، أو فرض الهيمنة، أو_في أسوأ الأحوال_ المجزرة الجماعية.

3] الجهاد، الحرب المقدّسة:

إذا كان يمكن للحرب أن تتحوّل إلى أمر مقدّس وإلهي، فأي شيء بات ممكناً ومبرّراً. شنّت الكنيسة القروسطية للروم الكاثوليك حملة استئصالية دامت عشرين عاماً ضدّ المسيحيين الكاثاريين الهراطقة جنوب فرنسا، واعدةً بمنح أراضيهم وممتلكاتهم للمسيحيين "الأسوياء والحقيقيين" الذين يخرجون في تلك الحملات الصليبية. المسلمون السنّة والشيعة قد ذبحوا بعضهم البعض لقرون عديدة من الزمن. الكتاب المقدّس العبري يروي لنا الحروب الكثيرة التي ساعد فيها إله الحرب _يهوه_ شعبه للتغلّب على الثقافات والحضارات التي كانت تقطن "أرضهم الموعودة" ومحوها وإزالتها من الوجود. وكما يحدث في الحروب المقدّسة الحالية والمعاصرة، على غرار الصعود المتسارع لداعش، فإنّ التحريمات الإلهية سمحت لهم

بقتل الأطفال والكبار في السن، حرق المحاصيل والزرع، وسبي النساء والعذارى كسبايا وملك يمين _وكل هذا مع شعور بالتفوق والتعالي والأفضلية على العالمين.

4] الكفر، التجديف:

وهي القول بأنّ أفكاراً وآراء معينة منيعة عن النقد، خارج حدود النقد، الهجاء، التهكّم، أو المُسائلة والتشكيك حتى. بالتعريف، إنّ نقد هذه الأفكار كفر وتجديف وهو بحدّ ذاته اعتداء وإهانة وإساءة، وهذا الشعور بالإهانة بحد ذاته يشجّع على الإجرام وارتكاب أعمال العنف عند المؤمنين. الكتاب المقدّس يحكم بالموت على المجدّفين والكفرة، ووردت في القرآن آيات غير واضحة ومثيرة للجدل بإنزال الموت على المجدّفين، أمّا الأحاديث وتراث الشريعة الإسلامية فهو واضح تماماً في حكمه بالموت على من يجدف بالله أو يكفر به.

5] تمجيد المعاناة والألم:

كثيراً ما نرى مشاهد لفرق إسلامية يقوم أتباعها بجلد أنفسهم أو جرح جباههم، وفي المسيحية نرى صوراً ورسومات لرهبان يجلدون ظهورهم أيضاً. وأول مايتبادر إلى أذهاننا مشهد فيلم "شيفرة دافنشي" لدان براون، لكنّه لم يبتكر هذه الفكرة أو جاء بها من عنديّاته. من أهمّ المعتقدات الرئيسية لدى المسيحيين هي أنّ التعذيب الحقيقي والفعلي للذات _إذا كان حاداً ومطوّلاً بشكلٍ كافٍ_ يمكن أن يصحّح الذنوب والأخطاء والشرور التي ارتكبها الإنسان. ملايين صور المسيح المصلوب تعتبر شهادة واضحة على هذا المعتقد. المسلمون الشيعة يجلدون أنفسهم بالسياط والسلاسل الحديدية خلال مناسبة عاشوراء، وهي نوع من المعاناة والتعذيب المقدّسة تسمّى

"مأتم" تتزامن مع موت الحسين. نكران الذات على شكل زهد أو صيام هو جزء حيوي وأساسي من كلا الأديان الشرقية والغربية، ليس لأنّ الحرمات يتضمّن حالات نفسية معدّلة لأنّ الناس يؤمنون بأنّ المعاناة تقربنا من الألوهية بطريقةٍ ما.

عاش أسلافنا في عالم أصبح في الألم شيئاً غير مرغوبٍ فيه، ولم يكن يمتلك الناس سوى الكثير من القوة والقدرة للتحكّم فيه. إنّ حبّة الأسبرين أو الولاعة قد تكون بمثابة معجزة لكتّاب القرآن أو الكتاب المقدّس. بالمواجهة مع كم هائل من الألم والمعاناة غير المسيطر عليهما، أفضل نصيحة يمكن للدين تقديمها للإنسان هو أن يخلق معنى منهما. المشكلة هنا أنّ تمجيد الألم والمعاناة _أي تحويلهما إلى سلعة روحية_ قد جعل الناس أكثر رغبةً لإنزالها ليس على أنفسهم فقط بل وعلى العاجزين، ومن بينهم المرضى والذين على فراش الموت.

6] تشويه الأعضاء التناسلية-الجنسية:

كانت الشعوب البدائية تلجأ إلى التضحية والعديد من طرق التغيير أو التعديل الجسدية لتحديد هويتها القبلية طوال التاريخ البشري. لكنّ عملية تشويه الأعضاء التناسلية قد منحت أسلافنا عدّة فوائد تقدّمية إضافية _إذا أردتم تسميتها كذلك. فعملية ختان الأطفال بالديانة اليهودية كانت علامة على الانتماء العشائري، لكنّ الختان أيضاً كان يشير إلى ولاء المؤمنين البالغين. في إحدى القصص بالكتاب المقدّس، يوافق أحد زعماء القبائل على اعتناق الدين ودفع عشيرته لاعتناقه أيضاً كإجراء التزام بمعاهدة سلام (وبينما جلس الرجال عاجزين بعد ختانهم، تمّ ذبح البلدة بأكملها من قبل الإسرائيليين).

في الإسلام، يتمّ ختان الذكور كطقس مؤلم للعبور إلى مرحلة البلوغ، أي الانضمام إلى النادي الكبير للمسلين وعلامة على التزامهم بالله وبتراث أبيهم إبراهيم. بالمقابل،

نلاحظ في بعض البلدان العربية أن قطع بظر الأنثى أو كيّه بطريقة شعائرية يؤسس لإخضاع النساء عن طريق تقليل رغبتهنّ الجنسية وإضعافها. ويقدّر أنّ حوالي 2مليون فتاة في السنة يخضعن لهذه العملية القسرية بطريقة إجبارية، وهذه العمليات لاتخلو من النتائج المؤلمة كالنزف الشديد، الإصابة بالعدوى، والتبوّل المؤلم والموت.

7] أضاحي الدم:

ضمن لائحة أسوأ الأفكار والمفاهيم الدينية على الإطلاق، التضحية بالدم تبدو أسوأها. فالهندوس هي واحدة من أكثر الديانات التي مازالت حتى الآن تقوم بعمليات قتل جماعية للحيوانات تحت مسمّى طقوس دينية/ أضاحي.

عندما كان أسلافنا يجزّون أعناق أعدائهم من البشر والحيوانات أو يقتلعون قلوبهم أو يحرقون أضحياتنا ليتصاعد دخان حريقها إلى الأعلى نحو السماء لتستمتع به الآلهة، كانوا يعتقدون فعلاً أنّهم يطعمون آلهة وكائنات ماورائية. مع مرور الزمن، وفي غالبية الديانات، تغيّر هذا المعتقد _ الآلهة لم تعد بحاجة لإطعامها بقدر ما هي بحاجة لدلائل وإثباتات على إخلاص أتباعها لها والالتزام بتعاليمها. عمليات التضحية بالأطفال الموجودة في التوراه العبرية تمثّل هذه الوظيفة التي نتكلّم عنها. وإصرار المسيحية على مفهوم الكفّارة بالدم _فكرة أنّ المسيح هو الحَمَل الذي حَمَلَ أخطاء البشر وذنوبهم ودفع ثمنها بالدم والألم_ ما زال يمثّل حتى الآن ولع الإنسان القديم بالتضحية بالدم. أمّا الإسلام فمازالت الفرق الإسلامية تقدّم أضاحيها من الحيوانات على اختلاف معتقداتها وتنوّعها.

8] الجحيم، النار، جهنّم:

سواءً أكنّا نتكلّم عن المسيحية أو اليهودية أو الإسلام أو البوذية، سنرىٰ أنّ الحياة الأخرى تعجّ بالشياطين، العفاريت، والعذاب الأبدي الأليم، ولطالما كانت هذه الأفكار هي من أسوأ الأفكار المتعلّة بالتعذيب والمعاناة يمكن لعقل العصر الحجري وعصور الظلام ابتكارها. تمّ ابتكار هذه الأفكار على الأغلب كوسائل لإرضاء رغبة الإنسان لتحقيق العدل، لذلك سرعان ما تحوّل مفهوم الجحيم أو النار وتطوّر إلى أداة لضبط السلوك والمعتقد وترسيخهما.

أغلب البوذيين ينظرون إلى الجحيم بوصفه استعارة أو كناية، رحلة إذا داخل الذات الشريرة للإنسان. لكنّ وصف الوحوش الشريرة والمعذّبة ومستويات الجحيم وطبقاته واضحة للغاية. بنفس الشكل، أغلب المسلمين والمسيحيين يسراعون للتأكيد بأنّه مكان حقيقي، مليء بالنار والعذاب والمعاناة وروائح الحرق للكفّار والهراطقة. بعض المسيحيين مضوا لأبعد من ذلك بإصرارهم بأنّ صراخ المعّبين والملعونين يمكن سماعها من مركز الأرض أو أنّ رؤية عذابهم من بعيد ستكون إحدى ملذّات المؤمنين وهم يقبعون في الفردوس. ويتشارك المسلمون مع المسيحيين في هذا الاعتقاد، إذ أنّهم يتشدّدون في إصرارهم على واقعية الجحيم وجهنمّ ومعاناة الكفار فيها.

9] العاقبة:

على غرار فكرة الجحيم أو النار، نرى أنّ فكرة "العاقبة" تمثّل حافزاً سيئاً وأنانياً للسلوك الجيد _ أنّ أعمالك سترتدّ عليك آجلاً أم عاجلاً، فإذا قمت بعمل سيء فإنّه سيرتدّ عليك بالسوء، أمّا العمل الجيد فسيعود عليك بالخير_ لكنّ الثمن سيكون باهظاً ومضاعفاً. المسلمون يقولون «من يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال

ذرة شراً يره»، وهناك ديانات تسمّى هذه العاقبة بالكارما. والملاحظ من هذا المفهوم بالرجة الأولى وجود وزن ثقيل جداً من التأثر والاستسلام الثقافي تجاه الأذى والألم والمعاناة. أمّا بالدرجة الثانية، إنّ فكرة العاقبة تمجّد الميل الإنساني العام لإلقاء اللوم لى الضحية. إذا كان لكل شي عاقبة، عندها فإنّ الطفل العاجز أو لمصاب بالسرطان أو الإنسان الفقير والمحتاج (أو الأرنب الجائع أو الكلب الأجرب) لابد أنّهم قاموا بعملٍ ما سيء إمّا في هذه الحياة أو في الحياة الماضية (التقمّص) قد جلب عليهم هذا السوء، والإسلام مليء بالمذاهب الغنوصية التي تعتقد بهذا المعتقد.

10] الحياة الأبدية:

بالنسبة لأسلافنا الجهلة والبدائيين، فإنّ أفكاراً مثل الجدران الملبّسة بالأحجار الكريمة، أو شوارع من ذهب، أو أنهاراً من العسل والخمر واللبن، أو ينبوع الشباب، أو الجوقة الملائكية الخالدة، أو ممارسة الجنس مع 72 فتاة عذراء، كانت هذه الأفكار بمثابة نعمة مطلقة. لكن الأمر سيحتاج إلى بعض التفكير لإدراك أنّ هذا الفردوس الأبدي سرعان ما سيتحوّل إلى جحيم _تكرار لانهائي من الأفعال والممارسات اللانهائية الروتينية والمملّة والغير متغيّرة (إذ كيف ستتغيّر إذا كان لانهائية وكاملة) السبب الرئيسي لكون أنّ فكرة الحياة الأبدية هي اختراع في منتهى السوء هو المدى الذي تخرّب فيه وتدمّر الوجود على الأرض في هذه الحياة. عندما تكون عينا الإنسان متوجّهتان نحو الأعلى، لن نعود قادرين على رؤية الجمال الأنيق والكامن تحت أقدامنا. المؤمنون الملتزمون والمتشدّدون يكرّسزن كامل طاقاتهم الروحية في التحضير لعالم آخر ينتظرونه في حياةٍ أخرى بدلاً من تقدير هذا العالم الثمين والغالي والوحيد الذي يعيشون فيه الآن.

11] ملكية الذكر للخصوبة الأنثوية:

إنّ النظرة إلى المرأة بوصفها آلة للتناسل والتفريخ لم تأتِ مع الدين، لكنّ الدور الذي لعبه الدين هو ترسيخ فكرة أنّ المرأة خلقت من أجل هذا الغرض بالضبط. الديانات التقليدية على اختلاف أنواعها تؤكّد بأنّ الله قد منح الرجل حقاً إلهياً طبيعياً لامتلاكهنّ، أن يغتصبهن، وأن يسبيهنّ في الحروب، أن يطردهنّ من الفردوس، وأن يقتلهنّ إذا لم يستطع التأكّد من نسله منهن. من هنا نرى أنّ الهوس الكاثوليكي المرضي بالعذرية وبعذرية مريم والقديسات الإناث. ومع اقترابنا من الحدود القصوى لمصادرنا الكوكبية المحدودة، فإنّ النظر إلى المرأة بوصفها آلة للتناسل وإنجاب الأطفال له ثمن باهظٌ. بتنا الآن نعلم تمام العلم أنّ المطلب على المياه والأراضي الصالحة للزراعة بات عظيماً للغاية حتى مع انخفاض كلا هذين المصدرين الثمينين. ومع ذلك، البابا الذي يدّعي أنّه قلق بشأن الفقراء اليائسين نراه يحاضرهم ضدّ استخدام وسائل وأساليب منع الحمل في حين نرى الزعماء والقادة المسلمون يفتون من أجل إكثار النسل وزيادة أعدادهم للبقاء متفوّقين على أعداءهم بالعدد.

12] عبادة الكتاب المقدّس:

Bibliolatry كتقديس القرآن عند المسلمين والإنجيل عند المسيحيين والتوراه عند اليهود. كانت الشعوب الأمّيّة تتناقل أفكارها وخواطرها ومعتقداتها العزيزة عن الآلهة والعالم والطبيعة من حولها عن طريق التراث الشفهي، وصنعوا تماثيل من الحجر والخشب ومواد أخرى سميت لاحقاً بالأوثان أو الأصنام، وذلك لإظهار عواطفهم وشغفهم بآلهتهم ومحبّتهم لها والتزامهم بتعاليمها. كانت أفكارهم عن الخير والواقع وكيف يعيشون حياةً صالحة ضمن مجتمع أخلاقي بتناغم مع بعضهم البعض

تتطوّر بشكل حرّ وتلقائي مع تطوّر الثقافة والتكنولوجيا. لكنّ ظهور الحرف المكتوب أو المدوّن قد غيّر كل شيء. فمع تجميع أسلافنا من العصر الحجري أفكارهم وتسجيلها ضمن ماسمّي لاحقاً بالنصوص المقدسة، سمحت هذه النصوص بأن تتحوّل مفاهيمهم عن الخير والآلهة إلى مفاهيم ثابتة وراسخة، ستاتيكية. فالنصوص المقدّسة للديانات الرئيسية الثلاث _اليهودية والمسيحية والإسلام_ تمنع وتحرّم عباجة الأصنام، لكن مع مرور الوقت تحوّلت النصوص نفسها إلى أصنام وأوثان، وانخرط العديد من المؤمنين المعاصرين فيما بات يعرف الآن بعبادة الكتب المقدّسة. كل ديانة أو طائفة تعبد كتابها المقدّس عملياً.

ترى المسلم الشاب يقول لك: «لأنّ دين الإسلام هو دين الحق، ولأنّ الإسلام كامل ومثالي، فإنّه لايحتمل وجود أي تعديل أو تحريف في القرآن». هذا التصريح السطحي ينطوي على فهم ساذج ونقص حاد في المعلومات والعقلية العلمية الناضجة. لكن الأسوأ من ذلك أنّها تختصر لنا التحدّي الذي تواجهه جميع الديانات. تخيّلوا أحد علماء الفيزياء يقول: «لأنّ فهمنا للفيزياء مثالي وكامل ولاعيب فيه، فإنّ هذا المجال لايحتمل أي تجديد أو تغيير فيه» المؤمنون الذين يعتقدون أنّ دينهم كامل، ليسوا فقط ساذجين وقليلي الخبرة والعلم. بل هم معاقون تقدمياً، أي أنّهم لايتقدّمون معرفياً، وفي حالة الديانات الرئيسية في العالم، هم ما زالوا عالقين في العصر الحجري، زمن الجهل والخرافة والعنف والعبودية واليأس والفقر والموت. المثير للضحك، أنّ الحالة العقلية التي تقول أنّ نصوصنا المقدّسة كاملة تناقض تماماً المسعى والهدف اللذان دفعا أجدادنا لكتابة هذه النصوص ووضعها. كل واحدٍ من الرجال الذين كتبوا هذه النصوص المقدسة، سواء سفر من التوراة أو من الإنجيل، أو سورة من القرآن، أو أنشودة من الباجافادجيتا، كان قد أخذ تراثه، راجعه، وعدّله، ثمّ قولبه،

وفي النهاية قدّم لنا أفضل تخميناته وتصوراته عن الخير والحياة والعالم والكون من حولنا. لايسعنا سوى أن نحترم ونجلّ المسعى الروحي لأسلافنا وأجدادنا القدماء المؤمنين، أو يمكننا أن نقدّس إجاباتهم البدائية البالية وتمجّدها، لكننا لايمكننا أن نقوم بكلا الأمرين.

- عادةً يحاول المؤمنون والمدافعون عن الدين إنكار، والتقليل من شأن، أو تبرير أخطاء الكتابات المقدسة والشرور التي تملأ التاريخ الديني. فتراهم يقولون "هذه لم تكن عبودية في ذلك الوقت"، "إنّه تاريخ قديم"، "لم يكن القصد كذلك"، "القرآن لم يكن يقصد ذلك"، "عليك أن تدرك كم كان أعداؤهم شرسون وقساة"، "قوم محمد ظلموه وآذوه". مثل هذه التبريرات قد تخلق حالة من الراحة في نفس المؤمنين، لكنّ إنكار المشاكل وغضّ النظر عنها لايحلّها. والعكس صحيح طبعاً. التغيرات والتجديد ينبعان من إعادة النظر والبصيرة الناقدة، الرغبة في الاعتراف بأخطائنا وعيوبنا وفي نفس الوقت اعتناق قوانا وإمكاناتنا من أجل النمو.

في عالم يعجّ بالإنسانية، مسلّحة بالقنابل العنقودية والأسحلة الآلية والنووية أسلحة الدمار الشامل، نحن لسنا بحاجة لمدافعين عن الوضع الراهن للأديان _إنّما نحن بحاجة لعملية إصلاح وتجديد حقيقية، على مستوى العالم بشكل عام، وعلى مستوى عالمنا الإسلامي بشكلٍ خاص. فعن طريق اعترافنا بأخطاء دياناتنا وعيوبها فقط يمكننا تجديد أفكارنا وثقافاتنا وإظهار كل ماهو رائع وصالح بداخلنا.

الله قادر على كل شيء: حجّة الضعفاء عقلياً

إبراهيم جركس

هناك جملة كثيراً مانسمعها من المتديّنين والمؤمنين على اختلاف مذاهبهم واتجاهاتهم ودياناتهم. بل حتى نسمعها من المؤمنين المفكّرين والمثقفين، والأقل ثقافة أيضاً. بل إنّهم يقولونها حتى بطرق وأشكال تبدو ذكية ومبتكرة ظاهرياً، وصيغ وأشكال أخرى تبدو سيئة ورديئة ومثيرة للضحك. لكن نستطيع أن نلاحظ أنّ ولا صيغة واحدة منها تبدو صحيحة ودقيقة، ولا واحدة منها مقنعة أو منطقية على الأقل، إلا إذا كنت تؤمن بالله مسبقاً.

الحجّة ترد على النحو التالي: "الله قادر على كل شيء، وبوسعه فعل أي شيء"، "الله مثل السحر، يفعل أي شيء تريده وبطريقة مجهولة"، "المعجزات هي الطرق التي يعمل بها الله في هذا العالم". هنا أورد لكم نسخة أكثر تركيباً وتعقيداً من هذه الحجّة: الظاهرة (X) لايوجد أي تفسير علمي أو طبيعي يمكنه تفسيرها "حالياً". وبالنظر إلى فهمنا الحالي للعالم الفيزيائي، فإنّ الظاهرة (X) لايوجد تفسير فيزيائي لها. لهذا، لابد أن يكون التفسير غير طبيعي، أو مافوق طبيعي، من عالم ماوراء الطبيعة/ ماورائي. أو على الأقل، من المنطقي الاعتقاد أنّ التفسير ماورائي، أو يحتمل أن يكون كذلك.

بمعنى آخر، هذا العالم الفيزيائي المادي محدود ضمن قوانين فيزيائية صارمة، قوانين سببية (سبب–نتيجة). لكنّ الله، وبالتعريف، غير محكوم بقوانين السبب والنتيجة. الله فاعل معجزات، أو قادر على كل شيء، ويمكنه فعل أي شيء يريده. لذلك، إذا كنّا لانفهم "في الوقت الحالي" القوانين السببية التي تحكم الظاهرة (X)، فإنّ أفضل تفسير، أو على الأقل التفسير المعقول المتوفّر حالياً هو: "الله".

على سبيل المثال، في العالم الفيزيائي المادي، يجب للنتائج أن يكون لها أسباب. فالأشياء لايمكن أن تأتي بنفسها إلى الوجود، ولايمكن لها أن تكون موجودة منذ الأزل وإلى الأبد. لكن الكون نفسه إمّا أنّه (1) كان موجودٌ دوماً منذ الأزل، أو (2) جاء إلى الوجود من العدم. لذلك، يجب أن يكون الكون قد أتى إلى الوجود على يد كيان غير محدود بالقوانين الطبيعية للسبب والنتيجة. بمعنى آخر: يجب أن يكون "الله" هو من خلق الكون. الله مطلق القدرة وقادر على كل شيء، لذلك لابد أنّه إمّا أن يكون قد خلق نفسه أو كان موجودٌ دوماً، ولابد أن يكون قد خلق الكون من لاشيء. هذه الحجّة، برأيي، هي حجّة سيئة وفي منتهى الرداءة. وسأقول لكم السبب:

1] من ذا الذي يقول ذلك؟

من ذا الذي يقول أنّ الظاهرة (X) _ولنقل وجود الكون نفسه على سبيل المثال_ لايمكن أن يكون لها تفسير طبيعي؟

فقط لأننا لانملك حالياً تفسير طبيعي لهذه الظاهرة، هل هذا يعني أنّنا لن يكون لدينا تفسير طبيعي مناسب أبداً؟

سأقول نقطة في غاية الأهمية لطالما قلتها وكرّرتها خلال نقاشاتي: انظروا إلى التاريخ. وبالتحديد، انظروا إلى عدد المرات التي اعتقدنا أنّ الظواهر (أ، ب، ت، ث، ج...) لها أسباب ماورائية. كان لها أسباباً ماورائية.

لايمكن أن يكون لها أي أسباب أخرى غير ماورائية. وانظروا إلى عدد المرات التي كنّا مخطئين فيها. انظروا إلى عدد المرات التي تمّ فيها استبدال التفسيرات الماورائية لظاهرة ما بأخرى طبيعية. آلاف المرات.

والآن انظروا إلى عدد المرات التي أخطأها بها بالاتجاه الآخر. انظروا إلى عدد المرات التي اعتقدنا فيها أنّ الظاهرة (ع) لابد أنّ لها أسباباً طبيعية، فيزيائية، وتبيّن أنّنا كنا مخطئين بشأن ذلك. انظروا إلى عدد المرات التي تمّت فيها دراسة ظاهرة معيّنة بحذر وعن قرب وكثب، وجميع الأدلّة والبراهين أشارت إلى وجود الأشباح والأرواح، أو الطاقات الميتافيزيقية، أو الله... ولا مرة.

السؤال عن "من أين جاء الكون؟" (أو " هل كان الكون موجودٌ دوماً؟" أو "لماذا هناك شيء بدلاً من لاشيء؟") مازال سؤالاً بدون إجابة. لكنّ ذلك لايعني على الإطلاق أنّه سؤال بدون إجابة حالياً. في الواقع، هذا سؤال نحن نحاول الإجابة عنه. إنّه سؤال مازال النظر إليه جارياً. علماء الفيزياء والفلك يعملون حتى الآن لإيجاد إجابة عن هذا السؤال.

والآن، إذا توصلوا، أو عندما يتوصّلون إلى إجابة مقنعة، فإنّها قد تربك أذهاننا. قد تعيد تلك الإجابات صياغة طريقة تفكيرنا حول العالم... بنفس الطريقة التي فعلت بها نظرية اللامركزية الأرضية والتطوّر والنسبية. بل ربما قد تجعلنا نعيد النظر كلياً في مفهوم السبب-النتيجة. لكن ذلك لايعني أنّها لن تكون إجابة حقيقية. ذلك لن يعني أنها غير صحيحة. وأنّها تفسير طبيعي وفيزيائي كلياً. إنّ حقيقة أنّنا الآن لانملك إجابة طبيعية فيزيائية حالية لايثبت _أو يشير ولو ضمنياً_ عدم وجود هكذا إجابة.

قد يجادل بعض الناس أنّ هذه الإجابة تظهر إيماناً بالعلم شبيه بالإيمان بالله، وأنّها تقول ضمنياً: «أنا لا أعرف ماهو الجواب، لكنني أعتقد أنّ العلم سيثبت أن الجواب سيكون طبيعياً/ علمياً»، بنفس الطريقة التي يقول بها المؤمنون: «أنا لا أعرف ماهو الجواب، لكنّي أعتقد أنّ الجواب سيكون روحياً»... لكنّها ليست كذلك. هذه

ليست إجابة قائمة على أساس الإيمان. بل هي إجابة قائمة على الدليل والبرهان: الدليل من التاريخ. إنّه ليس إيمان أعمى بالعلم، إنّه ملاحظات وأرصاد وتجارب، وعندما تكون الأسئلة متعلّقة بالعالم والكون، فإنّ الأجوبة دائماً تنزع لأن تكون طبيعية وفيزيائية... وبذلك عند النظر إلى أي سؤال لاإجابة حالية عنه، فإنّ وجود إجابة طبيعية وفيزيائية هو الرهان الأنسب والأكثر جدوى.

2] الكون لايبدو بهذا الشكل:

سأصيغ هذه الفكرة على النحو الآتي: إذا كان الكون مخلوق، ويتدخّل فيه أي نوع من أنواع الكائنات الغيبية مطلقة القدرة، كائن قدير غير محكوم بأي قانون من القوانين الفيزيائية، وبشكل خاص قانون السبب-النتيجة، ولا توجد أي حدود تحدّ من قواه السحرية... ألن يكون ذلك واضحاً؟

أكان سيكون هناك أي جدال أو نقاش حول وجوده؟ ألن يكون هناك انتهاك لقوانين السبب-النتيجة الطبيعية بشكل متكرّر؟... هل سيكون هناك قوانين طبيعية أصلاً؟

الكون لايبدو بهذا الشكل. فالكون يعمل من خلال قوانين السبب-النتيجة الفيزيائية. قوانين متناسقة ثابتة وراسخة. متناسقة ظاهراتياً.

إنّ مزاعم المعجزات _أو وجود ظواهر ماورائية خارقة تنتهك القوانين الطبيعية_ سرعان ما تنهار وتتداعى عند تطبيق التدقيق والمنهج العلمي الصارم، وسرعان ما يتبيّن لنا أنّها لاتحدث أبداً. بأخذنا لهذه الفكرة بعين الاعتبار، نحن أمام ثلاثة خيارات:

1) أنّ هناك إله، لكنه لايتدخّل في هذا الكون المادي: إنّما يتدخّل في إدراكاتنا وتصوّراتنا وفهمنا، وهو الذي يجعلنا نعتقد أنّ الكون يعمل وفق قوانين

متناسقة في حين أنّه ليس كذلك. نعم، عزيزي القارئ، ربّما هذه الفكرة قائمة على أساس فيلم "المصفوفة/ ماتريكس". قد يكون هذا ممكنٌ نظرياً، لكنه ليس معقولاً أو منطقياً. كما أنّ هذه الفكرة غير قابلة للتكذيب أو التفنيد أو حتى مجرّد الاختبار بطريقة أو بأخرى، وبذلك فهي فرضية عبثية ولاقيمة لها؟

2) هناك إله، وهو الذي خلق الكون، اكنه لا يتدخل فيه بأي شكل من الأشكال. وبما أنه هو خالق الكون، فإنه جلس على عرشه وراح يراقبه وهو يتجلّى ويتوسّع حسب قوانين السبب-النتيجة. ذلك هو خيار الربوبي. إنه أمر ممكن نظرياً، ويصعب الجدال حوله، حيث أنّه لافرق بين قول المرء بإله ربوبي وعدم وجود إله.

لكن من أجل هذا السبب بالضبط، فإنّ هذه الفرضية لايمكن تفنيدها أو تكذيبها أو دحضها، لذلك فهي فرضية لاجدوى منها. بل هناك نقطة أخرى يمكن إضافتها، وهي ليست ذات علاقة بالموضوع. لنفس السبب السابق بالضبط. فإذا كان هناك كائن مطلق القوة والقدرة هو الذي خلق الكون، لكنه لم يتدخّل في شؤونه أبداً بأي شكل من الأشكال... لماذا نهتمّ بالمسألة إذن؟ ما الفرق الذي سيحدثه ذلك؟ فلا فرق بين القول وجود إله ربوبي وعدم وجود إله على الإطلاق. ماهو السبب الذي يدفعنا للإيمان به، أو التصرّف وكأنّه موجود؟

3) ليس هناك إله: جوليا سويني أفضل من عبّرت عن ذلك، في عملها الطليعي الرائع "التخلّي عن الله Letting go of God". فبعد رحلة طويلة ومضنية من البحث الروحي، ابتداءاً بمذهبها الأصلي الكاثوليكية

مروراً بترّهات العصر الجديد وروحانياته الفارغة وغيره من المعتقدات المبهمة كالقول بأنّ "الطبيعة هي الله" أو "الله هو الحب"، توصّلت إلى نتيجة نهائية مفادها: «العالم يتصرّف بالطريقة التي تتوقّع منه أن يتصرّف خلالها، إذا لم يكن هناك كائن ماورائي أو وعي مفارق أو ماورائي». العالم لايسير كما لو أنّ هناك كائن ماورائي يسيره بطريقة سحرية أو خفية. فالعالم يتصرّف بطبيعته، كما يجب أن يتصرّف، مئة بالمئة، حسب القوانين الفيزيائية وقوانين السبب–النتيجة.

3] لا يوجد أي دليل يثبت ذلك

أعتقد أنّ أي "دليل" مزعوم يدعم اي دين من الأديان أنتجه البشر. فهو نابعٌ من الأهل ورجال الدين، من معلّمينا وأنبياء تلك الأديان ومن كتبها المقدّسة، وقد تمّ ابتكار تلك الأدلّة المزعومة دون أي تعب أو تجريب أو تقصّي أو بحث.

وعبارة أنّ "الله قادر على كل شيء" ذات الشيء بالضبط.

إنّ حجّة "الله قادر على كل شيء" تشبه إلى حدّ بعيد حجّة القديس أنسليم الأنطولوجية الرديئة. تقول تلك الحجة _وهذا موجّه إلى هؤلاء الذين لايعرفون عنها شيئاً أو لم يسمعوا بها من قبل: يمكنني تصوّر وجود كائن مثالي وكامل، وهو الله. لكنّ سمة الكمال يجب أن يكون لها وجود فعلي واقعي، لكن إذا لم يكن شيء ما موجود فعلياً، فذلك الشيء لن يكون كاملاً حتماً وبالتعريف. لذلك، الله موجود. (توقفوا عن الضحك رجاءً أعزائي القراء، أنا لا أختلق هذه الحجة. فقد تعلّمتها وقرأت عنها ودرستها عندما كنت طالب في قسم الدراسات الفلسفية، وقدّمها لنا أستاذنا بوصفها أهم الحجج التي تثبت وجود الله).

أمّا حجّتنا الأساسية "الله قادر على كل شيء" فتسير على النحو التالي: أنا أعتبر الله أنّه ذلك الكائن الذي لطالما كان موجوداً من الأبد وبإمكانه خلق كون كامل من لاشيء. هذا الإله الخارق والخفي سيقدّم تفسيراً أنيقاً ومنتظماً ومعقولاً لأسئلة غير مجاب عنها لدينا. لذلك فالله موجود.

- لكنّ الحقيقة هي أنّ قدرتك على تصوّر وجود هكذا كائن لايقدّم أي دليل ولو ضعيف للغاية على أنّه موجودٌ حقاً. أنا مدركٌ تماماً أنّ الملحدين قد يبدون مكسوري الجناح عندما يقولون ذلك، لكنّه أمر ضروري كما هو أمر صحيح: فالأمر غير منوطٌ بنا لإثبات عدم وجود الله. فمن واجب الملحدين إثبات وجوده: لإثبات أنّ الله هو أفضل تفسير لسبب كون الأمور على ما هي عليه، أو حتى أنّه تفسير معقول علينا أخذه بعين الاعتبار والجد. مثال: إذا كنت تؤمن بنظرية التطور اللاهوتية _أي العملية التي تقول أنّ التطور هو مجرّد عملية اخترعها الله وسيرّها وقادها لخلق الحياة على الأرض_ لايمكنك مجرّد القول، «كان يمكن للأمر أن سار بهذا الاتجاه. لايمكنك إثبات أنّه لم يحدث». عليك أن تظهر دليلاً ما لتثبت ما السبب في أنّ هذا التفسير أفضل من الفرضية القائلة بأنّ التطور مجرد عملية طبيعية. عليك أن تستشهد بعمليات وبنى هيكيلية لم تظهر أو تتطور بطريقة طبيعية، أو تدلّل لانتقالات في السجل الأحفوري تظهر علامات واضحة للتدخّل الإلهي. (ولطالما حاول المؤمنون بنظرية الخلق والتكوين فعل ذلك، وغالباً ما خرجوا بنتائج سيئة ومضحكة). وإذا كنت تؤمن بكون مخلوق على يدي إله عظيم، فعليك أن تأتي بدليل عن سبب رؤيتك لماذا تجد هذا التفسير أفضل تفسير لوجود الكون من الفكرة _على سبيل المثال_ القائلة بأنّ الكون أزلي كان موجودٌ دوماً ومنذ الأزل. لايمكنك القول فقط «حسناً، نحن لا نعرف كيف حدث ذلك، وكان سيحدث الأمر بشكل ما، والله أفضل تفسير

لهذه المسألة». لايمكن الاكتفاء بمجرّد القول أنّ الكون مستحيل، عرّف ذلك الإله، أو حدّد نوعية ذلك الإله القادر على فعل المستحيل، وقُل عن ذلك أنّه جواب.

إنّ مقولة أنّ الله قادر على كل شيء ماهي إلا نسخة أخرى لفكرة (إله الفجوات)، الإله الذي يشكّل جوابا لأي فجوة من أي نوع مازالت تتخلّل جسد المعرفة العلمية، قلم التلوين الأزرق الذي يستخدم عادةً لملء المساحات الفارغة في دفتر التلوين... بالرغم من حقيقى أنّ اللون الأزرق لم يثبت أبداً أنّه اللون الصحيح والحقيقي.

في النهاية، كلّما سألني أحد المؤمنين "من أين جاء الكون؟" أقول له "لماذا السماء حمراء؟" كلا السؤالين مغلوطين وعبثيين. لايمكنك الافتراض فقط أنّ الكون قد جاء من مكانٍ ما. فربما لم يأتِ من أي مكان.

الجنس والله

كيف يعكّر الدين حياتنا الجنسية

(المداعبة الدينية)

إبراهيم جركس

الدين لديه القوّة والسلطة للتدخّل في مجال الجنس قبل أن تبدأ الممارسة الجنسية حتى. وهذا من شأنه تعكير الحياة الجنسية وطرق التعبير الجنسي ويسبّب خللاً في الحياة الجنسية ويؤثّر على هذا النمط من السلوك عند العديد من المتديّنين، ومن بينهم القادة والرؤساء... حسب قول أحد المجتمعات المسيحية «... الجنس أمر عظيم، لكن مملكة السماء أعظم بكثير».

آنا وجوي

تبتسم آنا لجوي وهي تحلّ أزرار قميصها. كانا هذين العاشقين قد التقيا في أحد صفوف مدرسة الأحد للبالغين العُزّب منذ أربعة أشهر، وقد بدأت علاقتهما بالتطور والازدهار. باتت جاهزة لممارسة الحب معه وهي تعلم أنّه سيصبح زوجها خلال العام القادم. يقترب جوي من آنا، وهو ينظر إليها بعشق وهيام. لكن ما أن يخلع عنها صدريتها ويقبّل كتفها، تدرك آنا أنّ هناك أحدٌ ما يراقبهما: يسوع المسيح. الصليب الذي أهدتها إياه العمّة ماري منذ زمنٍ بعيد يحدّق بها عن الجدار الذي عُلّق عليه. الكتاب المقدّس الذي وُضِعَ على طرف السرير، والذي لم يُقرأ منذ أسابيع، يبدو غاضباً. وبدلاً من أن تتذوّق آنا طعم المتعة اللذيذة، ينتشر طعم مرارة الذنب في فمها. تتراجع آنا من بين يدي جوي، يلؤها الشعور بالذنب والعار. تقول لجوي: "لايمكنني القيام بذلك". معظم البالغين يعتقدون أنّهم يقومون بخياراتهم الخاصة.

لكن بالنسبة للبالغين أمثال أنا الذين يعيشون في وسط ديني متشدّد، معظم تلك الخيارات قد تمّ تحديدها لنا مسبقاً. حتى أنّنا لسنا مدركين أنّ هويتنا الجنسية مخنوقة من قِبل مجموعة من القيود والمحرمات الدينية الاستبدادية المستحيلة.

خيارات

هذا كتاب عن الخيارات. خيارات موضوعة من أجلك، وخيارات جديدة يمكنك وضعها بنفسك. ربما قد تكون مقيّدا بالخيارات التي تختارها بالنسبة لحياتك الجنسية من خلال أفكار لم تشكّك بها من قبل أبداً أو تصعها موضع تساؤل، أفكار لايبدو أنّها تمتّ للدين بأيّة صلة. بعض الخيارات موضوعة لك حتى قبل أن تولد. بعض الخيارات تمّ إلغاءها واستئصالها من جذورها، بعضها كان محرّماً، وبعضها تمّ فرضه عليك فرضاً. خيارات أخرى تبدو منطقية ومعقولة عندما تختارها، لكنك تدرك الآن أنّها كانت مقرّرة من خلال أفكار دينية والتربية الدينية التي تلقّيتها منذ صغرك. حتى إن لم تكن قد نشأت في منزل متديّن، فأنت قد نشأت ضمن ثقافة متديّنة. ومن خلال الطريقة التي كان يتحدّث بها الأولاد عن الجنس في مدرستك الابتدائية إلى القوانين والتشريعات التي يسنّها مشرّعوك اليوم، فإنّ الخيارات الدينية قد تمّ وضعها وتحديدها لك على أساس افتراضات دينية. كيف تمّ تقييد خياراتك؟ إذا كنت تعيش في مجتمع مسيحي، فستتعلّم أنّ الله يراقبك على الدوام. إذا كانت لديك أفكار وخواطر بذيئة، فإنّ الله يعرف بها. إذا مارست العادة السرية، فأنّ الله يراك. إذا مارست الجنس قبل الزواج، فإنّ الله سيعاقبك. ربما أخبرك أنّك لاتستطيع الزواج من الشخص الذي تحبّه لأنّه أو لأنّF§v۶7 من نفس جنسك. يخبرك الواعظون والكهنة أنّك لست بحاجة لوسائل منع الحمل وتحديد النسل لأنك لايجب عليك ممارسة الجنس قبل الزواج أصلاً. كما أنك كثيراً ماتسمع الاسطوانة

المشروخة أنّ الاستمناء أو العادة السرية سيلحق الأذى والضرر بزواجك. ستتعلّم أنّ بداية الحمل هي عندما يغرس الله روحاً في الجنين الإمبريوني وبذلك يصبح من الخطأ إيقاف تطوّره بأيّة وسيلة. إذا كنتِ امرأة وتعيشين في بلد إسلامي، فستكونين محرومةً من خيارات كثيرة كاختيار زوجك أو التحكّم الكامل بجسدك. ربما ستجبرين على الزواج من رجل لديه عدّة زوجات. قد لايكون لديك الخيار للمارسة الجنس قبل الزواج: في الواقع، قد تُقتَلين لاتخاذك هكذا خيار. أمّا بالنسبة للمسلمين من الذكور، ستتعلّمون كيفية معاملة المرأة وفرض سيطرتكم عليها، وأنّهن أدنى منكم مرتبة. ستقرأون في القرآن [والحديث] أنّ المرأة يجب أن تكون جاهزة لتلبية مطالب زوجها الجنسية، حتى وإن كانت تطبخ أو تعمل. باستثناء إذا كانت قد نشأت في طائفة دينية صغيرة أو أقلية دينية ذات ميول إيجابية نحو الجنس، كالوثنيين أو الويكا أو الموحّدون Unitarian، فلن تتعلّم أبداً أي شيء عن متعة الجنس ولذّته. الرسائل الدينية من الكاهن أو القس أو مدرّس مدرسة الآحاد أو الشيخ أو الإمام جميعها تركّز على الدور الذي يلعبه الجنس في الخطّة الإلهية. إذا اخترت ممارسة الجنس بأية طريقة لايباركها إلهك بالتحديد، فأنت ترتكب ذلك ذنباً كبيراً، مصيرك هو العقاب الأبدي. إذا كنت تنتمي لأحد الأديان الأكثر تحرّراً، ربما لن تتلقّى هذه الرسائل القاسية، لكن ستظلّ خياراتك محدودة من قبل إلهك. ربما ستظل تشعر بالذنب أو بعد الراحة كون ابنك أو ابنتك تعيش حياة جنسية في الكلية. ربما ستواجه صعوبة في تفهّم خيار ابنة أخيك بالزواج من أنثى. ومهما كانت الدرجة التي يبلغها دينك من التحرّر، فقوانين مجتمعك قد تحوّلك إلى شخص سيىء ومارق إذا مارست الجنس بأيّة طريقة غير الطريقة المشروعة والقانونية. وقد يُمنَع عليك أو على شريكك استخدام ألعاب وأدوات جنسية. حتى قد يجد الأشخاص المتحرّرين صعوبة في التكلّم عن خيالاتهم

ورغباتهم الجنسية مع شركائهم. هذه الخواطر والأفكار تأتينا من الإشارات الكثيرة غير الملحوظة التي تحيط بنا جميعاً في ثقافتنا الدينية.

جميع الثقافات تتضمّن قيود وأفكار محدّدة عن الجنس والحياة الجنسية، لكنّ الديانات الكبرى قد نظرت إلى موضوع الجنس نظرة صارمة وربطته بشكل مباشر مع إلهها أو آلهتها. الديانات الكبرى تسعى لتقييد الحياة الجنسية وأنماط التعبير الجنسي من دون أي سبب واضح ماعدا محاولة نشر عقائدها. الجنسانية البشرية واسعة جداً في أساليب تعبيرها عن نفسها. وأي دراسة سريعة حتى للثقافات الأخرى ستجد العديد من طرق التعبير جنسية المختلفة، لكن إذا استطاعت الثقافات الأخرى البقاء عشرات الآلاف من السنوات بدون القيود أو الأحكام الدينية للإسلام، أو المورمونية، أو المسيحية، أو الهندوسية، فما هو الغرض الذي تؤدّيه القيود الدينية والذنب الناجم عنها؟ لماذا العادة السرية أصبحت موضوعاً طبيعياً وعادياً في جميع أرجاء أوروبا العلمانية المعاصرة بينما ما زال غير مصرّحٍ به من قبل الكنيسة الأرثوذكسية؟ كيف يكون زواج المثليين تهديداً لمؤسسة الزواج عندما تكون معدّلات الطلاق بين المسيحيين في الولايات المتحدة تبلغ أعلة نسبة لها في أكثر الولايات تطرّفاً والتزاماً بالدين؟ كيف تكون المثلية مدمّرة للثقافة عندما تكون هناك عدّة مجتمعات محلية أصلية في أمريكا الشمالية ومعظم الحضارات القديمة والعريقة، من بينها الحضارة اليونانية، تحتفل بالمثلية في أغانيها وأساطيرها؟

الدين يدور بمجمله حول تقييد الخيارات الجنسية لصالحه هو وحده. أغلب المعتقدات والأفكار والافتراضات المسبقة تنبع من نشأتك وبيئتك الدينية _ افترضات ربما تكون قد اخترتها بطريقة غير واعية أو مدركة من جدّتك الملتزمة، أو مدرس محبوب في مدرسة الآحاد، أو مدرّب متديّن. الأفكار الدينية الجنسية قد تصيبك

بالعدوى، وخصوصاً إذا كنت صغيراً وحديث العهد وغير قادر على التفكير بطريقة نقدية. أنت تحمل العديد من الأساطير والحقائق الدينية، وأغلبها يأتي من الدين. المثير للضحك، معظم الأدلّة والبراهين لدحض هذه الأساطير والأفكار موجودة في حياتنا اليومية. تلك هي قوة الأسطورة الدينية، إذ بإمكانها أغلاق أعيننا لنصبح عاجزين عن رؤية الواضح.

أن تعيش حياةً جنسية دينية معناه أن تعيش كذبة

الدين يعكّر حياتنا الجنسية وجنسانيتنا عندما تكون أغلبية الناس المتديّنين يعيشون حياةً معيّنة بشكلٍ عام وعلى مرأى من الناس، في حين أنّهم يعيشون حياةً أخرى خاصّة في الخفاء. من المستحيل أن يعيش اثنان حياةً زوجية _أو جنسية_ سعيدة وكاملة إذا كانا تعيسين في حياتها الجنسية. وبصفتك إنسان مسيحي أو مسلم أو هندوسي أو مورموني صالح، عليك أن تنكر عادتك السرية وتتظاهر بأنّك لاتمارسها إطلاقاً، في حين أنك "تفسد نفسك" باستمرار وتمارسها في الخفاء. عليك أن تشجب المجلات _"السكسية" _ الخلاعية مع أنك تستخدمها [وتستعين بها لإفساد نفسك]. عليك أن تناضل ضدّ أفكارك الدنسة والسيئة حتى إن كنت لاتستطيع تفاديها والتخلّص منها. عليك أن تنكر أفكار شريكك أو شريكتك أو أفكار الآخرين الجنسية، أفكار وخواطر قد تمتلكها أنت أيضاً. عليك أن تخبر أولادك كم هو سيء ممارسة الجنس قبل الزواج حتى إذا كنت أنت نفسك قد خضت عدّة علاقات مع عدّة شركاء قبل أن تتزوّج. باختصار، أغلب الناس المتديّنين يعيشون حياةً مزدوجة. (عندما أشير إلى "أشخاص متديّنين"، أعني أولئك الذين يتّبعون التيار السائد من الأفكار والمعتقدات المسيحية أو الإسلامية أو المورمونية أو الهندوسية). نحن نعلم بعد عقود من البحث أنّ البشر المتديّنين لايختلفون بأي شيء عن العَلمانيين

عندما يتعلّق الموضوع بمسألة السلوك الجنسي _كل ما هنالك هو أنّ النمط الأول من البشر يشعرون بالذنب تجاهه. والنتيجة هي حياةٌ غير نزيهة. في حين أنّ الأشخاص العلمانيين يمكنهم أن يتعايشوا بانفتاح مع جنسانيتهم وحياتهم الجنسية، وأن يتفاوضوا بشكل منفتح وصريح وأخلاقي مع شركائهم عن أفكارهم وخيالاتهم، ويستمتعوا بتجاربهم، فالمتديّنون غير قادرين عن الانفتاح والصراحة لأنّهم ينظرون للعديد من الأمور المتعلّقة بالجنس على أنّها خاطئة ودنسة. علاوةً على ذلك، إنّهم يفعلونها ويقومون بها، ثم يخفونها وينكرونها على العلن. الديانات بجميع أنواعها تستغلّ دوافعنا الجنسية القوية لتنقل إلينا عدوى أفكارها التي تصبّ في مصلحة الدين في النهاية وتضرّ وتعيق قدرتنا على أن نكون بشراً أسوياء. هدف الدين هو نشر الدين. والجنس واحد من أقوى السبل لتحقيق هذا الهدف. وهذا هو موضوع هذا الكتاب. الثمن الاجتماعي والسيكولوجي الذي يدفعه من يعيش في كذبة يتضمّن البرود تجاه موضوع جنسانيتنا وغالباً الغضب والثوران عنيف تجاه أولئك الذين يعيشون حياةً أكثر انفتاحاً وجنسانية أكثر وضوحاً وصراحة. يستعرض المفكّر كريستوفر هيتشنز هذه النقطة بصورة أوضح عندما كتب قائلاً: «لطالما اعتقدت من قبيل البديهة الوعظ الجنسي من قبل أحد الشخصيات العامة أنّه مجرّد نفاق أو أسوأ من ذلك حتى، ربما رغبة دفينة عنده في ممارسة نفس العمل الذي يعظ ضدّه وينكره. لهذا السبب، كلما أسمع ثرثاراً في واشنطن أو قلب العالم المسيحي يثرثر كلاماً فارغاً عن شرور اللواط أو مهما يكن، سرعان ما أدخل اسمه عقلياً في مذكّرتي وأضبط ساعتي منتظراً. وعاجلاً وليس آجلاً سيُعثَر عليه وهو راكعٌ على ركبتيه في نُزُلٍ كئيبٍ ما أو مرحاضٍ عمومي في مكان ما، ومعه بطاقة ائتمان منتهية الصلاحية، وهو يحاول أن يدفع ثمن خدمات شاذّة كأن تتبوّل عليه امرأة مخنّثة» [Hitchen s memoir,

[(Hitch-22 (2010] ملاحظة هيتشنز هذه تندرج على غير الشخصيات العامة أيضاً. فالأشخاص المتديّنين العادين لايتصدّرون عناوين الصحف، لكنّ أزماتهم لها نفس المدى التدميري للأفراد والعائلات. فعندما تكتشف زوجة مسيحية صالحة أنّ زوجها يمتلك محلات خلاعية، قد ترتعب وتدرك أنّها لايسعها الاستمتاع بلذّة الجنس معه ثانيةً. عندما يكتشف زوج مسيحي صالح أنّ زوجته تخوض علاقة حميمية على الإنترنت مع امرأة أخرى، قد يغضب وتُجرح مشاعره وقد يطلب منها الطلاق في النهاية. عندما يكتشف زوجين مسيحيين أنّ ابنهما البالغ من العمر أربعة عشر عاماً يقبّل وشاباً آخر، قد يكون ردّهما قاسياً ويعاملانها بطريقة قاسية: قد يستخدمان العنف معه أو حتى يتبرّءان منه. أب مسلم، يعرف أنّ ابنته تكتب رسالة حب سرية لشاب ما، قد يستشيط غضباً، والنتيجة النهائية تكون إمّا الضرب المبرّح أو أسوأ من ذلك. وتطول القائمة، ومع ذلك لاتبدو أياً من هذه التصرّفات المهينة خاطئة أو غير عادية باستثناء في ضوء الجنون الديني بشأن الجنس. كيف يمكن لأي إنسان أن يكون صريحاً أو نزيهاً بشأن السلوط تاطبيعي وغير المؤذي عندما يقود إلى قيود اجتماعية وإساءة نفسية باسم الدين والمعتقدات الدينية؟ المعتقدات الدينية تمّت صياغتها قولبتها من قبل الدين ولا أساس لها في الواقع. الإيمان والعيش حسب هذه الأفكار يقود في النهاية لزيجات مدمّرة، خلل جنسي، سوء معاملة للأولاد وأكثر من ذلك بكثير. من دون دين، لن تبلغ أي حالة من هذه الحالات النهاية التي ذكرناها هنا. لن يشعر الشباب بعد الآن بالعار من ممارسة سلوك طبيعي جداً كهذا. سيجد الأزواج فرصة لمناقشة رغباتهم الجنسية فيما بينهم بطرق وأساليب تحترم كلا الطرفين وتقودهم إلى حياة مليئة بالحب والتفاهم والرضى. سيمتلك الآباء مفاهيم وأفكار صحية عن

السلوك الجنسي وتطوّره الطبيعي والسليم وسيكونون قادرين على تعليم أبنائهم القدرة على اتخاذ خياراتهم الخاصّة بشأن كل ما يتعلّق بأجسادهم.

هل تمّ إثبات نظرية التطوّر؟

إبراهيم جركس

"كلا، لم يتمّ إثبات أنّ نظرية التطوّر صحيحة"!!!!! أغلب المؤمنين المتديّنين، وحتى الرافضين لنظرية التطور والمؤمنين بنظرية الخلق والتكوين، سيميلون لإنهاء هذه المقالة بالعبارة السابقة بين قوسين، لكن في الحقيقية، الوضع ليس بهذه البساطة كما يبدو. فالمجادلة ضدّ نظرية التطور من خلال القول بأنّها "غير مثبتة" أو "لم يتمّ إثبات صحّتها بعد" يظهر مدى جهل القائل بطبيعة العلم وعجزه عن الفهم، وآمل أن أتمكّن في هذه المقالة من تصحيحه.

صحيح أنّ نظرية التطور لم يتمّ إثباتها بشكلٍ قاطعٍ بعد _إذا كنا نقصد أنّها باتت قائمة كعلم قائم بحد ذاته بتعالى عن أي نقد أن تكذيب. من جهةٍ أخرى، يمكننا القول ذات الشيء عن النظرية الذرية، النظرية النسبية، نظرية الكم، أو أي نظرية من النظريات العلمية. والسبب في ذلك هو أنّ العلم لايتعامل مع براهين مطلقة، بل يتعامل مع البراهين بوصفها ميزاناً ذو كفّتين، ويراقب إلى اي جهة تميل إحدى الكفتين بموضوعية. ولكي نعرف لماذا هذا صيحيح _ولماذا يجب أن يكون صحيحاً، تخيّل أنّنا علماء نسعى لتفسير ظاهرة ما في العالم الطبيعي. على أساس الأدلّة المتوافرة لدينا، يمكننا بناء فرضية محدّدة _أي ظن مهذّب زقائم على أساس معرفي_ يمكن تقديمها كتفسير لهذه الظاهرة. وإذا ظهرت براهين وأدلّة أخرى تدعم فرضيتنا، إذا كانت فرضيتنا قابلة للتجريب والتكذيب، وإذا كان بإمكاننا استخدام الفرضية للخروج بتوقّعات صحيحة ودقيقة... إذا كانت جميع هذه الخصائص مجتمعة وتنطبق على فرضيتنا، عندها ترتقي فرضيتنا إلى مستوى النظرية، ومع مرور الوقت، تتحوّل

إلى حكمة علمية مقبولة بشكلٍ عام. لكن كيف لنا أن نعرف أصلاً أنّ الفرضية الأصلية صحيحة؟ ماذا لو أنّنا أخطأنا منذ البداية، لكنّنا حصلنا على الجواب الصحيح بالصدفة المحضة؟ أو ماذا لو كانت المسألة تقريبية بالكامل، تعطينا أجوبة صحيحة بشكلٍ عام لكنّها تفشل في تقديم أجوبة دقيقة ضمن إطار الواقع كما هو؟ كيف لنا أن نتأكّد من أنّ الأمر ليس كذلك؟ الجواب طبعاً هو أنّنا لا نستطيع التأكّد من ذلك. لهذا السبب نلاحظ أنّ النظرية العلمية، ومن بينها التطور، لا تعتبر أنّها نظرية مثبتة تماماً. وكلّما تراكم المزيد من الأدلّة الداعمة للنظرية ـ كلّما ازدادت ثقتنا بها. في النهاية، سنصل إلى مرحلة حيث تصبح كمية الأدلّة الداعمة للنظرية هائلة جداً وضخمة وواسعة للغاية، أدلّة طاغية لامجال للشك فيها، لدرجة أنّ أيّة محاولات للطعن فيها أو التشكيك في صحتها ستكون بائسة وغير مجدية. هذه هي الحال مع نظرية التطور، كما هي حال النظريات العلمية الأخرى، كالنظرية الذرية للمادة، أو نظرية الصفائح التكتونية، التي تشكّل أساس وعماد العلم الحديث. إنّها ليست براهين نهائية مطلقة. ولا حتى أكثر النظريات العلمية المؤكّدة بأقوى الأدلّة والبراهين تعتبر مطلقة وخارج نطاق النقد وإعادة النظر، إذ يمكن في أي وقت أن يظهر دليل جديد قد يقلب تلك النظرية رأساً على عقب. ونحن لا نملك أي طريقة لنعرف أنّ هذا سيحدث في المستقبل، وما علينا سوى التسليم بحقيقة أنّ لا يوجد حقائق مطلقة، بل أنصاف حقائق، وأنّ العلم ذاتي التصحيح. لكن هذا لايعني أنّ نظرية التطور غير مؤكّدة أو غير دقيقة أو غير مثبتة. بالعكس تماماً، إنّها هي نظرية راسخة وثابتة تماماً، مؤكّدة ومدعومة من خلال كميات هائلة من الأدلة والبراهين التي تمّ جمعها من جميع أصقاع العالم وعلى مر مئات السنين من البحث والدراسة والتنقيب والتجريب والملاحظة. وخلال كل ذلك الوقت، لم يظهر ولو دليل واحد يتناقض مع أي جزء

من أجزاء هذه النظرية. داخل المجتمع العلمي، لم تعد نظرية التطور محلّ جدل ونقاش أو موضع تشكيك كما يحلو للبعض القول، بل تعتبر أنّها حقيقة تقريباً، حقيقة علمية ومفروضة مثلها مثل نظرية الجاذبية. وفي حين أنّه من غير الممكن إثبات صحّـها بشكلٍ مطلق، إلا أنّها اقتربت من تحقيق هذه المنزلة إلى حدٍ كبير كأي نظرية علمية محتملة. والهجوم على نظرية التطور من خلال القول عنها أنّها "مجرّد نظرية غير مثبتة" غير دقيق وقائم على معرفة غير دقيقة فيها أو بطرق سير العلم وكيفية عمله. وهناك قول كثيراً ما يتردّد في بعض الدوائر العلمية: «الدليل ينحصر على الرياضيين واختبار فحص الإدمان على الكحول».

عزاء أبيقور

إبراهيم جركس

القسم الأول : الكائن الخالد وما يشوب الإنسان من مشاعر وعيوب

إذا كان لشوبنهور علاج واحد فقط... فلأبيقور علاجات شتى...

الجلسة الأولى: الكائن الخالد والمشاعر البشرية «ليس للكائن الخالد المُغتَبِط هموم، وهو لا يتسبّب فيها للآخرين، فلا يبدو عليه علامات الغضب أة العطف، إذ تعبّر هذه العلامات على الضعف» [أبيقور، الرسائل والحِكم، الحكم الأساسية:

1] بمعنى: يقول "بيلي" و"يونغ" أنّ طبيعة الكائن الخالد المُباركة والخالدة لا تعرف المتاعب أو المشاكل، ولا تتسبّب بها لأي شيء آخر، وهي غير مقيّدة أبداً بمشاعر الغضب والسخط أو المحاباة والتفضيل. فهذه الصفات أو السمات تشوب البشر الضعفاء فقط. _بادئ ذي بدء، أن تتصوّر الإله كائناً خالداً مغتبطاً، على غرار ما تقدّمه لنا التصورات العامة العادية، ولا تنسب إليه أيّة صفة مناقضة لخلوده أو غير ملائمة لغبطته. بل ينبغي أن تتضمّن الفكرة التي تكوّنها عنه كل ما من شأنه أن يحافظ على خلوده وسعادته. فالآلهة موجودة، لاشك، ونحن على يقين من وجودها، غير أنّها لا توجد على النحو الذي يتصوّره الجمهور، إذ ليس لهذا الأخير صورة ثابتة عنها. وليس الكافر من لايؤمن بآلهة الجمهور، بل هو من ينسب إليها صفات وهمية كالتي ينسبها الجمهور. وفعلاً، إنّ ما يثبته الجمهور لا يقوم على أفكار بديهية إنما على افتراضات كاذبة. ومن هنا كان الرأي القائل بأنّ الآلهة تجازي الأشرار بالشر والأخيار بالخير. ولّما كان الناس شديدي التمسّك بفضائلهم الخاصّة فإنّهم لايقبلون آلهة على شاكلتهم، كما أنّهم يستغربون من كل ما يبتعد عن طرق تصرفهم الخاصة.

[رسالة إلى مينيسي، 123-124] _وفيما يتعلّق بالأجرام السماوية، لايجب الاعتقاد بأنّ حركتها وتغيّر اتجاهها وكسوفها وشروقها وغروبها وكل الظواهر الأخرى التي من نفس القبيل هي ناتجة عن فعل كائن منظّم لها، وأنّ هذا الكائن يتمتّع في نفس الوقت بالسعادة المطلقة والخلود، إذ المشاغل والهموم والغضب والمحاباة لا تتفق مع الغبطة، بل هي مقترنة بالضعف والخوف والتبعية. ولايجب أن نعتقد أيضاً أنّ الأجسام السماوية، المتكوّنة من نيران متكتّلة، تنعم بالسعادة وأنّها تتحرك بمقتضى إرادتها الخاصة. بيدَ أنّه لابد من المحافظة على الألفاظ والأسماء التي نعبّر بها عن احترام الجلالة، خشية أن تُؤوّل بعض الأسماء غير المناسبة إلى صدور آراء منافية لهذا الاحترام. وإن لم نفعل فإنّ التناقض سيولّد اشدّ الاضطراب في النفوس. لذلك لابد من افتراض أن حركة الأفلاك الدورية صادرة بالضرورة عن الدوامات الأصلية المولّج كل واحدةٍ منها لعالمٍ ما.

ولا شك أنّ غاية الطبيعيات عي البحث الدقيق عن علل الظواهر الرئيسية. وأنّ الغبطة تتمثّل في معرفة الظواهر السماوية وفي تحديد ماهيتها وماهية كل الظواهر المماثلة التي تساهم دراستها في تحقيق السعادة. ولايجوز، علاوةً على ذلك، الإقرار بأنّه يمكن تفسير كل هذه الأشياء بطرق مختلفة أو أنّه بإمكانها أن تكون على غير ما هي عليه، إذ أنّه لايمكن للطبيعة الخالدة المغتبطة أن تتضمّن أي شيء مولّد للنشاز والفوضى. [رسالة إلى هيرودوت، 77-78] _إنّ التلازم الموجود بين الحالات الجوية من جهة وبين الشمس البروج من جهةٍ أخرى يقوم على الاتفاق والمصادفة لاغير. فالبروج لا تملك شيئاً من ذاتها تقدر من خلالع على إنشاء طقس رديء، كما أنه لايُعقَل القول بوجود كائن إلهي متربّص لظهور البروج كي ينتج تبدّلات الطقس الموافقة لها. إذ لايوجد كائن حي يتمتّع بالذكاء والفهم ويتصرّف بهذا الجنون،

ولاسيما الكائن الذي ينعَم بالسعادة المطلقة. [رسالة إلى فيثوقلاس، 116] _لأنّ جُلّ طبيعة الآلهة ينبغي أن تتمتّع في ذاتها بحياة خالدة وبأقصى درجات السكينة، فهي في معزلٍ وبعيدة كل البعد عن شئوننا، إذ إنّها لايصيبها أي ألَم، ولاتتعرّض للخطر، فهي ذاتها قوية بقدراتها الذاتية، ولاتحتاج إلينا في شيء على الإطلاق، فلا تُستَرضى بصلوات (العَبد الصالح) ولايعتريها الغضب (من المُسيء): فإن أزمع شخصٌ ما هنا أن يسمّي البحر نبتونيوس والغِلال كيريس، واختار بدلاً من أن يسيء استعمال اسم باخوس أن يطلقه كتعريف مُلائم للخمر، دعنا نسمح له بأن يطلق على الكرة الأرضية أمّ الآلهة، بشرط أن يمتنع بحق عن أن يصيب عقله بعدوى الخرافة الزائفة. [لوكريتيوس، في طبيعة الأشياء، 650-655] _نقول: لقد وَهَبَت الطبيعة البشر الاعتقاد أو الإيمان بوجود آلهة، ومن أوضح هذه الاعتقادات هو أنّ الإله كائن كامل لا تشوبه أيّة مشاكل أو شوائب بذاته، ولا يتسبّب بالمشاكل والمشاغل والهموم لأيّ كائن آخر. أي كائن مثالي وكامل لابد أن تكون جميع حاجاته ورغباته متحقّقة ويخلو من كل عيوب أو أحاسيس أو نقاط ضعف، وكنتيجة لذلك، هذا الكائن الكائن لا تنتابه أيّة مشاعر بشرية ناقصة كالغضب أو الحزن أو الامتنان أو الفرح، فهذه المشاعر هي من صفات البشر الضعفاء. لذا ليس من المعقول الاعتقاد بأنّ إلهاً "كاملاً" و"مثالياً" و"مطلقاً" سيتدخّل في حياة البشر، بالخير أو بالشر، ولا يمكن الاعتقاد أنّ هذا الكائن المثالي سيسعى لمعاقبتك على ذنوبك أو مكافئتك على حسناتك، خلال حياتك أو بعد وفاتك.

القسم الثاني : عن الموت ومواجهة فنائنا الخاص

الجلسة الثانية: «الموت لاشيء بالمسبة إلينا، إذ يفقد الشيء الذي ينحلّ القدرة على الإحساس، والشيء الفاقد للإحساس هو لاشيء عندنا» [أبيقور، الحكم الأساسية، 2] بمعنى: أن الموت لايعني شيئاً بالنسبة لنا، إذ أنّ أي شيء ينحلّ بدون إحساس، وأنّ أي شيء يفتقر للإحساس لايعني شيئاً لنا. أي أنّ أي شيء ينحلّ ويتفتّت إلى ذرات لا يمتلك إحساس، وبذلك لا يمتّ لنا بأي صلة. _تعوّد غبلا اعتبار الموت لاشيء بالنسبة إلينا، إذ يكمن كل خير وشر في الإحساس، والموت هو الفقدان الكُلّي للإحساس. فالموت لاتمّتّ إلينا بصلة، وتجعلنا معرفتنا بذلك نقدّر مباهج هذه الحياة القصيرة حقّ قدرها، فلا نضيف إليها زمناً لامحدوداً بقدر ما نجرّدها من الرغبة في الخلود. وفعلاً لايمكن لأي شيء في هذه الحياة أن يُحدِثَ الرغب في النفس التي أدركت حقّ الإدراك أنّ الموت لايبعث على الخوف. وعلى ذلك فمن السخف مايزعمه بعضهم من أنّ ما يجعلنا نخشى الموت ليس كونه يبتلينا عند حدوثه بل كوننا نتعذّب في انتظار حدوثه. إذ لا مبرّر للقلق الناتج عن توقّعنا لحدوث شيء ما إن كان حضور هذا الشيء لايتسبّب لنا في أي إزعاج. وهكذا فإنّ الموت، وهو من المصائب ما يجعلنا نرتعش أكثر خوفاً، لاشيء بالمسبة إلينا، إذ عندما نكون فالموت لايكون، وعندما يكون الموت فنحن لانكون. وعلى هذا فالموت لايعني الأحياء ولا الأموات، لأنّه لايمُتّ بصلة إلى الأحياء، ولأنّ الأموات لم يعودوا بعد موجودين. ينفر الجمهور تارةً من الموت ويرى فيه أشدّ المصائب، ويرغب فيه طوراً من أجل وضع حَدٍ لنكبات الحياة. أمّا الحكيم، فهو لايزدري الحياة ولايخشى الموت، لأنّ الحياة لاتثقل كاهله ولأنّه لايعتبر الوجود شرّاً. [أبيقور، راسلة إلى مينسي، 125–126] _لاحظ أنّه إذا أزال المرء من البشرية كل المَلَكات التي منحتها إيّاها

الطبيعة، لايبقى شيء. [شيشرون، دفاعاً عن أبيقور] _دعونا نتخيّل رجلاً يعيش مستمتعاً باستمرار بالعديد من الملذّات الحسية، الجسدية منها والعقلية، والذي لايزعجه وجود الألم أو احتمال وجوده. ما هي الحالة الممكنة من الوجود التي سنصفها كحالة أفضل أو أكثر قابليةً للوصف؟ الإنسان في حالة معينة يجب أن يمتلك بدءاً ذي بدء قوّة العقل كافية أمام أي خوفٍ من الموت أو الألم. هو لن يخاف الموت لأنّه يعرف أنّ الموت ما هو إلا فقدانٌ تام للوعي، ولن يخاف من الألم لأنّه يعلم أنّه بينما هو على قيد الحياة، فالألم الطويل سيكون خفيفاً بشكلٍ عام، والألم الشديد قصير عموماً. بمعنى آخر، سيعلم أيضاً أنّ شدّة الألم تتصاعد بقصر مدّته، وأنّ الألم المستمر يمكن احتماله لأنّه أقل شدّة بشكلٍ عام. هذا الشخص ليس عنده خوف من أي قوى ماورائية، دعه لا ينسى ملذات الماضي، بل دعه يستمتع بها من جديد يتذكّرها باستمرار، وسيكون نصيبه أنّه لن يعترف بمزيد من التحسّن. [شيشرون، دفاعاً عن أبيقور] _يُدخل الخوف من الموت الفوضى لتعكّر هدوء الحياة وصفوها ويفقدها معناها، وإنّه لأمرٌ محزن أن نحني رؤوسنا للألم ونحمله على كاهلنا باستسلام وضعف. هذا الضعف قد سبب للكثير من البشر خيانة أهاليهم وأصدقائهم، حتى أنّ بعضهم خان وطنه، وسقط الكثيرون منهم في فخّ التدمير الذاتي. من جهةٍ أخرى، فإنّ الروح القوية والنبيلة خالية تماماً من القلق والأحزان، وتُنير ظلمة الموت، لأنّ الموتى هم وحدهم ستكون حالهم كما كانت قبل ولادتهم. ومن الحكمة أن نتذكّر أنّ الآلام الشديدة تنتهي بالوفاة، وأنّ الآلام الخفيفة ستطول فترة أطول ثمّ تعقبها فترة من الراحة. بينما الآلام المتوسطة تاشدة تكمن في قدرتنا على السيطرة عليها. إذا كانت الآلام محمولة عندها سيكون بإمكاننا احتمالها، وإذا كانت غير محمولة، فيمكننا أن نختار مغادرة مسرح الحياة بهدوء عندما لا تعود المسرحية

تمتّعنا. [شيشرون: دفاعاً عن أبيقور] _الموت لايمثّل شيئاً لنا، ولا يقلقنا على الإطلاق، حيث إنّ من المعروف عن مادّة الروح أنّها فانية، وكما أنّنا لم نشعر بالقلق قبل مولدنا على ماجرى في الزمن الغابر، عندما تدفّق القرطاجيون من كل جانب ليقاتلوا أجدادنا، وعندما زُلزِلَت الأرض كلها بجلبة الحرب المروّعة، وأصيب بالهَلَع كل شيء تظلّله السماء العالية، وصار مصير كل البشر في البر والبحر معلّقاً: لأيّ حكمٍ من الحكمين سيؤول مصيرهم، وهذا أيضاً عندما سينتهي وجودنا، عندما يحدث الانفصال بين الجسد والروح اللذين باتحادها تنصهر أجزاؤنا في كيان واحد، كُنْ واثقاً إذن أنّ أي شيء على الإطلاق لن يستطيع أن يحدث لنا، لأننّا لن نكون حينها في الوجود، ولن يستطيع أي شيء أن يجعلنا نشعر، حتى لو امتزجت الأرض بالبحر والبحر بالسماء. والآن هَبْ أنه بعد انفصال مادة العقل وقدرات الروح عن جسدنا لايزال بإمكانها الإحساس. على أي حال، فإنّ ذلك لايمثّل شيئاً بالنسبة لنا، نحن الذين يلزم لوجودنا في الحياة اقتران الجسد والروح وانصهارهما في كيانٍ واحد. وحتى لو استطاع الزمن أن يجمع ذراتنا بعد الموت وأن يعيدها مرةً أخرى إلى هيئتها نفسها الحالية، وحتى لو أعاد إلينا نور الحياة مرةً أخرى، فإنّ ذلك الأمر أيضاً لايعنينا على الإطلاق حتى لو حدث بالفعل، مادامت أنّ قدرتنا على التذكّر تكون قد دُمّرت تماماً من قبل. وحتى في وقتنا الحاضر، فإنّه لايعنينا في شيء معرفة ماذا كُنّا من قبل، ولاتمسّنا الآن أي معاناة بشأن هذا الأمر، لأنّه عندما ينظر المرء للخلف إلى كل ما مضى على مدى غير محدود من الزمن، ويرى كم أنّ حركة الذرات متنوّعة، عندئذٍ يمكنه أن يدرك بسهولة: أنّ تلك الذرات نفسها التي نتكوّن منها الآن قد وُضِعَت من قبل بالترتيب نفسه الذي هي عليه الآن. لكنّ العقل لايستطيع استدعاء تلك الفترة من الزمن للذاكرة، لأنّ

الحياة قد توقفت في تلك الفترة البينية التي فيها كانت كل تحرّكات ذراتنا تتجوّل هنا وهناك وابتعدت بعيداً عن مداركنا. لأنّه لو تصادف وقُدّر لإنسان أن يشقى ويتألّم في المستقبل، لكان عليه هو نفسه الوجود أيضاً في ذلك الوقت الذي سينزل به البَلاء، لكن حيث إنّ الموت يمنع حدوث هذا الأمر، ويحول دون وجود الإنسان الذي قد تتجمّع لديه تلك النكبات، فعلينا أن ندرك أنه لايوجد مايجب خشيته بعد الموت، فالإنسان غير الموجود أصلاً لايمكنه أن يشقى، فليس هناك أي فرق بين أن يكون الإنسان قد وُلِدَ في وقتٍ سابق أم لم يولَد تماماً، ما دام الموت الخالد سيقضي على حياته الفانية. وعلى ذلك عندما ترى إنساناً مستاءً من قدره، إذ إنّه بعد الموت إمّا أنّه سيتحلّل مع جسده المستلقي في القبر، وإمّا يهلك فوق مشاعل المحرقة أو بفُكوك الحيوانات الضارية، كُنْ واثقاً من أنّه لايقول الحق، وأنّ خوفاً ما يقطن في أعماق قلبه، على الرغم من أنّه هو نفسه ينكر اعتقاده بأنه سيكون قادراً على الشعور بأي إحساس عقب الموت، لأنّه حسب اعتقادي ليؤمن بما يتظاهر الإيمان به، فهو لايريد أن يقتلع نفسه من الحياة وأن ينسحب منها تماماً، فهو من دون أن يشعر يريد أن يجعل جزءاً منه على قيد الحياة، لأنّ مثل هذا الإنسان عندما يتخيّل أثناء حياته أن جسده بعد موته ستنهشه الطيور والحيوانات المفترسة، تأخذه الشفقة بنفسه، لأنّه لايفرّق بين ذاته حياً وبين ذاته ميّتاً، كما أنّه لايفصل ذاته بالقدر الكافي عن جثمانه المُسَجّى على الأرض، ويتخيّل أنّ ذلك الجثمان لايزال هو ذاته، وأنّ تلك الذات أثناء وقوفها إلى جوار الجسد تحاول أن تثبته جزءاً من مشاعرها... ومن هنا يسخط لأنه وُلِدَ بشراً فانياً، ولايرى أنه عندما يموت بحق لن توجد له نفس أخرى يمكنها البقاء حية لتندب موت النفس الأولى التي ماتت، ولتتألم _وهي واقفة_ على أنّ النفس المسجّاة ستُنهَش أو تُحرَق... إذ لو أنّ نهش الجسد بفكوك الوحوش وأسنانها بعد

الموت يُعَدّ شراً، فإنني لا أرى كيف أنّه ليس بالأمر القاسي على المرء أن يوضَعَ فوق المحرقة لتلتهمه ألسنة اللهب، عندما يُسجّى الجسد فوق سطح لوح رخامي شديد البرودة، أو أن يُدفَنَ ويُسحَقَ تحت وطأة الثرى المتراكم. "لن يستقبلك بعد الآن منزلك السعيد، ولن تستقبلك بعد الآن أفضل الزوجات، ولن يُهَروِلَ نحوك أطفالك الأعِزّاء ليحظوا بقبلاتك فيغمرون قلبك بسعادة دفينة. ولن تتمكّن بعد الآن من العيش في حياة رغدة، ومن حماية أهلك. يا لَكَ من مسكين، هكذا يقولون، يومٌ واحدٌ غدّار سلبك ببؤس كل نعم الحياة الكثيرة". لكنهم لايضيفون إلى ما سبق: "لن تستولي عليك بعد الآن أي رغبة في أي من تلك النعم". لو أنّهم يتدبّرون ذلك بعقولهم جيداً ويعملون وفقاً لهذا القول، لحَرّروا أنفسهم ن اضطرابٍ عظيم وخوفٍ يصيبان العقل. "أجل حيث إنك ترقد في سبات الموت، فإنّم ستظلّ هكذا أبد الدهر، ولهذا ستبقى معافى من كل الآلام المبرّحة، ولكننا ونحن واقفون إلى جوارك وقد تحوّلتَ إلى رماد فوق المحرقة المرعبة، فإنّنا نبكيك بلا توقف، ولن تتمكّن الأيام من أن تخرج من قلوبنا ذلك الحزن المقيم". وعلى هذا ينبغي علينا أن نسأل المتحدّثالسؤال التالي: لو أنّ مسألة الموت تُختَزَل في النوم والسكينة، فلماذا كل هذه المرارة العظيمة، ولماذا يذبل المرء شيئاً فشيئاً بحزنٍ لاينتهي؟ إنّ هذا الأمر أيضاً يفعله الناس كثيراً عندما يضّجعون على الموائد ويمسكون الأقداح بأيديهم ويضعون الأكاليل على جباههم، فإنّهم يقولون من أعماق قلوبهم: "كم هي قصيرةٌ تلك المُتَع الممنوحة للبشر البؤساء، فهي سرعان ماتزول ولا يتمكّن أمرؤ من استعادتها بعد ذلك... وكأنّ مصيبتهم الرئيسية بعد الموت هي: أنّ الظمأ الجاف يحرق هؤلاء البؤساء، أو أنّ رغبةً ما في شيءٍ ما آخر تتملّكهم. والحق أنّ المرء لايتحسّر على فقدان نفسه أو حياته عندما يسكن العقل والجسد على حدٍ سواء أثناء النوم، فبالنسبة إلينا

لو أنّ مثل هذا النوم كان أبدياً، فإنّه لن تتملّكنا أيّ رغبة من الرغبات. على أي حال، فإنّ ذرات الروح المنتشرة في كل أنحاء الجسد لاتبتعد كثيراً عن الحواس أثناء النوم، وعندما ينهض الإنسان من نومه فجأةً فإنّه يستجمع كل قواه. وعلى هذا فإنّ علينا أن نعتقد أنّ الموت أقل بكثير من النوم في أن يشغل بالنا إن كان هناك ماهو أقلّ من ذلك الذي لانعدّه شيئاً على الإطلاق، وذلك لأنّ انفصال أعظم ذرات المادة يحدث عقب الموت، ولايستيقظ المرء أو ينهض، بمجرد أن يداهمه التوقف البارد للحياة. فضلاً عن ذلك، هَبْ أنّ طبيعة الكون أصدرت فجأةً صوتاً وقامت بنفسها بتوبيخ أحدنا على النحو التالي: ماذا أصابك أيها البشر الفاني إلى الحد الذي معه تستسلم لمثل هذه الأحزان المريرة؟ لماذا تئِنّ وتذرف الدمع عند ذكر الموت؟... فلو أنّك كنت راضياً على حياتك السابقة التي عشتها إلى الآن، ولو أنّ كل النعم التي اجتمعت لديك لم تتسرّب منك _وكأنّها كالماء في وعاءٍ به ثقوب_ فتفقدها وأنت ساخطٌ، لفضّلت إذن أيها الأحمق أن تنسحب كضيف قد شبع من الحياة، وتحصل بعقلك الراجح على راحةٍ بلا منغّصات؟ لكن لو أنّ كلّ ما استمتعت به قد وَلّى وزال، ولو أنّك اعتبرت أنّ حياتك بغيضة، فلماذا تسعى إلى إطالة أمدها، كي تمضي ماهو آتٍ أيضاً على نحوٍ بغيض وينتهي كل شيء وأنت ساخط، ولماذا لاتضع، كما هو حَرِيٌّ بك، حَدّاً لحياتك وللشقاء؟ هل تتوقع مني أن أبتكر أو أكتشف من أجلك شيئاً جديداً عساه أن يبهجك، أقولها لك: لايوجد أي شيء، فكل شيء يسير على المنوال نفسه. فلو أنّ جسدك لم يكن قد ذبل بالفعل بمرور السنين ولم تَهرَم أطرافك وتتراخى، فإنّ كل شيء سيظل يسير على المنوال نفسه، حتى لو قُدّر لك أن تتقدّم في العمر لتعيش كل الأجيال، بل وأكثر من ذلك، لو قُدّر لك ألا تموت على الإطلاق"، بماذا نجيب نحن سوى أنّ الطبيعة توجّه إلينا اتهاماً صائباً، وتقدّم في

دعواها قضية عادلة؟ لكن لو أنّ هذا الرجل الذي تخاطبه الطبيعة كان حقاً شيخاً طاعناً في السن، وكان هذا البائس يشكو وينتحب أكثر ممّا ينبغي على دُنُوّ أجله، فهل سيكون للطبيعة الحق في أن تصرخ في وجهه وتؤنّبه بصوتٍ أكثر حِدّةً: "أغُرب بعيداً بدموعك أيها الوغد، وأوقف نحيبك! إنك تشعر بالوهن الآن بعد أن استمتعت بكل متع الحياة، لكن لأنك تتطلّع دائماً إلى ما ليس لديك، وتزدري مافي يدك الآن، فإنّ عمرك قد انقضى غير تام وغير محمود، ووقف الموت بجوار رأسك دون أن تشعر، قبل أن تتمكّن من الانسجاب وأن مُتخَمٌ ومُشبَعٌ من وليمة الحياة. هيا الآن واصرِف عنك كل ماهو غير مناسبٍ لعمرك، وبعقلٍ راجحٍ اذعَن على الفور لسنوات العمر، لاخيار لديك". وهي في اعتقادي محقة في قولها ومحقة في لومها وتوبيخها له، لأنّ القديم دائماً مايمضي صاغراً بعد أن يقهره الجديد، فينبغي لكل شيء أن يقوم على أنقاض شيء آخر، ولايوجد مَنْ يقع في الجحيم أو في تارتاروس الأسود، فهناك احتياج للمادة التي منها قد تنشأ الأجيال القادمة، وكل الأجيال، على أي حال، ستلحق بك بعد أن تنتهي حياتها، لذا فإنّ تلك الأجيال ليست بأقل منك، فهناك مَنْ هَلَكَ منها من قبل، وأخرى ستهلك من بعد... وهكذا فإنّ الشيء لايتوقف عن النشوء من الآخَر، ولايملك إنسان الحياة ملكية مطلقة، فهي مُلكٌ للجميع ويحقّ لهم استخدامها. انظر للوراء أيضاً وشاهد كَمْ من عصرٍ من عصور الدهرالأولي قدمَرّ قبل مولدنا، وكم أنّ ذلك لايمثّل شيئاً لنا البَتّة. وبذلك فإنّ الطبيعة تعرض لنا _كالمرآة_ الزمن المقبل عقب موتنا مباشرةً. هل هناك ما يبدو مخيفاً في ذلك؟ هل ثمّة شيءٌ يبدو محزناً؟ أليس الموت أكثر أماناً من الموت؟. [لوكريتيوس، في طبيعة الأشياء، 830-975] _فيما يتعلّق بالموت، يجب أن نضع في حسباننا أننا نعي حقيقة أننا أحياء فقط لأننا نختبر الحياة من وجهة نظرنا الشخصية، من خلال عينينا،

وأذنينا، وحواسنا. عندما نموت، ستختفي هذه الحواس وتندثر مع أجسادنا، ومعها ستندثر قدرتنا على اختبار أي شيء والشعور به. ولهذا السبب، لا ينبغي أن نخاف من الموت، لأنك ما أن تموت، ستختفي أحساسيك ومشاعرك، وبذلك ينتهي وعيك أيضاً. حتى إذا كان المكوّنات التي تشكّل أجسادنا ووعينا بقيت موجودة بشكلٍ ما، فبهذه الحال أي شيء سيبقى منك لن يختبر أي شيء من الأحاسيس، وبذلك لن يمتلك القدرة على الشعور بأي نوع من الألم. علاوة على ذلك، لا تسمح لنفسك أن تنتابك أيّة مشاعر بالندم أو الأسى حيال حقيقة أنّ وعيك لم يستمرّ إلى الأبد. فأنت لستَ قلقاً الآن عن حالتك التي كنت فيها قبل أن تولد إلى هذا العالم، وبنفس الشكل لا لستَ بحاجة لأن تقلق حيال الأبدية التي ستمرّ بعد موتك. كل الأمور التي ستحصل بعد موتك ستكون ببساطة مجرّد مرآة لكل الأمور التي حصلت قبل ولادتك _ ولاينبغي أن يسبب لك الخوف من الموت عجزاً في قضاء حياتك اليوم إلى أقصى إمكاناتها. ناهيك عن أنّ الموت لايعنينا في شيء. ولا يهمّنا في شيء. فالموت جزءٌ حيويٌ من طبيعتنا ككائنات بشرية، لكنّ الطبيعة قد صمّمتنا وكيّفتنا لكي نحيا، كما أنّ غاياتنا وأهدافنا الطبيعية تتمحور حول عيش حياة مليئة بالسعادة قدر الإمكان. علينا أن نسعى بكل قوتنا نحو حياة ملؤها الصحة والسعادة والشعور بالامتلاء، فنهاية هذه الحياة ستكون ذات أهمية بالغة بالمسبة إلينا. ما أحاول أن أشير إليه هنا هو أنّ الموت هو نهاية وعينا، ولن ندخل حالة أخرى من الوجود المغاير بعد الموت، وليس علينا أن نقلق بشأن ذلك، وبهذا المعنى، طبعاً، الموت لايعني لنا شيئاً على الإطلاق.

متلازمة الصدمة الدينية

فاليري تاريكو

«كيف تقود بعض الأديان المنتظمة لمشاكل في الصحة العقلية» «الجماعات والطوائف التي تتطلّب طاعة عمياء وخضوع تام تنتج الخوف والرعب، وليس الحب والازدهار» في سن السادسة عشر كنت قد دخلت فيما سيغدو لاحقاً صراعاً طوال أربع سنوات مع مرض البوليميا/ النهم. عندما بدأت الأعراض بالظهور، توجّهت يائساً إلى أشخاص بالغين كان من المفترض أنّهم يعرفون أكثر منّي عن كيفية توقّفي عن هذا السلوك المخجل _قائد صف دراسة الإنجيل وقس شاب زائر. «إذا كنت تسألين عن أي موضوع ضمن إطار الدين، الإيمان، والمعتقد» قالا «لكِ ذلك». كنت أعرف أنّهما كانا يقتبسان آياتٍ ومقاطع من الكتاب المقدس. صلينا مع بعضنا، وذهبت إلى البيت وأنا على ثقة تامة بأنّ الله قد سمع صلواتي. لكنّ نهمي القهري لم يتركني لحظة. خلال سنتي الأولى في الكلية، كنت يائسة ومكتئبة لدرجة دفعتني لأحاول الانتحار. لكنّ مشكلتي لم تكن محصورةً في النهم القهري. كنت مقتنعة آنذاك أنّني كنت فاشلة كلياً على المستوى الروحي. وقد عرض القسم الاستشاري في كليتي تقديم يد المساعدة والعون لي (وتبيّن أنّه كان ناجعاً فيما بعد). لكن بالنسبة إلى عقلي، في تلك المرحلة، تلك المساعدة لم تكن لتعالج لبّ المشكلة وأساسها: كنت أنا فاشلةً في نظر الله. كان ذلك بعام قبل أن أفهم أنّ عجزي عن معالجة نهمي القهري عبر الآليات التي قدّمتها إليّ الكنيسة المسيحية الإنجيلية لم تكن وظيفة عجزي الروحي الخاص بل عجز وإشكاليات إنّما تتخلّل الدين المنظّم نفسه. د. مارلين واينل هي مستشارة في شؤون التنمية البشرية في منطقة سان فرانسيسكو. كما أنّها ابنة

مبشّرين من أتباع كنيسة عيد الحصاد. هذه التركيبة قد منحت عملها ميزة غير عادية. وخلال العقدين الأخيرين قابلت رجالاً ونساءً أثناء عملها لمعالجتهم من أشكال مختلفة من الدين الأصولي ومن بينها Assemblies of God Denomination-حيث نشأت هي نفسها فيها. د. واينل هي مؤلّفة كتاب «ترك الرعية: دليل الأصوليين والمتشددين السابقين لترك دينهم - Leaving the Fold A Guide for Former Fundamentalists and Others Leaving their Religion» الذي كتبته خلال سنيّ عملها الخاص في علم النفس. على مرّ السنوات، قدّمت واينل دعماً ومساندة كبيرين لزبائن كُثُر كانوا يعانون من أضرار خلّفها الدين لهم أكبر بكثير من الأضرار التي لحقت بي. بعض هؤلاء كانوا أشخاصاً لم تكن أعراضهم مجرّد عوارض أثارها الدين، بل تسبّب بها فعلياً. منذ سنتين، أثارت واينل موجات تسونامي في الأوساط الاجتماعية عندما صنّفت مابات يسمى بمتلازمة الصدمة الدينية (Religious trauma Syndrome (RTS وبدأت الكتابة والتحدّث حول هذا الموضوع أمام جماهير مختصّة. وعندما نشر علماء نفس من الجمعية البريطانية للسلوك والإدراك سلسلة من المقالات حول هذا الموضوع، احتجّ أعضاء من جمعية الإرشاد المسيحية على ما سمّوه بالاهتمام المفرط لهذا الموضوع الصغير. أحد المعلّقين قال «لا يمكن لكتاب أو دين أو معتقد ما أن يكون إساءة، لكنّ الناس الذين يؤوّلونها ويفسّرونها هو الذين يسيئون باسمها» هل الديانة السامة والخبيثة هي ببساطة سوء فهم أو سوء تأويل؟ ماهي الصدمة الدينية؟ لماذا تعتقد واينل أنّ "الصدمة الدينية" تستحقّ مكانة تشخيصية في الأدبين الطبي والعلمي؟

لنبدأ هذه المقابلة بمبادئ تأسيسية. ماهي الصدمة الدينية بالضبط؟ واينل: متلازمة الصدمة الدينية (RTS) هي مجموعة من العوارض والحالات التي تتزامن

مع بعضها وتكون مرتبطة بتجارب ضارة ومؤذية مع الدين. إنّها نتيجة طبيعية لشيئين اثنين: الانغماس في ديانة مسيطرة تفرض سيطرتها المطلقة على أفرادها، والشيء الثاني التأثير الناجم عن ترك جماعة دينية معينة والخروج منها. إنّ تشخيص "متلازمة الصدمة الدينية" تمنحنا اسماً وتوصيفاً يمكننا من خلاله التعرّف على الأشخاص المصابون بها على الفور. هناك الكثير من الناس ممّن استغربوا فكرة "المتلازمة"، لأنّه يفترض في ثقافتنا بشكل عام أنّ الدين ظاهرة حميدة أو غير ضارة أو حتى أنّها مفيدة لنا. وتشبه إخبار الأولاد قصص وحكايات عن بابانويل ثم تركهم يتدبّرزن معتقداتهم لاحقاً، فالناس لا يجدون أي ضرر من تعليم الأولاد الدين. لكن في الواقع، فإنّ التعاليم والممارسات الدينية ينتج عنها معظم الأحيان أضرار جادة وخطيرة للصحة العقلية. الناس بشكلٍ عام على اطلاعٍ بحالات الاعتداء الجنسي والجسدي في مجال الدين. كما ذكرت الصحافية جانيت هيمليخ في توثيقها: «تكسير إرادتهم»، فإنّ الجماعات الدينية التي تقوم على أساس السلطة الأبوية في العائلة وتستخدم طرقاً وأساليب قاسية في التربية غالباً ما تكون مدمّرة. لكنّ المشكلة هنا ليست في الإساءة الجسدية أو الجنسية. بل إنّ المعاملة العاطفية والعقلية في الجماعات الدينية السلطوية يمكن أن تكون مدمّرة بسبب 1) التعاليم السامة كالعذاب الأبدي أو الخطيئة الأصلية، 2) الممارسات والطقوس الدينية أو حتى العقلية الدينية، كالعقاب، التفكير الأبيض والأسود، أو الذنب الناجم عن الجنس، و3) الإهمال الذي يمنع المرء من تلقي المعلومات أو استغلال الفرص للتطور بشكل طبيعي.

أيمكنك إعطائي مثالاً عن متلازمة الصدمة الدينية خلال ممارستك في مجال تخصّصك؟ واينل: بإمكاني إعطائك الكثير من الأمثلة. أحد الأعراض يتمحور حول الخوف والقلق. فالأشخاص المبرمجون على الأصولية المسيحية خلال طفولتهم

تتتابهم أحياناً بعض الذكريات كيف كانوا مرعوبين بصور ومشاهد خيالية عن الجحيم أو نهاية العالم قبل أن يبدأ دماغهم بفهم هذه الأفكار. بعض الناجين، أو الذين أفضل أن أشير إليهم بالمُستَصلَحين، يتتابهم ذكريات خاطفة، نوبات رعب، أو كوابيس خلال بلوغهم حتى إذا كانوا قد بلغوا مرحلة عدم تصديق مثل هذه الأمور. إحدى مرضاي، خلال النهار تراها عاملةً نشيطة وطبيعية ومحترفة، لكنها كانت تعاني من حالات خوف وفزع شديدة في ليالي كثيرة. أخبرتني: "كنت خائفة من فكرة ذهابي إلى الجحيم. كنت خائفة من أني أقوم بشيء شيء أو أرتكب خطيئة ما. كنت لا أستطيع السيطرة على نفسي بتاتاً. كنت أستيقظ خلال الليل وأبدأ بالصراخ، ألوّح بيدي، أحاول تخليص نفسي مما كنت أشعر به. كنت أخرج للسير حول المنزل محاولةً استعادة تفكيري وتهدئة نفسي، في منتصف الليل، أحاول أن أجري حديثاً مع نفسي، لكنني كنت أشعر أنّ الخوف والرعب والقلق يسيطران على حياتي كلها" أو لنمعن النظر في هذا التعليق، الذي يشير إلى فيلم يستخدمه المبشّرون للترهيب من فظائع وأهوال نهاية العالم من أجل اللادينيين والملحدين: "أخذني والداي لحضور فيلم "A Thief in the Night". يا إلهي. وأنا مصدوم لمعرفتي أنّ الكثير من الناس قد عانوا من نفس الصدمة التي عانيت منها بسبب هذا الفيلم. بعد عرض الفيلم بعدّة أيام أو أسابيع، عدت إلى المنزل ولم تكن أمي موجودة. وقفت هناك وأنا أصرخ برعب وفزع [دون أن يسمعه أحد أو يلبّي نداؤه]. وعندما توقفت عن الصراخ، بدأت بوضع خطتي: من كانوا جيراني المسيحيين، وأي المنازل أريد اقتحامه من أجل المال والطعام. كنت صبياً في الثانية عشرة من عمره يستعدّ لوحده من أجل نهاية العالم". بالإضافة إلى القلق، قد ينجم عن "متلازمة الصدمة الدينية" حالات من ضمنها الاكتئاب، صعوبات إدراكية، ومشاكل في النشاط الاجتماعي. في حالة

الأصولية المسيحية، يعتبر الفرد مذنباً ومدنساً ويحتاج إلى الخلاص. هنا تكمن رسالة في قلب هذا المفهوم مفادها "أنت إنسان سيء ومذنب وتستحق الموت" _(عقوبة الخطيئة هي الموت). هذا المفهوم يجري تلقينه لملايين الأطفال عبر منظّمات مثل Child Evangelism Fellowship وهناك جماعة منظّمة تعارض تغلغلها في نظام المدارس العامة. لديّ مرضى يتذكّرون مدى دهشتهم عندما قدّموا لهم صورة حية دموية ليسوع وهو يدفع الثمن الأخير لخطاياهم. بعد ذلك بعدّة عقود هم يجلسون ويخبروني بأنّهم عاجزون على أن يشعروا بأي قيمة أو أهمية لأنفسهم. «بعد 27 عاماً من محاولتي عيش حياة مثالية، فشلت... كنت أشعر بالخجل والعار من نفسي طوال اليوم. كان عقلي يتصارع مع نفسه بدون راحة... كنت مؤمنة بكل شيء تعلّمته وجرى تلقيني إياه لكنّني كنت أعتقد على الدوام بأنّني لم أكن مقبولةً بنظر الله. كنت أعتقد بأنّني كنت سأموت أثناء الهرمجدون/ نهاية العالم. أمضيت سنوات عديدة وأنا أعذّب وأؤذي نفسي، أحرق وأجرح يدي، وآخذ جرعات زائدة وأجوّع نفسي، لمعاقبة ذاتي كي لايعاقبني الله. وقد تطلّب مني الأمر سنوات طويلة لأشعر بأني أستحق الخير» المسيحية التي تدعو إلى "الميلاد من جديد" والكاثوليكية الملتزمة تزرع في عقول الناس فكرة أنّهم ضعفاء ومذنبون، وكثيراً ما نسمع منهم عبارات مثل "لا تعتمد على فهمك الخاص للأمور" أو "ثِقْ وأطِع". الأشخاص الذين يمتصّون هذه الرسائل ويستبطنونها يمكن أن يعانوا من عجز مكتسب. سأعطيك مثالاً من مريض كان يعاني من مشكلة في اتخاذ قرار بعد أن عاش كامل حياته مكرّساً نفسه وجلّ وقته "لإرادة الله". كلماته هنا لاتعطينا صورة عن مدى عمق يأسه. «أعاني من صعوبة في اتخاذ القرارات بشكلٍ عام. كأنني لاأستطيع الاستيقاظ في الصباح، ما الذي سأفعله اليوم؟. لاأعرف من أين سأبدأ. فجميع الأمور التي اعتقدت بأني سأقوم بها قد

تلاشت واختفت وأنا أعرف تمام المعرفة بأني يجب أن أحاول إيجاد عمل أو الحصول على مهنة، عملياً أنا أجالس ابني ذو الأربع سنوات طوال اليوم». الجماعات الدينية السلطوية الشمولية هي ثقافات فرعية أو تحتية حيث الطاعة والخضوع مطلوبين لتستطيع الانتماء إليها. وبذلك إلى تجرأت وخرجت من الدين، فأنت تخاطر بخسارة نظام دعمك كاملاً. «خسرت جميع أصدقائي. خسرت علاقاتي المقرّبة مع عائلتي. والآن أنا أخسر وطني. خسرت الكثير بسبب هذا الدين الخبيث وأنا الآن غاضب وحزين في صميمي... حاولت جاهداً إقامة صداقات جديدة، لكنني فشلت بشكلٍ مريع... أنا وحيد تماماً.» الخروج عن دين وتركه بعد اندماجٍ كاملٍ فيه يمكن أن يؤدي إلى ثورة كاملة في بنية الإنسان ونظرته للواقع، ومن ضمنها الذات، الآخرين، الحياة، والمستقبل. الأشخاص الذين ليسوا على اطلاع بهذه الحالة، ومن بينهم المعالجون النفسيون، سيجدون صعوبة في تقدير المخاطر والأضرار التي تنجم عنها. «الدين الذي نشأت عليه تجذّر بعمق في قلبي. من الصعب وصف إلى أي مدى قولب وصقل وأثر ديني على وجهة نظري إلى العالم. خطواتي الأولى خارج الأصولية كان صعبة للغاية وكانت تنتابني أفكار بالانتحار. والآن قد تجاوزت ذلك، لكنني لم أستطع حتى الآن العثور على مكاني في العالم». حتى بالنسبة للأشخاص الذين لم يتعلّقوا كثيراً بدينهم، فترك الدين يمكن أن يكون أشبه بنقلة محورية ومثيرة للتوتر.

كثير من الناس يبدو أنّهم يتركون أديانهم بمنتهى السهولة، ومن دون أن ينظروا إلى الوراء. ماهو الاختلاف بين هؤلاء والمرضى الذين تعاملتِ معهم. واينل: الجماعات الدينية المسيكرة، تزرع الخوف من العالم، وتبقي أفرادها متقوقعين وغير مجهّزين للتعامل مع المجتمع لذلك سيكون من الصعب بالنسبة لهم العيش بسهولة.

والصعوبة تكون أكبر لو أنّ الشخص قد ولد ونشأ داخل الدين من أن يكون قد اعتنق الدين وهو بالغ. وهذا لأنّ المتديّنون منذ صغرهم يفتقرون لإطار ينظرون من خلال إلى العالم _دون "ذات" أخرى أو "وجود آخر في العالم". نمط الشخصية الشائع هو شخص عاطفي بعمق ومفكّر يميل الشروع في سعيه بإخلاص والتزام. أمّا "المؤمن الحقيقي" الذي يفقد إيمانه لاحقاً يشعر بغضب ويأس وأسى أكبر من أولئك الذين يذهبون إلى الكنيسة أيام الآحاد [أو المساجد أيام الجُمَع].

أليس هناك أشخاص مكتئبون وقلقون ومهووسون بشكل طبيعي؟ وايتل: على الإطلاق. إذا صحّت ملاحظاتي، هؤلاء أشخاص عاطفيون ومرهفو الإحساس ومراعون. إنّهم يتعلّقون بالدين فترة أطول من أولئك الذين "يخرجون" ببساطة شديدة لأنّهم يحاولون إنجاح ذلك حتى عندما تنتابهم الشكوك. في بعض الأحيان يكون ذلك نتيجة الخوف، لكن في معظم الأحيان يكون نتيجة الإخلاص والالتزام. هؤلاء أشخاص يكون أخلاقهم ونزاهتهم وعواطفهم على درجة كبيرة من الأهمية. أنا أرى أنّهم عندما تتحسّن أحوالهم ويعيدون بناء حياتهم، سيكونون أشخاصاً رائعين مبدعين تملؤهم الطاقة بشأن كل الأمور الجديدة.

برأيك، كيف تختلف "متلازمة الصدمة الدينية" عن "اضطراب توتر مابعد الصدمة"؟ وايتل: "متلازمة الصدمة الدينية" هي مجموعة محدّدة من العوارض والحالات المرتبطة بتجارب دينية مؤذية، وليست مجرّد صدمة. وهذه نقطة في غاية الأهمية لكي نفهم هذه الحالة وأي نوع من العلاجات الذاتية. هناك اختلاف آخر وهو الإكار الاجتماعي، وهو مختلف تماماً عن الصدمات الأخرى أو أي أشكال أخرى من الإساءة. عندما يكون هناك إنسان يتعافى من إساءة منزلية، على سبيل المثال، يفهمه الآخرون ويدعمون رغبته في المغادرة والتعافي. هم لا يسألون عن ذلك

بوصفها تفسيراً، ولا يعيدون الشخص من أجل المزيد. لكنّ هذا مايحدث بالضبط بالنسبة للعديد من المتدينين السابقين الذين يسعون لنيل الاستشارة. إذا كان صاحب الاستشارة لايفهم مصدر وأساس الأعراض، فإنّه قد يعيد إرسال المريضة أو المريضة للبحث عن استشارة من كاهن أو قس، أو من كنيسة أخرى. إحدى الخارجات من أحد الأديان عبّرت يأسها وإحباطها على هذا النحو: «خُذ أبوين مسيئين جسدياً يعملان بمقولة "ضع القضيب ودلّل الطفل" وسيكون لديك روحاً فاسدة ومحطّمة: صبي صغير منبوذ، غير محبوب ومصدوم في جسد إنسان بالغ. أنا روحٌ محطّمة داخل قوقعة فارغة. لكن انتظر... ألا يكفي ذلك؟! هناك أيضاً هذا المجتمع الذي يتوقّع منّا نحن الضحايا أن نحتفل مع مفسدينا بذلك كل عيد ميلاد وفصح!!!» على غرار باقي الاضطرابات مثل التوحّد والنهم، فإنّ منح متلازمة الصدمة الدينية اسماً يعتبر تقدّماً هاماً. الأشخاص الذين يعانون سيجدون أنّ هناك اسماً وتشخيصاً لتجاربهم ممّا قد يساعدهم على تخطّي مشاعر الوحدة والذنب. بعضهم كتب لي وهو يعبّر عن ارتياحه: «عملياً لايوجد اسم يعبّر عمّا نمرّ به! كنت مغسول الدماغ منذ نعومة أظفاري وهدرت 25عاماً من حياتي على خدمه هذا المرض! وقد خرجت من ديني منذ عدّة سنوات، لكنني مازلت عاجزاً عن زعزعة هذا الخوف المتربّص من الجحيم والشعور الدائم بالنهاية. أنا الآن مشلول اجتماعياً، عاجز، عاطل عن العمل، والسبيل الوحيد للحصول على الجنس هو أن أدفع في المقابل» تشخيص "متلازمة الصدمة الدينية" وتصميفها يشجّع المحترفين وعلماء النفس على دراستها بتمعّن وعن قرب، وتطوير علاجات لها، وتقديم المساعدة. على أمل أنّ نعمل على منعها بعد ذلك.

ماذا ترين كفارق بين الدين الذي يسبب صدمة والذين الذي لايسبب صدمة؟ الدين يسبّب صدمة عندما يكون مسيطراً ومتحكّماً ويمنع الناس من التفكير بأنفسهم وبطريقتهم الخاصة والثقة بأحكامهم ومشاعرهم الخاصة. الجماعات التي تطالب بالطاعة المطلقة والخضوع التام تنتج الخوف، وليس الحب والازدهار. ومع وجود أحكام دائمة على النفس وعلى الآخرين، يشعر الناس بالاغتراب عن أنفسهم، عن بعضهم، وعن العالم. فالدين بأسوأ أشكاله يسبّب انفصالاً واغتراباً. بالمقابل، الجماعات التي تؤسّس روابط مع الآخرين وتروّج لمعرفة الذات والانفتاح والازدهار الشخصي يمكن القول عنها أنّها جماعات صحية وحميدة. الكتاب «الدين الصحي Healthy Religion» يصف هذه السمات والخصائص. هذه الجماعات تقيّم وتقدّر التنوّع وتشجّع احترام الاختلافات، وأعضاؤها يشعرون بقوّتهم كأفراد. إنّهم يقدّمون دعماً اجتماعياً، مكاناً للنشاطات وطقوس الانتقال، تبادل الأفكار، الإلهام، فرص لتقديم الخدمات والمساعدة، والاطلاع على المواضيع الاجتماعية والانخراط فيها. إنّهم يشجّعون الممارسات الروحية الصحية كالتأمّل أو تعلّم مبادئ العيش كالقاعدة الذهبية. وأكثر من ذلك، كثيراً ما يسأل اللادينيون والملحدون أنفسهم كيف يمكنهم خلق مجتمعات روحية مماثلة لكن من دون الروحانيات الدينية. هناك ائتلاف إلحادي في لندن أنطلق في هذا العام وتسلّم أكثر من 200 طلب من أشخاص ينتظرون محاكاة نموذجهم وإقامة نماذج مماثلة.

بعض الناس يقولون أنّ اصطلاحات وتعابير على غرار "تعافي من الدين" أو "متلازمة الصدمة الدينية" ماهي إلا محاولات من الملحدين لتحويل المعتقد الديني إلى مجرّد عارض مرضي. واينل: اختصاصيو الصحة العقلية لديهم الكثير من الأمراض ليتعاملوا معها ولاحاجة ليبحثوا عن أمراض جديدة. ولم أسعى أنا للبحث

عن "موضوع صغيرة" جديد، وبالتأكيد ليس متلازمة الصدمة الدينية. في الأصل كنت قد كبت ورقة من أل مؤتمر أقامت الجمعية النفسية الأمريكية وظننت أنّ هذه ستكون النهاية. ومنذ ذلك الوقت، حاولت الانتقال إلى أمور أخرى عدّة مرات، لكنّ هذا العمل تنامى وتضخّم بكل بساطة. برأيي، نحن نصبح _كثقافة_ أكثر إدراكاً للصدمة الدينية. الناس يبتعدون عن الدين أكثر فأكثر، وكما تبيّن استطلاعات للرأي أنّ "الخارجين عن الدين" قد تزايدوا خلال الأعوام الخمس الأخيرة من نسبة لاتتجاوز 15٪ إلى 20٪ عند البالغين في الولايات المتحدة. لاعجب أنّ الشبكة العنكبوتية تعجّ بمواقع لمؤمنين سابقين ومن جميع الأديان، موفّرةً ملاجىء وملتقيات للناس ليدعموا بعضهم البعض. العدد الكبير من الأشخاص الذين "يخرجون عن القطيع" يتضمّنون فئة فرعية يعانون من "متلازمة الصدمة الدينية"، والكثيرون يتحدّثون عنها ويسعون خلف المساعدة. إنّ القول بأنّنا نحاول تحويل الدين السلطوي المنظّم إلى حالة مرضية يشبه القول أنّنا نحوّل اضطرابات الأكل إلى أمراض عن طريق تسميتها. لكن قبل ذلك، هل كانت صحية؟ بالطبع كلا، قبل ذلك لم نكن قد لاحظناها. كان الناس يعانون، كانوا يظنون أنهم وحيدين، وكانوا يلومون أنفسهم. لم يكن المختصون لديهم أي إدراك أو تدريب. وهذا هو حال "متلازمة الصدمة الدينية" اليوم. الأديان السلطوية المنظّمة هي حالات مرضية أصلاً، والخروج من جماعة دينية مسيطرة قد يكون أمراً خطيراً وجاداً ويخلّف صدمة واضحة. الناس يعانون. إنّهم بحاجة إلى الاعتراف بهم ومساعدتهم.

من هو سيزيف؟

إبراهيم جركس

سيزيف ليست أسطورة إغريقية خاصة باليونانيين القدماء فقط، بل هي أسطورة كونية شاملة لكل حضارة وثقافة وزمان، ونكاد نراها بأمّ العين في زماننا الراهن ووضعنا الحالي.

تمنحنا جميع النسخ المختلفة لهذه الأسطورة شرحاً لسبب تعرّض سيزيف لمثل هذه العقوبة. فوفقاً لإحدى النسخ، كانت ابنة اسوبوس، إيجينا، أحد أسباب إنزال العقاب بسيزيف. فبعد أن اختطفها زيوس، أخذ والدها أوسوبوس يبحث عنها، لكنه فشل، إلا أنّ سيزيف أخبره أنه يعرف مكانها. وقد وافق على إفشاء مكان تواجدها فقط إذا وافق أسوبوس على إمداد كورنثيا بمياه الشرب.

تقول نسخة أخرى من الأسطورة أنّ سيزيف كان على عداء مع شفيقة سالمون، وكما تنبّأ أبوللو، فقد اغتصب ابنته تيرو، ثمّ أنجبت أولاداً. ثمّ اكتشفت أنّ ابنائها يريدون قتل سالمونيوس لأنّ سيزيف أمرهم بذلك. لهذا السبب عوقِب. من الصعب معرفة أي نوعٍ من الرجال كان سيزيف من خلال افعاله ولكن هذا المقال سيساعدنا في معرفة ما إذا كان بطلاً في الحقيقة. ومن أكثر النسخ انتشاراً وشهرةً عن الأسطورة: كان سيزيف، ابن عوليس إله الريح، مؤسس مدينة كورنثوس، والتي كانت تسمّى في العصور القديمة باسم مدينة "إيثر". لم يكن هناك أي شخص في اليونان بأكملها يضاهي سيزيف ذكاءً ودهاءً. وعندما جاء ثانوس الكئيب إلى أذكى رجل في اليونان ليأخذه إلى العالم السفلي هادس، تمكّن سيزيف من التملّص من رسول هادس والتغلّب عليه وتقييده ثم الهرب منه. ومع ذلك، كان لهذا الفعل

عواقب معينة على الناس على الأرض. لم يعد أحد يموت، لم تعُد تُقام جنازات، ولم يَعُد أحد يكرّم الآلهة أو يقدّم القرابين والأضاحي لها. تمّ كسر النظام الذي وضعه إله الرعد زيوس. وبعد أن اكتشف الأخير ذلك، أرسل زيوس الإله آريس، إله الحرب، لتحرير ثانوس ومعاقبة سيزيف ونقله إلى عالم الموت.

ومع ذلك حتى وهو واقفٌ أمام هادس بجلالة قدره، تمكّن من خداعه الفرار منه. وقبل أن يُقبَض عليه للمرة الثانية طلب من زوجته بألا تدفنه وبالتالي لا تضحّي بجسده للآلهة. أطاعت الزوجة رغبة زوجها وفعلت كما طلب منها. انتظر كل من هادس إله العالم السفلي وزوجته برسيفوني التضحية، لكنّ الأخبار وصلتهما بأنّ زوجة سيزيف لن تقيم طقوس التضحية. ثم قرّر سيزيف التحدّث مع الإله وتمكّن من إقناعه بأن يعود إلى الأرض ويطلب من زوجته دفن الجثة.

صدّقه هادس وأطلق سراحه. ومع ذلك، لم يَعُد سيزيف إلى عالم الظلال وقرّر البقاء على الأرض للاحتفال مع عائلته وأصدقائه لأنه كان الإنسان الوحيد الذي تمكّن من خداع إله العالم السفلي والفرار منه، والبقاء على قيد الحياة. أرسل هادس الغاضب مرساله ثانوس مرّةً أخرى لاستعادة سيزيف وإرجاعه إلى العالم السفلي، لكنه وجده على الطاولة يضحك ويأكل. لسوء حظه لم يستطع خداع الإله مرّةً ثانية وتمّ نقله إلى عالم الظلال ليُعاقَب على أفعاله.

عوقِبَ سيزيف بشدّة على جميع أكاذيبه التي لاتنتهي. إذ حكمت عليه الآلهة بدحرجة صخرة ضخمة إلى قمّة جبل عالٍ لإنهاك جميع عضلاته. وبغضّ النظر عن ثِقَل الصخرة أو ارتفاع الجبل ومقدار الجهد الذي يبذله سيزيف، كان الحجر يسقط ويتدحرج مراراً وتكراراً بعد بلوغه قمّة الجبل، ليعيد الكَرّة من جديد. وبغضّ النظر عن جميع المحاولات، فإنّ الحجر محكومٌ عليه بالسقوط. لا زمن ولا إجهاد يؤثران

عليه وهو يحاول يائساً دحرجة الحجر إلى قمة الجبل مراراً وتكراراً إلى الأبد ولعدد غير محدّد من المحاولات. وهكذا فإنّ صورة سيزيف دارجة ومتجذّرة بقوّة في الأدب العالمي، وخاصة في الأدب اليوناني القديم. فمثلاً، نجد سيزيف الشخصية الرئيسية في معظم الأعمال الدرامية الساخرة لأسخيلوس، وسوفوكليس، ويوريبيدس. وحتى الكتّاب المعاصرين كان لهم نصيب في شخصية سيزيف كروبرت ميرل وألبير كامو والفنانين يصوّرون مارداً يشخّص صورة سيزيف كمصدر الوحي والإلهام. وسيكرّس هذا المقال لأعمال أحد أبرز ممثّلي الفلسفة العبثية ألبير كامو. كان هو الشخص الوحيد القادر على إظهار جوهر العبث الذي يلازمنا طوال حياتنا وخلال حياتنا اليومية باستخدام صورة سيزيف كرمز "للامعنى" و"اللاجدوى" و"اللامعقول". وكما لاحظتم تساعدنا الأساطير على التفكير في موضوع الدين لأنّ الإغريق القدماء كانوا أناساً متديّنين للغاية وربطوا جميع الظواهر الطبيعية بإرادة الآلهة ومشيئتها. ومع ذلك فهي مسألة جوهرية حتى في عصرنا الحالي. سيزيف عند ألبير كامو

إذا كنتم على دراية مسبقة بأسس الفلسفة العَبَثية، فعلى الأرجح أنتم تعرفون أنّها تستند إلى حقيقة أنّ وجودنا عبثي ولامعنى له. وسيزيف كامو يمثّل بالضبط ما نبحث عنه هنا: فقد وجد معنى الحياة والغاية منها. وهذا المقال سيعتمد بشكل أساسي على مقال كتبه ألبير كامو في عام 1942 بعنوان "أسطورة سيزيف". ويستخدم هذا العمل في الجامعات والمعاهد كدليل لدراسة الفلسفة العبثية.

يحاول كامو في مقاله عن العَبَث أن يجيب عن سؤال قديم جداً لطالما سألناه جميعاً على أنفسنا: "هل تستحق هذه الحياة أن تُعاش؟"، "هل تستحق كل هذا الجهد والعَناء اللذان نبذلهما من أجلها؟". ووفقاً لكامو، هذا هو السؤال الوحيد الأهم في

تاريخ الفلسفة. فعندما قرّرت الآلهة معاقبة سيزيف على مافعله، اعتبرت أنّ العمل اللانهائي العَبَثي واللاجدي أفضل عقوبة تنزلها عليه. يُعتبَر سيزيف شخصية عَبَثية تعيش حياةً كاملة، وتحتقر الموت والفناء، ومحكومٌ عليها القيام بنفس العمل اللاجدي والذي لايفضي إلى شيء مراراً وتكراراً إلى الأبد. أحد أكثر أجزاء أسطورة كامو إثارةً للاهتمام هو الجزء الذي ينزل فيه سيزيف باحثاً عن الصخرة التي تدحرجت إلى الجهة الأخرى من الجبل، في هذه اللحظة بالذات تصبح الأسطورة مأساوية لأنّ سيزيف يهبط الجبل وهو يدرك أنه محكومٌ عليه بالفناء ومواصلة عمله اللاجدي اليائس إلى الأبد. لقد فقد كل أمل منذ فترة طويلة، ولكن من ناحية أخرى، إنه لا يملك أي توقّعات يأمَل بها أو عَقَبات لتجاوزها والتغلّب عليها أو أي أسباب لإنهاء عذابه ووضع حدّ لمصيره. سيزيف لديه الصخرة التي هي كنزه وكل ما يملكه، حتى أنّ أصغر جزء منها يمثّل أغلى مايملك. وقد توصّل كامو إلى استنتاج مفاده أنّ سيزيف عثر على معنى لحياته وأنّ كل ما يحتاجه هو الاعتقاد بأنه شخص سعيد على الرغم من كل العمل الشاق الذي يتعيّن عليه القيام به بلا هوادة. هناك نقطة مثيرة للاهتمام في مقاله. كامو حريص على اعتبار هذا العمل العَبَثي اللانهائي لسيزيف ماهو إلا استعارة أو تصوير لحياتنا اليومية. ومن السهل للغاية إثبات ذلك إذ أننا نقضي وقتنا جالسين على المكاتب، ونعمل في المصانع والصالات ومختلف الأعمال والأشغال العبثية كما يفعل سيزيف تماماً لكننا نعتبر حياته خالية من المعنى بينما تبدو حياتنا مثالية في نظرنا. يقول كامو «موظّفو اليوم يعملون في نفس الوظيفة طوال حياتهم، ومصائرهم عبثية أيضاً. ومع ذلك لايُنظَر إليها على أنها مأساوية إلا إذا نظرنا إليها بهذه الطريقة».

من الصعب أن يكون المرء موضوعياً حول هذه النقطة لأنه يوشك أن يقارن حياته بحياة شخصية أسطورية يُفترَض أنها عاشت قبل مئات السنين. ومع ذلك، وبعد قراءة مقال ألبير كامو وأسطورة سيزيف، يمكننا التوصّل إلى نتيجة بسيطة للغاية. مثل هذه المقارنة بين شخص معاصر يعيش اليوم ومصير سيزيف الرهيب كما قدّمه ألبير كامو قبل حوالي نصف قرن هي القضية المحورية في زماننا الحالي. إذ يكافح ملايين الناس كل يوم في مختلف أنحاء العالم في أعمال وأشغال قهرية على الأرجح هم لايحبّونها وذلك لتحقيق هدف واحد وهو كسب المال وشراء أشياء قد لايحتاجونها. إنّ وقتهم يمضي في أعمالهم العبثية، يلاحقون أكاذيب وأوهام، وفي كل يوم يمضي يموت جزء بداخلهم. وهذا ما يفعله سيزيف بالضبط، أليس كذلك؟ هذا هو السخف والعبث بعينه، أليس كذلك؟ هل هذا أمر منطقي على أية حال؟... لسوء الحظ إنّ معظم الناس محكومٌ عليهم بدحرجة "صخرتهم" إلى قمّة الجبل كل يوم أيضاً ثم السقوط نحو الجهة الأخرى من الجبل تحت تأثير ظروف معيّنة تجبرهم على الاستمرار في القيام بهذا العمل اليومي العَبَثي مراراً وتكراراً حتى نهاية حياتهم. كما أنّ هناك بيان مهم جداً ومثير للجدل نودّ التطرّق إليه. حيث يتعلّق الأمر بعبثية حياتنا وعدم جدواها وخلوّها من أي معنى بشكلٍ عام. حياتنا هدية فريدة من نوعها منحتنا إيّاها قوى _أياً كان نوعها_ لا ندري عنها شيئاً. ومن السخف القول أنّ الناس يهدرون حياتهم ويضيّعون أوقاتهم بأنفسهم لأنهم لايملكون أي خيار أحياناً، ولكن في معظم الحالات هم كذلك. يمكن لكل واحدٍ منّا أن يختار مصيره ويفعل مايحلو له بغضّ النظر عن الجنس أو العمر. نحن جزء من نظام كامل لا يتأثّر بمصير أو بهلاك لأننا أحرارٌ في اختيارنا. سيزيف اختار أفعاله، وعقابه هو عقاب على ما فعله. البشر أيضاً مبدعون وخلّاقون جداً عندما يتعلّق الأمر بتصوّر شتّى أنواع

العقوبات المختلفة، وسيتفاجأ المرء بالفعل بالتنوّع الكبير في طرق تنفيد العقوبات القصوى.

إذا كنت تشعر أنّ حياتك مملّة أو سقيمة ولا تشعر بالسعادة فيها تفعله، قم فقط بتغييرها. ويتيح لنا تنوّع حياتنا اختيار اي اتجاه نريده من بين العديد من الفرص المتاحة. يومان فقط هما المهمّان في حياتنا: يوم ولدنا، ويوم نفهم السبب، أو السؤال "لماذا". لا داعي لاعتبار سيزيف رجل محكوم عليه بالهلاك والعذاب الأبدي، فلديه هدف وعمل يقوم به وهو دحرجة الصخرة إلى قمّة الجبل مراراً وتكراراً. يقضي أغلب الناس حياتهم وهم يتساءلون "لماذا نحن هنا؟"، ولكنهم يكتشفون أنّ حياةً واحدة لا تكفي للإجابة عن هذا السؤال.

غريب كامو: اللامبالاة تجاه العالم

إبراهيم جركس

إذا كان العالم بلا يهتم ولا يبالي بنا، لماذا يجب أن نهتم أو نبالي به؟ هذا المقال مكرّس بشكل أساسي لدراسة الفلسفة العبثية في رواية ألبير كامو "الغريب"، وهي واحدة من عدّة أعمال مثيرة للكاتب لخّص فيها منظوره عن عبثية الحياة وخلوّها من المعنى. لقد بيّن كامو في مقاله "أسطورة سيزيف" جوانب عبثية أخرى من حياتنا. فمن خلال هذه الأسطورة وضّح كامو أنه يمكن النظر إلى الحياة من وجهات نظر مختلفة. أمّا حبكة هذه الرواية فهي برأيي أفضل تمثيل للعبثية لأنّ الشخصية الرئيسية استشعرت مدى عبثية حياتنا وكم هي تافهة وخالية من المعنى. ففي الصباح الباكر، يتمّ إبلاغ البطل بوفاة أمه بالأمس وأنه يجب أن يحضر على الفور لحضور مراسم الجنازة والدفن. يجعلنا المؤلف نعتقد أنّ البطل لايمتلك أي إحساس بالشفقة أو الألم أو الحزن فيما يتعلّق بهذا الخبر المروّع. يأخذ ميرسو _اسم بطل الرواية_ يومين إجازة ويتوجّه إلى جنازة والدته. بعد انتهاء المراسم، يلتقي بأصدقائه القدامى ويدعونه لتناول العشاء برفقتهم. وبعد الانتهاء من العشاء قرّر ميرسو التنزّه على الشاطئ لوحده حيث قابل رجلاً غريباً. كانت الشمس مشرقة للغاية وبدا أنّ نصل السكين قد عكس نور الشمس، وبدون سابق إنذار، أطلق ميرسو النار على الرجل وأرداه قتيلاً. وبعد سجنه أدلى بإفادته اعترف فيها بأنه قتل ذلك الرجل قصداً.

يروي لنا الجزء الأخير من الكتاب عن محاكمة ميرسو لأنها تختصر كل ما في هذه القصة وفي الحياة من عبثية. فعندما روى ميرسو قصّته، ضحك المحلّفون عليه، ليكتشفوا لاحقاً أنه لم يذرف دمعةً واحدةً على والدته التي توفيت للتو، ففضلوا كثيراً منه. لقد توصّلوا لاستنتاج بسيطة مفاده أنه لم يبكي في جنازة أغلى إنسان على قلبه،

ولذلك فهو إنسان بارد المشاعر، ميّت العواطف، مجرّد الأحاسيس، ولا يستحق أن يعيش. وحُكِمَ عليه بالإعدام ليس بسبب جريمته التي ارتكبها بحق ذلك الرجل بل للجريمة التي ارتكبها بحق المجتمع. فهذا السلوك غير اللائق جعل من شخصاً "غريباً" عنهم لذلك قرروا قتله واقتلاعه من صفحات التاريخ. وقبل تنفيذ عقوبة الإعدام بحقه، أرسِلَ إليه كاهن للتحدّث معه والاعتراف وطلب المغفرة. ومع ذلك، عندما حاول الكاهن إنقاذ روحه (ربّما كان ميرسو لادينياً)، عضب ميرسو وطرده خارج الزنزانة. لقد كان مستعداً للموت، ولم يبقى لديه شيء مهم على هذه الأرض، وكانت كلماته الأخيرة «أريدهم أن يسكبوا كل كراهيتهم عليّ عندما يحين وقتي».

ما الذي يعلّمنا إياه كامو عن اللامبالاة

إنّ ميرسو بطل الرواية غير المبالِ يُشكّل شخصية لابدّ لنا من التوقف عندها. فمنذ البداية، نقف أمام مشهد غريب المفروض أن يكون فيه حزيناً، ويعرّفنا كامو في كتابه على ميرسو والحياة المحيطة به. أول كلمات وردت على لسانه هي "Aujourd'hui, maman est morte" وتعني "اليوم، أمي ميّتة". والأمر الأكثر غرابةً والذي يشكّل صدمة الطريقة التي استقبل بها هذا الخبر. ميرسو غير متأكّد ما إذا كانت والدته قد توفّيَت اليوم أو البارحة وذلك لأنّه لم يتأثّر بخبر وفاتها مطلقاً. والآن اسمحوا لي أن أقدّم لكم أفضل درسين عن اللامبالاة من إحدى أفضل روائع الأدب الفرنسي.

لامبالاة بالأحداث

ألبير كامو معروف من خلال عناوينه العديدة التي كان يعمل عليها. وجميع سماتها تتمحور أساساً حول الفلسفة الوجودية. لقد دمج الفلسفة في صلب كتاباته، كما أنّ

بعض شخصياته تركتنا نواجه العديد من التساؤلات الفلسفية العميقة. ويمكنك الشعور بذلك الخوف والقلق خلال متابعتك لمسيرة حياة بطل قصّة الغريب، ميرسو.

من الطريقة التي يتنقّل بها في الأرجاء إلى الطريقة التي يجيب فيها عن الأسئلة البسيطة، من السهل أن يميل المرء إلى التفكير بعدم وجود أي تطوّر في الشخصية. فبدلاً من الانغماس في التعقيدات، نرى أنّ بطل الرواية لديه أوضح نظرة إلى الحياة. ربما من المخيف جداً كيف لايبالغ ميرسو في تعقيد حياته بأكوام وأكوام من الأفكار المتراكمة. كانت الحياة بالنسبة له مثل التيار المتدفّق، ويمكننا رؤية ذلك منذ البداية. بمجرّد أن ينظر إلى البرقية المُرسَلَة المُحمّلَة بالأخبار السيئة، قال أنها لم تعنِ له شيئاً. «الأم توفّيت. الجنازة غداً. صديقك المخلص»، ذلك لايعني شيئاً. بالمعنى الفعلي، قد يعني ذلك الكثير، لكن بالنسبة لميرسو، فهو يدرك أنه لايوجد شيء آخر يمكن القيام به. إذا كان عليه أن يحزن، فإنّ ذلك لن يغيّر شيئاً. وإذا اختار أن يكون سعيداً، فلن يكون لذلك أي تأثير فعلي عليه. إنّ استقراره على اللامبالاة هو بمثابة تذكير بوضع الفيلسوف ديوجين في اليونان القديمة. كان الناس يتراكضون ويصرخون في المدينة التي كان يقيم فيها ديوجين مرعوبين من شيء ما مخيف أو ربما خطر محدق، لا أتذكّر. أخذ ديوجين وعاء الطين العملاق الذي يقطنه وبدأ بدحرجته لأعلى التل ثم أسفله. ثم يتوقف الناس ليسألوه ماذا كان يفعل. يقول لهم أنه كان يفعل ما يفعله الآخرون، لا شيء!! الصراخ والجري الأعمى لا يحسّنان الموقف.

افهَم حدودك

ثمّ يخبر ميرسو مديره بمصابه (وفاة والدته)، وكان واثقاً من أنّ مديره سيغضب قليلاً. وعندها يقرّر بطلنا أن يؤكّد أمام مديره: "هذا ليس خطئي". صحيح. في معظم الأحيان تحدث لنا أمور خارجة عن إرادتنا وسيطرتنا، ومهما بلغت درجة توتّرك

وغضبك، لن يُحدِث ذلك أي تأثير. كان بإمكان مديره إنهاء المحادثة بتململ عن طريق صرفه مع عبارة تعزية باردة منه، لكنّه فكّر ملياً في الأمر. في مثال آخر، نرى ميرسو مع صديقته، حيث يألفه ما اذا كان يحبّها. فيشير قائلاً أنّ ذلك لايعني شيئاً، ولكن ليس هذا ما كان يدور في خُلده. هناك إشارة ضمنية إلى أنه كان يعتقد أنّ ذاك يعني شيئاً، لكنّه قاسه بمقياس الأشياء في الحياة. لقد توصّل إلى نتيجة منطقية مفادها أنّ الأمر سينتهي على أيّة حال. تعلّمنا شخصية ميرسو درساً أن لا نتأثّر بأي شيء مهما كان: سواء كان أمراً جيداً أم سيئاً. كيف كان يتجاهل الموقف باستمرار ويقابل كل شيء ببرود ولامبالاة، بغضّ النظر عن مدى خطورته هي ثقة عمياء. إنّ إدراك أن القدرة التي نملكها لتغيير الأمور تعطينا القوّة وتساعدنا على تجاهل أي شيء يُلقى على كاهلنا، سواء كان جيداً أم سيئاً. تصبح الحياة أسهل وأبسط بكثير عندما نقبل بعدّة استقالات في حياتنا. وإحداها عدم قدرتنا على تغيير ما يحدث لنا. فبهذه "القدرة"، يمكننا قياس ومعرفة حدودنا وقدراتنا.

دليل نيتشه لتجاوز وجودك والتغلّب عليه

إبراهيم جركس

يصف نيتشه في كتابه الأشهر "هكذا تكلّم زرادشت" ما يمكن أن يتحوّل إلى واحدة من أكثر نظرياته شهرةً -نظرية الإنسان الأعلى أو Ubermensch. يشير مصطلح "الإنسان الأعلى" إلى مفهوم نيتشه عن الإنسان الذي تغلّب على نفسه حرفياً وتجاوز طبيعته البشرية. من حيث الجوهر، إنّ "الإنسان الأعلى" هو الذي تجاوز عبودية الشرط الإنساني ووصل إلى مرحلة التحرّر – حالة اللعب الحرّ والخلق المُبدع. يمكن النظر إلى هذه الحالة على أنها الفرد الصافي، وهو شخص غير مُثقَل بتأثيرات وسلطات المجتمع والآخرين. هذا الشخص يقرّر مصيره، ويخلق قيمه الخاصة، ويرقص مع الحياة على وقع نغمات روحه الخاصة.

يتحدّث نيتشه في كتابه "زرادشت" عن ثلاثة تحوّلات عقلية يجب أن يمرّ بها الفرد للوصول إلى مرحلة "الإنسان الأعلى". هذه التحوّلات هي إلى حدٍ ما توجيهية بطبيعتها، وبالتالي يمكن اعتبارها نوعاً من الدليل لتتجاوز نفسك وتبلغ مرحلة "الإنسان الأعلى"، أو تحرير روح المرء وعقله. دعونا نلقي نظرة أقرب على هذه الخطوات:

عملية التحوّل الأولى: مرحلة الجمل

أول مرحلة من مراحل التحوّل التي يتحدّث عنها نيتشه هو تحوّل الإنسان إلى جمل، يكتب قائلا: «ما الثقيل؟ هكذا يسأل العقل المُكابِد، وهكذا يجثو على ركبتيه، مثل الجمل ويطلب حملاً جيداً.

ماهو الأكثر ثقلاً أيها الأبطال؟ يسأل العقل المُكابد، كي أحمله وأغتبط لقوّتي» بعد هذا المقطع يواصل نيتشه سرد العديد من العناصر التي يمكن اعتبارها من أصعب تجارب الحياة الممكنة أو اختباراتها. ويشير إلى وجوب مطالبة الجمل بهذه الأعباء. إذا يكتب «أم هو هذا: أن نُحِبَّ أولئك الذين يحتقروننا، وأن نمدّ يدنا إلى الشبح عندما يريد أن يُرعبنا؟» ما يقوله نيتشه هنا هو أنه قبل أن يصبح "إنساناً أعلى" يجب عليه أولاً أن يتحمّل الكثير من الأعباء. يجب على المرء أن يجارب الخوف والحب والحقيقة والموت والارتباك والعطش والتوق للمعرفة وجميع الجوانب الأخرى للوجود البشري. الجمل يحتضن هذه التحديات ويرحّب بها باسم الواجب والنبل.

بعبارة أخرى، لايهرب الجمل من أثقال الحياة ولايشتّت انتباهه عنها. إنه يرحّب بالحياة ويحييها وجهاً لوجه ويتقبّل الصعوبات التي تطرحها أمامه من منطلق الشعور بالواجب. وبذلك، يتواضع الجمل ويشتدّ عوده ويقوى. فقط من خلال معاناته من هذه التحديات يتكسب الجمل القوّة والمرونة اللازمتين لتحقيق هذا التحوّل العقلي الأول.

عملية التحوّل الثانية: مرحلة الأسد

يمضي نيتشه ليصف كيف يدخل الجمل في النهاية "الصحراء الأكثر خَلاءً ووحدةً" قبل أن يتحوّل إلى أسد. يمكن تفسير استعارة الصحراء المنعزلة والخالية على النحو التالي: لقد بحث الجمل عن الصراعات التي يجب أن تطرحها الحياة أمامه ويعتنقها. وبفعله لذلك، يصبح الجمل معزولاً ووحيداً إلى حدٍ ما. لقد أصبح مختلفاً عن الآخرين وعن المجتمع الذي أنتجه. فيجد نفسه متسائلاً عن كل شيء، سواءً قيمته هو أو قيمة مساعية والهدف منها.

يمكن أن يُنظَر إلى الصحراء على أنّها مكان للأزمات الوجودية، حيث يتساءل الجمل عمّا إذا كانت توجد قوانين أو فضائل كونية توجّهه وتمنحه الهدف والمَغزى. بالنسبة لنيتشه، هذه القيم والفضائل والمبادئ الكونية غير موجودة، والجمل مضطرٌ لمواجهة هذا الاحتمال، وبالتالي يجب أن يتحوّل الجمل إلى أسد. يكتب نيتشه:

«[هنا] أسداً يستحيل العقل، يريد انتزاع الحرية، وسيداً يريد أن يكون في صحرائه الخاصة.

هنا يبحث عن آخر أسياده: عدوّاً يريد أن يصير لآخر أسياده ولآخر آلهته، ومن أجل النصر يريد الاشتباك مع أعظم تنّين. ماهو هذا التنين الأكبر الذي لم يَعُد يرغب فيه العقل سيداً وإلهاً؟ "ينبغي عليك" يُدعى التنّين الأكبر. لكنّ عقل الأسد يقول: "أريد". "ينبغي عليك" تسدُّ عليه الطريق مُلتَمِعَةً ببريق الذهب، حيوان حرشفي، وفوق كل حرشفة تلتمع مقولة "ينبغي عليك!" ببريق ذهبي. لكن ما ضرورة الأسد بالنسبة للعقل يا إخوتي؟ ما الذي ينقص دابّة الحمل والمكابدة المُتبَتّلة والمُعمَمَة احتراماً؟ خَلقُ قيم جديدة - ذلك ما لايقدر عليه الأسد بعد، أمّا اكتساب الحرية من أجل إبداعٍ جديد - فذلك ماتقدر عليه قوة الأسد. اكتساب الحرية وإعلان ال"لا" المقدّسة تجاه الواجب أيضاً، ذلك هو ما يحتاج إليه الأسد أيضاً.

اكتساب حرية ابتداع قيم جديدة- إنه الكسب الأكثر فظاعةً بالنسبة بعقلٍ مُكابد ومُفعَم بالاحترام. لكنه في الحقيقة مجرّد صيد وعمل حيوانٍ مفترس». حسناً، كان هذا الاقتباس طويلاً بعض الشيء، لكنه جزء رئيسي من النص. دعونا نتوقّف هنا قليلاً. عندما يكتشف الجمل أنّ الحقيقة الكونية والفضيلة العمومية قد لا تكونان موجودتان بالمرّة، سيكون أمامه خياران فقط: يمكن أن يسقط في فخّ العَدَمية ويرفض الحياة كونها بلا قيمة أو معنى ثم الانتحار، أو يمكنه المطالبة بحريته وخلق معانيه

وقيمه وفضائله الخاصة. لكي يصبح الجمل "إنساناً أعلى" من الواضح أنه عليه أن يتجاوز ذاته، وأن يرتقي.

للقيام بذلك على الجمل أن يدمّر أكبر عائق يقف أمام حريته الحقيقية: الواجب والفضيلة اللتان تفرضهما التقاليد والمجتمع. هذا ما يمثّله تنّين نيتشه الأكبر. كان الجمل عبداً للتنّين، وكان يعتنق تحديات الحياة وصعوباتها، لكنه كان يعيش دوماً وفقاً للقيم والقوانين المفروضة عليه من الخارج. ويمكن أيضاً اعتبار تنّين "ينبغي عليك" على أنه يمثّل ببساطة كل شخص يحاول أن يخبر المرء ويعلّمه كيف يعيش حياته ويملي عليه تصرّفاته.

يجب أن يرفض الجمل تنّين التقاليد والأوامر والنواهي هذا، لكنه عاجزٌ عن ذلك وهو في شكله المُحبّ للواجب هذا. لذلك عليه أن يتحوّل إلى أسد. إنّ تجاربه ومحنه قد ساعدته للحصول على القوّة الكافية ليصبح إسداً. إذ يرمُز الأسد للشجاعة والمثابرة وخيبة الأمل وحتى الغضب. في هذه الحالة فقط يكون العقل قادراً على إطلاق ال"لا" المقدّسة. هذه ال"لا" المقدّسة تمثّل الرفض المطلق لكافة القيم والقوانين والسيطرة الخارجية وجميع المبادئ التقليدية. كل ما يفرضه الآخرون، أو الأديان ودور عباداتها وسَدَنَتَها، والمدارس والمجتمع والمؤسسات، والحكومات، والعائلات، وجميع أشكال الإيديولوجيا والبروباغندا، يجب أن تُرفَض بصرخة زئير قوية وصاخبة.

هذا لايعني أنّ الأسد يعتقد أنّ جميع القيم والفضائل التي تفرضها مثل هذه الكيانات شريرة أو فاسدة بالمطلق، بل في الواقع يمكن أن تكون مفيدة وصالحة. ومع ذلك، فإنّ حقيقة أنها تنتمي إلى سلطة خارجية أو عليا تتطلّب رفضها. الإنسان

الأعلى هو فرد مُطلق، وبالتالي يجب أن يخلق ويُبدع قيمه الخاصة ووفق شروطه الخاصة.

التحوّل الثالث: مرحلة الطفل

بعد أن يُطلق الأسد صرخة ال"لا" المقدّسة، لايزال يتعيّن على العقل الدخول في مرحلة تحوّل إضافية ليصبح بعد في مرحلة "الإنسان الأعلى". يجب أن يغدو العقل طفلاً. يكتب نيتشه: «لكن قولوا لي يا إخوتي: ما الذي يقدر عليه الطفل ممّا لا يقدر عليه حتى الأسد؟ ولمَ ينبغي على الأسد المفترس أن يتحوّل ايضاً إلى طفل؟ براءةٌ هو الطفل ونسيان. بدءٌ جديد، لعب، دولاب يدفع نفسه بنفسه، حركة أولى، "نَعَم" مقدّسة. أجل، إنّ لعبة الابتكار يا إخوتي، تتطلّب "نعم" مقدّسة: إرادته الخاصة يريد العقل الآن، والذي يكون غريباً في العالم يكسب عالمه الخاص»

إذن، يرى نيتشه أنّ الأسد يجب أن يتحوّل مرّةً أخرى حتى ينسى. لقد تعرّض العقل للكثير من الضغوط والإكراه والاضطراب خلال مراحل تحوّلاته، لكن عليه أن ينقّي نفسه من الماضي وقيمه. وعند تقديم "نعم" المقدّسة، يؤكّد الطفل اللحظة، ويؤكّد عدم اليقين، ويؤكّد تدفّق الحياة وطاقتها. يصبح الطفل عجلة ذاتية الدفع، تماماً كما يمكن رؤية الحياة بنفس المصطلحات. يختار الطفل أن يتدحرج مع الحياة ويرقص ويلعب معها.

في النهاية، بالنسبة لنيتشه، ينبعث الابتكار الخلاّق والنقي من حالة اللعب هذه. عندما يتمكّن المرء من تحقيق عقل الطفل _عقل منغمس في اللحظة ومليء بالدهشة والمرح_ عندها يمكن للمرء أن يريد إرادته، ويخلق فضائله وقيمه، وبالتالي يخلق واقعه/ عالمه الخاص. وفي خضوعه لهذا التحوّل النهائي، يتغلّب العقل على نفسه

ويتجاوز ذاته، وينتصر على عالمه، ويصل إلى مرحلة "الإنسان الأعلى". هنا يحقّق العقل حريته.

ماذا نستخلص من هذا الدرس النيتشوي؟

قد يرفض البعض نظرية "الإنسان الأعلى" وتجاوز الذات والتغلّب عليها عند نيتشه، باعتبارها نظرية مثالية جداً وبعيدة المنال. لكنني أعتقد أنّ مجرّد التفكير في ذلك يُعَد قصراً في النظر. فمن نظرية الإنسان الأعلى يمكننا أن نستقي العديد من البديهيات المهمة والمفيدة لنا خلال حياتنا:

1] الألم ضروري للتحوّل الإيجابي، ويجب تقبّله واعتناقه لطالما اعتقدتُ بهذه الفكرة وكتبتُ عنها مطوّلاً إيماناً منّي بأنّ تولّد لدى الإنسان مفهوماً جديداً عن "السعادة".

في الأساس، إنّ الألم مهما كان نوعه (عاطفي، جسدي، وجودي، أياً كان) هو جانب مهم ومحتوم من جوانب حياتنا اليومية. ومعظمنا _وأنا كنت منهم_ يسمح له بأن يصبح مصدراً للقلق والحزن لأننا نشعر بالذنب حيال ذلك – ونتساءل: لماذا لسنا سُعَداء؟ وعِوَضاً عن ذلك، علينا أن ندرك أننا من خلال تجاربنا الصعبة ومِحَننا التي نمرّ بها خلال الحياة تجعلنا أشخاصاً أكثر مرونةً وأكثر تقديراً للحياة. كما أنّها تزيد من قوّتنا وعزيمتنا، ففي النهاية نيتشه هو القائل "ما لا يقتلني يزيدني قوّةً". وبالتالي يجب علينا أن نتقبّل حقيقة أننا لا نستطيع تجنّب الألم. بل كل ما علينا فعله هو محاولة تجاوزه والتغلّب عليه.

2] لكي نحرّر أنفسنا، علينا أن نَشُنّ حرباً ضدّ سيطرة السلطات الخارجية والتقاليد القديمة.

إذا كانت أفعالنا وأفكارنا تمليها علينا كيانات أخرى من خارجنا، لا يمكننا أن نتعرّف على أنفسنا جيداً. وبالتالي، لا يمكننا العيش بأصالة. أعتقد أنّ حياة وأفكار الآخرين لا تزال تمارس تأثيراتها على آرائنا وأفكارنا وحياتنا. لكنّ المفتاح هو ألا تتأثّر أبداً بشكلٍ أعمى أو أن تفترض بأنّ أيٍّ ما تظن بأنّك "تعرفه" حقيقة مطلقة. يجب علينا تطوير القدرة على استيعاب أي فكرة وتقبّلها، دون تبنّيها، والسماح لتلك الشذرات التي يتردّد صداها على أنها حقيقة أن تصبح جزءاً من رؤيتنا الفريدة والمتميّزة والمتغيّرة/ المتطوّرة باستمرار. يجب أن نجعل كل فكرة خاصة بنا وحدنا، ونغيّرها ونفهمها ونطوّرها حسب منظورنا الخاص.

3] علينا أن نستجمع الكثير من الشجاعة ونتحلّى بجرأة كبيرة لكي نقطع أسلاك الدمى التي تتعلّق بنا.

هناك سبب في كون معظم الناس يسيرون خلال حياتهم بشكل أعمى – إنّه لأمرٌ مرعبٌ البحث عن بديل. فاختيار السعي وراء الحقيقة والحرية بأيّ ثمن يقودنا إلى قضاء حياة مؤلمة ومنعزلة غالباً. ومع ذلك فالمكافئات عظيمة في قدرها. إنّ الشعور بالحرية والتوحّد والقوة والحب الذي يمكن للمرء بلوغه في السعي وراء وجود أسمى هدية لا توصف للتجربة الإنسانية. ولكن يؤكّد نيتشه أنه ينبغي علينا أن نصبح أسوداً لنتبع طريق النمو والتطوّر العقلي. يجب أن نجد في أنفسنا مكاناً بتصميم وجرأة لامثيل لهما للارتقاء فوق أولئك الذين يرغبون في السيطرة على حياتنا.

4] يجب أن يكون هدفنا التأكيد على الحياة والرقص معها: اللعب والابتكار كالأطفال.

لا يقبل الطفل الحياة فحسب، بل يمجّدها ويعشقها بالكامل. يدرك عقل الطفل أنّ أفكاره وتوقّعاته هي مصدر تجربته سواء أكانت إيجابية أو سلبية. وبالتالي، فإنه

يختار أن يعيش في حالة عفوية، وهادئة، واحتفالية. وبذلك يكون قادراً على "السير مع التيار" بدلاً من السباحة عكسه. إنه قادرٌ على الخلق والابتكار فقط لأنه يعيش بشكلٍ أصيل، مستفيداً من الخيال اللامتناهي للكون. ويجب علينا أن نهدف لبلوغ ذلك أيضاً.

فلسفة العَبَث

إبراهيم جركس

[1] منذ اللحظة التي يتمّ فيها إدراك اللاجدوى [العَبَث]، تصبح انفعالاً، أشدّ الانفعالات إزعاجاً، ولكن سواء كان المرء يستطيع أن يعيش مع انفعالاته أم لا، سواء كان يستطيع أن يتقبّل قانونها أم لا، ذلك القانون الذي يحرق القلب، الذي تسمو به تلك الانفعالات، الجواب على ذلك هو الجواب على السؤال كله»(1).

[2] يقول ألبير كامو في معرض تقديمه لكتابه أسطورة سيزيف: الجميع يعلم أنّ الآلهة قد ابتلت فرنسا بنزاعات لاتنتهي: ثورات، حركات عصيان مسلح، مقاومة، صراع من أجل الحرية وانتزاعها من أيدي طغاة تسلّطوا عليها متعاقبين، والتي سقطت لاحقاً في أيدي طغاة لاحقين بفعل ثقلها الخاص. لذلك ارتأت الآلهة _وهي محقّة في ذلك_ أن أسوأ عقاب يمكنها إنزاله على البشر يتمثّل في توريطهم في صراعات ونزاعات عبثية غير مجدية. وفي الوقت الذي اجتاحت فيه القوات النازية فرنسا، كان الفرنسيون قد خاضوا علّة ثورات ضدّ قادة وزعماء كانوا قد وعدوا الشعب بتحقيق الاستقرار وتحسين نوعية الحياة التي طالما حلم بها الشعب. إلا أنّ الثورة الفرنسية قد خلعت ملوكهم عن عروشها وقطعت رؤوسهم بالمقصلة. كما أنّها انخرطت في نشاطات كولونيالية استعمارية في القرن التاسع عشر، واستمرت على هذا المنوال حتى القرن العشرين. ومن ضواحي إحدى مستعمراتها البعيدة، الجزائر، خرج إلينا الفيلسوف والأديب الرائع ألبير كامو. ربما كانت الطبقة التي تنتمي إليها عائلته هي التي منحته منظور الطبقات المسحوقة، فعندما عبرت القوات الألمانية النازية

---

(1) أسطورة سيزيف، ألبير كامو، ترجمة زكي أنيس حسن، ص31.

الأراضي الفرنسية، لم يذهل كامو بالقيود التي فُرِضَت على الحقوق، والدمار الذي لَحِقَ بالتراث والحريات، وفقدان الهوية، ورهاب الروتين اليومي القسري، والخوف الذي انتاب الإنسان عند معرفته بأنّه مراقب دون أن يدري مدى شدّة وقوّة هذه الرقابة، غريب كيف احتفظ كامو بسلامة عقله.

إنّ فلسفته _العبثية/ المحال/ اللاجدوى_ تنصّ بأنّ فقدان الاستقرار، والتركيز، وانعدام الوضوح الفهم والألفة، ليست أعذاراً تخوّل المرء أن يخون نفسه أو يستسلم للعدمية والانتحار. مرةً أخرى، انقلبت حيوات الفرنسيين رأساً على عقب، تاركةً إياهم بدون أي شعور بالمعنى أو الهدف أو الغاية، أي بدون أمل بالغد، بدون أي سبب للوجود. لقد نظروا إلى وطنهم بنفس الطريقة التي توقع بها فريدريك نيتشه أنّ الناس سيحزنون على موت الله. أظهر كامو لأمّته أنه لا يوجد عذر يبرّر الانتحار، بالمعنى المجازي أو أي معنى آخر، وأنّهم وحدهم مسؤولون عن أفعالهم وأقدارهم. فمثل هذه الأمور لايمكن أن يعلّقوها طغاتهم أو مضطهديهم. كانت فلسفة كامو العبثية ابنة لحظتها وزمانها. ومع تكرار الحلقة، هُزِمَ النازيون واستعاد الفرنسيون حياتهم. لكنّ كامو لم يتخلّ عن فلسفته _الإنسان دائماً يعثر لنفسه على عبء ليلقي به على كاهله، لكنّ الزمن كان قد تغيّر. وتابع كامو قائلاً "أنني أرى أننا في هذا اليوم غير المعقول وعصر مابعد الحداثة العبثية حيث تتمركز قيمنا وتتمحور حول النزعة الاستهلاكية بدلاً من النضال من أجل التقاليد او ضدّها"، فنحن مرّةً أخرى، نشعر بانعدام الاستقرار في مساعينا الفكرية، ولايوجد سبب للمضي قُدُماً ضمن مجرّدات ومفاهيم الحياة الإنسانية، فإنّ كلمات كامو تضرب وتراً حساساً مرةً اخرى. إنّ إدراكنا للعبث ليس خطأً، إدراكنا للعبثية الفلسفية/ أو المحال الفلسفي ليس شيئاً مضلّلاً، إنما أسيء التعامل معه.

[3] يمكن تعريف الفلسفة الغربية بأكملها على أنها بحث عن مصدر للمعنى وفقاً للعلاقات المتعالية. أول جانب ميتافيزيقي واسع النطاق للفلسفة الغربية كان يتمثّل في أسطورة الكهف الرمزية لأفلاطون، حيث هناك الشيء وظلّه يمثّلات هذه العلاقة الميتافيزيقية المتعالية. في الظلال، يتعرّف أفلاطون على العالم الظاهري، عالم النواقص والأشياء غير المثالية. وفي الشيء، يرى أفلاطون مايعرض العالم الظاهري الذي يمثّل الأشكال المثالية الكاملة لذلك العالم. على سبيل المثال، قد نقول أنّ النعجة دولّي "نعجة"، ولكن لأنّ النعاج ليست كلها كدولّي، فشكل دولّي ليس كاملاً أو مثالياً. طبعاً، لم يسبق أن رأى أياً منّا النموذج المثالي للنعجة، لكنّ أفلاطون يجادل بأنّنا قادرون على استخدام كلمة مثل "نعجة" وفهمها بسبب هذه العلاقة. إنّ الأشياء الناقصة الموجودة في هذا العالم ماهي إلا "تصوّرات" للنموذج المثالي، جميع النعاج في العالم، مثلاً، أشكال ناقصة ونسخ معيوبة عن نموذج النعجة المثالي. هذه العلاقة بين الشيء الذي يسعى إلى التعالي وما يسعى للتعالي عنه يسمّى بالعلاقة المتعالية. لا عجب _وليس هذا من قبيل المصادفة_ أنّ الفلاسفة قد حوّلوا اهتمامهم شطر اللغة لإيجاد تفسيرات للطريقة التي نفكّر بها، وكيف نحصّل معرفتنا، وكيف نتفاعل مع بعضنا البعض. هل هي مصادفة أننا طوال تاريخ الفلسفة قد وصفنا الأشياء، وكيفية معرفتنا بها وفهمنا إياها عن طريق علاقات التعالي أيضاً؟ الطريقة التي نتعلّم بها لغة ما تتشابه كثيراً _إن لم تماثلها تماماً_ مع كيفية تعلّمنا أي شيء آخر. فالكلمة ومعناها يشكّلان علاقة متعالية. المعنى (المدلول) يمكّل الكلمة (الدال/ الإشارة/ الرمز). فمثلاً، كلمة "كلب" تستمدّ معناها من كلب حقيقي، موجود فعلياً، قد يكون جالساً قبالتنا، أو قد تكون لدينا فكرة عن كلب "قد" يكون جالساً أمامنا. هذه العلاقة ليست بالعلاقة الماورائية بمعنى أنّ الإله يعرض خيره على العالم، إلا أنه مثال رئيسي

عن علاقة متعالية من نوع آخر. علاوة على ذلك، إنّ العلاقة المتعالية هي علاقة ميتافيزيقية، بنية إدراكية-معرفية، أو وجهة نظر. فالكلب والكلمة الدالة عليه يبدو أكثر طبيعية ضمن سياقها المتعالي، لكنّ العلاقة بين كلمة وشيء ما أو فكرة ما هي علاقة متعالية مع ذلك.

[4] نحن نريد تصديق أسطورة الواقع. لا أحد منا يريد إدراك حقيقة أنّ كل ماهو هناك مجرّد تصوّرات ومفاهيم، وجهات نظر. لا أحد منا يدري ما الذي سيفعله بهذه الحقيقة عند إدراكها. لا أحد منّا يريد مواجهة حقيقة أنّ الواقع لا يتطابق أو يتناسب مع توقّعاتنا وتصوّراتنا. لاأحد منّا يريد التصالح مع المدى الذي يحدّ فيه الإدراك من آمالنا بالواقع.

[5] يجادل فريدريك نيتشه في كتابه "غسق الأوثان" أن أنظمة الفكر التي نخلقها تنبثق عن رغباتنا وأمانينا، إمّا عن طريق الاعتناق أو الكبت، وإنّ رغباتنا وأمانينا مصاغة من خلال حواسّنا ونزعاتنا الغريزية. إنّ أصل الرغبات ومنشأها غير عقلاني إطلاقاً، كما أنّ الطبيعة غير عقلانية أيضاً. ليس أنّها غير مرغوبة أو مُهمَلَة أو أنّ شيئاً ما خاطئ فينا، بل ببساطة لأنّ عقلنا يقوم على اللاعقل، منظومتنا الفكرية التي تتمحور حول المعنى والغاية والعدالة والمنطق والحقيقة، جميعها تنبثق عن هذه اللاعقلانية. لايمكننا إدخال الرغبات الغريزية والحواس ضمن منظومة عقلانية ما لأنّها لتخضع للعقل ببساطة. إنّ حالتنا المتنوّرة ومكانتنا الرفيعة كوننا نمتلك القدرة على التفكير والتأمّل الذاتي ليست هي مايدفعنا لأداء الأفعال واسلوكيات التي تصوغ حياتنا. لكنّ مكانتنا وشعورنا بالعظمة والأهمية هي التي تدفعنا إلى التفكير بأنّ حياتنا تنطوي على معنى أو غاية، كما أنّنا نحاول طمس بربريتنا ونوازعنا الوحشية البدائية وتزيينها تحت غطاء مختلف أشكال الأنظمة والمبادئ الأخلاقية والمنطقية والعقلانية،

وغيرها من المفاهيم الاصطلاحية الطنّانة. إنّ أمَلَنا اليائس بأنّ حياتنا ستعني شيئاً في النهاية يدفعنا إلى الجروح المفتوحة التي تسمح لنا بالتدفق بحيوية ومرح من منبع تفاهتنا وانحطاطنا بأقل قدر من المقاومة. فمثلاً، شخص مسيحي عتق وقديم يعتنق مذهبه منذ فترة طويلة يواجه لحظات من العبثية والتفاهية وعدم الأهمية، قد يمعن النظر فيها ويرى جميع المسيحيين الآخرين، الذين لم يواجهوا أية مشاكل مع مشاعر التفاهة وعدم الأهمية إطلاقاً. وينظر المسيحي العتيق من جديد إلى حياة هؤلاء الآخرين ويدرك كم كانت الأمور سهلة ويقول «لابد أنّ هذا هو الحق». ولكن إذا كان لِزاماً على المسيحي أن يأخذ نظرة أعمق وأكثر اتساعاً وينظر عبر هذا الجرح الذي اقترفه مجتمعهم المباشر، فإنّ ثقتهم بمكانتهم وأهميتهم ستتداعى. إذا رأوا التفاهة والعبثية في ماضيهم كما يرونها في حاضرهم، إذا رأوا اللاأهمية واللاجدوى لجماعتهم كلها بالطريقة التي يرونها فيها كأفراد، سيتناقص شعورهم بالأهمية والمعنى ويختفي. هذا الإدراك، هذا الفهم لعبثية المعنى والغاية الذي نقدّمه لأنفسنا على طبق من فضّة، هو بالضبط ما عناه نيتشه عندما قال: «الله مات، ونحن قتلناه». هذا لايعني بالضرورة سقوط الدين حصراً. فما يسعى إليه نيتشه هو تفكيك أي منظومة فكرية أو عقائدية أو أخلاقية تدفع الإنسان للإيمان بأنّ لديه هدف أو معنى، أي مشروع لا يؤدّى لذاته، بل على أمل تحقيق مساعي أعلى وأرفع. لأنّ آمالنا التي نعلّقها على أنفسنا عالية جداً، يخشى نيتشه من العدمية التي ستنشأ نتيجة لذلك. نعم، علينا أن نتخلّى عن كل أمل بصورة قصدية وطوعية بدلاً من فقدانه بالصدفة ورغماً عنّا. ولكي نفعل ذلك، علينا أن نجرّب أفكاراً وبدائل أخرى بقدر ما نستطيع، لا من أجل وعد ما أو أمل ما بالحصول على حواب ما لمشاكلنا ومشاغلنا، بل من أجل التجربة بحدّ ذاتها. على سبيل المثال، خلق عمل فني ما فقط من أجل عملية الخلق الفني بدلاً من مجرّد

توليد شعور وهمي بالعظمة بداخلنا. وهذه العملية، بشكل أو بآخر، يطلق عليها نيتشه اسم "العلم المرح".

الخوف من الموت من وجهة نظر فلسفية

إبراهيم جركس

منذ زمنٍ بعيد، وفي قلعة تحوّلت منذ زمنٍ بعيد إلى خَراب، كان ينام ملك، مغطّى بعرقه البارد. كان يحلم، بل بالأخرى كان يرى كابوساً. لقد رأى نفسه يقف وسط سهلٍ مفتوح، تغطّيه زهور الأقحوان، وكان يقف وحيداً - لم يكن هنا أحد في الأفق.

من زاوية عينه، طَرَف ظلاً باهتاً يقترب. مَدّ الظل يده ووضعها على كتف الملك. لمسة الظل أسرت قشعريرة باردة عبر عموده الفقري.

«لا تَخَف... ليس هناك شيئاً لتخشاه. عادةً أنا آتي بدون إبلاغ. ولكن كونك كنتَ ملكاً عظيماً وصالحاً، قد جئتُ لأعلمكَ بزيارتي لك في الغد» بشكلٍ ما عرف الملك الإجابة في صميم قلبه، لكنّه اختار أن يسأل الظل بالرغم من ذلك: «مَنْ أنت؟» «أنا الموت. أنا موتك. تحضّر، فسنلتقي غداً عند مغيب الشمس» بهذه الكلمات انتفض الملك في مهجعه متعرّقاً، مرتجفاً من رأسه إلى أخمص قدميه. استدعى على الفور مجلس حكماءه وأخبرهم عن حلمه، وطلب مشورتهم.

تناقش الحكماء فيما بينهم المسألة المطروحة، واختلفوا حول مدى جدّية هذا الحلم وما إذا كانت هناك حلول ممكنة. واستمرّ الوضع على هذا النحو حتى طلوع الفجر، لكن بدون جدوى.

كان بين الحكماء رجل عجوز وحكيم خدم الملك لعقود عديدة، قال له: «هؤلاء المفكّرون العظماء لايتوصّلون لحلول أبداً. فليذهبوا للجحيم هم وأحاديثهم التي لا طائل منها. استمع إلى نصيحتي بدلاً من ذلك _امتطِ أسرع جوادٍ لديك، وابتعد عن هذه القلعة قدر الإمكان. ولا تَنطلق في رحلة العودة إلى هنا إلا مع غروب الشمس» .

انطلق الملك على جواده. لم يتوقف للطعام ولا للشراب. ببساطة لم يَكُنْ هناك وقت. لكنّ الحصان أصابه التعب والإرهاق، وانهار على الأرض في النهاية.

لحسن الحظ، كانت الشمس قد غابت بالفعل، ولم يكن الملك قريباً من القلعة، كان المكان آمناً، أو هذا ما اعتقده.

ما أن تنفّس الملك الصعداء، شعر بيد باردة على كتفه. لقد وصل الموت وقال له: «كنتُ قلقاً من ألا تصل في الوقت المناسب» .

شعر الملك أنّ الحياة بدأت تنساب منه. انهار على الأرض كما انهار جواده قبله. لم يكن الأمر مؤلماً _العشب خفّف من سقطته. وآخر شيء رآه الملك قبل أن يرتطم رأسه بالأرض، صفوف زهور الأقحوان التي بدت مألوفة بالنسبة له.

الموت جزء حيوي هام من الحياة ومتأصّل فيها. لا مجال للإفلات والهرب منه، مع أنّ البشرية لطالما بذلت جهودها لتحقيق ذلك. في يومٍ ما، سوف تموت. قد يكون بعد شهرٍ أو شهرين من الآن، عندما يقع حادث مأساوي، كما تحدث غالباً. ربما قد يقع بعد ستين من الآن، تقضي حياتك في حالة سبات. أو ربما تمرّ عقود عديدة لتموت في المستشفى، يتحلّق حولك أولادك وأحبّاءك بينما يتلاشى سقف المستشفى من أمام عينيك ثم تغفو غفوتك الأبدية.

الطريقة التي سيحدث بها الأمر غير مؤكّدَة إلى حدٍ كبير. لكنّ حدوثه محتوم ومضمون. لا بأس في ذلك حقيقة، الموت حَقّ - وليس هناك ما نخشاه منه. الموت لا يخيفني ولا ينبغي أن يخيفك أيضاً. إليك الأسباب:

1] البديل عن الموت سيكون أسوأ بكثير «إنَّ الآلهة تحسدنا لأننا فانون» هذا ما قاله آخيل للأميرة برسيس في الإلياذة. أكره أن أخرّب عليك فقاعة أمانك _حسناً أنا أستمتع في ذلك قليلاً_ لكن هذه هي الحقيقة: الخلود أمر رديء.

يتوق الإنسان إلى التجديد، وبعمر لانهائي، ستزداد الأمور الجديدة ندرةً مع مرور الوقت. بعد مرور فترة من الوقت ليست بطويلة (ألف سنة أو أكثر بقليل) ستكون الشيء الوحيد الذي ترغب به هو الرغبة ذاتها. ستكون الحياة مملّة بشكلٍ لايُطاق – ستتمنى لو كنتَ ميتاً. فقط فكّر في الأمر وراقب قناديل البحر الخالدة، هل رأيت واحداً منها مبتسماً؟

2] من الناحية التقنية، لن تموت طبعاً إنّ عملية وتجربة المَوات أو الاحتضار الزامية. لكنك لن تشعر بالموت بحدّ ذاته. لأنك أنت وموتك لايمكن أن تتواجدا في نفس الوقت وفي آنٍ واحد. يقول أبيقور في حكمه الأساسية: «الموت، أفظع الحوادث، لاشيء بالنسبة إلينا، إذ يفقد الشيء الذي ينحلّ القدرة على الإحساس، والشيء الفاقد للإحساس هو لاشيء عندنا. لذلك، عندما أوجد لا يوجد الموت وعندما يكون الموت لن أكون موجوداً». هل يبق أن أُغمِيَ عليك، أو فَقَدتَ الوعي أو دخلت في نومٍ عميق من قبل؟ كيف كان شعورك آنذاك في تلك اللحظات التي كنت فيها فاقداً للوعي؟ لاشيء -صحيح؟ لاشيء على الإطلاق. انعدام التجربة ليس تجربة جديدة.

3] لاشيء جديد في تجربة الموت–حقاً، لقد كنّا هناك من قبل. كنّا هناك طوال ملايين السنوات قبل أن نولد، كنّا معدومين، في فضاء العَدَم، ثمّ وُلِدنا. لم يكن الأمر بذلك السوء أليس كذلك؟ «انظر إلى الوراء وشاهد كيف أنّ عصور الأبدية التي انقضت قبل ولادتنا لم تكن شيئاً بالنسبة لنا. وهذه مرآة ترينا من خلالها الطبيعة كيف سيكون الأمر بعد موتنا. هل ترى أيُّ شيء مخيف في الموضوع؟» لوكريتيوس

4] الموت ما يمنح الحياة معنى غالباً ما يكون "قضاء الوقت" بدلاً من "تضييع الوقت" أمراً مدفوعاً بوجود الموت نفسه والاعتراف به. لتعرف أنّ وقتك قصير وأنّ

أيامك معدودة -تلك المعرفة لا تدعو إلى الحزن والاكتئاب، بل مجرّد دافع لعيش لحظة الحاضر بكل تفاصيلها والاحتفال بها.

الموت للوجود، ولتحيا الحياة

يقول الكاتب الصحفي ستيوارت أيسوب: "الإنسان المحتضر يحتاج إلى الموت، كما يحتاج الرجل الإنسان النعسان إلى النوم. وتأتي لحظة تكون فيها المقاومة خاطئة وغير ضرورية".

تتحمّل الأمّهات آلام الولادة لإنجاب الأطفال. كما يثابر الرياضي من خلال التدريبات الصارمة للمحافظة على نفسه ولياقته. ويكافح الكاتب مرات كثيرة من الرفض قبل أن ينجح في نشر كتابه وبلوغ الشهرة. وبالمثل علينا ببساطة أن نقبل عدم فَنائنا وعدم ديمومتنا لكي نعيش حياة ذات معنى. لذا أنا لا أخاف الموت. ولا ينبغي أن تخافه أنت.

الفلسفة كأسلوب حياة

إبراهيم جركس

[1]: الحياة المفحوصة

قليلاً جداً مانسمع الحديث التالي يدور بين الأصدقاء أو الأزواج أو الأقارب: الشخص: مرحباً ياصاح، ما الذي تنوي فعله اليوم؟ الصديق: ما رأيك بأن نتعاطى بعض الفلسفة اليوم! الشخص: يبدو أمراً ممتعاً. الصديق: هيا لندعو بعض الأصدقاء. حسناً، لنواجه الأمر. طوال المئة أو المئتي سنة الماضية لم تكن الفلسفة موضوعاً جذّاباً في ثقافتنا. ولكن أرجو أن يتغيّر هذا الواقع. لأن هذه الممارسة الأعمق والأكثر إثارة والأكثر ممارسةً من قبل عقل أي إنسان مهما كان بسيطاً قد تمّ إساءة فهمها بما يكفي. ربما لم يكن هناك أي نشاط تمّت إساءة فهمه والتعامل معه أكثر من الفلسفة. لقد لخّص المؤرخ الأمريكي هنري آدامز مجمل تاريخ الفلسفة على أنه مجرد «إجابات غير مفهومة للمشاكل العالقة». وإذا رجعنا بالزمن إلى القرن السادس عشر نرى أنّ المفكر و"الفيلسوف" الفرنسي ميشيل دي مونتين أعلن أنّ "الفلسفة هي الشك". بالتأكيد مَنْ مِنّا يحبّ الشك؟ الشك أمرٌ غير مريح أبداً. وقد يكون الشكّ مخيفاً. أمّا |الفيلسوف| الألماني الجامح فريدريك نيتشه مضى خطوة لأبعد من ذلك ليُشَبّه الفلسفة «بالعبوة الناسفة، في حضورها يكون كل شيء في خطر». كم بتنا نسمع من النكات والطرائف التي تستخف بالفلسفة وتقلل من قيمتها وأهميتها. ففي الأزمنة القديمة، أعلن المفكر وروجل الدولة الروماني الشهيرشيشرون: «لايوجد شيء عبثي أة سخيف لم يقله فيلسوف». طبعاً هو نفسه كان فيلسوفاً.

الفلاسفة مجانين!... غريبي الأطوار!... كئيبين!... سوداويين! وأحياناً بوهيميين!... عندما نسمع كلمة "فيلسوف" سرعان ما تخطر في بالنا الصورة الحديثة للفلاسفة بأنّهم شخصيات غريبة الأطوار، والمظهر والملابس، أفكارهم غريبة وغير اعتيادية. كان سقراط شخصاً اجتماعياً يحبّ التنزّه في الطرقات وحضور حفلات التعارف والانخراط في أحاديث مع أي شخص لديه القدرة على خوض نقاشات فلسفية. بالنسبة له، لم تكن الفلسفة موضوعاً مجرّداً عقلياً وجامداً، ألعوبة للمتحذلقين والأكاديميين، بل مكوّن أساسي لحياة سليمة وواضحة ومستقيمة. حتى أنّه مضى لقول مقولته الشهيرة التي تُزعَمُ أنّه قائلها، والتي تحوّلت إلى مَثَل شهير «الحياة غير المفحوصة غير جديرة بأن تُعاش». ولكن مامعنى هذا التصريح بحق الله؟ الجميع يعرف معنى مقولة "هذه السيارة تساوي مليوني ليرة سورية"، أو"هذا القميص يساوي ألفي ليرة"، أو أنّ"هذا الحذاء لايساوي أكثر من خمسة آلاف ليرة"؟. ما معنى أن نقول نفس القول عن نمط معيّن من الحياة – مايسمّيه سقراط بنمط "الحياة غير المفحوصة"_ الذي يستحق أن يُعاش؟ عملياً، يقال عن أي شيء أنّه "يساوي" أو "يستحق" عندما تكون قيمته مساوية أو أعظم من السعر الذي يُدفَع من أجله. وعندما أرغب بشراء أي شيء فأنا أتساءَل ما إذا كان هذا الشيء فعلاً يساوي أو يستحق الثمن المطلوب فيه؟ هل صفاته وخصائصه تستحق كَمية المال المطلوب فيه؟ زوج الأحذية الذي يراه الثري في نظره أنه يستحق سعره أو كمية الأموال التي يدفعها من أجله قد يراه الفقير باهظٌ جداً. إذاً على الأفراد الأقل ثراءً العمل جيداً وبذل جهد أكبر وقضاء ساعات أطول في أعمالهم لإنتاج نفس الكمية من الأموال لدفع مايستحقه هذا الحذاء من المال. لذا يتوصل الفقير إلى نتيجة مفادها أنّ الحذاء لايستحقّ ثمنه أو سعره الذي طُلِبَ منه. ولكن كيف يتماشى هذا الحكم

المألوف مع مقولة سقراط الشهيرة؟... ما هو ثمن الحياة غير المفحوصة؟... ماذا تستحق فعلاً؟... حسناً، علينا أولاً أن نفهم ماذا كان سقراط يعني بالضبط بهذه العبارة؟ ما المقصود "بالحياة غير المفحوصة"؟ لسوء الحظ، إنّه ذلك النمط من الحياة الذي يعيشه أغلب الناس: الاستيقاظ صباحاًن ارتداء الملابس، تناول طعام الإفطار، الذهاب للعمل، استراحة الغداء، ثمّ العودة إلى العمل، العودة إلى المنزل، تناول الطعام مجدّداً، مشاهدة التلفاز، تصفّح الجرائد أو المجلّات، تبادل بعض العبارات والمجاملات أو الجدالات مع افراد العائلة، أو مع أصدقاء عبر الهاتف، تبديل الملابس وارتداء ثياب النوم، الخلود إلى السرير، ثمّ النوم بعمق جرّاء الإرهاق والسأم. ليتكرّر نفس الروتين في اليوم التالي مع بعض التغيير في التفاصيل، مرّةً بعد مرة بعد مرّة، على مدى شهور وأعوام، وربّما عقود، بدون حتى مجرّد التفكير بما يعنيه كل ذلك أو كيف يجب أن نمضي حياتنا بصورة أفضل وأكثر حيويةً وعَطاءً. نحن نستيقظ صباحاً ونحن مسبقاً في خضمّ يَمّ الحياة. الطّوافة راسية فعلاً عند الشاطئ، والتيار يسير بنا إلى الأمام فعلاً. عندما كنّا صغاراً، كان الآخرون يقرّرون ماذا نلبس وماذا نأكل وكيف نأكل، ومواعيد تناولنا الطعام ولَعِبنَا ونومنا واستيقاظنا. في كثيرٍ من الأحيان، حتى بعد أن كبرنا وغدونا راشدين، لايزال الآخرون يقرّرون مانقوم به خلال يومنا. نحن نتّخذ عشرات القرارات يومياً، ونختار عدّة خيارات، لكننا نحدّد خياراتنا ضمن طيف ضيّق جداً من الخيارات المحدودة والمُتاحة التي يقدّمها لنا أصدقائنا وعائلاتنا ومُدَرائنا وبيئتنا. نادراً ما نتوقّف قليلاً مع أنفسنا ونتأمّل حياتنا وما نريده فعلاً من الحياة، أن نتأمّل حقيقتنا وما نريد أن نكونه، أن نفكر بالفرق الذي نرغب بإحداثه في هذا العالم قبل أن نرحل عنه. وهذا هو معنى الحياة غير المفحوصة _الحياة المُعاشة في مستوى معيّن كالسائرين نياماً، نهدر الساعات والأيام والشهور

والسنوات. إنّها الحياة التي نعيشها في وضع الطيار الآلي_ حياةً قائمة على قيم ومعتقدات لم نتأمّلها أو نتفحّصها من قبل، ولم نختبرها أو نعيشها بالشكل المطلوب، ولم نجرّبها بأنفسنا. يبدو أنّ أغلب الناس يخافون عملية الفحص الذاتي، كما لو أنّ إعادة النظر في معتقداتهم وقيمهم الرئيسية وإعادة تقييمها يمثّل تهديداً بطريقة ما. لكنّ الفحص الفلسفي التأملي لمعظم افتراضاتنا ومعتقداتنا والتزاماتنا الأساسية ليس بالضرورة ذو تأثير أكّال، بل على العكس من ذلك قد يكون له تأثير تطهيري أو تنقوي. إنّ الهدف الرئيسي للفحص الفلسفي ليس النقد بالمعنى السلبي أو الانتقاد الأجوف، أو أي نوع من الرفض والإقصاء والاعتراض. الهدف الأساسي هو الفَهم. ومع ذلك، غالباً ما يؤدّي مقدار أكبر من الفهم إلى إعادة التركيز وترتيب الأولويات: التخلص من الأنشطة والعادات غير الضرورية وغير المهمة وتبنّي آراء الآخرين ومعتقداتهم _أي إعادة التوازن إلى حياتنا وتغييرها بطريقة إيجابية نحو الأفضل. أمّا الحياة غير المفحوصة من جانب آخر ليست بالفهم العمق والمركّز للحياة. إنّها ليست توجيه إيجابي لحياتنا نحو الأفضل. ونحن ندفع ثمناً باهظاً لعيشنا هذا النمط من الحياة. ماهو هذا الثمن؟ يحدّده سقراط فعلاً عندما يقول أنّ هذا النمط من الحياة، نمط الحياة غير المفحوصة، لايستحقّ ما تدفعه من ثمن_ فهو يقول ببساطة أنّ نمط الحياة هذا غير جديرٍ بأن يُعاش. الثمن الذي ندفعه يتمثّل في حياتنا كلها. ولن ندفع ثمناً باهظاً كهذا لأي شيء فيها. لاحظ أنّ سقراط لم يَقُل أنّ الحياة غير المفحوصة لاتستحق أن ندفع ثمناً لها. فهو يترك الباب مفتوحاً أمامنا إذ أنّ هناك بعض القيم والعادات الإيجابية موجودة في أي نمط من الحياة مهما كان، مهما كانت سطحية أو بسيطة أو غير مفحوصة. قال هذا الفيلسوف العظيم أنّ هذا االنوع من الحياة غير المفحوصة لايستحق الثمن الباهظ الذي ندفعه من أجلها _أي تكريس كل جهودنا

وطاقاتنا في اتجاهات وخيارات ليست من اختيارنا شخصياً. أمّا الفلسفة من ناحية أخرى _بوصفها نشاطاً فكرياً تأملياً بَنّاءً وإيجابياً_ تمنحنا السبيل لقضاء حياة أكثر حكمةً وتنوّراً، وتكريس جهودنا وطاقاتنا الحياتية في أمور قد ثَبُتَ استحقاقها للأثمان التي ندفعها لها. إذن، هل الحياة المفحوصة محكومة بأن تكون جديرة بأن تُعاش؟ هل هذا النمط من الحياة _وحده_ جديرٌ بأن يُعاش؟... لا يقول سقراط شيئاً حول الأمر. لكنّ عبارته الشهيرة عن الحياة غير المفحوصة يبدو أنّها تتضمّن هذه النتيجة. لكنّ الفيلسوف الحكيم يتركنا لنستخلص هذه النتيجة من تلقاء أنفسنا، عن طريق مراجعة أنفسنا وفحص حياتنا. وأنا أتمنّى أن تكون عزيزي القارئ قد وجدت الفائدة في هذه المقالة وأن تجد في المقالات اللاحقة سبيلاً لتفحص حياتك وتعيد تركيزك على حياتك وترتيب أولوياتك. «اجعل من معرفة نفسك شغلك الشاغل، وهذا أصعب درس عليك أن تتعلّمه بالعالم» ثيرفانتيس.

[2]: الأسئلة التي ينبغي طرحها

يجب أن ندرس جميع الأسئلة المتعلقة بمسائل الإيمان، والريبية، والمعرفة، والخير والشر، وحرية الإرادة والجبرية، الموت وما بعده، وجود الله، ومعنى الحياة. لابُدّ أن نمسّ معظم مجالات الفلسفة الرئيسية كالأبستمولوجيا والأخلاق والميتافيزيقا، وفلسفة الدين. ونستشهد بأعظم وألمع الفلاسفة عبر التاريخ. • هنا لابد أن ندرس احتمال وجود إجابات عن الأسئلة التالية: _كيف نعرف أي شيء؟ _ما أهمية العقل ومكانته في الحياة؟ _ماذا تعني كلمة "الخير" حقاً؟ _هل الأخلاق مسألة وجهة نظر ورأي، أم أنّ الأحكام والقيم الأخلاقية الموضوعية موجودة ومُلزِمَة لكل شيء؟ _لماذا يجب أن نكون أخلاقيين؟ _لماذا يختلف الناس كثيراً حول الأخلاق والمبادئ الأخلاقية؟ _هل الناس أحرار فعلاً؟ أم أنّ أفعالنا كلها مقرّرة بالوراثة

والبيئة؟ _هل يمكن لأحد أن يتنبأ بالمستقبل، وبالتفصيل؟ _ما الفرق بين الكائن البشري والرجل الآلي؟ _هل للبشر أرواح، أم أنّنا مجرّد آلات ميكانيكة معقّدة؟ _ما الموت؟ _لماذا يخشى أغلب الناس الموت؟ _هل نستمر بالبقاء بعد موتنا؟ _من أين يأتي مفهوم الله؟ _هل الله موجود؟ _لماذا الشرّ مُتَفَشٍّ لهذه الدرجة في العالم؟ _أيمكن لأحدٍ إثبات أنّ الحقائق أمور مطلقة، أم أنّ علينا القبول بها كمسائل إيمانية؟ _ما الإيمان إذن؟ _ما هو معنى الحياة؟ _كيف يمكن للناس أن يكونوا سعداء؟ «من الأفضل طرح بعض الأسئلة، على أن تعرف جميع الإجابات» [جيمس ثوربر].

الفلسفة كنشاط

الفلسفة ليست مجرد نظرية... بل نشاط» [لودفيغ فتغنشتاين 1889-1951]

إنّ الفلسفة في أحسن الأحوال نشاط فعّال أكثر من مجرّد كونها مجموعة من المعارف، وبالمعنى التقليدي القديم، لو مُورِسَت بشكل حكيمٍ وصحيح، لكان لها دوراً هاماً في العلاج، فهي فَنّ الشفاء. إنّها أحد الفنون القتالة الفكرية. إنّها نوعٌ من العلاج النفساني. لكنّها أكثر من ذلك بكثير. الفلسفة أداة لرسم خرائط الروح، دليل رحلة الإنسان. إنّها أداة مِلاحة بالغة الأهمية كم أجل الحياة مازال أغلب الناس في العصر الحديث يعيشون من دونها ويقضون حياتهم في التيه والضياع. حسب قول الإمام علي بن أبي طالب «الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا» يمكن أن تكون الفلسفة أشبه بالحدّ الخارجي للعقل. إنّها علم المغاور والكهوف العقلية، وتسلق الصخور الفكرية الشاهقة، والصراع الإدراكي، والتجديف واستكشاف أدغال الذهن. في بعض الأحيان قد تبدو الفلسفة كأنّها نسخة مفاهيمية من ألعاب القوى. في تلك الأوقات التي ندفع فيها بالتحقيق الفلسفي إلى حدود وجهات نظرنا إلى العالم، نجد

أنفسنا أننا تخلّينا مؤقتاً عن افتراضاتنا ومعتقداتنا المعتادة، وسقطنا سقوطا فكرياً حراً، على أمل أن يُفتَحَ المزلاق عند حاجتنا إله. وعندما نفعل ذلك، الهدف من ذلك هو اختبار الحدود الخارجية لمعتقداتنا العادية، لفهم حالة افتراضاتنا الأكثر أهمية، تلك القناعات التي تدعم وتعزّز وجهات النظر والقرارات التي تحكم حياتنا وأعمالنا الاعتيادية اليومية، والتي عادةً ما نتّخذها كمسلّمات. نحن نُسائِل الأشياء بأقصى ما نستطيع، من أجل فهم أكبر قدرٍ ممكن من العمق. والهدف النهائي هو أن نقبض أكثر على ماهيتنا ونفهم مكانتنا في هذا العالم. ولكن أغلب الأحيان، يمكن اعتبار الفلسفة كمجموعة من مهارات البقاء الوجودية، فضلاً عن التطبيق المُصَمّم لتلك المهارات خلال نوعٍ من مهمات البحث وإنقاذ الأرواح. الفلسفة ليست مجرّد لعبة أو تسلية. إنّها ليست مجرد رياضة ذهنية، إنّما هي خوض في مجاهل الحياة واستكشاف أغوارها وقممها لعيشٍ أفضل وأهنأ وأكثر اكتمالاً وتحقّقاً.

استكشاف الطريق نحو الأمام

إنّ استشارة المفكرين العظماء السالفين، أثناء وضعنا لخرائطنا الفلسفية الخاصة بالحاضر والمستقبل، يشبه إيقاف سيارة أجرة أو شرطي مرور لسؤاله عن الاتجاهات، بدلاً من التجوّل حول المكان تيهاً كالضائع. هذا يعني الحصول على مشورة أولئك الذين يعرفون الطريق والاتجاهات، والذين قَطَنوا قبلنا في الحي ويعرفونه كراحة أيديهم. طبعاً نحن نقوم بعملية البحث والاستكشاف من تلقاء أنفسنا، ولكن لا بأس ببعض النصائح والمساعدة. خلال أي بعثة استكشافية إلى أي أرض أو منطقة مجهولة، يجدر أن يرافقها مرافق من السكان الأصليين كدليل لإرشادها على الطريق بين الأدغال، لكنّنا نحن من يجدر بنا أن نتحمّل أثقالنا ونرفع أحمالنا بأنفسنا على التل. نحن نتشارك مع المفكرين العظماء الذين مضوا قبلنا، ونحاول بمساعدة منهم شق

طريقنا واستكشاف حقائقنا الخاصة. كتب المفكّر والفيلسوف الأمريكي الشهير رالف والدو إيمرسون أنّ الشبّان والوُدَعاء ينشأون ف المكتبات، معتقدين أنّ من واجبهم تقبّل الآراء التي يقدّمها كلٌّ من شيشرون، ولوك، وبيكون، ابن رشد، وابن سينا والفارابي، لكنّهم ينسون أنّ هؤلاء كانوا أيضاً شُبّاناً وُدَعاء نشأوا في مكتبات عندما صاغوا آراؤهم وقدّموا أفكارهم وكتبوا كتبهم. قد يقول ايٌّ منا "لكن مَنْ أنا لأفكّر بهذه الأفكار؟". حسناً، مَن كان يظنّ نفسه سقراط عندما صاغ أفكارها ونشرها بين تلاميذه؟ مَن كان أفلاطون؟. كتب الفيلسوف والخطيب سينيكا في القرن الأول: "الفلسفة لم تأتِ وتجد أفلاطون إنساناً مجيداً، بل هي من جعلته كذلك". إنّ عملنا الأساسي ينحصر في طرح هذه الأسئلة كما كان عملهم كذلك. إنّه شأننا كما كان ذلك شأنهم. لكن لأنهم كانوا أول مَنْ طرحوا هذه الأسئلة وشرعوا في العملية، فبإمكاننا الاستفادة والإفادة من أفكارهم. "مَن يُخالِط الحكيم يغدو حكيماً" [ميناندر]

كلمة لابد منها

نحن نسترشد بكتابات فلاسفة قدماء أمواتاً ليس بحثاً عن كلمات أخيرة ختامية أو إجابات نهائية جاهزة، ولكن نطرحها لكي تساعدنا على الانطلاق في مشروعنا الاستكشافي الخاص بنا، مستفيدين من الأفكار والدروس العِبَر التي مَرّ بها هؤلاء واختبروها واستكشفوها، هؤلاء الذن شرعوا في الرحلة قبلنا. كتب الفيلسوف وليام رالف إنج في بداية هذا القرن: "إنّ موضوع دراسة الفلسفة هو معرفة المرء لعقله، وليس عقول الآخرين". لذا عندما نمارس الفلسفة ونعيشها كأسلوب حياة وفنّ للعيش، فإنّنا نلجأ لكتب الفلاسفة والمفكرين الماضين لا لكي نجرّد ونختبر آرائهم،

أو نجمع الإجابات التي نريد استخلاصها منهم، بل نطلب المساعدة والإلهام اللذين نحتاجهما منهم لتأدية دورنا كفلاسفة ومفكرين على أكمل وجه.

[3]: قوّة المعتقد

بادئ ذي بدء، اسمحوا لي أن أورد هنا درساً هاماً تعلّمته عن دور الاعتقاد والإيمان في حياتنا. إنّه يستعرض حاجتنا الملحّة إلى دراسة الفلسفة وإتقان فن التفلسف بصورة استثنائية. كنت قد شاهدتُ فيلماً عن رجل لطالما أراد أن يمتلك شوّاية غاز، كان ذلك النوع من الشّوّايات التي تحتوي عبوة غاز تحتها، لكن لطالما حذّره الجيران والأصدقاء من مخاطر غاز البروبان، فهو سريع الاشتعال حَدّ الانفجار. وقالوا أنّ مجرّد استنشاقه أمرٌ في غاية الخطورة، فهو غازٌ عالي السُّمّية أيضاً. وقال أنّه يذكر أنّه قرأ في مكانٍ ما أنه في حالته الطبيعية غاز عديم الرائحة، لكنّ المصافي تضيف إلى رائحة زائدة حتى يتيسّر للمستهلك تمييز أي حالة تسريب للغاز وتجنّب وقوع أي حوادث محتملة. في يومٍ من الأيام، وفي عيد الأب بالتحديد، اتفقت العائلة على شراء الشّوّاية وإهدائها إلى الأب، بينما تكفّل هو بإقامة جميع المناسبات وسهرات الشواء على حسابه الخاص. بعد عدّة أيام من التوصية جاءت سيارة نقل صغيرة تحمل الشّواية وأنزلها عمال النقل من السيارة ليتمّ تجميعها في الحديقة الخلفية، وبعد أن انتهوا من تجميعها، وضعوا اسطوانة الغاز في مكان بعيد عن الشّوّاية دون أن يوصلوها بها. أخبره عمّال التوصل أنّه عليه هو بنفسه وصل العبوة بالشوّاية عندما يريد استخدامها، وشرحوا له أنّه كان عليهم نقلها بصورة منفصلة، فافترض الرجل أنّهم كان يفترض بهم نقلها لوحدها توخيّا للسلامة، لأنّ الغاز سريع الاشتعال وسام. وبعد أن رحل عمّال التوصل قرّر الرجل توصيل العبوة بنفسه، ففتح جميع كتيّبات والاستخدام ومخطّطات التركيب وشرع في عمله. كان يحاول

وصل أنابيب بخراطيم، وتجريب المفاتيح واختبارها الواحد تلو الآخر، وبدأ يشعر بعسر في التنفس. كان يمارس عملية التوصيل في الخارج حتى لا يتأثر أهل بيته بالغاز، لكن الواضح أنّ تأثير الغاز كان ثقيلاً جداً وقوياً ليقاومه، وكان يشعر بثقله داخل رئتيه وتأثيره على دماغه. كانت عائلته تراقبه بشيء من الريبة والخوف. لم يستطع احتمال تأثير الغاز على جسده، فكان يبتعد تارةً عن الشوّاية يأخذ أنفاساً عميقة ثمّ يعود لمتابعة عمله بإرهاق. كرّر ذلك عدّة مرّات حتى ظَنّ أنّه أوصل الأنابيب والخراطيم ببعضها بشكل مناسب، ولكن عندما حاول إشعال رأس الشّوّاية لم يحدث شيء، لم تشعل أي نار. فتفحّص مجدداً من جميع التوصيلات والمفاتيح، إلا أنّ شعوره بالثقل في رأسه مازال لم يفارقه، حتى أنّ شعوره بالغثيان ازداد شدّة. فقرّر الاتصال بالشركة المصنعة واستدعاء فريق التركيبات، وعندما وصل الفريق حاول أن شرح لهم كل ما فعله، وكان قد استنشق الكثير من البروبان عند هذه النقطة، كان يشعر بالدوران وبأنّه سينهار. كان يشعر بالتشويش والارتباط، كان ذلك تأثير الغاز السام لاشك. «من أين أتيت بالغاز؟ هل ملأتَ العبوة؟» سأله رئيس الفريق. «ما الذي يعنيه؟ الشواية اشتريتها للتو، وقد وصلتني حالاً، وقال لي مسؤول التوصل أنّها جاهزة للعمل» «آه، كلامه صحيح تماماً، باستثناء الغاز. نحن نبيع العبوة فقط مع الشواية، لكنها تأتي فارغة. عليك أن الذهاب إلى اي محطة محروقات، أو مركز للبيع وتعبئتها بنفسك. لهذا السبب لم تعمل الشوّاية. العبوة فارغة سيدي» حسناً، لا أستطيع وصف شعور الرجل الآن، لكن بالتأكيد انتباه شعور طاغٍ بالغباء. كان يختنق جرّاء اعتقاد خاطئ وليس بسبب الغاز. كان يعاني من أعراض جسدية شبيهة بالاختناق بسبب فكرة موجودة في رأسه. كان يشعر بأنّه يشمّ رائحة الغاز. وشعر بالدوخة والدوران. شعر بالمرض والإعياء. ولكن لم يحتج شفاؤه من أعراضه سوى

تحديث صغير لمعلوماته، أنّ الغاز غير موجود، وعاد كل شيء لطبيعته. جسدياً على الأقل. أمّا عقلياً، فكان مصدوماً وميّتا بالتأكيد. أمّا زوجته وأطفاله فكادوا أن يقلبوا على ظهورهم من شدّة الضحك. هذه حكاية ذلك الشخص. قد يموت الناس بسبب مخيّلتهم فقط. أتريدون مثالاً آخر عن قوة الاعتقاد وتأثير الأفكار الذهنية على أجسادكم وحالاتكم النفسية؟ حسناً، تخيّلوا معي التالي: تخيلوا أنّ أمامكم الآن صحناً فيه شرائح من الليمون الحامضة مرشوش فوقها قليلاً من الملح ومسحوق السُّمّاق، تخيل عزيزي القارئ أن تمسك بإحدى هذه الشرحات الرطبة المملّحة وتلعقها بلسانك ثم تلتهمها بفمك لتشعر بطعم الحموضة يجتاح فمك وكانك كله... هل سال لعابكم الآن؟!!! هل عرفتم الآن تأثير الفكرة عليكم!!! بصفتي فيلسوفاً ناشئاً، تعلّمت شيئاً في غاية الأهمية بشأن قوّة معتقداتنا، ومخيّلتنا، وتأثيرها علينا، وكذلك بشأن الافتراضات الخفية التي يمكن أن تسيطر على تفكيرنا وتتحكم فيه. العقل في الحقيقة شيء قوي للغاية، والمعتقدات الخاطئة يمكن أن يكون لها تأثير كبير علينا. أنا شخصياً أخاف كثيراً من أفكاري وإيحاءاتها، ودوماً أتذكر القول «لاتتركوني وحيداً مع أفكاري، فأنا أخافها جداً... أخاف أن تؤذيني»

صورة كهف أفلاطون

كان لأفلاطون تصوّر لايُنسى عن المعتقدات والأوهام الخاطئة التي نعاني منها كثيراً. وكتب يقول أنّنا جميعاً نشبه أشخاصاً يعيشون داخل كهف، مقيّدين بالسلاسل ووجوهنا تواجه جداراً تتحرّك عليها ظلال نعتقد أنها الواقع، وأنها أشياء حقيقية. إنّ تصوّر أفلاطون للكهف أمرٌ معقّد فعلاً، تخيّل أنه خلفنا في هذا الكهف، توجد نار تلقي ظلالها على الجدار الذي أمامنا، وأمام هذه النار، خلفنا، تتحرك أشياء لترتسم منها ظلال سوداء تتحرّك على الجدار كالأشباح. هكذا يكون الأمر حتى تحرّر

أحدنا ويكسر الأغلال ويرى وضعنا على حقيقته، فيهرب من الكهف، ليخرج خارجه إلى نور الشمس. في البداية، سيُصاب بالعمى جرّاء نور الشمس القوي الباهر، ذلك القرص الذي لاتمثّل النار المشتعلة داخل الكهف سوى نسخة معيوبة وفقيرة عنه. ولكن بعد ذلك تبدأ عيناه بالتعوّد وضبط الرؤية وإدراك الأشاء الحقيقية، حيوانات، صخور، أشجار، وكائنات. وبعد أن يميّز الفرق بين العالم الخارج وعالم الظلال الخافتة والأشياء المعوبة والناقصة في الكهف، فإنّه يعود مرةً أخرى إلى الكهف لإقناع زملائه بكسر القيود والصعود معه إلى نور العالم الخارجي الواقعي.

الفيلسوف هو ذلك الهارب من الكهف

ذلك الرجل الذي تمكّن من الهروب من كهف الأوهام الذي يرى أفلاطون أنّنا نقبع فيه هو "الفيلسوف"، هو ذاك الذي بيننا الذي يدرك أنّنا جميعاً نعيش حياةً من الأوهام والصور الزائفة، وأنّنا محبوسين بفعل ظلال وقيود ليست من صنعنا نحن. وعندما يعود إلى الكهف بقصّته الغريبة غير القابلة للتصديق عن عوالم أخرى وحقائق خارجية، سيثني عليه البعض، وسيسخر منه الغالبية العظمى، هذا إذا لم ينكّلوا به. نحن لدينا طريقة عجيبة للتآلف مع أوهامنا ووقائعنا المزيفة. لهذا نحن نشعر بأدنى تهديد قد يجلبه علينا أي غريب مع قصص وروايات غريبة عن عوالم أخرى. لكنّ الفيلسوف الحقيقي سيبذل قصارى جهده لتحرير أكبر عددٍ من الناس المساجين، عاتِقاً إياهم ليتمكّنوا من إدراك عوالم أوسع وأكثر تنويراً من تلك الكامنة وراء الظلال المزيفة. هذا تصوّر أكثر حيّ للمهمة القصوى للفلسفة. فهدفها هو تحريرنا من الأوهام ومساعدتنا على فهم أوسع الوقائع القصوى. ما هي الأوهام التي تعيشون في ظلها الآن؟ ما هي الأشياء التي تقيّمونها والتي تفتقر إلى الأهمية التي تنسبونها لها؟ ما الشيء الذي تتجاهلونه وهو أغلى الأشياء قيمة؟ ما هي الافتراضات

التي تطلقونها عن حياتكم والتي قد تكون قائمة على المظاهر فقط وليس الحقائق؟ أغلب الناس مقيّدون بكافة أنواع القيود. وهدف الفلسفة يتمثّل في مساعدتها لنا لتحطيم تلك الأغلال، وقد أحسَنَت فعلاً. في الحقيقة لنا ليس لدينا خيار حول أن تكون لنا فلسفة أم لا، سواءً أردنا أن نكون فلاسفة أو لا. فنحن نتصرّف في النهاية طبقاً لفلسفة معينة لنا في الحياة، بغضّ النظر عن كونها فلسفة معيوبة أو ناقصة. إنّ اختياراتنا تتأرجح بين الفلسفة السيئة التي امتصّتها عقولنا من أوساطنا الثقافية المحيطة بنا وتحيّزات زماننا، أو الفلسفة الجيدة القائمة على التفكير النقدي والتساؤل الريبي والشك تجاه كل ما يحيط بنا. قد نكون مفكّرين سطحيين أو فلاسفة عميقين. لكنّ الجودة تأتي مع الرعاية فقط. لذلك، التفكير الدقيق والمتأني يجعل الفلسفة أفضل وأكثر فعالية. هل فلسفتك في الحياة تقيّدك أو تحرّرك؟ هنا سأحاول تبديد بعض الخرافات والسمات الرائجة في زماننا عن الفلسفة والخروج من كهف افتراضاتنا الخاطئة. نحن نسعى وراء التنوير الفلسفي، والانعتاق والتحرّر. أول يومٍ في حاتكم يجب أن يبدأ وينتهي في كهف أفلاطون.

تنويه أخير: يعتقد أغلب الناس أنّ أفلاطون هو المنبع الأصلي لكل الفلسفة الغربية. «من أفلاطون تأتي جميع الأشياء التي كتبها ولازال يناقشها رجال الفكر» [رالف والدو إيمرسون] «التوصف الأكثر أماناً للتراث الفلسفي الأوروبي هو أنه يتألف من سلسلة من الحواشي والهوامش التي ترجع إلى أفلاطون» [ألفريد نورث وايتهيد]

[4]: محبّة الحكمة

«الأشياء لها أسبابها، حتى أنماط معينة من الجلالة لها لحظات سُمُو وهبوط، لكنّ الحكمة لها أفضلية: أنها أبدية» [بالتازار غراسيان] مع تعمّقك أكثر في الموضوع،

ستجد الكثير من الأسباب لدراسة، وقراءة الفلسفة وممارستها خلال حياتك. فالفلسفة، كطريقة في التفكير، واسلوب في الحياة، تجمع ثلاثة مهارات عقلية ضرورية جداً لكل شخصٍ فينا علينا امتلاكها في العصر الحديث. الفلسفة أيضاً تتضمّن على الحكمة.- أولاً سنشرح هذه المهارات الثلاثة، ثم سنتكلّم قليلاً عن الحكمة _وبالأخص ماهيتها ومدى أهميتها.

المهارات الثلاث في الفلسفة

الفلسفة هي، بكل بساطة، طريقة في التفكير. وبالأصح، إنها حزمة من أساليب التفكير، إنها مجموعة من الأدوات العقلية. وهذه الحقيقة مرتبطة مباشرة بالسؤال عن كيفية دراستنا للفلسفة. إنها ليست فقط لإذهال وإدهاش أصدقائنا بنباهتنا وبلاغتنا، ونربك زملائنا بعمقنا، أو نزعج أفراد عائلتنا بأسئلة قد تبدو مجنونة. نحن ندرس الفلسفة بسبب المهارات العقلية التي تتضمّنها وتدمجها في حياتنا بالإضافة إلى الرؤى والأبعاد الجديدة التي تمنحنا إياها. خلال سنتي الأولى بالجامعة، كلية الآداب: قسم الدراسات الاجتماعية والفلسفية، كان لزاماً على كل طالب أن يدرس عدة مواد تتعلق ببدايات الفلسفة ومفاهيمها المفتاحية وأبرز مفكريها، وكانت لدينا مادة أساسية ننفرد نحن وحدنا _طلاب الدراسات الفلسفية_ بها، وهي مادة (أصول أو أسس البحث العلمي)، ثم انتشرت هذه المادة واعتُمِدَت في جميع الكليات والأقسام تقريباً. لماذا على طلاب الدراسات اللغوية والدراسات التربوية أو الاقتصادية دراسة مادة فلسفية كهذه؟... إنها الفلسفة: أمّ العلوم. بنفس الشكل، ما حاجة مدير عام مثلاً لكي يخصّص بعض الوقت لدراسة الفلسفة؟... ولماذا يسعى طبيب مثلاً بتخصيص وقتاً من وقته لقراءة الكتب الفلسفية؟ لماذا على الأهل تربية أولادهم على محبة الفلسفة

وقراءة الكتب والروايات الفلسفية؟ ما الرابط بين كل هذه الأمور؟ ما النتيجة التي ستنتج من هذه العملية؟ التالي سيقدّم لكن بعض الإجابات.

أولاً: شلل بدون تحليل

إنّ الفلسفة كطريقة في التفكير وكأسلوب في الحياة تصقل قدرتنا على تحليل المشكلات المعقدة. إنها تساعدنا على فكّ العقد العقلية وحلّها. تعلّمنا طريق الوصول إلى لُبّ القضية. وتوضّح لنا كيفية إزالة المشكلات المحيطة بنا والتغلغل في جوهر المسألة: ما الشيء المهم حقاً؟ ما هي القضية المحورية في النهاية؟ وكيف يمكنني تفكيك هذه المشكلة إلى أسئلة أكثر قابلية للاستيعاب والبحث فيها؟ التحليل مهارة نحتاجها في كل مكانٍ في الحياة. المحامون يحللون الادعاءات المعقدة ويصنّفون القضايا. الأطباء يحللون الأعراض. والمحققون الجنائيون يحللون الأدلة ويبحثون عن الأنماط فيها. رجال الأعمال يصنّفون أجزاء الصفقات المعقدة. ويحاول الأهل فكّ المسائل المتشابكة التي تربك العائلة وتزعج أفرادها. إنّ مهارة التحليل والتفكيك هامة جداً وضرورية في كل ناحية من نواحي الحياة. عملية التحليل سائدة جداً وشائعة في طرق التفكير الفلسفية لدرجة أنّ الاتجاه الرئيسي لفكر القرن العشرين يُعرَف باسم الفلسفة التحليلية بسبب تركيزه على أهمية هذه المهارة ومركزيتها. ولكن كل سبل التفكير الأصيلة والجيدة تتضمّن عمليات تحليل دقيقة. في نهاية المطاف، تعلّمنا الفلسفة كيفية تحليل حياتنا: من نحن؟ ماذا نريد حقاً؟ ما الهدف من الحياة؟ ما الذي يجعلنا سعداء؟ كيف نساهم في هذا العالم؟ ماهي مَلَكاتنا العُليا وماهي مواهبنا؟ كيف نستفيد من الوقت بأفضل شكل ممكن؟ في أعقاب التحليل الفلسفي لسؤال إنساني كبير والتعلم من بعض أعظم المفكرين في التاريخ عن كيفية معالجة القضايا المعقدة، يمكننا أن نتعلّم كيف نكون محللين أفضل لأنفسنا وأكثر مقدرةً على التحليل

في جوانب أخرى من حياتنا. الآن، لا أقصد هنا أنّ التحليل باعتباره أهم مَلَكة ومهارة عقلية عند الإنسان أو أن التحليل الفلسفي له أهمية قصوى في حياة الإنسان. إنه ليس كذلك. التحليل مهم وحيوي. فنحن كائنات مشلولة تقريباً من عدة نواح في الحياة إذا لم نتمكن من تحليل الظروف التي نحيط بنا بشكل مناسب، والفرص التي تواجهنا. «الإنسان ليس أكثر من مجرد قشّة. أضعف ما في الطبيعة، لكنه قشّة مفكّرة» [بليز باسكال] التحليل مهارة عقلية حيوية. ويجب استخدامها بشكل مناسب، ودقيق. هنالك ظاهرة معروفة جيداً تسمى شلل التحليل، تنشأ عندما يقف التفكير عائقاً أمام الفعل_ أو أمام الشعور. يمكن للإنسان أن يحلّل العلاقة مع الموت. والحياة غير المفحوصة قد لا تستحق أن تعاش، كما بيّنّا سابقاً، لكنّ الحياة غير المعاشة غير جدرة بأن تُفحَصَ قطعاً. لا ينبغي أن يقطع التفكير الطريق على الفعل أو الشعور، فالتفكير بالكاد يلعب دور الموجّه لأفعالنا. جميع الأمور والأشياء الجيدة قد يُساء استخدامها. وقطعاً التفكير المنطقي العقلاني التحليلي يمكن أن يُساء استخدامه. فالأمر عائدٌ لكل واحدٍ منّا أن يستخدمه بالطريقة التي يجدها مناسبة. النقطة التي أودّ التركيز عليها هنا هي أنّه كلمّا بات المرء أكفأ في تحليل المشاكل والمسائل المعقدة، كلّما أصبح أفضل في حلّها وإيجاد الحلول لها. التحليل هو المهارة التي تصقلها الفلسفة. وهي مهارة نكتسبها طوال حياتنا. والحقيقة الفعلية حول التفكير والفعل هي أنّنا _إذا اكتسبنا مَلَكَة التفكير النقدي وصقلناها_ أصبحنا أكثر قدرة على عيش حياة ممتلئة وخالية من أعراض شلل التفكير التي قد تصيبنا في مواجهة صعوبات الحياة. الفطنة التحليلية أو البداهة التفكيكية، في أفضل حالاتها، هي تحرّر وانعتاق.

ثانياً: مهارة التقييم

الفلسفة تدربنا على التحليل. كما أنها تدرّبنا على تقييم الآراء المتضاربة والأفكار المتناقضة والمزاعم مختلفة. هل يمتلك البشر إرادة حرّة، أم أنّ أفعالنا وتصرّفاتنا مقرّرة مسبقاً بالوراثة والبيئة؟... هل الله موجود، أن غير موجود؟... هل يبقى الناس بعد موت أجسادهم، أم حُكِمَ علينا بالموت والفناء الشخصي اعتماداً على وظائفنا الجسدية؟... هل للحياة معنى حقيقي وهدف فعلي، أم أنّ كل ما نفعله ونقوم به لا يتضمّن أي معنى أو غاية؟... هل نحن مركزيّون ومهمّون في هذا الكون، ام أنّنا مجرد كائنات تافهة لا قيمة لنا نعيش على ذرّة غبار في نقطة ماء معلّقة على فرو أرنب محشور داخل قبّعة ساحر كوني في محيط كوني شاسع بارد وغير مبالٍ فينا؟ غالباً ما تواجهنا خلال حياتنا بآراء وأفكار متناقضة ومزاعم متضاربة وافتراضات بديلة علينا تقييمها واختيار الأفضل بينها: هل علينا السعي لتمويل أفضل لزيادة نوعية منتجنا، أم أنّ علينا التركيز على تقوية إعلاناتنا وتوسيعها؟ جماعة من الموظفين يرون أنّه ينبغي علينا تطوير وتحسين منتجاتنا، بينما فريق آخر يقترح أنّ الإعلان المناسب وتحسين الإعلانات الممتازة أمر ضروري. جماعة من علماء النفس يرون أنّ الأطفال بحاجة لمزيد من الحرية. في حين أنّ جماعة أخرى تزعم أنّهم يحتاجون لتأديب ورسم حدود لازمة لهم. كيف تقيّم وتثمّن هذه المزاعم المتضاربة؟ الفلسفة تدرّب العقل على فنّ التقييم. ما كل ما يلمع ذهباً. يمكن للوقائع والمظاهر أن تكون مختلفة. نحن نعيش اليوم في عالم من الإدمان، المبالغة، والإغراق. وبات كهف أفلاطون أكبر وأعمق بكثير ممّا كان عليه. الأوهام تسيطر على العالم. وكل شخص لديه شيء ما يريد بيعه، كما أنّنا نُقصَف في كل يوم بآلاف المزاعم والآراء التي يجب أن نكون قادرين على تقييمها وتثمينها. في عالم من الآراء ووجهات النظر المتضاربة التي تسعى للقبول

والتبنّي، كيف لنا أن نفصل الثمين عن الغَثّ، كيف نميّز بين الغزال والمعزاة، الجواهر عن الحجارة؟ الحَذَر واجب. ونحن بحاجة للبصيرة والفطنة. والبصيرة _التقييم، الفطنة_ هي أيضاً مهارة تدرّبنا عليها الفلسفة وتصقلها فينا. كما يقول أوفيد «أحكام البشر غير معصومة». في مجال الفلسفة نحن نقيّم وجهة نظر أو رأي او فكرة معينة باحثين عن دليل يجعلنا نعتقد أنّ أياً منها حقيقي. نحن نقيّم كيف رأي معين يتطابق وينسجم مع معتقداتنا التي بنيناها على أسس منطقية ونعتقد بأنها صحيحة ومتسقة مع بعضها.

عند تقييم رأي أو وجهة نظر أو موقف فلسفي معين، كما نقيّم أي عرض عمل، علينا أن نسأل ثلاثة أسئلة رئيسية في غاية الأهمية، ويمكن تسميتها السينات الثلاثة: _السين الأول: هل هي مترابطة منطقياً؟ هل تتشابك وتترابط المكونات المختلفة للموقف الفلسفي معاً بشكل منطقي؟ هل لها معنى؟ هل هي متّسقة داخلياً؟

_السين الثاني: هل هي متضاربة؟ هل تترابط مع كل معتقداتك وتتفق معها، أم أنها مليئة بالفجوات والنقاط العمياء؟ هل تتخللها نقاط متضاربة وغير متسقة مع ما تعتقده من آراء؟ هل هي مقنعة كما يجب؟ _السين الثالث: هل هي صحيحة؟ لا يكفي ان يكون الموقف الفلسفي مترابط منطقياً ومُتّسق، فالدليل يجب أن يشير إليها باعتباره المنافس الصحيح للحقيقة. التوافق ضروري جداً، والترابط مهم جداً أيضاً. ولكن الصحّة وحدها تمنحنا ما نحتاجه بالكامل. إنّ أي رأي متّسق داخلياً يكون شاملاً، ولكنه لا يفيدنا كثيراً بطريقة علمية. هذه هي السينات الثلاثة التي تقوم عليها عملية التقييم: الترابط، والاتساق، والصحة. الموقف الفلسفي يشبه كثيراً خطة العمل، قد يكون صحيحاً ومناسباً بقدر ما تتوافق وتتسق عناصره وصحتها. يمكن لأي رأي أن يكون صحيحاً، ضمن حدود، بدون أن يكون متّسق داخلياً. هذا التقييم

قد يخبرك أنّ الرأي بحاجة إلى تطوير وتحسين أكثر، قد يكون صحيحاً بمبادئه العامة وخطوطه العريضة، في هذه الحالة، فإنه يحتاج إلى إعادة تأهيل منطقية قبل القبول بها ككل. يجب علينا التحقق من السينات الثلاثة وتحديدها في وضع يمكّن من تقييمها بشكلٍ حاسم. مع وضع هذا المفهوم بعين الاعتبار، يمكننا تحسين مهاراتنا في التقييم بشكلٍ كبير من خلال استجواباتنا الفلسفية لأي موقف فلسفي.

نشأة الكون: طبيعية أم ماورائية؟

ديفيد ميلز

الفصل الثاني من كتاب "الكون الملحد Atheist Universe"

«لقد تمّ ابتكار مفهوم الله لتفسير اللغز والغموض. لقد اختُرِع مفهوم الله لتفسير تلك الأمور والظواهر التي لاتفهمها. والآن، عندما تكتشف في النهاية كيفية عمل شيء ما أو الطريقة التي يسير فيها، فإنّك ستحصل على بعض القوانين التي تبعدك عن الله، ستشعر أنك لست بحاجةٍ إليه بعد الآن» [ريتشارد فاينمان، 1918-1988، فيزيائي حاصل على جائزة نوبل] خلال عام 1919، انضمّ عالم شاب وطموح يدعى إدوين هابل إلى طاقم من العلماء والباحثين الطموحين في مرصد ماونت ويلسون بكاليفورنيا. قاموا بتوجيه تلسكوبهم الذي يبلغ قطره 100إنش نحو ظلمة السماء، وسرعان ماتمكّن هابل من تحقيق أحد أعظم الاكتشافات وأكثرها أهمية، سجّل هابل على صفائحه الفوتوغرافية المُعَدّة بدقة بأنّ الضوء الذي ينبعث من المجرّات البعيدة كان يميل نحو اللون الأحمر في نهاية الطيف. اكتشف هابل علاوةً على ذلك أنّه كلّما كانت المجرّة أبعد عن الأرض، ازداد ميلان الطيف نحو اللون الأحمر. هاتان الملاحظتين الفلكيتين واللتان جرى إثبات صحّتهما لاحقاً عن طريق المنهج العلمي الصارم، أصبحتا تعرفان لاحقاً باسم "قانون هابل Hubble s Law". المساهمة الأعظم والأكثر إثارةً للجدل التي ساهم بها هابل في مجال علم الفلك تكمن في تعليله لظاهرة انحراف طيف الضوء نحو اللون الأحمر. فكّر هابل أنّ الانتقال أو الانحراف الملحوظ في اللون (أي طول الموجة) كان سببه الحركة النسبية، بعيداً عن الأرض، للمجرات البعيدة. وبما أنّ هابل كان يعرف أنّ الانحراف نحو

الأحمر في طيف الضوء المنبعث من المجرات متناسب مع بعد المجرة عن الأرض، وقد توصّل إلى نتيجة مفادها أنه كلما كانت المجرة أبعد، كانت حركتها أسرع. بغضّ النظر عن النقطة التي وجه نحوها هابل مرقابه إلى السماء، فقد وجد أنّ جميع المجرات _أو لنكون أكثر دقة، جميع العناقيد المجرية_ كانت تبتعد بسرعة عن الأرض، وعن بعضها البعض أيضاً. ومن خلال خطوة منطقية واحدة، أدرك هابل أنّ المجرات إذا كانت تبتعد بسرعة عن بعضها _يمعنى أنّه إذا كانت البارحة أقرب إلينا (أو إلى بعضها) مما هي عليه اليوم_ فهذا معناه أنّه في زمنٍ ما، أو في لحظة زمنية معينة في الماضي، كانت جميع المادة الموجودة في الكون محصورة ومكدّسة مع بعضها ضمن مجال صغير جداً أو نقطة مكانية مضغوطة عالية الكثافة. إذن إنّ هذا التوسّع الملحوظ للكون، لابدّ وأنّه قد نتج عن قوى نابذة من نوع ما أو انفجار ما. وقد جرت تسميه هذا التفسير النظري لتمدّد الكون لاحقاً باسم "الانفجار الكبير أو بيغ بانغ Big Bang". الأدلّة الكوزمولوجية التي تدعم نظرية الانفجار الكبير ليست مقتصرة على اكتشاف هابل والاستدلالات المنطقية. في عام 1965، رصد الخبيران آرنو بنزياس وروبرت ويلسون، اللذان كانا يعملان لحساب شركة بيل للهواتف، شعاع خلفية موجية ضعيف يشغل الكون ويصدر من كل مكان ومن جميع الاتجاهات. أثبت هذا الشعاع الموجي لاحقاً أنّه عبارة عن صدى كهرومغناطيسي للانفجار الكبير _وقدّم دليلاً صلباً، متيناً، وقاطعاً يدعم نظرية الكون المتمدّد أو المتوسّع. خلال باكورة عام 1992، تمكّن تلسكوب ناسا في الفضاء COBE (مسبار الخلفية الكونية) من تسجيل شذوذات طفيفة ضمن شعاع الخلفية هذا. هذه التغيرات الطفيفة، التي لطالما بحث عنها الكوزمولوجيون طويلا، ضرورية جداً لتفسير سبب عدم توزّع المادة في الكون بشكلٍ متساوٍ. لو كان الانفجار الكبير توسّعاً تناظرياً بشكل مثالي

وعلى نطاق شامل، لما ظهر هذا الكون إلى الوجود، كما هو الآن، مساحات شاسعة منه خالية تماماً من المادة، متواجدة في مناطق متاخمة لمناطق ذات كثافة عالية من المادّة. إنّ أرصاد مرقاب كوبي لاتقدّم فقط دليلاً أكيداً إضافياً على نظرية الانفجار الكبير، بل أيضاً تناغم التوزّع الجميل والمتناظر للمادة في جميع أرجاء الكون المنظور. وحتى قبل اكتشافات هابل، تنبّأت معادلات آينشتاين في النسبية العامة بتوسّع الكون وتمدّده. والأمر المثير للاهتمام هو أنّ آينشتاين لاحقاً قد قام بإدخال "ثابتاً كونياً" اعتباطياً في معادلاته لنفي إمكانية التمدّد الكوني. لاحقاً وصف آينشتاين هذا الثابت الكوني بأنّه "أعظم خطأ ارتكبه في حياته". من المذهل تصوّر أنّ آينشتاين _بالإضافة إلى مساهمته العظيمة في مجال العلم_ قد قدّم دليلاً نظرياً يثبت صحّة نظرية الانفجار الكبير قبل توفّر أي دليل تجريبي أو رصدي. لسوء الحظ، كان آينشتاين متأثراً بالفكرة الشائعة بأنّ الكون ساكن ومستقرّ. لم يظهر آينشتاين غالباً أي استقلالية فكرية عن معتقدات وأفكار عصره. يخمّن عدد من مؤرّخي العلم أنّه لابد أن يكون إسحاق نيوتن حتى _الذي عاش في القرن السابع عشر_ قد تأمّل في الضرورة النظرية للكون المتوسّع. فإذا أخذنا قوانين نيوتن في الجاذبية الكونية، عندها سينهار الكون الساكن وغير المتمدّد على نفسه. خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، يمكننا أن نستنتج ببساطة وبعقلية منفتحة وبكل أريحية، سادت الفكرة القائلة بأنّ انفجارا عظيماً قد حدث وولّد هذا الكون الذي عَقِبَته عملية توسّع وتمدّد استمرّت طوال 14 مليار عام.

ما قبل الانفجار الكبير

إذا تابعنا في افتراضنا بأنّ نظرية الانفجار العظيم تصف ولو جزئياً تاريخنا الكوني الحقيقي، عندها سنواجه من فورنا سؤالاً محيراً. جميع "الانفجارات" التي

نشهدها على الأرض في أعماق الفضاء تتضمّن تفرّقاً وتشتتاً عشوائياً للمادة. لذا، إذا كان الكون _كما نعرفه اليوم_ قد بدأ بانفجار كبير، شتّت مادّته الفيزيائية في أرجاء المكان، فمن أين جاءت كل هذه المادة في الأساس؟ لذا، وكم يتساءل الفيلسوف المعاصر مورتيماير آدلر: «لماذا هناك شيء، بدلاً من لاشيء؟». بالنظر إلى هذا السؤال الصعب، انقسم العلماء المعاصرون إلى فريقين كل فريق اتّخذ لنفسه موقفاً محدداً: 1) لقد تجاهلوا السؤال بشكلٍ كامل. 2) قالوا أنّ هذا النوع من الأسئلة يتجاوز نطاق البحث العلمي الصارم، ويجب أن يترك عبء الإجابة عنه إلى الفلسفة وعلماء اللاهوت. نلاحظ أنّ الفلاسفة واللاهوتيون أكثر من سعداء للخوض في مثل هذه الأسئلة المقلقة والمعقّدة والمربكة للعقل الإنساني. فمنذ زمن توماس أكويناس بالقرن الثالث عشر _وقبل ذلك بوقتٍ طويلٍ ربما_ خاض العديد من الفلاسفة الأكليروسيين وقدّموا حجّة "السبب الأول أو العلّة الأولى أو المبدأ الأول" لأصل الكون. وبالرغم من أن غالبية هؤلاء اللاهوتيين كانوا يؤمنون بنظرية سفر التكوين وعملية الخلق المذكورة فيه، فإنّ هذا الخلق الآني قد جاء من عَدَمْ ex nihilio، كل ماكان يسعى رجال الكنيسة هؤلاء تحقيقه من عَدَمِهِم هذا المساهمة في النقاش الكوزمولوجي العلماني، ودحضه وتفنيده. تنصّ حجّة السبب الأول أو المبدأ الأول على مايلي: نحن نلاحظ أنّ الكون يتضمّن قانون السبب–النتيجة. كل شيء في هذا الكون يتطلّب سبباً أو علّةً أو لوجوده. وكل سبب أو علّة أو مبدأ، بدوره، بحدّ ذاته نتيجة تتطلّب سبباً سابقاً لها. وإن عدنا إلى مالانهاية في هذه السلسلة السببية، فسنصل في النهاية إلى السبب الأول أو العلّة الأولى، التي نطلق عليها اسم: "الله". من الناحية التاريخية، واجه الفلاسفة المتنوّرون والعقلانيون حجّة السبب الأول بالتساؤل التالي: «ما سبب الله؟» [من الذي خلق الله؟]، وعندما أجاب رجال الدين

بأنّ «الله كان موجودٌ دوماً»، قدّم العلمانيون نقطتين أساسيتين كدحض لهذا الجواب الهشّ: 1) إذا افترضنا أنّ الله موجودٌ دوماً، عندها ما المانع بأن نفترض أيضاً أنّ المادّة والعالم الفيزيائي/ المادي كانا موجودين دوماً ومنذ الأزل؟ ففي النهاية، هذا الافتراض الطبيعي، الغير-ماورائي أبسط بكثير من اقتراح سلسلة أكثر تعقيداً من معجزات الخلق الإلهية. 2) الحجّة الأكليروسية _أنّ الله موجود أزلي_ تتناقض مع البديهة الأصلية لحجّة السبب الأول: أنّ "قانون السبب الأول" يمكن تطبيقه بثبات. إذا كان كل شيء، باستثناء الله، يخضع لقانون "السبب-النتيجة"، عندئذٍ تصبح حجّة السبب الأول خاصّة وبذلك مستحيلة منطقياً. بمعنى آخر، لقد عدنا من حيث بدأنا، ولم نحرز أي تقدّم لامن ناحية حججنا المنطقية، ولا من ناحية فهنا للسبب الكوني. هذه الحجج القديمة قدم الزمن نفسه، لصالح حجّة السبب الأول وضدّها، هي حجج مشؤومة أصلاً، لكنها حجج فلسفية ولاهوتية بطبيعتها، بدلاً من أن تكون حججاً علمية. ولهذا السبب بالضبط، أغلب العلماء المعاضرين _كما سبق وقلنا، يتردّدون كثيراً في الخوض بمثل هكذا افتراضات غير علمية، ويناولون الدلو بسعادة وسرور للفلاسفة وعلماء اللاهوت. هدفي هنا يتمثّل في أن أبيّن أنّ مثل هذا الدلو الكوزمولوجي الذي يجري تمريره غير ضروري للفرد العصري أو الشخص ذو العقلية العلمية الحديثة. فعن طريق استقطاب القوانين الفيزيائية المؤسّسة منذ زمنٍ طويل، بإمكان العلم أن يصف لنا كوناً عنصرياً في زمن ماقبل الانفجار الكبير. بمعنى آخر، قصدي هنا هو أن أوصل فكرة مفادها أنّ أصل المادة هو سؤال أجاب عنه العلم منذ زمنٍ طويل، لكنه فشل في شرح المسألة وتوضيحها بشكلٍ مبسّط للجمهور القارئ.

قوانين الفيزياء

اليوم، بتنا نرى كتابات التكوينيون ومحاضراتهم وهي تتضمّن إشارات مرجعية "لقوانين الفيزياء". فالتكوينيون يعشقون استخدام هذه المفردة التقنية ويأملون أن تمنحهم هذه اللفظة العالية عباءة الوقار الأكاديمية. ومع ذلك، عندما ندقّق بحرصٍ في كتبهم العلمية، تتوضّح أمامنا حقيقتان جليّتان: 1) أنّ التكوينيون أو المؤمنون بنظرية الخلق والتكوين يسيئون فهم، واستخدام _ويعيدون صياغة القوانين الراسخة والمؤسّسة لعدد من المجالات والحقول العلمية. 2) لايبدو أنهم _التكوينيون_ يفهمون أساساً ما الذي يعنيه العلم الحديث ضمن إطار "قوانين الفيزياء". لذلك، وقبل أن نستمرّ أكثر، ينبغي عليّ أن أعرف ماهو العلم، وما ليس هو، وماذا يعني في سياق "القوانين الفيزيائية". بكل بساطة، إنّ القانون العلمي أو الفيزيائي هو عبارة عن وصف بشري/ إنساني لطريقة عمل الكون بثبات. على سبيل المثال، إقترح أسحق نيوتن بعد دراسته للأجرام السماوية قانون الجاذبية، مفصّلاً ومتنبأً، بمعادلاته الرياضية، بمدارات الكواكب القريبة. أسّس جورج مندل، وهو يزاوج بين مختلف أنواع الكائنات الحية على الكوكب، الإطار العام لقوانين الوراثة والتوارث الجيني، متنبأً بدقة بالنتائج البنّاءة لعملية التزاوج المختلط. هذه القوانين، قوانين نيوتن ومندل، قد جرى توسيعها وتنقيتها على أيدي العلماء اللاحقين، الذين أجروا بدورهم على أساسها تجاربهم، وسجّلوا أرصادهم وملاحظاتهم الثمينة والقيّمة. النقطة الأهم هنا هي أنّ القوانين العلمية والفيزيائية عبارة عن أوصاف إنسانية، قائمة على أساس الملاحظة الإنسانية، وبذلك فهي عرضةً للمراجعة المستقبلية _أو التفنيد العلمي والنهائي حتى. غالباً مايزعم الخلوقيون _ويتجاهل لهذه التعاريف_ أنّ قوانين الفيزياء تحكم سلوك الكون _أنّ قانون الجاذبية على سبيل المثال يسبب سقوط

الأجسام على الأرض، أو أنّ قوانين الكيمياء هي التي تحكم التفاعلات الخلوية. مثل هذا الزعم، أي القائل بأنّ قوانين فيزيائية تحكم الكون المادي، يعكس وجود حالة من سوء الفهم المدقع وعدم فهم عميق بالعلم من قبل الخلوقيين. قدّم كلٌّ من فيرنسايد وهولتر في كتابهما "مغالطة: تزييف الحجّة Fallacy: The Counterfeit of Argument" مثالاً تشبيهياً واضحاً وجلياً. تصوّر أنّه قد تمّ إرسال مراسل صحفي لجريدة ما لتغطية لعبة كرة قدم في إحدى المدارس. يجلس المراسل في الكبينة المخصّصة للصحفيين، ويكتب مقالاً للصحيفة حول اللعبة التي شاهدها للتو. من السخف القول أنّ رواية هذا الصحفي عن نتائج اللعبة هي التي أدّت إلى الانتهاء إلى هذه النتائج. بنفس الشكل، من السخف القول أنّ قوانين الفيزياء، وفي المواصف الإنسانية المكتوبة عن ملاحظات إنسانية لطريقة عمل الكون، هي التي تنتج الظواهر المرصودة. ويستنكف التكوينيون عن الاعتراف بأنّ القوانين الفيزيائية إنسانية المصدر في الأصل. فبدلاً من ذلك، يؤمن الخلوقيون بأنّ قوانين الفيزياء موجودة بشكل مستقلٍ عن الإنسان ولذلك فهي تتطلّب وجود "واضع لهذه القوانين"، قوّة إلهية "تسيطر على الكون وتحكمه" عن طريق هذه القوانين. إذا كانت قوانين الفيزياء ابتكارات إنسانية، عندها يصبح مفهوم المشرّع الإلهي لهذه القوانين غير ضروري إطلاقاً: الإنسان نفسه هو واضع هذه القوانين ومشرّعها. إنّ إدراك حقيقة أنّ العلماء هم واضعو هذه القوانين لايعني بتاتاً القول بأنّ سلوك الكون المادي له سوابق سببية كافية. لايوجد عالم حقيقي واحد يقول بأنّ الكون يتصرّف بطريقة عشوائية واعتباطية بالكامل وغير متوقعة. طبعاً، إنّ الهدف الكلي والأخير من العلم هو اكتشاف وفهم المنظومات والعلاقات السببية التي تعمل عملها في مختلف أرجاء الكون. لكن، عن طريق الاعتقاد بأنّ قوانين الفيزياء هي السبب في تصرّف الكون

على هذا النحو، يغفل التكوينيون عن الحاجة للبحث عن تفسيرات سببية أصيلة. على سبيل المثال، لو سألت لماذا الحجر التي تُرمَى باتجاه الأعلى نحو السماء تسقط فوراً نحو الأرض، وسيكون من غير المعقول ولاالمنطقي القول: «إنّه قانون الجاذبية». "فالجاذبية" أو "قانون الجاذبية" ببساطة شديدة هو الاسم الذي أطلقناه والذي أضفيناه على الظاهرة المرصودة. إنّ السبب الحقيقي والكامن وراء سقوط جميع الأشياء نحو الأرض وانجذاب جميع الأشياء الموجودة في الكون نحو بعضها هو _ في هذا اليوم_ مايزال لغزاً محيراً. صحيحٌ أنّ آينشتاين قد بيّن أنّ الأجسام الضخمة تشوّه الزمكان وتنتج عنها تأثيراً ثقالية. لكن لماذا تشوّه الأجسام الكبيرة والثقيلة الزمكان؟ مثل هذا السؤال مازال من دون إجابة، ولايمكن الإجابة عنه بالقول: «إنّه قانون الجاذبية». القانون الفيزيائي عبارة عن وصف موضوع من قبل الإنسان، وليس تفسيراً سببياً عن طريقة عمل الكون بثبات. القانون الذي يسمى بقانون "السبب-النتيجة"، كثيراً مايجري توظيفه واستغلاله من قبل الكُتّاب التكوينيون والناطقون من أنصار نظرية الخلق، ماهو إلا عبارة عن لعبة فلسفية لاهوتية، وليس بقانون راسخ ومؤسَس في مجال العلوم الفيزيائية. وبنفس الشكل، لايقدّم قانون "سبب-نتيجة" أي تفسير للعديد من المشاكل أو المسائل العلمية. لنفترض على سبيل المثال أنّ سيارتي لم تعمل بشكل صحيح ومناسب، فأخذتها إلى مرآبٍ خاص من أجل إصلاحها. وسألت عامل الصيانة هناك عن سبب عدم عمل سيارتي بشكل صحيح. فإذا أجابني التقني أو عامل الصيانة بالقول «إنّه قانون السبب-النتيجة مرةً أخرى»، فسأدرك على الفور بأنّه يراوغ، وأنّ "تفسيره" فارغ بالمرة. التفسير العلمي الواقعي سيكون: بسبب وجود عطل في التوصيلات الكهربائية جعلها عاجزة عن توليد شرارة، وهذا يحول دون اشتعال الوقود، وبذلك لايعود المحرك قادراً على تدوير محور القيادة، وبذلك

فإنّ عمود المحور غير قادر على الدوران، وبذلك تصبح العجلات الموصولة بالمحور تظلّ ساكنة لاتدور. إذن، نلاحظ أنّ التفسير أو التحليل العلمي الأصيل يتضمّن علاقات ميكانيكية محدّدة وتفاعلات معيّنة. لذا، إنّ أي حجّة تتأثر بشكل أعمى "بقانون السبب-النتيجة"، بدون ملء أي فراغات أو فجوات، هي حجّة فارغة من أي مضمون علمي.

مصونية الكتلة_الطاقة

الآن فقد ناقشنا ماهية ومعنى مصطلح "قانون فيزيائي". اسمحوا لي أن أعيد صياغة أطروحتي: أنّ القوانين الفيزيائية الراسخة والمؤسّسة منذ زمن طويل قد يتمّ استقطابها لبناء كوزمولوجيا كونية بدئية لمرحلة ماقبل الانفجار الكبير. المبدأ العلمي الذي أشير له هنا هو "قانون مصونية الطاقة-الكتلة". خلال القرن التاسع عشر، كان لايزال قانون مصونية الطاقة-الكتلة مقسوماً إلى قانونين منفصلين: قانون مصونية الكتلة mass، وقانون مصونية الطاقة energy. إنّ قانون مصونية الكتلة نصّ على أنّ الكتلة (المادة) لايمكن خلقها أو إفنائها، بل يمكن تغييرها من نوع من المادة إلى نوع آخر. على سبيل المثال، قطعة فحم لها كتلة محددة _كمية معيّنة من المادة التي تكوّنها. فإن قمنا بإحراق قطعة الفحم هذه، فإنّها ستتحوّل إلى غاز ثاني أكسيد الكربون، ماء متبخّر، ورماد. ولكن _وحسب قانون مصونية الكتلة_ فإنّ الكتلة المكوّنة للنواتج الناتجة _أي الكمية الكلية للبقايا المادية بعد احتراق الفحم_ في نفسها بالضبط، أي تساوي كتلة قطعة الفحم الأصلية. إذن لايمكن خلق الكتلة ولا إفنائها. قانون مصونية الطاقة كان نفس القانون السابق بالضبط، لكنّ تصويره هو أمر أكثر صعوبةً، هناك عدّة أشكال للطاقة: الطاقة الكيميائية، الطاقة الكهربائية، الطاقة الشمسية، الطاقة الحرارية، الطاقة الحركية، طاقة الإشعاع الكهرومغناطيسي،

وأشكال أخرى كثيرة من الطاقات المستخدمة وغير المستخدمة. يقول قانون مصونية الطاقة بأنّ الطاقة لاتفنى ولاتخلق من عدم، بل يمكن أن تتحوّل من شكلٍ إلى آخر. على سبيل المثال، قد يحدث تفاعل كيميائي يبدو أنّه قد تمّ فقد كمية من الطاقة خلاله. لكن إذا تمّ إجراء قياسات دقيقة وحذرة للحرارة الناتجة (شكل من أشكال الطاقة) أو الضوء الناتج أو النواتج الكهربائية (جميعها أشكال مختلفة من الطاقة)، فإنّ الكمية الكلية للطاقة الناتجة تبقى ثابتة لاتتغيّر بعد التفاعل الكيميائي. إذ أنّ الطاقة لاتفنى ولا تخلق. خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كان هناك عالم فرنسي اسمه أنطوان هنري بيكري يجري دراسات وابحاث على اليورانيوم في مختبره. رأى ضمن محيط هذا العنصر أنّ الطاقة تبدو وكأنّها تنبعث من لاشيء، في حين أنّ كتلة اليورانيون بدأت بالتلاشي والتآكل بشكل تدريجي في الهواء. كان أنطوان هنري قد اكتشف النشاط الإشعاعي الطبيعي (أي الطاقة النووية). وبعد عقدين من اكتشاف هنري، أثبت آينشتاين أنّ الكتلة الناتجة عن عناصر النشاط الإشعاعي لاتتلاشى ولاتنعدم، بل إنّ الطاقة المتولّدة عنها لاتظهر من العدم. بيّن آينشتاين أنّ الكتلة والطاقة هما في الواقع الشيء ذاته، ذات الشيء تعبّر عنه الطبيعة بشكلين مختلفين. وقد دمج آينشتاين في معادلته الشهيرة E=mc2 (الطاقة= الكتلة مضروبة بسرعة الضوء للتربيع) كلا قانوني المصونية ضمن مبدأ بسيط وموحّد: قانون مصونية الكتلة-الطاقة. هذا القانون الأشمل ينصّ على أنّ الكتلة يمكن أن تتحوّل إلى طاقة (كما في حالة عنصر اليورانيوم)، وأنّ الطاقة يمكن أن تتحوّل إلى كتلة. وقد تبدّل الكتلة أشكالها، وقد تبدّل الطاقة أشكالها أيضاً. لكن عندما تجتمع جميع العوامل وتتزامن مع بعضها، لايمكن خلق الكتلة-الطاقة أو إفنائها: الكتلة الكلية للكتلة-الطاقة في الكون تبقى ثابتة دوماً. علاوة على ذلك، جميع الأشياء المادية _أنا، أنتم، الأرض،

النجوم، وحتى أصغر الذرات_جميعها مكوّنة من كتلة/ طاقة بمختلف أشكالها. ومنذ الفترة التي نشر فيها آينشتاين نظريته، أي منذ أكثر من 90 عاماً، نجحت جميع التجارب والاختبارات التجريبية في إثبات صحّة قانونه في مصونية الكتلة/ الطاقة. وإذا ماظهر _أو ربّما يظهر_ أي دليل مستقبلي ينفي صحّة هذا القانون، فإنّ الأفراد ذوي العقلية العلمية اليوم كلزمون بقبول هذا الوصف للكون. خلال العشرين سنة الماضية، قام علماء الفيزياء الفلكية والكونيات _وعلى رأسهم الأستاذ بجامعة كامبريدج البروفسور ستيفن هوكينغ_ بتوسيع فهمنا أكثر لقانون الكتلة/ الطاقة وفسّروا لنا كيف أنّ سكات وخصائص الكتلة/ الطاقة الغريبة والعجيبة تقدّم لنا حلولاً فعلية للغز النشأة الكونية. لقد وصف كلٌّ من هوكينغ وآخرون ظاهرة طبيعية تسمى بـ"التذبذب الفراغي Vacuum Fluctuation"، حيث يتمّ خلق المادة ممّا يبدو كأنّه فراغ بحت _أي من عدم كما يظهر. لقد اكتشف العلماء أنّه حتى ضمن فراغ تام، حيث تنعدم جميع أشكال المادّة/ الطاقة المعروفة، توجد هناك تذبذبات كهرومغناطيسية عشوائية. تمثّل التذبذبات عملياً شكلاً من الطاقة التي تسمى الآن بطاقة التذبذب الفراغي_ والتي يمكن تحويلها إلى مادة متناغمة تماماً مع قانون مصونية الكتلة/ الطاقة. بمعنى آخر، إنّ "العدم" الفراغ الكلي ضمن الفضاء الخاوي يمكن أن ينتج بشكل تلقائي مادة متوافقة كلياً مع قوانين آينشتاين الراسخة.

استدلال

إذا لم يكن من الممكن خلق الكتلة/ المادة ولا إفنائها، وإذا كان الكون مكوّناً كلياً من كتلة/ طاقة، عندها يمكن استقطاب قانون مصونية الكتلة/ الطاقة إلى هذه النتيجة المثيرة: الكون، بشكلٍ أو بآخر، بكثافة معينة أو بأخرى، موجودٌ دوماً ومنذ الأزل. لم يكن هناك زمن لم يكن كوننا موجودٌ فيه، إنّما كان على شكل تذبذب فراغي أو عبارة

عن نقطة افتراضية عالية المثافة تسمّى "متفرّد Singularity"، لم تكن تحتوي أي كتلة أو أي مقدار مهما كان. أثناء لحظة الانفجار الكبير، كان الكون كثيفاً للغاية وساخناً جداً. لم تكن الجسيمات الأساسية، التي تشكّل الآن العناصر الكيميائية الأساسية، موجودةً بعد تحت هذه الظروف الشديدة. أمّا بعد الانفجار الكبير فوراً، يُعتَقَد أنّ الكون المتّسع بتسارع رهيب كان مكوّناً من طاقة بحتة، ولم تتشكّل المادة إلا لاحقاً، بعد أن توسّع الكون أكثر وسمح بتشكّلها تحت درجات حرارة أقل. بغضّ النظر عن شكل الكون بطبيعة الحال _الذي هو مجموع كل كتلته/ طاقته_ فإنّه لم يكن ليظهر في حيّز الوجود، حسب قانون مصونية الكتلة/ الطاقة، من عدم بالطريقة التي يتصوّرها التكوينيون وأنصار نظرية الخلق والتكوين. فحسب هذا المبدأ العلمي المؤسّس والراسخ، لم يخلق كوننا المكوّن من كتلة/ طاقة من لاشيء _عدم_ ولا يمكن إفناؤه أو تدميره. إنّ التسليم والاعتقاد بصحّة الفرضية التكوينية يعني تجاهل أو انتهاك قانون مصونية الكتلة/ الطاقة. أمّا إذا كان أنصار نظرية الخلق والتكوين يمتلكون دليلاً أوبرهان تجريبياً تناقض قانون مصونية الطاقة/ الكتلة، فليشاركوا هذه المعلومات مع الآخرين ويعرضوها على الملأ وعموم المجتمع العلمي. وإلا فستظلّ النظرة إلى المذهب التكويني القائل بأنّ إلهاً ما قد خلق كوننا وأخرجه من العدم على أنّه مذهب لاهوتي أكثر من كونه مذهب علمي. إنّ مصطلح "علوم الخلق والتكوين" هو مصطلح يتضمّن في ذاته تناقضاً صارخاً.

اعتراضات

لكن ماذا عن السؤال الذي طرحه مورتماير أدلر «لماذا هناك شيء بدلاً من لاشيء؟». أنا شخصياً أتردّد كثيراً في انتقاد أدلر لأني أحترم كتاباته وأقدّر مساهماته الجليلة في مجال التربية والتعليم والفلسفة المعاصرة. إذن، اسمحوا لي أن أشير بأنّه

لطالما زعم بأنّه يتحدّث كفيلسوف، وليس بصفته عالماً. سؤال آدلر _لماذا هناك شيء، بدلاً من لاشيء؟_ يفترض أنّه يجب أن يكون هناك "لاشيء": إنّ "الحالة الطبيعية" هي عدم الوجود. والحقيقة الواضحة أنّ هناك شيء يبدو كمعجزة بالنسبة لآدلر ويتطلّب تفسيراً ماورائياً. "اللغز" الكامن في سؤال آدلر لا يكمن في سؤال الماورائي، إنّها في صياغته الافتراضية للسؤال نفسه. سؤال آدلر شبيه بافتراض أنّ العشب يفترض أن يكون أحمر اللون، ثمّ القول: لماذا العشب أحمر بدلاً من أن يكون لونه أخضر، وهذا دليل على حدوث معجزة إلهية. من الناحية العلمية، السءال يجب أن يكون على النحو التالي: «لماذا لايكون هناك شيء بدلاً من لاشيء؟». ماتقوله القوانين العلمية هو أنّ الكون ليس من المفترض أن يكون موجوداً، أو أنّ اللاوجود هو "الحالة الطبيعية" للكون؟... في الحقيقة، لاوجود لهكذا قوانين. في المقابل، يقودنا قانون مصونية الطاقة/ الكتلة إلى نتيجة مختلفة تماماً: أنّ الكتلة/ الطاقة التي تشكّل كوننا الآن كانت موجودة دوماً منذ الأزل، مع أنّ الكون، كما نراه اليوم، قد بدأ بالتأكيد مع الانفجار الكبير. يمكننا القول ضمن سياق حجّة السبب الأول: لكي يكون لشيء ما أثر أو تأثير سببي على الكون أو أي شيء بداخله، فإنّ هذا الوكيل أو المسبب يجب أن يكون موجودٌ مسبقاً. بمعنى آخر، لايمكن لشيء ما غير موجود أن يكون له دور، أي وكيل مسبب من أي نوع كان على الكون أو مابداخله. إنّ مفهوم السببية بمجمله يفترض وجود سبب مسبق. لكن بدلاً من إدراك أنّ السببية تتطلّب وجوداً، فإنّ التكوينيون يعتنقون منطقاً "منحرفاً" ومتخلّفاً يقول بأنّ وجود (الكون) يشير إلى وجود مسبّب _أي أنّ الكون مخلوقٌ من لاشيء ولذلك فهو يتطلّب تفسيراً سببياً ماورائياً. لايوجد عالم واحد يجادل بأنّ كوناً مخلوقاً من قبل الله من لاشيء لن يتطلّب تفسيراً ماورائياً. يتجاهل التكوينيون أو ينسون تماماً الأسئلة المتعلّقة

بالموضوع: 1) ما الدليل الذي يثبت بأنّ الكون قد ظهر من لاشيء؟ 2) ما الدليل على أنّ هناك مادة/ كتلة _هي التي تشكّل الكون_ كانت موجودة منذ الأزل؟...
الجواب: ليس لدينا أي دليل أو برهان يثبت أنّ الكتلة/ الطاقة قد ظهرت من لاشيء، ولدينا ملاحظات تجريبية مؤكّدة جيداً بأنّ الكتلة/ الطاقة لا يمكن أن تظهر من العدم. فإذا التزمنا بالمنهج العلمي الصارم، سنتوصّل إلى نتيجة وحيدة مفادها: أنّ كوننا المكوّن من كتلة/ طاقة، كان موجوداً منذ الأزل بشكلٍ أو بآخر. السبيل الوحيد الذي يمكن للتكوينيون من خلاله تقييم التفسير العلمي لوجود الكون هو أنّه سيكون عليهم أن يشرحوا لنا وبالتفصيل الدقيق والممل الآلية أو الوسائل التي من خلالها تحوّل العدم أو اللاشيء إلى شيء على يديّ الله. وغياب مثل هذا التفسير يعني أنّ نظرية الخلق والتكوين ستظلّ مجرّد دوغما دينية متخلّفة بعيدة كل البعد عن العلم الصحيح والحقيقي. إنّ الزعم والقول بأنّ «الخلق عبارة عن لغز غلهي مقدّس» أو أنّ عملية الخلق كانت نتيجة لقانون السبب-النتيجة، ليس تفسيراً علمياً على الإطلاق. علماء الفيزياء النظرية الغارقين في الرياضيات قد يعارضون قائلين بأنّ قوانين الفيزياء تتعطّل خلال الفترة ماقبل زمن بلانك _ أو قبل الجزء الأول من الثانية الأولى من الانفجار الكبير. وقد يمضي البعض في جدالهم لأبعد من ذلك، بما أنّ الزمكان نفسه قد جاء إلى حيّز الوجود أثناء الانفجار الكبير، فإنّنا نطرح سؤالاً سخيفاً وسطحياً وغير منطقي عندما نسأل «ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟» سأردّ هنا بالقول بأنّ "انهيار القوانين الفيزيائية وتعطّلها" قبل زمن بلانك يتضمّن عدم انسجام أو عدم توافق بين النسبية العامة وفيزياء الكم. ولا واحد من هذين المجالين يتعارض أو يتناقض مع قوانين مصونية الكتلة/ الطاقة. فإمّا أنّ نظرية النسبية العامة أو فيزياء الكم _أو كليهما_ ستحلّ محلّهما قوانين جديدة، أو يتعطّلان خلال

اللحظات الأولى من عمر الكون. لكنّ هذه الحقيقة لاتمتّ بصلة لمسألة قانون مصونية الكتلة/ الطاقة تحت أي ظرفٍ كان. علاوةً على ذلك، أي تفنيد حقيقي لمصونية الكتلة/ الطاقة سيرفد في النهاية الاتجاه العلماني [وليس الديني أو اللاهوتي] في مجال علم الكونيات، بما أنّ عملية ظهور الكتلة/ الطاقة من العدم لن تتطلّب بعد الآن تفسيراً ماورائياً. لنتحدّث الآن ضمن إطار الفيزياء النظرية البحتة، طبعاً من الخطأ السؤال: «ماذا كان يوجد، أو ماذا حدث قبل الانفجار الكبير؟» لأنّ ظهور الزمكان وبذلك ظهور مصطلحات ومفاهيم على غرار "قبل" و"بعد" مرتبط بشكل واضح ومعقّد بحضور وتمدّد الكتلة/ الطاقة. كيف يمكن قياس الزمن من دون المادة وحركتها؟ لكن في سياق النقاش العلمي، فإنّ علماء الكوزمولوجيا برأيي لايجب أن يعترضوا بشدّة على تساؤلنا حول الذي كان أو حدث قبل "الانفجار الكبير"، لأنّ حَظرَ هذا السؤال يُفهَم من قبل الشخص العادي على أنّه محاولة للتملّص وتجنّب الإجابة عنه. «أنت لاتمتلك إجابة، لذلك تمنع السؤال وتحظره». في حين أنّنا لايجب أن نقدّم علوماً سطحية أو بالية فقط إرضاء ميول العوام، ولاينبغي أن نتجاهل حقيقة أنّ قوانيننا الفيزيائية الحالية إذا كانت تقدّم لنا جوابا مرضياً وكافياً للنشأة الكونية بدون الاستعانة بأيّة تفسيرات ماورائية ووكلاء غيبيون. إذا لم نكن نخطّط للتساؤل ما الذي جرى أو كان قبل الانفجار الكبير، عندئذٍ فهذا التقييد المفروض علينا من قبل الفيزياء سيدعم النظرة العلمانية لعلم الكونيات، لأنّ الحاجة الضرورية للوجود المسبق لله لايمكن أخذها بعين الاعتبار ضمن سياق العلم/ ومن غير الممكن إثباتها عن طريق الوسائل العلمية والمنهج العلمي كما يزعم التكوينيون ويحاولون فعله.

عقبات سيكولوجية

بالنسبة للغالبية منا، من الصعب تصوّر وجود أحجار البناء الأساسية لكوننا منذ الأزل، إنّها مسألة محيّرة ومربكة للعقل. في شؤون حياتنا اليومية، نلاحظ أنّ جميع الأشياء المادية المحيطة بنا لها امتداد لوجودها. فالسيارة الجديدة التي اشتريناها اليوم لم تكن موجودة قبل تصنيعها في المعمل، بل وتصميمها أيضاً على أيدي المصمّمين. الخضروات التي نأكلها اليوم لم تكن موجودة قبل عدّة أشهر، قبل موسم الزرع. حتى الكائن الإنساني يبدو وكأنّه قد تمّ خلقه في رحم أمّه. إذ يبدو الجنين كخلية مفردة، ومع ذلك فإنّه لدى ولادته يكون مؤلفاً من مليارات الخلايا ، وجميعها تبدو وكأنّها جاءت إلى الوجود بطريقة إعجازية، ولتؤدّي غرضاً مصمماً لها مسبقاً. لاعجب إذن أنّ "حسّنا العام" يخبرنا بأنّ الكون نفسه لابد أن يكون له بداية، لذا لابد أنّه مخلوق من قبل الله. إنّ "حسّنا العام" مشكّل عن طريق ملاحظاتنا ومشاهداتنا للحوادث التي تجري من حولنا، فعملياً كل شيء نراه على الأرض يبدو أنّه جاء إلى الوجود، ثمّ يختفي لاحقاً ويزول إلى الأبد. ومع ذلك عندما ننظر إلى مسألة وجود الكون، دعونا نتذكّر نقطتين هامتين في غاية الأهمية: 1) إنّ مشاهدتنا وملاحظتنا لما يجري من حولنا من أحداث في هذا العالم لاتؤسّس بالضرورة داخل عقولنا "حسّنا العام" وتصوغ أحكامنا التي قد تنطبق على الكون ككل. 2) الملاحظة الدقيقة والحذرة لوقائع العالم ستبيّن لنا أنّ الأشياء والموجودات الأرضية لاتظهر من عدم كما يخبرنا "حسّنا العام". العلم، بالتعريف، يقصي أفكار "الحسّ العام" ويضعها جانباً ويعتمد فقط على البيانات التجريبية لتأسيس القانون العلمي. ولا يهتمّ بتاتاً ما إذا كنا مرتاحين مع نتائج تجربتنا أو راضين عنها. فهذه النتائج التجريبية، إذا كانت قابلة للتكرار وقابلة للتأكيد من خلال تجارب مستقبلية، يجب القبول بها وأخذها بعين الاعتبار، بصرف

النظر عن "حسّنا العام" ونظرياته التي تتناقض مع تلك النتائج التجريبية. لنفترض على سبيل المثال أنّ إنساناً ما يقف وسط سهلٍ شاسع، وفوق أرض السهل على ارتفاع ستّة أقدام، وعلى مستوى خط النظر، يرفع مسدساً أفقياً متوازٍ تماماً مع أرض السهل، ليس مرتفعاً كثيراً ولا منخفض كثيراً، بل في وضع أفقي ومتوازي مع الأرض. في يده الأخرى، وعلى مستوى خط النظر أيضاً، يحمل الرجل كرة بولينغ زنتها 15 باونداً. لنفترض الآن أنّ الرجل يطلق النار من مسدّسه ويسقط الكرة من يده على الأرض في نفس اللحظة تماماً. فحسب حسّنا العام وحكمنا على أساسه، أي الجسمين سيصل إلى الأرض قبل الآخر: الرصاصة أم كرة البولينغ؟ هل توقّعتم أنّ كرة البولينغ هي التي ستلامس الأرض قبل الرصاصة؟ أغلب الناس سيفاجئون عندما يدركون ما اكتشفه غاليليو منذ أكثر من قرن مضى: أنّ جميع الأجسام تتسارع نحو الأرض بمعدّل واحد، بغضّ النظر عن أوزانها المختلفة أو قوة دفعها الآني باتجاه الأفق. بمعنى آخر، إذا لم تكن هناك عوامل خارجية متدخّلة بالتجربة فإنّ كرة البولينغ والرصاصة ستلامسان الأرض في نفس اللحظة. سواءٌ أكان "حسّنا العام" يشعر بالراحة والرضا بهذه النتيجة، فهذا لايعني العلم في شيء.يجب القبول بالنتائج التجريبية للتجربة. وبنفس الشكل، تتطلّب المواقف العقلانية والعلمية منّا القبول بالنتائج الكوزمولوجية لقانون مصونية الكتلة/ الطاقة سواء رضينا بذلك أم لا. غالباً، قد يضلّلنا "حسّنا العام" ويقدونا نحو سبل خاطئة إذا استخدمناه في عملية تأسيس القانون العلمي. أغلب المفكّرين قبل عصر النهضة كانوا يعتقدون أنّه من الطبيعي ومن السليم الاعتقاد بسطحية الأرض وسكونها. ولو أنّه تمّ اختبار نظريتي آينشتاين في النسبية العامة والخاصة عن طريق الحس العام، لتمّ تحويل آينشتاين إلى مصحّ عقلي. أسألكم: أين الحس العام في مسألة تأخّر الزمن وتراجعه أو مسألة قابلية الفضاء للانحناء

والانطواء التي تحدّث عنها آينشتاين؟ إنّ الأفكار القائمة على أساس الحس العام وحده ليست جديرة بالاستخدام والاعتماد في مجال العلم، وغير مجدية على الإطلاق. علاوةً على ذلك، كما سبق وناقشنا خلال هذا المقال، إنّ قانون مصونية الكتلة/ الطاقة يبيّن بأنّ الحوادث الواقعة محلياً على مستوى العالم أو كونياً على مستوى الكون ككل لاتنتج _ولا يمكنها ذلك_ مادةً وطاقةً من العدم. من غير الصحيح علمياً القول بأنّ شركة فورد للمحركات قد صنعت السيارات، إذ من الواضح أنّ المواد الخام الموجودة مسبقاً هي التي تدخل في عملية التصنيع. يمكننا القول، بشكلٍ أدق وأكثر صحةً، أنّ شركة فورد تجمّع السيارات وتركّبها من أجزاء وقطع مكوّنة، أجزاء مصنوعة من مواد خام موجودة مسبقاً في الطبيعة. يعلّمنا العلم أنّ العناصر الأعلى التي تدخل الآن في تركيب أجسادنا هي نفسها مكوّنة من عنصر الهدروجين البدائي الذي تشكّل داخل الأفران النووية الضخمة في قلب النجوم. وبكلمات العالم كارل ساغان، أنا وأنتم مكوّنين من "مواد نجمية". وبطريقة أكثر واقعية، أنتم وأنا، مثل كوننا المكوّن من كتلة/ طاقة، موجودون دوماً ومنذ الأزل، لكن ربما بطريقة مختلفة.

خلاصة

ما النتيجة التي نتوصّل إليها عن الكون ماقبل زمن الانفجار الكبير؟ حسب قوانين الفيزياء الحالية، الكتلة/ الطاقة، اللتان أطلقتا عملية التوسّع والتمدّد الجارية للكون لحظة الانفجار الكبير، كانتا موجودتان قبل الانفجار الكبير، قام القمر الصناعي كوب COBE التابع لوكالة ناسا بجمع بيانات ومعلومات تدعم فكرة "النموذج المتضخّم" للكون inflanationary model. ومن بين النتائج النظرية الأخرى، يقترح نموذج الكون المتوسّع أنّ الكثافة المادية للكون _أي المجموع أو

الكمية الكلية للمادة المشتّتة والموزّعة في أرجاء الكون_ قد تكون كافية في النهاية لإيقاف عملية التمدّد الحالية للكون عن طريق الجذب الثقالي. عندها سيبدأ الكون بالانحسار والانهيار على ذاته، ومن خلال الجذب الثقالي في النهاية، ستتجمّع المادة والطاقة مع بعضهما وستنضغطان ضمن نقطة مفردة متاخمة رجوعاً إلى الوراء إلى لحظة الانفجار الكبير. وقد أطلق العلماء على هذا الانهيار الكوني الهائل اسم "الانكماش الكبير Big Crunch". في لحظة الانكماش الكبير، يعتقد أغلب العلماء أنّ الكتلة/ الطاقة اللتان تكوّنان كوننا ستندمجان مع بعضهما وتنفجران مجدداً لتشكيل انفجار كبير آخر. هذه النظرية _أنّ الكون المضغوط والمحصور في حيّز صغير من المكان سيندمج_ تقوم أساساً على فهمنا لظاهرة السوبرنوفا، التي تنهار على ذاتها، تتراجع أو تنكمش نحو الخلف. ثمّ تنفجر باستعار. هناك نماذج نظرية أخرى وأحدث يبدو أنّها تشير إلى أنّ الكون قد يستمرّ في تمدّده إلى الأبد، إلى ما لانهاية، ولا ينكمش أو ينهار. برأيي الخاص، الذي يستحق وقفة للتأمّل، حتى يقدّم لنا علماء الفلك والكوزمولوجيا تفاصيل دقيقة ووافية عن طبيعة ونوعية وكمية مايسمى عادةً بـ"المادّة المظلمة Dark Matter" و"الطاقة المظلمة Dark energy" _واللتان تشكّلان حوالي 90٪ من مجمل الكتلة/ الطاقة في الكون_ لايحق لأي عالم الزعم والادعاء بأنّه يمتلك "الجواب النهائي" لهذا اللغز. في الوقت الحالي، ربما يكون الكون مازال في خضمّ المراحل الأولية في عملية توسّعه، أو ربّما يكون قد توسّع وانهار على نفسه ملايين ومليارات المرات قبل حالته الحالية. فبالرغم من أننا في فجر القرن الحادي والعشرين، مازلنا لانعرف شيئاً. لكن يمكننا أن نتوصّل لنتيجة _اعتماداً على قوانيننا الفيزيائية الحالية_ مفادها أنّ كوننا المكوّن من كتلة/ طاقة أقدم بكثير وبشكل لامتناهي ممّا يعتقده أغلب البشر.

الله والعلم

إبراهيم جركس

«قد يكون عقلي عاجزاً عن إدراك شيء ما مثل الروح. قد أكون على خطأ، وقد يكون لديّ روح، إلا أني وببساطة لا أؤمن بها.» [توماس أديسون] «كل ما نملك من العلم يُعَدّ بدائياً وطفولياً إذا ما قيس إلى الواقع... لكنه برغم ذلك أثمن ما نملك» [ألبرت آينشتاين] «ما أن يتمّ الاعتراف والتسليم بالمعجزات، يصبح التفسير العلمي خارج الإطار.» [يوهان كبلر] «حالياً هناك إشارات تشير إلى أنّ الإيمان بالله، ويتمثّل في النظرية التي تقوم على التخمين والتفكّر، تمّ استبداله بالإلحاد، أو علم التجربة والبرهان. وفي حين أنّ الأول يتعلّق بالسراب الميتافيزيقي للماوراء، فإنّ الأخير يمدّ جذوره ويرسّخها بثبات في تربة التجربة. إنها الأرض، وليست السماء، التي يجب على الإنسان إنقاذها إذا كان يريد الحفاظ على حياته واستمرار جنسه.» [إيمّا غولدمان] هناك ميل عام وشائع بين المؤمنين لتقديم ظاهرة معينة _كدليل على وجود الله_ "لا يمكن أن يفسّرها العلم" حسب زعمهم. على سبيل المثال، الداروينية الجديدة ظلت حتى وقت متأخر غير قادرة على تفسير عملية تطور صدفة السلحفاة. كافة الاستنتاجات جرى تأسيسها بناءً على.التعديلات التدريجية للقفص الصدري عند أسلافها. البنى المتوسطة بين القفص الصدري والصدفة لم تكن لها أيّ وظيفة وبذلك لم يتمّ تفضيلها من قبل الانتقاء الطبيعي. لذلك فإنّ الله، حسب مزاعم المؤمنين، يجب أن يكون هو التفسير الفعلي والحقيقي لصدفة السلحفاة. بالتأكيد يمكن أن اللجوء إلى الله لتفسير ظاهرة مبهمة وغامضة. بأي حال، المسألة هنا ليست ما إذا كان من الممكن تقديم تفسير معيّن، بل ما إذا كان التفسير الذي تمّ تقديمه

صحيح ويتماشى مع الواقع. لعرض هذه الفكرة بشكل أوضح، دعونا ننظر إلى حالة ميل ماء المطر للتكوّن على شكل قطرات. يمكننا تفسير هذه الظاهرة من خلال استحضار مجموعة من الأرواح الخفية التي تعزل كمية صغيرة من الماء وتمارس عليها ضغطاً لتحوّلها إلى قطرة. هذه النظرية في الأرواح المطرية قد تكون تفسيراً مناسباً لميل ماء المطر للتشكل على شكل قطرات. لكن هل هذا التفسير هو التفسير الصحيح والحقيقي؟ لنتصوّر مثلاً عدم وجود أي تفسير آخر معروف. هل يجعل هذا الأمر من نظرية الأرواح النظرية الصحيحة الوحيدة؟ المؤمن لا يستخدم سوى هذا النوع من الحجج لتقديم محاجته. فهو يؤكّد أنّه بما أنّ الله تفسير مناسب وملائم للظاهرة المحيّرة وغير المفسّرة، ولا يوجد هناك أي تفسير آخر أكثر ملائمةً معروف بعد، عندها يجب أن يكون الله هو التفسير الفعلي والحقيقي الوحيد لهذه الظاهرة. لكن هناك مشكلتان ستواجهاننا عند تطبيق هذه النظرة. الأولى، التفسير الملائم أو المناسب قد لا يكون التفسير الصحيح بالضرورة فقط لأنه ملائم. قد يتمّ تطوير تفسيرات أخرى ملائمة بنفس الدرجة. على سبيل المثال، شخص قد يغرق عملياً كنتيجة سقطة سيئة أو لأنّ هناك قاتل ما قد أغرقه. كلا التفسيرين لحادثة الغرق ملائمان. لكن واحد منهما هو التفسير الفعلي والصحيح. فملائمة تفسير ما لا يضمن صحّته بالضرورة. والملائمة ليس العلامة الوحيدة على الصحة. لكنّ الملائمة أحد الشروط التي ينبغي أنْ تتوفر في التفسير ليكون صحيحاً، لكنّها لوحدها غير كافية. وبالمقابل من غير المرجح أن يكون التفسير الملائم هو التفسير الصحيح بالضرورة على أساس أنّه التفسير الملائم الوحيد الذي نعرفه. وهذا واضح من خلال حقيقة أنّنا نعرف التفسيرات والأسباب الحقيقية للكثير من الأمور التي كانت في وقت ما يرجع تفسيرها إلى أنّها من عمل الله أو تفسيرات غيبية ماورائية أخرى. على سبيل المثال، الإنسان البدائي لم يكن يمتلك

أي فكرة عن طبيعة النار وأنّها تتكوّن من طاقة تمّ تحريرها عن طريق عملية أكسدة سريعة للمكوّنات الكربونية. فهو لم تكن لديه أية معرفة بالكيمياء. لكنه كان قد تفكّر بطبيعة النار وخرج باستنتاجات خاصّة به وهي أنّها توليد سحري وعجيب للحرارة والضوء سببه الله ولا شيء آخر. في الأزمنة القديمة عندما كان يجلس الإنسان القديم بالقرب من النيران التي كان قد اكتشفها للتو، كان يرى ظلاله التي تنعكس على جدران الكهف، فأخذ خياله الجامع والبدائي بنسخ خيالات عن الأشباح والأرواح والأخيلة. وحينما كان يرقد لينام، كان يحلم، ولم يكن يعرف ماهية تلك الأحلام ولا نشأتها، فأخذ يرسم في عقله صوراً ومشاهد لعوالم غريبة وجنان ويؤلّف القصص والروايات والأساطير حولها. إذا كان تفسير الله ملائماً، عندها كان تفسير الله في فترة زمنية مبكّرة هو التفسير الملائم الوحيد المعروف لنا. ويمكن إيراد عدد لا يحصى من الأمثلة على ذلك إلى ما لا نهاية. إذا كان "التفسير الملائم الوحيد المعروف لنا" هو التفسير الخاطئ في غلب الأحيان، فمن الصعب القول أنّ هذا التفسير على الأرجح هو الصحيح لمجرد أنّه التفسير الملائم الوحيد الذي نعرفه حتى الآن. كحقيقة تاريخية، كنا نقرّر عادةً أنّ تفسير ما هو التفسير الصحيح فقط عندما تتمّ مقارنته مع العديد من التفسيرات المنافسة البديلة والملائمة بنفس الوقت. بما أنّ على المؤمن التسليم بأنّ التدّخل المباشر لله هو التفسير الملائم، إذن فهناك تفسير بديل لطالما كان متوفراً. لا يؤخذ تفسير معيّن على أنّه التفسير الصحيح فقط لأنّه ملائم. ولا لأنّه التفسير المناسب الوحيد الذي تمّ تطويره حتى الآن. يؤخذ التفسير على أنّه صحيح عندما يصمد أمام التجارب التي صُمّمَت خصيصاً لتكذيبه. يقول كارل بوبر عن أنّ صدق نظرية أو تفسير ما ينبع من قابليتها للتكذيب. هذه الاختبارات التي تهدف لتكذيب النظريات أو التفسيرات ينبغي إرفاقها بتجارب مؤكّدة. لكن كيف لنا أن

نحدّد ما إذا كان يمكن استخدام نظرية الله لتفسير أي شيء بشكل صحيح؟ نحن لا يمكننا رؤيته أثناء عمله ولا توجد هناك أي تجربة أو اختبار _سواء من النوع التكذيبي أو التوكيدي_ يمكننا من خلالها كشفه وملاحظته. المؤمنون يعتمدون على نظرية الله كلياً بصفتها التفسير الملائم الوحيد المعروف حتى الآن. ما لم يكن في المستطاع تأسيس نظرية الله كتفسير صحيح، يمكننا اعتبار وجهة نظر المؤمنين على أنّها مجرّد تفسير محتمل آخر. العلم يبحث عن التفسيرات الصحيحة ولا يكتفي بالتفسيرات الملائمة والمناسبة المعرفة فحسب. إذا كان العلم سيقول عن كل ظاهرة محيّرة أنّها من صنع الله أو أنّه سببها، فلن يكون هناك أي تقدّم علمي يذكر. فقط تخيّل نوع المعرفة التي سيراكمها العلم الآن لو أنّه سلك هذا السبيل. جميع المعرفة العلمية ستقوم على فكرة واحدة: الله. لا إلكترونات، لا ذرات ولا جزيئات. ما الذي يجعل النار تتقد؟ الله... ما سبب البرق؟ الله... ما سبب هطول المطر؟ الله. يرى العالم كارل ساغان أنّ نجاح العلم وقدرته على تقديم تفسيرات صحيحة يعود إلى رفضه القاطع للبحث عن مخرج سهل للظواهر وإعلان الله كتفسير لكل شيء. كما أنّ نجاح العلم في تطوير تفسيرات ونظريات صحيحة وقدرته على صياغتها سبب كافٍ للاعتقاد أنّ هذا الرفض مبرّر. الاستكشاف الثابت والصارم للحقيقة أفضل تبرير للإجراءات المتبعة في اكتشافها. (لنتذكر هنا أننا نناقش تفسير أمور محدّدة كأسباب ظاهرة البرق وصدفة السلحفاة. أمّا تفسير العلاقات والتفاعلات المنتظمة بين المواد الأساسية في الكون فسيتمّ مناقشتها لاحقاً في مقال آخر). منذ الأزمنة البدائية المبكرة وحتى الآن، قطع العلم شوطاً طويلاً جداً في تقدمه. لقد طورنا تفسيرات، تقوم على أسباب طبيعية، للعديد من الحوادث والظواهر التي لم تكن معروفة أو مفسّرة من قبل. إذن كيف يمكننا معرفة أنّ هذه الظاهرة غير المفسّرة في الوقت الحالي لها تفسير طبيعي آخر

أكثر إقناعاً ومعقولية؟ الفئة الكلية للحوادث غير المفسّرة ليست بالضرورة كتلك المجموعة غير المفسّرة ضمن مجال الأسباب الطبيعية. فإذا كانت هي ذاتها، لن يتمّ إحراز أي تقدّم علمي يذكر. والأمر كذلك لأنّ التقدم العلمي في تعريفه ينصّ على تطوير تفسيرات طبيعية لظاهرة لم تكن مفسرة سابقاً في هذا السياق. للقول أنّ هناك ظاهرة يجب اعتبارها غير قابلة للتفسير يعني التنبؤ بما قد يكشفه مستر البحث العلمي في المستقبل. وهذا بالكاد سيكون عملاً تخمينياً. قد يعترض المؤمن قائلاً أنّنا في بعض الأحيان بإمكاننا التنبؤ وبدقة بما يمكن أن يعتبر حقيقياً وصحيحاً. على سبيل المثال، في قضية جريمة قتل إذا لم يكن هناك دليل يدين المتهم، عندئذٍ يكون لدينا سبب جيد للشك بعدم وجود هكذا دليل. لكنّ المثال في الأعلى يقوم على مواقف مألوفة لدينا خبرة مسبقة حولها تجعلنا نعرف ماذا نتوقع. بطبيعة الحال، عندما ننظر في مستقبل مسار البحث العلمي، تقودنا الخبرة والتجربة إلى توقع اللامتوقع. لقد أنتج العلم العديد من الاكتشافات غير المتوقعة خلال مسيرته التاريخية. إنّ حقيقة أنّنا في الوقت الحالي نجهل تفسير ظاهرة معينة لا يمكن أن تكون أساس التمييز بين ما هو غير قابل للتفسير وما الذي لم يفسّر بعد. الجهل الحالي أمر شائع بالنسبة للاحتمالين. نحن لن نكون جاهلين في الوقت الحاضر إذا كانت ظاهرة معينة غير قابلة للتفسير ممّا سنكون جاهلين إذا كانت غير مفسّرة بعد. ففي كلتا الحالتين لن يكون بحوزتنا أي تفسير. يمكننا القول أننا لا نعرف أي تفسير طبيعي وربّما هناك أكثر من واحد. إنّ حالة الجهل الحالي متطابقة _متضمّنة فيهما طبعاً_ مع كلا التصريحين. وإذا كان الأمر كذلك، عندها لا يمكن استخدام حالة الجهل الحالي كحجّة ضدّ أي منهما. إذا أراد المؤمن استخدام جهلنا لتفسير معين قائم على أساس الأسباب الطبيعية كحجّة لإثبات وجود الله، عندئذٍ عليه هو أيضاً أن يعترف بوجود حالة جهل حالي بوجود

الله. حيث أنّ وجود الله هو بالضبط الهدف الذي تمّ وضع الحجّة في الأساس لإثباته. سيكون من العبث تقديم مثل هذه الحجة إذا سلّمنا مسبقاً بوجود الله. لذلك، إذا استعملنا فكرة الجهل الحالي كمقدمة في حجّة لإثبات وجود الله، فإنّ حالة الجهل هذه يجب أن تكون جهلاً لأية أسباب طبيعية محتملة ولوجود الله. في النهاية، تماماً كما أنّ فكرة وجود الله لا يمكن تأسيسها عن طريق الافتراض ببساطة بأنه موجود، بنفس الشكل فإنّ صلاحية تفسير ما قائم على الأسباب الطبيعية لا يمكن تأسيسها عن طريق ملائمتها وقابليتها للتطبيق. فالحجة يجب أن تقوم على فرضيات لا خلاف عليها، وإلا لكانت نتيجتها عرضة للخلاف حولها ولن تصمد الحجة أكثر. لهذا السبب، إنّ نتيجة أي حجة لا ينبغي أن تكون متضمّنة في قائمة فرضياتها التي تكوّنها «من الأمور السيئة أخلاقياً ألا يهتمّ المرء بها إذا كان شيء ما صحيحاً أم غير ذلك طالما يجعلنا نحسّ أننا على ما يرام تماماً، مثل عدم اهتمامنا بالكيفية التي نحصل بها على المال طالما حصلنا عليه بالفعل» [إدموند واي تيل، 1952] «العلم يثير إحساساً قوياً بالدهشة، ولكن هذا أيضاً ما تفعله الخرافة. فالجهود الضعيفة المشتتة لترويج العلم تتخلى عن المواقع البيئية التي سرعان ما تشغلها الخرافة. فلو فُهِمَ على نطاق واسع أنّ مزاعم المعرفة تتطلب دليلاً كافياً قبل أن يتمّ قبولها، فلن تجد الخرافة مكاناً لها» [كارل ساغان] «في غالب الأحيان، يجلب الجهل الثقة، أكثر مما تفعل المعرفة... فالذين يعرفون القليل، وليس من يعرفون الكثير، هم الذين يؤكّدون بقوة أنّ هذه المشكلة أو تلك لم يحلّها العلم أبداً» [تشارلز داروين] «الآلهة هي كائنات هشّة وضعيفة، إذ أنها قد تُقتَل من جرّاء نفحة من العلم أو جرعة زائدة من الحس العام السليم.» [تشابمان كوهين] بالنظر إلى الفكرة التي وردت معنا سابقاً، أي استخدام حالة الجهل الحالي كحجّة لإثبات وجود الله فإننا سنقع في فخّ التناقض الذاتي. دعونا نعود قليلاً إلى

البداية لنراجع طريقة تأدية حجة صدفة السلحفاة. يجادل المؤمنون: «ما أصل صدفة السلحفاة؟ لا أعلم. أنت لا تعلم. لذلك فإنّ الله هو الذي خلق صدفة السلحفاة». وهذا القول يشبه فعلياً القول: «ما أصل صدفة السلحفاة؟ أنا لا أعلم. أنت لا تعلم. وبذلك فإننا كلانا يعلم_ أنّ أصلها يعود إلى الله». الإنسان الصادق والنزيه، عندما تتمّ مواجهته بأمر لا يعرف عنه شيئاً، فإنه سيعترف بذلك ويقول «لا أعلم شيئاً عن الأمر». الجدال بأننا لا نعرف كيفية ظهور شيء ما من الواضح أنه ليس جدال بأننا نعرف شيئاً يتعلّق بكيفية ظهوره. الجهل لا ينطوي إلا على جهل. إذا بدأنا الحجة من العلم من خلال فتراض موقف الجهل بالنسبة لوجود أسباب طبيعية كافية ووجود الله، عندها لا يمكننا الاستمرار إلى النتيجة التي تقول أنّ الله موجود. فالحجة لا تستطيع الانتقال إلا من جهل إلى جهل آخر. ولا يمكن الاستنتاج بأنّ الله موجود إلا إذا انطلقنا من تلك الفرضية. إنّ موقف الملحد إذن هو الموقف الوحيد الذي يتمتع بالنزاهة. فالملحد يعترف أنّه لا يعرف كيف تطوّرت صدفة السلحفاة حين لم يكن هناك تفسير للعملية، لكنه لا يستمرّ في التناقض مع نفسه بالقول أنّه يعرف أنّ لله يد في العملية. بأية حال، كما أشرنا سابقاً في مقالة (الله والإلحاد)، قد يقول الملحد أنّه يعرف أنّ الله غير موجود وذلك لعدم تقديم أسباب مقنعة وكافية تدعم الاعتقاد بوجوده. بالتأكيد، كما رأينا من قبل، الجهل ليس سبباً مقنعاً وكافياً للإيمان بوجود الله. تقوم حجّة الجهل بالأسباب الطبيعية على افتراض خاطئ. هذا الافتراض يقول أنّ معرفتنا بالطبيعة تتطابق بالضبط مع الطبيعة نفسها. لهذا (فالجهل بالأسباب الطبيعية) هو المكافئ الفعلي والحقيقي (لعدم وجود أسباب طبيعي في الأصل). لكن إذا كان هذا الافتراض صحيحاً، فإنّنا سنعرف كل شيء موجود للمعرفة. وبما أنّ المسألة ليست كذلك وبوضوح، فإنّ الافتراض خاطئ والحجّة القائمة عليه يجب أن

تكون خاطئة. يجب أن نلاحظ هنا أنّه لو أخذ العلم بالقبول بالتفسيرات الكافية أو الملائمة لظاهرة محيّرة ما، عندها لن يكون الله سوى احتمال آخر من بين مجموعة كبيرة من التفسيرات المحتملة. إذن كيف لنا أن نقرّر بينها؟ على سبيل المثال، كان من الملائم أكثر تفسير ظاهرة الزكام أنها بسبب شياطين صغيرة غير مرئية تدخل أنوف البشر وتدغدغهم. الإنسان البدائي كان بارعاً ومبدعاً في تصوّر مثل هذه الخيالات. فقد كان يعتقد أنّ صوت الرعد ما هو إلا صوت أرواح غاضبة فوق الغيم ترمي رماحاً من البرق على بعضها البعض وتذرف الدموع نتيجة اقتتالها فيما بينها وهذا هو سبب هطول المطر. كما أنّه في زمن ما _وما زال حتى الآن_ يعتقد أنّ الشهب ما هي إلا رماح أو رجوم يرجم بها الله الشياطين والعفاريت التي تسترق السمع على أبواب السماء وتتجسّس على أحاديث الملائكة. إنّ استخدام هذه التفسيرات الكافية والملائمة يعتبر أساطير أو ميثولوجيا، وليس علماً. اليوم طبعاً بتنا أكثر تعقيداً وذكاءً من أسلافنا البدائيين. فلم يعد من المقبول رؤية المحاربين الغاضبين والمتجهّزين للحرب، فالعلماء اليوم يملكون السمعة الثقافية التي كان يتّسم بها المحاربون القبليون في زمن ما. فبدلاً من تفسير الأشياء ضمن سياق ميثولوجي يتضمّن الأرواح التي تترامى بالسهام، أو الشهب التي تطلق على الشياطين التي تسترق السمع على السماء، يميل المؤمن لتوظيف نظرة ميثولوجية أكثر حداثةً مخلوطة بصبغة علمية. يقول المؤمنون أنّ السلحفاة حصلت على صدفتها لأنّ هناك روحاً علمية عظيمة تسمى "الله" قامت بتصميم وهندسة الهيكل. أو أنّ الكون أخذ بالاتساع لأنّ هناك روح مهندسة عظيمة وضعت شحنة روحية من الديناميت الروحي وقامت بتفجيره روحياً، ومن يستغرب هذا الكلام ما عليه إلا أن يطّلع على كتابات هارون يحيى. إلا أني أودّ هنا أن أورد مقطعاً من كتاب "قصةّ الخلق من العرش إلى الفرش"

لعيد الورداني لأبيّن مدى التضليل الميثولوجي الذي يعاني منه ويمارسه المؤمن المصاب بعدوى الإيمان: "ولعل من أكبر الأمور عجبا وأعظمها غرابة أن يستطيع إبليس إقناع أكثر من خمسين ألف مليون من البشر هم سكان الكرة الأرضية على مدار قرن من الزمان بأن هذه الشمس التي يرونها بأعينهم تدور حولهم، والتي ظلت البشرية منذ فجر التاريخ وما قبل التأريخ، أي منذ وجود الإنسان على الأرض وهم متفقون جميعا على أن الشمس تدور حولهم، وعلى رغم قول الله في كتبه كلها أن الشمس تجري وتدور حول الأرض، وعلى الرغم من بعث مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول إلي البشر، لم يقل واحد منهم بغير ذلك، إلا أن إبليس نجح نجاحاً منقطع النظير أن يقلب كل ذلك ويقلب فطرة كل سكان الأرض ويكذبوا أعينهم ويخالفوا ربهم ورسلهم وأسلافهم ممن عاش قبلهم على الأرض فيقولون أن الشمس هي مركز عالمهم، وأن الأرض التي يقفون عليها ويعيشون فيها هي التي تدور بهم ويمدنهم وقراهم حول الشمس، وكذلك كل الكواكب الدراري تدور حول الشمس التي سموها (أم) في آخر الزمن." [صـ 259]، وأمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى من هذا النمط من التفكير الخرافي-الأسطوري. هؤلاء المؤمنون الذين يدركون سخافة وعبثية أساطيرهم وخرافاتهم يسعون دائماً لإضفاء المصداقية عليها ومنحها الاحترام المبالغ فيه عن طريق أعادة تعريفهم لله "كقوّة روحية" أو شيء آخر مبهم وغامض- أي شيء طالما أنه لا يبدو كتضخيم واضح وصارخ للإنسان ورغباته. لكن تنبغي الملاحظة هنا أنّ الله يعتبر تفسيراً ملائماً فقط طالما أنّه يشبه الكائنات البشرية، على الأقل بأنه يمتلك عقلاً مثلها. يصرّ المؤمن ويؤكّد دائماً بأنّ الأسباب العمياء أو العشوائية لا يمكنها تفسير الكون. وأنّه لابد من وجود عقل مدبّر خالق وقادر على خلق هذا الكون. المؤمن سيعمل جاهداً لتفادي الدخول في موضوع العلم أيضاً.

فالدليل الذي يقدّمه العلم في الواقع يعارض اللاهوت التقليدي. على سبيل المثال، الإله المسيحي من المفترض أنّه إله حكيم ومخطّط بارع، وغير قاسي أو متجبّر. الآن نحن نعلم أنّ الحيوانات العاشبة ستستنفذ قريباً مخزونها من الغذاء إذا لم يتمّ تحديد نسبة تكاثرها. الحيوانات اللاحمة تأكل هذه الحيوانات مخفّضةً أعداد النوع لتبقى ضمن حدود المخزون الغذائي. وهكذا تتمّ المحافظة على توازن الطبيعة، وإذا كان هناك وجود لأي مخطّط إلهي فإنّه موجود هنا. فعندما يتدخّل الإنسان في التوازن الطبيعي من خلال قتل الحيوانات اللاحمة، على سبيل المثال، فإنّ فرائس تلك الحيوانات تتكاثر متخطّية حدود المخزون الغذائي المتوفر لها. والنتيجة مجاعة واسعة ونقص شديد في الغذاء. والآن إذا كان من المعقول رؤية خطّة إلهية في المثال السابق عن التوازن الطبيعي، فإنّه من المعقول رؤية خطّة إلهية في المثال التالي: الجراثيم والفيروسات التي تقتل أطفال البشر، إذا بقيت غير مراقبة، فإنّ مستوى الوفيات في الأطفال يبقى أعلى وهكذا يقلّل من التكاثر الفعّال وهذا ما يمنع الإنسان من تخطّي حدود أمنه الغذائي. وعندما يتدخّل الإنسان في هذه الخطّة الإلهية _على شكل إنجازات طبية_ مخفّضاً مستوى الوفيات بين الأطفال، وهذه الإنجازات غير مصحوبة بوسائل تحديد النسل أو عملية إنتاج أمثر فعالية للغذاء، هذا ما يؤدي إلى الانفجار السكاني ويسبّب مجاعة ونقص في الموارد الغذائية على نطاق واسع. إنّ المؤمن يرى خطّة إلهية في هذا التوازن الطبيعي، ويشير إلى أنّ الكوارث الطبيعية قد تكون نتيجة لتدخّل الإنسان في الخطة. لذلك، على المؤمن أن يرى الخطّة الإلهية في مجموعة من الأمراض والأوبئة المريعة والمسؤولة بشكل رئيسي عن الوفيات بين الأطفال. إنّ الموت المؤلم للأولاد يجب أن يكون مخطّطاً إلهياً وضعه الله عن قصد. أضف إلى ذلك حقيقة أنّ المعدّل الطبيعي للولادات _شكل من أشكال تحديد النسل

المصمّمة من قبل الله_ كان يمكن أن يحقّق التوازن الطبيعي بأسلوب أكثر كفاءة وأقل وحشية، وعندها كنا سنرىٰ مدى براعة الله في التخطيط.

الإلحاد

1) : كل شيء عن الإلحاد

البروفيسور ديل مكغوان

أحد أصدقائي قال معلّقاً عندما سمع بأنّي أقوم بتأليف كتاب عن الإلحاد بأنّه سيكون أكثر الكتب نحولاً على الرّفّ. يقول أنّه سيتضمّن جملة واحدة فقط: «الملحدون هم أولئك الذين لا يؤمنون بالله». أجبته مقترحاً كتاباً عن الوادي العظيم غراند كانيون: «غراند كانيون عبارة عن حفرة هائلة في أريزونا». طبعاً هذه الجملة تبدو مختصرة ومختزلة ولا تمنحنا معرفة كافية ووافية عن وادي غراند كانيون _جغرافيته وتشكيلاته الجيولوجية، كيف أصبح هكذا، حياته البرية وتشكيلاته الصخرية، وأهميته من بين التشكيلات الجيولوجية العظيمة الأخرى على سطح الكوكب. بنفس الشكل، إنّ أي كتاب حول الإلحاد يتوقّف عند تعريف الكلمة لن يفي هذه الفكرة المذهلة حقّها وهي أنّ (بغضّ النظر عمّا قد تخبرك إيّاه والدتك أو ما يمليه عليك حدسك) الله غير موجد فعلياً. وبذلك سيكون كتاباً ناقصاً كقولك: «المتديّنون يؤمنون بالله»، والاكتفاء بقول ذلك. لكن في الحقيقة هناك المزيد لقوله حول الأمر. الأشخاص الذين فكّروا مجرّد التفكير باحتمال ألا يكون الله موجوداً، وعبّروا عنها بصوت مرتفع ومسموع على الملأ، يشكّلون تهديداً نادراً ما يتمّ اكتشافه للتاريخ الإنساني الذي يتقاطع مع أكبر الأسئلة في الحياة: • كيف وُجِدَ كل شيء؟ •

ما معنى الحياة وما الغاية منها؟ • كيف يمكنك أن تكون إنساناً صالحاً وأخلاقياً؟ • ماذا سيحدث لنا عندما نموت؟ • هل هناك أحد ما يسيّر نظام كل هذا العالم؟ إنّ فكرة أنّ هناك قوّة غير مرئية خفية خلقت هذا الكون وأدارته بالتأكيد فكرة قديمة قدم العقل البشري. فمنذ اللحظة الأولى التي رأى فيها أحد أفراد الإنسان الماهر Homo habilis جاره وهو يقع من دون أن يقف مرةً أخرى، بحثت قشرته الدماغية الجديدة المنشأ عن تفسير للأمر. وبالافتقار إلى أي سبيل جديد لمعرفة ما الذي حدث فعلاً، قامت نفس القشرة الدماغية الجديدة بتقديم جواب كان "يبدو" حقيقياً. لكن كل تخمين في التاريخ الإنساني كان "يبدو حقيقياً" كان يواجه بعض الشكّ من قبل أحد الأفراد. وعندما كان التخمين يتعلّق بموضوع "الله"، وارتفعت درجة الشكّ فيه إلى حدّ الاتهام القوي، عندئذٍ تكون قد أصبحت ملحداً. "ملحد Atheist": إذا كانت هذه الكلمة تخيفك وترعبك، فأودّ إخبارك أنّك لست لوحدك في ذلك. فالناس مبرمجون على الخوف من عدّة كلمات. فعندما كان ولدي في الصفّ السابع جاء إلى المنزل وقال: «هل تعلم؟... أعتقد بأني شيوعياً»، كنت قد شعرت بالخوف لدرجة أني كدّت اسقط عن الدرج. كان يتعلّم في المدرسة عن الأنظمة الحكومة، وقد رأى أنّ أفضل نظام بالنسبة إليه هو ذلك النظام الذي يتشارك فيه الناس ما هو في مصلحتهم وفائدتهم. لكنّي قد نشأت في حقبة السبعينات، وقبل أن أتعلّم أي شيء عن الشيوعية، كنت أسمع الكثيرون وهم يقولون أنّها لا يجب أن تطرأ على بال أحد، ولا ينبغي أن يعلم عنها أحدٌ شيئاً. كل ما كان بمقدوري القيام به هو الجفلة والخوف. ونفس الأمر ينطبق على الإلحاد، لكنّه أمر لا ينبغي علينا الفزع والخوف منه. وأحد أهداف هذا الكتاب هو الكشف عن المعنى الحقيقي لهذا المفهوم وإزالة فتيل الخوف والفزع عنه. الجزء الأول: نظرة أوضح إلى الإلحاد *الفصل

الأوّل: نظرة أقرب إلى الإلحاد في هذا الفصل سنبحث عن طريقة طبيعية أكثر للنظر إلى العالم... ونراقب عملية تطوّر إحدى الأفكار المثيرة والرائعة على مرّ العصور... كما أنّنا سننظر إلى العالم عبر عيني إنسان ملحد نموذجي. إنّ فكرة عدم وجود إله لهي من أكثر الأفكار إثارة. أغلب الناس ينشأون وهم يسمعون أهلهم يردّدون عليهم أنّ وجود الله هي من المسائل البديهية ومن المسلّمات، ولا يمكن لأي شيء أن يفسّر هذا العالم المعقّد والمذهل الذي نعيش فيه. لكن، وعبر القرون، ظهر على المسرح بعض الناس الذين شكّكوا بوجود الله _حتى أنّ بعضهم توصّل إلى نتيجة مؤكّدة مفادها أنّ البشر هم من اخترعوا الآلهة، وليس العكس. طبعاً إنّ مجرد البوح بذلك وعلى الملأ قد يسبّب إرباكاً وفزعاً بالنسبة للناس الذين يخالفون هذا الرأي. لذلك يمكنك الافتراض بشكل آمن أنّ أغلب هؤلاء الذين لا يؤمنون بالأديان والآلهة قد حافظوا على صمتهم ولم يبوحوا بالأمر. لحسن الحظ، هناك الكثير من الملحدين تحدّثوا على الملأ وباحوا بما في صدورهم، وما زالوا يفعلون ذلك حتى يومنا هذا، وإلا ما كان لهذا الكتاب أن يبصر النور، وبدلاً من كونك تقرأه الآن سوف تنظر إلى راحة يدك. لكنّ الكتاب موجود، وهذا الفصل يمنحك نظرة خاطفة عمّا ستراه خلال قراءتك لهذا الكتاب. 1) تحديد مصطلح الإلحاد يمكننا وصف الإلحاد بأنّه أشبه ما يكون بالمظلّمة الكبيرة، إذ ينضوي تحته كل من لا يؤمن بوجود إله أو آلهة غيبية ماورائية. لكن تنضوي هذه المظلّمة درجات وأشكال مختلفة من عدم الإيمان والإلحاد، والكثير من الناس الذين يمتلكون وجهات نظر مختلفة في النظر إليه والتعبير عنه. لقد أصبح الملحدون ملحدين لأسباب عديدة وكثيرة، لكنّها بعيدة كل البعد عن الصلوات غير المستجابة أو مآسي الحياة الكبرى. في الواقع نلاحظ أنّ هذه المآسي والكوارث الكبرى في الحياة هي التي تدفع الناس إلى الإيمان بالله بنفس الشكل

والدرجة التي تدفعهم لعدم الإيمان به. فصول هذا الجزء تقدّم له عدّة تعريفات وتحديدات لمفهوم الإلحاد بالإضافة إلى الكثير من المواصفات الأمر الذي من شأنه مساعدتك خلال قراءتك لهذا الكتاب. _ رؤية الوجوه والأشكال العديدة لعدم الإيمان الديني هناك الكثير من الطريق والسبل للإلحاد كما أنّ هناك العديد من الطرق والسبل للإيمان _درجات مختلفة، تأكيدات مختلفة، وتعابير مختلفة. هنا أورد لكم بعض الأمثلة:

• المعادون للدين (وهم الملحدون الذي ينشطون في معارضتهم للدين ويعملون لتخليص العالم منه).

• التوفيقيون (وهم الملحدون الذين يؤكّدون على وجود أرضية مشتركة بين الديني وغير الديني ولا يرون أي اختلاف بينهما).

• اللاأدريون (وهم الأشخاص الذين يعبّرون عن لايقينهم ولاأدريتهم حول مسألة وجود الله وغالباً ما يزعمون أنّه من الصعب البتّ في هذا المسألة).

• الإنسانيون (هم الناس الذين يركّزون انتباههم على كيفية عيش حياة إنسانية صالحة وممتلئة في عالم طبيعي)

• الملحدون المتديّنون (ومن ضمنهم العديد من البوذيين، الهندوس، وغيرهم من الذين يحافظون على هويّاتهم وأفكارهم وفلسفاتهم الدينية بعيداً عن أيّة آلهة).

• المفكّرون الأحرار (وهم الذين يشكّلون أفكارهم الخاصّة عن الكون والعالم من دون أي تأثير لأي سلطة أو مرجعية دينية).

• غير التابعون أو "الأحرار" (إنّهم ليسوا متديّنين، لكنّهم مهتمّون بأي فئة أو تصنيف على العموم).

حتى بعض الآراء الدينية (كالربوبية على سبيل المثال أو وحدة الوجود) توجد بشكل بعيد كل البعد عن أي مفهوم تقليدي عن الله، وهناك الكثير من الناس الذين يعتبرون مثل هذه الآراء أنّها تنضوي تحت مظلّة الإلحاد. ويمكن لأي ملحد أو لاديني _ويصدف أحياناً أنّهم يقومون بذلك_ أن يتبنّى عدّة أفكار كهذه في آنٍ معاً. إنّهم يؤكّدون على عدّة أمور مختلفة، لكنّها عادةً لا تكون أمور متعارضة. _ رؤية ما يؤمن به الملحد وما لا يؤمن به... ولماذا لقد عرفت كل شيء عن التاريخ بفضل المؤرّخين وتعلّمته على أيدي مدرّسي مادة التاريخ. وتعلّمت الدين من خلال استماعي إلى المؤمنين وقراءة كتبهم المقدّسة بشكل مباشر. إلا أنّ أغلب ما يعرفه الآخرون عن الإلحاد قد تعلّموه أو سمعوه من أشخاص آخرين لا يمتّون بصلة للإلحاد، بل حتى أنّه لا يحبّون الفكرة ولا يطيقونها... وهذا أفضل مصدر لسوء الفهم والتضليل. كنت قد ارتدّت الكنيسة لحوالي 25 عاماً ولعدّة أسباب، ومن بينها: العائلة والعمل، وكنت حينها لا أقلّ إلحاداً عمّا أنا عليه الآن. وكان فعل ذلك جزء لا يتجزّأ من تربيتي الدينية. لكن مرّة بعد أخرى، كنت أسمع كلاماً من المنبر حول أشخاص مثلي بدا حزيناً ومزعجاً. فكوني ملحداً، كان ينظر إليّ على أني إنسان دنيء جداً وأناني، لست ذكياً البتّة، وسيئاً حتى النخاع. سمعت بأنني لم أكن أبالي بالآخرين من حولي ولا يمكن الثقة بي، وأنّي توصّلت إلى قناعاتي من خلال اتباعي هواي، وأني أخدم آلهة مزيفة، إذ أني رفض الاعتراف بقدرة الله القدير. في إحدى أيّام الآحاد كنت أستمع على موعظة في قاعة الكنيسة حيث كانت تضمّ مسيحيين متزوّجون من لادينيين _كانت زوجتي من بين هؤلاء بالمناسبة_ وكان الواعظ يشجّعهم على ترك شركائهم وأزواجهم «لاَ تَكُونُوا تَحْتَ نِيرٍ مَعَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ» [2 كورنثوس 6: 14]. هنا، عند هذه النقطة، توقّفت عن الذهاب إلى الكنيسة كلياً. إذا أردّت أن تعرف أكثر

عن النظرة الدينية، فلا أنصحك بأن تختاري أنا. الأفضل لك أن تبحث عن أحدٍ آخر من ذلك الجانب. لكن إذا أردت أن تعرف شيئاً عن الإلحاد وعمّا يدور حوله، فاسمح لي أن أقول لك أنّ أفضل خيار لك هو أن تبحث عن ملحد فعلي حقيقي. وشاءت الصدفة بأني واحدٌ من هؤلاء، إذن تابع القراءة! لاحقاً سأتحدّث ملياً عن معتقدات الملحدين الفعلية وسأقوم بتفنيد بعض الأساطير والأكاذيب الشائعة حولهم. أغلب الملحدين يأخذون موضوع الأخلاق والمبادئ الأخلاقية على محمل الجد، على سبيل المثال، ويرون أنّ الحياة تنطوي على معنى عميق وغاية سامية، ويجدون فيها الإلهام والهدف. نحن لسنا غاضبين من الله _على الأقل لسنا أكثر غضباً من البابا على تشاك، غله المطر عند المايا_ إلا أنّ هناك بعض الملحدين الذين وصلوا إلى ما هم عليه من إلحاد وعدم إيمان بعد أن حدث لهم شيء سيء، إلا أنّ هذا السبيل ليس هو السبيل الشائع. تذكير: أغلب الملحدين يتوصّلون على ما هم عليه من إلحاد بعد أن عملوا طويلاً على موضوع إلحادهم، ثم باتوا مقتنعين عن طريق أمور أخرى مثل: 1) إدراك حقيقة أنّ الأجوبة الدينية ليست كافية أو غير مقنعة. 2) مقارنة الأديان ودراسة كتبها المقدّسة. 3) دراسة الحجج الكلاسيكية التي يقوم عليها الإيمان. 4) التوصّل لحلّ مشكلة التعقيد Complexity Problem (وهي الفكرة القائلة بأنّ الكون على درجة عالية من التعقيد لدرجة أنّه من غير الممكن أن يوجد من دون خالق أو مصمّم) وفهم عملية التطوّر بشكل صحيح وفعلي. 5) ملاحظة التراجع الثابت للأجوبة الدينية. 6) إدراك عمر الكون وحجمه، بالإضافة إلى وقع هذا الإدراك على الفهم الإنساني. 7) ستكون نظرتهم إلى الكون شبيهة بنظرة أي إنسان مثقّف وعالِم إلى الكون من دون إله. والكثير غيرها من الأمور الأخرى التي سنتطرّق إليها لاحقاً. 2) مسيرة تقدّم الإلحاد أغلب الناس يعتقدون أنّ الإلحاد فكرة جديدة

ومعاصرة. لكنّ جذوره في الحقيقة تمتدّ بعيداً وعميقاً في التاريخ، وسنذهب لاحقاً في رحلة زمنية لرؤية ذلك. فكما سيرغب التلميذ المسيحي بمعرفة الأمور المفصلية والهامّة التي حدثت منذ أكثر من 2000 عام، فالراغب بفهم أفضل وأوضح للإلحاد سيودّ أن يعرف شيئاً عن تاريخ الإلحاد ونشأته من أكثر من ثلاثين قرناً. والأقسام التالية تقدّم نظرة خاطفة إلى الموضوع. _ في الماضي البعيد... وعبر مختلف الحضارات يميل الناس للاعتقاد بأنّ هناك أماكن وأزمنة معيّنة تدخل في أساس وبنية دينهم ومعتقداتهم بشكل رسمي. فالهند مليئة بالهندوس حتى حافّتها. جميع الإغريق كانوا يعبدون آلهة الأولمب. جميع الناس في أوروبا العصور الوسطى كانوا مسيحيين. أليس كذلك؟ إلا أنّ نظرة أقرب تثبت أنّ جميع هذه المزاعم خاطئة ومضلّلة. فكما أنّ هناك في الولايات المتّحدة "ولايات حمراء" (جمهوريين) و"ولايات زرقاء" (ديمقراطيين) وكلّها ظلال مختلفة من الأرجوان، فإنّ كل مكان وفترة زمنية في التاريخ البشري تتضمّن عدّة وجهات نظر ومعتقدات مختلفة _ومن بينها: الإلحاد. تذكّروا أنّ ليست جميع وجهات النظر والآراء تجد نفس الفرصة للتعبير عن نفسها في أيّة حضارة أو ثقافة. فالدين بشكل عام والغالبية المتديّنة بشكل خاص هي التي كانت تميل لكتابة التاريخ وتدوينه، وخصوصاً خلال الحقبة ماقبل القرن الثامن عشر. أضِف إلى ذلك حقيقة أنّ الإلحاد (أو الهرطقة والكفر) كان يعتبر جريمة يعاقب عليها المجتمع بالسجن أو الموت، لهذا السبب تجد ملحدين كانوا يعبّرون عن آرائهم ومعتقداتهم همّاً في بعض الأماكن وخلال العديد من الأزمنة. _ في الحقبتين القديمة والوسيطة لكن كانت هناك أصوات للإلحاد تتردّد هنا وهناك، في الماضي البعيد وفي حضارات داخل أوروبا وخارجها. وسنقابل لاحقاً ملحدين من الصين القديمة، حيث كان الإلحاد موضوعاً مرحّباً به خلال النقاش والجدال بين الفلاسفة

الصينيين... سنقابل ملحدين من الهند القديمة والوسيطة، وستتعرّف إلى ديانات ذات مذاهب خالية من فكرة أو مفهوم الإله بشكل كامل... سنقابل ملحدين من اليونان القديمة، حيث كان الإلحاد مسألة مكروهة وغير مقبولة بشكل دائم... سنقابل شكوكيين دينيين في صدر الإسلام وصفوا محمد بالكاذب والمنافق... سنقابل بطلاً آيسلندياً من القرن الثالث عشر قال في إحدى المرات "من السخف أن نؤمن بالآلهة"_ ثمّ عاش بسعادة إلى الأبد... سنقابل ثلاثة قرويين فرنسيين من القرن الرابع عشر تمّ التحقيق معهم من قبل أسقف خلال فترة محاكم التفتيش. إنّ خيوط الإلحاد في العالم القديم والوسيط تمثّل قصّة يعرفها قلّة من الناس. حتى أنّ هناك الكثير من الملحدين الذين يجهلون قسماً كبيراً من تاريخهم. يمكنكم لاحقاً قراءة الفصلين الرابع والخامس ومشاركتهما مع أصدقاء ملحدين لك. _ عصر التنوير في أوائل القرن الثامن عشر، كان الإلحاد يمثّل تياراً كبيراً وجاداً في أوروبا. وقد تمّ تداول وثائق سرية تتحدّى الدين وتغالبه بالحجج لأكثر من خمسون عاماً، أي أنّها كانت سابقة للمراقبين بعدّة خطوات. عثر أبرشيون فرنسيون بين أوراق كاهنهم الكاثوليكي الذي توفّي عام 1729 على نسخ من كتاب كان قد كتبه الكاهن من أجلهم، يخبرهم فيه عن مدى كرهه وعدم إيمانه بالدين الذي جرى تلقينه إيّاه لأكثر من أربعين عاماً. عند نهاية القرن، كان الفلاسفة في كل من فرنسا، ألمانيا وإنكلترا يتحدّون السلطة والأفكار الدينية بشكل صريح ومعلن ويعملون على تأسيس مفاهيم ومصطلحات معاصرة تتمحور حول حقوق الإنسان والحرية الفردية. وقد تتوّجت هذه العملية، في أفضل الحالات وفي أسوأها، بالثورة الفرنسية، عندما حدثت حالة تقارب مع دولة ملحدة ثمّ تبعتها طائفة الكائن الفائق وعهد الإرهاب _خبا الإلحاد في هذه المرحلة وانكفأ لبرهة من الزمن. _ القرن التاسع عشر إنّ فكرة عدم وجود

الله لم تختفي أبداً بشكلٍ كامل، حتى عندما ألغاها نابليون لفترة من الزمن. لكنّها كانت دائمة أشبه بالجمر تحت الرماد وكان يظهر من حين لآخر على يدي شخص ما لم يكن يحتمل البقاء صامتاً. الشاعر بيرسي شيللي كان أحد هؤلاء، ممّا أدّى لطرده من جامعة أوكسفورد عام 1811 للتعبير عن إلحاده وأفكاره الإلحادية. ثمّ قام النسويون الأوائل في كل من إنكلترا والولايات المتحدة بالتعبير عن آرائهم وأفكارهم بوضوح شديد حول الدين ودوره كعامل معرقل في طريق تقدّم المرأة وتقدّمها. ساعد العلم على دفع عجلة الإلحاد خلال القرن التاسع عشر. وعن طريق تحويل اهتمامه إلى دراسة العالم الطبيعي تحوّل داروين من كاهن متدرّب إلى شكوكي وأوجد حلاً لأصعب مشكلة معقدة كثيراً ما كان تمنع الناس من ترك إلههم والابتعاد عنه. وكما قال العالم البيولوجي ريتشارد دوكنز في إحدى المرّات، ربّما كان الإلحاد ممكناً قبل داروين، لكنّ داروين جعل الإلحاد ممكناً ليكون مذهب "الملحد المتعلّم والمُنجَز ثقافياً". لكن هناك موجة من الحركات حدثت بعد وفاة داروين بفترة قصيرة كان الغرض منها إخفاء عدم إيمانه والتغطية على إلحاده، ومن ضمنها بعض بضعة اقتباسات مختصرة ومقتضبة ومنزوعة عن سياقها من سيرته الذاتية بالإضافة إلى تلفيق حديثه وهو على فراش الموت مع مبشّر بريطاني مزيّف خالف بنفسه وصيّته الثامنة. _ القرن العشرين الحقيقة أنّ الإلحاد مثله مثل الدين لا يضمن أي تصرّفات جيّدة أو سلوك صالح، وتصبح عبارة «القوّة المطلقة تفسد بشكل مطلق» عبارة ملائمة بشكل تراجيدي في القرن العشرين. هناك الكثير من الأمثلة عن الفساد وانعدام الأخلاق في حالات السلطة المطلقة، عند الحكّام الملحدين (أمثال ماوتسي تونغ في الصين، جوزيف ستالين في الاتحاد السوفييتي، و بول بوت في كامبوديا) والحكّام المؤمنين والمديّنين (أمثال أدولف هتلر في ألمانيا، فرانسيسكو فرانكو في إسبانيا، وإيدي أمين في

أوغندا). لكن هناك أيضاً أخبار جيدة، ومن بينها النزعة الإنسانوية كحركة والانتصارات القانونية للفصل بين الكنيسة والدولة _وهذا أمر من شأنه أن يعود بالفائدة على الدولة والكنيسة. القرن العشرين شهد أيضاً إحدى أروع التطوّرات في تاريخ الدين تتمثّل في تأسيس اثنتان من الديانات الاختيارية بين إلهين وازدهارهما: كنيسة الموحّدين الشموليين واليهودية الإنسانوية. وسنتطرّق إليها لاحقاً. _ الإلحاد اليوم ظهرت حركة إلحادية جديدة سُمّيت بـ"الإلحاد الجديد" ما أن بدأ الدين يوجّه الطائرات نحو المباني في 11سبتمبر عام 2001. ومع أنّ الملحدين كان لهم وجودهم المشهود منذ قرون عديدة، إلا أنّ الرعب والوضوح اللذان كانا يتخلّلان هذه اللحظة، والدور الواضح الذي لعبه الدين في هذه المسألة، كانت القشّة الأخيرة والنداء الصارخ للعديد من الملحدين واللادينيين. ظهر شكل جديد وقوي وصارم من الإلحاد كردّة فعل على تلك اللحظة، ومن بينها الكثير من الكتب والمدوّنات التي تنادي بإنهاء قمع حرية النقد الديني والسماح بالحرية الكاملة لنقد الأديان ودراستها ومقارنتها. زيادة هائلة في الفكر والهوية والتنظيم والفعل الإلحادي عقبت الموجة الأولية. فبمساعدة البيئة الجديدة والعالم الافتراضي الجديد الذي قدّمته الشبكة العنكبوتية، أنجزت حركة الفكر الحر خلال عشرة أعوام أكثر بكثير ممّا حقّقته غيرها من الحركات الاجتماعية الأخرى خلال أجيال وقرون من الزمن. ظهر شكل جديد أهدأ وأكثر إنسانية _لكن أقلّ عاطفيةً_ من الإلحاد خلال يقظة الملحدين الجدد، إلحاد جديد يميّز بين التعابير الحميدة والخبيثة من الدين، ويبحث عن أرضية مشتركة بين الديني وغير الديني، ويركّز اهتمامه على بناء مجتمع إنساني ورسم نظرة إيجابية بنّاءة للمستقبل. هذان الوجهان للنزعة الإلحادية المعاصرة أمضيا الكثير من الوقت وهما تتنازعان وتتجادلان فيما بينهما من أجل أفضل طريقة للمضيّ قدماً. بالرغم من أنّ هذا

الجدال قد يكون مزعجاً، إلا أنّه قد يكون أفضل سبيل لتمييز الأفكار الجيّدة والصالحة عن الأفكار السيئة والخبيثة.

2) : فلسفة الإلحاد... إيما غولدمان

تمّ نشر هذه المقالة للمرّة الأولى في شهر فبراير عام 1916 ضمن مجلّة "الأرض الأم Mother Earth Journal". لإعطاء فكرة وافية عن فلسفة الإلحاد، سيكون من المهم جداً أن نخوض في التغيّرات التاريخية التي طرأت على الإيمان بقوّة خارقة ومفارقة، منذ بدايات الفكرة وحتى يومنا الحالي. ولكن ذلك لا يقع ضمن نطاق مقالتنا هذه. على أية حال، لا بأس من التطرّق إلى موضوع أنّ مفهوم "الله": القوّة الكلية المفارقة، الروح، الوجود المطلق، أو أي مصطلح يستخدم لوصف هذا المفهوم يمكن إيجاده، أصبح أقلّ تحديداً وأكثر إبهاماً مع مرور الوقت ومسيرة الحياة. بمعنى آخر، إنّ فكرة الله تنمو وتصبح أكثر ضبابيةً وإبهاماً مع تطوّر العقل الإنساني وتعلّمه كيفية فهم الظواهر الطبيعية بطريقة تردّها إلى أسبابها المؤدّية لها، وبدرجة أصبح فيها العلم يربط بشكل تدريجي الإنسان بالأحداث الاجتماعية. "الله" في يومنا هذا، لم يعد يمثّل نفس تلك القوى التي كان يمثّلها في المراحل البدائية لوجوده، كما أنه لم يعد ذلك الموجّه للمصير البشري بيد من حديد كما كان يفعل في الماضي. كما أنّ الله أصبح مجرّد فكرة تعبّر عن نوع من الدافع أو الحافز الروحي لإرضاء أوهام وخيالات كل مظاهر الضعف الإنساني. ضمن سياق التطوّر الإنساني تحوّلت فكرة الله وتكيّفت مع كل حالة من حالات الإنسان، والتي اتسقت بشكل مثالي مع أصل الفكرة نفسها. إنّ مفهوم "الله" ولد في جوّ من الخوف والفضول، بيئة تعمّها الفوضى وعدم الشعور بالأمان. فالإنسان البدائي غير القادر على إدراك وفهم الظواهر الطبيعية التي كان يعاني من طغيانها واضطهادها له، رأى في كل ظهور

مرعب من ظهوراتها نوع من القوى الشريرة الموجّهة ضدّه»، وبما أنّ الجهل المطبق والخوف الذي يشلّ كافة ملكات العقل والتفكير السليم هما أصل جميع الخرافات والأساطير، خلقت المخيلة البدائية المتعبة الفكرة الأولى عن كائن جبّار متعالٍ وهو "الله". بشكلٍ ملائمٍ جداً، يقول الملحد والفوضوي الأشهر على مستوى العالم "مايكل باكونين" في عمله الكبير والهام (الله والدولة): "كافة الديانات، بآلهتها وأربابها، وأنصاف آلهتها، وأنبيائها، ورسلها، وقدّيسيها، تمّ خلقها وابتكارها عن طريق الفنتازيا المتضرّرة للبشر الذين لم يحقّقوا مرحلة التطوّر الكامل والسيطرة التامّة على مؤسّساتهم. ولذلك، فالجنة التي يحدّثنا عنها الدين ليست أكثر من مجرّد سراب مجّده الإنسان عن طريق الجهل والإيمان، مكتشفاً صورته الخاصّة، ولكن بشكلٍ مكبّر ومعكوس _ وهذا حدس رائع. فتاريخ الأديان، من الولادة، إلى مراحل عظمتها وازدهارها، فانحدار الآلهة التي نجحت في بادئ الأمر باحتلال جزء كبير جداً من النفس الإنسانية، ليس أكثر من مرحلة من مراحل تطوّر الذكاء والضمير والخبرة البشرية الجمعية. وكلّما تطوّر بني البشر أكثر، في سياق مسيرتهم التقدميّة في التاريخ، سواءً كان من ناحية اكتشاف النفس البشرية أو العالم الطبيعي الخارجي، فالنوعية، أو حتى أي عيب عظيم مهما كان نوعه، كانوا يردّونه على آلهتهم، بعد أن يكونوا قد بالغوا فيه كبّروه ووضعوه خارج أي قياس أو معيار، خارج أسلوب الأطفال، بفعل وهمهم الديني... لذلك، ومع فائق الاحترام، إلى اللاهوتيين، والمثاليين الدينيين، الفلاسفة، السياسيين، أو الشعراء: إنّ فكرة الله تشير إلى انحطاط وسقوط العقل البشري والعدالة الإنسانية، إنّ هذه الفكرة هي الإنكار الأكثر تطرّفاً للحرية البشرية، ونتيجته الضرورية هي استعباد الإنسان، من كلا الناحيتين: النظرية والتطبيقية". لذلك، إنّ فكرة الله، المتعشة، والمعدّلة، المكبّرة أو المصغّرة، حسب

متطلبات كل فترة، حكمت البشرية وستستمرّ في ذلك حتى يرفع الإنسان رأسه وينظر إلى نور الشمس، من دون خوف وبإرادة يقظة لنفسه. بصفته رجل يتعلّم إدراك أغوار نفسه ويصبح الإيمان بالله عنده شيئاً زائداً عن الحاجة. إلى أيّ مدى سيكون الإنسان قادراً على إيجاد أنّ علاقته مع أقرانه ستعتمد بشكلٍ كاملٍ على الشكل الذي سينشأ عليه باستقلال عن الله. حالياً هناك إشارات تشير إلى أنّ الإيمان بالله، وهي النظرية التي تقوم على التخمين والتفكّر، تمّ استبدالها بالإلحاد، علم التجربة والبرهان. في حين أنّ الأول يتعلّق بالسراب الميتافيزيقي للماوراء، بينما الآخر يمدّ جذوره ويرسّخها بثبات في التربة. إنها الأرض، وليست السماء، التي يجب على الإنسان إنقاذها إذا كان يريد الحفاظ على حياته واستمرار سلالته. إنّ سقوط الإيمان هو أكثر المناظر إثارة، خصوصاً ذلك الشكل القلق الذي يظهر عند اللاهوتيين المؤمنين المتشدّدين، مهما كان نوع إيمانهم أو ديانتهم. فهم يدركون، من كثرة ضيقهم، أنّ عدد الملحدين يتزايد باستمرار، وبأنّ الجماهير تميل أكثر فأكثر إلى ناحية اللادينية بشكل يومي، وبأنهم يرغبون التخلّي عن العظيم الماورائي ومجاله السماوي إلى الملائكة والعصافير، لأنّ العامّة باتوا منغمسين أكثر فأكثر في المشاكل والصعوبات التي تواجههم أثناء حياتهم ووجودهم. ما هي الطريقة الفضلى لإرجاع العامّة إلى الإيمان بفكرة الله، الروح القدس، السبب أو العلّة الأولى... إلى ما هنالك من تسميات وألقاب. هذا هو السؤال والمؤرّق الأول بالنسبة لكافة الثيولوجيين وحماة الأديان. بقدر ما تبدو هذه الأسئلة ميتافيزيقة وغيبية، إلا أنها حتى الآن لها خلفية فيزيقية محسوسة. الدين، "الحقيقة الإلهية المطلقة"، بمكافآته وجزاءه هو السوق التجارية الأضخم، الأكثر فساداً وخبثاً، والصناعة الأقوى والأربح على مستوى العالم، من غير أن نستثني صناعة الأسلحة والذخائر. إنه صناعة تضبيب وإرباك العقل وأسر

وخنق القلب البشريين. الضرورة لا تعرف أي قانون أو قاعدة، كما أنّ أغلب الثيولوجيين ملزمون على الموافقة على كل موضوع، حتى وإن لم يكن له أية علاقة بالله أو الوحي أو الماورائي والغيبي. على الأرجح أنهم يستشعرون حقيقة أنّ الإنسانية تنمو وتكبر وقد أصيبت بالضجر والسأم من الأفرع والديانات التي تجاوز عددها المائة. أمّا كيفية رفع مستوى هذا الاعتقاد والإيمان الأعمى بالغيبي والإلهي المفارق، فذلك يشكّل مسألة حياة أو موت لكافّة الطوائف الجماعات الدينية. لذلك نلمح عندهم ميزة التسامح، لكنه ليس تسامح ناتج عن حالة تفهّم، بل ناتج عن ضعف. وربّما هذا يفسّر الجهود المبذولة في كافة المنشورات الدينية على اختلاف أنواعها لجمع الفلسفات الدينية المتنوّعة والنظيرات اللاهوتية المتعارضة ضمن حقيقة طائفية مفترضة واحدة. أكثر فأكثر، إنّ المفاهيم المختلفة "للإله الواحد الأوحد، الروح الحقيقي الأنقى، الدين الصحيح الوحيد" تبرّر بشكل متسامح الجهود المسعورة لتأسيس أرضية مشتركة وموحّدة لإنقاذ الجمهور المعاصر من تأثير الأفكار الإلحادية "الخبيثة" _حسب تعبير الثيولوجيين. إنها خاصية متميّزة من خصائص "التسامح الثيولوجي" بأنه لا أحد يهتمّ حقاً بالشيء الذي يؤمن الناس به، بل كل ما يهم هو أنهم مؤمنين أم غير مؤمنين. ولإتمام هذه الخاتمة، تمّ اللجوء إلى استعمال أكثر الطرق والأساليب قسوةً ووحشية. وقد تبنّت المؤسّسات الدينية على اختلاف أنواعها تنفيذ هذه المهمّة المقدّسة، وفرضت الرقابة على ضمائر الناس لقرون طوال. يرى معظم الثيولوجيين من حرّاس العقائد _بشكل واعٍ شعوري أو بشكل لا شعوري أعمى_ أنّ مفاهيم مثل: الله والشياطين، الجنّة والجحيم، الثواب والعقاب، هي عبارة عن سياط لسحب الناس إلى حلبة الطاعة، الاستضعاف والقناعة. والحقيقة هي أنّ الإيمان قد خسر معناه وجوهره قبل ذلك بزمنٍ بعيد لكن من أجل الدعم المشترك

للثروة والسلطة. إلى أيّ حدٍ بلغ الإفلاس، حيث أنه يستعرض في خنادق وساحات المعارك في كافة أرجاء أوروبا. [للتذكير هذه المقالة كتبت لأول مرّة عام 1916، وهي مرحلة مليئة بالاضطرابات التي سادت كافة أرجاء أوروبا وآسيا] ألم يحاول جميع الثيولوجيين إضفاء صبغة الطيبة والتسامح على آلهتهم باختلاف أنواعها وأشكالها؟ إلا أنه وبعد مرور عشرات القرون على التبشير بهذه الآلهة، إلا أنها ما زالت صمّاء لا تعير انتباهاً لمعاناة الجنس البشري. لم يكن كونفوشيوس يعير اهتماماً للفاقة والمعاناة والبؤس الذي كان يعاني منه الشعب الصيني. أمّا بوذا فلم يزعج نفسه أثناء لامبالاته الفلسفية بفاقة ومجاعة شعب الهندوس الغاضب. يهوه ظلّ متجاهلاً لبكاء الشعب الإسرائيلي وضياعه. بينما يسوع يرفض الانبعاث من عالمه المثالي ليفضّ الخلافات الناشبة بين أتباعه المسيحيين الذين ما زالوا يذبحون بعضهم البعض. [وأضيف هنا أنّ إله المسلمين ما زال غافلاً حتى الآن، و لا يعيرهم انتباهاً، إذ أنه يرى أتباعه قد انقسموا إلى فرق وطوائف متناحرة من أجل فكرة مجرّدة عنه هو، إلا أنه لا يظهر من مخبأه ويحلّ هذه الخلافات التي استنزفت البشرية لقرون طويلة]. إنّ العبء المتراكم والناتج عن كل ذلك المديح والتمجيد إلى ذلك "القابع في الأعالي" باعتبار أنّ الله يقف إلى جانب العدالة والرحمة. إلا أنّ الظلم بين البشر أخذ يتزايد باطّراد، فالإساءات التي ارتكبت بحق الشعب في هذا البلد لوحده تبدو كافية لأن تملأ السماوات بمن فيها. ولكن أين هي الآلهة لتضع نهاية مرة وإلى الأبد كلك هذه الآلام والمآسي، هذه الخطايا، هذه اللاإنسانية تجاه الإنسان؟ لا... ليست الآلهة، بل الإنسان هو الذي يجب أن ينهض بغضبه الجارف. هو، ذلك المخدوع بكل تلك الكيانات والمقدّسات، والمغدور من قبل مبعوثيها... هو، يجب أن يتعهّد بنفسه بتحقيق العدالة على الأرض. إنّ فلسفة الإلحاد تعبّر عن اتساع وامتداد وتنامي العقل البشري. إنّ

فلسفة الإلحاد، إذا كان بإمكاننا إطلاق تسمية "فلسفة" على هذا المفهوم، هي فلسفة ثابتة وساكنة. وحتى مجرّد محاولة ثقب هذه الألغاز تمثّل _من وجهة النظر الثيولوجية_ عدم الإيمان أو اللااعتقاد في القدرة الكلّيّة المطلقة، وحتى نكران الحكمة الإلهية المقدّسة التي تقع خارج نطاق البشري. من حسن الحظ، لم يكن العقل البشري أبداً _ولا يمكن أن يكون_ مقيّداً ومحدوداً بالثوابت. لذلك فهو يتقدّم بثبات في موكبه القلق والحذر نحو المعرفة والحياة. العقل البشري يدرك أنّ "الكون أو العالم ليس نتيجة فعل إبداعي صادر عن ذكاء قدسي أو إلهي، خرج من اللاشيء أو العدم، وأنتج تحفة كاملة في تفاصيلها من فوضى عارمة"، بل إنه ناتج القوى الفوضوية العشوائية التي عملت عملها على مدى عصور طويلة، إنه نتيجة اصطدامات وكوارث، نتيجة نفور وجاذبية تبلورت من خلال مبدأ الانتقاء الذي يطلق عليه الثيولوجيون اسم "الكون المتّجه نحو النظام والجمال". كما أشار جوزيف مكّكيب في كتابه "وجود الله": "إنّ قانون الطبيعة ليس مجرّد توليفة فبركها مشرّع ما، بل هو مجرّد خلاصة الحقائق المؤلّفة عن طريق الملاحظة _حزمة من الحقائق. فالأشياء لا تتصرّف بطريقة معيّنة لأنّ هناك قانون معيّن، بل إننا نحن الذين نصوغ القوانين التي تصف سلوك الأشياء، وذلك لأنها تتصرّف حسب تلك الطريقة". إنّ فلسفة الإلحاد تمثّل مفهوم الحياة بدون أيّ جوهر ميتافيزيقي مفارق أو مدبّر إلهي مقدّس. أنّه مفهوم العالم الحقيقي، الواقعي بمسؤولياته الجمالية والتحرّريّة والتوسّعية، كما أنه يناقض العالم المتخيّل غير الحقيقي بأرواحه، وملائكته، ووحيه، والذي يبقي العقل البشري غارقاً في مستنقع المهانة والعجز. قد يبدو ذلك مفارقة صارخة، إلا أنه مع ذلك صحيح بشكل مثير للشفقة، أنّ هذا العالم الحقيقي المرئي وحياتنا هذه يجب أن تكون طويلة جداً تحت تأثير التصوّر الغيبي، بدلاً من القوى الطبيعية المثبتة. فتحت وطأة

سياط الفكرة الثيولوجية، لم تخدم هذه الأرض أي غرض آخر سوى أنها محطّة مؤقّتة لاختبار قدرة الرجل في التضحية من أجل إرادة الله. لكنّ إنسان اللحظة حاول التحقق من طبيعة تلك الإرادة، فقد أُخبِرَ بأنّه من العقم بالنسبة "للذكاء البشري المحدود" أن يمضي أبعد من الإرادة المطلقة الأزلية. وتحت وطأة الثقل الهائل لهذه القدرة الكلية الأزلية، أصبح الإنسان غباراً _مخلوق أقل قدرةً، مكسور ويتعرّق في الظلام. إنّ الجائزة التي يمكن الحصول عليها من فلسفة الإلحاد هي إنسان حرّ من كابوس الآلهة، وهذا معناه أنّ حلّ خيالات وأوهام الماوراء. من جديد إنّ ضوء العقل قد بدّد كابوس الثيولوجي، لكنّ الفاقة، البؤس والخوف ساعدت على تغذية الأوهام وتقويتها _سواءً أكانت قديمة أو جديدة، مهما كان شكلها الخارجي، فإنها تختلف قليلاً في الجوهر. الإلحاد، من جهةٍ أخرى، بمعناه الفلسفي يرفض الولاء والتبعية ليس فقط لمفهوم الإله، بل إنه يرفض كل أشكال التبعية لفكرة الإله، كما أنه يعارض المبدأ الثيولوجي على حدٍ سواء. الآلهة، في وظيفتهم الفردية، لا يبلغون نصف خبث المبدأ الثيولوجي الذي يمثّل الإيمان في قدرة ما ورائية، وحتى كليّة، لتحكم الأرض والإنسان القاطن على سطحها. إنه الحكم المطلق لإله، إنه التأثير الغيبي الخبيث على الإنسانية، إنه الأثر الذي يصيب الفكر والفعل بالشلل، ذلك الذي يحاربه الإلحاد ويكافح ضدّه بكلّ ما أوتي من قوّة. إنّ فلسفة الإلحاد لها جذور عميقة في الأرض، في هذه الحياة، وهدفها هو انعتاق الجنس البشري من كل أشكال الآلهة، سواء البوذية أو المسيحية أو اليهودية أو المحمدية أو الإبراهيمية، وغيرها. ظلّ الجنس البشري معاقباً لأزمان طويلة بسبب اختراعه فكرة الآلهة، ولم يحصد من ورائها إلا الألم والمعاناة. ولا توجد هناك سوى طريقة واحدة للخروج من هذه المعمعة، يجب على الإنسان أن يكسر قيوده التي قيّدته أمام أبواب الجنّة والجحيم، لكي يتمكّن من البدء

بتصميم صحوته ووعيه الذي سينير عالم الأرض من جديد. لن ندرك جمال العالم والحياة والحرية وروعتها إلا بعد الفوز بجائزة الفلسفة الإلحادية في عقول وقلوب البشر. ففكرة أنّ الجمال هبة من السماء أثبتت فشلها وعدم فعاليتها. فهي ستصبح بأيّة حال جوهر حافز الحياة عندما يتعلّم الإنسان أن يرى في الأرض الجنّة الوحيدة الملائمة له. الإلحاد يساعد على تحرير الإنسان من الاعتماد على فكرة الثواب والعقاب كعدّاد الصفقة السماوية للفقر في الروح. ألا يصرّ جميع الثيولوجيون أنّه لا يمكن أن يكون هناك أخلاق، أو عجالة، أو نزاهة أو خير من دون الإيمان بوجود سلطة إلهية قدسيّة؟ بالاعتماد على الخوف والأمل، هذه الأخلاق كانت دوماً منتجاً سقيماً، متشبّع جزئياً بالأحقية أو الأفضلية الذاتية، بالنفاق. أمّا بالنسبة للحقيقة، العدالة، والخير، من هم الذين كانوا الدّعاة الشجعان والجريئين؟ في أغلب الأحيان كانوا السيئين والطّغاة: أمّا الملحدون، فقد عاشوا، وقاتلوا وماتوا في سبيل تلك القيم. كانوا يعلمون أنّ العدالة والحقيقة والخير ليست قيم موجودة في السماء، أو هي عبارة عن قيم أفلاطونية موجودة في عالم مثالي مفارق، بل إنها متعلّقة بهم ومرتبطة بالتغيّرات الكبيرة التي تحصل في الحياة الاجتماعية والمادية للجنس البشري، فهي ليست ثابتة أو أزلية، بل إنها متغيّرة وخاضعة للصيرورة، حتى بالنسبة للحياة نفسها. إلى أين ستصل فلسفة الإلحاد في مسعاها، وما هي المرتفعات التي ستبلغها، لا يمكننا التنبّؤ بذلك. ولكن يمكن توقّع هذا الحدّ: لن تتطهّر العلاقات الإنسانية من عوالق الماضي البائس إلا بواسطة نار التجديد. بدأ الناس طيّبو القلب بإدراك حقيقة أنّ تلك القيم الأخلاقية، التي فُرِضَت على البشرية من خلال الإرهاب الديني، أصبحت نمطية وتقليدية وفقدت حيويتها ونضارتها. وأيّة نظرة سريعة على الحياة اليومية الحالية، على سماتها المتحلّلة، على مصالحها المتعارضة مع بغضائها، جرائمها، وجشعها، كافية

لإثبات عقم المبادئ الأخلاقية الثيولوجية. على الإنسان أن يعود إلى نفسه، وأن ينظر داخل أعماقه، قبل أن يتمكّن من تعلّم علاقته مع أقرانه. تمّ تقييد بروميثيوس على صخر العصور من قبل وحُكِمَ عليه بأن يبقى فريسة لصقور الظلام. حَرّر بروميثيوس من أغلاله وسينجلي الظلام بكلّ أشباحه وكوابيسه وغيلانه. إنّ الإلحاد بنفيه لوجود الآلهة هو في نفس الوقت أقوى تأكيد على الإنسان وعقله وقدراته، ومن خلال الإنسان _الهدف الرئيسي والوحيد للحياة_ فالإلحاد هو القبول الأزلي للحياة، الغاية، والجمال. إيما غولدمان: مفكّرة وفيلسوفة وناشطة سياسية فوضوية/ أناركية من ليتوانيا، ويقال أنها كانت تناهض الاضطهاد بكافة أشكاله واستغلال المرأة. 2010

٣) : الله والإلحاد

«إنني فيما يخص الآلهة لا أستطيع أن أجزم لا بوجودها ولا بعدمه مادام أن العديد من الأشياء تعجزنا على معرفة ذلك: أولها غموض المسألة ثانيها قصر الحياة الإنسانية» [بروتاغوراس]

«حين أرى هذا القدر من البؤس حولي أتساءل غالباً إن كان يمكن أن يوجد إله يسمح بكلّ هذا.» [ميلان مونديرا]

لو كنتُ كالله لي يدٌ في حركة الأفلاك لمحـوت مـــــا للفلك من آثارٍ وخـلقـتُ أفـلاكاً تـدور مكانــــــها وتسـير حســب مشيئة الأحرارِ [عمر الخيام]

عبء البرهان: انطلاقاً من مقولة أنّ «الحجّة على من ادّعى» نقول أنّ المتديّنون يؤمنون بالله، أمّا الملحدون فلا يؤمنون به. إلا أنّ العديد من المؤمنين يصرّون بأنّ المسؤولية تقع على عاتق الملحدين بتقديم حجج وبراهين تبرّر عدم إيمانهم بوجوده.

لكن هل يمكننا اعتبار مطلب المتديّنين هذا بأنّه مطلب عقلاني؟ هل يقع عبء البرهان على الملحد لتبرير عدم إيمانه بوجود الله؟ أمْ أنّ البرهان يقع على عاتق المؤمن المتديّن الذي يؤمن بوجوده ومن المفروض أنّه لديه أدلّة تثبت وجوده؟ نلاحظ أنّ المؤمن والملحد متفقان حول العديد من النقاط. على سبيل المثال، إنّهما يشتركان في اعتقادهما بوجود عالم فيزيائي مادي مكوّن أساساً وبانتظام من بنى ذرية، ويمكن لهما أن يحملا نفس المعتقدات والمبادئ الأخلاقية. والحال، أنّ المؤمن يرى أنّ هناك معتقد ضروري آخر ينبغي حمله وذلك من أجل تفسير سبب وجود وخصائص تلك الأشياء التي يعتقد وجودها هو والملحد. أول نقطة يمكننا ملاحظتها هي أنّ المؤمن المتديّن قد اعتزم على تفسير مجموعة من الحقائق. والآن إذا قدّم أحدهم تفسيراً لأمر ما، فيجب أن يكون مستعداً لتقديم أسباب وبراهين تدفعنا لقبول ذلك التفسير. تصوّر ماذا يمن أن يحدث إذا لم يكن الأمر يتطلّب أيّة تبريرات وتوضيحات لكافة التفسيرات المقترحة. يمكننا "تفسير" أي شيء بأي شكل يتناسب مع أهوائنا. يمكننا أن نؤكّد مثلاً أنّ الأرض تدور لأنّ هناك أشباح قوية تدفعها. ويمكننا أن الزعم بأنّ الريح تضرب لأنّ أرواح الهواء تسرّي عن نفسها، وأنّ الزلازل تحدث لأنّ الأرض متوضّعة على قرني ثور، وكلّما هزّ الثور رأسه اهتزّت الأرض من تحتنا. يمكننا حتى أن نقدّم تفسيرات غير متوافقة لنفس الحقائق حتى يصبح من الصعب جداً التقرير بينها. الملحد هو شخص لا يزعم بالضرورة أنّه يعرف ما الذي يجعل الأرض تدور لكنّه لا يؤمن البتّة بوجود الأرواح القوية التي تدفعها. بالنسبة لمن يؤمن بوجود هذه الأرواح القوية من المهم جداً أن يقدّم براهين وأسباب تبرّر اعتقاده بهذه الأرواح. وبنفس الأمر، يتوجّب على المؤمن تقديم أسباب تبرّر إيمانه بأنّ الله هو التفسير الوحيد والحقيقي للكون والعالم والأخلاق. الملحد، من ناحية أخرى، لا يقدّم تفسيرات

بالضرورة، لكنه وببساطة شديدة لا يقبل بتفسيرات المؤمن. لذلك، الملحد ليس بحاجة إلا أن يبيّن بأنّ المؤمن قد فشل في تبرير موقفه. نقطة أخرى يمكننا ملاحظتها وهي أنّ الملحد يعتقد بوجود الكون ولا يؤمن بأي شيء أكثر أساساً وتطرّفاً. المؤمن يؤمن بوجود الكون وإضافة إلى ذلك، فهو يؤمن بوجود الله. من هنا، المؤمن يؤمن بشيء آخر إضافي عمّا يؤمن به الملحد. فإذا كان لزاماً تبرير كافة المعتقدات، عندئذٍ كلّما آمن الشخص أكثر، كان عليه أن يقدّم تبريرات أكثر حول إيمانه. يتّضح أنّ على المؤمن تبرير معتقدات إضافية للملحد. من ناحية أخرى، إذا لم تكن المعتقدات تستلزم أيّة تبريرات، عندئذٍ نكون قد سلّمنا أنفسنا للفوضى مع اعترافنا باستحالة إقامة أي حوار عقلاني. لننظر إلى المثال التالي الذي يبيّن لنا سبب ضرورة وأهمية تبرير هذه المعتقدات: تصوّر أنّ هناك قضية أزعم فيها أنّ هناك عقد مكتوب مع طرف آخر، في حين أنّ الطرف الآخر ينكر وجود ذلك العقد. وعندما يطلب مني تقديم ذلك إثبات وجود ذلك العقد، فأتراجع القهقرى وأزعم أنّ المسؤولية تقع على عاتق خصمي في إثبات عدم وجود مثل ذلك العقد. من الواضح أنّ هكذا قضايا لا تسير على هذا المنوال. فالشخص الذي يؤمن بوجود العقد يمتلك اعتقاد آخر زائداً على الشخص الذي ينكر وجوده. والمحكم تطالب بتبريرات على مثل هذه الادعاءات، وإلا فالقضية غير قابلة للنقاش هنا. كتوضيح أبعد، افترض أني أتهمت أحدهم بأنّه حطّم نافذة سيارتي. هذا الشخص ينكر التهمة الموجّهة إليه ويطالب بمعرفة طبيعة الدليل الذي يدفعني للإشارة إليه على أنّه المذنب. ويكون ردّي بالإجابة عليه بأنّ تلك مسؤوليته الإتيان بدليل يثبت من خلاله أنّه لم يحطّم النافذة. هنا أنا أعتقد بأمر آخر زائد عمّا يعتقده ذلك الشخص: وهو أنّه هو الذي كسر نافذة سيارتي. عملياً ينبغي عليّ أنا تبرير اعتقادي أولاً. وحتى أقوم بذلك، لا حاجة للمتهم أن يتعب نفسه

لإثبات عدم صحّة زعمي. وعندما يقوم في النهاية بذلك، ما عليه سوى أن يعثر على ثغرات في الدليل الذي قدّمته ضدّه. تصوّر أني زعمت أنّ هناك ضفدع عملاق يأكل الناس عند ساقية قريتنا، وصديقي أنكر ذلك. سيتحتّم عليّ أنا إثبات أنّ هذا الشيء موجود، ولا تقع المسؤولية على عاتق صديقي لنفي ذلك. تصوّر أني عالم فيزياء وزعمت بأني اكتشفت شكلاً جديداً من أشكال المادة. زملائي العلماء ينكرون اكتشافي. عندئذٍ عليّ أنا أن أقدّم دليلاً يدعم اكتشافي. وليس عليهم أن يبحثوا عن دليل يثبت أني لم أكتشف شيئاً. لنفترض أني رجل دين، وزعمت أنّ الله قد تحدث معي وأمرني أن أبلّغ تعليماته للبشر وأن آمرهم باسمه للقتال في سبيله إلى درجة الاستماتة، وشخص آخر ينكر حديثي المفترض مع الله ولا يؤمن بذلك إطلاقاً، عندئذٍ ينبغي عليّ أنا أن آتي بأدلة وبراهين تثبت صحّة زعمي، ليس على المنكر أو غير المؤمن إثبات بأني لم أتحدث مع الله. في كل حالة من هذه الحالات، زعمت بأني أمتلك معتقدات إضافية زائدة أنكرها الآخرون. وقد أبديت اعتقادي بأمر إضافي واحد زائد على اعتقاداتهم. كان عليّ تبرير هذا المعتقد الإضافي. أمّا الآخرون فليسوا بحاجة لتبرير اعتراضهم أو إنكارهم، والسبب وراء هذا الإجراء واضح جداً وبسيط: فالمطالبة بالنقض تفضي إلى مواقف يائسة وحلقات مفرغة. إذا كنت قد زعمت أنّ العقد موجود وطالبت المتشكّك أن يثبت عدم صحّة زعمي، فبإمكانه الزعم أنّ هناك دليل يثبت عدم صحّة زعمي لكنّ الأمر عائد إليّ في إثبات عدم صحّة دليله. وأنا بدوري قد أزعم أنّ هناك دليلاً يفنّد دليله لكنّ المسؤولية تقع على عاتقه بأن يفنّد دليلي. وهكذا سندخل في حلقة مفرغة دون أن نصل إلى نهاية. ما لم يوضع حدّ للمطالبة بنفي النقيض، يصبح من المستحيل إثبات أيّة مزاعم. وسيهدر الكثير من الوقت في محاولات عبثية وعقيمة لتقويض الدليل وتكذيبه فقط لإيجاد أدلّة كثيرة

مكوّمة مكان الدليل السابق. كيف تعمل طريقة التفكير هذه عندما تطبّق على الخلاف الناشئ بين المؤمنين والملحدين؟ يزعم المؤمن أنّه يجب على الملحد نفي وجود الله. قد يجيب الملحد أنّ هناك دليل قاطع يثبت عدم وجود الله وعندها يجب على المؤمن نفي وجود مثل هذا الدليل. والمطالبة بالنفي تؤدّي حتماً إلى مهزلة غير حاسمة وحلقة مفرغة من العبث واللاجدوى. من ناحية أخرى، إنّ المطالبة بدليل مثبت، قد تكون له نتائج حاسمة. لذلك، الإجراء الوحيد المعقول هو المطالبة بإثبات، وليس بنفي إثبات. إذا كانت هناك معتقدات إضافية، عندئذٍ على المرء أن يتجهّز لتبريرها في ضوء التصريحات عكس ذلك. من ناحية أخرى، إذا لم يكن المرء يمتلك معتقدات إضافية أخرى، عندئذٍ فإنّ موقفه يجب أن يسود وينتصر بشرط إذا كان خصمه غير قادرٍ على تقديم أسباب جيدة له للتخلي عنه. إنّ الموقف الإلحادي ينبغي أن يسود إذا كان المؤمن غير قادر على دعم معتقداته في وجود الله. يمكن الدفاع عن الإلحاد بشكل أكثر إيجابية عن طريق الأسلوب التالي: يمكننا أنّ نزعم بشكل ملائم أنّنا نعرف أنّ الكثير من الأشياء ليست كما هي في الحقيقة إذا لم يتمّ تقديم أسباب مقنعة لدعم الزعم القائل أنها كذلك. على سبيل المثال، أنا قادر على الزعم بأني أعرف أنّ صديقي عبد الله ليس في منزله الآن لأنه ليس هناك دليل للاعتقاد بأنه في منزله. فالمنزل لا يصدر منه أي ضجيج أو صوت حركة، كما أنّ الأضواء مطفأة في الوقت الذي ون فيه مستيقظاً، فراشه فارغ، وهلم جرا. جميع هذه العلامات تدعم اعتقادي ولا تكذّبه. قد أكتشف بأني كنت مخطئاً، لكن احتمال الوقوع في الخطأ موجود عملياً داخل أي زعم معرفي يقدّمه أي إنسان. التناظر بين الاعتقاد بأنّ عبد الله في منزله والاعتقاد بأنّ الله موجود هو تناظر مثالي. فإذا كان عبد الله في المنزل، فسيكون هناك دليل يشير إلى هذه الحالة. من جهةٍ أخرى، إذا لم يكن هناكِ دليل بأنه في المنزل،

فيمكننا الادعاء بأنه ليس في المنزل. بنفس الشكل، إذا كان الله موجوداً، فسيكون هناك دليل على ذلك، إذ ستظهر إشارات تشير إلى هذه النتيجة. بطبيعة الحال، إذا لم يكن هناك دليل على وجوده، عندئذٍ يمكننا القول أن الله غير موجود. قد يقول البعض ببساطة أنّ الله موجود لكنه اختار بألا يترك وراءه دليل على وجوده. لكنّ هذا التصريح سيكون أشبه بالقول أنّ عبد الله في المنزل لكن ليس هناك أي دليل أو إشارة على وجوده. وكلا الزعمين يبدوان غير معقولين. فعبد الله عادةً مرتبط بمنزله بطرق شتى وإذا لم يكن هناك دليل على هذا الارتباط ، عندها يمكننا الافتراض أنّه غير موجود في المنزل. ويفترض أنّ الله حتى أكثر ارتباطاً بالعالم، أكثر من ارتباط عبد الله بمنزله، ففي النهاية، إنّ الله هو الذي خلق العالم وصمّمه كما هو. لذلك، فإنّ الدليل على ارتباط الله بالعالم ليس أكثر إلحاحاً من الدليل على ارتباط عبد الله بمنزله، عندها ليس هناك اختلاف في تبريرنا للقول بأنّ الله غير موجود وتبريرنا للقول أنّ عبد الله ليس في منزله. إذا كنت محقاً، فإنّ القول بعدم وجود إله يمكن تبريره على أساس أنه ليس هناك أي سبب يدفعنا للإيمان بأنه موجود. الذي قيل حتى الآن ليس أكثر مفاجئةً من قولي بأني أعرف أنّ الجن والعفاريت غير موجودة لأنه وببساطة شديدة ليس هناك أي سبب مقنع للإيمان بها.

٤) : اختلافات التجربة الإلحادية: بول كليتيور

"يتساءل الكاتب: إذا كان الملحد هو شخصاً لا يؤمن بالإله، فما هو الإله الذي لا يؤمن به" ما الإلحاد؟ مع أنّ هذه الكلمة شائعة الاستخدام في اللغة الحديثة والمعاصرة، فأغلب الناس لا يحدّدون ما الذي يقصدونه بهذه الكلمة بالضبط. "فالإلحاد Atheism" له علاقة "بالدين religion"، على الأقل. كل من يقرأ كتاب وليام جيمس William James (1842-1910) الطليعي الذي نشره عام

1902 «اختلافات التجربة الدينية The Varieties of Religious Experience» سيُعجَب بكمية الأفكار الدينية ونوعيّتها الواردة في الكتاب. غير أنّ تلك التشكيلة من الأفكار جاءت عن طريق مفهوم جيمس الواسع والعريض للدين إلى حدٍ معين. فالدين "الجيمسي" يشتمل على كافة الرؤى الأساسية والحيوية للحياة، ومن ضمنها تلك المواقف الفلسفية والإيديولوجية والسياسية. هذه النظرة شائعة بين أوساط أولئك الذين ينظرون إلى الدين من وجهة نظر سيكولوجية أو سوسيولوجية، كما فعل جيمس نفسه. ومن الواضح أنّنا نرصد هذه النظرة في تعريف جيمس للدين على أنّه «مشاعر، أفعال، وتجارب البشر خلال عزلتهم وانفرادهم مع أنفسهم، على مدى فهمهم وإدراكهم لما هو مقدّس أو إلهي بالنسبة لهم وارتباطهم به» [1]. إنّ ما أطلق عليه جيمس تسمية "التفاؤل الإيميرسوني Emersonian optimism" و"التشاؤم البوذي Buddhist pessimism" أيضاً يبدي العلاقة بالمقدّس أو الإلهي، لهذا فإنّ هذه المواقف هي عبارة عن مواقف "دينية"، حسب تعريفه: «لذلك يجب علينا _من وجهة نظر تجريبية_ أنّ نسمّي هذه المذاهب اللاإلهية أو شبهها بأنّها "ديانات"، ووفقاً لذلك عندما نتحدّث في تعريفنا للدين عن علاقة الفرد بما يعتبره "مقدّساً"، علينا أن نؤوّل كلمة "مقدّس divine" بشكل عريض للغاية، على أنّه دلالة على أي شيء "إلهي أو شبيه بالله"، سواءٌ أكان إلهاً مادياً محسوساً أم غير

---

[1] اختلافات التجربة الدينية: دراسة في الطبيعة البشرية
The Varieties of Religious Experience: A Study in Human Nature, Penguin edition, p.31.

ذلك»[2]. وهذا ما أوصل جيمس إلى مفهوم عن الدين على أنه «استجابة الإنسان الكلية تجاه الحياة» [3].

ما علاقة تعريف جيمس بالإلحاد ما علاقة كل ما سبق بالإلحاد. النتيجة واضحة جداً: إذا كان معنى الإلحاد "نفي الدين"، فهذا معناه الانسحاب الكامل للإلحاد من العالم. ويقتبس جيمس مؤكّداً عن أحد زملاءه والذي تحدّث عن أحد طلابه «الذي كان يظهر حماساً إلحادياً وغراماً شديداً بالإلحاد، فقد كان يؤمن بفكرة عدم وجود الإله، وكان يعبدها»[4] [الإيمان بفكرة "عدم وجود إله" وعبادتها؟؟؟] هل هذا ممكن فعلاً؟ بالرغم من أنّها فكرة "غير ملائمة"، كتب جيمس يقول أنّ هذا التوصيف للطالب كان مبرّراً على "أسس وخلفيات منطقية". إنّ توصيف الإلحاد أو عدم الإيمان كنوع خاص أو حالة خاصة بات أمراً واسع الانتشار. روجر سكروتون Roger Scruton، على سبيل المثال، يتحدّث عن "مذاهب أو طوائف cults مثل نوادي كرة القدم، والعروض القربانية كالأميرة ديانا والأولياء والقديسين كليندا مكارتني»[5] التوجه التاريخي الحالي في مجال حقوق الإنسان يمكن تصنيفه حسب سكروتون على أنّه "الدين العلماني الجديد لحقوق الإنسان" دين؟!! هل أصبحت الأمم المتحدة عقب إصدار الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام 1948 شكلاً من أشكال المنظّمات الدينية؟ حسب إستراتيجية جيمس الدلالية فلن تستثني فقط "الإلحاد"، بل أيضاً "العلمانية Secularism". "فالدين العلماني الجديد لحقوق

---

(2) السابق، صـ 34.

(3) السابق، صـ 35.

(4) السابق، صـ 35.

(5) الندم اللطيف: أفكار وخواطر من الحياة، صـ 232

Gentle Regrets: Thoughts from a Life, 2005, p. 232

الإنسان" عملياً سيكون رفضاً لأطروحة العلمانية. بالرغم من أنّ الجميع سيختارون معاني لهذه الكلمة حسب أغراضهم ومقاصدهم الخاصة، إلا أننا يمكننا أن نتساءل عن الحكمة من وراء هذه النظرة الضخيمية لمفهوم "الدين". ألن يكون من الأفضل حفظ هذه الكلمة من أجل التوجّه نحو نوع من حالات "الواقع المتعالي"؟ عندئذٍ لا يكون الإلحاد ديناً، بل "غياباً" للدين. بشكل خاص، الإلحاد إلحاد: فهو رفض لمذهب اللاهوت، والذي يعني بشكل خاص المفهوم التوحيدي لإله، أو "الله، الرب". (سأستخدم كلمة "لاهوت theism" و "توحيد monotheism" بشكل متبادل هنا).

مفهوم محدود للإلحاد: نفي التوحيد يمكننا أن نجد هذا التعريف المحدود للدين عند كتّاب ومفكّرين أمثال إرنست ناجِل 1985-1901 (Ernest Nagel). ويعبّر ناجِل عن تعريفه هذا في كتابه "دفاعاً عن الإلحاد "A Defense of Atheism 1957)) على النحو التالي: «أنا أفهم "الإلحاد" على أنّه نقد ورفض جميع مزاعم وادّعاءات كافة أشكال اللاهوت». فالتوحيد وجهة نظر تنصّ على أنّ «السماوات والأرض وكل ما تحتويه تدين بوجودها وبقاءها لحكمة وإرادة كائن إلهي خارق، مفارق، مُحسن، مستقيم، مطلق العلم والمقدرة، منسجم ذاتياً، وهو متعالٍ، ومستقل عن الأشياء التي خلقها» يقول ناجِل، مقتبساً عن روبرت فلين Robert Flin، أستاذ اللاهوت والإلهيات في جامعة أدنبرة. إذن فالملحد هو من ينكر وجود الإله الذي يتمتّع بالصفات والخصائص التي ذكرناها. بمعنى آخر: إنّه ينكر وجود "الله، الرب". ونحن نجد هذه النظرة ليس فقط عند ناجِل، بل أيضاً عند روبين لوبوديفي Robin Le Poidevin، دانييل هاربور Daniel Harbour وبول إدواردز Paul Edwards. الإلحاد بصفته نفياً للاهوت له منافع كثيرة. ونحن نعلم حق

العلم ما الذي نتكلّم عنه، وهناك تراث ملفت ومثير للإعجاب في تاريخ الفكر الغربي يمكن تفسير كمناقشة لفكرة وجود إله بسمات وخصائص محدّدة بوضوح. فالفلاسفة واللاهوتيين العظماء من أفلاطون، عبر أوغسطين، ابن سينا وتوماس أكويناس، إلى رينيه ديكارت، بليز باسكال، وحتى يومنا هذا، ريتشارد سوينبورن، دانييل دينيت، وريتشارد دوكينز، جميعهم كانوا مشاركين في هذه المناقشة التي تتعلّق بوجود إله لاهوتي ذو خصائص وسمات كالتي حدّدتها الكنيسة أو استناداً على تفاسير الكتب المقدّسة (القرآن والكتاب المقدّس). وهذا ليس مجرّد حديث عن المواقف المختلفة التي يتّخذها الناس فيما يتعلّق بـ "النماذج المثالية للحياة" (تعريف جيمس للدين)، بل حول صفات وخصائص الإله اللاهوتي، وإلى أي مدى تتوافق هذه المواقف مع بعضها البعض ومع باقي الأفكار الإنسانية الأخرى. على سبيل المثال:إذا كان الله يعرف المستقبل، فكيف ينسجم هذا مع فكرة أنّنا نمتلك إرادة حرة؟ [شيشرون]. ما الذي كان يفعله الله قبل أن يخلق العالم؟ [أوغسطين]. هل يجب على الله، إذا كان موجوداً في العقل، أن يوجد في الواقع؟ [أنسليم]. هل يمكن لإله مطلق القدرة والعلم أن يكون ملتزماً بالعدل والخير؟ [الغزالي]. وكما يصوغ مفكّر وجهة نظر جديدة لهذه الحجج على النحو التالي: «إنّ مفكّري الديانات الكبرى الثلاث [اليهودية، المسيحية، والإسلام] لطالما صارعوا المشاكل الفلسفية العامة التي احتاجت إلى حلول إذا كان الفكر اللاهوتي التوحيدي الذي كانوا يبنونه معاً فعّالاً، يتطوّر ليس فقط من خلال براهين معقّدة لإثبات وجود الله، بل أيضاً مفاهيم مفصّلة لخواصّ الله الرئيسية المختلفة: مطلق القدرة [قوّة]، مطلق العلم [معرفة]، خير مطلق، أبدية، ثبات، وهلمّ جرا»[6]. وهذا يشير إلى أنّ النقاشات حول وجود الله كان

(6) أندرو بيسين، سؤال حول الله، صـ20

في أغلب الأحيان نقاشات حول انسجام الخواص والصفات المنسوبة للمقدّس في التراث اللاهوتي. هؤلاء الذين يقولون أنّ تلك الصفات أو الخواص منسجمة ومتوافقة يطلق عليهم لقب "اللاهوتيين أو الدينيين"، أمّا الذين يرون عكس ذلك فيسمون، "الملحدين". إنّ رؤية الإلحاد كنفي أو إنكار المفهوم اللاهوتي الديني للإله (الله، الرب) من الواضح أنه أمر مختلف تماماً عن النظر إلى الإلحاد على أنه "رفض جميع الأشياء والأمور الغيبية و الخارقة للطبيعة". تماماً كما يصف جوليان باغيني Julian Baggini الملحد في كتابه "الإلحاد: مقدّمة مختصرة جدا" (2003): «إنّ رفض الملحد الإيمان بالله يكون مصحوباً دوماً برفض أوسع لأي واقع غيبي متعالي أو خارق للطبيعة. على سبيل المثال، الملحد لا يؤمن عادةً بوجود الأرواح والأنفس الخالدة، الحياة بعد الموت، الأشباح، أو القوى الغيبية والقدرات الخارقة للطبيعة»(7) إنّه يعترف أنّ الملحد على وجه التحديد يمكن أن يؤمن بأي من هذه الأمور الأخرى، لكن، كما يؤكّد، «الحجج والأفكار التي تدعم الإلحاد وتسنده تميل بشكل طبيعي لاستثناء المعتقدات الأخرى في عالم ما وراء الطبيعة المتعالي».

اعتراض شائع جداً حسب التعريف الأكثر محدودية للإلحاد كرفض لإله التوحيد، فالذين يعبدون آلهة متعدّدة هم ملحدون. فمن وجهة نظر الإلحاد كرفض لفكرة وجود الله، يمكن أن نطلق على الديانات الشركية [ليس المقصود هنا إيراد كلمة شرك أو شركية بمعنى التقليل أو التحقير، بل لأنها المرادف الأصح لكلمة POLYTHEISM الإنكليزية والتي تعني عبادة آلهة متعدّدة _المترجم] لكلٍ من الرومان والإغريق بأنّها "إلحادية"، على سبيل المثال لا الحصر. إنّ تصوير الحقيقة

Andrew Pessin, The God Question, 2009, p.20

(7) Julian Baggini, Atheism: A Very Short Introduction (2003), p.4.

النهائية على أنّها حقيقة لا شخصية (كما نلاحظ في الأوبانيشاد الهندية المبكرة) سيتمّ تصنيفها على أنّها "إلحادية". التيرافادا البوذية واليانية، والتي ترفض أيضاً فكرة الإله الخالق، ينبغي تصنيفها على أنها "إلحادية" حسب هذه النظرة أيضاً. وكذلك مذهب الحلولية أو وحدة الوجود، فهو رفض الإله الشخصي. وسبينوزا كان ملحداً من وجهة النظر هذه، مع أنّه قال أنّ الطبيعة هي الله. أغلب الناس يرون ذلك لغزاً. حتى أنّ هناك نتيجة غير مقبولة أكثر لتعريف الإلحاد على أنّها رفض لفكرة وجود الله، وهي أنّ المفاهيم الليبرالية التحررية للمقدّس سيتمّ اعتبارها إلحادية. ليس فقط سبينوزا، بل المعتقدات الدينية لدى رجال الدين المسيحيين المعاصرين كجون روبنسون (1919–1983) وبول تيليش (1888–1965) سيتمّ اعتبارها إلحادية أيضاً. بعض الناس يجدون هذا الأمر متوقع جداً، إن لم يكن عدواني ومهين. والاعتراض العام والشائع هو أنّ هذا الأمر يقدّم أرضية واسعة للأصوليين. ويمكن استعراض هذا النقد مع الإشارة إلى عمل أحد أفضل ممثّلي التراث التحليلي في فلسفة الأديان المعروفين: الفيلسوف من جامعة أوكسفورد أنتوني كيني Anthony Kenny (1931–). يقدم لنا كيني خلاصة مشرقة لآراءه حول الدين في كتابه "What I Believe" (2006). كان قد تمّ تعيينه ككاهن كاثوليكي عام 1955، لكنه لم يكن يعتقد أنّ فكرة وجود الله يمكن عرضها وبرهنتها. كانت هذه مشكلة لأنّ مرشّحي العباءات الأسقفية للدكتوراه كان لابدّ أن يقسموا على رفض كافة البدع والهرطقات الحديثة. وقد تضمّن القسم التصريح بأنّه كان من الممكن استعراض مسألة وجود الله. وبعد ستين من الكهنوتية قرّر أنّه لم يعد قادراً على الاستمرار كمدرّس لمذاهب وتعاليم أخلاقية مشكوكٌ بصلاحيتها وموثوقيتها. فحصل على الإجازة من البابا للعودة إلى الحياة العامية. ومنذ ذلك الحين كان له عدّة

مناصب أكاديمية في أوكسفورد. منذ عام 1969 وحتى 1972 ألقى كيني محاضرات في الدين الطبيعي. فقد قام بتحليل العلاقة بين الخواص الإلهية المقدّسة "مطلق العلم"، "مطلق القدرة" و"مطلق الخير والإحسان"، وكتب يقول: «لقد جادلت بأنّ هذه الخواص الثلاثة كانت غير منسجمة أو متساوقة مع بعضها البعض، كما يمكن أن ترى من خلال الانعكاس على العلاقة بين القدرة الإلهية والحرية الإنسانية. فإذا كان الله مطلق العلم والمعرفة وعلى علم بكل الأفعال والتصرفات الإنسانية المستقبلية، عندئذٍ فالنظرة الجبرية هي الصحيحة. أمّا إذا تخلّص الله من مسؤوليته عن الشرور الإنسانية، عندئذٍ تكون الجبرية خاطئة وغير صحيحة. لذلك لا يمكن أن يكون هناك إله مطلق العلم، والقدرة، والخير»[8] خَلُصَ كيني من هنا أنّه لا يمكن أن يكون هناك وجود لما يسمّى "إله الفلسفة السيكولائية أو العقلانية". وبالرغم من ذلك، فإنّ ذلك لم يضعه في موقف الملحد الكلي. لما لا؟ يجيب كيني: "تركت السؤال مفتوحاً على احتمال ما إذا كان من الممكن الاقتناع، والإيمان في، إله معرّف عن طريق ألفاظ ومصطلحات ليست مطلقة". هل ذلك موقف معقول يمكننا اتخاذه؟ لا، ليس كذلك من وجهة نظر الإلحاد كنفي لفكرة وجود الله. (مع أنّ بعض العلماء يزعمون أنّه يمكن للإنسان أن يتمسّك بالإيمان بالله ويرفض فكرة وجود إله مطلق القدرة). يبدو أنّ كيني يعتقد أنّه رفض إله الفلسفة السيكولائية أو العقلانية، لكن هل هذا صحيح؟ أليس يفعل ما هو أكثر من ذلك بكثير؟ أنا أعتقد أنّه فعل. لقد رفض فكرة الإله التي جرى الدفاع عنها من قبل الكنيسة على مدى عصور طويلة، وأيضاً، كما كنت أميل بدوري للاعتقاد بالإله كما يظهر لنا في بعض الآيات والمقاطع من الكتب المقدّسة. سواءٌ كان ذلك الزعم الأخير يعتمد طبعاً على السؤال ما إذا كانت خواص

---

[8] ما أؤمن به، أنتوني كيني، صـ 8.

الله كما دافعت عنها الكنيسة لها ركيزة قوية ومتينة في الكتاب المقدّس. هل صحيح أنّ الإنجيل يعطينا صورة عن إله شخصي مطلق العلم، مطلق الخير، ومطلق المقدرة _أو أنّ الله هو اختراع الفلسفة السكولائية والعقلانية، كما افترض كيني؟ انطباعي هو أنّ الكنيسة تقف على أرضية أكثر ثباتاً هنا من علماء الدين الليبراليين الذين يريدون الاعتراف. أنا أعتقد أنّ السمات والخواص التي نسبتها الكنيسة وآباؤها والفلاسفة السكولائيين لله لها ركيزة متينة وثابتة في الكتاب المقدس. فالإنجيل لا يقدّم لنا إلهاً غير شخصي محدود في قواته، على سبيل المثال. الشخص الذي يؤمن بإله يمتلك الخواص والصفات التي وردت في الأعلى يعتبر غالباً "متديّنا أو مؤمناً". هذا أمر لا خلاف عليه. فالتناقض يتركّز حول الملحد. ماذا نطلق على شخص لا يؤمن بذلك المفهوم المحدّد لله؟ أحد الأجوبة المعقولة، كما يبدو لي (حسب كل من هاربور، ناجِل، لو بوديفي، والعلماء)، هو "ملحداً". لذلك يبدو لي أنّ كيني هو شخص ملحد من هذا المنظور.

تعريف أوسع للإلحاد ليس فقط المؤمنون وحدهم يشعرون بقليل من الراحة مع هذا التعريف المحدود للإلحاد، بل أيضاً الملحدون الذين يعلنون إلحادهم أيضاً. غالباً ما يتمّ تمييز الإلحاد بطريقة واسعة. مايكل مارتن Michael Mrtin، أحد أهم الكتّاب المعاصرين في الإلحاد، يكتب قائلاً: «الإلحاد في معناه الأوسع، من اللفظتين الإغريقيتين "بدون without" و "ثيوس theos =إله"، يشير قياسياً إلى نكران وجود إله أو أيٍ من الآلهة» _أي إله أو آلهة. الإلحاد لا يشير فقط إلى نكران إله التوحيد، بل إلى نكران إله اللاهوت الليبرالي وآلهة الشركية والتعددية أيضاً. ليسلي ستيفن Leslie Stephen (1832-1904) كتب يقول: «الإلحاد الدوغمائي _المذهب القائل بعدم وجود إله، مهما كان معناه_ يمكن القول أنّه، على الأقل،

مرحلة نادرة من الآراء". من الصعب جداً التثبت من كونها نادرة طبعاً، لكن يبدو من الحمق إنكار وببساطة وجود الإله مهما كانت ماهيته أو شكله: بدلاً من ذلك، نحن نحتاج أولاً أن نحدّد ما المقصود بكلمة "إله" _لنقل، "كائن شخصي مبدع وثابت ذاتياً". من الحماقة إثبات وجود إله لا نعرف عنه شيئاً_ غير المحدّدة أو المعرّفة بشكل كامل. أو دعوني أقول أنّ مناقشة مسألة وجود إله لا يمتلك أيّة خواص، أو ذو خواص غامضة للغاية أو من غير المقرّر معرفتها، يدلّ على أنّ تأكيد وجود مثل هكذا إله سيكون أمر بلا جدوى كإثبات عدم وجود هكذا إله. رجل الدين المتحرّر الذي يترك احتمال وجود هكذا إله غير محدّد أو معرّف مفتوحاً فهو يفعل ذلك بشكل طبيعي، لكنّ هذا الموقف أكثر إشكالية، كما أنّه بديهي أكثر بعض الشيء، أكثر بكثير ممّا يفترض. التعريف الأوسع للإلحاد كإنكار أو رفض أي كيانات غيبية ما ورائية، كما جرى تبنّيه من قبل كل من مايكل مارتن، جورج سميث، وآخرين، له أضرار واضحة جداً: إذ ليس من الواضح ما إذا كانت هناك استراتيجية جدلية واحدة يمكن توجيهها ضدّ جميع الأفكار المختلفة عن الله. فعندما يقول أحدهم: «أنا أعتقد أنّ بوسيدون قد أنقذ السفينة»، فليس من الواضح تماماً كيف يمكننا "إثبات" أنّ السفينة قد أنقذها بوسيدون أم أنّها نجت بفعل عوامل طبيعية. أو إذا قال أحد أتباع سبينوزا: «أنا أعتقد أنّ الله والطبيعة هما نفس الشيء»، فكيف يمكننا تفنيد ذلك؟ مهما كان رأينا في هذين التصريحين الدينيين، من الواضح أنّ إنكار الشرك (بوسيدون ينقذ البحّارة) أو الحلولية أو وحدة الوجود (سبينوزا) يتطلّب حجة من نوع مختلف تماماً عن تلك المتبّعة في إنكار الإله بالمعنى الكلاسيكي الأرثوذكسي. إنّ النقاش حول استحقاقات الإيمان بالله الكلاسيكي وميزاته تمضي طبقاً لنمط الفلاسفة الكلاسيكيين، فبعضهم يحاول الدفاع عن العدالة الإلهية (مثل لايبنتز)، آخرون يحاولون مهاجمتها (مثل

هيوم، على سبيل المثال). [العدالة الإلهية Theodicy.... هي محاولة عقلنة خير الله المطلق وقدرته المطلقة في عالم شرير مليء بالألم والمعاناة]. أنا أعتقد أنّ جورج سميث يقف على أرضية أكثر صلابةً عندما يقول أنّ بعض اللاهوتيين تمّت تسميتهم "ملحدين" لعدم إيمانهم بإله (أو آلهة) "الأكثرية الأرثوذكسية". وهذا يركّز على التعريف الأضيق للإلحاد. والأمر هو نفسه عندما يكتب مارتن قائلاً: «في المجتمع الغربي تمّ استخدام مصطلح الإلحاد غالباً للإشارة إلى إنكار اللاهوت ورفضه، وبشكل خاص اللاهوت اليهودي-المسيحي. هذا [اللاهوت] يتمثّل في الموقف القائل وجود كائن مفارق متعال كلّي العلم، كلي القوة، وكلّي الخير وهو خالق الكون، والذي يهتمّ كثيراً بالشؤون البشرية، ويرشد مخلوقاته عن طريق الوحي»[9] كما أنّ تيار الإلحاد الجديد الذي يقوده كل من دوكينز، هاريس، هيتشنز، ودينيت هو أساساً إلحاد ينكر فكرة وجود الإله، أي أنّه، ضدّ إله التوحيد الكلاسيكي. ويوضّح دوكينز ذلك بجلاء عندما يكتب عن ما يسمّى "دين" ألبرت آينشتاين، على سبيل المثال. آينشتاين لم يكن مؤمناً بـ"إله شخصي". "فدينه" قائم أساساً على _ومعرّف من خلال_ «التقدير والاحترام اللامحدودين لبنية العالم طالما أنّ العلم قادر على الكشف عنها». لكن إذا كان هذا "ديناً"، عندها يكون دوكينز "متديناً" أيضاً. إنّ جيمس والعديد من أتباعه المعاصرين له قد يعرّفون مفاهيمهم كما يشاؤون، طبعاً، لكن مرّةً أخرى، من الواضح أنّنا نحتاج إلى كلمة خاصة تشير إلى إنكار الفكرة الأرثوذكسية للمقدس والتي تشير إليها الديانات اليهودية والمسيحية والإسلامية وتتشاركها: فكرة الله-الرب. ومصطلح "الإلحاد Atheism" لا يبدو خياراً سيئاً لهذه الكلمة.

---

[9] موسوعة الإلحاد الجديدة، مادّة (Atheism)، صـ 88 ،
Atheism', in The New Encyclopedia of Unbelief, edited by Tom Flynn, 2007, p.88

5) : الدين عبارة عن اختبار رورشاخ

هل الدين ماهو إلا اختبار رورشاخ؟... ألا يمكن للمؤمنين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم حتى ضمن الديانة الواحدة أن يفسّروا ويؤوّلوا تلك النصوص بعدّة أشكال وتفسيرات مختلفة وقد تكون متعارضة في بعض الأحيان؟... ما الذي تقوله لنا المعتقدات الدينية المختلفة عن المؤمنين وسيكولوجياتهم؟ تحدثوا لمئات المؤمنين على خلاف دياناتهم واسألوهم عن نظرتهم إلى الله وماهيته، أراهنكم بأنكم ستتلقّون مئات الأجوبة المختلفة والمتناقضة حتى. خذ المسلمين على سبيل المثال، اسأل أحدهم عن الله ستراه يقول لك أنّ الله رحيم وأنّ الإسلام دين الرحمة، واسأل أحد آخر سيقول أنّ الله ماكر شديد العقاب. اسأل أحد المسلمين الملتزمين _كي لانقول المتشددين_ عن رأيه بممارسات داعش ستراه يقول أنّ هذا هو الدين الحق وأنّ الله هو من أمر بذلك، اسأل مسلماً آخر سيقول لك أنّ هذا الإسلام الداعشي ليس هو الإسلام الحقيقي. اسأل أحد المسيحيين كمثال آخر، على الله ورأيه حول ماهيته وسيخبرك عن إله صارم غيور يتمتّع بشخصية تسلطية واستبدادية: خالق ومشرّع للقوانين، وليه نظره واضحة عن الخير والشر، وهو يجبر الجميع على اتباع قوانينه والالتزام بها حرفياً. اسأل مسيحياً آخر، وستسمع منه إجابة مختلفة هذه المرة: سيقول لك عن إله محب وعطوف شبيه بالأب الحنون، وستراه متسامحاً ومتساهلاً ويمنح عباده عدّة طرق وسبل ليختاورا سبيلهم الصحيح والحقيقي، وهو يريدك أن تكون سعيداً في دنياك وراضياً عن نفسك. هناك مؤمنون آخرون قد يكونون مسيحيين أو مسلمين أو حتى يهوداً ويوذيين لكنهم ربوبيون، بل منهم المؤمنون بنظرية التطور اللاهوتي/ الإلهي، فهم يرون الله كنوع من المدراء التنفيذيين: يبدأ أولاً مشروعاً اسمه الكون، ثم يتدخّل فيه هنا أو هناك بعض الأحيان ليتأكّد من سير

العمل بطريقة صحيحة وسلسة، لكنه في أغلب الأحيان يجلس على عرشه ويراقب خلقه وهم يتدبّرون أمورهم بذاتهم. وهناك آخرون يرون الله بوصفه تجريداً غير مشخّص، مثال فكري أو ذهني غير متجسّد، متعال، متمثلاً في أشكال غيبية أو مُثُل من النوع الأفلاطوني كالحب أو الخير أو الأخلاق. لماذا تتنوّع هذه الصور المختلفة والمتناقضة لله بكثرة؟ كنت ملحداً وأكتب في فلسفة الإلحاد وأترجم كتابات الملحدين سنوات عديدة، وقد تحدّثت وخضت نقاشات مع المئات من المؤمنين عن ماهية الإيمان بالله وماهي أسباب إيماننا به؟ ويبدو أنّ _بكافة التصورات والآمال المتعلّقة به_ الصورة عن الله التي يؤمن بها الناس تعكس أكثر من أي شيء آخر شخصية المؤمن وسيكولوجيته. عندما يخبرني المؤمن عن تصوّره لإلهه، أشعر بأنّه يخبرني ليس عن صورته الشخصية كما هو، إنّما عن صورته التي يجبّ أن يكون عليها. ما يتطلّع ويصبو إليه. ما يقيّمه أو يقدّره فعلاً. الأمر على النحو التالي، لا أحد من هؤلاء المؤمنين لديه صورة أفضل عن إلهه من المؤمن الآخر. ليس الأمر أنّ هذا التصوّر عن الله بحدّ ذاته يتميّز بدليل أفضل على صحّته. حتى وإن قبلت بالكتاب المقدس بوصفه السيرة الذاتية الأنسب لله... فإنّ هذه القصة عبثية وسخيفة وغير معقولة على الإطلاق، مليئة بالثغر.TFCA والتناقضات الصارخة. ونفس الأمر يندرج على القرآن وباقي الكتب المقدسة للديانات الأخرى. ثمّ عليك أن تمعن النظر في مسألة لماذا تعتقد أنّ الكتاب المقدس هو سيرة صحيح ودقيقة ومنطقية لكيان فعلي. عندما تنظر إلى الأمر من الخارج _من وجهة نظر إلحادية_ فإنّ المفاهيم والتصوّرات المختلفة والمتنوّعة لله تبدو كتصوّرات مشوّهة وملتوية. فهناك محاولات لتحريف رواية مكتوبة بشكلٍ رديء كمحاولة لمنطقتها وجعلها مفهومة. إله مطلق القوة، مطلق العلم والمعرفة، مطلق الخير... لكنه يطبق أساليب تعذيب سادية

لمخالفيه وغير المؤمنين به. إله يعاقب الأشرار ويكافئ الخيرين... لكنه يمتلك الحق ليفعل ما يشاء بخلقه، ويقوم بذلك فعلاً، ويرمي أولئك الذين يخرجون عن طاعته ويعصونه في بركة النار. ثلاثة آلهة مجتمعة في إله واحد بطريقةٍ ما... لكنّهم مختلفون، ويمتلكون قدرات مختلفة وشخصيات مختلفة عن بعضهم. وخلال عملية عقلنة التصورات، يكوّن الناس الحقائق لتتناسب مع ما يؤمنون به. إنّهم يقرّرون أنّ بعض الآيات في القرآن أو بعض المقاطع في الكتاب المقدس هي وحي واضح وجليّ من الله، وأنّ بعض الآيات أو المقاطع كان المقصود منها أخذها بحرفيتها. (وحتى أتباع النظرة الحرفية للكتاب المقدس يفعلون ذلك: هل تعرف متشدّداً أو متطرفاً واحد يرجم ولده الزاني أو يرفض ارتداء الملابس الحريرية؟). لكنّهم لا يمتلكون أي مبرّر منطقي أو عقلاني مقنع عن سبب قبولهم بأجزاء معينّة من القرآن أو الإنجيل أو التوراه ويرفضون أجزاء أخرى. إنّهم لايستطيعون إعطاءك أي سبب جيد ومقنع لماذا رجم الشباب الزناة أمر خاطئ وغير مقبول بينما التعفّف القسري أمر صحيح، أو لماذا فكرة التعذاب في الجحيم خاطئة في حين أنّ قتل المرتد والتمثيل بجثته أمر صحيح ومقبول.

لذلك نرى أنّهم يصيغون ويقولبون أفكارهم وحقائقهم تتناسب مع مايرون صحيحاً. إذا كانوا يعتقدون أنّ ما يجعل إنساناً ما صالحاً وخيراً هو اللطف، فإنّهم يصيغون إلهاً يهتمّ بالبشر ويتلطّف بهم. أمّا إذا كانوا يعتقدون أنّ مايجعل إنساناً ما خيراً هو العدل، فإنّهم يصيغون إلهاً يكافئ الأخيار ويجازي الأشرار. وإذا كانوا يعتقدون أنّ الخير هو الرحمة فإنّهم يتصوّرون إلهاً متسامحاً ورحيماً وغفوراً. وإذا كانوا يعتقدون أن الخير هو الذكاء، فإنّهم يتصوّرون إلهاً أشبه مايكون بالتجريد اللاهوتي المعقد. أمّا إذا كانوا يعتقدون أنّ الخير معناه احترام السلطة، فإنّهم يتصوّرون إلهاً يسنّ قوانين وشرائع واضحة وصارمة ويتوقّع منهم طاعتها والالتزام بها. الدين أشبه

مايكون باختبار رورشاخ. فمضمون القرآن أو الكتاب المقدّس _أو أي كتاب مقدس آخر_ لامعنى له أساساً. بل يمكن تأويله بطرق مختلفة ومتنوّعة ومتناقضة حتى. والطريقة التي تؤوّل فيها تلك النصوص المقدسة تكشف لنا عن شخصية المؤوّل أكثر ممّا تتضمّنه من أفكار وترّهات وسفاسف على الورق. (نعم، أعرف أنّ اختبارات رورشاخ الفعلية تعتبر غير دقيقة من قبل العديد من علماء النفس، لكنني استخدمت المصطلح هنا كتعبير مجازي).

لقد تناقشت مع الكثير من المؤمنين الذين اعترفوا بذلك فعلاً. لقد أجبِروا على الاعتراف بأنّهم انتقائيون فيما يتعلّق بنصوصهم المقدسة وليس لديهم سبب جيد يبرّرون من خلاله سبب انتقائهم لتلك الأجزاء... ولقد اعترفوا بالفم الملآن «هذا ما أشعر به فعلاً» أو حتى «هذا ما أودّ أن أؤمن به». هم عادةً مايتحوّلون إلى أشخاص دفاعيين حيال الأمر. «ما شأنك بماذا أؤمن؟» أو «ماعلاقتك أنت؟ وما دخلك؟» أو «إذا كان اعتقادي يشعرني بالسعادة والرضا، فما هو شأنك؟» والتاريخ ذاته يدعم مقولة «الدين بوصفه اختبار رورشاخ». فعندما تنظر إلى مسيرة التطور الأخلاقي للجنس البشري، سترى أنّ القفزات الأساسية المتقدّمة _الديمقراطية، حرية التعبير، إلغاء العبودية، المساواة بين المرأة والرجل_ قادتها الحركة العلمانية في المجتمع. الدين مدمنٌ على سرقة الأمجاد ونسبها إلى نفسه... لكن الحقيقة عكس ذلك تماما. فالدين هو الذي يكيّف نفسه حول منظومات الأخلاق المتطوّرة، وليس العكس. . من الواضح الآن أنّ فكرة رورشاخ هذه لاتمثّل القصة كاملةً. فمن جهة، يميل الناس إلى الإيمان بالدين الذي نشأوا عليه منذ نعومة أظفارهم. (جرّب أن تطرح السؤال التالي على أحد المسلمين: هل كنت ستؤمن بمحمد ونبوّته ورسالته فعلاً لو أنّك ولدت في أسرة مسيحية أو يهودية أوهندوسية؟... أو اسأل السؤال التالي على المسيحي: هل

كنت ستؤمن بيسوع حقاً لو أنك ولدت في بيئة إسلامية أو هندوسية؟) لذلك عملياً هناك الكثير من الأشخاص النزهاء والشرفاء مازالوا يؤمنون بإله قاسي وصارم ومستبدّ... لأنّه هذا النوع من الإله تعلّموا الإيمان به منذ صغرهم. لكن هناك الكثير من الناس يبحثون على الديانات التي تناسبهم وتتناسب مع معتقداتهم. حتى أولئك الذين تربّوا على الإيمان الشكلي الذي نشأوا عليه _مسلمين، يهود، هندوس، إلى ماهنالك_ مازالوا يبحثون عمّا يناسبهم. فعندما يبلغون سنّ الرشد، أو يتزوّجون، أو ينتقلون إلى مدينة أخرى أو بلدٍ آخر، فإنّهم دائماً يبحثون عن الفئة أو المذهب الذي يناسب معتقداتهم الدينية، أو حتى ينضمّون إلى طائفة محلية تناسبهم. إنّهم يختارون الديانة التي تتناسب مع قيمهم... أو يلوونها ويحرّفون معناها حتى تتناسب مع معتقداتهم. إذن ماهي وجهة النظر الإلحادية بشأن كل ذلك؟ من الواضح أنّ وجهة نظر الملحد حول كل هذه المعمعة هي «أنّ الدين مجرد هراء». لكنني أعتقد أنّ هناك نتيجو أكثر إيجابية: علينا أن نتحمّل مسؤولية قيمنا الخاصة.

إذا كنا نقدّر ونجلّ التعاطف أو العدل، الذكاء أو الرحمة... فعلينا أن نتّسم بذلك. لاينبغي علينا أن نعكس هذه القيم على إله خيالي غير موجود. لايجب علينا أن نخترع صورة عن إله تتناسب مع قيمنا ومفاهيمنا، نحرف معاني نصوصنا المقدسة لتتناسب مع تلك الصورة، ثمّ نقنع أنفسنا بأنّ قيمنا منزلة من عند الله... فمن جهة، هذا غير صحيح. ومن جهةٍ أخرى، عندما نقنع أنفسنا بأنّ قيمنا تأتي من عند الله، عندها نكون أقل انفتاحاً لتحمّل مسؤولية مجرّد تقبل الفكرة بأنّنا قد نكون على خطأ. فعندما نقنع أنفسنا بأنّ الله يكره الكفار أو المخالفين أو المرتدين، عندها يصبح من الصعب جداً إدراك أنّ هؤلاء الأشخاص هم مواطنون حقيقيون وأخلاقيون في بلدنا مثلهم مثل اي مواطن آخر... الدين يقوّض الوطنية والمجتمع المدني. وعندما نقنع أنفسنا أنّ الله

يكره المرأة ويريدها أن تكون خاضعة للرجل وأنّها أدنى منه، عندما يصبح من الصعب إدراك حقيقة أنّ المرأة مثلها مثل الرجل وقد تكون أكفأ وأذكى منه وتملك نفس مقدراته، ولاتختلف عن الرجل بشيء سوى بالأعضاء الجنسية... الدين يحطّ من قدر المرأة. وعندما نقنع أنفسنا أنّ الله يسمح بالعبودية ويحلّلها، عندما يصبح من الصعب رؤية الواضح بأنّ العبودية هي مسألة لا إنسانية ولاأخلاقية على الإطلاق... الدين ضدّ الإنسانية.

إنّنا نقيم قراراتنا على ما نعتقد أنّه صحيح ومسموح. فقراراتنا تؤثر على الآخرين. لذلك نحن لدينا التزام أخلاقي لفهم الواقع بأفضل مايمكن. كما أنّنا أمام مسؤولية أخلاقية لتحمّل مسؤولية أفعالنا وقيمنا وقراراتنا. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكننا من خلالها إصلاحها وصونها.

قصة جين الحرية

أميل إيماني*

الرب «الآن أنا على وشك الانتهاء من عملية صنعك، لكن بقي هناك جين واحد فقط وينتهي الأمر» الإنسان «آه، يا إلهي، أنا متحمّسٌ جداً للمضيّ في طريقي» الرب «والآن، دعني أقل لك شيئا هاماً، وأريدك أن تستمع جيداً لما سأقوله لك، بما أني أحبك من كل قلبي، فسأمنحك هدية غالية جداً، سأمنحك "الحرية في الاختيار"، لكي تختار هذا المكوّن الأخير... هل تريد جيناً يحدّد خياراتك من تلقاء نفسه ويرشدك خلال حياتك، وأعني جيناً ارتكاسياً، غريزياً. أو تريد جيناً يمكّنك من القيام بخياراتك بنفسك_يعني جين الحرية؟» الإنسان «إلهي... بما أنك مطلق اللطف والسماحة، فقد منحتني الحرية لأختار بملء إرادتي في هذه المسألة الحيوية، فهل يمكنني الحصول على جين يمنحني السيطرة المطلقة على إدارة وتسيير شؤوني الخاصة؟ إذا كان ذلك غير ممكن، فسأكتفي بجين الحرية» الرب «أرى بأنك قد بدأت بالتخطيط مسبقاً. لا، ى يمكنك الحصول على أي شيء مطلق. فكافة الأمور المطلقة هي من اختصاصي أنا وحدي. فجميع مخلوقاتي _ومن ضمنهم أنت_ من الأمور النسبية بالنسبة إليّ» الإنسان «بالتأكيد... إلهي... أنا أدرك جيداً أنّ كل ما يتعلّق بك مطلق، لا نهائي، ومثالي. لكن لا ضير في السؤال، أليس كذلك؟» الرب «هاه، حقاً لأنك متملّق صفيق. أرى بأني ارتكبت أول خطأ لي بخلقي إياك.» قالها الرب وهو يهزّ إصبعه في وجه الإنسان الأول. الإنسان «سامحني، إلهي. أنا لم يكن قصدي بهذا الشكل الذي فهمته أنت» يقول الإنسان مستغفراً. الرب «أنا أرى أيضاً بأنك

* شاعر وكاتب، له كتاب أثار جدلاً كبيراً بين الأوساط السياسية والدولية "أوباما يقابل أحمدي نجاد Obama meets Ahmadinejad" وكتاب آخر قيد النشر في الوقت الحالي "عملية الخليج الفارسي Operation Persian Gulf".

تستخدم ملكة الخداع عليّ. لن تنجح يا صاحبي. وتذكّر بأني أرى كل شيء وأعرف كل ما يدور داخل رأسك، وكل ما يجول في خاطرك. فلا تحاول خداعي. أبداً» الإنسان «نعم، إلهي. لسبب ما اعتقدت بأنك طالما منحتني إياها، فبإمكاني استخدامها. وإلا، فلماذا أعطيتنيها؟ صحيح؟ لكن، أعتقد أنك على حق. فأنت محقٌّ دائماً بلا استثناء. لذلك يجب أن أكون معك مستقيماً وصادقاً.» يتواضع الإنسان الأول الرب «أرى بأن تستخدم إحدى حيلك الأخرى عليّ... أنت تتملّقني!!!» يقول الرب بصوت ممازح الإنسان «لكن ربي، لماذا عليّ أن أصلّي لك وأشكرك على كل شيء؟ فأنت لا أستطيع أن أميّز الفرق بين الصلاة والتملّق، وما الفرق بينهما؟» الرب «عرفت منذ البداية بأني سأواجه بعض الإشكالات الأبدية معك، وقد بدأت منذ هذه اللحظة. لكن هذا هو السبب الرئيسي الذي دفعني لخلقك بأية حال. فليس هناك متعة في تسيير كل شيء حسب برنامج ثابت ومقرّر مسبقاً. فأنا بحاجة لبعض الإثارة، قليلاً من الإبداع، وحتى قليلاً من التحدّي في حياتي» الإنسان «إلهي، بالنسبة لموضوعنا الأساسي، من المثير أن أكون قادراً على القيام بأغلب خياراتي بحرية. فإذا كان القليل من الإثارة والإبداع والتحدي أمور جيدة بالنسبة لك، فهي بالتأكيد أمر جيد بالنسبة لي. لا أعرف كيف أشكرك على عرضك السخيّ هذا!» الرب «حسناً، أي شيء جيد بالنسبة لي قد يكون جيداً بالنسبة لك، لكنه ليس مخصّصاً لك. لا تنسى ذلك أبداً. فأنا رب، وحدي من دون غيري. وأنا أصنعك على هيئتي وصورتي. لكني لم أصنع نسخة عني، مثلي. هناك فرق شاسع بين الاثنين. هل تفهم؟» قال الرب محذّراً الإنسان «أفهم جيداً، إلهي. أشكرك...» الرب «جبن الحرية من أغلى الممتلكات وأثمنها، وسيحاول الكثيرون سلبك إياه بالترغيب أو بالترهيب ليزدادوا هم قوةً وجبروتاً، في حين أنهم سيعملون

على تحويلك إلى مجرّد إنسان آلي يسيّرونك حسب مشيئتهم. عليك أخذ الحيطة والاحتراس والحذر منهم، وحماية هذه الهدية الغالية بكلّ ما أوتيت من قوة، حتى ولو كلّفك الأمر حياتك... يا بني كن حذراً من ثلاثة أصناف من البشر: الدجّالين، الديماغوجيين، والساسة. كما أنه سيظهر من حينٍ لآخر شخص ستجتمع فيه هذه الصفات الثلاثة السابقة» الإنسان «إلهي، نعم النصيحة هذه، وأنا ممتنٌ لك لتحذيرك إياي من هؤلاء. لكن أرجو منك إخباري كيف أعرف الادّعاءات الزائفة وأميّز بينها وبين الصحيحة؟» الرب «من ثمارهم تعرفهم» قال الرب مجيباً الإنسان «إلهي!! أنت تعلم بأني ذكي، لكنني لست بهذه الدرجة من الذكاء لأفهم معنى هذا التعبير المجازي. أرجو منك أن تأخذني بعطفك وحنانك، وتشرح لي بتفصيل أدق» الرب «إذا شرحتُ لك هذا الأمر وفصّلته، فسيكون ذلك خرق واضح وصريح لامتيازات جين الحرية. جلّ ما يمكنني القيام به من أجلك هو إعطاؤك بعض العلامات التي تميّز هؤلاء: أي شخص يدّعي لنفسه امتيازات خاصّة ويزعم بأنّ له مكانة خاصّة عندي، يطلق وعوداً وتهديدات غريبة، يؤلّب الإنسان ضدّ أخيه الإنسان، ويحرّض على سفك الدماء بين البشر، ذلك هو الشخص الذي قصدته. لكنّ الحاقد الأكثر خطورةً بين هؤلاء هو ذاك الذي يزعم بأنه مرسلٌ من عندي» الإنسان «إلهي، أشكرك جزيل الشكر، لقد ساعدتني فعلاً» الرب «هناك أمر آخر عليك أن تتذكّره جيداً، وهو أنّ الميثاق الذي عقدته معي لا يُلزِمك أنت وحدك، بل أيضاً سلالتك التي سترث الأرض من بعدك. عليّ أن أنبّهك قبل أن تقوم باختيارك الأخير بأنّ الميثاق الذي عقدته معي للتوّ سيكون اسمه "العَهد"، والعهود التي يتم عقدها معي لا يمكن إلغاؤها أو نسيانها» الإنسان «أشكرك إلهي، لقد غمرتني بلطفك وإحسانك، ولا أعرف كيف أردّ لك هذا الجميل. من الواضح بأني عاجزٌ تماماً بما أنك مطلق اللطف

والإحسان. لكني سأعبدك وأجلّك، وسأصلّي لك صباح مساء، إذا كان ذلك يسعدك إلهي» الرب «لا بأس بالصلاة. لكني أعرفك جيداً وأعرف ما يدور في خلدك دائماً، أنا أعرف بأنك ستلجأ للصلاة لتتملّقني وتطلب مني لكي أحقق لك حاجات ومطالب لا تخطر على بال. لكن لا تتوقع شيئاً مني. فما أن تقدم على خيارك وتصبح وحيداً، عليك أن تتعلّم كيف تعتمد على نفسك. لا تنسى ذلك أبدا.» الإنسان «نعم إلهي، أنا وجميع أحفادي من بعدي سنكون ممتنين عطفك وكرمك إلى الأبد، ولأنك سمحت لنا بأن نكون أسياد أنفسنا، وصنّاعاً أحرار لمصيرنا الخاص. بدل أن نكون مثل بعض أقربائنا مكتسي الشعر الذين ما زالوا يمشون على أربعة قوائم ويتسلّقون الأشجار» لم تكن التفاحة المحرّمة هي التي أنزلت الإنسان من السماء إلى الأرض، بل كان قراره الأخرق لاختيار هذا الجين الذي يمنحه قوة لا مثيل لها للقيام بالخيارات الحرة، لكنه نسي أن يطلب من الرب أن يعطيه جين الحكمة ليرشده عندما يكون أمام عدّة خيارات. ومن هنا، فالعديد من الخيارات المبنية على الحقد والجشع والغباء التي تمّ اتخاذها على مرّ التاريخ جلبت كافة أنواع المآسي والآلام للإنسان. لذلك تزايدت النداءات والصلوات إلى الرب ليرفع عنهم هذا البلاء الذي ابتلوا به منذ عهد جدهم الأول. لكن هل من مجيب؟؟!!!!!!

الأصول البدائية للدين والأخلاق

مترجم عن:

Wells, H. G. The Outline of History, Being a Plain History of Life and Mankind, Barnes Noble, 2004. print.

يشكّل التاريخ البشري أفضل دليل _لكننا كثيراً ما فشلنا في استنباط العبر منه_ على ما سنتحدّث عنه. كثيرة هي المشاكل التي نواجهها اليوم، لكنّ أغلبها في الأصل هي مشاكل قديمة قدم الإنسان نفسه، سببها أخطاء مماثلة شبيهة بالأخطاء التي وقعنا فيها نحن اليوم، وقع فيها أجدادنا وأسلافنا وأدّت بهم إلى نتائج وعواقب مماثلة. هناك الكثير لنتعلّمه من التاريخ فيما يتعلّق بموضوع الأخلاق. فالتاريخ يزوّدنا بمخزون هائل لا ينضب من الأدلة والبراهين القصصية، أدلة وبراهين كثيرة جداً لدرجة أنه بات من السخف معها بالنسبة إلينا _نحن الفلاسفة الأخلاقيون_ ابتكار أمثلة افتراضية. هذا الابتكار للأمثلة الافتراضية ينتج نقاطاً هشّة تتخلّل الحجج الأخلاقية _وكثيراً ما تتم مهاجمتها على أساس أنها "افتراضية". أغلب المنظومات الأخلاقية المعاصرة ما هي إلا استمرار، اشتقاقات، أو تماثلات معادلة للمنظومات الأخلاقية الأقدم_ تتشارك سمة مشتركة أساسية وهي أنها تقوم على أساس من الخرافات والتوريدات العشوائية والاعتباطية. نجد بدايات الأسطورة والتفكير الخرافي عند الإنسان البدائي، فمع غياب اللغة بشكليها المنطوق والمكتوب، باستثناء مجموعة من الأصوات العشوائية الخالية من أي معنى! إلا لتدلّ على أشياء أو أمور معينة كالحيوانات، أو مخاطر محتملة، أو غذاء، كان البشر البدائيون في العصر الحجري لا يتمتعون بأي قدرة إدراكية كالتي نتمتع بها نحن البشر المعاصرون. كانوا صيادين مَهَرَة، وأسياداً في النجاة وفنون البقاء على قيد الحياة _إنّ وجودنا الحالي

يعتمد أساساً على خبرتهم بهذه المهارات_ إلا أنهم لم يكونوا مفكّرون مَهَرَة. هم لم يكونوا يمتلكون قدرات ومَلَكات عقلية وفكرية محدودة، بل نلاحظ أيضاً أنهم كانوا يفتقرون إلى أي معرفة مسجّلة، ولم يمتلكوا الوقت اللازم والكافي للخوض في مثل هذه النشاطات بوصفها معرفة خارجية متراكمة وضرورية. فأي معرفة كانت تقع خارج نطاق صناعة الأدوات، الصيد، إشعال النار، والمحافظة عليها مشتعلة، والبحث عن ملجأ آمن، نقول أي معرفة كانت تقع خارج نطاق هذه الأمور الجوهرية للبقاء على قيد الحياة، كانت معرفة خارجية غير ضرورية بالنسبة للبشر البدائيين. كما أنّ الانشغال في هذه النشاطات الزائدة أو الفائضة عن الحاجة كان يشكّل مخاطرة وتهديداً للحياة. لذلك، كانت الظواهر الطبيعية، كالعواصف الرعدية، الأجرام السماوية، الشمس، والموت جميعها كانت ظواهر محيّرة ومثيرة للتساؤل بالنسبة للإنسان البدائي القديم. ومع انعدام القدرة والقابلية على دراسة هذه الظواهر والتمعّن فيها بطريقة علمية، كانوا ينظرون إليها كظ اخر غريبة وغامضة _ومن هنا نشأت الخرافة والتفكير الخرافي. يروي لنا الكاتب الألمع يهربون جورج ويلز في عمله الرائع The Outline of History، المجلد الأول، عن السيطرة الذكورية عند الجماعات البدائية، "الرجل الكبير"، بوصفه رمزاً للخوف والمهابة والأمان عند باقي أفراد القبيلة. الرجل الكبير قد أمّن مركزه كقائد وزعيم، لكن ليس عن طريق قرار ديموقراطي، أو قدرته الفكرية، أو حتى شخصيته القيادية وتمتّعه بكاريزما القائد، ل عن طريق القوة البدنية والبطش بكل بساطة، على غرار الذكور الأسياد/ الألفا Alpha Male من الفصائل الأخرى التي نشاهدها في وقتنا الحالي. هذه القوة والوحشية يجب تأكيدها وإظهارها ليتم الاعتراف بالرجل الكبير وأفضليته من قبل باقي أفراد الجماعة-القبيلة وزعامته عليهم، وغالباً كان يتم التعبير عن هذه

القوة بشكل ضارٍ ومؤذٍ تجاه أفراد آخرين من القبيلة ليخضعوا له ولسلطته، وأمام مرأى جميع أفراد القبيلة ليتعظوا، وليفكّر ملياً كل واحدٍ منهم تسوّل له نفسه في تحديه ومبارزته. كان الرجل الكبير أفضلهم، أو أنه كان أفضل صياد بينهم وأكثرهم مهارة. كانت مهارته في الصيد مصدراً غير مباشر لبقاء المجموعة وتلاحمها. كان الرجل الكبير هو الحامي الأعظم للجماعة من جميع المخاطر والتهديدات والأهوال كالتسديد للحيوانات المفترسة والدفاع عنها ضدّ الجماعات والقبائل الأخرى الغازية.

وعلى غرار العديد من الفصائل والأنواع الجنسية، كان يتمّ جذب الرجل الكبير من قبل الإناث ليمارس الجنس والتناسل معهن، وهذا ما فلح الباب طبعاً أمام منافسيه من الذكور الآخرين. كان الرجل الكبير يفرض قوّته وسلطته على ذكور القبيلة، وغالباً ما كان ينتج عن هذه العملية إصابات بالغة بالنسبة للذكور المنافسين، بل وأحياناً كان يكلفهم ذلك حياتهم. تخبرنا الأدلة الأحفورية، والملاحظات التي تمّ جمعها والحصول عليها بمراقبة فصائل أخرى من الحيوانات، بالإضافة إلى الروايات التاريخية والأخبار المسجّلة من قبل بشر أكثر تقدّماً وتطوراً، جميعها تخبرنا بأنّ الرجل الكبير كان في سعي دائم وحثيث لضمان وتأمين مكانته ضمن الجماعة وصفه الذكر المسيطر وذلك عن طريق قتله لجميع الأبناء من الذكور الرّضّع، بل وحتى الشباب والبالغين منهم، وذلك لضمان عدم منافستهم له في المستقبل. من المناسب القول أنّ المغازلة والتودّد لم يكونا أمران ضروريان بالنسبة للإنسان البدائي القديم. فعندما كان يرى أنثى يريدها ويشتهيها، كانت المسألة لا تتجاوز مسألة تفوّقه الجسدي عليها ليحصل عليها ويتزاوج معها. على الأرجح لم تكن هذه تجربة ممتعة وسارة بالنسبة للأنثى حينذاك. كان الرجل الكبير يعتبر الأنثى ملكه، وكان يحتفظ بها قريبةً منه، وبجانبه دوماً، وكان يضمن التزاماتها وخضوعها له عن طريق قوته الجسدية، وهذا

أمر مازال موجوداً حتى يومنا هذا _ وهناك بعض الأماكن يكون فيها الأمر أسوأ من ذلك. ومن خلال هذا السعي الحثيث والمتواصل والعنيف من قبل الرجل الكبير لفرض سيطرته وقوته على القبيلة-الجماعة، كان أفراد الجماعة يخافونه، يهابونه، يجلّوه ويحترمونه ويحسبون له ألف حساب بسبب الأمان الذي كان يجلبه إلى القبيلة. كان الأمان الحقيقي الذي يشعر به أفراد القبيلة بوجود الرجل الكبير، والخوف الذي يشعرون به في حال غيابه، هما أساس سلطته وقوته. كانت جميع أشياء وممتلكات الرجل الكبير تلفّها الرهبة والمهابة، ومشاعر الخوف _فلم يكن يجرؤ الصبي أو الشاب اليافع على لمس سلاح الرجل الكبير، أو النوم في مخدعه، أو الاقتراب من نسائه، وكانت الأنثى بالكساد تجرؤ على التجوّل أو الابتعاد عن ظلّ الرجل الكبير_ بدافعٍ من الخوف والأمان. هذا الخوف في غياب الرجل الكبير منه، سمّاه هربت جورج ويلز ب"فكرة الرجل الكبير". كانت فكرة الرجل الكبير حاضرة بين أفراد القبيلة أثناء غيابه، إضافة إلى ما بعد موته. الموت، كونه كان ومازال الظاهرة الغامضة والمخيفة بالنسبة للإنسان القديم، كان مختلطاً مع مشاعر الخوف والرهبة والأمان التي أحاطت بفكرة الرجل الكبير. وقد تتوّج ليتحوّل إلى مشاعر خوف ورهبة وأمان صمدت واستمرت في وجودها أكثر من الرجل الكبير نفسه. إنّ فكرة الرجل الكبير كانت تتم استعادتها واستحضارها في أوقات الخطر والمحنة. بما أنّ الوجل الكبير كان _عندما كان على قيد الحياة_ هو حامي المجموعة والمدافع عنها، كان من المعقول أن تتعلق القبيلة بفكرة الرجل الكبير والشعور بالأمان الناجم عنها حتى بعد موته. كان الرجل الكبير ما يزال حياً من خلال التابوهات والمحرّمات التي وضعها وأسّسها ورسّخها عندما كان حياً. ربما كانت أماكن إقامته ونومه وأسلحته وجميع أشيائه كان يتمّ التعامل معها بوصفها أشياء مقدسة من قبل باقي أفراد القبيلة. هذه التابوهات

والمحرمات والقواعد التي وضعها الرجل الكبير كانت تمثّل بدايات الإدراك والوعي الأخلاقي. كانت، بمعنى ما، قوانين ومحرّمات وضعها ضدّ تصرّفات وأنماط معينة. كانت فكرة الرجل الكبير مرتبطة بهذه التابوهات والمحرمات، وكأنّ سلطته _حتى وهو ميت_ كانت تمنع أفراد القبيلة من انتهاك وتجاوز تلك القواعد والتحريمات. بإمكاننا العثور على أصل التقاليد والأعراف ونشأتها هنا أيضاً. جميع أفراد القبيلة من عجائب وكبار في السن وأمهات كانوا يرددون حكايات ومآثر الرجل الكبير ويقصّونها على أولادهم، يحكون لهم عن بأسه وقوته وبطولته وهيبته. وبعد عدة أجيال من التراث والتقاليد، أصبحت فكرة الرجل الكبير "أسطورة"، وتحوّلت إلى "أسطورة الرجل الكبير". الأحداث والظواهر الطبيعية كالعواصف والرعود والأعاصير والفصول كانت تؤوّل كحظّ جيد أو سيىء - والحظ بحد ذاته كان وكيلاً غريباً وغامضاً وغير مفهوم. هذه الفكرة البدائية المتعالية كان تثير حيرة الإنسان البدائي وقلقه وتدفعه لتوسيع هذا العالم المتعالي المجرّد عن طريق تضمينه أسطورة الرجل الكبير. وعلى غرار الظواهر الطبيعية، ما زال الرجل الكبير يمارس تأثيره على الجماعة (بقي شعور الخوف والأمان) مع أنه كان غائباً جسدياً. كان يتوقع أفراد القبيلة الأحياء أنّ الرجل الكبير معهم ويجانبهم، يرافقهم دائماً ليحميهم من مخاطر الطبيعة ونزواتها، ومن تهديدات الأعداء المتربّصين والغزاة، وهذه هي مهمته الجديدة، كما سبق وحماهم من الدببة والحيوانات المفترسة والقبائل الأخرى عندما كان حياً. بالنسبة لهم، كان هو متواجد داخل نفس الفلك الذي يتواجد فيه الحظ، وبذلك كان بإمكانه التأثير فيه والسيطرة عليه وإخضاعه وإجباره على خدمتهم والعمل لصالحهم. وهذه هي بدايات الطقوس والتضحية. من الممكن أن يكون هذا الرجل البدائي المسيطر، الرجل الكبير، الرجل ألفا، هو الإله الأصلي _والتابوهات

والمحرمات التي خرجت من الخوف والرهبة هي المصدر الأساسي والرئيسي للقوانين الإلهية الأصلية. منذ لحظة ولادتها الأولى، تمّ ربطها بالأخلاق ومزاوجتها مع الأفكار والطقوس والشعائر الخرافية، وما زال هذا التراث مستمراً حتى عصور أحدث ومجيء عصر الحضارات والإمبراطوريات، وصولاً لعصرنا الحالي.

مسائل حول الدين والإله في ضوء العلم والمنطق والعقل

إبراهيم جركس

[1] قصّة الخلق: لماذا لا تتشاركها جميع الثقافات؟

- أودّ هنا أن أعالج سؤالاً في غاية الأهمية، لماذا لا تتشارك قصّة الخلق جميع الثقافات والحضارات في العالم، إذا كانت قد حدثت فعلاً؟... قد يقول البعض معترضاً أنّ هناك ثقافات وحضارات تتشارك بعض تفاصيل القصّة، وهذا التشابه وحده كفيل لأن يعطي المصداقية لها... حسناً، لكن لا ننسى أنّ هناك تفاصيل لا تتشاركها أيضاً... دعونا لا نكون انتقائيين وننظر بعين العقل إلى الموضوع، لذلك سأعالج المسألة من ناحيتين: 1)إذا كانت هذه القصّة حقيقية، ماذا نتوقّع رؤيته فعلاً؟ 2)إذا لم تكن هذه القصّة حقيقية، فما الذي نتوقّعه إذن؟ *إذا كانت القصّة حقيقية إذا كانت قصّة آدم وحوّاء صحيحة وحقيقية، فمن المعقول توقّع أن يروي آدم وحوّاء قصتها لأولادهما، والأولاد بدورهم يمرّرونها لأولادهم، وأولاد الأولاد يمرّرونها للأجيال القادمة، ومن ثمّ فإنّ جميع الحضارات والثقافات من مختلف أرجاء الأرض سيشاركونها وتكون لديهم قصّة خلق واحدة مشتركة. لابدّ أنّ الآباء الأوائل كانوا قد أجابوا أولادهم على سؤالهم الفضولي: "من أين جئنا؟" بسرد قصّة الجدّ الكبير آدم والجدّة الكبيرة حوّاء وتلاعب الأفعى أو الثعبان بها عندما كانا في الجنّة، وقصّة التفاحة، وغضب الرب عليهما وطردهما من الجنّة... جميع هذه التفاصيل كانت لتكون مشتركة بين مختلف الشعوب. إضافةً إلى أنّه لو كان عمر الأرض 6000 سنة فقط، فإنّ هذه القصص لم تتمّ روايتها شفهياً إلا منذ 2500 سنة أو ما يقارب ذلك قبل تدوينها وتسجيلها. قد تبدو هذه الفترة الزمنية طويلةً جداً، لكن بوجود بطاركة

وآباء توراتيين كآدم ومتوشلح ونوح كل واحدٍ منهم عاش قرابة 1000 عام، فلابدّ أنّ القصّة تتمتّع باستمرارية عالية ما بين تاريخ الوجود في جنّة عدن وتاريخ تدوينها. ولن تكون هناك حاجة لنزول وحي خاص من عند الله ليرويها، إذ أنّها ستكون قد أصبحت معرفة عامّة وشائعة منذ بداية حدوثها. إذا كانت قصّة الخلق التوراتية صحيحة، فلابدّ أن تكون هناك تفاصيل عديدة قد نشأت منذ بدايتها ولابدّ أن تتشاركها جميع الشعوب والحضارات والثقافات في العالم بوصفها معرفة مشتركة لأحداث حقيقية وواقعية. *إذا لم تكن القصّة حقيقية أمّا إذا لم تكن القصّة حقيقية أو واقعية، أو حتى خاطئة، فمن المرجّح أنّنا سنرى الرواية تخرج من زمان ومكان محدّدين، وأنّ باقي العالم قد نسي تفاصيلها أو نسيها كلّها. ما يحمله لنا التاريخ هو تشكيلة متنوّعة من القصص والروايات المختلفة من جميع أرجاء العالم، وليست كل هذه الروايات تكرّر تفاصيل رواية آدم وحوّاء والثعبان الناطق والطرد من الجنّة وغيرها من التفاصيل المحورية والجوهرية في القصّة. وفي حين أنّه من المرجّح أنّ اليهود الأوائل قد شاركوا بعض العناصر من قصصهم مع جيرانهم من الشعوب القريبة منهم والمحيطة بهم والتي هم على احتكاك دائم بها، إلا أنّ هؤلاء الجيران كانوا يختلفون في رواياتهم مع اليهود في تفاصيل قليلة أو كثيرة، أي أنّهم كانت لهم نسختهم الخاصّة من قصّة الخلق. بينما الثقافات والحضارات الأبعد، كالأزتيك والمايا في القارة الأمريكية، أو شعوب الشمال في القارة الأوروبية العجوز، أو الهند والصين في القارّة الآسيوية، أو القبائل الإفريقية في قارة إفريقيا، بقيت جاهلة أو غافلة كلياً عن رواية الخلق اليهودية التوراتية. *نتيجة إذاً لماذا لا تتشارك جميع الشعوب قصّة الخلق ذاتها؟ لماذا لا تكون لها قصّة واحدة تجمع نظرتها وتعكس وجهة نظرها الجمعية حول حادثة حقيقية فعلية واحدة إن كانت قد حدثت فعلاً؟ إنّ حقيقة عدم وجود

قصّة خلق موحّدة تتشاركها جميع الحضارات والثقافات (أو بعض الثقافات التي تتشارك جميع تفاصيلها على الأقل) متوافقة مع فكرة عدم حدوث هذه الواقعة أو القصّة بشكل فعلي. كل إنسان يتوق ويرغب بمعرفة أصله وكيفية مجيئه إلى هذا العالم ولماذا، لذا من الصعب تصوّر أنّ هذه الرواية _والتي تعتبر أهمّ معلومة حيوية ورئيسية تخصّ جنسنا وأصله ونشأته_ لم تتمّ روايتها أو تناقلها من جيل إلى آخر بشكل دقيق. وحتى إذا كانت كل حضارة قد نسيت قصّة خلقها وأصلها ونشأتها، ألا تعتقدون أنّه سيكون من المفيد أن يقوم الله بنفسه بتذكير هذه الحضارات بهذه القصّة، ويخبرهم إيّاها بطريقة جمعية، بدل أن يخبر بها شعباً بدوياً أمياً، ويختار شخصاً واحداً من هذا الشعب ليخبر العالم كله بقصّة خلقه؟؟!!!!

[2] : لماذا قام الله بملء المحيطات بماء مالح لا يصلح للشرب؟

إذا كان هذا العالم مضبوط بشكل ذكي ومحكم ومصمّم بشكلٍ جيد خصيصاً لبقاءنا واستمرارنا، لماذا يمنحنا المصمّم/ الخالق أجساماً تحتاج لشرب مياه نقية عذبة، وليست مالحة... في حين أنه يخلق كوكباً يغطي الماء المالح نسبة 70٪-;- من سطحه، ماء غير صالح للشرب، سام وقاتل بالنسبة لنا؟ ألا يرغب بنجاتنا _نحن مخلوقاته العزيزة والمميزة_ وبقاءنا واستمرارنا على هذا الكوكب؟!!! من الصعب جداً بالنسبة لأي إنسان منطقي عاقل تخيّل إله مطلق الرحمة والمغفرة يقول:«ليكن هناك ماء مالح يغطي سطح الأرض تعجز أجسام البشر وأجسام الكثير من مخلوقاتي الأخرى على معالجته. ليكن ذلك حتى لا يرتوي عطشهم وبذلك سيرغبون بشرب المزيد من الماء، وسيكون مالحاً، ثم سيصيبهم الجنون والهذيان، ستتوقف كلاهم عن العمل، وسيموتون». أو قد يقول له أنبياءه ورسله: «يا رب، نحن بحاجة إلى مياه نقية وعذبة»، فيجيبهم قائلاً: «في أحلامكم، طبعاً لن أقدّم لكم مياهاً عذبة... وأين المتعة

في ذلك؟» لماذا لم يملأ الله بملء المحيطات والبحار بمياه نقيّة وعذبة وصالحة للشرب؟ مياه آمنة لنا ولصحّتنا، لنتمكّن نحن وباقي مخلوقاته من شربها؟ أو على الأقل يمنحنا كليً تعالج مياهاً ذات مستويات عالية من الأملاح، كما فعل مع أغلب مخلوقاته من الثدييات التي تعيش في المحيطات، أم أنّها أغلى على قلبه منا نحن البشر؟! لماذا ماتت الكثير من البشر والحيوانات بسبب الجفاف لأنهم لم يطيقوا شرب هذا الماء غير الصالح للشرب؟ أو كانوا غير قادرين على زرع محاصيل لأنّ مياههم لم تكن تصلح للريّ؟ لماذا يموت البشر بسبب شحّ في المياه، ألا يتحدّى ذلك مفهوم العناية الإلهية، والعالم المصمّم بذكاء من أجل بقاءنا واستمرارنا؟ فكّروا جيداً وتأمّلوا يا أولي الألباب لعلّكم تفلحون.

[3]: لماذا لم يخلِ الله أرض الميعاد قبل أن يصل اليهود _شعبه المختار_ إليها؟

وخصوصاً إذا ما علمنا أنّ الله كانت لديه مهلة 40 عاماً لإنجاز ذلك... ألم يكن ذلك أفضل بكثير من أن يَذْبَحَ اليهود _شعبه المختار_ رجال ونساء وأطفال الشعوب التي كانت تقطن أرض الميعاد من قبلهم، ويرتكبون بهم أفظع المجازر على مرّ التاريخ، ألا يختار الإله الرحيم والعطوف خيارا أقل عنفاً؟... على سبيل المثال، أثناء مغادرة اليهود أرض مصر، كان بإمكان الإله القدير، والمطلق القوة والقدرة أن يجعل نساء أرض الميعاد عقيمات، وعند حلول موعد قدوم اليهود إليها بعد مضيّ 40 عاماً، سيكون قد ماتت غالبية سكان تلك الشعوب، والنسوة الباقيات لن يكنّ قادران على الإنجاب والتناسل (حتى وإن تزوّجن). أو كان بمقدور ذلك الإله أن يظهر بكامل جبروته وعظمته ويثبت لسكان تلك الشعوب أنه الإله الوحيد والحقيقي وأن يأمرهم بإخلاء تلك الأرض ومغادرتها إلى مصر، أو إيطاليا، أو أي مكان آخر، والحقن دماءهم ودماء أطفالهم الأبرياء. أو كان بمقدوره أن يجعل الأرض جرداء قاحلة

ليرغمهم على الانتقال إلى مكانٍ آخر بحثاً عن الكلأ والماء، ويعيد استصلاحها من جديد لدى وصول شعبه المختار إليها. أو في أسوأ الأحوال كان بمقدوره تسميم جميع مياهها وينابيعها وجعلها غير صالحة للشرب كزيادة نسبة ملوحتها على سبيل المثال (وهذا من أحبِّ السيناريوهات إلى قلب يهوه). لكنه بدلاً من ذلك، قرّر هذا الإله المطلق اللطف والحب والرحمة ما هو أفضل بالنسبة لليهود وأرغمهم على ذبح وقتل كل إنسان على تلك الأرض بل احتلالها، تلك الأرض التي وعدهم بها وطوّبها باسمهم (يبدو أنّ هذه الهدية لم تكن مجانية وكان ثمنها باهظٌ جداً). يبدو الأمر بعيداً كل البعد عن أية إرادة إلهية، أو خطة وضعها إله غير موجود، والحقيقة أنها إرادة الإنسان نفسه وخططه، فالله _إن كان موجوداً_ ليس له أي يدٍ في ذلك. فلو أنّ الله كان يريد الموت والفناء لهذه الشعوب، لكان قد أفناهم وأبادهم عن بكرة أبيهم، كما فعل في سدوم وعمورة... أو كان قد أغرقهم كما فعل في حادثة الطوفان... أو قتلهم بشكلٍ مباشر كما فعل بالمواليد الأبكار في مصر. والأمر المركب أكثر من غيره اليوم هو أنّ العديد من اليهود والمسيحيين يبررون هذه الأعمال الوحشية والمجازر الفظيعة والجرائم بالقول: «أنّ الشعوب السابقة التي كانت تقطن أرض الميعاد كانت ضالّة وشريرة، وأنّ الرب أراد موتهم على يد الإسرائيليين... لذلك كان تلك الجرائم مبررة». إذن إذا أرادت إسرائيل احتلال أراضيكم غداً وارتكاب مجزرة بشعبكم، فلا تحزنوا، لأنّ الرب يريد ذلك وأعطاهم الحق وأصدر لهم الأوامر بقتلكم، لذا نرجو منكم عدم مقاومتهم والدفاع عن أنفسكم وأعراضكم وأرضكم، لأنّ ذلك يعني مقاومةً لأمرٍ من أوامر الله، وتحدياً لإرادته ومشيئته. كانت هذه المجزرة تجربة مريرة وصعبة جداً لهؤلاء الذين قتلوا وذبحوا بأيدي اليهود الغزاة، ونفسدالأمر يتكرّر الآن على أرضنا سوريا... وبالنسبة للفتيات الصغيرات اللواتي تمّ اغتصابهنّ على أيدي

الغزاة القتلة، وبالنسبة أيضاً لليهود الذين وجدوا أنفسهم مجبرين على قتل أطفال أبرياء وأولاد لم يبلغوا بعد سنّ الرشد. لكن مهلاً قليلاً، جميع هذه الفظائع والمجازر كانت أوامر صادرة عن إله غفور رحيم مطلق الحب والرحمة...

[4] : إذا لم يكن التطور، فلماذا يتشارك البشر أغلب مادتهم الوراثية ▥ مع الشمبانزي؟

قال لي أحد أصدقائي المتدينين طبعاً والمؤمنين بنظرية الخلق والتكوين بكل صراحة: "إنّ أكثر ما يزعجني في نظرية التطور هي حقيقة أنّ البشر يتشاركون بنسبة 95٪-;-_98٪-;- من مادتهم الوراثية مع الشمبانزي". لكن قبل أن تكون هذه النسبة معروفة، كان التكوينيون وأنصار نظرية الخلق يفسّرون النتائج بشكلٍ مغاير: إذا كانت مادة الشمبانزي الوراثية غير مشتركة مع البشر، فذلك يعني دليلاً على التصميم، أمّا إذا كان البشر أو الشمبانزي يشتركون بكمية معينة من المادة الوراثية، فإنهم سيقولون أنّ الله قد أعاد استخدام نفس المادة الوراثية. التطوريون من جهةٍ أخرى سيكونون هم الخاسر الأكبر إذا لم يكن هناك أي شيء مشترك من الدنا/ المادة الوراثية مابين القردة والبشر، عندئذٍ لن يكون الدنا DNA هو القوة المحرّكة للتطور. لكن هناك أخبار سيئة بالنسبة للتكوينيين، فالبشر والقردة يشتركون حقاً بالمادة الوراثية بنسبة 95٪-;-. إذن ما معنى هذا الكلام؟ بالنسبة للمبتدئين، هذا ما توقعه بالضبط العلماء التطوريون وتنبأوا به: لقد تطورت الحيوانات من بعضها البعض وتشاركت فيما بينها نفس المادة الوراثية. (وحتى البشر فإنهم يتشاركون فيما بينهم 99.9٪-;- من نفس المادة الوراثية). أمّا بالنسبة للتكوينيين، فهذا معناه أنّ الوقت قد حان بالنسبة لهم للإقرار والاعتراف بأنّ الله _إن كان موجوداً_ قد أعاد استخدام نفس الشيفرة الوراثية بدلاً من خلق تصاميم جديدة لكل نوعٍ أو

جنس. سيحاول التكوينيون في بعض الأحيان صرف الانتباه بعيداً عن التماثلات عن طريق التأكيد على الفوارق والاختلافات، زاعمين أننا بحاجة إلى أكثر من 450 مليون طفرة أو تغيّر مفاجئ في مادتنا الوراثية لنكون متميزين. في حين أنّ هذه الطفرات أو التغيرات تجعلنا متميزين ومتفرّدين بطريقةٍ ما، فذلك يشبه سرقة طالب لمقال مؤلّف من 200 كلمة واعتقاده أنه بتغييره لثلاث أو أربع كلمات يجعل منه مقالاً متميزاً. لابدّ أنّ عدد الفوارق والتغيّرات تافهاً أو عديم الأهمية إلا عندما نتجاهل جميع التماثلات. وفي حين أنّ التكوينيون لا يعيرون هذه التماثلات أي اهتمام ولا يعتبرونها دليلاً كافياً يثبت وجود سلف مشترك بين جميع الكائنات الحية على سطح الكوكب، فإنهم يعتبرونها دليلاً على وجود مصمّم ذكي واحد. «كما أنّ لوحات الرسام نفسه تبدو متماثلة ومتشابهة، كذلك البروتينات _أي الجينات_ من مختلف الكائنات العضوية تبدو مصمّمة من قِبَلِ مصمّم مشترك» [د.جورجيا بوردوم، من أجل أجوبة في سفر التكوين] في النهاية، أي التفاسير هو الأقرب إلى الحقيقة؟ هل تطورنا بشكل طبيعي أم أنّ الله قد أعاد استخدام مادتنا الوراثية؟ حسناً... إذا كان الله قد أعاد استخدام نفس المادة الوراثية، لما وجدناه يقوم بأمور غريبة كاستخدام شيفرة وراثية في البشر من أجل أمور كالإدمان على الشراب أو النزعة الإجرامية، أو منح الدجاج شيفرة من أجل الأسنان. بطبيعة الحال، إذا كنا نتيجة عملية تطورية تدريجية، فذلك هو بالضبط نوع الأمور التي بإمكاننا توقعها. وسنتحدّث لاحقاً عن هذا الموضوع بتفصيلٍ أكبر.

[5] : هل يتناقض مفهوم التصميم الذكي مع ذاته؟

بالنسبة للعديد من الناس، وخصوصاً المتدينين منهم، فتعقيد الحياة بحدّ ذاته سببٌ كافٍ للإيمان بالله. ويرى البعض أنه إذا كان هناك أي أمل باقٍ لإثبات وجود

الله، فسيكون من خلال حجّة التصميم الذكي. في الواقع، أنا نفسي كنت من المؤمنين بنظرية التصميم الذكي عندما كنت متديناً إلى أن أدركت أنّ هذه النظرية تتناقض مع فرضيتها الخاصّة. لتوضيح المسألة أكثر: إنّ قوانين التصميم الذكي تقول أنّ كافة أشكال التعقيد تتطلّب وجود مصمّم ذكي، لكنّ المصمّم الذكي والمعقد نفسه لا يخضع لهذه القوانين وهو مستثنى منها (هذه مغالطة منطقية يطلق عليها اسم "الالتماس الخاص"). أغلب أنصار نظرية التصميم الذكي لا يرون المشكلة التي تتخلّل النظرية لأنهم يؤمنون (حتى إذا لم يعترفوا بذلك بشكل صريح وعلني) بإله أزلي. وبما أنّ الله _إذا كان موجوداً_ هو كائن أزلي، حسب تفكيرهم، فليس هناك حاجة لتفسير مصدر هذا التفسير ومنشأه. فهو لطالما كان موجوداً، كما أنه كان معقدٌ دوماً. بأية حال، مازالت هناك إشكالية كبيرة وفي منتهى الجدية: لا يمكننا التفكير بشكل آني أنّ إلهاً في منتهى التعقيد موجود من دون سبب أو غاية، في حين أنّ كوناً أقل تعقيداً من ذلك الإله لا يمكن أن يوجد من دون سبب.

تكوين من الأعلى نحو الأسفل مقابل تكوين من الأسفل نحو الأعلى: لنوضّح الأمر بطريقة أكثر بساطةً، يعتقد أنصار نظرية الخلق والتكوين بخلق من الأعلى نحو الأسفل، حيث توجد كمية هائلة من المعلومات المعقدة (عقل الله)، التي تخلق أشياء أبسط وأقل تعقيداً. في هذه الأثناء، يؤمن الماديون بنظرة تتجه من الأسفل نحو الأعلى، حيث المادة الميتة والطاقة "موجودتان فحسب"، ويمكن للتعقيد والمعلومات أن ينبثقا عنهما بشكل تدريجي. يبدأ التفسير المادي من مستوى منخفض من التعقيد (0) صفر، ولا يستخدم سوى المواد التي تُعْرَفُ أنها موجودة. التفسير الديني يبدأ من درجة عالية من التعقيد، تشكّلت من موجودات غير مادية قد لا تكون موجودة،

والافتراض القائل بأنّ هذه المواد والموجودات غير المعروفة قد تخلق كوناً ناجم عن إرادة محضة.

رمية نرد؟ إنّ الذرات التي تكوّن كوننا صمّاء وعمياء تماماً، لكن ما تفتقر إليه من ذكاء ووعي تعوّضه بالأرقام المحضة. أنا أشبّه احتمالات نشوء الحياة باحتمالات رمي حجر نرد واحد من بين مليون حجر _وبشكل آني. إنها عملية بعيدة الاحتمال تماماً، لكن بعد مرور فترة زمنية لانهائية، وعدد لا نهائي من الرميات، يمكن لغير المحتمل أن يتحوّل إلى شيء محتمل في النهاية. "بوجود فترة زمنية كافية، سيبدأ الهيدروجين بالتساؤل عن أصله ومصدره" [مجهول]

نتيجة إذا رغب أنصار نظرية التصميم الذكي بقبول إمكانية وجود كائن مطلق التعقيد (الله) متحرّر من أي سبب ذكي أو غاية معقولة، عندئذٍ نحن أيضاً نرغب بقبول حقيقة أنّ كائناً أقلّ تعقيداً (الذرات، الكون، الإنسان، إلى آخره.) يمكن أن يكون موجوداً باستقلال عن أي سبب أو مبدأ ذكي. بغضّ النظر عن كيفية حدوثه، فحقيقة أننا موجودون هنا والآن مازالت حقيقة مدهشة ومذهلة بعظمتها. إذا كان الله موجوداً، فمن المذهل أنّ مثل هذا الكائن المعقّد كان موجوداً منذ الأذل. أمّا إذا لم يكن الله موجوداً، عندها سيكون من المدهش للغاية أن يتمكّن الزمان، وأن تتاح الفرصة، لإنتاج شيء على هذه الدرجة من التعقيد.

[6] : كيف يمكن لله أو للكون أن يكونا موجودين دوماً ومنذ الأزل؟

سواءً أقلها أنّ الكون كان موجودٌ دائماً ومنذ الأزل، أو أنّ الله هو موجود أزلي، فما زلنا نواجه نفس المشكلة_ شيء ما لابدّ أن يكون موجوداً منذ الأزل. المؤمن يقول أنّ الله هو الموجود الأزلي، في حين أنّ المادي يقول أنّ المادة التي تكوّن كوننا هي الموجود الأزلي، أيٌّ من هذين التفسيرين هو الأصح والأكثر معقوليةً؟

الله مقابل الكون

إنّه لسؤال في منتهى الصعوبة، لأنه ما يزال هناك الكثير من الأمور التي لم نتعلّمها بعد. وفي حين أنه من الصحيح أنّ معظم المادة التي تشكّل كوننا معقّدة وتتطلّب تفسيراً محدداً، هناك أيضاً عدد من الأشياء التي تشير إلى أنّ الكون هو الموجود الأزلي بالفعل، وأنه "كان موجوداً منذ الأزل": 1_ إنه موجود، كما أنه قابل للرصد والملاحظة بوضوح. فيمكننا التقاط صخرة والقول «لقد عثرت على قطعة من الكون!»... أمّا من المستحيل رصد روح الله أو اكتشافها أو تأكيد وجودها، لا يمكننا فقط الذهاب إلى أي كنيسة أو مسجد والقول «انظروا، لقد عثرت على قطعة من الله!»... حسناً، قد يقول الناس ذلك «لقد عثرت على الله»، ولكن قصدي هنا أنّ ذلك لا يجدي إطلاقاً ولا يصلح كدليل. 2_ الكون أقلّ تعقيداً بكثير من الله. إذا كان شيء ما "موجود فحسب"، فكون هذا الشيء بسيطاً يبدو أكثر ترجيحاً من أن يكون شيئاً بالغ التعقيد. سيتطلّب الله وجود قدرة أو قابلية ما لاستيعاب وتخزين المعلومات المعقدة، ولابدّ أن يكون ممتلكاً درجة عالية من الثقافة من دون أن يتثقّف. هذه المعلومات تمثّل نظاماً عالياً من التنظيم، بيانات ومعلومات معقدة. كيف يمكن لمثل هذا العقل المعقّد والمثقّف " الوجود"؟... في حين أنّ الذرات لا تستلزم وجود أي تعقيد جاد وصارم. يمكنني تصوّر كيفية تكوّن خلية من الكربون، الهيدروجين، الأوكسجين، والنتروجين وخروجها إلى الوجود ضمن كون غير محدود الاحتمالات مناسب لظهور تلك العناصر. لكن كيف يمكن لعقل ذكي ومطلق أن يوجد من لا شيء؟... من أين يستمدّ هذا العقل معرفته؟ 3_ غالباً ما يميل الكون إلى المبالغة في الإسراف وعدم الانتظام. هناك الكثير من الإسراف والتبذير واللاانتظام في هذا الكون. لماذا سيخلق الله بعنايته وحكمته الإلهية المطلقة مليارات المجرات إذا لم يكن

بحاجة سوى لمجرة واحدة؟ ولماذا يصمّمها، ثم يجعلها تتصادم بشكل عشوائي وفوضوي فيما بينها، أو يقذف بشكلٍ مستمر أو عشوائي الكواكب بمذنّبات وشهب ونفايات فضائية؟ هل يشعر الله بالملل ويزيد بعض التسلية لنفسه؟ إنّ سلوك الطبيعة هو سلوك مبذّر، عشوائي، أعمى، غير مبال، وجميع هذه الأمور لا يمكن توقع مشاهدتها من مصمّم ذكي وعاقل. 4_ الكون ليس بحاجة لخلق شيء من لا شيء. إذا كان لابدّ لشيء أن يوجد، فعلى الأرجح أنّ الشيء الموجود هو شيء كان موجوداً دائماً ومنذ الأزل. طبعاً يمكننا هنا إضافة الله إلى المعادلة، لكن عندئذٍ سيتحتّم علينا إثبات وجور كيان غير مادي، ويمكنه التفكير، ويمتلك معرفة من دون مصدر لهذه المعرفة، وأنه قادر على خلق المادة من لا شيء. لماذا كل ذلك؟ لماذا لا يمكننا القول أنّ المادة "الموجودة هي مادة كانت موجودة دوما"؟ _سيتحتّم على المؤمن المتدين أن يقبل: 1- إمكانية وجود كائنات روحانية ماورائية. 2- إمكانية وجود تلك الكائنات بصورة أزلية. 3- قدرة تلك الكائنات الروحانية على خلق مادة وطاقة من لا شيء. 4- إمكانية وجود هذه الكائنات الروحانية خارج إطاري الزمان والمكان. 5- قدرة هذه الكائنات الروحانية على التفكير. 6- تمتلك هذه الكائنات الروحانية احتياجات ومشاعر هي التي قادتها لخلق الأشياء والعالم. 7- أن تمتلك هذه الكائنات الروحانية معرفة من دون أن تكون قد تلقت تعليماً أو تثقيفاً.

نتيجة لأنّ معرفتنا محدودة جداً، لا يسعنا هنا سوى التخمين والافتراض سواءً كان الله هو الموجود الأزلي أم الكون. كلا الفكرتين تبدوان عبثيتين بشكلٍ ما، لكن من أجل أن نوجد نحن، لابدّ أن تكون واحدة منهما هي الصحيحة. أحمل حجراً في يدي، لا أعرف من أيناه أو ما هو مصدره، لكن من الصعب تخيّل زمن حيث لم تكن عناصره موجودة بعد. في اليد الأخرى، أمسك جزءاً من الله (هذا إذا افترضنا أنه

موجود، وموجود في كل مكان). أنا لا أعرف حقاً إذا كان موجوداً في يدي أم لا، لأنني لا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء فيها. من الصعب جداً تصوّر أنّ هناك، وأنه كان موجوداً منذ الأزل، وأنه كان ذكياً دوماً، حتى أنه هو الذي خلق الحجر الذي يدي. ما أعرفه حقاً هو أنّ الحجر في يدي الآن: فأنا أراه، أشعر به، ألمسه، أتحسّسه بأصابعي، أشعر بوزنه وملمسه في يدي. ووجوده هذا بحدّ ذاته والخاصيات الكامنة فيه تشهد على حقيقة أنه كان موجوداً دوماً. لا أعرف على وجه اليقين ما إذا كان الله موجوداً الآن، أم كان موجوداً منذ الأزل، أو حتى ما إذا كان هذا الكائن بحدّ ذاته وجوده ضروري ومعقول. من السهل الإيمان بطبيعة أزلية للشيء الذي أراه أو أرصده أو أشعر به، أكثر بكثير من الشيء الذي لا أراه ولا أشعر به.

[7] : لماذا لا يستطيع الله رفع ليرة في الهواء؟

أقدّم لكم هنا تجربة ممتعة بإمكانكم إجراؤها في المنزل. إبدأ التجربة باختراع إله جديد خاص بك وحدك، أي إله، وليكن إله "المتّة" مثلا. اذهب واصنع لنفسك كأساً من المتّة، ضعه على الطاولة وضع بالقرب من الكأس عملة معدنية، ولتكن ليرة على سبيل المثال، ثمّ صَلّي لإله المتّة ليرفع الليرة عن الطاولة ويعلّقها في الهواء للتأكيد على وجوده. فإذا نجح الأمر، هنيئاً لك، فإلهك حقيقي وموجود فعلاً! ... لكن إذا لم يحدث شيء، اسأل نفسك: «لماذا لم يحدث شيء؟» الجواب واضحٌ تماماً ومثل عين الشمس: لأنّ إله المتّة غير موجود بكل بساطة. لقد اختلقته بنفسك! الخطوة التالية: قم بإجراء التجربة بالصلاة لمختلف أنواع الآلهة التي يؤمن بها البشر، والتي اختلقوها بدورهم مثل: زيوس مثلاً. لقد آمن البشر فعلياً بزيوس في زمنٍ مضى، وكانوا يعتبرونه إلهاً حقيقياً، بل زعيم الآلهة ورئيس مجلس الأولمب، إذن لابد أنّه يمتلك مقداراً من القوة. هل استطاع زيوس رفع الليرة؟!... لما لا؟ على الأرجح لأنه غير

موجود ومختلق شأنه شأن إله المتّة خاصتك. أخيراً، صَلِّي لإله إبراهيم واطلب منه رفع الليرة في الهواء. هل فعل ذلك؟!... لما لا؟... لابد أنّ السبب منطقياً شبيه بالأسباب السابقة، لكنّ أغلب الناس لا يعلمون ذلك. إذا سألت مجموعة من المؤمنين عن سبب فشل إلههم في رفع الليرة، ستراهم على الأرجح يقدّمون مجموعة من الأعذار والتبريرات الواهية. لكنّ اختلاف التبريرات والأعذار أخر سهل للغاية بسهولة اختلاق الآلهة. لكن هل هي أعذار جيدة؟... أم أنها مجرد أعذار واهية؟... السبيل الوحيد لاختبارها ومعرفة ما إذا كانت صحيحة أو جيدة هو عن طريق تطبيقها على أيّة آلهة أخرى، على سبيل المثال: _زيوس لم يشأ رفع الليرة. _إله المتّة لا يشغل باله بأمور تافهة وسطحية كرفع الليرة. _رع يريدك أن تؤمن به بالتسليم والإيمان الأعمى فقط. _براهما سيغضب كثيراً إذا اختبرته. _لا يحب الله أن يختبره عبده. _رفع الليرة سيقوّض إيماننا ببعل. _هل سيترك يهوه جميع أمور الكون ويرفع الليرة فقط لتؤمن به؟ إذا قبل المؤمنون أن تكون هذه الأعذار مبرّرات منطقية لإلههم، فعليهم أيضاً أن يقبلوا بها كتبريرات وافية وصحيحة للدفاع عن الآلهة الأخرى. أمّا إذا لم يقبلوا بذلك، فإنهم يكونون عندئذٍ ازدواجيين ويقعون في فخّ المعايير المزدوجة. هذه أيضاً إشكالية منطقية (مغالطة) تعرف باسم "الطلب الخاص". من غير المنطقي قبول تفسير ما على أنه صحيح ومقبول عندما يخدم فرضيتك، وترفضه عندما يخدم الفرضية الأخرى المعاكسة لفرضيتك.

نتيجة إذن لماذا لا تستجيب هذه الآلهة لطلبنا البسيط هذا؟ فكل دينٍ يؤمن أتباعه أنّ إلهه قد خلق كل هذا الكون بطريقة إعجازية. ولا يستطيع أن يلبي لنا هذا الطلب البسيط؟! إذن هناك عُدّة احتمالات: 1- أنها جميعها غير موجودة. 2- أنها موجودة، لكنها تتجاهل طلباتها. 3- يوجد هناك إله واحد أو عدة آلهة هي الحقيقية،

وقد أخطأنا الإيمان بالإله الصحيح. 4- يوجد إله، لكنه غير مبالٍ بنا وباختبارنا. المؤمنون سيختارون الجواب رقم 4، لكن مرة أخرى، نفس الأمر ينطبق على الآلهة الأخرى عند الدفاع عنها (بمعنى: إنّ إله المتّة هو الإله الوحيد الصحيح، وهو غير مبالٍ بنا وباختبارنا، واختار تجاهلنا). لكنّ المشكلة الأساسية في اللامبالاة الإلهية وتجاهل ذلك الإله لطلباتنا لنتأكد من وجود ذلك الإله حتى أنها تجعل من المستحيل بالنسبة لنا أن نميّز الفرق بين الآلهة المزيفة وبين الآلهة الحقيقية. عندئذٍ سيكون علينا أن نبحث عن دلائل وإشارات أخرى أكثر إثارة للجدل (ذلك النوع من الدلائل التي تنطبق على الآلهة الأخرى، ثم نقع ضمن دائرة مفرغة من الدلائل والآلهة). الحقيقة هي أنّ أغلب المؤمنين طلبوا إشارات أو علامات من الله، أمّا طلبي الشخصي فكان أن يرفع الله الليرة ويعلّقها في الهواء لبعض الوقت، لكنه لم يفعل ذلك، بالرغم من أنّ الكثير من الروايات تزعم أنّ الله قد استجاب لطلبات أكثر سخفاً وسطحيةً من طلبي. لذلك كان عليّ استكشاف الدليل الآخر الذي مَثُلَ أمامي لتقييم المزاعم التي يقوم عليها ديني. ولو يوصلني ذلك سوى لنتيجة واحدة، أنّ الله غير موجود، أو أنه، إذا كان موجوداً، مختلف تماماً عن ذلك الإله الذي تصفه لنا جميع الديانات والأنبياء المزيفون.

[8] : لماذا خلق الله طيوراً لا تستطيع الطيران؟

خذ هذه الأجنحة المتكسّرة ... وتعلّم الطيران من جديد إنّ الأجنحة تمنح الطيور القادرة على الطيران أفضلية وميزة تمكّنها من إنجاز أمور جوهرية وحيوية من أجل بقائها واستمرارها: الأجنحة تمكّن الطيور من الهرب من الحيوانات المفترسة، السفر والهجرة إلى بيئات وأماكن أفضل، والحصول على الغذاء. لكنّ الحيوانات التي لا تطير، الحيوانات الأرضية، فإنّ الأجنحة تشكّل بالنسبة لها إعاقة بدلاً من خيار

اليدين. فالأيدي تسمح للحيوان بتسلّق الأشجار لحماية نفسه من المفترسات، صنع أدوات ضرورية من أجل بقائه واستعمالها ضدّ بيئته ومخاطرها، القبض على الأشياء وإمساكها، والطباعة على الحاسوب والآلات الكاتبة.

وباء جناحي النعامة

لنفترض على سبيل المثال أنّ وباءً أصاب بني البشر، أدّى إلى ولادة نصف أطفالنا بجناحي نعامة بدلاً من اليدين، جناحين لا يستطيعان الطيران. كائن بدون يدين _أجنحة فقط. لو أنك ولدت بجناحين، كيف سيكون شعورك عندئذٍ كونك تمتلك طرفين علويين مريّشين بدلاً من يدين؟ لا شكّ أنك ستتعلّم كيفية الاستفادة منهما بأفضل طريقة ممكنة، لكنّ الحياة بجناحي نعامة ستكون في منتهى الصعوبة، لن تكون قادراً على القبض على الأشياء أو إمساكها والتقاطها بسهولة، سيكون من الصعب تناول الطعام، وستكون عاجزاً عن التعلم والكتابة. كما أنه سيكون من الصعب العثور على شريك مناسب، بذراعين يشاركك حياتك ووضعك، حيث أنّ ذوي الأيدي سيفضّلون الشركاء ذوي الأيدي. حتى أنّ الناس سيبدأون في التشكيك بهذا التصميم الذكي ومساءلته، وسرعان ما سيذهب الناس إلى المستشفيات وعيادات الإجهاض لإجهاض الأجنة المجنّحة، ما أن يعرفوا حالة الجنين الذي بداخلهم. ولنفس السبب بالضبط، من الصعب تصوّر لماذا خلق المصمّم الذكي والخالق القدير طيوراً بأجنحة لا تستطيع الطيران. وكأنّ الله قد قال لنفسه: "سأخلق طيورا لا يمكنها الطيران. فلن تكون قادرة على الدفاع عن نفسها، وستنقرض سريعاً". لست عالماً بيولوجياً أو علم جينات، وإنما فيلسوف. لكنّ المقصد هنا أني لست خبيراً متخصصا في علم الوراثة والجينات، لكن بإمكاني التفكير بعدّة أسباب حول كيفية تطور الطيور غير القادرة على الطيران. لنأخذ مثال البطريق على سبيل

المثال، طيور غير قادرة على الطيران محبوسة في قارة أنتاركتيكا، ومن الأفضل لها أن تكون سمينة ومليئة بالشحم ودافئة على أن تكون قادرة على الطيران (وخصوصاً مع عدم وجود الكثير من المفترسات حولها). إذن في حين أنّ شحم جسدها لا يسمح لهذه الطيور بالطيران، فإنه يبقيها أيضاً على قيد الحياة ومستمرة في التكاثر. قد يمكننا المجادلة بأنّ الله قد صمّم البطاريق بهذا الشكل منذ البداية، إلا أننا لا يسعنا سوى التساؤل لماذا زوّدها بعظام مخصّصة لأجنحة طائر. لماذا لم يزوّدها بزعانف قرش على سبيل المثال؟ كلّ ما أقوله هو أنّك إذا كنت تصمّم مخلوقاً طائراً، فالأفضل أن تجعله قادراً على الطيران كالطيور، أمّا إذا كنت تصمّم مخلوقاً سبّاحاً فاجعله قادراً على السباحة كالأسماك. ما السبب أو الهدف من تصميم طائر غير قادر على الطيران وجعله يسبح كالأسماك؟ النعامة مثال آخر، فكونها تمتلك جسماً ضخماً، فهذا قد يجعلها غير قادرة على الطيران، لكن ذلك يعني أيضاً عدم تعرّضها كثيراً للافتراس بسبب ضخامة جسدها وقوّته. بالنسبة للطيور الأخرى، فعدم قدرتها على الطيران لا تعني بالضرورة عدم قدرتها على التزاوج والتكاثر. فحتى الطائر الطافر والعاجز عن الطيران يظلّ قادراً على التزاوج والتكاثر والاستمرار (حتى ولو كانت طيور عاجزة).

نتيجة قد يقول التكوينين أنّ الله أمّا 1) أنه قد صمّم طيوراً غير قادرة على الطيران لكي لا تطير منذ البداية (مع أنه خيار تصميمي في منتهى الغرابة)، أو 2) أنه سمح بحدوث طفرة سبّبت لها إعاقة معينة وجعلتها غير قادرة على الطيران. أمّا التطوريون والعلماء فيقولون أنّ هذه الطيور قد حدثت لها طفرات معينة ثم تكيّفت مع بيئاتها.

مسائل ضدّ الدين والتدين

جيمس هيرفي جونسون

المقدمة

هذا الكتاب مخصّص لأصحاب العقل والعقلاء الذين يتحلّون بملكة التفكير وينعمون باستخدامها. وهو نتيجة دراسة مطوّله للعديد من الديانات والشعوب، التاريخ، علم النفس، والتوزّع السكاني للأعراق والديانات. وقد حضرت العديد من اللقاءات والاجتماعات الدينية التي عقدت في الولايات المتحدة، وناقشه مسائل وقضايا دينية مع العديد من الناس وقرأت مئات الكتب، وأكثر من ذلك من المقالات في الجرائد والصحف والمجلات، والمواعظ الدينية، وقضيت ساعات طوال أفكّر بكل ما قرأته، أو سمعته، أو رأيته. والنتائج التي توصّلت إليها قائمة على الكثير من الأفكار التي دخلت عقلي. وليس لدي سوى هدف واحد ووحيد: هو أن أعرف الحقيقة وأعبّر عنها. من الواضح أنّ تفكيري هذا حول الدين والأمور الدينية قد نتجت عنه نتائج واضحة وبيّنة. وكانت هذه الدراسة ترضيني إلى حدٍ كبير، وربما ستكون كذلك أيضاً بالنسبة لكل قارئ يريد أن يحدّد آرائه وأفكاره عن الأمور والقضايا الدينية عن طريق استخدام ملكة التفكير لديه بدلاً من قبولها والتسليم بها بشكل أعمى، كونها تقوم على التخمين، التخبّط، الإيمان، والعشوائية والاعتباطية. لا أطالب أحداً بأخذ كلامي بحريته وكليته كما ورد هنا بالضبط، بل إنما كل تصريح أو عبارة هو واضح بذاته ومثبت أو يمكن إثباته للعقل المفكّر. وكل قارئ نجيب عليه أن يصل إلى نتائج مماثلة للتي توصّلت أنا إليها لأنّ الحقائق التي قادتني إليها حقيقية وفعلية، والحقائق الراسخة دوماً تقودنا إلى نفس النتائج، بغضّ النظر عن طريقة التفكير التي نتبعها. كل قارئ عليه أن يقرأ هذا الكتاب بطريقة

بعيدة تماماً عن الشخصنة، ومن دون تحيّز أو ذاتية. فهو، من جهة، نتاج سلسلة من آلاف بل ملايين الانطباعات التي تمكّن واحدٌ من العقول البشرية أن يجمعها، يعالجها، ينظّمها، يقارنها ثم يتنجها في النهاية، بالإضافة إلى النتائج التي توصّل إليها ووصلته، خلال هذه العملية من المقارنة والمعالجة. لندع كل قارئ يفكّر بنفسه ويعالج الأفكار الواردة هنا وليرى بنفسه النتائج التي سيتوصّل إليها. الحقيقة لا تحتاج للدفاع عنها. فالحقائق قائمة بذاتها. إقرأوا ما هو واردٌ هنا، وكونوا نزهاء وصادقون في تفكيركم ومعالجتكم للأفكار، لتتوصّلوا إلى نتائجكم الخاصة بكم أنتم وحدكم.

الفصل الأول: {الدين متوارث}

نحن نحصل على معرفتنا الأولية عن الدين من أهلنا. فقد كنا جهلاء جداً وضعفاء عندما كنا أطفالاً لدرجة أننا كان علينا أن نتعلم المشي. لم نكن نعرف شيئاً عن العلم، عن التاريخ، عن العالم من حولنا. فقبل أن نتعلّم القراءة حتى، تمّ أصحابنا إلى الكنيسة أو مدارس الأحد، وتلقيننا أمور ومفاهيم معينة عن الدين. لقد أخبرونا أنّ هناك إلهاً بقوى خارقة وسلطة مطلقة على كل شيء. لكننا لا نستطيع رؤيته، سماعه، لمسه، شمّه أو تذوّقه. ثم طالبوا بأن نثق بكلام معلم مدرسة الأحد ونؤمن به بشكل أعمى. لقد أخبرونا أنّ ابن الله قد ولد من امرأة لم يسبق لها أن مارست الجنس أو تناسلت مع رجل من قبل، فتاة عذراء. والأطفال لا يفهمون مثل هذه المسائل أو يستوعبونها إلا بصورة مبهمة ومشوّشة. لقد أخبرونا أننا عندما نموت فإنّ أرواحنا ستبقى. لكن لا دليل على ذلك. كانوا يتوقعون منّا أن نقبل الفكرة من دون أي برهان على صحتها. وكل شخص كان يخبرنا عن خلود الروح في الجنة وبقاءها بعد الموت، كان لديه مفهوم مختلف ومغاير حول الروح من الشخص الآخر.

نحن لم نكن نعرف أين هي الجنة. لم نكن نعرف ما هي الروح. كانوا يخبرونا عن الجحيم، لكنهم كانوا عاجزين عن إظهارها لنا. كل الأمور والأفكار التي لقّنونا إياها عن الدين أسطورية وخرافية، مستحيلة الإثبات، وغير قابلة للبرهنة عليها، وكانوا يتوقعون منا أن نصدّقها ونؤمن بها لأنّ آباءنا أو كهنتنا أو قساوستنا يخبروننا بأنها صحيحة وحقيقية. عندما كنا أطفالاً، لم نكن نمتلك أي وسيلة لمراجعة الحقائق التي تردنا بوصفها حقيقة والتمعّن فيها. لم نكن نجرؤ على إظهار ولو قليل من الشك، لم نكن نجرؤ على المطالبة بدليل أو برهان، وكنا عادةً نسلّم ونقبل بما يقال لنا بدون أي تساؤل. أهلنا أيضاً كانوا قد قبلوا ما جرى إخبارهم به وصدّقوا كل ما قاله لهم أهلهم، كما أنّ القساوسة والكهنة ورجال الدين قد استمدوا معلوماتهم الأولية من أهاليهم، ثم من كتب وكرّاسات ألّفها رجال دين وكهنة هم أيضاً استمدوا معلوماتهم من رجال دين وكهنة سبقوهم. عندما كنا أطفالاً لم يعلّمونا جميع جوانب الأسئلة الدينية، وناقشها من كافة وجوهها. في الواقع، لم توفّر الأديان أي جهد لمنع الأطفال من تلقي أي معلومات قيمة حول أي دين عدا دين أهلهم وآبائهم، أو دين الكاهن أو القس الذي لديه السلطة لملء عقولهم بالأمور والأفكار التي يريدهم أن يؤمنوا بها. وكوننا لم نطوّر أي ملكات أو قدرات فكرية نقدية قمنا بقبول الأفكار والمفاهيم التي قدّموها لنا. لا يسعنا فعل شيء آخر غير ذلك. لقد تحوّلت البرمجة الطفولية المبكّرة إلى عادة. قسم كبير من الدماغ قد تطوّر خلال نموّنا وترسّخت فيه الأفكار والانطباعات الدينية بشكل عميق ومتجذّر، تماماً كما تجذّر الاعتقاد الخاطئ ببابا نويل في عقول الصغار التي تفتقر إلى القدرة على التمييز بين الحقيقة والخرافة. أمّا إذا سُمِح لكل طفل الانتظار حتى بلوغه سن النضج قبل التحقيق في الديانات وطلب منه أن يدرس جميع الأديان وجميع الحجج المضادّة للأديان، فلن تروا

كل هذا العدد من المؤمنين. العالم متديّن لأنّ الأطفال لا يطلعون سوى على وجه واحد من السؤال ذو الأوجه الكثيرة والمتعددة. هناك الآلاف من الأديان والمعتقدات الدينية، وكل زعيم ومؤسس لدين منها يزعم أنّ دينه هو الدين الوحيد الصحيح. وأولاد أتباع كل دين من هذه الأديان يُلَقّنون أنّ دينهم هو الدين الصحيح الوحيد.

الفصل الثاني: {لقد نشأت الأديان وتطوّرت في الأزمنة القديمة} أغلب الديانات التي تمتلك أتباعاً، قد تطوّرت عن أشخاص جهلاء أو شعوب أمية جاهلة منذ أكثر من مئات أو آلاف السنوات. وجميع الديانات تقريباً قائمة على أفكار ومفاهيم هؤلاء البدائيين. تعود جذور الديانة اليهودية إلى حوالي أكثر من 6000 سنة. الديانة المسيحية قائمة على مفاهيم تعود لأكثر من 1900 سنة. الديانة المحمدية ظهرت منذ حوالي 1100 عام وتقوم في أغلب مفاهيمها على أفكار ومعتقدات مستمدة من ديانة سامية أو يهودية، والتي كانت هي الأخرى مزيجاً من شذرات فلسفية وأسطورية من حضارات أقدم كالآشورية، الكلدانية، المصرية، والهندوسية. كتبنا وأفكارنا الدينية تعود في تاريخها إلى تلك الأزمنة الغابرة، ويتوقع منا رجال الدين أن نتّبع تعاليم ووصايا إله قديم يعود في تاريخه إلى أكثر من 2000 عام، بل حتى 10000 عام. هؤلاء الكتّاب القدماء لم يكونوا يملكون أي معرفة بالعلوم الحديثة. لم يكونوا يمتلكون تلسكوبات ليتعلّموا مبادئ علم الفلك، لم يكونوا قد أدركوا بعد حقيقة أنّ هناك الملايين من النجوم. لم تكن لديهم أي أدوات علمية. تعليمهم كان بدائياً. ولم يكن يعرف القراءة والكتابة سوى بضع أشخاص بارزين ومهمّين منهم. كان الكهنة والقساوسة هم الكتّاب الوحيدون تقريباً. أمّا العوام فلم يكونوا يعرفون سوى القليل ما عدا ما قاله لهم حكّامهم وكهنتهم. كانت الآفاق العقلية محدودة بسبب

انعدام الاتصال مع الشعوب الأخرى. وهؤلاء الذين كتبوا الكتاب المقدس لم يكونوا يعرفون أنّ الأرض كروية أو أنّ هناك قارة موجودة بكاملها هي أمريكا. لم يكونوا يعرفون شيئاً عن قطب الأرض الشمالي أو القطب الجنوبي. والطوفان الذي كان يضرب منطقتهم المحدودة كانوا يظنّون أنّه ضرب الأرض كلها. جميع من يعرفونهم ابتلعهم الطوفان، لأنّ الوحيدون الذين كانوا يعرفونهم كانوا على مقربة منهم. لم تكن هناك طائرات أو قطارات أو سيارات أو سفن. كانت الطرق عبارة عن سبل ضيّقة، وكان السفر إمّا على ظهور الأحصنة أو الجمال أو البغال أو الثيران أو سيراً على الأقدام. وكان السفر لمسافة تقارب العشرين ميلاً يعتبر رحلة شاقة وطويلة. ولهذه الأسباب بالضبط كان الأشخاص الذين ذهبوا في رحلات بعيدة عن منازلهم أو قراهم قليلون جداً. لم يكن النظام البريدي قد اكتشف بعد. أمّا النظام الذي لدينا اليوم لم يكشف إلا عام 1840، أي منذ حوالي مئة عام. كان الحكّام والولاة يرسلون رسلاً إلى نقاط محددة ليستلم رسول آخر عنه الرسالة، لكن سيارة واحدة اليوم بإمكانها أن تغطي وخلال نصف ساعة منطقة أكبر من تلك التي كانوا يغطونها خلال يوم كامل. لم تكن هناك مجلات، صحف يومية، أو مكتبات عامة. لم يكن هناك راديو. بل كانت قرية الإنسان، أو مجموعة رفاقه من الخيالة أو الصيادين، كانت تلك فرصته الوحيدة لنيل المعرفة وتحصيلها مهما كان نوعها. كانت عقلية الإنسان آنذاك تتطور بشكل بطيء وشحيح. وكانت الفرص ضيّقة وضئيلة أمام أي تطور عقلي غني ومثمر. العقول البدائية لم يكن لديها أي مخزن للمعرفة تستمدّها منه وتتغذّى عليه. بل مارسوا تأملهم لحقائق الحياة وخمّنوا حولها. الطبقات الأذكى كانت لديهم متسع من الوقت والكثير من الراحة ليتأمّلوا كيف بدأ العالم، وما هي القوى المسيطرة والفاعلة فيه، وما الذي يجب أن يفعله الناس. كانت الحصيلة اللغوية والمفرداتية لدى الإنسان

العادي محدودة وفقيرة. والأعراق البدائية اليوم في الأقاليم والمناطق التي ولدت فيها دياناتنا هم من أكثر الشعوب بدائية وتخلّفاً على وجه الأرض [صحيح فعلاً] ومن داخل دهاليز عقول تلك الشعوب البدائية المتخلّفة والجهالة ولدت مفاهيمنا وأفكارنا عن الآلهة، الشياطين، العفاريت، الجان، الملائكة، وجميع الكائنات الخفية المتلاعبة والخبيثة التي طاردت الإنسان وتلاعبت بمصيره وقدره. إذن هل نحن على هذه الدرجة من التخلّف والرجعية العقلية لنكون بحاجة للاعتماد على خيالات وأفكار وخرافات عقول جاهلة، متخلفة، بدائية، خرجت للتو من مرحلة البربرية، لتحدّد لنا الغرض من حياتنا الهدف منها وطرق تفكيرنا في هذا الزمان الذي ينيره التقدم العلمي والفرص المتاحة والمفتوحة على مصراعيها للبحث والدراسة وتحصيل المعرفة؟ الأشخاص الأذكياء والعقلاء لا يقبلون بهذه التعاليم البدائية ولا يؤمنون بها.

الفصل الثالث : أصل الاحتفالات الدينية ومصدرها

يمكننا إرجاع أصل الاحتفالات والعادات والعطل والتقاليد الدينية عبر التاريخ البشري وعبر معتقداتنا الدينية وعاداتها وتقاليدنا الحالية، إلى أعراق وقبائل في مراحل مختلفة من التطور الحضاري والعقلي. هناك الآن ميل عام عند العلماء من أدعياء العلم لتفسير الديانات البدائية على أساس ما يسمى بالحاجة إلى التطور الروحي المزعوم. إنهم يضعون الجزرة أمام الحصان. فما يسمى بالتطور الروحي هو نتاج سنوات عديدة وعصور من الممارسات والطقوس البدائية والخرافية والدينية القديمة. إنهم يسعون لتبرير إحدى خصائص وسمات البشر والتي تتضمّن الممارسات الخرافية التي تتعارض ليس فقط من العلم والمعرفة العلمية إنما مع المعرفة العامة والحس السليم، وذلك عن طريق أساليب مختلفة ومنحرفة ومن خلال حجج مختلقة وملفّقة

بشكل وقح. الأعياد والاحتفالات الدينية تحدث عادةً في أوقات الانتقالات بين الفصول. من هنا نرى أنّ عيد الميلاد، الكريسماس، الذي يفترض أنه يوم مولد يسوع المسيح، يحدث أثناء فترة الانتقال الفصلي وتغيّر فترة النهار، وعلى الأغلب كان هذا اليوم حسب التقويم القديم هو 21 ديسمبر/ كانون الأول. عيد الفصح والعديد من الأعياد والمناسبات الدينية تحدث في فصل الربيع كما أنّ العديد من المناسبات تقع في منتصف فصل الصيف وفي فصل الخريف. جميع هذه الاحتفالات والأعياد تعود لأسباب طبيعية. فالإنسان القديم كان يعتمد بشدة على الشمس. وأثناء الكسوف كان يخاف ألا تعود الشمس للظهور مرة أخرى. وحتى اليوم في الصين، نلاحظ استمرار العادات والممارسات البدائية القديمة التي تتمثل في القرع على الطبول، العزف على الصنوج، والنفخ في الأبواق لطرد التنين الذي يفترض أنه يبتلع الشمس. لابد أنّ الإنسان القديم كان يخاف الظلام، لأنه لم يكن قد اكتشف النار بعد، ولم يكن يمتلك وسيلة دفاع فعّالة ضدّ الحيوانات المفترسة. لذلك، كان من السهل فهم عبادة الإنسان القديم للشمس كما مارسها المزدكيون، وهم فرقة قديمة من بلاد فارس مازالت موجودة حتى الآن، وكما فعل الأزتك والإنكا في العالم الجديد، والعديد من الأديان والمعتقدات الدينية البدائية القديمة. ثم جرت شخصنة الشمس وعبادتها كإله. فالإغريق القدماء والرومان مارسوا هذه العبادة. كان إله الشمس مطلق القوة والقدرة، وكان يعني كل شيء بالنسبة للإنسان البدائي. أمّا قوى الظلام التي تبعد الشمس أو تبتلعها فكانت عدواً مبيناً للبشر وبذلك تطورت لتتحوّل إلى شخصية الشيطان أو الشرير. أمّا الجحيم عند المذاهب والمعتقدات البدائية القديمة، وحتى عند المسيحيين الأوائل كان مكانها تحت الأرض، حيث كانت تتمركز قوى الظلام، والتي كانت لا تطيق أشعة الشمس وقوتها. من السهل فهم كيف عبد البشر البدائيون

القدماء القمر بوصفه إله ثانوي، لأنّ القمر منحهم نوراً وحوّل لياليهم الموحشة والمليئة بالرعب والخوف إلى ليالٍ مريحة وآمنة ومحمولة. لذلك كانت السنة مقسّمة على أساس حركة الأرض حول الشمس وكان الشهر مقسّماً على أساس تغيّر القمر. وكلمة شهر month بحدّ ذاتها جاءت من كلمة قمر moon. ما أن أصبح النهار يصبح أقصر، أكثر بدورة وظلاماً خلال فصلي الخريف والشتاء، ازداد خوف الإنسان وقلقه من قدوم كارثة ما، لكن عندما تمكّن رجال الدين والشامانات وكهنة القبيلة القدماء من تحديد وإعلان الفترة التي بدأ فيها النهار يصبح أطول وأدفأ كان ذلك الوقت هو وقت انقطاع الخوف والقلق وبداية الاحتفال وتقديم الأضاحي. وحتى عادة تقديم الهدايا وقصة بابا نويل أو السانتا كلوز جميعها نشأت من العادات الإسكندنافية القديمة ما قبل المسيحية. وربما قام بعض الزعماء الدينيون القدماء باستغلال جهل الإنسان القديم ومنحوها الفضل لهذه التغيرات الفصلية. الديانة المسيحية، كغيرها من الديانات الأخرى، وجدت أنه من الأنسب لها استخدام أيام الاحتفالات والأعياد القديمة التي كان يحتفل فيها في الأزمان الطوطمية والوثنية، لذا أصبح من السهل تبديل إله الشمس بيسوع المسيح، الذي قيل أنه المخلّص وشمس المساكين تماماً ، كما كانت الشمس المخلّص المشخصن للشعوب البدائية. الفصح بدوره يأتي مع فصل آخر، وهو فصل الربيع، حين تعبر الشمس عن ذاتها بكامل قواها. تتفجر الغابات بالأزهار والشجر بالأوراق الخضراء اليانعة والثمار الناضجة، وتمتلئ بالطيور وجميع أنواع الحيوانات، وحتى الإنسان القديم، كالإسكيمو على سبيل المثال، جميعهم يحدّدون فصل الربيع وبشكل غريزي تقريباً بوصفه موسم التزاوج والتكاثر. هنا مرة ثانية مناسبة للاحتفال بانتصار قوى النور على قوى الظلام. وضمن تلك الدوائر التي يحدث فيها تغير فصلي، يكون الاحتفال شاملاً

وعلى نطاق واسع. بعد فصل الصيف والحصاد، عندما يكون الإنسان قد حصد ثمار فصل الصيف الطويل، من الطبيعي أن يحتفل، وينبغي عليه التعبير عن هذا الشعور بالتآلف والاتفاق في أعياد الشكر، التي كانت شائعة جداً في جميع البلدان. هنا مرةً أخرى يختطف رجال الدين والكهنة والزعماء الدينيون القدماء التعبير الديني عن الاحتفالات والأعياد. وعلى غرار القبائل البدائية في إفريقيا، البحار الجنوبية، والهند اليوم، كان الإنسان البدائي القديم يعتبر كل شجرة أو حجر بداخله روحاً. فالأرواحية Animism هي سمة عامة ومشتركة بين جميع الشعوب البدائية. الأصوات الغريبة والغامضة للرعد، والوميض الساطع والغاضب للبرق، الأصوات الغريبة للأخشاب والغابات، صوت الريح، البحر، الأنهار، وتصدّع الجليد والصخور الناجم عن تمدّد الجليد وتغيّر الطقس، جميعها كانت ظواهر غير مفهومة، وأوحت له بأفكار عن الروح والشياطين التي قد تلحق به الأذى ما لم يقدّم لها أضاحي ليسترضيها. هناك بعض الشكوك في أنّ القصص الفولكلورية عن الأشباح والأرواح والجنيات قد تطورت عن الأضواء الفوسفورية اللامعة ليعاسيب الليل، من الحشرات المضيئة، والفطريات المشعّة في الغابة. الأضواء الغريبة، أو أصل ما كان غير معروف للبشر على مدى قرون، قد ملأتهم بمشاعر الخوف والرهبة والترقّب. بعض القصص الأيرلندية والروايات الإسكندنافية عن الأرواح والجنيات يمكن إرجاعها إلى هذا الأصل. لذا، يصبح من المفهوم كيف أنّ الدين قد نشأ وتطور من هذه الظواهر الطبيعية البسيطة والغامضة في آنٍ معاً، كما أنّ هذه الخيالات والأفكار، ما أن بدأت، حتى بات من الصعب كبحها وإيقافها. خاف الإنسان البدائي من الشك في قوة أيٍ من هذه الأرواح والآلهة أو الشياطين. وبما أنها خفية ومحجوبة عن الأنظار، فبإمكانها معرفة ما يجول بخاطره أو ما الذي يتحدث عنه، وقد تلحق به

الأذى والضرر. اليوم نرى القبائل الأكثر بدائية في البحار الجنوبية، أفريقيا، أمريكا الجنوبية والشمالية، والهند، يحملون العديد من التمائم الكبيرة الرموز، الحجارة، والسلاسل المخرّزة، وجميع الأشياء لحماية أنفسهم من التأثيرات الشيطانية المفترضة لأرواح الأشجار والحجارة والحيوانات، والبشر الآخرين. أغلب الجنود، الطيارين، وغيرهم من الناس يحملون مثل هذه الرموز والتمائم لجلب الحظ الجيد وكحماية ضد الشرور المحتملة. والعديد منهم يؤمنون بها. إحدى الشركات الصناعية مضت في احتيالها إلى أبعد حد في الترويج عن كتاب مقدّس مغطّى بالفولاذ يوضع في الجهة اليسرى من الصدر أمام القلب، وربما أدركت هذه الشركة أنّ المعدن المضاد للرصاص سيؤمّن الحماية أكثر من الكلمة المقدّسة. الرجل النمطي والعادي لم يسبق له أن أجرى دراسة مقارنة ما بين الأشخاص الذين ارتدوا تمائم ورموز دينية وبين أولئك الذين لم يرتدوا شيئاً. في واقع الأمر، وخلال القسم الأكبر من التاريخ البشري، كانت الأشياء الطبيعية في العالم، كالأشجار والحجارة والأنهار والأضواء الغريبة التي يراها الإنسان البدائي في الليل جميعها أشياء مسالمة وغير مؤذية بالنسبة له لذا كان من السهل أن يعتقد _وخصوصاً أنّه كان لديه أهل يخبرونه بذلك_ أنّ هذه الأشياء الرائعة تحميه. حتى الرعد كان يضرب في مناسبات معيّنة، وكان من النادر جداً أن يصيب شخصاً ما، لكن في مثل هذه الحالات النادرة كان من المعقول بالنسبة له أن يعتقد أنّ ذلك الشخص قد أذنب أو فعل أمراً خاطئاً. جميع الناس كانوا مذنبين وارتكبوا أنواعاً معينة من الأخطاء والذنوب، لذلك كانت الأمراض والأوبئة والكوارث الطبيعية تفسّر من قبل الشامان أو كاهن القرية أو حكيم القبيلة بوصفها انتهاكات وتجاوزات ارتكبها الأفراد بحق الآلهة. لذلك ومن خلال هذه الخطوات البسيطة، الواضحة والجلية بالنسبة للعقول البسيطة والساذجة للإنسان البدائي

والجاهل وغير المتعلّم، ثمّ ابتكار عادات وتقاليد وأعراف ومنظومات دينية معقّدة، حيث أنّها نشأت وتنامت وازدهرت على مرّ العصور وصولاً إلى يومنا هذا.

ما الخرافة؟

روبرت إنغرسول

[1] ما معنى الخرافة؟

تعني الإيمان بالرغم من وجود دليل أو عدمه.

- تفسير لغز بآخر.

الاعتقاد بأنّ العالم محكومٌ بالصدفة أو بالنزوة.

صرف النظر عن العلاقة الحقيقية بين السبب والنتيجة.

الاعتقاد بوجود فكر أو قصد أو تصميم [ذكي] يكمن وراء الطبيعة.

الإيمان بأنّ العقل خلق المادة ويتحكّم بها.

الإيمان بقوى وطاقات منفصلة عن الجوهر المادي، أو بجوهر منفصل عن الطاقة.

الإيمان بالمعجزات والرقيات والتعاويذ، وبالأحلام والمنامات والنبوءات.

الإيمان بالغيبيات والماورائيات. إنّ أساس الخرافة هو الجهل... وبنيتها الفوقية هي الإيمان [الأعمى]... أمّا قبّتها فهي الأمل الفارغ.

الخرافة هي الابنة الشرعية للجهل، والأم الحقيقية للبؤس. هناك سحابة من الخرافة تعشّش في دماغ كل إنسان تقريباً. امرأة توقع من يدها قطعة القماش التي يجفّف بها الصحون، فتقول "هذا يعني رفقة". معظم الناس سيقرّون بعدم وجود أيّة علاقة منطقية تربط مابين سقوط قطعة القماش وبين الزوّار القادمين. لايمكن أن تكون قطعة القماش الساقطة قد ولّدت رغبة بالزيارة في عقول أشخاص غير حاضرين، وكيف لقطعة قماش أن تولّد رغبة عند بعض الناس لزيارة الشخص الذي أسقطها؟ لاتوجد أي صلة ممكنة بين إسقاط قطعة القماش وبين التأثيرات المرتقبة. رجلٌ يلمح القمر المكتمل من فوق كتفه الأيسر فيقول "هذا فألٌ سيء". إنّ

رؤية القمر من فوق الكتف الأيسر أو الأيمن، أو حتى عدم رؤيته على الإطلاق، لايمكن أن يكون له أي تأثير ممكن على القمر، ولايمكن لذلك أن يغيّر تأثير القمر أو أثره على أي شيء أو جسم أرضي. بالطبع إنّ اللمحة من فوق الكتف الأيسر لايمكن أن تؤثّر على طبيعة الأشياء بأي شكلٍ كان. جميع الحقائق في الطبيعة ستظلّ نفسها كما هي حتى لو كانت اللمحة من فوق الكتف الأيمن أو الأيسر. نحن لا نستطيع أن نرى أي علاقة سببية أو منطقية بين اللمحة من فوق الكتف الأيسر وبين أي تأثيرات سيئة على الأشياء. فتاة تعدّ أوراق زهرةٍ ما وتقول «واحد: يحبّني، اثنان: لايحبّني، ثلاثة: يريد أن يتزوّجني، أربعة: لايريد أن يتزوّجني». طبعاً الزهرة لم تنبت من أجلها، ولم تقرّر أوراقها ما إذا مستقبل هذه الفتاة العاطفي، ولا يوجد هناك أي نوع من الذكاء الماورائي يقود يدها ويرشدها عندها قامت باختيار تلك الزهرة بالذات. لذا، إنّ عدّ بذور التفاحة لايمكن أن يحدّد ولا بأي شكل ما إذا كان مستقبل الفرد زاهراً أو بائساً. آلاف من الناس يؤمنون بالأيام والأعداد والإشارات والمجوهرات المحظوظة والمشؤومة. العديد من الناس يعتبرون يوم الجمعة يوماً مشؤوماً... يوم سيء للخروج في رحلة، للزواج، للدخول في استثمار. والسبب الوحيد هو أنّ يوم الجمعة يوم مشؤوم. الانطلاق عبر البحر يوم الجمعة لايمكن أن يكون له أي تأثير محتمل على الرياح، أو الأمواج، أو الجد والجزر، ليس هناك أي تأثير ليوم الجمعة على هذه الأمور أكثر من أي يومٍ آخر، والسبب الوحيد الممكن للاعتقاد بأن يوم الجمعة يوم مشؤوم هو الاعتقاد بذلك. لذا كان الكثيرون يعتقدون أنّه من الخطورة أن يتناول ثلاثة عشر شخصاً الغداء مجتمعين. الآن، إذا كف_Jc4 العدد 13 عدداً خطيراً، فالعدد 26 [أي 13+13] يجب أن يكون ضعف خطورة العدد 13، و 52 أكثر خطورةً بثلاث مرات. قيل أنّ أحد هؤلاء الثلاثة عشر سيموت خلال سنة.

والآن ليس هناك أي علاقة سببية ومنطقية بين هذا الرقم وعملية هضم كل شخص من هؤلاء الأشخاص. وبين هذا الرقم وبين الأمراض. إذا تغدّى أربعة عشر شخصاً مع بعضهم فهناك احتمال أكبر ليموت أحدهم، إذا أخذنا في اعتبارنا الرقم فقط، واحتمال حدوث وفاة خلال العام، فهذا محتمل أكثر إذا كان الرقم 13. قلب علبة الملح على الطاولة يعتبر فألاً سيئاً، لكنّ قلب علبة الخل لايشكّل أي فرق. لماذا حادثة إيقاع علبة الملح وسكبه على الطاولة توجب الانتقام والفأل السيىء، ولماذا إيقاع الخل وسكبه لايوجب ذلك. إذا كان الشخص الأول الذي يدخل المسرح أحولاً، فإنّ عدد الجمهور سيكون قليلاً وسينتهي "العرض" بفشل ذريع. كيف يمكن لغرابة تكوين عيني أول شخص يدخل المسرح، أن تغيّر إرادة مجتمع كامل أو مجموعة من الأشخاص، أو كيف لإرادة مجتمع أن تجعل شخصاً أعمى يذهب مبكراً إلى العرض ويدخل المسرح أولاً، لم يتمّ العثور على أي تفسير مقنع ومرضي لذلك حتى الآن. لاتوجد أي علاقة ممكنة بين مايسمى "السبب" وما يسمى "النتيجة" في هذه الحالة. وضع أحجار الأوبال كزينة فأل سيىء، لكنّ الياقوت يجلب الصحة. كيف يمكن لهذه الحجارة أن يكون لها تأثير على المستقبل، كيف يمكن لها أن تنتهك الأسباب وتحطّم النتائج، لا أحد يعرف كيف بالضبط. إذن هناك الآلاف يؤمنون بالأشياء والأمور المحظوظة والمشؤومة، والملابس والتعاويذ والرقيات والنبوءات. لكنّ جميع الكائنات البشرية عقلانية والعاقلة والمنطقية والمفكّرة أنّ كل واحدة من هذه الأمور مجرّد خرافات عبثية وسخيفة. دعونا نتّخذ خطوة أخرى: لعدّة قرون كان الناس يعتقدون أنّ كسوف الشمس وخسوف القمر ظاهرتان تنبئان بالأوبئة والأمراض، وأنّ الشهب والنيازك الساقطة تنبىء بموت الملوك، أو دمار الأمم، حرب وشيكة أو وباء فتاك. جميع الظهورات الغريبة وغير المألوفة في السماء _أضواء الشمال،

دوائر حول القمر، خيوط الشمس، شهب ونيازك_ كانت تملأ قلوب أسلافنا القدماء بالخوف والرعب. كانوا يسقطون على ركبهم: كانوا يبذلون جهدهم بتقديم الأضاحي والصلوات والتضرّعات لتجنّب وقوع الكوارث المتوقّعة. كانت وجوههم يلفحها الرعب وهم يغلقون أعينهم ويتضرّعون إلى السماء من أجل مدّ يد العون. وكان الكهنة والشامانات الذين كانوا على علاقة مع الله كما رجال الدين والكهنة والقساوية في يومنا هذا، كانوا يعرفون تماماً معنى الكسوفات وخيوط الشمس وأضواء الشمال، كانوا يعرفون تماماً أنّ صبر الله قد نفذ تقريباً، وأنّه قد استلّ سيف غضبه، وأنّ الشعب لايمكن أن ينقذ نفسه إلا بإطاعة الكهنة ورجال الدين، عن طريق دفع الأتاوى لهم ومضاعفتها. ساعدت الأعاصير والزلازل على ملء صناديق الكنيسة. في وسط الكوارث كان البخيل يفتح محفظته بأيادي مرتجفة. في ظلمة الكسوف كان اللصوص والنشّالون وقطّاعي الطرقات يتقاسمون غنائمهم مع الله، أمّا الفقراء، والشرفاء، والفتيات الجاهلات يتذكّرون أنّهم نسوا ترديد الصلاة، أو تقديم زكاتهم لتليين قلب الله القاسي. الآن نحن نعلم أنّ كل هذه الإشارات والظواهر الغريبة في السماء لا علاقة لها بمصير الملوك أو مستقبل الأمم أو الأشخاص، لا يوجد أي تأثير لها على الكائنات البشرية أكثر من تأثيرها على مستعمرات النمل، أو خلايا النحل أو بيوض الحشرات. نحن نعرف الآن أنّ الإشارات وظواهر الكسوف والخسوف، الشهب والنيازك، ستكون هي نفسها كما تحدث الآن حتى ولو لم يكن البشر موجودون على الأرض. نحن نعرف الآن أنّ أوقات الكسوف والخسوف تحدث في أوقات معينة وأنّنا يمكننا التنبؤ بأوقات حدوثها بالضبط. منذ أمدٍ ليس ببعيد كان هناك اعتقاد عام شائع مفاده أنّ هناك ميزّات شفائية معيّنة تكمن في أشياء جامدة، في عظام القديسين والقديسات، في

الخرق وقطع القماش التي مُزّقت من ملابس الأولياء البالية، في خصلات شعر الشهداء، في قطع خشبية ومسامير صدئة من صليب حقيقي، في أسنان وأظافر الأتقياء، وفي العديد من الأشياء المقدسة الأخرى. كان يتمّ شفاء الأمراض من خلال تقبيل صندوق معيّن حُفِظَت فيه بقايا عظمية أو خرق بالية أو قطع خشب متآكلة، خصل شعر مقدسة، وبعد أن يتمّ تقبيل الصندوق تُقَدّم أعطيات وهدايا: أشياء من أجل الكنيسة. في بعض الأحيان كانت قيمة العظام أو البقايا أو الخرق تسيطر بشكل غريب على الإنسان المريض الذي يمتلك إيماناً كافياً بهذه الأمور الغريبة، وباسم الله أو الرب كان يتمّ طرد هذه الشياطين التي كانت في الحقيقة أمراضاً حقيقية. هذا الإيمان بفعالية العظام أو البقايا وخصلات الشعر المقدسة قد ولّدت إيماناً من نوع آخر: الإيمان بأنّ جميع الأمراض كان سببها الشياطين والأرواح الشريرة. كان يعتقد أنّ المجنون أو المريض عقلياً هو شخص مسكون بالشياطين. وكان يعتقد أنّ المصابون بالصرع أو الهستيريا هم أشخاص يعانون من مسٍ من الشيطان. باختصار، كل مرض إنساني كان من عمل عملاء أو جنود إله الجحيم. كان هذا الإيمان عالمياً تقريباً، وحتى في زماننا هذا هناك الملايين من الناس يؤمنون بالعظام المقدّسة. لكن اليوم لايوجد إنسان عاقل يؤمن بوجود الشياطين... ليس هناك إنسان عاقل يؤمن أنّ الأرواح الشريرة تسبّب المرض للناس... والأهم من ذلك لايوجد شخص عاقل يؤمن أنّ العظام والبقايا وخصل الشعر المقدّسة أو قطع الخشب يمكن أن تشفي من الأمراض، أو تعيد الصحّة كاملة إلى العليل. الناس العقلاء الآن يعرفون أنّ عظام قدّيس ما لا تحتوي أيّة قداسة أكثر من عظام أي حيوان آخر. وأنّ بقايا وخرق ملابس أي متسّول جوّال لها نفس قدسية بقايا وملابس أي قديس، وأنّ شعر الحصان سيشفي المرض بنفس السرعة التي يشفيها شعر الشهيد.

نحن نعرف الآن أنّ جميع البقايا والآثار المقدّسة مجرّد نفايات دينية، وأنّ أولئك الذين يستخدمونها ويستغلّونها هم أشخاص غير نزيهين أو شرفاء، وأنّ أولئك الذين يصدّقونها ويعتمدون عليها هم أشخاص أغبياء وسطحيين وسُذّج. هذا الإيمان بالرقى والتعاويذ والتمائم، بالأشباح والشياطين، خرافة، باختصار وببساطة شديدة. أجدادنا لم يكونوا يعتبرون هذه البقايا والنفايات طباً، أو تتميّز بطاقات شفائية، لكنّ الفكرة هنا كانت أنّ الأرواح الشريرة تخاف من الأشياء والمقدسة... أنها تهرب من عظام القديسين، أنها تخاف من قطع أي صليب حقيقي، وأنه عندما كان يتم رشّ ماء مقدس على شخصٍ ما فإنها [الشياطين والأرواح الشريرة] كانت تهرع مغادرةً المبنى بسرعة. لذلك، كانت هذه الشياطين تخاف وتفزع من التعاويذ المقدّسة، ومن ضوء الشرائط المقدسّة، وفوق كل ذلك، الصليب المبارك والمقدّس. في تلك الأيام، كان الكهنة صيادو أموال، واستغلّوا هذه القطع والتعاويذ النفايات الدينية كطُعم.

[2] لنمضي أبعد من ذلك قليلاً:

هذا الإيمان بالشيطان والأرواح الشريرة قد مهّد الطريق لتأسيس اعتقاد آخر: الشعوذة. كان يعتقد أنّ الشيطان يعطي الإنسان أشياء وحاجات معينة مقابل أخذ روحه. الرجل العجوز، الكسير والعاجز، بإمكانه استعادة شبابه _صباه، شعره البني، دقات قلبه الشاب وهو ينبض بالحياة_ إذا أعطى روحه ومنحه إياها للشيطان مقابل ذلك. لذلك، كان يعتقد أنّه يمكن الانتقام من الخبيث عن طريق التمائم واللعنات، وأنّه يمكن للفقير أن يغنى، ويمكن للطموح أن يعتلي سلّم القوّة وسلطة. جميع متع وملذّات هذه الحياة كانت في متناول الشيطان. بالنسبة لأولئك الذين كانوا يقاومون إغراءات سيد الشرور، كانت تنتظرهم مكافآت مجزية في عالمٍ آخر، لكنّ

هدايا الشيطان مقتصرة على هذا العالم وفي هذه الحياة الفانية. لايمكن لأي إنسان تصوّر الآلام والمعاناة التي تحمّلها الجنس البشري تحت وطأة الإيمان بالشعوذة. فكّروا في العائلات التي تفكّكت، بالآباء والأمهات وهم يُلقَوْن في السجون، يُعَذَّبون ويُحرَقون، بالمواقد التي أنطفأت، بالأولاد الذين قتلوا، بالعجزة، بالفقراء والمساكين الذين تكسّرت أجسادهم على آلات التعذيب. فكّروا في تلك الأيام التي كانت تسكن فيها الخوف والخرافة كل منزل، في كل عقل، حين كان الاتهام حكماً، عندما كان ادّعاء البراءة اعترافاً بالذنب، وعندما كانت المسيحية جنوناً!. الآن نحن نعرف أنّ جميع هذه الأهوال كانت نتيجة الخرافة. الآن نعلم أنّ الجهل كان أمّ جميع الآلام والعذابات التي ألّمت بالبشر. الآن بتنا نعلم أنّ الساحرات لم يُوجَدْن قط، وأنّ البشر لم يعقدوا أي صفقات مع الشيطان، وأنّ أسلافنا القدماء الأتقياء والهمجيين كانوا على خطأ. دعونا نمضي لأبعد من ذلك: اعتقد آباؤنا بالمعجزات والعلامات والعجائب وآمنوا بها، واعتقدوا أيضاً بالكسوف والخسوف والشهب، آمنوا بفضائل العظام، وبالقوى المنسوبة للأرواح الشريرة. جميع هذه الأمور تدور في فلك العجائبيات. كان يفترض أنّ العالم مليء بالسحر، والأرواح كانت في متناول اليد ليتمّ التلاعب بها بخفّة وسهولة: مستحضرو الأرواح. لم تكن هناك أسباب طبيعية تكمن وراء الأحداث. كلّ ما كان يتمنّاه الشيطان، كان يحدث. ذلك الشخص الذي باع روحه للشيطان كان يقوم ببعض الحركات الغريبة، يتمتم ببعض الكلمات الغامضة، ثمّ يتحقّق له ما كان يبغاه. لم يكن أسلافنا يؤمنون بالأسباب الطبيعية. كانت الأوهام والأضاليل والخرافات _الغريبة والعجيبة_ تملأ العالم. انهار الأساس تماماً _وتمّ التخلّي عن العقل وهجره، منحت السذاجة ألسنة وأجنحة للأكاذيب، و تمّ التخلّي عن الحقائق الخرساء_ وتمّ تجاهله وإهماله.

[3] : ما المعجزة؟

فعل يؤدّيه إله/ (رب) سيّد الطبيعة من دون الاعتماد على أي حقيقة من حقائقها. هذا هو التعريف الصادق الوحيد لمعنى كلمة "معجزة". إذا استطاع الإنسان رسم دائرة مثالية ومضبوطة، حيث قطرها يساوي تماما محيطها، فهذه ستكون معجزة في الهندسة. إذا استطاع الإنسان جمع أربعتين وجعلهما تسعة فتلك ستكون معجزة في الرياضيات. إذا استطاع إنسان جعل حجر ساقط يقطع عبر الفضاء مسافة عشرة أقدام في الثانية الأولى، ثم خمسةً وعشرون قدماً في الثانية الثانية، ثمّ خمسة أقدام في الثانية الثالة، فهذه ستكون معجزة في مجال الفيزياء. إذا استطاع الإنسان توحيد عنصر الهيدروجين مع الأكسجين والنتروجين وإنتاج ذهب صافي فتلك ستكون معجزة في الكيمياء. إذا استطاع أي رجل دين إثبات صحّة مذهبه بالدليل القاطع فتلك ستكون معجزة لاهوتية. إذا استطاع عالم اقتصاد جعل قطعة نقدية من فئة 50 سنتاً بيا يعادل قيمة فضّة تساوي دولاراً فتلك ستكون معجزة مالية. أن تجعل المربّع دائرةً ستكون من أجمل المعجزات على الإطلاق. أن تجعل مرآةً تعكس وجوه الأشخاص الذين يقفون ورائها، بدلاً من عكس وجوه الأشخاص الواقفين أمامها، هذه ستكون معجزة. أن تجعل الصدى يردّد الجواب على سؤالك، هذه معجزة. بمعنى آخر، أن تفعل أي شيء معاكس أو من دون أي اعتبار لقوانين الطبيعة وحقائقها يعني أنّك تؤدّي معجزة. الآن بتنا نعتقد بيا يسمّى بـ"وحدة الطبيعة وتناسقها". نحن نعتقد أنّ جميع الأشياء تتصرّف، وكانت تتصرّف دوماً، وفق طبيعتها، وأنّه تحت ظروف معيّنة العملية "كذا" ستنتج عنها دائماً نفس النتائج، أنّ "كذا" كانت تنتج وستنتج دوماً "كذا". نحن نعتقد الآن أنّ الأحداث لها أسباب طبيعية وأنّ لاشيء يحدث من دون سبب. المعجزات ليست أموراً مستحيلة ببساطة،

لكنّها أمور لاتخطر على بال أي إنسان عاقل، ولايمكن لأي إنسان منطقي يمتلك ذرة من المنطق والعقلانية أن يفكّر فيها مجرّد تفكير. الآن لايمكن للإنسان الذكي والعاقل أن يؤمن بأنّ معجزة قد حدثت، أو تحدث، أو ستحدث. الجهل هو التربة التي ينبت فيها الإيمان بالمعجزات ويزدهر.

[4] دعونا نمضي لأبعد من ذلك:

في حين كان أسلافنا القدماء يملأون الظلال بالأشباح والأرواح الشريرة، كانوا قد آمنوا أيضاً بوجود الأرواح الخيّرة والصالحة. كانت الأرواح الخيّرة تتمتّع بعلاقة مع الله كالتي كانت تتمتّع بها الأرواح الشريرة مع الشيطان. كانت هذه الأرواح الخيّرة تحمي المؤمنين والأتقياء والأخيار من مسّ الشيطان وإغراءاته. كانت تعتني بأولئك الذين يعلّقون على صدورهم رقيّات وتعاويذ، وأولئك الذين يردّدون الصلوات ويعدّون حبّات السُبّح، وأولئك الذين يصومون ويؤدّون المراسم والطقوس. هذه الأرواح الخيّرة ستغيّر مسار نصل السيف أو السهم عن صدر المؤمن. كانت يجعل السُمّ غير مؤذٍ، كانت تحمي الأتقياء، وكانت تنقذ وتدافع المؤمنين وتحفظهم بألف طريقة. كانت تدفع الشكوك من عقول الأتقياء، وتزرع بذور اليقين والإيمان، كانت تحفظ القديسين من إغواءات النساء، وترسم أمجاد السماء من أجل أولئك الذين يصومون ويصلّون، تسهّل الاستغناء عن مُتَع الإحساس وملذّات الجسد وتحثّ على كراهية الشيطان. كانت هذه الملائكة ترعى اليتامى الذين تعمّدوا، وبالأشخاص الذين أقسموا قسماً مقدّساً، وبالرهبان والراهبات والمتسوّلين المتجوّلين المؤمنين. كانت هذه الأرواح من عدّة أنواع: بعضها كان رجالاً ونساء عاديين. بعضها لم يسبق له أن تواجد في هذا العالم، وبعضها كان ملاكاً في الأساس منذ البدء. لا أحد يزعم أنّه يعرف طبيعتهم وماهيتهم بالضبط، أو شكلهم، أو طريقة انتقالهم

من مكان لآخر، أو كيف كانوا يسيطرون أن يتحكّمون أو يؤثّرون بعقول البشر. كان يعتقد أنّ ملك هذه الأرواح الشريرة كلها كان الشيطان، وأنّ ملك جميع الأرواح الخيّرة كان الله. وكان يعتقد أيضاً أنّ الله كان في الحقيقة هو ملك جميع الأرواح _الخيّرة منها والشريرة_ وأنّ الشيطان نفسه كان أحد أولاد الله. هذا الإله وهذا الشيطان كانا في حالة حرب أزلية، كل واحدٍ منهما يحاول تأمين أرواح البشر لمصلحته. كان الله قد عرض متع الحياة الأزلية ومباهجها إضافة إلى أنّه توعّد بعذاب شديد في الجحيم. أمّا الشيطان فقد نصب فخاخه من خلال المسرّات والملذات الدنيوية الزائلة، عن طريق تمجيد الحواس ومتعتها، ولذّة الحب، وسخر من مسرّات وملذّات السماء وعذابات الجحيم. زرع بذور الشك بيديه الخبيثتين: دفع الإنسان على البحث والتقصّي، على التفكير، البحث عن دليل، على الاعتماد على نفسه، وزرع في قلبه حبّ الحرية، وساعده على تحطيم أغلاله، والهرب من سجنه وحثّه على التفكير العقلاني. وبهذه الطريقة أفسد بني البشر. آمن آباؤنا أنّهم بإمكانهم عن طريق الصلاة، التضحية، الصيام، عن طريق تأدية طقوس وشعائر معينة، الحصول على عون هذا الإله وتلك الأرواح الخيّرة. لم يكونوا منطقيين إطلاقاً. لم يؤمنوا أنّ الشيطان كان هو أساس جميع الشرور. لقد اعتقدوا أنّ الفيضانات والمجاعات، والأوبئة والكوارث والزلازل والبراكين والحروب جميع كانت أمور يرسلها الله كعقاب على الكفر والضلال. خرّوا على ركبهم وصلّوا بشفاهٍ مرتجفة لهذا الإله كي يكفّ يديه عنهم. حقّروا أنفسهم، اعترفوا بذنوبهم، وملؤوا السماء بعهودهم ونداءاتهم وتضرّعاتهم. حاولوا إيقاف الأوبئة والأمراض عن طريق الرهبان والصلوات. قبّلوا النفايات القديمة المقدّسة، سجدوا في المعابد، استجدوا بالعذراء والقديسين، لكنّ نداءاتهم غابت أدراج الرياح، وسحقهم الوباء باجتياح إلى نهايته الطبيعية. لم يكن

آجدادنا المساكين يعرفون أي شيء عن أي علم. وكانوا يتصوّرون وجود أرواح _شريرة وخيّرة_ ملائكة أو شياطين، آلهة أو عفاريت. بالنسبة لهم لم يكن هناك شيء اسمه أسباب طبيعية. كل شيء بالنسبة لهم كان من عمل الأرواح. كل شيء كان من عمل الغيب، وكل شيء كان من عمل الأرواح الشريرة لتدمير ومعاقبة وتضليل ولعن بني البشر. هذا العالم كان ساحة معركة، وهنا كان عملاء السماء والجحيم يخوضون حروبهم الطاحنة.

[٤]: الآن لايوجد هناك إنسان لديه شعلة من الفكر تتّقد في رأسه، ويحبّ البحث والتقصّي، ويفكّر بالفعل، وقادرٌ أيضاً على تمييز الدليل والبرهان الحقيقي، يمكن أن يؤمن بالإشارات، وبالأيام والأعداد المحظوظة والمشؤومة. هو يعلم تماماً أنّ أيام الجمعة والثلاثاء لاتختلف عن بعضها، وأنّ الرقم 13 ليس رقماً مشؤوماً أو مميتاً وأنّه لايختلف البتة عن الرقم 12. إنّه يعرف أنّ تأثير الكوبالت على لابسها لايختلف عن تأثير الياقوت، أو الماس أو أي زجاج عادي. إنّه يعرف أنّ فرص زواج الفتاة العذراء لن تزيد أو تنقص مع عدد أوراق الزهرة أو بذور التفاحة. إنّه يعرف أنّ لمح القمر من فوق الكتف الأيسر لا تختلف من حيث الحظ والبخت عن رؤيته ولمحه من فوق الكتف الأيمن. إنّه لايهتم سواء ما إذا كان أول داخل إلى المسرح أحول أو أحدب، كسيح أو سليم الجسم كالإله أبوللو. إنّه يعرف أنّه يمكن طرد أي قطّة غريبة عن عتبة المنزل دون أن يجلب ذلك أي سوء حظ أو طالع للعائلة. إنّه يعرف أنّ عويل البوم في ليلة ذات قمر مكتمل لا يعني أن هناك شخصاً على وشك الموت. إنّه يعرف أنّ الشهب والكسوف والخسوف جميعها ظواهر طبيعية وستستمرّ في الحدوث حتى وإن مات جميع البشر. إنه لايخاف من خيوط الشمس، أو أضواء الشمال عندما تخترق رماحها المتألّقة درع الليل البهيم. إنّه يعلم أنّ جميع هذه الأمور تحدث بشكل مستقل

ومنفصل تماماً عن الجنس البشري. إنّه يشعر باليقين بأنّ الفيضانات ستدمّر وأنّ الزوابع والأعاصير ستقتلع وأنّ الزلازل ستبيد، أنّ النجوم ستشرق، وأنّ الليل والنهار سيستمران بالتتالي على سطح هذا العالم، وأنّ ستظلّ تنشر عبقها في الهواء، وأنّ الضوء سيرسم قوسه الملوّن بسبعة ألوان على صفحة السماء الزرقاء، حتى وإن انقرض البشر وتحوّلوا هباءً منثوراً. الإنسان المنطقي والعاقل لا يؤمن بوجود الشيطان، إنّه يشعر باليقين أنّ العفاريت والشياطين والأرواح الشريرة لاوجود لها إلا في خيال الجَهَلة والخائفين. إنّه يعرف كيف صُنِعَت هذه الأساطير والخرافات الخبيثة. إنّه يدرك الدور الذي لعبته في جميع الديانات. إنّه يعرف أنّ الإيمان بهذه الشياطين والأرواح الشريرة، ولقرون طويلة، كان اعتقاداً عالمياً وشائعاً. إنّه يعرف أنّ إيمان الراهب أو القس لم يكن أقوى من إيكان الفلاح البسيط. في تلك الأيام كان أفضل مثقف يكافىء أجهل أمّي. الملوك والخدم، السيدات والمهرجين، الجنود والفنانين، العبيد والمدانين، كانوا يؤمنون بالشيطان وبالله على حدٍ سواء. ليس هناك أي دليل أو إثبات يدعم ذلك الاعتقاد، ولم يسبق له أن كان موجوداً. هذا الاعتقاد لم يكن قائماً على أي أساس أو حقيقة. بل كان مدعوماً بالأخطاء والأغاليط والمبالغات والأكاذيب. كانت الأخطاء طبيعية، أمّا المبالغات فكانت من دون وعي في أغلبها، بينما الأكاذيب والأضاليل فكانت عن سابق قصد وإصرار على العموم. فيما وراء هذه الأغاليط والمبالغات والأكاذيب، يكمن الحب الكبير للعجائب والغرائب. أعاجيب تمّ الاستماع لها بآذان لاتشبع، وعيون مفتوحة على وسعها، ووجوه مشدوهة بأفواه مفتوحة من شدّة الاستغراب. الإنسان العاقل يعرف تاريخ معتقده، ويعرف أنّ حقيقته قد تأسّست على مدى قرون عديدة على أساس الكتاب المقدس. إنّه يعرف أنّ العهد القديم مليء بالإشارات إلى الشيطان، للأرواح الشريرة، وأنّ العهد الجديد

لايختلف عن ذلك أبداً. إنّه يعلم أنّ المسيح نفسه كان يؤمن بالشيطان، وبالأرواح الشريرة، وأنّ عمله الأساسي كان طرد الشياطين من أجساد الرجال والنساء. إنّه يعلم أنّ المسيح نفسه، حسب العهد الجديد، لو تصبه غواية الشيطان فحسب، بل حمله إلى قمّة المعبد. إذا كان العهد الجديد هو الكلمة المنزلة والمعصومة من الرب، عندها أنا أعترف أنّ هذه الشياطين والأرواح الشريرة والعفاريت موجودة فعلاً، وأنّها تستحوذ على جسد الإنسان. إنّ إنكار وجود هذه الأرواح الشريرة، إنكار وجود الشيطان، تعني إنكار حقيقة العهد الجديد. إنّ إنكار حقيقة وجود عفاريت الظلام معناه أن تعارض كلام يسوع المسيح. إذا لم تكن هذه الشياطين موجودة، إذا لم تكن تسبّب الأمراض والعاهات، إذا لم تكن تضلّل وتغوي ضحاياها، فهذا معناه أن المسيح كان جاهلاً، كان إنساناً يؤمن بالخرافات، مجنوناً، مزيفاً، أو أنّ العهد الجديد ليس هو الكلمة الحقيقية لما قاله أو فعله. إذا تخلّينا عن إيماننا بالشياطين، فعلينا أن نتخلّى عن وحي العهد القديم. علينا أن نتخلّى عن ألوهية وقداسة يسوع المسيح. إنّ إنكار وجود الأرواح الشريرة يعني تقويض أسس المسيحية. إنّها أرض وسطى. ول مجال للمساومة. إذا كانت جميع القصص عن طرد الأرواح الشريرة والشياطين من أجساد البشر في العهد الجديد مزيفة ومحض أكاذيب، فأي جزء منه صحيح؟!! في واقع الأمر، إنّ نجاح الشيطان ومؤامرته في جنّة عدن هو الذي جعل من حادثة مجيء المسيح ضرورية، وهو الأمر الذي وضع أسس مذهب الخلاص، صَلْب المخلّص، وأعطانا مذهب الثالوث. إذا كان الشيطان غير موجود، سنرى المذاهب المسيحية جميعها تتعثّر، والبنية الفوقية التي تعرف بـ"المسيحية"، التي أقيمت على أيدي البابوات، البطاركة، والرهبان وعلماء اللاهوت _أقيمت مع الكثير من الأخطاء والأغاليط، مع المعجزات والعجائب، مع الدماء واللهيب، مع الأكاذيب، والأساطير

المأخوذة من العالم البربري البدائي، تحوّلت إلى خراب مهدّم. إذا رمينا إيماننا بالشياطين والأرواح الشريرة، فإنّنا ملزمون بالقول والاعتراف أنّ الساحرات كُنّ خرافة. لايوجد إنسان عاقل الآن يؤمن بالسحر والشعوذة. نحن نعرف الآن أنّ الأمر كله كان عبارة عن وهم. نحن نعرف الآن أنّ الآلاف والآلاف من الرجال الأبرياء، والنساء والأطفال تمّ تعذيبهم بقسوة ووحشية وحرقهم على الأوتاد لأنّهم اتّهموا بجريمة مستحيلة وغير موجودة أصلاً، ونحن نعلم الآن أيضاً، إذا لم تكن أدمغتنا مشوّهة من قبل الإيمان الأعمى، أنّ جميع الكتب التي تحدّثت عن وجود الساحرات والمشعوذون مكتوبة بأيدي رجال جهلة وخرافيون ومضلّلون. نحن نعلم أيضاً أنّ كتاب العهد القديم قد أكّد على وجود الساحرات. فحسب ذلك الكتاب المقدس، كان يهوه مؤمناً بوجود السحر والشعوذة، وقد قال لشعبه المختار: «لا تتركوا ساحرة على قيد الحياة» هذه الوصية بالذات _هذا العبارة البسيطة_ تثبت أنّ يهوه ليس إلهاً، وأنّه عبارة عن كائن بربري مسكين جاهل، ومتخلّف. هذه العبارة القصيرة تثبت بدون أدنى شك أنّ العهد القديم كتاب مكتوب بيد البشر، بشر بربريين. كان جون ويسلي محقاً عندما قال أنّ عدم الإيمان بالسحر والشعوذة معناه عدم الإيمان بالكتاب المقدس. تخلّوا عن الإيمان بالشيطان، وماذا سيبقى من كتاب يعقوب؟ كيف ستفسّر وجود الأرواح الكاذبة الخبيثة التي أرسلها يهوه لتضليل آهاب؟ رجال الدين الذين يعترفون أنّ السحر مجرّد خرافة سيقرأون قصّة ساحرة ويندور... سيقرأونها بوقار وبصوت جدّي... بصوت لاهوتي... وستكون لديهم الوقاحة والجرأة للقول بأنّهم يصدّقون هذه الروايات. سيكون من الجيد معرفة أنّ الملائكة تحلّق في الجوّ، وأنّها تحرس الأبرياء، وتحمي الأخيار، وأنّها تنحني بحنان فوق مهاد الأطفال وتمنحهم الأحلام السعيدة والصحة والعافية، وأنّها تملأ الزنزانات بالنور

بوجودها وتمنح الأمل للمساجين، وأنّها تسعى وراء الساقطين، والخطّائين، والآثمين، والمنبوذين، والحقيرين وتعيدهم إلى الفضيلة، والحب والسعادة. لكننا لانمتلك أي أدلّة حقيقية لا على وجود الأرواح الخيّرة ولا الشريرة منها. الملاكان اللذان زارا إبراهيم وأم شمشون ليسا حقيقيان أبداً، ولا يختلفان عن الأشباح والعفاريت خلال العصور الوسطى. الملاك الذي أوقف حمار بعاليم، الرجل الذي دخل إلى الفرن مع ميشيت وشادرَك، وأبيدنيغو، ذلك الذي ذبح الآشوريين والذي أزال شكوك يوسف في المنام، جميعها صُنِعَت داخل مخيلة السُذّج، من قبل عشّاق المعجزات، ثم تمّ تناقلها من المخرّفين إلى الأطفال، من الجهلاء إلى الجهلاء، طوال سنوات عديدة. باستثناء في البلدان الكاثوليكية، لم يقم أي زائرٍ مجنّح من العالم السماوي بزيارة الأرض لمئات السنوات. فقط هؤلاء الذين يغمضون أعينهم عن الحقائق بإمكانهم رؤية هذه المخلوقات الخرافية الجميلة، وفقط أولئك الذين يصلون لنتائجهم من دون مساعدة الدليل أو البرهان يمكنهم أن يؤمنوا بوجودها. قيل أنّ العظيم مايكل أنجلو، أثناء تزيينه لكنيسة، رسم بعض الملائكة يرتدون صنادل. نظر كاردينال إلى اللوحة وقال: «من ذا الذي رأى ملاكاً يرتدي صندلاً؟» أجاب أنجلو بسؤال آخر: «من ذا الذي رأى ملاكاً عاري القدمين؟» لم يسبق أن أثبت أحدٌ وجود الملائكة. طبعاً، نحن نعرف أنّ الملايين والملايين كانوا يؤمنون بالسيرافيم/ الملائكة الرئيسية الكبار والشيروبيم/ الكروبيين، كانوا يؤمنون أنّ الملاك جبريل تنافس مع الشيطان من أجل جسد موسى، وأنّ الملائكة أغلقت أفواه الأسود لحماية دانيال، وأنّ الملائكة علّمت المسيح، وأنّ أعداداً هائلة من الملائكة سترافق المخلّص عندما يأتي مرةً أخرى ليمتلك العالم. ونحن نعلم أنّ جميع هؤلاء الملايين يؤمنون من خلال الإيمان الأعمى والمتخلّف، ناظرين إلى جميع الحقائق والأدلّة البراهين بعين الاحتقار

اللاهوتي. لكنّ الآلهة لم تعد تنزل وتهبط على البشر. لم تعد تجلب المواساة إلى القلوب الجريحة. لقد طووا أجنحتهم ورحلوا عن الأرض من هوائها منذ أمدٍ بعيد. هؤلاء الحراس المجنّحون لم يعودوا يحمون المساكين والأبرياء، لم يعودوا يخفّفون المعاناة، ولم يعودوا يهمسون بكلمات الطمأنينة في آذان العاجزين. لقد أصبحوا أضغاث أحلام... رؤى متلاشية.

[٥]: في الأيام الخوالي التي كنّا نتميّز فيها بالتديّن الشديد، كانت الأرض مسطحة _على شكل صحن دائري_ وفوقها كان بيت يهوه، أمّا تحتها فكان يقطن الشيطان. كان الله وملائكته يسكنون في الطابق الثالث، أمّا الشيطان وزبانيته فكانوا يسكنون في القبو، بينما الجنس البشري فكان يعيش في الطابق الثاني. ثمّ عرفوا أين كانت السماء. كانوا يسمعون تقريباً أصوات أبواق المجد والتهليلات. وعرفوا أيضاً أين كان الجحيم، كانوا يسمعون تقريباً أصوات الأنين ويشمّون رائحة الكبريت المحترق. كانوا يعتبرون البراكين مداخن. كانوا يحيطون علماً بكل ماهو سماوي وأرضي وماتحت أرضي/ جهنّمي. كانوا يعرفون أورشليم الجديدة، بشوارعها الذهبية وبوّابتها اللؤلؤية. ثمّ بدت ترجمة سفر إينوخ منطقية ومعقولة بشكلٍ كافٍ، ولم يشكّ أحدٌ أنّه قبل الطوفان هبط أبناء الله ومارسوا الحب مع بنات البشر. ظنّ علماء اللاهوت أنّ بُناة بابل كانوا سينجحون في مشروعهم لولا أنّ الله نزل وشتّتهم وأنساهم لغتهم ومعاني كلماتهم. في تلك الأيام المباركة كان رجال الدين يعرفون كل شيء عن الجنة والنار. كانوا يعرفون أنّ الله يحكم العالم عن طريق الأمل والخوف، عن طريق الترغيب والترهيب، عن طريق الثواب والعقاب. الثواب كان الحياة الأبدية، وكذلك العقاب كان أبدياً. تطوّر الدماغ البشري لم يكن ضمن خطّة الله، حتى يتمكّن الإنسان من إدراك وفهم الصواب وتجنّب الخطأ. لقد علّمهم الجهل، لاشيء غير

الخضوع، ومن أجل خضوعهم الذليل كافأهم بحياة وسعادة أبديتين. لقد أحبّ الخاضعين المذلولين _الراكعين والساجدين والزاحفين. كان يكره الشكّاكون، الباحثون، المفكّرون، الفلاسفة. فلهم هم خلق السجن الأبدي حيث يمكنه أن يغذّي نار حقده الأبدي. كان يحب السُذّج _أولئك الذين كانوا يؤمنون بدون دليل_ وأعدّ لأجلهم منزلاً في عالم النور الأبدي. كان يسعد بصحبة الأغبياء والودعاء. لكن أين هي هذه الجنّة، وأين هو هذا الجحيم؟ نحن نعلم الآن أنّ الجنة ليست فوق الغيوم وأنّ الجحيم ليس تحت الأرض. لقد ألغى التلسكوب مفهوم السماء القديمة ذات الجنان، والعالم الكروي الذي يدور في مداره حول الشمس أطفأ نيران الجحيم المستعرة في أسفله. هذه البلدان اللاهوتية، هذه العوالم الخيالية والمتخيّلة، قد اختفت وتلاشت. لا أحد يعلم، ولا أحد يتظاهر بالعلم، أين هي الجنة، ولا أحد يعلم أو يتظاهر بالعلم أين هي النار. الآن يقول علماء اللاهوت أنّ النار والجنة ليسا مكانين، إنّما هما حالتين من حالات العقل. إنّ الإيمان بالآلهة والشياطين كان اعتقاداً عالمياً أساساً. نصّب الإنسان إلهاً للخير خلف الخير، وإلهاً للشر/ شيطاناً خلف الشر. ووضع خلف الصحّة، والشمس المشرقة، والحصاد إلهاً خيراً، وخلف الأمراض والأوبئة وسوء البخت والموت وضع إلهاً شريراً أو شيطاناً. هل هناك أي دليل حقيقي يبرّر وجود الآلهة والشياطين؟ إنّ الدليل على وجود الإله والشيطان هو نفسه من الناحية الجوهرية. كلا هذين الإلهين مجرّد استنتاج، كل واحدٍ منهما مجرّد تخمين. إنّهما غير مرئيين ولايمكن رؤيتهما _خفيين_ ولم يخاطرا بالدخول ضمن أفق الأحاسيس والشعور. الآن ليس هناك إنسان ذكي يؤمن بوجود الشيطان _فهو لم يخاف الشياطين والعفاريت الكامنة. معظم الناس "المفكّرين" والذين يستخدمون عقولهم ويفكّرون بطريقة عقلانية تخلّوا عن إيمانهم بالله، أو بوجود إله شخصي خالق.

إنّهم يتحدثون الآن عن "المجهول"، "الطاقة اللانهائية"، لكنّهم يضعون يهوه في نفس مرتبة جوبيتر. إنّهم يعتبرون كليهما كألعاب مكسورة من حضانة الماضي. الرجال والنساء الذين يطالبون بالدليل _الذين يرغبون بمعرفة الحقيقة_ لايبالون بالإشارات، ولايهتمّون مايسمّى بالمعجزات، ولايؤمنون بالأعداد أو الحليّ أو الأيام المحظوظة والمشؤومة، لايعتقدون بصحّة الرقى والتعاويذ، ولا بالكسوف والخسوف والشهب. ولا يؤمنون بوجود الأرواح الشريرة والخيرة، بالآلهة والشياطين. إنّهم لايضعون ثقتهم بالرعاية الإلهية الخاصة أو العامة _بأي قوى تنقذ، أو تحمي أو تحافظ على الأخيار وتعاقب الأشرار. إنّهم لا يؤمنون أنّه طوال تاريخ الجنس البشري قد تمّت الاستجابة لصلاة واحدة. إنّهم يعتقدون أن جميع التضحيات قد ضاعت سدى، وأنّ جميع البخور قد ضاع في الهواء من دون جدوى. إنّهم لايؤمنون بأنّ العالم مخلوق ومسخّر من أجل الإنسان أكثر ممّا يؤمنون بأنّه مخلوق ومسخّر من أجل الحشرات. إنّهم لايعتقدون أنّ الحيتان خُلِقَت لتزوّد الإسكيمو بالدهن، أو أنّ اللهب مخلوق لجذب حشرات العثّ وقتلها. عند كل زاوية يبدو أنّ هناك إشارة لوجود تصميم _تصميم من أجل إنجاز الخير، وتصميم من أجل إنجاز الشر. عند كل طرف هناك الحميد والخبيث _شيء ما يسعى للحفاظ والحماية، وشيء آخر يعمل للتدمير وقتل. كل شيء محاط بالأصدقاء والأعداء، بالحب الذي يحمي ويصون، وبالكره الذي يقتل ويدمّر. تصميم كما يظهر في الانحلال، كما يظهر في النمو، في الفشل، كما في النجاح، في الحزن، كما في البهجة. الطبيعة تبني بيد، وتدمّر باليد الأخرى، مسلّحةً بالسيف والدرع... تقتل وتحمي، وتحمي فقط لكي تقتل. جميع أشكال الحياة مصيرها إلى الموت، وجميع أشكال الموت تسارع نحو الحياة. هدر وتقنين في كل مكان، وإهمال ورعاية في كل مكان. نحن نشاهد سيرورة الحياة ومدّ الموت... المسرحية الدرامية

العظيمة التي تجري على خشبة المسرح إلى الأبد، حيث يمثّل الممثلون أدوارهم ثم يختفون، هذه المسرحية الدرامية العظيمة التي يجب على الجميع الاشتراك فيها... المتعلّم والجاهل، الغبي والمجنون... بدون أي تمرين وبدون أي معرفة بالدور، أو أي حبكة أو فصل في المسرحية. يتقلّب المشهد، يختفي بعض الممثلين ويظهر آخرون، ثمّ يتغيّر المشهد ثانيةً، هناك لغز في كل مكان. نحاول أن نجد تفسيراً، وتفسير حقيقة معينة يتعارض مع تفسير حقيقة أخرى. وخلف كل ستار يُرفَع، هناك ستار آخر. جميع الأشياء متساوية بغرابتها. قطرة من الماء غريبة ورائعة كجميع قطرات البحار، حفنة من الرمال شبيهة بغرابتها كل رمال العالم، حشرة عثّ بجناحين ملوّنين كجميع الكائنات الحية، من ظلام بيضة واحدة ومن دفئها تخرج حياة منتظمة تتنفس _حياة بلحم وعظام وأعصاب، بدم ودماغ، بغرائز وعواطف، وأفكار، ورغبات... كجميع النجوم التي تسبح في الفضاء. أصغر بذرة، مغروسة في التربة، تحلم بأمطار نيسان وأيام حزيران، تخفي سرّها عن أحكم الناس. حكمة العالم كله لاتستطيع تفسير حواف ورقة عشبة، أخفّ حركة لأصغر وريقة. ومع ذلك فإنّ علماء اللاهوت والبابوات والرهبان والقسيسون الذين يقفون عاجزين عن الكلام أمام أعجوبة أصغر شيء في الطبيعة، يعرفون كل شيء عن أصل العوالم، يعرفون متى كانت البداية، ومتى ستكون النهاية، يعرفون كل شيء عن الله الذي خلق كل شيء برغبته، يعرفون خطّته ومشيئته، الأساليب التي يتّبعها والغايات التي يسعى لتحقيقها. بالنسبة لهم أصبحت جميع الألغاز مكشوفة، باستثناء لغز الأشياء التي تمسّ حواس ومشاعر والإنسان الحي. لكنّ الإنسان النزيه والصادق لايدّعي المعرفة، إنّه صادق وشريف، إنّه يحب الحقيقة، ويعترف بجهله، ويقول: "لا أعرف". في النهاية، لماذا علينا أن نعبد جهلنا، لماذا علينا الانحناء للمجهول، لماذا علينا الانبطاح أمام مجرّد

تخمين؟ إذا كان الله موجوداً، كيف لنا أن نعرف أنّ خيّر، وأنّه يبالي ويعتني بنا؟ يقول المسيحيون أنّ إلههم كان موجوداً منذ الأزل، وأنّه سيوجد إلى الأبد، سرمدي، لانهائي، مطلق، حكيم وخيّر. أيمكن ألا يكون هذا الإله إلهاً؟ أيمكن ألا يكون صالحاً وخيراً؟ هل كان حكيماً وصالحاً دون إرادةٍ منه أو مشيئته؟ كونه أزلياً، فهذا يعني أنّه غير مخلوق. إنّه السبب الأول وعلّة كل علّة. ما هو، كان هو، وسيظلّ هو، لايتغيّر. إنّه لا يعمل أو لايسعى لتطوير أو تغيير شخصيته أو صفاته. لايحاول تغيير رأيه أو تطوير عقله. ما كان، هكذا سيكون. لم يحرز أي تقدّم. هكذا سيظلّ إلى الأبد كما هو، لايمكن أن يطرأ عليه أي تغيير. أتساءل هنا، لماذا إذن علينا تمجيده والصلاة له؟ فهو لايختلف عمّا كان عليه أو عمّا هو كائن أو عمّا سيكون. لماذا نصلي له؟ فهو لا يستطيع التغيير. ومع ذلك يستجدي المسيحيون إلههم ويناشدونه ألا يضرّ بهم. ألأم تهمة موجّهة ضدّ الشيطان هي أنّه يغوي بني البشر، ومع ذلك، غالباً مايطلب المؤمنون أثناء صلاتهم لآلهتهم وبشكل وقح وصفيق ألا يتصرّف معهم كما يتصرّف ملك الشر. "لا تقودنا إلى الضلال". لماذا يطلب الله منا التمجيد؟ فهو هو كما كان. فهو لم يتعلّم شيئاً، ولم يمارس أي نكران ذاتي على نفسه، لم يتعرّض للإغواء، ولم يمسسه خوف أو شعلة أمل، ولم يسبق أن امتلك إرادة. لماذا يطلب منا تمجيده؟ هل هناك أحد يعرف بأنّ هذا الإله موجود، وأنّه لم يسبق له أن سمع أو استجاب لأي صلاة؟ هل معروفٌ عنه أنّه يحكم العالم ويسيّر الكون، وأنّه يتدخّل في شؤون البشر، وأنّه يحمي الأتقياء والأخيار أو يعاقب الآثمين والأشرار؟ هل يمكن العثور على دليل على ذلك بين صفحات التاريخ الإنساني؟ إذا كان الله يحكم العالم، فلماذا نرجع إليه الفضل في الأمور الجيدة ولا نلقي عليه اللوم في الأمور السيئة؟ لنبرّر وجود هذا الإله علينا القول أنّ الخير خير وأنّ الشر خيرٌ أيضاً. إذا كان كل ما يحدث [من أمور

سيئة وجيدة] هو من عمل هذا الإله فليس علينا التفريق بين أفعاله: بين الأفعال الناجمة عن حكمة إلهية مطلقة وخيّرة. إذا حمدناه على دفء الشمس ووفرة الحصاد فعلينا أن نشكره أيضاً على الأوبئة والأمراض التي يرسلها إلينا. إذ شكرناه على نعمة الحرية، على العبد أن يرفع يديه المقيدتين عبادة وتمجيداً لله على نعمة العبودية مع كل لسعة سوط رسمها له سيّده على ظهره. إذا شكرناه وحمدناه على انتصاراتنا، فعلينا أيضاً شكره وحمده على هزائمنا. منذ عدّة أيام فقط شكر رئيسنا خلال خطاب له الله على منحنا النصر في سانتياغو. لكنه لم يشكره على إرساله مرض الهواء الأصفر علينا. لنكون واضحين على رئيسنا شكر الله وحمده على الانتصار والوباء معاً. الحقيقة هي أنّ الأرواح الشريرة والخيّرة _الآلهة والشياطين_ هي خارج نطاق تجاربنا، خلف أفق حواسنا، خلف حدود أفكارنا، خلف آفاق خيالنا الجامح. على الإنسان أن يفكّر، عليه أن يستخدم جميع حواسه، عليه أن يتفحّص ويدقّق، عليه أن يستخدم عقله ويفكّر. فالإنسان غير القادر على التفكير هو أدنى من إنسان، أمّا الإنسان الذي لا يريد التفكير ويضرب عنه فهو خائنٌ لنفسه، والإنسان الذي يخاف من التفكير ما هو إلا عبدٌ للخرافة.

[٦] : ما الضرر أو الأذى الذي تسبّبه الخرافة؟ ما الضرر في الإيمان بالخرافات والأساطير؟ إنّ الإيمان بالإشارات والمعجزات، بالرقي والتعاويذ، بالتمائم والقلائد، بالآلهة والشياطين، بالجنة والنار، يجعل من العقل سرداباً للجنون، فالعالم عبارة عن مصحاً للأمراض العقلية، يجرّد العقل من أي يقينيات، ويجعل من التجربة شركاً، ويدمّر العلاقة بين السبب والنتيجة _وحدة الطبيعة_ ويجعل من الإنسان خادماً مطيعاً وعبداً عاجزاً. بهذا الاعتقاد لاتسلط أي معرفة بالطبيعة الضوء على السبيل الذي يجري السير فيه. إذ تصبح الطبيعة ألعوبة في يد غير مرئية. الجنّية _الغيبي،

والماورائي_ تلمس بعصاها السحرية أي حقيقة وتختفي. الأسباب تصبح خالية من النتائج، والنتائج تصبح مستقلةً عن جميع الأسباب الطبيعية. النزوة تتربّع ملكة. ينهار الأساس. وتبقى القبّة العظيمة معلّقة في الهواء. لايعود هناك أي تناسق في النوعيات والخاصيات، في العلاقات أو النتائج. الفكر يتنازل عن عرشه، وتضع الخرافة تاجها. القلب يقسو... والدماغ يترهّل... مقدرات الإنسان وطاقاته مهدورة في جهد بلا طائل لضمان حماية للغيبي وصونه. السذاجة... الطقوس... العبادة... التضحية... والصلاة جميعها تحلّ محلّ العمل النزيه، البحث، العمل الفكري، الملاحظة، التجريب. التقدّم يصبح مستحيلاً. الخرافة هي، ولطالما كانت، وستظلّ دوماً، عدوّ الحرية. الخرافة خلقت جميع الآلهة والملائكة، جميع الشياطين والأشباح، جميع الساحرات، العفاريت والجان، جنيات الأسنان والأنبياء، ملأت السماء بالإشارات والمعجزات، كسرت حلقات سلسلة الأسباب والنتائج، وكتبت تاريخ الإنسان بالمعجزات والأكاذيب والأضاليل. الخرافة صنعت كل البابوات، الكرادلة، الأساقفة، والكهنة، جميع القساوسة والراهبات، رجال الدين المتسوّلون والقديسين القذرين، جميع المبشرين والوعّاظ، جميع "المدّعين" و"الدجّالين". الخرافة جعلت الناس يخرّون على ركبهم أمام الوحوش والحجارة، أقنعتهم بالإيمان بالأفاعي والأشجار والأشباح المجنونة في الهواء، سلبتهم ذهبهم وعرق جبينهم، وجعلتهم يسفكون دماء أولادهم ورمي أطفالهم في لهيب النار. الخرافة هي التي بَنَت الكاتدرائيات والمعابد، أقامت المذابح، المساجد والكنائس، ملأت العالم بالعجائب والظواهر الغريبة، بأيقونات وأصنام، بعظام وخصل شعر مقدّسة، بدماء وبقايا القديسين القذرة، بقطع الخشب التي تخيف الشياطين وتخرجهم من صدور البشر. الخرافة هي التي ابتكرت وتفنّنت في صنع واستخدام أدوات التعذيب، حرقت

الرجال والنساء أحياء، أثقلت رقاب الملايين بالسلاسل وأهلكت مئات الآلاف بالنار. الخرافة خلطت ما بين الجنون والإلهام وساعدت المجانين في سعيهم وراء النبوّة، وراء حكمة الله. الخرافة سجنت الفضلاء، عذّبت المفكّرين، قتلت الأبطال، وضعت قيوداً على الجسد، وغلالاً على العقل، ودمّرت بقسوة ووحشية حرية التعبير. الخرافة منحتنا جميع الصلوات والطقوس والشعائر، علّمتنا كافة أنواع السجود والركوع والانحناء، علّمت الإنسان أن يكره نفسه، أن يمقت المسرّات والشهوات، أن يجلد لحمه، أن يتمرّغ في التراب، أن يهجر زوجته وأولاده ويهمل أسرته، أن ينبذ أخاه الإنسان، وأن يقضي حياته في ألم عبثي ودائم وصلوات غير مجدية لاتنتهي. الخرافة علّمت أنّ حبّ الإنسان هو انحطاط، سقوط، رذيلة، علّمت أنّ الرهبان أنقى وأصفى من الآباء، وأنّ الراهبات أقدس من الأمهات، أنّ الإيمان يعلو على الحقيقة، أنّ الخشوع والخضوع والهوان يقود إلى الجنّة، وأنّ الشك يودي بصاحبه إلى النار، أنّ الإيمان أفضل من المعرفة، وأنّ المطالبة بالدليل يعني إهانة الله. الخرافة هي، ولطالما كانت، وستظلّ دوماً، عدوّ التقدّم، عدوّ التربية والتعليم، وقاتل الحرية. إنّها تضحّي بالمعلوم لصالح غير المعلوم، ضحّت بالحاضر من أجل المستقبل، ضحّت بهذا العالم الحقيقي والفعلي من أجل عالم أخروي خيالي. الخرافة أعطتنا سماء وجنان أنانية، ونار بانتقام أبدي، ملأت العالم بالكراهية والبغض، بالجرائم والحروب، بحقد المهادنين وغطرسة الوضاعة. الخرافة هي العدو الوحيد للعلم في العالم. أمم، أعراق، وشعوب دُمّرت بهذا الوحش. قرابة ألفي عام عاش خلفاء الله المعصومين في إيطاليا. مُلِئت البلاد ببيوت الراهبات، الأديرة، الكاتدرائيات، والمعابد... مُلِئَت بكافة أنواع الرهبان والقساوسة ورجال الدين. لقرون طويلة تراكمت في إيطاليا أموال المؤمنين وذهبهم. جميع الدروب تؤدّي إلى روما، وهذه الدروب كانت مليئة بالحجّاج

المحمّلين بالهدايا، إلا أنّ إيطاليا، بالرغم من كل الصلوات، تابعت سيرها في الطريق السفلي بثبات، ماتت ودُفِنَت، وكانت لتكون راقدةً الآن في قبرها لولا كافور، مازيني، وغاريبالدي. والسبب في فقرها وبؤسها أنّها الآن مدينة للكنيسة الكاثوليكية المقدسة، للخليفة والوكيل المعصوم لله. أمّا الحياة التي كانت تعيشها فهي مدينة بذلك لأعداء الخرافة. منذ عدّة سنوات كانت إيطاليا على درجة من العظمة لتبني تمثالاً لجوردانو برونو ـبرونو، ضحية "الوحش المظفّر"ـ برونو، أروع وأرقى أبنائها. كانت إسبانيا في فترة معيّنة تملك نصف العالم، وكانت تضع يديها الجشعتين على ذهب العالم وفضّته. في ذلك الوقت كانت جميع الأمم تقبع في ظلمة الخرافة. في ذلك الوقت كان العالم محكوماً من قبل الرهبان. تشبّثت إسبانيا بمذهبها. بعض الأمم بدأت بالتفكير، لكنّ إسبانيا استمرّت في إيمانها. في بعض البلدان، فقد الرهبان سيطرتهم ولانت قبضتهم، لكن في إسبانيا لم يكن الأمر كذلك. فالسلطة الكامنة خلف عرشها كانت متمثّلة في الكاهن المُقَلنَس. في بعض البلدان بدأ بعض الرجال بالانشغال بالعلم والبحث العلمي، لكن في إسبانيا لم يكن الأمر كذلك. سبّحت إسبانيا بسُبّحاتها وصلّت للعذراء. كانت إسبانيا مشغولة بإخلاص روحها. وبتشدّدها هذا دمّرت نفسها. لقد اعتمدت على الغيبي والماورائي،لم تعتمد على المعرفة، بل على الخرافة. لم تُستَجَب صلواتها. لقد مات جميع القديسون وتحوّلوا إلى غبار. لم يكن بوسعهم مدّ يد المساعدة، والعذراء المباركة لم تسمع صلواتهم. كانت بعض البلدان على أبواب فجر جديد، لكنّ إسبانيا بقيت في الظلام. أبادت وقتلت جميع الرجال المفكّرين وحاربتهم بالحديد والنار. كان أعظم مهرجاناتها هو احتفال أوتو دا في. الأمم الأخرى كانت تتعاظم وتزداد في تطوّرها ورقيّها في حين ظلّت إسبانيا صغيرة. تضاءلت قوّتها يوماً بعد يوم، ازداد إيمانها. خسرت مستعمراتها

واحدة بعد أخرى، لكنها حافظت على مذهبها. قدّمت كل ذهبها للخرافة، وعقلها للرهبان، لكنّها استمرّت في تقليب خرزات سُبّحاتها. منذ بضعة أيام فقط، معتمدةً على إلهها وقساوسته وكهنته، وعلى التعاويذ والتمائم، على الماء المقدس وعلى قطع من صليب تعتقد أنّه حقيقي، أعلنت الحرب على الجمهورية العظمى. الأساقفة باركوا جيوشها ورشوّا الماء المقدس على مراكبها، ومع ذلك هُزِمَت جيوشها وأُسِرَت، ضُرِبَت سفنها وسُحِبَت إلى الشواطئ وأُحرِقَت، ثم سعت وراء السلام تحت ثقل هزيمتها. لكنّها مازالت محافظة على مذهبها، لم تتخلّ عن خرافتها. اسبانيا المسكينة، مدمّرة بسبب إيمانها، ضحية الدين. البرتغال، تموت ببطء، تزداد فقراً كل يوم، لكنّها مازالت متمسّكة بإيمانها. لم يُستَجاب لصواتها، لكنّها مازالت تحاول. النمسا انهارت بالكامل تقريباً، ضحية الخرافة. ألمانيا تسافر نحو الليل البهيم. الرب هو الذي وضع قيصرها على العرش. على الشعب أن يخضع له. فلاسفة وعلماء يخرّون على ركبهم ليتحوّلوا إلى مجرّد ألعاب بيد الملك المتوّج بأمر ربّاني.

[٧] : إنّ المؤمنون بالماوراء، بالغيبيات، بقوى تتعالى على الطبيعة، بالله، لديهم ما يطلق عليه اسم "كتب مقدّسة" يزعمون أنّها منزلة من عند الله. هذه الكتب تحتوي الحقيقة المطلقة. لابد أنّهم آمنوا بذلك. أمّا هؤلاء الذين ينكرون تلك الكتب والحقيقة الكامنة فيها سيلاقون عذاباً أبدياً أليماً. هذه الكتب غير موجّهة للفكر البشري. بل هي تتعالى عن الفكر. إنّها لا تهتمّ أبداً بما يسميه الإنسان "حقائق". فالحقائق التي لا تتطابق مع هذه الكتب أو تتناسب معها فهي مجرّد أخطاء. هذه الكتب مستقلّة عن الخبرة الإنسانية، عن الفكر الإنساني. كتبنا المقدّسة تتمثّل فيما نطلق عليه اسم "الكتاب المقدّس". أمّا الإنسان الذي يقرأ هذه الكتب، باحثاً عن أخطاء وتناقضات وأغاليط كامنة فيها، يحرم روحه من الخلاص. فبينما يقرأ فيها، لايملك الحق ليفكّر أو

يعمل عقله. واجبه الوحيد هو الإيمان بما جاء فيها. ملايين البشر هدروا حياتهم لدراسة هذا الكتاب، محاولين التوفيق بين المتناقضات، وتفسير كل ماهو مبهم وعبثي فيه. ويعملهم هذا فإنّهم قد برّروا تقريباً كل جريمة وكل عمل وحشي. وجدوا حكمتهم الغميقة في حماقاته. وأسّسوا مئات المذاهب من آياته الملهمة. على الأرجح لا يوجد قارئين اثنين يتفقان على معناها. آلاف درسوا اللغتين العبرية واليونانية فقط لكي يستطيعوا قراءة العهد القديم بلغته الأصلية التي كتب بها. وكلّما درسوا أكثر، اختلفوا أكثر. من خلال نفس الكتاب أثبتوا أنّ الجميع تقريباً ضالّون، وأنّ الغالبية بحاجة للخلاص. وأنّ العبودية هي مؤسسة دينية، وأنّ جميع الناس يجب أن يكونوا أحراراً. وأنّ تعدّد الزوجات هو أمر جيد، وأنّ الإنسان لا يجب أن يكون لديه سوى زوجة واحدة. وأنّ السلطات التي يمتلكها الملوك هي سلطات ممنوحة من الله، وأنّ الشعوب لديها الحق لتقويض وتدمير تلك السلطات الملكية. وأنّ جميع أفعال الإنسان مقرّرة مسبقاً... مقرّرة منذ الأزل، وأنّ الإنسان حرّ. وأنّ جميع الكفّار سيضلّون إلى الأبد، وأنّ كل الكفّار سيُغفر لهم. وأنّ جميع البشر يجب أن يُعَمّدوا برشّ الماء عليهم، وأنّهم يجب أن يُعَمّدوا بغمسهم في الماء. أنّ لا خلاص من دون عماد، وأنّ العماد لاجدوى منه. أنّك يجب أن تؤمن بالثالوث، وأنّه يكفي أن تؤمن بالله. أنّك يجب أن تؤمن بأنّ فلاح يهودي كان هو الله، وأنّه كان نصف إله في نفس الوقت. وأنّه كان من نسل داؤود عن طريق والده المفترض يوسف، الذي لم يكن والده في الحقيقة، وأنّه ليس من الضروري الإيمان بأنّ يسوع هو الله، أنك يجب أن تؤمن بالروح القدس، ولا فرق إذا آمنت بذلك أم لا. أنّك يجب أن تحافظ على يوم السبت، وأنّ يسوع لم يذكر أي شيء حول ذلك. وأنّ يسوع أسّس كنيسة، وأنّه لم يؤسّس لأي كنيسة. أنّ الأموات سيُبعثون، أنّه لا وجود للبعث. أنّ المسيح سيأتي من جديد، وأنّه جاء بزيارته الأخيرة.

أنّ المسيح ذهب إلى الجحيم وأنّه بشّر الأرواح السجينة، وأنّه لم يفعل شيئاً من ذلك. أنّ جميع اليهود سيدخلون النار، أنّ جميعهم سيذهبون إلى الجنة. أنّ جميع المعجزات المذكورة في الكتاب المقدس حدثت بالفعل، أنّ بعضها لم يكن حقيقياً، لأنّها غير منطقية وصبيانية وغبية. أنّ الكتاب المقدس موحى من الله بكامله، وأنّ بعض كتبه منحولة. أنّ هناك حكم عام، حيث سيُفَرّق بين الحمل والماعز، وأنّ ليس هناك أي حكم عام. أنّ الخبز والنبيذ المقدّس تحوّلا إلى لحم ودم الرب والثالوث، وأنّهما لم يتحوّلا. أنّ الرب ليس له لحم ولا دم. أنّ هناك مكان اسمه "مطهر"، أنّ هذا المكان لا وجود له. أنّ الأطفال غير المعمّدين سيضلّون، كلا بل سينالون الخلاص. أنّنا يجب أن نؤمن بمذهب الرسل، وأنّ الرسل لم يقيموا أي مذاهب. أنّ الروح القدس هو والد يسوع، وأنّ يوسف كان والده الحقيقي. أنّ الروح القدس له شكل رائحة عطرة، وأنّ لا وجود للروح القدس. أنّه يجب قتل الهراطقة، وأنّك لايجب أن تقاوم الشر. أنّك يجب أن تقتل الكفّار، وأنّك يجب أن تحبّ عدوّك. أنك لايجب أن تؤجّل أي عمل للغد، ويجب عليك أن تستجيب لأي شخص يسألك شيئاً، وأنّ الشخص الذي لايقدّم لبيته وعائلته هو أسوأ من الكافر. تمّ وضع وتكريس آلاف الكتب والمجلّدات دفاعاً عن هذه المذاهب والتناقضات. تمّت إقامة ملايين الطقوس والمناسبات، أعداد لاتحصى من السيوف اصطبغت نصالها بلون الدم، وآلاف مؤلّفة من الليالي أضيئت بنيران المحارق. مئات ومئات من المفسرين والشارحين أبهموا وحجبوا معاني النصوص البسيطة، رَوحَنوا التواريخ، الأسماء، الأرقام وحتى السلالات. لقد أذلّوا الشاعرية، وغيّروا الأمثلة والحكايا الرمزية إلى تاريخ، وحوّلوا الخيالي إلى حقائق غبية ومستحيلة. تصارعوا مع الملاحم والنبوءات، مع الرؤى والأحلام، مع الأوهام والأضاليل، مع الأساطير والمعجزات، مع خزعبلات الجهل،

مع شطحات الجنون وغبطة المستيريين. ملايين الرهبان والمبشّرين قد أضافوا ألغازاً إلى تفسيرات الكتاب المنزل من عند الله، عن طريق إظهار حكمة الحماقة، وحماقة الحكمة، ورحمة الوحشية واحتمال المستحيل. اللاهوتيون جعلوا الكتاب المقدّس سيداً والناس عبيداً. بهذا الكتاب استطاعوا تحطيم النزاهة الفكرية، الإنسانية الطبيعية والحقيقية للإنسان. بهذا الكتاب أخرجوا الشفقة من القلب، وخرّبوا جميع الأفكار حول العدالة والإنصاف، سجنوا الروح في زنزانة الخوف، وحوّلوا الشكّ الصادق والنزيه إلى جريمة. فكّروا للحظة بما عاناه العالم من الخوف. فكّروا بالملايين الذين وصلوا إلى حافّة الجنون. فكّروا بالليالي المليئى بالخوف... ليالي ملئة بالأشباح والأطياف، بالوحوش المتربّصة والمفترسة، بفحيح الأفاعي السامة، بالأهوال المريعة والفظيعة، بالأعين اللامعة والخبثية. فكّروا بالخوف من الموت، من الغضب اللامحدود، من الانتقام الدائم في سجون النار، من الأبدية، من العطش، من الندم الأبدي، من البكاء والتنهّد، من الآهات وصرخات الألم. فكّروا بالقلوب التي قَسَت، بالقلوب الكسيرة، بالفظاعات التي ارتُكِبَت، بالآلام والمعاناة التي احتُمِلَت، بالحيوات التي أظلمت وانطفأت. الكتاب المقدس المُلهَم كان ومايزال أكبر لعنة حلّت بالمسيحية، وسيظلّ هكذا طالما يستمرّ الناس بالإيمان بأنّه كتاب مُلهَم.

[٨] : إلهنا مصنوع من قبل البشر، منحوت على يد البرابرة الذين بذلوا أقصى مابوسعهم. جعلوا إلهنا شبيهاً بهم بطريقةٍ ما، ومنحوه مشاعرهم وعواطفهم، أفكارهم عن الصواب والخطأ. مع تقدّم الإنسان وتطوّره غيّر معه إلهه ببطء: انتزع بعض القسوة من قلبه، ووضع نور اللطف في عينيه. مع تقدّم الإنسان توسّعت وجهة نظره أكثر، ووسّع أفقه الفكري ثمّ غيّر إلهه مرة أخرى، ساعياً لجعله مثالياً قدرة الإمكان، إلا أنّ هذا الإله قد جرى تنميطه حسب إرادة هؤلاء الذين قاموا باختراعه.

ما أن أصبح الإنسان متمدّناً، بدأ يحبّ العدالة ويسعى إليها، وما أن توسّع عقله أكثر، أصبح عالم مُثُلِهِ أكثر صفاءً، أكثر نبلاً، وكذلك أصبح إلهه أكثر رحمةً، وأكثر لطفاً ومحبةً. في زماننا هذا تضخّم يهوه ونما أكثر. لم يعد ذلك المثالي، الآن يتحدّث اللاهوتيون، ليس عن يهوه، بل عن إله الحب، يسمّونه الأب الأزلي والصديق الدائم ومعين الإنسان. لكن، بينما يتحدّثون عن هذا الإله المحب، الأعاصير تدمّر المدن والقرى، الزلازل والفيضانات تلتهم البشر، الصواعق النازلة من السحاب مازالت تقتل البشر، ومازالت الأمراض والأوبئة حاصدة لاتكلّ ولاتملّ لأرواح البشر. إنّهم يخبروننا الآن أنّ كل ذلك جيد، أنّ الشر ما هو إلا عبارة عن بركة متنكّرة، أنّ الألم يجعل الإنسان صلباً وفاضلاً _يصقل الشخصية_ في حين أنّ اللذة تزيد من انحطاط الإنسان وتذلّه. إذا كان الأمر كذلك، فإنّ الأرواح التي في الجحيم يجب أن تتعالى وتتسامى إلى مرحلة العظمة، في حين أنّ تلك الأرواح التي ترقد في الجنّة يجب أن تنكمش وتنحطّ. لكننا نعرف أنّ الخير خير. نعرف أنّ الخير ليس شراً، وأنّ الشر ليس خيراً. نحن نعلم أنّ النور ليس ظلمة، وأنّ الظلمة ليست نوراً. لكننا لانشعر أنّ الخير والشر هما شيئان صاغهما إله ماورائي غيبي. نحن نعتبرهما ضروريان. نحن لا نلعن ولا نشكر. نحن نعلم أنّ بعض الشرور يمكن تفاديها وأنه يمكننا زيادة مستوى الخير. نحن نعلم أنّنا يمكننا تحقيق ذلك عن طريق زيادة المعرفة، عن طريق تطوير الدماغ. كما غيّر المسيحيون إلههم، كذلك غيّروا كتابهم المقدس. فقد تمّ التخلّي عن كل ما هو مستحيل وغبيّ فيه، كل ما هو قاسي وسيىء السمعة، وقد انشغل الآن آلاف اللاهوتيين محاولين إنقاذ كلمة الله الملهمة. طبعاً، مازال الأرثوذكس يتمسّكون بكل كلمة فيه، وما زالوا مصرّين على رأيهم بأنّ كل سطر فيه حقيقي وصحيح. إنّهم حرفيون. فبالنسبة لهم الكتاب المقدس يعني مايقوله تماماً. إنّهم لايريدون أيّة

تفسيرات. إنّهم لا يبالون بالمفسّرين. التناقضات لا تشوّش إيمانهم. إنّهم ينكرون وجود التناقضات أساساً. إنّهم يقفون بإخلاص بجانب نصوصهم الدينية، وهم يفسّرونها بأضيق طريقة سطحية ممكنة. إنّهم مثل بوّاب شقّة أو منزل يرفضون تأجير الشقة إلى أي رجل يقول أنّ لديه أطفالاً أو أولاد. "ولكن"، يقول الرجل، "لكنّ أبنائي متزوّجان وكلاهما يعيشان في أيوا". يقول البوّاب "هذا لا يشكّل أي فرق، لن أسمح بتأجير الشقة لأي رجل لديه أولاد". جميع الكنائس الأرثوذكسية هي مجرّد عوائق على طريق التقدّم السريع. كل مذهب أرثوذكسي عبارة عن حلقة غلال، زنزانة. كل مؤمن في "الكتاب المقدّس الملهم" هو مجرّد عبد ينتزع العقل عن عرشه، وينصّب بدلاً عنه الخوف. الفكر هو النور، شمس العقل. إنّه بوصلة العقل، نجم الشمال المضيء والدائم، قمّة الجبل التي تشمخ بنفسها فوق السحاب.

[٩] : كانت هناك قرون طويلة ساد فيها الظلام عندما سيطر الدين على المسيحية. كانت الخرافة ظاهرة عالمية تقريباً. طوال اثنا عشر قرن لم يكن هناك أحد يستطيع القراءة والكتابة. خلال هذه القرون عاش الناس وظهورهم نحو شروق الشمس، ومضوا في طريقهم نحو أوكار الجهل والإيمان. لم يكن هناك تقدّم، ولا ابتكار، ولا اكتشاف. كان هناك قسوة وخضوع، اضطهاد وقمع وصلوات عند كل منعطف. كان الكهنة هم أعداء الفكر، أعداء البحث والتقصي. كانوا هم الرعاة، وكان الناس هم قطعانهم ومواشيهم، وكان عملهم حماية القطيع من ذئاب الفكر والشك. لم يكن هذا العالم ذو أهمية مقارنةً بالعالم الآخر. كان يجب قضاء هذه الحياة تحضيراً للحياة الأخرى. كان يتمّ هدر طاقات الإنسان وذهبه وعرق جبينه لبناء الكاتدرائيات ولدعم التقاة والقديسين وعديمي الجدوى. خلال هذه العصور المظلمة للمسيحية، كما سبق ونوّهت، لم يتمّ ابتكار أو اختراع أي شيء، لم يتمّ اكتشاف

شيء، أو جمع أي معرفة لرفع مستوى حياة الإنسان. تمّ هدر طاقات المسيحية سدى في سعي غير مجدي للحصول على أيّة مساعدة من الماوراء. لعدّة قرون كان شغل المسيحيين الشاغل هو سحب قبر المسيح الفارغ من بين يدي أتباع محمد. تمّت التضحية بملايين الأرواح على مذبح هذه السخافة، ومع ذلك انتصر جنود الدّجال، في حين أنّ التعساء الذين حملوا راية المسيح قد تشتّتوا كالأوراق أمام العاصفة. باعتقادي، كان هناك اختراع وحيد تمّ خلال هذه العصور. يقال أنّه في القرن الثالث عشر، اخترع راهب فرانسيسكاني يدعى روجر بيكون البارود، لكن هذا الاختراع هو الوحيد. لكنّنا لا نرجع الفضل في ذلك إلى المسيحية، لأنّ بيكون كان مهرطقاً وكافراً، وكان على درجة من العظمة ليقول أنّ العقل يجب أن يكون هو المقياس في جميع الأمور. لقد تمّ اضطهاده وسجنه، كمصير أي رجل عقلاني في تلك الأيام المباركة. كانت الكنيسة منتصرة وسائدة. كانت تمسك السوط والصولجان في يديها، ومع ذلك كانت نجاحها هو نتيجة القوة والاحتيال، لكنّها حملت في ذاتها بذور انحطاطها وسقوطها. حاولت الكنيسة فعل المستحيل. سعت لجعل العالم كله ينضوي تحت معتقدها، لتجبر جميع العقول على الخضوع لها، وفي النهاية لتدمر فردانية الإنسان. ولتحقيق ذلك عملت على توظيف جميع صنوف وفنون الخداع والاحتيال. وقد فرضت كامل وحشيتها بمختلف وسائل الحقد والقسوة أمكنها ابتكارها. لكن، بالرغم من كل شيء، بدأ بعض الرجال بإعمال فكرهم. بدأوا بالاهتمام بشؤون هذا العالم... باستعراض الطبيعة العظيم. بدأوا البحث عن الأسباب، عن تفسيرات لهذه الظواهر. لكن يكونوا راضين بتفسيرات الكنيسة. سحبوا هؤلاء المفكرون نظرهم عن السماء وتطلّعوا نحو محيطهم. كانوا بعيدين تماما عن الروحانيات الفارغية بما يكفي للبحث عن الراحة والسعادة هنا في هذا العالم.

أصبحوا عقلانيين وعَلمانيين، دنيويين وحكماء. ماذا كانت النتيجة؟ بدأوا بالاختراع والابتكار، بالاكتشاف، البحث عن العلاقة بين الحقائق، شروط السعادة، وإيجاد أساليب ووسائل فعّالة من شأنها رفع مستوى حياة اخوانهم البشر. تمّ اختراع آلات طباعة متنقّلة، وتوفّر الورق، ظهرت الكتب، وأصبح بإمكان أي إنسان امتلاك ثروة فكرية ليتمّ تناقلها من جيلٍ لآخر. بدأ التاريخ يحلّ محل الأسطورة والشائعات. تظهر التلسكوب. وتمّ تعقّب مدارات النجوم، وأصبح البشر مواطنين كونيين. تمّ ابتكار المحرّك البخاري، والآن بات البخار، العبد الأعظم على الإطلاق، يقوم بعمل مئات الملايين من البشر. تمّ التخلّي عن الفنّ الأسود، المستحيل، وحلّت محلّه الكيمياء المفيدة. التنجيم أصبح علم فلك. كبلر اكتشف القوانين العظيمة الثلاث، أحد أعظم إنجازات العبقرية البشرية، وتحوّلت مجموعات النجوم من حولنا إلى قصيدة، سمفونية. نيوتن منحنا التعبير الرياضي للجاذبية. هارفي اكتشف الدورة الدموية. لقد منحنا الحقيقة، ودرابر منحنا الفكر. المراكب البخارية غزت البحار وغطّت السكك الحديدية سطح الأرض. أضيئت البيوت والشوارع بمصابيح الغاز. ومن خلال اختراع أعواد الثقاب أصبحت النار رفيقة الإنسان حيثما كان. فنّ التصوير أصبح معروفاً، لقد أصبحت الشمس هي الفنان. اختُرِعَت أجهزة التلغراف ومُدّت الكابلات. أصبحت الومضة حاملةً للفكر، وأصبحت الأمم جيراناً. اكتُشِفت مخمّدات الألم والمخدّرات وتحوّل الألم إلى ماضي. أصبحت الجراحة علماً قائماً. تمّ اختراع الهاتف، الهاتف الذي ينقل موجات الكلام ويوصلها للأذن السامعة. الفونوغراف، الجهاز الذي يلتقط كلامنا ويسجّله عبر علامات ونقاط صغيرة ثمّ يعيد تشغيله مرةً أخرى لسماعه. ثمّ جاء الضوء الكهربائي الذي ملأ الليل بنور كالنهار، إضافةً إلى جميع الآلات التي تستخدم القوّة الخفية والدقيقة وغير الملحوظة... نفس

القوة التي تنطلق من السحاب لتدمّر. تحليل ضوء الطيف الذي يخبرنا عن المواد الموجودة في الشمس، أشعّة رونتغن التي تحوّل الأشياء الصلبة إلى شفّافة. لقد أثبت المفكّرون العظام عدم قابلية الطاقة والمادة للفناء، وبيّنوا أنّ هذه الأشياء التي لاتفنى لايمكن أن تكون مخلوقة. علماء الجيولوجيا الآن يستطيعون قراءة كامل قصّة العالم في الصخور والترسّبات في الجبال والقارات: عن تغيّرها، عن عصرها الجليدي... قصّة الحياة النباتية والحيوانية. تمكّن علماء البيولوجيا عن طريق بقايا وأحافير أشكال الحياة من تأسيس تاريخ كامل للإنسان وبيّنوا سخافة رواية الخلق الإلهية. ثمّ جاءت نظرية التطور، بقاء الأصلح والانتقاء الطبيعي. آلاف الألغاز تمّ تفسيرها والكشف عنها حيث انتصر العلم ولوى صولجان الخرافة. طُوّرت النظرية الخلوية، وتمّت دراسة علم الأجنّة، وساعد المجهر على اكتشاف الجراثيم الممرضة وعلّمنا كيف نحارب الأوبئة ونبعدها عنا. هذه النظريات والاكتشافات العظيمة، جنباً إلى جنب مع العديد من الاختراعات الأخرى، هي نتاج الحرية الفكرية.

[١٠] : بالنهاية نحن لا نعرف سوى القليل. في ظلمة الحياة هناك بضعة ومضات من النور. قد يكون من الممكن أنّ سقوط قطعة قماش مسح الصحون تعني مجيء صحبة، لكن لايوجد أي دليل يثبت ذلك. ربما قد يكون من الخطر تناول ثلاثة عشر رجلاً مع بعضهم الغداء، لكن لا دليل لدينا على صحة ذلك. ربّما فرص زواج فتاة ما محكومة بعدد البذور داخل التفاحة، أو بعدد الوريقات على الزهرة، لكن لادليل على صحة ذلك. ربّما طفا الحديد، وانقسمت الأنهار، وانبثقت المياه من العظام الجافة، وحملت الطيور الطعام للأنبياء، وسحبت الملائكة سيوفها، لكن لادليل على كل ذلك. ربّما وظّف يهوه أرواحاً خبيثة ومخادعة لخداع ملك، وربما _أقول ربما_ جميع عجائب وغرائب العالم البدائي قد وقعت فعلاً، لكنّ المشكلة هي

أنّنا لا نمتلك دليلاً على ذلك. إذن قد يكون هناك شيطان، وقد يكون عظيماً في خداعه وقوّته، وقد يكون لديه أعداد لانهائية من العفاريت التي ليس لها أي عمل سويزرع بذور الشر والخداع، التضليل، أن تأسر أرواح البشر الفانية وتسجنهم في زنازين النار إلى الأبد. كل ذلك ممكن. كل ما نعرفه هو أنّنا لانمتلك أي دليل سوى تأكيدات رهبان وقساوسة جهلة. ربما هناك مكان يدعى "جحيم"، حيث يعيش جميع الشياطين، جحيم نيرانها تنتظر بفارغ الصبر جميع أبناء البشر الذين أعملوا فكرهم وكانت لديهم الشجاعة للتعبير عن أفكارهم وآرائهم، وجميع الذين فشلوا في الخضوع لسلطة الرهبان والكتب المقدسة، جميع أولئك الذين مضوا في الطريق الذي أناره أمامهم العقل، لجميع أولئك الذين يمتلكون الشجاعة والخير في قلوبهم والذين يفتقرون للسذاجة الإيمان الأعمى... لكن لكل هذا _وأنا أقولها بكل سرور_ لا دليل على صحة ذلك. وربما قد يكون هناك مكان يدعى "جنّة"، بيت الرب، حيث تطفو الملائكة وتطير وتعزف على الأبواق وتستمع بفرح وسادية إلى تأوّهات الخطاة في الجحيم، لكن لاليل على ذلك. كل ذلك قائم على الأحلام والرؤى الجنونية للمجانين. قد تكون هناك قوة مفارقة للطبيعة، قوة تحكم وتسيّر جميع الأشياء، لكنّ وجود هذه القوة لم يتمّ إثباته حتى الآن. في ظل وجود ألغاز الحياة والفكر، الطاقة والمادة، النمو والتحلّل، الولادة والموت، المتعة والألم، معاناة الأخيار، وانتصار الأشرار، فإنّ الإنسان النزيه مجبرٌ بالقول "لا أعرف". لكننا نعرف كيف خلقت الآلهة والشياطين الجنة والنار. نحن نعرف تاريخ الكتب المقدسة، وأصل الديانات. نحن نعرف كيف تمّ غرس بذور الخرافة وما الذي جعلها تنمو. نحن نعرف أنّ جميع الخرافات، جميع المذاهب، جميع الأخطاء والحماقات، جميع الجرائم والأعمال الوحشية، جميع الفضائل، الرذائل، الآمال والمخاوف، جميع الاكتشافات والاختراعات، جميعها

تتجت بصورة طبيعية. ومن خلال نور العقل نستطيع التفرقة مابين المفيد والضار، الصواب والخطأ. نحن نعرف الماضي... الدروب التي سلكها الإنسان... أخطاؤه... انتصاراته. نحن نعلم بضعة حقائق، بضعة أجزاء، أمّا مَلَكَة الخيال، فتأن العقل، مع هذه الحقائق، هذه الأجزاء، تعيد بناء الماضي، وترسم الصورة التي ستكون عليها الأشياء على لوحة المستقبل. نحن نعتقد بالطبيعة، في سلسلة الأسباب- الحقائق المتعاقبة التي لا تنكسر. نحن ننكر وجود الماورائي الغيبي. نحن لا نؤمن بأي إله يجد مرضاته في روائح البخور، في السجود له، في قرع الأجراس من أجله، في غناء المزامير، في جلد الذات، في الصيام أو في الصلاة... لانؤمن بأي إله يُسَرّ بكلمات الإيمان أو الخوف. نحن نؤمن بالطبيعي. نحن لانخاف الشياطين، أو الأشباح أو الجحيم. نحن نعتقد أنّ الماهاتما، والأجرام السماوية، وظهورات الأرواح، والعلاج بالبلورات، واستبصار المستقبل، والتخاطر، وقراءة العقل، وما يسمى بالعلم المسيحي [أو الإسلامي أو اليهودي] ماهي إلا مجرّد خرافات وأكاذيب ودجل، الأصالة التي تأسّست من خلال شهادة شهود عيان عاجزين وغير أكفّاء. نحن نعتقد أنّ صفائح الأضاليل المزيّفة مخلوطة مع صفائح الصدق الذهبية، والرذائل مدسوسة بين الفضائل. نحن نعلم أنّ الملايين يسعون خلف المستحيل... محاولين ضمان عون ومساعدة الغيبي أو الماورائي... لحلّ لغز الحياة ومشاكلها... لمعرفة لغز القدر... ولاستخلاص الأسرار من المستقبل. نحن نعرف أنّ جميع مساعيهم لم تجدي وذهبت سدى. نحن نؤمن بالطبيعي. نحن نؤمن بالبيت والمدفأة... بالزوجة والأولاد... بالأصدقاء... بوقائع هذا العالم. نحن نؤمن بالحقائق... بالمعرفة... بتطوّر الدماغ. نحن نلقي بالخرافات ونرحّب بالعلم. نحن نطرد الأرواح والأخيلة، بالأضاليل والأكاذيب ونتمسّك بالحقيقة. نحن لانتوّج المجهول، وننصّب جهلنا ملكاً علينا.

نحن لانقف وظهورنا نحو الشمس ونعتقد مخطئين أنّ ظلّنا هو الحقيقة. نحن لانخلق أسياداً ونضع قيوده حول رقابنا بسرور وامتنان. نحن لا نسلّم أنفسنا للعبودية. نحن لانحتاج أية قادرة، ولا أتباع. رغبتنا هي أنّ كل كائن بشري يجب أن يكون صادقاً مع نفسه، مع عالمه، غير متعلّق بالوعود الكاذبة والفارغة، غير مبالٍ بالمخاطر. نحن نرفض أي طاغية أو مستبدّ سواء أكان على الأرض أو في السماء. نحن نعرف أنّ الخرافة منحتنا أضاليل وخرافات، أحلاماً ورؤى، طقوساً وفظاعات، إيماناً وأصولية، متسولون وعاهات، محاكم تفتيش ومحاكمات، صلوات وصيام، لاهوتاً وتعذيب، هواناً وفقر، قديسون وعبيد، معجزات وشعائر سخيفة، أمراضاً وموت. نحن نعرف أنّ العلم قدّم لنا كل شيء ثمين. فالعلم هو عامل التمدّن الوحيد. لقد حرّر العبيد، ستر العاري، أطعم الجائع، أطال عمر الإنسان، منحنا بيوتاً ومواقد، صوراً وكتب، مراكب وسكّك حديدية، أجهزة تلغراف وكابلات، محرّكات تدور بلا كلل وتدير عدّة عجلات، كما أنّه قد قتل جميع الوحوش، الأشباح، جميع أشكال الرعب المجنّحة التي ملأت العقل البشري البدائي. العلم هو المخلّص الوحيد والحقيقي. فهو يضع النزاهة فوق النفاق، الصدق العقلي فوق جميع المعتقدات. إنّه سيعلّمنا دين المنفعة. وسيدمّر التعصّب بمختلف أشكاله. وسيضع الشكّ العقلاني والمنطقي فوق الإيمان غير العقلاني والخرافي. العلم سيمنحنا فلاسفة، مفكرين وعلماء، بدلاً من رهبان، قساوسة، لاهوتيين وقديسين. العلم سيضع حداً للفقر والفاقة والجريمة، والشيء الأكثر نبلاً وأصالةً وعظمةً الذي سيحقّقه العلم هو أنّه سيجعل العالم كلّه حراً.

ما الدين؟

روبرت إنغرسول

:[1]

« آخر خطاب عام للسيد روبرت إنغرسول، قدّمه أمام الجمعية الأمريكية للمفكّرين الأحرار ببوسطن، في الثاني من شهر يونيو/ حزيران عام 1899»

يصرّ أغلب البشر أنّ هناك إلهاً مطلقاً خلق كل شيء، ويحكم كل شيء، وأنّ المخلوقات يجب أن تكون خاضعة للخالق شاكرة له، وأنّ الخالق يطالب بأشياء محددة، وأنّ الشخص الذي يلتزم بهذه المطالب [الإلهية] هو شخص متديّن. هذا النوع من الدين هو من النوع العالمي. طوال عدّة قرون كان يعتقد أغلب البشر أنّ هذا الإله يطالب بالتضحية، وأنّه كان يشعر بالرضا عندما كان الآباء يريقون دماء أبنائهم. بعد ذلك افترض البشر أنّه كان يشعر بالرضا عندما يريقون من أجله دماء الثيران، الحملان والطيور، وفي المقابل بفضل هذه الأضاحي ومقابلها، كان هذا الإله ينزّل المطر، يمنح ضوء الشمس، والحصاد. وكان يعتقد أيضاً أنّ الإنسان إذا لم يقدّم أضحيات، فإنّ هذا الإله سيرسل الأوبئة والأمراض والفقر والفاقة والجفاف والطوفان والكوارث. والمرحلة الأخيرة من هذا الاعتقاد بالأضاحي كانت _حسب المذهب المسيحي_ أنّ الله قد قبل في النهاية دم ولده، وأنّه بعد أن قُتِلَ ولده، رضي الله، وارتوى عطشه للدماء. طوال كل هذه السنوات كان يعتقد هؤلاء الناس أنّ هذا الإله كان يسمع صلواتهم ويستجيب لهم، وأنّه غفر خطايا المؤمنين وأنقذ أرواحهم الآثمة. هذا هو التعريف الشامل للدين بمعناه العام. والآن، بات السؤال، ما إذا كان الدين قد تأسّس على أي حقيقة معلومة؟ ما إذا كان هذا الإله موجود؟ ما إذا كان هو خالقكم وخالقي؟ ما إذا كان يستجيب للصلوات حقاً؟ ما إذا كانت التضحية

بالأولاد أو بالحيوانات ترضي هذا الإله غير المرئي؟ أولاً_ هل هناك إله مطلق خلق بني الإنسان؟ لماذا خلق المتدنين فكرياً؟... لماذا خلق المشوّهين والمعاقين؟... لماذا خلق المجرمين، الأغبياء، المجانين؟... هل يمكن للحكمة المطلقة والقدرة المطلقة أن تبرّرا خلق الفشلة؟... هل الفشلة ملتزمين بخالقهم؟... ثانياً_ هل هناك إله مطلق يحكم هذا العالم؟ هل هو مسؤول عن تنصيب الزعماء والحكّام والملوك والأباطرة والملكات؟... هل هو مسؤول عن جميع الحروب التي اشتعلت [عبر التاريخ]، عن جميع الدماء البريئة التي سفكت حتى الآن؟... هل هو مسؤول عن قرون طويلة من الرق والعبودية، عن الظهور التي تشقّقت تحت لسعات سياط الأسياد، عن الأطفال الذين تمّ انتزاعهم عن صدور أمهاتهم وبيعهم، عن العائلات التي تشتت وتدمّرت؟... هل هذا الإله مسؤول عن كل الاضطهاد الديني، عن محاكم التفتيش، عن أدوات التعذيب التي عصرت أجساد البشر؟ هل سمح هذا الإله للفظاظة واللؤم أن تحطّما الشجاعة والفضيلة؟... هل سمح [هذا الإله] للطغاة المستبدين بسفك دماء الوطنيين الثوار؟ هل يسمح لأعداءه باضطهاد وتعذيب أنصاره؟... أيّ إلهٍ هذا؟!... هل يسمح أي إنسان نزيه وشريف _إذا كان قادراً على الحؤول دون ذلك_ أن يتعذّب أنصاره على أيدي أعدائه؟... أيمكننا تصوّر كائن شيطاني بما يكفي ليفضّل أعداءه على أنصاره؟... إذا كان هناك إله مطلق الخير والقدرة يحكم هذا الكون، كيف لنا أن نبرّر الأعاصير، الزلازل، الأوبئة، المجاعات، والموت؟... كيف لنا أن نبرّر حالات السرطان، أو الجراثيم المعدية والفتّاكة، كالدفتريا والآلاف من الأمراض التي تفتك بالأطفال الأبرياء؟... كيف لنا أن نفسّر افتراس الحيوانات البرية المتوحّشة لبني الإنسان، أو لدغات الأفاعي السامة التي تقتل مئات البشر؟... كيف يمكننا أن نبرّر عالماً حيث هناك حياة تتغذّى وتزدهر على حساب حياة أخرى

حيث الرحمة [الإلهية] المطلقة قد خلقت المنقار والمخالب والأنياب؟ هل الخير المطلق خلق جناحي الصقر لكي يتمكّن من الإمساك بفريسة هاربة؟... هل الخير الإلهي المطلق خلق الوحوش المفترسة وفطرها على أن تفترس الحيوانات الأضعف منها؟... هل الحكمة الإلهية المطلقة قد خلقت الكثير من الكائنات الحية الضئيلة والحقيرة التي تتكاثر داخل أجسام كائنات حية أخرى أكبر منها وتتغذّى عليها؟... هل هذه الحكمة الإلهية الكلية صنعت هذه الوحوش الصغيرة التي لاتكاد ترى بالعين المجرّدة والتي تتغذى على العصب البصري؟... فكرّوا قليلاً بمسألة إصابة إنسان ما بالعمى لإرضاء حاجة جرثوم ضئيل وحقير!... فكروا بمسألة أنّ هناك حياةً تتغذّى على حياة أخرى! فكّروا بالضحايا! فكّروا بشلالات الدم التي تنهمر من على منحدرات القسوة والوحشية! إذن، وفي ظلّ هذه الحقائق، ما هو الدين؟ إنّه "الخوف". فالخوف هو الذي يشيّد المذبح ويقدّم الأضحية. الخوف هو الذي يرفع الكاتدرائية ويحني رؤوس البشر للعبادة. الخوف هو الذي يثني الركبتين من أجل الصلاة. الخوف يتظاهر على أنّه محبّة. الدين يعلّم فضائل العبودية: الخضوع والطاعة، الحقارة، إنكار الذات، الغفران، الخنوع. شفاه أناس متديّنون خائفون، ترتجف مردّدةً عبارة "هوذا يقتلني * لكنني أثق به". هذه هي هاوية الذل والمهانة بحدّ ذاتها. الدين لا يعلّم الاعتماد على الذات، الاستقلال، الإنسانية، الشجاعة، أو الدفاع عن النفس. فالدين يجعل الله سيداً والإنسان هو خادمه المطيع. والسيد لايمكن أن يكون عظيماً بما يكفي ليجعل من العبودية لذيذة الطعم.

[2] :

إذا كان هذا الإله موجوداً، كيف نعرف أنّه خيّر؟ كيف لنا أن نتأكّد من أنّه رحيم، وأنّه عطوف ويعتني ببني البشر؟ إذا كان هذا الإله موجود، فمن المؤكّد أنّه رأى

الملايين من أبناءه الفقراء يحرثون الحقول، ينثرون البذار ويغرسون النبت، وعندما رأى أنّهم يعتمدون على هذه المحاصيل من أجل عيشهم واستمرار حياتهم، فإنّ هذا الإله الخيّر، هذا الكائن المطلق الرحمة، منع عنهم المطر. هو الذي يسبّب سطوح الشمس واشتداد حرارتها، لتجفيف الأرض من رطوبتها، لكنه يمنع المطر. لقد رأى البذور التي زرعها الإنسان تذبل وتموت، لكنه لم ينزل المطر مع ذلك. رأى الناس وهم ينظرون بعيون ملؤها الحزن للأراضي الجرداء، لم يرسل مطراً رغم ذلك. شاهدهم وهم يلتهمون بقايا مخزونهم ببطء أمام عينيه، وتفرّج عليهم ببرود خلال أيام مجاعاتهم... رآهم يذوبون وينطفئون ببطء، شاهد جوعهم، عيونهم الغائرة، سمع صلواتهم واستجداءاتهم، رآهم وهم يفترسون الحيوانات البائسة التي كانوا يملكونها، رأى آباء وأمّهات، تضوّروا جوعاً حتى الجنون، يقتلون أبناءهم ويلتهمونهم، ومع ذلك ظلّت السماء التي فوقهم قاحلة كما الأرض التي تحتهم، ولم يرسل إليهم المطر. أيمكننا القول إذاً أنّ هناك زهرة شفقة متفتّحة في قلب هذا الإله؟ هل نستطيع القول أنّه كان مهتمّ ببني الإنسان؟ هل نستطيع القول أنّ رحمته تدوم إلى الأبد؟ هل نحن نثبت أنّ هذا الإله خيّرٌ لأنّه يرسل الأعاصير التي تدمّر القرى وتغطّي الحقول بالأجساد المتناثرة للآباء والأمهات والأطفال؟ هل نكون قد أثبتنا أنّه خيّرٌ من خلال إظهار أنّه قد فتح الأرض وابتلع الآلاف من الأطفال الأبرياء الضعفاء، أو أنّه وبراكينه قد غمرهم بسيول من النيران السائلة؟ أيمكننا أن نستنتج طيبة الله وخيره المطلق من مثل هذه الحقائق المعروفة؟ لو أنّ هذه الفظائع لم تحدث، أكنّا لنشكّ ولو للحظة أنّ الله يهتمّ ببني الإنسان؟ لو لم يكن هناك أمراض ولا أوبئة ولا أعاصير ولاكوارث ولاحروب ولامجاعات، أكنّا لنشكّ بطيبة الله أصلاً؟ طبقاً لعلماء اللاهوت، الله لم يخلق جميع البشر على سوية واحدة. بل خلق أعراقاً مختلفة فيما

بينها بالذكاء والقوام واللون. هل كان هناك حكمة إلهية أو طيبة إلهية في عملية الخلق هذه؟ أيجب على الأعراق المتفوّقة شكر الله وحمده والثناء عليه لأنّه لم يخلقها متدنية؟ إذا قلنا نعم، عندها على أن أطرح سؤالاً آخر: أيجب على الأعراق الدونية أن تشكر الله وتحمده لأنّها ليست متفوّقة، أم عليها شكره وحمده لأنّه لم يخلقها وحوشاً؟ عندما خلق الله هذه الأعراق المختلفة كان يعرف تماماً أنّ المتفوّقة منها ستستعبد الدونية، كان يعرف أنّ الشعوب والأقوام المتدنية سيتمّ غزوها، تدميرها والتنكيل بها، ثمّ محوها. إذا كان الله قد فعل ذلك، ويعلم بالدماء التي ستراق، والآلام والمعاناة التي ستحلّ بالبشر، ورأى الحقول الشاسعة والقاحلة المغطّاة بجثث القتلى، رأى جميع الظهور الدامية تحت لسعات السياط، قلوب الأمهات الكسيرة على أولادهن، إذا كان يرى كل ذلك ويعرف بشأن كل ذلك، أيمكننا إذن أن نتصوّر كائناً أكثر خبثاً وشراً ومكراً من هذا الإله؟ لماذا، إذن، نقول عن الله أنّه طيّب ومطلق الخير؟ الزنزانات التي رشحت جدرانها على أجساد الشجعان والنزهاء قد شهدت أرواحهم وهي تنزوي وتذبل، المقاصل التي تلطّخت بدماء الشهداء الزكية، العبيد البائسون بظهورهم الدامية والمغطّاة بالندوب، شهداء الفكر والكلمة الأحرار الذين لفحتهم نيران المحارق، الفضلاء والشرفاء الذين تخلّعت أجسادهم على آلات التعذيب، بعضلاتهم وأحشائهم التي تقطّعت إرباً، الأجساد الدامية والمهشّمة للعادلين، العيون المنطفئة والخامدة لجميع أولئك الباحثين عن الحقيقة، ملايين الأبطال والوطنيين الذين حاربوا ببسالة وماتوا عبثاً ويدون جدوى، الزوجات المنهكات والبائسات والثكالى، الوجوه المرتعشة للأطفال المهملين والمهمّشين، الملايين الذين ماتوا خلال السنوات الفائتة، ضحايا الريح العاصفة والأمواج العاتية، ضحايا الطوفانات والنيران، وضحايا في الطبيعة الكامنة والمحبوسة في الأرض، ضحايا ضربات البرق

والرعود، ضحايا الحمم البركانية، الأمراض والأوبئة، والآلام المبرّحة، الأفواه التي تقطر دماً، الأنياب السامة، المناقير التي تجرح وتمزّق اللحم، صولات الشر وجولاته، التيجان التي وضعت على رؤوس الملوك الطغاة بأيدي المنافقين المبجّلين والملطّخة بالدماء البريئة، وهم يشكرون إلههم ويحمدونه _شيطان رجيم_ لتلاشي الحرية واضمحلالها من العالم، هذه التذكارات الأليمة من ماضينا المريع، هذه الفظائع والأهوال التي مازالت موجودة حتى يومنا هذا، هذه الحقائق المخيفة كلها، تنفي وجود أي إله لديه قدرة أو إرادة أو رغبة حتى في مساعدة ومباركة بني الإنسان.

[3] : القوى التي تعمل من أجل الخير

أغلب البشر يتشبّثون بالماورائيات ويتعلّقون بها، فإذا تخلّوا عن إلههم، تصوّروا إلهاً آخر. ما أن تصوّروا يهوه، حتى باتوا يتحدّثون عن القوى التي تعمل من أجل الخير. ما هي هذه القوى؟ الإنسان يتقدّم، وهو يتقدّم ويتطوّر عن طريق خبراته وتجاربه بالضرورة. فالشخص الراغب بالذهاب إلى مكانٍ معين يأتي إلى حيث يقوده الطريق إلى المكان المرغوب. قد يقف على مفترض طريق، يتّخذ طريق اليسار، معتقداً أنّه الطريق الصحيح، ويمضي فيه حتى يكتشف أنّه الطريق الخاطئ. يعود أدراجه ويتّخذ الطريق اليمين، ويصل إلى المكان المرغوب. في المرة التالية التي يرغب فيها ببلوغ المكان نفسه، فإنّه لا يمضي في الطريق اليسار لأنّه جرّب الذهاب فيها واكتشف أنّها الطريق الخاطئة، بل يمضي من فوره في الطريق اليمين، الطريق الصحيحة، ولذلك يقول اللاهوتيون: "هناك قوى تعمل من أجل الخير والصلاح". الطفل الذي يدهشه منظر النار المتقدة، يحاول تحسّسها بيده. تحترق يده، وبعدها يتعلّم الطفل إبعاد يده عن النار. فالقوة التي تعمل من أجل الخير والصلاح علّمته درساً [قاسياً]. الخبرات المتراكمة للعالم هي قوة وقدرة بحدّ ذاتها تعمل من أجل الخير.

هذه القوة ليست واعية، ليست مفكرة، إنّها بلا إرادة، بلا هدف، وبلا غاية. إنّها نتيجة/ محصّلة. إذن حاول الآلاف التأسيس لفكرة وجود الله من خلال حقيقة أنّنا نمتلك مايسمى بـ"الحس الأخلاقي". أي، الوعي، بمعنى آخر. يصرّ هؤلاء اللاهوتيون، والكثير ممّن يسمون أنفسهم فلاسفة بأنّ الحسّ الأخلاقي، هذا الحس بالواجب، بالالتزام، مغروس، وأنّ الوعي شيء غريب. على أساس أنّه لم يتتج من هنا، لم يتتجه الإنسان، فهم يتصوّرون أنّ هناك إله ما هو مصدره. الإنسان كائن اجتماعي. نحن نعيش مع بعضنا ضمن عوائل، قبائل وأمم. إنّ أفراد العائلة أو القبيلة أو الأمة الذين يرفعون من مستوى سعادة العائلة أو القبيلة أو الأمة، هؤلاء يُنظَر إليهم بوصفهم أفراداً صالحين. ويُثنى عليهم ويتمّ تقديرهم واحترامهم. ويعتبرون صالحين وأخياراً بقدر ماهم أخلاقيون. أمّا الأفراد الذين لايجلبون سوى الأسى والمعاناة للعائلة والقبيلة والأمة، يُنظَر إليهم كأفراد سيئين. فيُلامون ويُنبَذون ويُحتَقَرون ويُعاقَبون. بل ويُعتبرون أشخاصاً سيئين وغير أخلاقيين. العائلة أو القبيلة أو الأمة تخلق معايير معيّنة للسلوك/ للأخلاق، مبادئ أخلاقية. لاشيء ماورائي فيها. أعظم بني البشر قالوا أنّ "الوعي نابعٌ من الحب". إنّ حس الالتزام، حس الواجب، هو نتيجة طبيعية. بين الأقوام والشعوب البدائية، يتمّ النظر إلى عواقب الأفعال المباشرة. ومع تقدّم الشعوب وتطوّرها، تمّ إدراك العواقب والنتائج غير المباشرة. ارتقت معايير السلوك وارتفع سقفها. أصبحت المخيلة أكثر خصوبةً. بدأ الإنسان يضع نفسه مكان الآخر. أصبح حس الواجب أقوى، أكثر إلزاماً. بدأ الإنسان يحاكم نفسه. إنه يحب، والحب ما هو إلا استهلال، وأساس الفضائل العليا. إنّه يجرح الأشخاص الذين يحبهم. ثم يندم، ينسحق، يتألّم يزجر. ولا يوجد شيء ماورائي أو غيبي في ذلك كله. الإنسان يخدع نفسه. الطبيعة مرآة يرى فيها الإنسان

صورته الخاصة، وجميع الأديان الماورائية تقوم على أساس التظاهر بأنّ هذه الصورة، التي تبدو كامنة وراء المرآة، قد تمّ التقاطها. جميع الميتافيزيقيين من النمط الروحاني، من أفلاطون وحتى سويدينبورغ، قد أقاموا حقائقهم الخاصة، وجميع مؤسسي الأديان الأخرى فعلوا نفس الشيء. تصوّروا أنّ هناك إله مطلق، ماذا يمكننا أن نفعل من أجله؟ فكونه كائن مطلق، فإنّه غير مقيد أو مشروط، وكونه غير مشروط، فهو لايحتاج لشيء يستفيد منه، ولا يوجد شيء يمكن أن يؤذيه، لذا لايمكن أن تكون لديه حاجة أو رغبة. لكنه كذلك فعلاً.

تصوّروا أنا الإنسان الذي يؤمن أنّ هناك كائن مطلق يرغب ويحتاج إلى تمجيده وصلواته.

[4] : ما الذي قدّمه ديننا؟

طبعاً وباعتراف المسيحيين أنفسهم أنّ باقي الأديان الأخرى خاطئة وغير صحيحة، لذلك نحن بحاجة للتمعّن في ديننا هذا. هل قدّمت الديانة المسيحية أي خير؟ هل جعلت البشر أكثر نبلاً؟ أكثر رحمةً؟ أكثر صدقاً ونزاهةً؟... عندما كانت الكنيسة هي المسيطرة، هل جعلت حال البشر أفضل وأكثر سعادةً؟ كيف كان تأثير الكنيسة في كلٍ من إسبانيا وإيطاليا والبرتغال وإيرلندا؟ ما الذي فعله الدين بهنغاريا والنمسا؟ ما الأثر الذي خلّفته الكنيسة على سويسرا، هولندا، سكتلندا، إنكلترا، وأمريكا؟ لنكن صريحين وواضحين مع أنفسنا، هل كانت هذه البلدان أكثر سوءاً لو كانت من غير دين؟ هل كانت لتكون أسوأ لو أنها كانت فيها ديانة أخرى غير الديانة المسيحية؟ هل كان توركيمادا ليكون أسوأ لو أنّه كان من أتباع زرادشت؟ هل كان كالفن أكثر تعطّشاً للدماء لو أنّه آمن بديانة أهل الجزر الجنوبية؟ هل كان الهولنديون أكثر حماقةً وغباءً لو أنهم أنكروا الأب والابن والروح القدس وعبدوا الثالوث

المقدس للنقانق والجعة والجبنة؟ أكان جون نوكس ليكزن أفضل لو أنه ترك يسوع واتبع كونفوشيوس؟ خذوا على سبيل المثال آباءنا البيوريتانيون/ المطهرون الأتقياء؟ ماذا قدّمت المسيحية لهم؟ كانوا يكرهون المتع. علّقوا وشاح الموت على أبواب الحياة. عصبوا أعينهم عن جميع مباهج الحياة. صنعوا مِهاداً عن طريق نعليق أراجيح على الأكفان. في السنة البيوريتانية كان هناك اثنا عشر شهر ديسمبر/ كانون الأول. كانوا قد حاولوا التخلّص من الطفولة والشباب، بسذاجة الأطفال وأغنية الصباح. إنّ الديانة البيوريتانية كانت بارة عن لعنة صبيانية تفتقر إلى النضج. كان البيوريتانيون يؤمنون أنّ الكتاب المقدّس هو كلام الله، وهذا الاعتقاد بحدّ ذاته كان يجعل من جميع أولئك الذين يعتنقونه قساةً وأشرار. هل كان البيوريتانيون أسوأ حالاً لو أنهم اعتنقوا ديانة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية؟ دعوني أشير إلى حقيقة واحدة فقط تبيّن مدى تأثير الاعتقاد بالكتاب المقدس على الكائن البشري. "في اليوم الذي جرى في تتويج الملكة أليزابيث قُدِّم لها إنجيل جنيف من قبل رجل عجوز يمثّل الزمن وبجانبه ولد صغير يمثّل الحقيقة. تلقّفت الملكة كتاب الإنجيل، قبّلته، وتعهّدت بقراءته بجدّ منذ تلك اللحظة. وتكريساً لنفسها من أجل هذا الإنجيل المبجّل حثّت الملكة من منطلق ديني على قتل جميع البابويين وبعنف". في هذه الحادثة نرى الجوهر الحقيقي للعشاق البروتستانت للكتاب المقدس. بمعنى آخر، كان عشقاً شيطانياً وسيئاً للغاية بقدر سوء الروح الكاثوليكية. هل جعل الكتاب المقدس أهالي جورجيا أناساً أكثر لطفاً ورحمةً؟ هل سيكون السفاحون القتلة أكثر عنفاً ووحشية إذا عبدوا آلهةً من خشب وحجر؟

[5] : كيف يمكن إصلاح الجنس البشري من دون دين؟ الدين تمّت تجربته، وفي مختلف البلدان تقريباً، وفي مختلف الأزمنة، لكنّه فشل. لم يسبق أن جعل الدين

الإنسان أكثر رحمةً... تذكّروا محاكم التفتيش. ما الأثر الذي لعبه الدين على العبودية؟ ما تأثيره على ليبي، سولسبيري، وأندرسونفيل؟ لطالما كان الدين عدوّ العلم الأول، عدو البحث والتقصي، وعدوّ الفكر الحر. الدين لم يسبق له أن جعل الإنسان حراً... لم يسبق أن جعله أخلاقياً، متسامحاً، منتجاً، وشريفاً. هل المسيحيون أكثر أخلاقاً وتسامحاً وقرباً إلى الفضيلة من البرابرة البدائيين؟ هل نرى عند البدائيين فكرة أنّ نعاصيهم ورذائلهم هي نتيجة لخرافاتهم؟ بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بتناسق الطبيعة وانتظامها يصبح الدين شيئاً مستحيلاً. هل يمكننا التأثير على طبيعة الجوهر وخصائصه بالصلاة؟ هل يمكننا تسريع حركة المد والجزر أو تأخيرها عن طريق العبادة؟ أيمكننا التأثير على حركة الرياح وسرعتها وتغييرها عن طريق تقديمنا للأضاحي؟ هل الركوع والسجود يمنحاننا الثروة؟ هل يمكننا علاج الأمراض والأوبئة عن طريق التضرّع؟ أيمكننا أن نضيف أي معرفة لمعرفتنا عبر طقوسنا وشعائرنا؟ هل يمكننا تلقّي المجد أو الشرف أو الفضيلة عن طريق الصدقة والإحسان؟ أليست حقائق العالم العقلي صلبة وعنيدة _وناتجة عنها بالضرورة_ مثل حقائق العالم المادي؟ هل مانطلق عليه اسم "العقل" أمر طبيعي تماماً كالشيء الذي نطلق عليه اسم "الروح"؟ يقوم الجبن على فكرة أنّ الطبيعة تخضع لإرادة سيد، وأنّ هذا السيد سيسمع الصلوات ويستجيب لها، وأنّ هذا السيد يثيب ويعاقب، وأنّه يحبّ التمجيد والتملّق، ويكره الشجاعة والحرية. هل حصل الإنسان على أيّة مساعدة من السماء؟

[6] : لو كان لدينا نظرية، يجب أن يتوفر لدينا الحقائق اللازمة لتأسيسها. يجب أن يكون لدينا أحجار زاوية. لايجب أن نقيم نظريتنا على التخمينات والافتراضات، أو التشبيهات والتخيلات. يجب أن يكون للمبنى أساس. إذا أردنا البناء فعلينا أن نبدأ

من الأسفل. أنا لديّ نظرية ولدي أربعة أحجار زاوية تدعمها: الحجر الأول: هو أنّ المادة _الجوهر_ لا تُدَمّر أو تفنى. الحجر الثاني: وهو أنّ الطاقة لاتُدَمّر ولا تفنى. الحجر الثالث: وهو أنّ المادة والطاقة لايمكن أن يتواجدا منفصلين... لاوجود للمادة من دون طاقة... ولاوجود للطاقة من دون مادة. الحجر الرابع: هو أنّ الشيء الذي لايمكن تدميره أو إفناؤه لا يمكن أن يكون مخلوقاً. الدائم والسرمدي هو شيء غير مخلوق. إذا كانت أحجار الزاوية هذه حقائق فيتبع ذلك بالضرورة أنّ المادة والطاقة شيئان سرمديان _موجودان منذ الأزل وإلى الأبد_ أي لايمكن الزيادة فيها ولا الإنقاص منها. هذا يعني أن لاشيء مخلوقٌ سابقاً، ولاشيء مخلوقٌ الآن، ولا شيء سيخلق في المستقبل. هذا يعني أنّ لاشيء مخلوق أو يُخلَق أو سيُخلَق. لذا لا يوجد خالق. هذا يعني أنّه لايمكن أن يكون هناك أي نوع من الذكاء، أو التصميم الذكي، كامن خلف المادة والطاقة. لايوجد ذكاء من دون طاقة... ولا وجود للطاقة من غير مادة، ممّا يتبع أنّه لايوجد هناك أي ذكاء ولا أي طاقة خلف المادة. هذا يعني أن عالم الغيب أو الماوراء غير موجود ولايمكن أن يوجد، إذا كانت هذه الأحجار الأربعة حقائق، فهذا معناه أنّه ليس للطبيعة سيد يحكمها. إذا كان كلٌّ من المادة والطاقة أزليان فهذا ينفي وجود الله بالضرورة. إنّه لايوجد إله خالق زمتحكّم بالكون، لايوجد إله يسمع الصلوات ويستجيب لها، لا إله ينصر المظلومين، لا إله يشفق على آلام المساكين ومعاناتهم، لا إله يعتني بالعبيد ذوي الظهور المتشقّقة تحت وقع لسعات السياط، أو يهتمّ بالأمهات التي انتُزِع أطفالهنّ من على صدورهن، لا إله ينقذ المعذّبين، لا إله ينقذ الشهداء والقديسين من لهيب النيران. بمعنى آخر، كل هذا يثبت أنّ الإنسان لم يتلقّ أبداً أي مساعدة أو عون من السماء، وأنّ جميع الأضاحي ضاعت هباءً، وأنّ جميع الصلوات قد ضاعت أدراج الرياح. لا أزعم بأنني أعرف.

إنّما أخبركم عن رأيي. لو أنّ المادة والطاقة كانتا موجودتان منذ الأزل، هذا يعني بالضرورة أنّ كل ما هو ممكن قد حدث، ويحدث الآن، وسيحدث في المستقبل. في هذا الكون لا وجود للصدفة، لا أهواء ولانزوات. كل حدث له سبب. أي شيء لم يحدث، لم يكن مقدراً له أن يحدث. فالحاضر هو النتيجة الضرورية للماضي كله، والمستقبل سيكون النتيجة الضرورية للحاضر. في هذه السلسلة اللانهائية ليس هناك _ولن يكون هناك_ أي حلقات مفقودة أو ضائعة. شكل وحركة كل جرم، المناخ السائد على كل عالم، كافة أشكال الحياة النباتية والحيوانية، جميع أنواع الغريزة، الذكاء، والوعي، كل حالات التأكيد والإنكار، جميع المعاصي والفضائل، جميع الأفكار والأحلام، جميع المخاوف والآمال، كلّها ضرورات. ولا واحدة من الأشياء الكثيرة والعلاقات العديدة في الكون يمكن أن تكون بصورة مختلفة.

[7]: إذا كانت المادة والطاقة أزليتان، عندها يمكننا القول أنّ الإنسان ليس له خالق أو مصمم ذكي، وأنّ الإنسان لم يكن عبارة عن عملية خلق مميّزة. نحن نعرف الآن، هذا إذا كنا نعرف شيئاً، أنّ يهوه، الحِرَفي الإلهي، لم يخلط ويجبل الطين ويشكّل منه الرجل والمرأة، ثم نفخ فيهما روح الحياة من أنفاسه. نحن نعرف الآن أنّ أهلنا الأوائل لم يكونوا غرباء. نحن نعرف الآن أنّ أهلنا كانوا محليين من هذا العالم، وُجِدوا هنا، وأنّ حياتهم لم ينفخها فيهم أيّ إله. نحن نعرف الآن، إذا كنا نعرف أي شيء، أنّ الكون طبيعي بالمطلق، وأنّ الرجال والنساء قد جاؤوا بطريقة طبيعية. نحن الآن بتنا نعرف أسلافنا، أنسباءنا. بات لدينا الآن شجرة عائلة. وضعنا أيدينا الآن على جميع حلقات السلسلة، ستّ وعشرون حلقة وصل تشتمل من الوحوش إلى الإنسان... نحن لا نستقي معلوماتنا من كتب مقدّسة منزلة. بل لدينا حقائق أحفورة راسخة [غير قابلة للنقض] وأشكال حية مختلفة. من أبسط الكائنات الحية، من الإحساس

الأعمى، من العضوية، من واحدة من الإرادات البدائية المبهمة، إلى خلية وحيدة تحتوي بداخلها نواة، إلى كرة مجوّفة مليئة بالسائل، إلى وعاء بجدران ثنائية، إلى دودة شريطية، إلى شيء ما بدأ بالتنفس، إلى كائن حي عضوي لديه حبل شوكي، إلى حلقة تربط ما بين اللافقاريات والفقاريات، إلى كائن فقاري لديه جمجمة _حجرة تحمي الدماغ بداخلها_ إلى كائن فقاري له زعانف، وما زال يتقدّم ويتطوّر حتى أصبحت الزعانف تعيقه، ثمّ إلى زاحف ثديي، ثم إلى حيوان جرابي، ثمّ إلى ليمور، قاطني الأشجار، ثم إلى ثديي من الرئيسيات، ثم إلى كائن ثديي منتصب، وفي النهاية إلى إنسان. نحن نعرف السبل التي سلكتها الحياة. نحن نعرف الخطوات التي تقدّمت بها. لقد عثرنا على آخر حلقة. ولهذا نحن مدينون لأحد أعظم العلماء البيولوجيين أكثر من غيره وهو العالم إرنست هايكل. نحن الآن نعتقد أنّ الكون طبيعي وننكر وجود عالم الغيب والماوراء.

[8] : إصلاح

لآلاف السنين حاول رجال ونساء إصلاح العالم. خلقوا آلهة وشياطين، جنان وجحيم، وكتبوا كتباً مقدّسة، زعموا المعجزات، بنوا كاتدرائيات وسجون، نصّبوا ملوكاً وملكات وخلعوهم، عُذّبوا وسُجِنوا، سُلِخَت جلودهم وهم أحياء وحُرِقوا، بشّروا وصلّوا، هدّدوا وأرهبوا ووعدوا ورغّبوا، أقنعوا واقتنعوا، وعظوا وتعلّموا، وبذلوا جهودهم وحاولوا بشتى الوسائل جعل الناس نزهاء متسامحين، متنجين، وفضلاء، شيّدوا مستشفيات ومصحّات للأمراض العقلية، جامعات ومدارس، ويبدو أنّهم بذلوا جلّ مابوسعهم لجعل بني البشر أفضل وأسعد، ومع ذلك لم ينجحوا. لماذا فشل المصلحون؟ سأقول لهم لماذا... الجهل والفقر والرذيلة جميع هذه الأمور تملأ العالم. فالزريبة كانت هي البيت والمأوى. الناس المحتاجين وغير

القادرين على إعالة أنفسهم والأطفال المهجورين يملأون المآوي والملاجئ. إنّهم يعتمدون على الرب، وعلى الحسنات والصدقات. إنّهم ليسوا على قدرٍ من الذكاء ليفكّروا في عواقب مايفعلونه أو يتحمّلون مسؤوليته. في نفس الوقت هم لا يريدون أطفالاً، لأنّ الأطفال لعنة بالنسبة لهم وللطفل نفسه. هذا الطفل غير مرحبٍ به، لأنه عبء. هؤلاء الأطفال غير المرغوب بهم يملؤون السجون والزنازين، المصحّات العقلية والمشافي، ومآوي المشرّدين تغصّ بهم. عدد قليل منهم كتب لهم النجاة من خلال أعمال الخير والإحسان والقليل من الحظّ، لكنّ الأغلبية الساحقة منهم ليست سوى فشل ذريع بمعنى الكلمة. إنّهم يصبحون أكثر توحّشاً وقسوة. إنّهم يعيشون عن طريق النصب والعنف، وفي النهاية يورثون رذائلهم لأولادهم. مقابل هذا التفشّي المغرق للرذيلة والتخلّف تقف عملية الإصلاح عاجزة، ويتحوّل الإنسان نفسه إلى أكبر مروّج للرذيلة والجريمة. يبدو أنّ سمة الفشل هي من إحدى السمات الأساسية التي تتميّز بها الطبيعة. لماذا؟ ليس للطبيعة أي تصميم، أو ذكاء. الطبيعة تنتج من دون هدف أو غاية، تحافظ على البقاء من دون قصد أو نية، وتدمّر وتفني من دون تفكير. الإنسان يمتلك القليل من الذكاء، وينبغي عليه استخدامه. الذكاء هو الرافعة الوحيدة التي ترفع من مستوى الجنس البشري. السؤال الفعلي: هل نستطيع منع الأغبياء والمجرمين والجهلة من ملء عالمنا أولادهم؟... أيمكننا منع هذا النهر من الجهل والتخلف من أن يصبّ في بحيرة الحضارة؟ أيجب أن يظلّ العالم ضحية عواطف الجهل؟ أيمكن أن يصل العالم لهذه الدرجة من التمدّن حيث يتمّ اتخاذ كافة العواقب بالحسبان؟ لماذا يجلب الرجال والنساء أطفالاً لا يمكنهم الاعتناء بهم، أطفالاً يُنظَر إليهم كعبء ولعنة؟ لماذا؟ لأنّ عواطفهم أكبر من ذكائهم، وأكبر من وعيهم، وأكبر من عقلهم وفكرهم. لايمكننا إصلاح هؤلاء الناس بالكلام

والحديث. لايمكننا إصلاحهم بالموعظة والنصيحة. فالعاطفة كانت ولازالت وستظلّ دوماً صمّاء. هذه الأسلحة الإصلاحية غير مجدية أساساً. فالمجرمون والمتسوّلون والنصّابون والقتلة يتكاثرون كل يوم. باتت السجون والزنازين والمصحات العقلية والمآوي مزدحمة. الدين عاجز. قد يعاقب القانون، لكنه لا يستطيع إصلاح المجرمين أو الحؤول دون وقوع الجرائم. مستوى الجريمة يرتفع ويتصاعد. والحرب التي شُنّت الآن ضدّ قوى الشر عبثية وغير مجدية كمحارب الحباحب المضيئة ضدّ ظلمة الليل. ليس لدينا سوى أمل واحد. يجب وقف انتشار الجهل والفقر والرذيلة في العالم. لايمكن تحقيق ذلك بقوة الإقناع الأخلاقي... لايمكن تحقيقه عن طريق الحديث أو القدوة... ولايمكن تحقيق ذلك بالدين أو القانون... عن طريق راهب أو سياف... لايمكن تحقيق ذلك عن طريق القسر والقوة: بدنية أو أخلاقية. لتحقيق ذلك نحن نحتاج لشيء أساسي: العلم، وهو الوحيد القادر على جعل المرأة ملك نفسها. العلم _المنقذ الممكن الوحيد للجنس البشري_ هو الوحيد الذي يقدر أن يضع بيد المرأة خيارها، ما إذا كانت تريد أن تكون أماً أم لا. هذا هو الحل الأنسب لكامل المسألة. هذا يعني تحرير المرأة. عندها سنرى الأولاد مرحبٌ بهم. سيتم استقبالهم بأيادي مصفّقة وقلوب مفتوحة. وسيملأون البيوت فرحةً وسعادة. الرجال والنساء الذين يؤمنون أنّ العبيد أنقى وأصفى وأفضل من الأحرار، الذين يعتقدون أنّ الخوف مرشد أفضل من المعرفة، أنّ الأخيار والصالحين هم أولئك الذين يطيعون أوامر الآخرين، وأنّ الجهل هو التربة التي تنبت فيها أزهار الفضيلة المثالية والعطرة، سيخفون علامات الصدمة على وجوههم بأيديهم المعترضة. الرجال والنساء الذين يعتقدون أنّ النور عدوّ الفضيلة، أنّ النقاء يعيش في قلب الظلام، وأنّه من الخطير بالنسبة للكائنات البشرية أن تعرف

نفسها وتكتشف الحقائق في الطبيعة التي تؤثّر على بقائهم واستمرارهم، سيصابون بالذعر من مجرد التفكير بسيادة الذكاء على العاطفة. لكنني أتطلّع إلى وقتٍ سيرفض فيه الرجال والنساء بفضل معرفتهم بالعواقب والنتائج _بالمبادئ الأخلاقية المتولّدة من الذكاء والفطنة_ ملء العالم بالفشل والفشلة. عندما يحين ذلك الوقت ستتداعى جدران السجن، وسيغمر النور الزنازين المظلمة، وسيبدأ ظلام الملاجئ والمآوي بالانحسار عن وجه الأرض. سيكون الفقر والجريمة مجرّد أمور صبيانية. والأيدي الذابلة تحت ثقل الحاجة لن تُمَدّ للصدقة. جميع هذه الأمور ستصبح مجرّد غبار. وكل العالم سيكون ذكياً ومستقيماً ونزيهاً وحراً.

[9] : لايمكن للدين أن يصلح حال البشر أبداً، لأنّ الدين "عبودية"

من الأفضل بكثير أن تكون حراً، أن تترك حصون وسراديب الخوف، وتقف منتصباً شامخاً في وجه المستقبل وعلى وجهك ابتسامة الأمل. من الأفضل بكثير أن تسلّم نفسك أحياناً للامبالاة، أن تسير مع التيار وتنجرف مع المدّ والجزر، مع قوى العالم العمياء، لتفكّر وتحلم، لتنسى سلاسل وقيود الحياة، لتنسى الغاية والهدف والوسيلة، لتتسكّع داخل معرض الصور في دماغك، لتشعر مرة أخرى بقبلات وإطراءات الماضي، لتسترجع فجر الحياة، لتتذكّر من جديد أشكال ووجوه أمواتك الأعزّاء، لترسم صوراً جميلة من أجل السنوات القادمة، لتنسى جميع الآلهة، وعودها ووعيدها وثوابها وعقابها، لتشعر بسيل الحياة الممتع داخل شرايينك وتستمع لموسيقاها العذبة، لحن إيقاعها وهي تنبض داخل قلبك الشجاع والجريء. ثم لتُنهِضَ نفسك للقيام بكل ما يمكنك من أعمال الخير والفائدة، لتصل بفكرك وأفعالك إلى المثال داخل عقلك، لتعطي لخيالاتك أجنحة، لتجد رحيق الفن _كالنحل المتنقّل بين زهرةٍ وأخرى_ في جميع الأشياء الاعتيادية التي تحيط بك، لتنظر

بعيون خبيرة وثابتة إلى الحقائق، لتجد الخيوط الخافية التي تربط البعيد بالآن، لتزيد المعرفة، لتزيح الأعباء عن كاهل ضعيف، لتطوّر دماغك، لتدافع عن الحق، لتشيّد حصناً للروح. هذا هو الدين الحقيقي. هذه هي العبادة الحقيقية.

[10] : هل هناك دليل أخلاقي غير الكتب المقدّسة؟

سألتموني ما إذا كنت أرى أي بديل عن الكتاب المقدس يصلح أن يكون دليلاً أخلاقياً؟ أنا أعرف أنّ العديد من الناس يعتبرون الكتاب المقدس على أنّه الدليل الأخلاقي الوحيد، ويؤمنون أنّ هذا الكتاب لايحتوي سوى الحقيقة المطلقة والمعيار الأقصى للأخلاق. هناك العديد من الأمثلة والأوجه الحسنة، العديد من الأقوال الحكيمة والعديد من التعاليم والتشريعات والقوانين الصالحة في الكتاب المقدس، وهي مختلطة مع النصائح الرديئة، والأقوال الحمقاء، والقواعد السخيفة والقوانين الجائرة والقاسية. لكننا علينا أن نتذكّر أنّ الكتاب المقدس عبارة عن مجموعة من عدّة كتب مكتوبة على مدى قرون عديدة متباعدة، وأنّه يمثل جزيئاً عملية نموّ شعب ويخبرنا تاريخ تطوّره بشكل جزئي أيضاً. علينا أن نتذكّر ايضاً أنّ الكتّاب تعاملوا مع الكثير مع المواضيع وعالجوا العديد من القضايا. أغلب هؤلاء الكتّاب لم يكن لديهم شيء ليقولوه عن الخطأ والصواب، عن الرذيلة والفضيلة. كتاب التكوين لا يحتوي كلمة عن الأخلاق. ليس هناك سطر واحد فيه يحتسب بأنّه يسلّط بعض الضوء على أنماط السلوك وسبل التصرّف. لايمكن لأحد أن يسمّي ذلك الكتاب على أنّه كتاب عن الأخلاق. أو أنّه دليل أخلاقي. إنّه كتاب مكوّن أساساً من أساطير ومعجزات، من خرافات وروايات فلكلورية. في سفر الخروج لدينا قصّة أخلاقية حول الطريقة التي خلّص فيها يهوه اليهود من عبوديّتهم للمصريين. نحن نعرف الآن أنّ اليهود لم يسبق أن كانوا عبيداً للمصريين، وأنّ القصّة بكاملها مجرّد خيال، وبعيدة كل البعد

عن الحقيقة. نحن نعلم ذلك حق العلم، لأنّه لاتوجد في الكتابات العبرية كلمة واحدة عن أصل المصريين، ولاتوجد في اللغة المصرية كلمة واحدة عن أصل العبرانيين. وفي ظلّ هذه الحقيقة، إنّنا نعرف أنّ العبرانيين والمصريين لم يعيشوا مع بعضهم أو بين بعضهم البعض لمئات السنين. بالتأكيد لم يُكتَب كتاب الخروج لتلقين أخلاق ومبادئ أخلاقية. في ذلك الكتاب لاتستطيع العثور على كلمة واحدة ضدّ العبودية الإنسانية. في حقيقة الواقع، كان يهوه من أنصار مؤسّسة العبودية. إبادة المواشي بالأمراض والبرد، قتل المواليد البكر، لذا في كل بيت مصري كان يقطن الموت، لأنّ الفرعون رفض إطلاق المصريين، قطعاً لم يكن ذلك أخلاقياً، بل كان شريراً. اعتبر مؤلّفو ذلك الكتاب جميع أهالي مصر، وأولادهم، وقطعانهم ومواشيهم، على أنّهم ملك لفرعون، وهؤلاء الناس وتلك المواشي تمّ قتلهم وإبادتهم عن بكرة أبيهم، ليس لأنّهم ارتكبوا خطيئة أو اقترفوا ذنباً فادحاً، بل بغرض معاقبة الفرعون. هل يمكننا استخلاص أي عبر أو دروس أخلاقية من هذا التاريخ وهذه الروايات؟ كافة التعاليم والتشريعات الموجودة في سفر الخروج، ومن بينها الوصايا العشر، بقدر ماهي صالحة ومعقولة، كانت في تلك الأزمنة سارية ومنتشرة بين جميع شعوب العالم. كان القتل، ومازال، ولطالما كان كذلك، جريمة، وسيظلّ هكذا دوماً، طالما أنّ أغلبية البشر يرفضون أن يُقتَلوا. لطالما كانت الصناعة، وستظلّ دوماً، عدوّ السرقة اللدود. إنّ طبيعة الإنسان تفترض أنّه يحترم الصادق ويمقت الكاذب. بين جميع القبائل، وبين جميع الشعوب، لطالما جرى اعتبار الصدق وقول الحقيقة فضيلة، واعتبار القسم الكاذب والكذب رذيلة. إنّ محبّة الوالدين لأولادهما أمر طبيعي جداً، وهذا الحب موجود بين جميع الحيوانات أيضاً. لذا فحبّ الأطفال لوالديهم وبرّهم هو أمر طبيعي أيضاً، ولم يؤسّس، ولا يمكن أن يؤسّس حتى، عن طريق التشريعات

والقوانين. فالحب لاينبع من الحس بالواجب، ولا يمكن أن ينحني طواعية أمام القواعد والأوامر. الفضيلة لا تطبع البشر من خلال الكتب المقدسة والمذاهب. جميع الوصايا العشرة الخيّرة والصالحة هي مجرّد تعاليم قديمة، وانبثقت نتيجة تراكم الخبرة البشرية. أمّا الوصايا المرتبطة مع يهوه فهي غبية وسخيفة. إنّ عبادة "أي إله آخر" كانت يمكن أن تكون أسوأ من عبادة يهوه، وليس هناك شيء آخر أكثر سخافة وعبثية من-قدسية يوم السبت/ الشابات. لو أنّ الوصايا كانت موجّهة ضدّ العبودية والتعدّدية الزوجية، ضدّ الحرب والغزو والإبادة، ضدّ الاضطهاد والتعسّف الدينيين في جميع أشكالها، ليصبح العالم حرّاً، ليفسح المجال أمام الدماغ لكي يتطوّر وللقلب لكي يتمدّن، عندها فقط يمكننا أن نسمّي تلك الوصايا بالدليل الأخلاقي المناسب. قبل أن نقول عن قناعة بأنّ الوصايا العشر تتضمّن دليلاً أخلاقياً، علينا أولاً أن نضيف إليها ونطرح منها. علينا أن نتخلّص من بعضها، وأن نعيد كتابة أخرى بدلاً عنها. معظم القيود والوصايا والتعاليم الموجودة في سفر الخروج، اللاويين، العدد، والتثنية، جيدة وصالحة. لكنّ أغلبها سخيفة وغير منطقية وجائرة. طقوس العبادة بكاملها جنونية وغير عقلانية. معظم العقوبات لخرق القوانين وانتهاكها جائرة وغير مبرّرة على الإطلاق... الحقيقة هي أنّ التوراه تؤيّد جميع أنواع الجرائم، والقول أنّها دليل أخلاقي صالح هو قول سخيف وعبثي ويشبه تماماً القول بأنّها تعاليم رحيمة وحقيقية. ليس هناك أي شيء ذو طبيعة أخلاقية في كتاب يوشع أو القضاة. هذين الكتابين مليئين بالجرائم، والمذابح والقتل. إنّهما يشبهان إلى حدٍ بعيد التاريخ الحقيقي لقبائل الأباتشي الهندية. قصّة روث ليست قصّة أخلاقية على الإطلاق. في كتاب صموئيل الأول والثاني لا توجد كلمة واحدة يمكن اعتبارها أن تحفّز على تطوّر ورفع مستوى الوعي. قتل يهوه سبعين ألف

يهودي لأنّ داؤود أحصى الشعب. فداؤود، حسب الرواية، كان هو المذنب، لكنّ يهوه لم يقتل سوى الأبرياء. في كتابي الملوك الأول والثاني لانجد أي شيء ذو قيمة أخلاقية. جميع الملوك الذين رفضوا طاعة الرهبان ورجال الدين تمّ لعنهم، وجميع الملوك الملعونين المتوّجين الذين ساعدوا رجال الدين قد أعلنوا أنّهم أحباب يهوه والمفضّلون لديه. لانجد في هذين الكتابين كلمة واحدة تمجّد الحرية. هناك بعض المزامير الصالحة والجيدة، وهناك معظمها سيئ السمعة. معظم هذه المزامير أنانية. ومعظمها الآخر نداء توّاق للانتقام والثأر. قصّة يعقوب تهزّ فؤاد كل إنسان صالح ومحب. في هذا الكتاب نلمس نوعاً من الشعر، من التأسّي، وقليلاً من الفلسفة، لكنّ القصة التي تروي هذه الدراما التي اسمها يعقوب، خالية من أي عاطفة تماماً. لقد قتل أبناء يعقوب لأجل رهان بين الله والشيطان. بعدئذٍ، ظلّ يعقوب مصرّاً، وأنجب أولاداً آخرين غير الأولاد الذين قتلوا. أمّا الأولاد الذين قتلوا فقد قتلوا عبثاً ومن دون جدوى. كتاب إستير هو كتاب سخيف وسطحي بشكلٍ مطلق، والخاصية المميّزة الوحيدة في هذا الكتاب هي أنّ اسم يهوه غير مذكور. أنا شخصياً أحبّ أنشودة سليمان لأنّها تتناول الحب الإنساني، وهي شيء أستطيع فهمه. هذا الكتاب باعتقادي أفضل من جميع الكتب التي سبقته، ويصلح أفضل منها جميعها أن يكون دليلاً أخلاقياً. هناك بعض الأمثال الحكيمة والرحيمة. وهناك أخرى أنانية، وأخرى سطحية وممجوجة. أحب كتاب الجامعة فهو يتضمّن بعض المنطق، وبعض الشعر، وبعض الفلسفة. انزع عنه جميع التفسيرات والتأويلات وسترى أنّه كتاب جيد. طبعاً ليس هناك شيء جيد أو صالح في كتاب نحمياً أو عزرا ليجعل من الإنسان إنساناً أفضل، ولايوجد شيء في إرميا أو مراثي الأيام يمكن اعتباره أي شيء آخر غير الرذيلة. باستثناء بضعة مقاطع في إشعياء يمكن استخدام لأغراض صالحة

وخيرة. أمّا في كتابيّ حزقيال ودانيال فلا نجد سوى شطحات الجنون. يمكنك، من خلال انتقاء آيات ومقاطع مختلفة من أسفار مختلفة، أن تقيم مذهباً جيداً... ومن خلال انتقاء آيات ومقاطع معينة من آيات مختلفة وجمعها مع بعضها، بإمكانك إقامة مذهب شرير ودنيء. المشكلة هي أنّ جوهر العهد القديم، ترتيبه، والمزاج العام فيه، رديء وأناني وسيئ. أسوأ الأمور موجودة فيه، أمر بها إله العهد القديم وجرت إطاعتها والالتزام بها. القصص التي تروي لنا حكاية يوسف، أليشع، دانيال وجيديون، والعديد من القصص الأخرى، مريعة، جهنمية. بشكل عام، لا يمكن اعتبار العهد القديم دليلاً أخلاقياً صالحاً. يهوه لم يكن إلهاً أخلاقياً. بل ارتكب جميع الفظائع والرذائل. طبّق جميع تهديداته حرفياً، لكنّه لم يفي بأي وعدٍ قطعه قط. في نفس الوقت، علينا أن نتذكّر أنّ العهد القديم هو نتاج طبيعي، وأنّه مكتوبٌ بيد برابرة بدائيين كانوا يزحفون ببطء نحو النور. علينا أن نمنحهم الفضل من أجل الأشياء النبيلة التي قالوها، وعلينا أن نكون متسامحين للغاية لكي نصفح لهم عن الأخطاء التي وقعوا بها والجرائم التي ارتكبوها. أنا أعلم أنّ العديد يعتبرون العهد القديم كأساس والعهد الجديد كبنية فوقية، وفي حين أنّ العديد يعترفون أنّ هناك أخطاء وأغاليط في العهد القديم، فإنّهم يصرّون أنّ العهد الجديد الزهرة والثمرة المثالية الناضجة. أعترف أنّ هناك الكثير من الأمور الجيدة في العهد الجديد، وإذا أخذنا من ذلك الكتاب العقائد الخبيثة كالعذاب الأبدي، الانتقام الإلهي، الكفارة، التضحية البشرية، ضرورة إراقة الدم، وإذا ألقينا جانبا أموراً هامةً كالسلام والتسامح، ومحبّة الأعداء، وفكرة أنّ الازدهار هو نتيجة الضعف والوداعة، وأنّ الفقر هو الطريق إلى الفردوس، إذا رمينا بجميع هذه الأمور جانباً وأخذنا المقاطع والآيات الجيدة والمعقولة، والقابلة للتطبيق الصالح، عندها نكون قد وضعنا أيدينا على دليل أخلاقي

جيد وصالح... دليل قد يكون ضيّقاً ومحدوداً، لكنه أخلاقي في النهاية. طبعاً هناك الكثير من الأمور والعقائد المحورية والهامة ستبقى خارجاً. لن يكون لدينا مفهوم حقوق الإنسان، لا شيء عن أولوية العائلة، لاشيء عن ضرورة التربية والتعليم، لاشيء عن البحث، عن الفكر والعقل، لكن سيظل لدينا دليل أخلاقي كافٍ إلى حدٍ ما. من ناحيةٍ أخرى، إذا أخذت المقاطع والآيات السخيفة والحمقاء، الآيات المتطرّفة، يمكنك إقامة مذهب صالح لمستشفى المجانين. إذا أخذت الآيات الوحشية والقاسية، المقاطع التي تتحدّث عن الكره الأبدي، الآيات التي تفحّ كالأفاعي والثعابين، يمكنك عندئذٍ إقامة مذهب سيهتزّ له قلب الضبع. قد لايكون هناك كتاب يتضمّن آيات ومقاطع أفضل من الكتاب المقدس، لكن قطعاً ليس هناك كتاب يتضمّن أسوأ منها. تحت زهرة الحب تجد شوكة الكراهية، على الشفاه التي تزرع قبلات، تجد سم أفعى الكوبرا. الكتاب المقدس ليس دليلاً أخلاقياً. أي إنسان يعتنق تعاليمه عن قناعة وإيمان سيغدو عدوّ المجتمع، وسينتهي به المطاف في النهاية في زنزانة أو مصح عقلي. ما الأخلاق؟ نحن بحاجة للعديد من الأشياء والأمور في هذا العالم. نحن لدينا الكثير من الرغبات. كما أنّنا معرّضون للعديد من المخاطر والتهديدات. نحن بحاجة للغذاء، للوقود، للملبس والمأوى، وإضافةً إلى جميع هذه الحاجات، هناك _كما يحلو للبعض تسميته_ جوع العقل. نحن كائنات متكيّفة، وسعادتنا تقوم على الظروف. هناك أشياء معيّنة تحطّ من مستوى، وأشياء معيّنة أخرى تزيد وتحسّن مستوى الحياة. هناك أمور معيّنة تهدّم وتقوّض وأمور أخرى تحفظ وتصون. السعادة، وبأنقى أشكالها، هي في النهاية الغاية القصوى والخير الأقصى، وكل شيء من شأنه أن يحافظ على السعادة أو يصونها أو يزيدها، هو أمر جيد وصالح، أي أنّه _بمعنى آخر_ أخلاقي. هناك أمور معيّنة تهدّم وتدمّر

مستوى الحياة، فهي سيئة وشريرة، أي أنّها لاأخلاقية. بمعنى آخر، جميع الأمور الجيّدة والخيرة أخلاقية، وجميع الأمور السيّئة والشريرة لاأخلاقية. إذن، ما الذي يمكن أن نطلق عليه تسمية: دليل أخلاقي؟ أفضل جواب مختصر يمكن تقديمه يتلخّص في كلمة واحدة: الذكاء. نحن بحاجة لخبرة البشرية، للتاريخ الحقيقي للعرق البشري. نحن بحاجة لتاريخ التطور الفكري، لتاريخ الارتقاء الأخلاقي، لتاريخ تطوّر فكرة العدالة، للوعي، للإحسان، لنكران الذات. نحن بحاجة لمعرفة الطرق والسبل التي سافر فيها الجنس البشري منذ بداية ظهوره. هذه الحقائق على العموم، هذه التواريخ في النهاية، ستكون أفضل دليل أخلاقي مقنع إذا استنبطنا النتائج منها، وصغنا نتائجنا بأنفسنا، ثمّ حوّلناها إلى مبادئ عامّة وطبّقناها بشكل نزيه وصريح. لايمكننا الاعتماد على يطلق عليها المؤمنون اسم "كتب مقدّسة موحاة"، أو أديان العالم. هذه الديانات قائمة على الغيب والماوراء، وحسبما جاء فيها فإنّنا ملزمون بعبادة كائن غيبي ماورائي خيالي وطاعته. جميع هذه الديانات غير متناسبة مع الحرية الفكرية. إنّها عدوّة الفكر، عدوّة البحث، عدوّة النزاهة الفكرية. إنّها تدمّر إنسانية الإنسان. كما أنّها تعد بالجوائز الأبدية على الإيمان الأعمى، السذاجة، على التصديق السطحي. وهذا ليس سخيفاً فقط، إنّها غير أخلاقي أيضاً. هذه الأديان تعلّمنا قيم العبيد. إنّها تجعل من الأشياء الجامدة "مقدّسة"، وتؤّله المزيّف وغير الحقيقي. إنّها تخلق جرائم شنيعة. تناول اللحم في يوم الجمعة، الاستمتاع يوم الأحد، تناول الطعام في أيام الصوم، السعادة في يوم الصوم الكبير، مجادلة كاهن أو رجل دين، المطالبة بالدليل، إنكار مذهب معين، التعبير عن رأيك، جميع هذه الأمور هي خطايا كبرى، ذنوب وآثام بحقّ بعض الآلهة، أن تعطي رأيك الصريح حول يهوه أو المسيح أو محمد هي جريمة أسوأ بكثير من الإساءة لجارك وإلحاق الأذى به.

التشكيك بالمعجزات خطيئة أسوأ بكثير من إنكار حقائق معلومة. فقط المطيع، السخيف، السطحي، والساجد، الوديع، المصدّق، المؤمن الحقيقي، هؤلاء فقط يعتبرون أخلاقيين، وفضلاء. لايكفي أن تكون نزيهاً، كريماً ومفيداً، لايكفي أن تكون متمسّكاً بالدليل، بالحقائق. إضافةً إلى ذلك، عليك أن تؤمن إيماناً أعمى. هذه الأمور هي عدوّ الأخلاق. إنّها تقلب وتشوّه جميع مفاهيم الفضيلة. جميع "الكتب المقدّسة الموحاة" تعلّم أنّ ما يأمر به الغيب هو الصحيح، وهو صحيح لأنّ الغيب أمر بذلك، وأنّ ما يحرّمه الغيب فهو خاطئ، وهو خاطئ لأنّ الغيب قد حرّمه، وكل هذا سخيف وغير منطقي إطلاقاً. وجميع "الكتب المقدّسة" تعلّم أنّ فقط هؤلاء الذين يطيعون أوامر الغيب هم فقط، أو يمكن أن يكونوا، فضلاء حقيقيون، وأنّ الإيمان الأعمى سيُقابل بمكافأة أبدية، وهذه بدورها تعاليم غير أخلاقية. مرّةً أخرى أقول: الذكاء والفكر هما الدليل الأخلاقي الوحيد لدينا.

الشيطان

روبرت إنغرسول

[1] إذا كان لِزاماً على الشيطان أن يموت، هل سيخلق الله شيطاناً آخر؟

[2] منذ فترة قصيرة ألقيتُ محاضرة بعنوان "الخرافة"، قلتُ فيها _من بين أمور أخرى_ أنّ العالم المسيحي لايمكنه إنكار وجود الشيطان. إنّ الشيطان كان ولايزال فعلاً حجر الزاوية للمذبح في المعبد، كما أنّ التخلّص منه وتحييده من شأنه أن يقوّض النظام العقائدي بأكمله.

[3] هناك الكثير من رجال الذين اعترضوا على كلامي هذا وانتقدوه، حتى أعلن بعض هؤلاء عن إيمانه الواضح بوجود سيد الشر الشيطان، بينما أنكر آخرون وجوده الفعلي. ولكن البعض، وبدون أن يكشفوا عن مواقفهم الخاصة، قالوا أنّ آخرون آمنوا _ليس بوجود شيطان بالمعنى الشخصي الضيق، بل بتجسيد للشر، وبأنّ كل الإشارات الواردة ضمن الكتاب المقدس يمكن تفسيرها على أساس فرضية أنّ الشيطان مجرّد تلميح على تجسيد فكرة الشر. وعندما قرأتُ هذه الإجابات، خطر ببالي هذا السطر من قصيدة لهاينز هاينه، «ركب المسيح على ظهر حمار، ولكن الحمير الآن يركبون على ظهر المسيح».

[4] والآن، الأسئلة التي تطرح نفسها هي كالتالي: أولاً: ما إذا كان الشيطان موجودٌ فعلاً، وثانياً: ما إذا كانت الكتب المقدّسة تبشّر بوجود الشياطين والأرواح الشريرة والملعونة، وثالثاً: ما إذا كان هذا الاعتقاد بوجود الشياطين يعتبر جزء أساسي لما يُعرَف بالمسيحية الأرثوذكسية.

[5] والآن من أين جاءت فكرة وجود الشيطان؟ ومن أين نتجت؟

[6] الخوف فنّانٌ رائع _نحّاتٌ بارع_ ورسّامٌ ماهر. جميع القبائل والأمم قد عانت من مختلف الظواهر، فكانت عُرضَةً وفريسةً للظواهر الطبيعية، فقد ضَرَبتها البروق والرعود، وسمّمتها الأعشاب الضارّة، وأغرقتها البراكين، وهدّمتها الزلازل، وجميع شعوبها تؤمن بوجود الشيطان، الذي كان ملكاً _حاكماً مطلقاً_ لثلّة من الشياطين أو العفاريت الأصغر التي لا حَصر لها، وكانت هذه الشياطين منذ زمنٍ بعيدٍ تعتبر أعداء للإنسان.

[7] على ضفاف نهر الغانج، كانت ترتع الأرواح الشريرة "الأزورا"، وكان عملها الوحيد شَنّ الحروب على الديفا _الآلهة_ وعلى أبناء البشر أنفسهم في نفس الوقت. وهنالك كانت أيضاً الغيلان، والجَكَش، والكثير من المخلوقات الشيطانية التي تقتل البشر وتأكلهم.

[8] لكنّ الفرس قلبوا كل ذلك رأساً على عَقِب، فقد اعتقدوا أنّ الأزورا كائنات خيّرة والديفا كائنات شريرة. وكان أهورامزدا إله الخير _الإله الأكبر_ وأهريمن كان إله الشر _الشيطان_ وبين هذا وذاك كانت حرب أزلية ضروس. وقد ظَنّ بعض الفرس أنّ الشر سوف ينتصر في النهاية، في حين أصَرّ آخرون على أنّ الخير هو المنتصر في النهاية.

[9] في مصر الفرعونية، كان الشيطان سيت _أو تايفون كما يُدعى عادةً_ ويقابله الإله أوزيريس إله الخير. وقد تحارب سيت وجحافله مع أوزيريس ومن خلفه البشر منذ الأزل.

[10] بين الإغريق، كان هناك جبابرة هو أعداء الآلهة. وكانت آت هي الروح التي أغوتهم، وكانت تلك مصدر قوّتها في الوقت الذي أغوت في وضَلّلت الآلهة

وزعيمها أيضاً، زيوس نفسه. إلا انّ هذه الأفكار والمعتقدات بشأن الشياطين والآلهة قد تغيّرت، لأنّه في أيام سقراط لم يكن الشيطان شيطاناً بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، بل ملاكٌ حارسٌ.

[11] أمّا نحن فقد حصلنا على شيطاننا من الديانة اليهودية، واليهود بدورهم حصلوا عليه من بابل. لقد أسّس اليهود علم الشياطين، وكانوا يعتقدون في وقتٍ من الأوقات بوجود تسعة أنواع من الشياطين: بعلزبول، أمير الآلهة المزيفة عند الأمم الأخرى أو الأغيار. وأبولّلو، أمير الكذب والكذّابين. وبلعال، أمير الأذى والضرر والشياطين المؤذية. وأزموديوس، أمير شياطين الانتقام وعفاريت الثأر. والشيطان، أمير السَحَرَة والمشعوذين، ومميريسين، أمير شياطين الجوّ والهواء، الذين يتحكّمون بالعواصف والأعاصير والأوبئة. وأبادّون، الذي يشعل الحروب والاضطرابات والحرائق. وديابولوس، الذي يؤدّي إلى اليأس. ومامون، أمير الكذب والمغريات.

[12] كان يُعتَقَد قديماً أنّ الشيطين والسحرة كانوا يعقدون اجتماعات في كثيرٍ من الأحيان، وكانوا يقيمون فيما بينهم ما يسمّى بحفلات العَربدة، بلغة الحاضر. وكان معروفاً أيضاً أنّ السحرة والساحرات كانوا يحملون علامات على أجسامهم خَتَمَهم بها الشيطان نفسه. طبعاً هذه الشياطين قد خلقها البشر أنفسهم، ففيها تجد جميع عُقَد صانعيها وتحيّزاتهم. إذ يمثّل الأوروبيون دوماً شياطينهم باللون الأسود، بينما يعتقد الأفارقة أنّ لونهم أبيض.

[13] لذلك، كان يُعتقد أنّ الناس يمكنهم أن يتحوّلوا ويتّخذوا لأنفسهم أي شكلٍ يرغبون به بمساعدة الشيطان، وقد تحوّل السحرة والمشعوذون إلى كلابٍ وقطط وذئابٍ وثعابين، وكان التغيّر إلى أحد أشكال الحيوانات أمرٌ شايعٌ جداً.

[14] وفي غضون عامين، بين عامي 1598 و1600، وضمن منطقة واحدة في فرنسا، وبالتحديد في مقاطعة جورا، تمّت محاكمة أكثر من ستمائة رجل وامرأة، وأدينوا أمام القاضي بتهمة تحوّهم إلى ذئاب، وتمّ إعدامهم جميعاً. وهذه ليست حالة وحيدة، بل هناك آلاف الحالات.

[15] لايوجد هنا متّسع لسرد تاريخ هذا الاعتقاد بوجود الشياطين، فقد كان اعتقاداً عالمياً موجوداً في كل مكان، وكانت نتائجة رهيبةً تفوق الخيال. فقد تمّت التضحية بملايين وملايين الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، من آباء وأمّهات، على مذبح هذا المعتقد السطحي والساذج.

[16] طبعاً، لايؤمن مسيحيو اليوم بأنّ شياطين الهندوس أو المصريين أو الفرس أو البابليين كانت موجودةً فعلاً. إنهم يعتقدون أنّ تلك الأمم قد خلقت شياطين خاصة بها، كما فعلت مع آلهتها تماماً. لكنّ المسيحيون في يومنا هذا يعترفون أنّ أجدادهم المسيحيين ولقرون طويلة كانوا يؤمنون بوجود شياطين لاتُعَد ولاتُحصى. كما أنّ آباء الكنيسة آمنوا بإخلاص وقناعة بالشيطان الرئيس وزبانيته من العفاريت كما أنّ للرب ملائكته، لقد كانوا متيقنين من وجود الجحيم كما يؤمنون بوجود الجنة.

[17] أقرُّ وأعترف أنّ الناس قد بذلوا قصارى جهدهم لمراعاة ما رأوه وما عايشوه. أعترفُ أنذ الشياطين وكذلك الآلهة تمّ إنتاجها بشكل طبيعي _تحت تأثير الطبيعة على الدماغ البشري. فأسباب الظواهر ملأت أفئدة ونفوس أسلافنا ليس بالعجب فقط، بل بالخوف والرهبة. إنّ ال معجزة الخارقة للطبيعة لم يقتصر الأمر على الإيمان بها فحسب، بل كانت مُتَوَقّعة أيضاً.

[18] رجلٌ كان يمشي في الغابة ليلاً _لاشيء من حوله سوى ضوء القمر_ وكل شيء غريبٌ عنه وغير مأمونٍ ومظلم... يلمَح شيئاً غريباً ووحشياً. يرفع هذا الرجل

إحدى ذراعيه، إنه يشعر بقشعريرة خوفٍ تسري في أوصاله، يقشعرٌّ بدنه ويتوقف شعرُ رأسه تحت تأثير الخوف. وفي الظلام المُدلَهِمّ حول تتراءى له عينا غول _عينان تلتهبان شراسةً وخُبثاً. إنه يشعر بهذا الشيء يقترب منه. يستدير على أعقابه، ويفرّ صارخاً مستنجداً. وهو خائفٌ من النظر إلى الوراء. ثمّ يصل إلى كوخه بعد عَدوٍ طويل، مرتجعاً، هالِعاً، خائِفاً، ويسقط أمام الباب. وعندما يستعيد وعيه، يروي ماحدث معه الليلة الفائتة لعائلته، ومن هنا يؤمن الأطفال بوجود ذلك الغول. وحينما يكبرون، يروون قصة ماحدث مع أبيهم لأطفالهم، وبالتالي يصبح الأولاد والأحفاد لايؤمنون فحسب، بل يعتقدون أنهم يعلمون علم اليقين، أنّ والدهم _جدّهم، قد رأى شيطاناً في الغابة.

[19] امرأة عجوز ترقد قرب النار ليلاً _عاصفة هوجاء تعصف في الخارج _ تستمع لنواح الريح الحزين.. بالنسبة لها يتحوّل هدير الريح غلى صوت يكالمها. تتّقد مخيّلتها، ويبدو لها الصوت وكأنه ينطق بكلمات، ومن هذه الكلمات التي توهّمتها تنسج رسالة من العالم الآخر أو نبوءة من عالم الغيب. فإذا كانت الكلمات جيدة، تكون قد سمعت ملاكاً، وإذا كانت الكلمات سيئة وشريرة ومُنذِرَة تكون قد سمعت شيطاناً. ثم تروي لأطفالها ماسمعته، وهم بدورهم يؤمنون بذلك. يقولون أنّ عقيدة الأم جيدة وراسخة بما فيه الكفاية بالنسبة لهم. فتاة تعاني من هستيريا تقع في غيبوبة _ترى رؤىً من عالم ماوراء جهنم. يرشّ الكاهن الماء المقدس على وجهها الشاحب، ويقول: "هذا شيطان". رجلٌ يصرخ صرخةً رهيبة، ثم يسقط على وجهه فوق الأرض، الدماء والرغوة تنضحان من فمه، وتصاب أطرافه بالشلل، يقول المتفرّجون عليه: "هذا من عمل الشيطان".

[20] على مرّ جميع العصور، أخطأ الناس في أحلامهم ورؤاهم وخلطوا بينها وبين الواقع. بالنسبة لهم، كان المجنون شخصاً موحى إليه، أما مرضى الصرع فكانت تتلبّسهم الشياطين، والسكتات الدماغية كانت تسبّبها أرواح نجسة شريرة. وطوال قرون عديدة، اعتقد الناس أنّهم رأوا الأرواح الشريرة في الليل، ومن هنا تولّد لديهم هذا الاعتقاد _اعتقاد متين وراسخ_ لدرجة أنهم صاغوا صوراً لها. كانوا يعرفون تماماً كيف تبدو. لقد رسموا لها أشواكاً وحوافر وأبواقاً وقرون _جميع العاهات والتشوهات الغريبة والخبيثة.

[21] والآن أقرّ وأعترف أنّ جميع تلك الوحوش والمخلوقات ماهي إلا نتاج طبيعي. اعتقد الناس أنّ الجحيم كان موطنها الأصلي، وأنّ الشيطان ملكها أو أميرها، وأنّ أمير الكاذيب وأشقّاؤه قد شنّوا حرباً على أبناء البشر. من الغريب أنّ هذه الشياطين كانت آلهة ساقطة سابقاً، وبطبيعة الحال، جاءت العديد من الشياطين والعفاريت من آلهة سابقة عند أمم سالفة. حيث أنّ آلهة شعبٍ ساقطٍ قد تحوّلت إلى شياطين لدى الشعوب اللاحقة.

[22] في الطبيعة هناك قوى متضاربة دوماً، بعض هذه القوى تعمل لما فيه خيرٌ للإنسان، وبعضها الآخر يعمل لما فيه شرٌ له. وقد أضفى أسلافنا على هذه القوى الإرادة، والذكاء، والتصميم. لم يصدّقوا أنّ الخير والشرّ يصدران عن نفس الكائن. لذا أرجعوا الخير إلى الله، والشر إلى ملك جميع الشرور: الشيطان.

[23] الشيطان هو أطلس الذي يسند العقيدة المسيحية على أكتافه.

[24] إنّ الديانة التي تُعرَف اليوم باسم "المسيحية" قد اخترعها الله لإصلاح جزء من الحطّام والخراب الذي تسبب به الشيطان. أنزع فكرة الشيطان من المخطّط الإلهي للخلاص _من التكفير_ من عقيد الألم الأبدي_ وسيقوّض الأساس الذي

يقوم عليه المذهب بكامله. لذلك فالشيطان هو حجر الزاوية الذي يقوم عليه المذهب بكامل ثقله. لقد تسبّب الشيطان بالندوب والجروح التي جاء المسيح من أجل شفاءها. لقد أفسد الجنس البشري بأكمله. والسؤال الأهم هو: هل يبشّر العهد القديم بوجود الشيطان؟ إذا كان العهد القديم يعلّمنا شيء، فإنه يعلمنا مذهب وجود الشيطان، الوحش، الثعبان، عدوّ الإنسان الأول والأخير، خادع الرجال والنساء.

[25] هؤلاء الذين يؤمنون بالكتاب المقدس مضطرون للقول أنّ هذا الشيطان مخلوق من قبل الله، وأنّ الله كان يعرف مسبقاً ما الذي سيقدم على فعله هذا الشيطان _المقياس الدقيق لنجاحه، كان يعرف تماماً أنه سيكون ندّاً ناجحاً، كان يعرف أنه سيخدع بني البشر ويضلّلهم، وكان يعرف أنه، بسببه، إنّ أعداء لا حصر لهم من البشر سيعانون من العذاب الأبدي في الجحيم. وكان هذا الإله يعرف مسبقاً أنه عندما خلق الشيطان، فإنه _أي الله_ سيضطرّ إلى ترك عرشه، ليولد طفلاً رضيعاً في فلسطين من فتاة عذراء، ويعاني موتاً قاسياً. كل هذا كان يعرفه مسبقاً قبل أن يخلقه، فلماذا خلقه إذن؟

[26] ليست هناك إجابة في القول بأنّ هذا الشيطان كان ذات يوم ملاكاً من نور ثم عصى الله وسقط من عليائه لأنه كان يمتلك حرية الارادة . كان الله يعرف مسبقاً ما الذي كان ينوي هذا الملاك الساقط فعله بحريته عندما خلقه واعطاه حرية التصرف ' في الواقع لابد انه جعله يعتزم التمرد ، أن يسقط عن قصد ، أن يصبح شيطاناً ، انه ينبغي ان يفسد الاب والام من ابناء الجنس البشري ، وانه ينبغي ان يجعل من الجحيم ضرورة ، وانه نتيجة لخلقته ، فإن ملايين لاتحصى من ابناء البشر سيعانون

من عذاب الجحيم الابدي . اذن لماذا خلقه ؟ أعترف ان الله مطلق الحكمة ، هل لديه البراعة الكافية لاختلاق تبرير لخلقه للشيطان ؟

[27] هل يبشر العهد القديم بوجود شيطان حقيقي وفعلي؟ تم العثور على اول قصة لهذا المخلوق في سفر التكوين ، وهو يسمى في هذه القصة بالوحش او الثعبان . قد اعلن انه كان اكثر براعة من اي وحش في هذا المجال فوفقاً للقصة ، أجرى هذا الثعبان حواراً مع حواء ، او امرأة لم يخبرنا العهد القديم لغة جرت المحادثة ، او كيف فهم كل منهما على الاخر ، حيث انها كانت المرة الاولى التي التقيا بها ، من اين جاءت حواء بلغتها ؟ ومن اين حصل الثعبان على لغته ؟ طبعاً هذه الاسئلة تعتبر وقحة ، لكنها في نفس الوقت طبيعية ومشروعة .

[28] كانت نتيجة هذه المحادثة ان اكلت حواء الثمرة المحرمة وشجعت ادم على تناولها ايضاً، وهذا بالضبط مايسمى بالسقوط ، ولهذا جرى طردهما من الجنة. ولهذا السبب ، لعن الرب الارض بالأعشاب الضارة والاشواك ، ولعن الرجل بالكدر والتعب ، وحكم على المرأة ان تكون عبدة له ، ولعنها بآلام المخاض والولادة ، كيف يمكن للبشر ــــ أيها البشر الطيبون ـــ ان يعجبوا هذا الاله ؟ كيف يمكن للمرأة ــــ أيتها المرأة الطيبة ـــ ان تحب هذا الرب الذي اسمه يهوه ، هذا أمر لايمكنني تصوره .

[29] بالإضافة الى اللعنات الاخرى لعن الرب الثعبان ـــ وحكم عليه بالزحف على بطنه الى الابد واكل الاوساخ والغبار . ونحن لانعلم بأي وسيلة ، قبل ذلك الوقت كان ينتقل هذا الثعبان ، سواء مشياً او طيراناً ، لانعرف ما الطعام الذي تناوله . كل مانعرفه انه بعد ذلك زحف على بطنه وعاش على الغبار والاوساخ ، لعنه يهوه وابتلاه بالقيام بلك طوال حياته ، يبدو من ذلك ان هذا الثعبان لم يكن في ذلك الوقت

خالداً ، اذا كان هناك في مكان ما في المستقبل نقطة تصل اليها نهاية حياة هذا الثعبان . أما ما اذا كان ما يزال حياً ام لا ، فهذا أمر لا يسعني معرفته .

[30] لن يفيدنا في شيء القول بان هذا الكلام مجرد تعبير رمزي ، او انه كناية ، او مجرد قصيدة ، لان ذلك يثبت لنا الكثير . اذا لم يكن الثعبان موجوداً فعلاً ، كيف لنا ان نعرف ما اذا كان ادم وحواء موجودان فعلاً ؟وهل كل مايقال عن الله كنايات وتعابير رمزية او شاعرية اسطورية ؟ هل القصة برمتها ، بعج كل شيء ، مجرد حلم سطحي وجاهل ؟

[31] ولن ينفع بشيىء قولنا ان الشيطان _ الثعبان _ كان مجرد تجسيد لفكرة الشر ، هل بامكان تجسيد فكرة الشر ان يتكلم ؟ هل بمستطاع فكرة تجسيد الشر أن يزحف على بطنه ؟ هل يمكن لتجسيد فكرة الشر ان يستاف الغبار ؟ إذا قلنا ان الشيطان كان تجسيداً لفكرة الشر ، السنا مضطرين في الوقت نفسه الى القول بأن يهوه ذاته كان تجسيداً لفكرة الخير ؟ وان جنة عدن كان تجسيداً لفكرة عن مكان ما ، وان القصة برمتها تجسيد لشيء لم يحدث اساساً ؟ ربما لم يتم طرد ادم وحواء من الجنة ، ربما عاينا فقط تجسيد فكرة المنفى، وربما كان الكروبيم الذي وضع على بوابة عدن ، مع سيف مشتعل مجرد تجسيد لفكرة رجال الشرطة . لامفر . اذا كان العهد القديم صحيحاً ، فإن الشيطان موجود فعلاً ، ومن المستحيل تفسيره وحيداً دون تفسير الرب في الوقت نفسه .

[32] لذا هناك اشارات كثيرة الى الشياطين وارواح الشعوذة والسحر والشر التي لا املك الوقت الكافي للإشارة اليها لكننا نرى في كتاب ايوب محادثة بين الشيطان والله – هذا الشيطان يجلب مختلف انواع الآلام والمآسي ليلقيها على ايوب الرجل التقي الصبور، هذا الشيطان هو الذي يثير العواصف التي تهدم البيوت فوق رؤوس

أبناء أيوب. هذا الشيطان هو الذي يقتلهم. خُذ هذا الشيطان، واخرجه من سياق القصة، وسترى أنّ القصة تغدو بلامعنى. هل من الممكن القول أنّ الشيطان في قصة أيوب كام مجرّد تجسيد لفكرة الشر؟

[33] في أخبار الأيام، قيل أنّ الشيطان استفزّ داؤود ليحصي عدد سكان إسرائيل. ولم يترب الله الشيطان على هذا الفعل المشين، ولم يعاقب داؤود، ولكنه قتل 70000 من اليهود الأبرياء المساكين الذين لم يفعلوا شيئاً سوى الوقوف في أماكنهم وإحصائهم. هل كان هذا الشيطان الذي جرّب داؤود مجرّد تجسيد لفكرة الشر، أم كان يهوه نفسه تجسيداً لفكرة الشيطان؟ وفي سفر زكريا، قيل إنّ يشوع وقف أمام مَلاك الرب، وأنّ الشيطان وقف على يمينه لمقاومته، وأنّ الربّ وبّخ الشيطان. إذا كان لهذه الكلمات أي معنى، فإنّ العهد القديم يبشّر بوجود الشيطان!

[34] جميع المقاطع الواردة عن السحرة والمشعوذين وَمَن لديهم أرواحاً مماثلة نتجت عن إيمان مُسبّق بوجود الشيطان. وعندما أراد رجلٌ يحبٌّ يهوه الانتقام من أعداءه، خَرّ على ركبتيه المقدّستين، ودَعَا باكياً من قلبٍ خاشعٍ وصادق: "دَعْ الشيطان يكون يده اليمنى".

لماذا يرى الناس آلهة، أشباح، شياطين وملائكة

مايكل شيرمر وبات لاينز

العلم يفسّر لماذا يرى الناس آلهة، ملائكة، شياطين، وغرباء... ولماذا يطوفون، يحلّقون، يطيرون، ويمرّون بتجارب الخروج من الجسد.

منذ حوالي 500 عام كان عالمنا مليئاً بالشياطين، وقد طاردت الكوابيس ضحاياها وعذّبتهم خلال نومهم في الليالي الحالكة الظلمة. منذ حوالي 200 عام كانت أرواح الموتى تزور الناس خلال النوم، وترقد بجانب أسرّتهم. ومؤخّراً ظهرت كائنات خضراء ورمادية غريبة وأخذت تتحرّش بالبشر أثناء نومهم. ما الذي يحدث فعلاً؟ هل هؤلاء الزوّار الغرباء موجودون في عالمنا فعلاً أم أنّهم موجودون في عقولنا فقط؟ إنّهم في عقولنا. جميع هذه التجارب هي من إسقاطات الدماغ، الذي يتكوّن من حوالي مئة مليار عصبون ومئة تريليون مشبكٍ عصبي يربط بين هذه العصبونات. لا عجب أن يكون الدماغ قادر على صقل أفكار دقيقة ورفيعة كنموذج التطوّر وكوزمولوجيا الانفجار الكبير. لكنّه قادر أيضاً وتحت ظروف مختلفة في تنوّعها على توليد تجارب وأفكار مذهلة لكنّها ليست حقيقية بتاتاً.

1) العقاقير النفسية المنشّطة: إنّ قدرة العقاقير المهلوسة على توليد تجارب ماروائية خارقة للطبيعة قد تمّ توثيقها بدقّة. هناك مركّبات من الأتروبين وزهرة إكليل الجبل قد تولّد شعوراً بالطوفان والطيران، ويمكن إيجادها في حشيش اللّقّاح أو أعشاب جيمسون التي كانوا يستخدمونها مشعوذو أوروبا وشامانات أمريكا الأصليين، بغرض توليد هلوسات على الأرجح. العقاقير الفصامية كالكيتامين يُعرَف عنها أنّها تولّد شعوراً بالخروج من البدن. كما أنّ تعاطي ميثيلين دوكسي أمفيتامين

(MDA) قد يعيد استرجاع بعض الذكريات المنسية منذ أمدٍ بعيد ويولّد شعور العودة في الزمن إلى الوراء، في حين أنّ مركّب الدي ميثيل تريبتامين (DMT) _ويسمّى "بجزيء الروح"_ يسبّب انفصال العقل عن الجسد كما أنّه العنصر المُهَلوِس في عقار "آياهواسكا ayahuasca"، العقار الذي كان يتناوله شامانات جنوب أمريكا. الناس الذين تناولوا عقاراً يحتوي (DMT) نُقِل عنهم قولهم: "لم يعد لي جسد"، و"أشعر بأني أسقط"، "أطير"، أو "أرتفع في الهواء".

2) التأمّل: يقول عالم الأعصاب أندرو نيوبيرغ في كتابه: "لماذا يرفض الله الاختفاء والذهاب بعيداً" (2001)، أنّ عمليات مسح الدماغ التي أجريت على بوذيين ورهبان في حالة تأمّل وعلى راهبات فرانسيسكانيات خلال صلواتهنّ تشير إلى وجود نشاط طفيف في الفص الجداري العلوي الخلفي، المنطقة في الدماغ التي أطلق عليها الكُتّاب اسم منطقة جمعية التوجيه والإرشاد (Orientation Association Area AAO). وظيفة هذه المنطقة هي توجيه الجسم البشري وإرشاده ضمن حيّز المكان، والأشخاص الذين تضرّرت هذه المنطقة لديهم يواجهون صعوبة بالغة في تحريك أجسامهم وتوجيهها داخل منازلهم، حتى أنّهم يرتطمون ويصطدمون بالأشياء والأثاث لأنّ دماغهم لا يعالج الأشياء على أنّها أشياء منفصلة عن الجسد. وعندما يتمّ تحفيز هذه المنطقة واستثارتها بشدّة يصبح التمييز بين الذات والآخر [وغيرها من الأشياء والموجودات الأخرى في عالمنا] حاداً جداً. وعندما تكون المنطقة في حالة همود أو نوم _كما في حالة التأمّل العميق أو الصلاة_ ينكسر ذلك الحاجز الفاصل بين الذات والآخر، ممّا يؤدّي إلى تشويه وتشويش الفواصل والحدود الفاصلة بين الخيال والواقع، وبين الشعور بالجسد وبالخروج منه. على الأرجح هذا بالضبط من يحدث للكهنة والرهبان الذين يشعرون بالاتحاد مع الكون،

أو الراهبات اللواتي يشعرن بالحضرة الإلهية، أو مع الذين يشعرون بأنّه قد تمّ اختطافهم من قبل كائنات غريبة من الفضاء عندما يشعرون بأنّ أجسادهم تطوف محلّقة في الهواء ثمّ يتمّ نقلهم إلى المركبة الأم.

3) الأضرار الدّماغية: قام طبيب الأعصاب الشهير أوليفر ساكس _الذي يعرف بأشهر أعماله كتابه "الاستيقاظ Awakening" الذي يصف فيه حالات الشلل الدماغي لضحايا التهاب الدماغ والذي تحوّل إلى عمل سينمائي عام 1990 بعنوان Awakenings (تمثيل روبين وليامز بصفته الدكتور ساكس وروبرت دينيرو كأحد مرضاه)، _ بتأليف عدد من الكتب يصف فيها حالات هلوسة غريبة مرّ فيها مرضاه _مثال ذلك المريض الذي أخطأ بين زوجته والقبّعة_ والتي قال عنها الذين مرّوا بها أنّها تجارب خارجة عن الدّماغ، أي أنّها حدثت خارج أدمغتهم في العالم الواقعي. أحد مرضاه الكبار عانت من تنكّس بقعي macular degeneration وفقدت بصرها بالكامل وقد شخّص الدكتور ساسك مرضها بأنّها تعاني من متلازمة تشارلز بونيت بسبب هلوساتها البصرية المختلطة والمتداخلة، ومن ضمنها رؤيتها وجوهاً مشوّهة بأسنان وعيون غريبة. مريضة أخرى طوّرت ورماً في قشرتها الدماغية البصرية ثمّ بدأت برؤية هلاوس كرتونية _وبشكل خاص شخصية كورميت الضفدع_ شفّافة ولم تكن تغطّي سوى نصف مجالها البصري. في الواقع، يقول ساكس، أنّ حوالي 10٪ من الأشخاص الذين يعانون من ضعف البصر يمرّون بحالات هلوسة بصرية. تشير عمليات المسح المقطعي الدماغي لمرضى الهلاوس أنّ القشرة البصرية تكون مستثارة ومحفّزة أثناء هذه الهلاوس والصور البصرية الوهمية. وأثناء الهلاوس الهندسية نلاحظ أنّ القشرة البصرية الأساسية هي الجزء الأكثر نشاطاً من الدماغ _وهي المنطقة المسؤولة عن معالجة الأنماط والنماذج (وليس الصور) في الدماغ. أمّا الهلوسات التي

تتضمّن صوراً كالوجوه فهي ترتبط بحدوث نشاط أكبر بالمنطقة المغزلية في الفص الصدغي، والمسؤولة عن إدراك الوجوه والتعرّف عليها (الأشخاص الذين أصيبت هذه المنطقة لديهم بالأذى لا يستطيعون التعرّف على الوجوه، كما أنّ تحفيز هذه المنطقة واستثارتها تجعل المرء يرى وجوهاً).

4) حالات الغيبوبة: في كتابه الشهير "Proof of Heaven" يروي لنا الكاتب والبروفسور بجامعة هارفارد إيبن أليكساندر عن تجربة الاقتراب من الموت (NDE) التي مرّ بها خلال الغيبوبة التي أعبقت التهاب الدماغ الذي أصيب به حيث يقول أنّ صعد إلى السماء ودخلها. هل حدث ذلك فعلاً؟ ليس من المرّجح. أولاً، يزعم ألیکساندر أنّ "قشرته الدماغية كانت معطّلة بالكامل" وأنّ "تجربتي في الاقتراب من الموت... لم تحدث لي عندما كانت قشرتي الدماغية مقصّرة، بل عندما كانت معطّلة وواقفة عن العمل ببساطة". ومع ذلك نلاحظ أنّ الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها تذكّر تجربته هذه هي إذا كان دماغه يعمل. كما أنّ هناك سبب لتسمية هذا النوع من التجارب "بتجارب الاقتراب من الموت Near Death Experiment": والسبب هو أنّ الناس لا يكونون أمواتاً بشكل فعلي. إضافةً إلى أنّ الدكتور أوليفر ساكس يقول في كتابه الرائع «هلوسات Hallucinations» [2012] أنّ آلام الصداع النصفي تولّد هلوسات أيضاً، وقد عاني منها ساكس نفسه، ومن بينها "ضوء وامض" كان "لامعاً وبرّاقاً جداً": «توسّع، وأصبح قوساً هائلاً يمتدّ من الأرض إلى السماء، بحدود حادّة، متألّقة، ومتعرّجة من اللونين الأزرق والبرتقالي». قارن هذه تجربة الدكتور ساكس برحلة إيبن ألیکساندر إلى السماء، حيث وجد نفسه «في مكان من الغيوم. سُحُب كبيرة وردية وبيضاء منتفخة ظهرت بوضوح على خلفية السماء السوداء المزرقّة. وفوق ذلك السحاب، هناك أسراب من الكائنات

الشفّافة، البرّاقة التي ترقد على القوس عبر السماء، تاركةً خطوطاً طويلة شبيهة بالأشرطة الملوّنة ورائها». يعلّل الدكتور ساكس السبب وراء كون الهلوسات تبدو حقيقية "هو أنّها تستخدم نفس الأنظمة في الدماغ التي تستخدمها التصوّرات الفعلية وتعمل عليها. فعندما يمرّ الشخص بحالات هلوسة ويسمع أصواتاً فهذا معناه أنّ القنوات السمعية فعّالة ومحفّزة، وعندما يهلوس الشخص ويرى وجوهاً، فإنّ المنطقة المسؤولة عن التعرّف على الوجوه وإدراكها في الدماغ تكون نشطة. يتوصّل الدكتور ساكس إلى النتيجة التالية: «التفسير الأكثر معقولية ومنطقية لحالة الدكتور ألكساندر هو أنّ تجربته الاقتراب من الموت لم تحدث أثناء غيبوبته، بل خلال مرحلة انتقاله من الغيبوبة إلى استعادة قشرته الدماغية لعملها. من المثير للانتباه أنّه لم يتقبّل هذا التفسير الطبيعي الواضح والبيّن، بل أصرّ على تفسيره الغيبي والماورائي». 5)تأثير الحضور المحسوس: هناك ظاهرة معروفة جيداً عند متسلّقي الجبال، المستكشفين القطبيين، البحّارة المنفردين، والرياضيين الذين يختبرون قدرتهم على التحمّل، يطلقون عليها "تأثير الحضور المحسوس sensed-present effect" وهي الشعور بأنّ هناك أحد ما أو شيء ما موجود معنا في نفس المكان. هناك ظروف وأحوال أخرى تصاحب الحضور المحسوس منها: الوتيرة، الظلمة، المناظر الطبيعية القاحلة والموحشة، العزلة، البرد، الإصابة، التجفاف، الجوع، التعب والوهن، الخوف، والحرمان من النوم. شعر تشارلز ليندبيرغ بوجود "حضور شبحي" خلال عبوره للمحيط إلى باريس على متن الطائرة. وقد شعر متسلّق الجبال النمساوي الشهير هيرمان بوهل بوجود محسوس بعد صعوده قمّة نانغا باريات التي يبلغ ارتفاعها 266660 قدم حيث قال واصفاً الأمر: «... أرى نقطتين. كنت أصرخ بفرح... كنت أسمع صوتيهما أيضاً، أحدهم كان يناديني "هيرمان"، لكني سرعان ما أدركت أنّهما

كانتا صخرتين... هذا المشهد يتكرّر بشكل دائم... أسمع أصواتاً، أسمع أحدهم ينادي اسمي بوضوح وجلاء _[لكنّها مجرّد] هلوسات وأوهام... كان ينتابني شعور قوي بأني لم أكن لوحدي». مهما كانت أسبابها المباشرة (الحرارة، الارتفاع، نقص الأكسجة في الدماغ، الإرهاق والوهن الجسدي، الحرمان من النوم، التضوّر جوعاً، الوحدة، الخوف) فإنّ أهم سبب وراء تأثير الحضور المحسوس موجود داخل الدماغ: 1) امتداد للحضور المحسوس الطبيعي الذي نشعر به للناس من حولنا، 2) صراع بين طريق العواطف البطيء وطريق العقل السريع، 3) صراع داخل أنظمة الجسم، أو إحساسنا المادي بالذات، حيث ينخدع الدماغ ويظنّ أنّ هناك أحدٌ آخر، 4) صراع داخل نظم العقل، أو شعورنا السيكولوجي/ النفسي بالذات، حيث ينخدع الدماغ ويظنّ أنّ هناك عقل آخر.

6) ثنائيون بالفطرة: يقول العالم السيكولوجي من جامعة يال باول بلوم أنّنا ثنائيون بالفطرة. فمثلاً الصغار والكبار على حدٍ سواء يتحدّثون عن "جسدي"، وكأنّ حرف الجسد شيء آخر غيري أنا، بمعنى أنّي أمتلك هذا الجسد، وبهذا فإنّ الجسد والنفس كيانان مختلفان. قام بلوم في تجربة أجراها بإخبار الصغار قصّة عن فأر افترسه تمساح وقام بمضغه. اتفق الصغار على أنّ جسد الفأر كان ميتاً _فهم لم يعد قادراً على الذهاب إلى الحمّام، لم يعد قادراً على السمع، ولم يعد دماغه يعمل كما كان. ومع ذلك فقد أصرّوا أنّ الفأر مازال جائعاً، قلقوا بشأن التمساح، ويريدون الذهاب إلى المنزل. يقول بلوم: «هذا هو الأساس لنظرة أوضح تجاه الحياة الأخرى غالباً ما تجدها عند الشبّان الأكبر سنّاً والبالغين... ما أن يتعلّم الأولاد أنّ الدماغ مسؤولٌ عن التفكير، فإنّهم لا ينظرون إليه على أنّه مصدر ومنشأ الحياة العقلية، إنّهم لا يصبحون ماديين. إنّهم يفسّرون عملية "التفكير" ضمن سياق ضيّق، ويستنتجون أنّ الدماغ

بديل إضافي إدراكي، شيء ما أضيف للروح لتحسين قدرتها على المعالجة". السبب في أنّ الميل الثنائي حدسي أساساً هو أنّ الدماغ لا يدرك ذاته، وبذلك يضفي نشاطاً عقلياً على مصدر آخر منفصل عنه. إنّ الهلوسة ورؤية كائنات ماورائية كالأشباح، الآلهة، الملائكة، والكائنات الفضائية الغرينة وإدراكها ككيانات حقيقية، والمرور بتجارب الاقتراب من الموت كأحداث خارجية، ونمط المعلومات المخزّنة في ذاكراتنا، شخصيتنا، وذاتنا، كل هذه الأمور ندركها كروح كامنة فينا. 7)الدوبامين: وجد عالما النفس والأعصاب بيتر بروغر وكريستين موهر أثناء استكشافهما للكيمياء العصبية للخرافة والتفكير الخرافي أنّ الأشخاص الذين يتمتعون بمعدلات مرتفعة من الدوبامين هم الأكثر ترجيحاً لأن يجدوا نظاماً ما في الصدف أو يجدوا معنى أو نمطاً ما حيث لا يكون هناك أيّ منهما. في إحدى الدراسات قام الباحثون بتقديم عقار "إل-دوبا _L-Dopa العقار الذي يستخدم للمصابين بمرض باركنسون لزيادة معدّل الدوبامين في الدماغ_ لأربعين شخص ووجدوا أنّ اندفاعات الدوبامين تجعل الناس قادرين تمييز الوجوه المشوّهة المعالم والكلمات المتداخلة بشكل حقيقي وطبيعي. لماذا؟ إنّ الدوبامين يزيد معدّل الإثارة العصبية في الدماغ بالاشتراك مع وظيفة التعرّف على الأنماط، وهذا يعني أنّ التوصيلات المشبكية بين العصبونات ستتزايد عند الاستجابة إلى أي نمط مُدرَك. إنّ زيادة معدّلات الدوبامين في الدماغ تؤدّي إلى ارتفاع في القدرة على التعرّف على الأنماط، وقد وجد علماء آخرون أنّ الدوبامين لا يعمل فقط على تحسين التعلّم بل إنّه في حالات جرعات أعلى يمكن أن يطلق عوارض وعلامات ذهان واضطرابات عقلية كالهلاوس. 8)الدماغ الأيمن مقابل الدماغ الأيسر: كتب كارل ساغان يقول: "لاشكّ بأنّ نصف الكرة الدماغية الأيمن المسؤول عن التفكير الحدسي قد يميّز الأنماط والأشكال ويدركها الأمر الذي

يصعب على نصف الكرة الدماغية الأيسر، لكنّه يمكن أيضاً أن يميّز الأنماط والأشكال حيث لا تكون موجودة". قام العالم بيتر بروغر في تجارب الدماغ المنقسم split-brain بعرض كلمات لاهي حروف كاملة وواضحة وذات معنى ولاهي حروف خالية من المعنى على المجال البصري والأيمن والمجال البصري الأيسر، وطلب من الأفراد أن يبدوا استجابة عندما يميّزون نمطاً أو كلمة واضحة. وقد جرى توثيق إيمان الأفراد الخاضعين للتجربة بالإدراك الفائق أو فوق الحسّي ESP. النتيجة: الشكّاكون هم الذين يسيطر نصف الكرة الدماغية الأيسر أكثر من الأيمن كما هو الحال لدى المؤمنين الذين يسيطر نصف الكرة الدماغية الأيمن على التفكير لديهم. 9)اضطرابات النوم والأحلام الجليّة: تجارب الاختطاف من قبل غرباء فضائيين من خارج غالباً ما تحدث خلال النوم وتتجسّد أغلب الأحيان في الهلوسات النعاسية (hypnagogic أي بعد الاستغراق في النوم) وهلوسات ما قبل الاستيقاظ hypnopompic. أحلام أخرى تصنّف كأحلام واضحة وجليّة Lucid dreams وحالات شلل النوم paralysis وتتضمّن مكوّنات تشابه علامات تجارب الاختطاف. الهلوسات النعاسية وماقبل الاستيقاظ تحدث في الأراضي الحدودية الغائمة والمشوّشة ما بين اليقظة والنوم، عندما ينزلق عقلنا الواعي إلى عالم اللاوعي خلال سقوطنا في النوم، أو مراحل الانتقال إلى اليقظة من النوم: يتداخل الخيال والواقع. وقد تتنشّط عدّة وسائط حسية، كرؤية وسماع أشياء غير موجودة فعلياً كالصور التمثيلية، أنماط أو بقع أو لطخات أو خطوط هندسية. الصور الهلوسية قد تكون بالأبيض والأسود أو ملوّنة، ثابتة أو متحرّكة، مسطّحة أو ثلاثية الأبعاد، وفي بعض الأحيان تتضمّن قنوات لولبية أخبر عنها أناس مرّوا بتجارب الخروج من الجسد أو الاقتراب من الموت. يمكن للهلاوس أن تكون سمعية كسماع أحد ينادي

باسمك، أو صوت جرس الباب أو طرق على الباب، حتى أنّك قد تسمع مقتطفات من حديث من شخص متخيّل آخر تعتقد أنّه موجود في الغرفة الأخرى. صور الأحلام الجليّة أكثر وضوحاً وحيوية لأنّ الشخص النائم مدركٌ أنّه نائم ويحلم وبإمكانه المساهمة وتغيير مجرى الحلم نفسه. شلل النوم هو نوع من أنواع الأحلام الجلية حيث يكون الحالم، مدركٌ للحلم، لكنّه بشعر بالشلل، ثقل على الصدر، وجود كائن ما في الغرفة، التحليق، الطيران، السقوط، أو الخروج من الجسد، بالإضافة إلى مكوّن عاطفي يتضمّن عناصر الخوف، الرهبة، الفزع، لكن مصحوباً بشعور بالإثارة، البهجة، النشوة، أو اللذّة. 10)النمطيّة: تخيّل أنّك هومينيد/ أحد أسلاف الإنسان تعيش في هضاب إفريقيا منذ ثلاثة ملايين عام. تسمع خشخشة بين العشب. هل هي مجرّد ريح تحرّك العشب أم أنّه صوت حيوان مفترس؟ إذا افترضت أنّ صوت الخشخشة في العشب حيوان مفترس لكنّه تبيّن لاحقاً أنّها الريح، فستكون عندئذٍ ارتكبت خطأً من النمط [1] في الإدراك، والذي يعرف أيضاً "النمط الإيجابي الخاطئ"، أو الاعتقاد بشيء فعلي في حين أنّه ليس فعلياً. وهذا معناه أنّك عثرت على نمط غير موجود أصلاً. لا ضرر في ذلك. ستبتعد عن العشب المخشخش، وستكون أكثر حذراً وترقّباً، وتجد لنفسك طريقاً آخر لوجهتك. لكن إذا افترضت أنّ الخشخشة في العشب بفعل الريح لكن تبيّن لاحقاً أنّه حيوان مفترس، فستكون قد ارتكبت خطأً من النمط [2] في الإدراك، ويعرف أيضاً "بالنمط السلبي الخاطئ"، أو عدم الاعتقاد بوجود شيء فعلي في حين أنّه فعلي _كما في حالة الحيوان المفترس. عندئذٍ ستكون قد أصبحت طعاماً لذلك الحيوان! ولن تكون بعد الآن عضواً في مستنقع جينات أسلاف الإنسان. إنّ أدمغتنا عبارة عن محرّكات إيمانية، آلات تمييز أنماط متطوّرة تعمل على ربط النقاط وتخلق معنى من أنماط نعتقد أنّنا نجدها في الطبيعة. في

بعض الأحيان تكون (أ) مرتبطة بـ (ب) فعلاً، وفي أحيان أخرى لا تكون. فلاعب البيسبول الذي لا يحلق (أ) في منزله (ب) يشكّل رابطة خاطئة بين (أ) و(ب)، لكنّها رابط غير مؤذية نسبياً. وعندما تكون الرابط حقيقية، نكون قد تعلّمنا شيئاً قيّماً حول البيئة أو العالم الذي أصبح بمقدورنا وضع توقّعات وتنبّؤات بشأنه تساعدنا في بقائنا واستمرارنا وتكاثرنا فيه. نحن أحفاد أولئك الذين نجحوا في العثور على أنماط. وتسمى هذه العملية بـ"النمطية patternicity"، أو الميل نحو إيجاد أنماط ذات معنى ضمن الضوضاء ذات المعنى والخالية من المعنى. المشكلة هي أنّ تقييم الفرق بين النمط [1] والنمط [2] من الأخطاء هو أمر مشكوك فيه إلى حدٍ بعيد _وخصوصاً في التوقيت الآني الذي يحدّد دوماً الفرق مابين الحياة والموت في بيئتنا السلفية_ إذن الموقف المثل هو افتراض أنّ جميع الأنماط حقيقية، وهذا معناه افتراض أنّ كافة أصوات خشخشة العشب من المحتمل أن تكون حيوانات مفترسة وليست الريح. وهذا هو أساس الخرافة والتفكير الخرافي. 11)الوكالة أو السحر المتعاطف: لنعود إلى أسلاف الإنسان الذين تركناهم في سهول إفريقيا والذين يسمعون خشخشة بين العشب، والمسألة الهامة سواءً ما إذا كان هذا الصوت هو صوت حيوان مفترس أم أنّها الريح فقط: "الريح" تمثّل قوى غير عقلانية وغير مدركة أو واعية، في حين أنّ "الحيوان المفترس" يشير إلى عنصر أو عميل واعي ومدرك. لذلك نحن نميل لإضفاء سمة الوكالة agenticity: وهي الميل لإضفاء معنى، قصد، وغاية على الأنماط. وهذا يعني أنّنا غالباً ما نضفي سمات مثل القصدية والوكالة على الأنماط التي نجدها في العالم، ونعتقد أنّ هؤلاء الوكلاء القصديون هو الذين يحكمون العالم ويسيّرون أموره عبر سلطة هرمية غير مرئية من الأعلى إلى الأسفل. أرواح، أشباح، آلهة، شياطين، عفاريت، ملائكة، كائنات فضائية، وكافة

أشكال الوكلاء غير المرئيون الذين يتمتّعون بالسلطة ويمتلكون غاية ويسكنون عالمنا ويسيّرون أموره. وتكاد الأمثلة لا تُعَدّ ولا تحصى حول الوكلاء. أشخاص يشاهدون نقاط عاكسة تطوف داخل غرفة مظلمة، وخصوصاً إذا كانت النقاط تتّخذ شكل قدمين ويدين، إذ يزرع ذلك شعوراً بوجود شخص ما أو شبح ما في الغرفة. يعتقد الأطفال أنّ الشمس تفكّر وتتبعهم أينما ذهبوا، وعندما يطلب منهم رسم صورة للشمس فإنّهم غالباً ما يرسمون لها وجهاً ضاحكاً، وهذا دليل آخر على الوكالة. الأطعمة على شكل أعضاء تناسلية الموز والمحار يعتقد أنّها تحسّن الأداء الجنسي. ثلث المرضى الذين أجريت لهم عمليات نقل أعضاء يعتقدون أنّ شخصية المتبرّع أو جوهره قد انتقل إليهم مع العضو المزروع فيهم. وجد العالم النفساني بروس هود أنّ أغلب الناس يقولون أنّهم لن يرتدوا ثياب قاتل، بل حتى أنّهم يعبّرون عن مقتهم لمجرّد التفكير في الأمر، وكأنّ الشرّ الكامن في نفس القاتل قد سكن ثيابه وسينتقل إليهم كالعدوى، لكنّ أغلبهم يقولون بأنّهم سيرتدون السترة الصوفية الخاصّة بضيف برنامج الأطفال السيد روجرز، اعتقاداً منهم أنّ ارتداء قمصانه سيجعل منهم أشخاصاً أفضل. نحن نجد الوكالة في كل مكان وأينما نظرنا، وفي بعض الأحيان هؤلاء الوكلاء يكونون أشباحاً أو آلهة أو ملائكة أو شياطين.

12)التنويم المغناطيسي والذاكرة: أغلب تجارب الاختطاف على أيدي الكائنات الفضائية يتمّ تذكّرها واستعادتها بعد سنوات أو عقود على حدوثها وعن طريق عملية تسمّى الإيحاء المغناطيسي، حيث يتمّ تنويم الشخص مغناطيسياً ويطلب منه أن يتخيّل بأنّه يعود بالزمن إلى الوراء لاستعادة ذكريات من الماضي، ثمّ يعيد عرضها على شاشة إسقاط خيالية داخل عقله، وكأنّ هناك قَزَم ضئيل يجلس داخل مسرح صغير داخل رأسه يخبر مدير الدماغ بكلّ ما رآه. لكنّ الذاكرة لا تعمل على هذا النحو. تشبيه

الذاكرة كنظام إعادة للفيديو لا يمكن تطبيقه إطلاقاً على موضوع الذاكرة. ليس هناك آلة تسجيل في الدماغ. وتتشكّل الذكريات كجزء من نظام تعلّم مشارك لصنع وصلات وروابط بين الأشياء والأحداث ضمن المحيط، والروابط التكرارية بينها تولّد صلات جديدة بين العصبونات، والتي يتمّ تقويتها وتدعيمها لاحقاً عن طريق تكرار إضافي أو إضعافها عن طريق الإهمال وعدم الاستعمال. استخدم ما تعلّمته أو ستفقده. هل تتذكّر عيد ميلادك العاشر، أو تتذكّر ما قالته أمّك عنه وأنت تشاهد صور الحفلة وأنت في عمر العشرين؟ هل أضفت حوادث من حفلات أخرى كنت قد حضرتها أو مشاهد حفلات كنت قد شاهدتها على التلفاز؟ كل هذا قد جرى على الأرجح، وأكثر من ذلك. لذا عندما يسترجع أحد "المخطوفين" من قبل الكائنات الفضائية إحدى الذكريات، ما الذي قد استرجعه فعلاً؟ تظهر أشرطة وتسجيلات الإيحاد المغناطيسي التي استخدمها معالجو مرضى الاختطاف والذين طبّقوا طريقة التنويم المغناطيسي أنّهم يسألون المرضى أسئلة موجّهة ويبنون في عقول مرضاهم سيناريوهات وقصصاً خيالية يلفّق من خلالها المرضى قصصاً وروايات خيالية كاملة لأحداث لم تحصل إطلاقاً. 13)تجارب الاقتراب من الموت NDE: منذ اختراع الطائرات النفّاثة القادرة على الطيران بسرعات هائلة لدرجة أنّ الطيّارين قد يفقدون وعيهم ويصابون بالإغماء أثناء المناورات الجوية، أجرت قوّات الدفاع الجوية وأسطول البحرية الأمريكية عدداً من التجارب للتغلّب على قوى الدفع والجاذبية وحالات الإغماء وفقدان الوعي التي تسبّبها G-LOC. أجرى العالم جيمس وينري دراسات على الطيّارين الذين يتدرّبون على أجهزة الطرد في مركز القيادة البحرية بوارمينستر، بنسلفانيا، حيث اكتشف ظاهرة عجيبة مرّ بها غالبية الطيارين _وقد أسماها "رؤى" تتضمّن مشاهد قصيرة من رؤية نفق في نهايته نور ساطع، بالإضافة

إلى الشعور بالطوفان أو الشلل، وبعد أن كان الطيارون يستعيدون وعيهم، كان يتتابهم شعور باللذّة، السعادة، البهجة، والصفاء. هذه السمات هي نفس السمات التي تتميّز بها تجارب الاقتراب من الموت. جرّب وينري حالات الاقتراب من الموت آلاف المرات خلال تجارب مسيطر عليها بإحكام في جهاز الطرد المركزي. فتحت ظروف السرعات العالية أثناء التحليق، ينسحب الدم من الرأس ليتجمّع في الجذع، ممّا يجعل الطيار ينتقل من الحالة الرمادية كالدوّار والدوخة إلى حالة التعتيم الكامل وفقدان الوعي، وكل ذلك يجري خلال 15–30 ثانية. تجارب الاقتراب من الموت التي جرت أثناء مرحلة التعتيم "فقدان الوعي" قد حدثت بسبب: الأبوكسيا apoxia، أو نقص الأكسجين في القشرة الدماغية. عندما تزداد درجة الدوّار وفقدان الوعي بطريقة تدريجية أثناء تسريع جهاز الطرد المركزي أكثر بشكل منتظم، أول شيء يختبره الشخص هو رؤيا النفق، العمى، ثمّ الإغماء وفقدان الوعي، وهذا مردّه إلى نقص معدّل الأكسجة في شبكية العين أولاً ثمّ في القشرة الدماغية أخيراً (تنتج رؤيا النفق لأنّ العصبونات والوصلات العصبية تبدأ بالتوقف عن العمل من الخارج إلى الداخل)، ممّا يؤدي إلى حالة إغماء كلي عند توقّف كامل عصبونات القشرة الدماغية عن العمل. يمكن توليد تجربة اقتراب من الموت عن طريق تحريض التلفيف الزاوي الأيمن في الفص الصدغي كهربائياً. مريضة في الثالثة والأربعين من العمر تعاني من نوبات صرع حادة قالت أنها تشعر بأنّها "تغرق في السرير" و"تسقط من علوٍ شاهق" بعد تحريض كهربائي طفيف لهذه المنطقة. وعندما تمّت زيادة شدّة التحريض أدّى ذلك لتوليد شعور بأنّها "ترى نفسها وهي مستلقية على السرير من الأعلى..." حتى أنّ زيادة التحريض أدّت إلى شعورها بالخفّة الزائدة وبشعور بأنّها "تحلّق على علوّ

مترين فوق السرير". اكتشف العلماء أنّ باستطاعتهم التحكّم بالارتفاع الذي يشعر به المريض فوق سريره عن طريق زيادة شدّة التيار الكهربائي المحرّض للمنطقة.

لماذا نؤمن بالله/الآلهة:

Why We Believe In God(s): A Concise Guide to the Science of Faith

تأليف: آندرسون تومسون جونيور، وكلير أوكوفر، 2011.

تصدير بقلم ريتشارد دوكينز.

(١) : في البدء كان العالم: {ميلنا نحو الإيمان}

ليس أقوى الأنواع وأكثرها ذكاءً هي التي تنجو وتستمر... إنّما هي تلك الأنواع التي تمتلك أو تتميز بالقدرة على التكيف مع التغيرات» [تشارلز داروين] هناك أولئك الذين يقولون أنّ نظرية التطور تتعارض مع الدين، أو أنّ العجائب الطبيعية للتطور موضوعة ومصاغة من قبل كائن ما غيبي مطلق العلم والمعرفة. لكن إذا كان هناك فعلاً إله مطلق القدرة والعلم والمعرفة، فإنّه قد خلق إنساناً متطوراً ووضع فيه مقدرة بالغة الأثر والفعالية: ميله أو نزوعه للإيمان بالله. على مرّ التاريخ الإنساني المكتوب، منذ عهد المصريين القدماء وحتى الآزتك والرومان وما بعدهم _موحّدون، مسيحيون، يهود، مسلمون، هندوس، بوذيون، وثنيون، إبليسيون، علمويون Scientologists _ جميع الحضارات والثقافات المعروفة قد تمحورت حول مفهوم مركزي يتمثّل في إله واحد على الأقل/ أو شخصية أسطورية من نوع ما، مع عالم كامل خاص بها. لماذا؟... لماذا الدين يمثّل سمة عالمية يتميّز بها جميع البشر والحضارات التي أقمناها؟ لقد بدأنا نفهم الموضوع ونستوعبه. خلال فترة العقدين الماضيين حدثت ثورة في كلٍ من مجاليّ علم النفس وعلم الأعصاب الإدراكي. وقد

انبثقت من هذه الثورة تفسيرات ثورية أحدثت انقلاباً في فهمنا للأسباب التي تحفّز العقل والبشري وتدفعه لتوليد معتقدات وأفكار دينية، لماذا نخلق أنواعاً مختلفة من المعتقدات، ولماذا صُمّمت عقولنا بقبولها ونشرها؟ أصبحنا الآن نمتلك نظريات معينة ومتماسكة بأدلّة وبراهين تجريبية، من بينها أدلّة من دراسات مصوّرة _صور للدماغ_ تدعم هذه التفسيرات والتعليلات. باتت جميع القطع الآن في مكانها المناسب، ويمكننا الآن أن نلجأ إلى العلم لنحصل على فهم أوسع وأشمل للأسباب التي تدفع العقل البشري لإنتاج واعتناق الأفكار الدينية، ولماذا سيغيّر البشر سلوكهم من أجلها، ويموتون في سبيلها، ويقتلون بعضهم البعض باسمها. تبقى نظرية داروين في الانتقاء الطبيعي واحدة من أهم الأفكار التي طرأت على العقل البشري، ويثبت الدليل بأنها صحيحة. فالانتقاء الطبيعي هي التفسير العلمي الوحيد والمقنع للحياة وتنوّعها _نباتات، حيوانات، وأشكال أخرى من الحياة_ على هذه الأرض. كما أنّه التفسير العلمي الوحيد لتصميم العقل البشري وطريقة عمله، الذي هو مَهْدُ جميع الآلهة. أنظر حولك، نحن جميعاً ننتمي لنفس النوع أو العائلة: الهومو سابينيس Homo Sapiens. ومع ذلك فقد جئنا بأشكال وأحجام متنوعة. لكن بالنسبة لجميع المتغيرات، فإنّ أغلب السمات والخصائص موروثة. نحن نشبه أبوينا وأقاربنا، نحن نتشارك نقاط ضعفنا وقوتنا مع هؤلاء الأسلاف الذين سبقونا. نحن جميعاً نتيجة نجاحهم وتفوقهم. إنّ مصلح "بقاء الأنسب أو الأصلح" كثيراً ما يساء فهمه، بالمعنى الدارويني، الأصلح أو الأنسب تعني "القدرة على التلاؤم والتكيف"، على البقاء والاستمرار، والتكاثر والازدهار. هذا الصراع من أجل البقاء ينسف ويقضي على جميع الكائنات التي تفتقر لتلك القدرة. طبعاً داروين لم يكن على دراية بكيفية انتقال السمات والخصائص من جيل إلى الجيل التالي. فلم يحدث ذلك حتى

عام 1953، عندما كشف كل من جيمس واتسون وفرانسيس كريك الغطاء عن بنية المادة الوراثية DNA، وسرعان ما تم إدراك قدرتها الفائقة على نسخ ذاتها والكشف عن آليات النسخ الممكنة فيها وتحديد وسائل وآليات التوريث. لكن بالجمع ما بين داروين وواتسون وكريك، ما بين الانتقاء الطبيعي والوراثة الجينية، فإننا نقيم تآلفاً داروينياً معاصراً. فلكي ننجو ونبقى، فإننا نتطور خلال زمن تطوري، تماماً كما تطورت حيوانات جزر الغالاباغوس بالتوازي مع بيئتها القاسية والفريدة. ليس هناك أي مكان آخر على وجه الأرض تطورت فيه زواحف الإغوانا القادرة على السباحة الصيد في المحيط، والحل الأمثل لمشكلة العثور على الغذاء في هذه الجزر الصغيرة والضيقة. وحتى بين الجزيرة والأخرى، كل واحدةٍ منها ذات مناخ بيئي مستقل ومعزول تماماً، إذ أنّ الحيوانات على كل جزيرة من هذه الجزر قد واجهت بعض المشكلات المختلفة وطورت حلولاً لها مختلفة بعض الشيء عن بعضها. لقد تكيفت. لكن الأهم من ذلك أنها استطاعت تمرير السمات التكيفية إلى سلالتها. كافة الكائنات العضوية، ومن بينها الإنسان، هي عبارة عن مجموعة محسّنة وفعّالة من السمات والخصائص التكيفية _حلول لمشكلات، أدوات_ مصاغة عن طريق الانتقاء الطبيعي على امتداد مساحات زمنية طويلة من الزمن التطوري. كل سمة تكيفية تسمح بطريقة معينة ببقاء الجينات التي ساهمت في إرشاد عملية بناء تلك السمة التكيفية. بإمكاننا في كل مستوى، من مستوى الجزيئات وحتى مستوى العقول، ملاحظة عملية الانتقاء الطبيعية الداروينية أثناء عملها. انظروا لأنفسكم. فأنتم بحاجة للأكسجين لكي تظلوا أحياء. وبوصف كم كائنات عضوية معقدة ومتطورة، كُنتُمْ بحاجة لتطوير طريقة فعالة لاستخلاص الأكسجين من الهواء وتوزيعه عبر أجسادكم. بنية قبلكم تمثّل الحل الأمثل لهذه الإشكالية البقائية المتمثلة بضخّ الدم إلى

جميع أعضاء جسدكم. بروتينات خضاب الدم تحلّ مشكلة نقل الأكسجين إلى دماغنا وكافة الأعضاء الأخرى. فالأكسجين المحمول عبر خضاب الدم الذي يضخّه القلب يأتي من الرئتين اللتان حلّتا مشكلة استخلاص الأكسجين من الهواء. وهكذا. ونحن نسمي هذه العملية كلها باسم "التنفس". هذا التآلف الحديث ينطبق أيضاً على العقل والدماغ البشري. فالدماغ عضو، وكما يشير عالم النفس والباحث في جامعة هارفرد ستفين بينكر: العقل هو ما يفعله الدماغ، والدماغ مثله كمثل أي نسيج حي آخر، مجموعة متطورة ومحسّنة من الآليات والأدوات التي تمّ ثقلها عن طريق الانتقاء الطبيعي لحل مشكلات معينة متعلقة بالبقاء وعلى امتداد فترات زمنية تطورية طويلة جداً. هذه السمات التكيفية، ومن ضمنها السمات التكيفية الاجتماعية التي تساعدنا على البقاء والاستمرار ضمن جماعات صغيرة، تطورت داخل الدماغ لتعزّز بطريقةٍ ما استمرار وبقاء الجينات التي أرشدت عملية بناءها. عندما تنظر إلى أحد الوجوه، فإنّ الصورة المرتسمة على شبكية عينيك تكون صورة مقلوبة رأساً على عقب عمليا، وثنائية الأبعاد. لكنّ دماغك يحوّل هذه الصورة إلى صورة صحيحة ثلاثية الأبعاد عن طريق عدد هائل من الأدوات والسمات التكيفية البصرية: مستكشفات ألوان، مستكشفات حركة، مستكشفات أشكال، مستكشفات حدود_ وكافة تلك السمات تعمل بآنٍ واحدٍ معا، بصمت، وبطريقة احترافية وفعّالة. لقد تمكّن أسلافنا من تطوير عشرات الآلاف من السمات التكيفية الاجتماعية المعقدة. فعندما ترى ذلك الوجه، فإنك تصدر أحكاماً مجردة أيضاً عن جنس، عمر، وضع، شخصية، ومحتويات عقل ذلك الشخص غير المرئي، من بينهما: مقصده وغايته، نواياه، رغباته، ومعتقداته. هذه السمات التكيفية المتمثلة بصياغة الأحكام تقع خارج نطاق الوعي والإدراك، وقد تظل خارجة إلى الأبد. وأحكامك التي تعتنقها قد تمّت صياغتها على

مدى ملايين السنوات. إنّ الثنائية "عقل/ دماغ" معقدة للغاية. تصوّر مركبة أبوللو الفضائية، التي هي عبارة عن منظومة محكمة ومصرورة من الأدوات والأجهزة الهندسية، وكل أداة مصممة لتحليل مجموعة محددة وثابتة من المعلومات وحلّ مشكلة معينة، كل ذلك في حين أنّ رواد الفضاء لا يدركون سوى مجموعة محدّدة ومنتقاة منها. نحن نعمل في نفس الوقت. تصوّر جميع الأشياء والأمور التي تدركها وتعيها، إنها جميعها مجرد جزء صغير جداً من نظام متكامل، القسم الظاهر من الجبل الجليدي لما يحدث بداخل عقولنا. من المهم جداً فهم هذا الأمر واستيعابه لأنّ الدين _في حين أنه ليس سمة تكيفية بحد ذاته_ ينبع من نفس السمات التكيفية الاجتماعية العقلية/ الدماغية التي نعتمد عليها لإرشاد أنفسنا ضمن هذا البحر الشاسع من البشر المحيطين بنا. تكوّنت هذه السمات التكيفية لتحلّ مشكلات اجتماعية وشخصية محدّدة مع تطور الإنسانية، وقد اجتمعت مع بعضها، عن طريق الصدفة تقريباً، لكن بقوة، لتكون أساس كل فكرة دينية، معتقد ديني، أو طقس ديني. المعتقدات الدينية هي مفاهيم إنسانية بقائية اجتماعية مع وجود بعض الاختلافات الطفيفة فيما بينها. أمّا كون الدين نتيجة ثانوية للسمات التكيفية التي حدثت لأسباب مختلفة أخرى لا ينفي ذلك قوته الهائلة والفعّالة. وكما سنرى في الفصل التاسع «الكتابة والقراءة ليسا بحدّ ذاتهما سمات تكيفية، بل هما نتيجة ثانوية للسمات التكيفية التي صُمّمَتِ لأغراض وأسباب أخرى». كافة الديانات _بوصفها مجموعات من المعتقدات المتعلقة بأصل الكون وطبيعته والغاية منه_ بدأت بالإيمان والاعتقاد بشخصية محورية أو عدّة شخصيات. معظم الديانات تتضمّن إلهاً أو عدة آلهة بوسعها التفاعل معنا، وقادرة على التدخّل في عالمنا والتأثير على حياتنا وشؤوننا اليومية، راغبة في سماع أمانينا الصامتة، ومنحنا إياها، كما أنها قادرة على القيام بأي شيء، بكل شيء.

ويغرض المناقشة فقط، فإننا سنناقش واحداً منها فقط، ونشير إليه بوصفه ذكراً، مع أنّ هناك الكثير من الديانات التي آمنت بوجود العديد من الإلهات الإناث ونسبت إليها قوى وقدرات مختلفة وعبادتها. ومع ذلك فهي متشابهة بصورة فريدة. طبعاً إله الديانات الإبراهيمية الثلاثة هو نفسه، لذلك سنستخدمه كمثال. هذا الإله هو إله أبوي، مثل إله-أب، يحبّنا بصورة غير مشروطة. عادة هو لا يسمع صلواتنا إلا إذا كنا نعبده بإخلاص ومن صميم قلبنا، ونقدم له الأضاحي، وأن نعترف بأننا خطابة ومشوبون بالنقص، ونشكره ونحمده دائماً وبشكلٍ مفرط (سواء إذا استجاب لدعائنا أم لم يستجب فعلينا شكره وحمده)، وأن نؤمن بأننا جميعاً ولدنا مذنبين وسيئين. هذا الإله يقيم خياراته وقراراتها ليس فقط على أساس صلواتنا بل على أساس صلوات جميع البشر الآخرين، أو على الأقل كل كائن بشري يتشارك تفاصيل حياتنا ومعتقداتنا. وحتى عندما يرفض أمانينا وصل آتنا، فإننا نستمر في إيماننا بأنّ كل ما يحدث هو لصالحنا حتى وإن لم يكن يبدو كذلك، وأنّ هذا الإله الخفي وغير المرئي لديه هدف وخطة إلهية لكل شيء. وكل ذلك يجري داخل عقولنا حتى عندما لا نكون نفكّر في ذلك. تصوّر الحالة التالية: عندما كنت مراهقاً، دبّرت لك أمك موعداً مع فتاة لم تقابلها من قبل، وأكّدت لك أنّ هذه الفتاة جميلة جداً، وأنها فتاة أحلامك، وهي ثرية، ولطيفة، ومحبة، ومستعدة لفعل أي شيء من أجلك يسرّك ويساعدك حتى ولو لم يسبق لكما أن التقيتما، ولم تكن تريد منك شيئاً سوى محبتك واحترامك لها، هل كنت لتصدّق أمك؟!... حسناً، إذا كنت مراهقاً فقط، ولن تصدّقها لفترة طويلة. إذن لماذا نحن راغبون بالإيمان بإله خفي وغير مرئي يفعل مثل ذلك، وأكثر؟ مقارنةً بما يحدث فعلياً داخل عقولنا، فإنّ مفهوم إله واحد ما ورائي قد يبدو سهلاً. فلكي نؤمن بالله، كل ما على عقلنا فعله هو تجاوز حوالي عشرين سمة

تكيفية أو أكثر موصولة بأدمغتنا ومتطورة على مدى قرون طويلة من الانتقاء الطبيعي لمساعدتنا على التعايش والتواصل مع شركائنا من الهومو سابينيس [الإنسان العاقل] للبقاء والاستمرار والسيطرة على الكوكب. خلال الصفحات والفصول التالية، سنريكم بالضبط كيف ولماذا تقبل العقول البشرية الأفكار والمعتقدات المستحيلة، وكيف تصنع طوائف ومذاهب منها. سنريكم كيف أصبح البشر كائنات مؤمنة بالله _من بين الكثير من الأمور الأخرى_ يحبون إلهاً، ويخافون من أخر، يعنون لإله، ويتصورون إلهاً مثلنا، يصلّون لإله ويفرضون أنه سيستجيب لصلواتهم، يخترعون طقوساً وشعائر ليعبدون ذلك الإله، بل حتى أنهم مستعدون للموت وقتل الآخرين في سبيله. وسنريكم لماذا هذه السمات الاجتماعية الموصولة والمتجذرة في عقولنا تجعل من الصعب جداً التخلّص من هذه المعتقدات، حتى وإن كنت تريد ذلك حقاً. لكن دعونا نبدأ من عند نقطة محورية ومنعطف خطير في مسيرة التطور.

(2) على صورته: {التطور للمبتدئين}

«التخلص من الخطأ خدمة جيدة، وفي بعض الأحيان أفضل بكثير من تأسيس حقيقة جديدة» [تشارلز داروين] نحن جميعنا قردة متطورة، ولسنا ملائكة ساقطة _ولدينا الدليل الذي يثبت ذلك. قد يكون كبرياؤنا وغرورنا السبب في عدم تقبّلنا لهذه الحقيقة، وهؤلاء الذين يؤمنون بنظرية الخلق الإلهي سيجدون المسألة برمّتها كإهانة. فمجرد فكرة أنّ البشر قد تطوروا عن حيوانات "أقل" قد دفعت الكثيرين لرفض فكرة التطور، منذ اللحظة التي أماط فيها تشارلز داروين اللثام عن نظريته الجديدة. لكنّ الدليل يظهر بما لا يدع مجالاً للشك أننا تطورنا بالتوازي مع جميع الأشياء والكائنات الأخرى من المستنقع البدائي، حيث بدأت الحياة فعلياً على الأرض. على طول الجانب الشرقي للقارة الإفريقية، يمتدّ الأخدود الإفريقي

العظيم من أثيوبيا إلى موزامبيق. فكّر في هذا الأخدود بوصفه القناة التي ولد فيها الجنس البشري، جنة عدن الحقيقية. هنا بالضبط بدأ الجنس رحلة التطورية الفريدة والشاقة. نحن لم نحدر من قرود. فمن وجهة نظر علمية بحتة، نحن من الرئيسيات. إذ أننا نتشارك بنسبة 6،98 بالمئة من مادتنا الوراثية مع الشمبانزي. كما أننا نتشارك سلفاً مشتركاً عاش منذ حوالي 5 إلى 7 مليون عام. ومن ذلك السلف المشترك، انقسم خطنا نحن البشر الحاليون المعاصرون بالإضافة إلى غيرنا من الأجناس والأنواع الأخرى، على غرار تشعّبات أغصان الشجر. وفي النهاية جميعهم ماتوا واندثروا فيما عدا نوع واحد، ذلك الغصن الذي أتينا منه أنت وأنا. نحن الآن المثال الوحيد المتبقي عن القرد الإفريقي، الآدمي شبيه الإنسان Hominid. أمّا منذ ما يقارب 50000 عام ربما كان هناك أربعة انواع من الهومينيد القريبة لكن المختلفة التي تتشارك الكوكب معًا. لكننا الهومينيد الوحيدون الذين نجوا وحافظوا على بقائهم واستمرارهم.

لقد قابلنا للتو العديد من أسلافنا. إذ أننا بتنا نمتلك بقايا أحفورية وهياكل للأرديبيتيكوس Ardipithicus، على الأرجح أنه أقرب الأنواع لسلفنا البعيد الذي نشترك فيه مع الشمبانزي. ويبدو أنّ هذا النوع يقوم على العلاقة الثنائية ما بين الذكر والأنثى، كما أنه كان أقل عدائيةً وأكثر سلاماً وتعايشاً. الأوسترالوبيتيكوس Australopithicus، وتعني قرد إفريقيا الجنوبي، الذي نعرفه من خلال أشهر هيكل عظمي لنوعه، لوسي التي تمّ العثور عليها في أثيوبيا منذ حوالي أربعين عاماً. بقايا للبارانثروبوس Paranthropus (ويعني "قريب الإنسان") تمّ العثور عليها في جنوبي افريقيا ما بين عامي 1938 و1948 تظهر أنه كان يمتلك دماغاً يبلغ حجمه حوالي 40 بالمئة من حجم دماغنا الحالي، وعلى الأرجح أنّ هذا النوع قد انقرض لأنه

كان عاجزاً عن التكيف مع المتغيرات في البيئة والنقص في الغذاء. في عام 2008، اكتشف صبي صغير عمره 9 سنوات، ابن أحد علماء الإناسة، جمجمة لصبي أيضاً يناهز التاسعة من عمره في أفريقيا. هذه الجمجمة أيضاً من فصيلة الهومينيد _والتي تمّت تسميتها Australopithicud Sediba_ قد تمنحنا صلات أقرب بين القردة الإفريقية الجنوبية وبيننا نحن البشر. هذه الأنواع، بالإضافة إلى أسلا فنا الهومينيد الأوائل، تواجدوا بشكلٍ مشترك في أفريقيا لحوالي مليوني عام، حيث أنهم نجوا وحافظوا على بقائهم واستمرارهم بطريقة محيّرة لفترةٍ أطول من الفترة التي قضاها جنسنا حتى الآن. مجموعتنا المسمّاة (هومو سابينيس/ الإنسان العاقل) لا تظهر في السجلّ الأحفوري إلا منذ حوالي مليوني عام وتشتمل على "الإنسان الماهر Homo habilis" و"الإنسان المنتصب Homo erectus" و"إنسان هيدلبرغ Homo heidelbergensis". لقد خرج الإنسان العاقل من أفريقيا، ربما من دون لغة، منذ حوالي أكثر من مليون عام، وهاجر إلى ما بعد جبال القوقاز، الصين، وإندونيسيا. يبدو أنّ بعض أفراد إنسان هيدلبرغ أنجبوا إنسان النياندرتال Neanderthal بعد أن هاجروا إلى أوروبا، حتى أنّ بيانات تحليل سلاسل المادة الوراثية الحالية تشير إلى وجود نوع من التهجين بين أسلاف جنسنا الهومو سابينيس وإنسان النياندرتال. هؤلاء الهومو هيدلبرغ الذين ظلوا في أفريقيا أنجبوا في النهاية الهومو سابينيس الحديث. أبكر بقايا وعظام مكتشفة للهوموسابينيس تعود إلى حوالي 200000 سنة. إذ هناك دليل على وجود مقدرات رمزية تجريدية، كالألوان التي كانت تستخدم في التلوين، بالإضافة إلى أدلة على حدوث عمليات تبادل تجارية بين الجماعات، والتي كانت تتطلب وسائل وأساليب معقدة من التواصل. يبدو أنّ أقدم الأعضاء المعروفين في نوعان على الأرجح أنهم يمتلكون أهم سمة نوعية

إدراكية، اجتماعية سلوكية: وهي القدرة اللغوية. أنت وأنا، الهومو سابيينس المعاصرون، اللذين يملكان مقدرة لغوية، كنا قد غادرنا أفريقيا منذ حوالي 60000 عام، وهذه الفترة بمثابة طرفة عين ضمن إطار الزمن التطوري. لنضع جانباً اختلاف آتنا الأخلاقية وفروقاتنا العرقية والقومية والدينية، نجد أننا جميعنا أفريقيون تحت قشرتها الظاهرة، أبناء وبنات مجموعة صغيرة من الصيادين-الجامعين الذين نشأوا في أفريقيا، تفوّقوا على غيرهم من الجماعات الأخرى، وغزوا العالم. الأمر الأكثر إذهالاً حتى هو أنه قد حدث تغيّر حاد في الطقس ما قبل حوالي 70000 و100000 عام، ويبدو أنّ هذا الحدث الكارثي قد قلّل أعداد نوعنا إلى بضعة أفراد ربما لا يتجاوز عددهم 600 فرد قابل للتكاثر. هذا بالضبط ما يخبرنا بهالآن علم الوراثة الحديث. وهذا يعني أنّ كل فرد من السبعة مليارات شخص الذين يسكنون الأرض هو سليل تلك المجموعة الصغيرة جداً من الصيادين-الجامعين الذين عاشوا في أفريقيا وتمكّنوا من النجاة من هذا التغير المأساوي في الطقس والاستمرار والازدهار. لماذا نحن بالتحديد؟ وكيف ولماذا نجونا؟ إنّ مقارنة بسيطة ما بين جماجم قردة أفريقيا الجنوبية/أوسترالوبيتيكوس، والإنسان المنتصب/الهومو أريكتوس، والإنسان الحديث تظهر بما لا يدع مجالاً للشك حدوث عملية تغيير تدريجية في الجبهة ما فوق العينين. إذ تفقد الجبهة أنحدارها المائل وتصبح مفلطحة. دماغ يبلغ حجمه حوالي 400 إلى 500 سم مكعّب عند قرد أفريقيا الجنوبي يتضاعف حجمه عند الإنسان المنتصب، ثم يصبح أكبر بثلاث مرات عند الإنسان الحديث (الهومو سابيينس). وهذا التغيّر واضح بشكلٍ خاص في مناطق الفصّ الجبهي. وهي المناطق في دماغنا التي تحتوي الآليات المعقدة، السمات التكيفية المتطورة التي تمكّننا وتساعدنا على إرشاد أنفسنا ضمن المحيط الاجتماعي. إذن ما الذي أدّى لتطور هذه

الأدمغة الكبيرة كأدمغتنا؟... نحن، أو بشكل أدق، آخرون من نفس نوعنا لأننا كنا بحاجة لأن نعمل معاً لكي ننجو ونبقى، بالبقاء الجسدي الفردي يتطلب بقاءً اجتماعياً، لذلك قمنا بتطوير ما نسميه "بروح الفريق أو روح الجماعة". إذا كانت لديك غرفة مليئة بالأشخاص الغرباء وقمت بتقسيم هؤلاء بطريقة عشوائية إلى فريقين ليلعبوا لعبة معينة، فستراهم قد بدأنا بالاندماج والتفاعل كل مع المجموعة التي انتسب إليها. سيعتبرون هؤلاء الذين هم من نفس المجموعة على أنهم "الأنا"، وهؤلاء الذين ينتمون إلى المجموعة الأخرى "الآخر أو الغير". وعلى الأرجح ستكون هناك منافسة شديدة بين المجموعتين، حتى وإن كان أفراد كل مجموعة غرباء تماماً عن بعضهم البعض، لكن ما أن تبدأ اللعبة حتى يتحوّل هؤلاء الغرباء إلى رفاق في الفريق. هل سبق أن أدركت ذلك وصُدِمْتَ جراء غرابة هذا الأمر؟ ربما كلا، لأنه أمر طبيعي تماماً. على الأرجح أنك كنت ستفعل الأمر نفسه. هذا النزوع والميل نحو "روح الفريق أو الجماعة" سمة متجذرة وموصولة في أدمغتنا وهي التي ساعدت أسلافنا على البقاء والاستمرار في العالم الذي تطوّروا فيه. إنّ بوتقة العلاقات والروابط الصغيرة والمحكمة من القرابة والنسب قد ساعدت على صياغتنا وتشكيلنا نحن البشر على الشكل الذي نحن عليه الآن. وهذا ليس بالتاريخ القديم. فحتى فترة قريبة، أي ما قبل خمسمائة عام مضت، كان ما يزال ثلثي سكان العالم يعيشون ضمن قبائل صغيرة من الصيادين-الجامعين، ذلك النوع من البيئات الاجتماعية التي صاغتنا وشكّلتنا. لكننا مازلنا قبليين بطرق شتى داخل أنفسنا ونفسياتنا. لكننا كنا ما نزال صغاراً جداً. قد تتسائلون: لكن ما علاقة كل ذلك بالدين؟... الجواب: كل شيء. الدين يستغلّ ويوظّف كافة عمليات التفكير الاجتماعي اليومي، آليات تطورية تكيفية قد تطورت لمساعدتنا على مناقشة ومفاوضا علاقاتنا مع الآخرين،

لاكتشاف الوكالة والعمالة والنية، والتوليد شعوراً بالأمان. هذه الآليات قد تم صنعها في العالم غير البعيد جداً في وطننا الأم أفريقيا. وهي السبب الذي ساعدنا على النجاة والبقاء. في حين أنّ الاعتقاد الديني ليس سمة تكيفية بحدّ ذاته، فهو نتاج ثانوي لتلك الآليات السيكولوجية التي سمحت لنا بإدراك أناس آخرين وعوالم أخرى، جميعها قدرات ضرورية وجوهرية لبقاء الإنسان واستمراره. ولأنّ الدين لا يؤثر على تلك السمات التكيفية ولا يغيّرها إلا في نطاق محدود جداً، لكن يمكنه أن يكون قوياً وفعالاً للغاية. دعونا ننظر إلى نتائج النتاج الثانوي التكيفي بطريقة أخرى: هل تحبّ الأغذية والمأكولات السريعة _ولنقل طبق برغر كبير ومغطي بالجبهة، وبجانبه صحن كبير من المقالي المملحة، وكأس كبيرة من الكولا المثلجة أو مخلوق الحليب؟ معظم الناس يحبون أنواعاً مختلفة من المأكولات السريعة، وفي بعض الأحيان يشتهونها يتوقون لتناولها. فإذا لم تكن المأكولات السريعة تغريك، فلربما تتوق من حينٍ لآخر لتناول ضلع من اللحم المشوي. أو قد تشتهي تناول البوظة، قد تتجنّب تناولها بسبب حمية ما أو لأسباب صحية أخرى، لكن لابد أنك قد تتوق لتناولها وتشتهيها من وقتٍ لآخر، وبالرغم من جميع أسبابك التي تمنعك عن ذلك. لماذا يحدث كل ذلك؟ وأين هي الناحية الضرورية والحيوية في هذا المثال؟... إذا فهمتم سيكولوجية الشهية والتوق، اشتهاء تناول المأكولات السريعة _ربما شريحة طازجة ومشوية من ضلع ريّان، أو لوح من الشوكولاتة_ فبإمكانكم استيعاب سيكولوجية الدين بشكلٍ كامل. لقد تطورنا ضمن بيئة خطيرة ووسط قاسٍ يعجّ بالمخاطر. لقد تطورنا ولدينا توق شديد وشهية بالغة لتناول الأطعمة التي كانت نادرة وشحيحة لكنها ضرورية وحيوية من أجل بقائنا الجسدي ولصحّتنا. لا أحد يتوق لتناول القنبيط. فمعظم الخضروات والساقيات كانت متوفرة وموجودة بكثرة، أي أنها كانت

مصدراً وفيراً للغذاء في العالم القديم. لكننا جميعاً نتوق لتناول الدهون، والدسم، وتشتهيها الحلويات. مصدر الدهن الأصلي كان لحم الطرائد وهو مصدر غني بالكميات المركّزة من البروتينات والسعرات الحرارية. الحلويات الأصلية كانت الثمار والفواكه الناضجة، وهي مصدر أساسي وهام للسعرات الحرارية، المكمّلات الغذائية، وفيتامين سي. لم يكن هناك غزارة ووفرة في الطعام، أمّا خطر المجاعة فكان يشكّل تهديداً دائماً لأسلافنا. الشهية أو التوق _بحدّ ذاته_ سمة تكيفية. فهو الحل الأمثل لمشكلة تأمين الغذاء الأساسي والحيوي، ولكن النادر، للحفاظ على الحياة واستمرارها. فعندما اختبر أسلافنا شعور التوق والشهية، بحثوا عن هذه الأغذية وسعوا وراءها، وبفضل هذا التوق وهذه الشهية نجوا وحافظوا على بقائهم وتكاثروا بشكلٍ أفضل من أولئك الذين لم يرثوا هذه السمة التكيفية الهامة، ولذلك لم يبحثوا عن الأطعمة التي كانوا يحتاجون إليها، وما أن وجدوا تلك الأغذية، حيثما تمكنوا من ذلك، تناولوا منها فوق حاجتهم في ذلك الوقت. في العالم الذي تطورنا فيه، لم يكونوا يتوقعون أنّ هذا النوع من الغذاء سيكون متوفراً بغزارة وكثرة في المستقبل. تلك الشهية التكيفية لتناول هذا النوع من الطعام بشكل زائد عن الحاجة ساعدت في حلّ مشكلة وفرة الغذاء غير المتوقعة. لكن في يومنا هذا، وفي أغلب بقاع العالم المتطور، بات الغذاء وفيراً جداً، وقد خلقت حضارة الإنسان طرقاً جديدة لإشباع هذا التوق وإسكات هذه الشهية. الآن أصبح لدينا أغذية سريعة، غنية بالدهون، والدسم الضار وغير الصحي الذي يسدّ أوعيتنا الدموية ويزيد وزننا، وهذا توق قديم للحم الطريدة الهبر والطري الذي بحث عنه أسلافنا وسعوا وراءه. وبدلاً من تناول الفواكه الطازجة والناضجة أصبحنا نتناول الصودا وألواح الحلوى والشوكولا. ومع أننا على دراية تامة بالضرر والأذى الذي تسببه لنا الشحوم والملح

والسكر، إلا أننا ما نزال نشتهي هذه المواد ونتوق إليها، وما لم نضبط أنفسنا ونهذّب شهيتنا، فسنختارها ونفضّلها حتماً على لحم الهبر الصحي والفواكه الناضجة. لماذا؟؟ لأنها تحتوي محفّزات فائقة وخارقة، فأدمغتنا تتفاعل مع هذا الارتفاع الحديث والنسبي للسعرات الحرارية المفرطة والمطلوبة بوصفها مفيدة وضرورية، وكأننا مازلنا بحاجة للتصرّف كما فعل أسلافنا من قبلنا. أدمغتنا تكافئنا. عندما نتناول أغذيتنا المفضلة، تتفجّر مراكز السعادة واللذة في أدمغتنا بمشاعر النشوة. ما نختبره في الحقيقة ليس مجرد شعور بسيط بالرضى، بل لذة ونشوة بالغتين تحررهما مواد كيميائية في الدماغ. هذه المراكز في أدمغتنا، التي يصل بينها الموصل العصبي "الدوبامين"، تقول: «افعلها مجدداً، أو قُمْ بذلك مرةً ثانية». لا يقتصر عمل هذه المراكز على منحنا موجة من السعادة واللذة، بل تحفّزنا على تكرار الفعل الذي منحنا كل هذا الرضى. شعور السعادة والنشوة هو سمة تكيفية أيضاً. وقد ساعدتنا هذه السمة على حلّ مشكلة البحث عن الأغذية النادرة وتأمين ها عن طريق تعزيز استهلاكها، المكافأة عند إيجادها، وتوليد شعور التوق والشهية الذي يضمن استمرارية البقاء. إذن، إنّ تفوقنا غير المعقول لهذه المستحدثات والبدع الثقافية الجديدة ينبع من السمات التكيفية التي ساعدتنا على تأمين وضمان بقائنا واستمرارنا _التوق الذي دفع أسلافنا للبحث عن الشحوم والسكريات، العنصران اللذين ساعداهم على البقاء والاستمرار. لكنّ هذه الأغذية الجديدة، غنية بالدسم والسكر أكثر من أي شيء عثر عليه أسلافنا أو قتلوه، ترضي توقنا وتشبع شهيتنا مع شعور قوي باللذة ومكافأة أعظم ومحفّز ناتج أشدّ من المحفّز الذي يقدمه لحم الطرائد الطري أو الفاكهة الناضجة. لذلك فإننا لا نمزح أو نتهكّم عندما نقول أنكم إذا فهمتم سيكولوجية الأغذية والمأكولات السريعة، فستفهمون سيكولوجية الدين. وباختراعنا للأطعمة

السريعة والجاهزة، كنا قد أسأنا استخدام السمات التكيفية القديمة _ومن دون وعي منّا_ للتوق والشهية وتأمين الشحوم والسكريات التي أبقت أسلافنا أحياءً ومناسبين للتكاثر والتناسل. نحن لم نتطوّر لنتوق لتناول المأكولات السريعة، لكنّ أدمغتنا مازالت تتقبّل هذا التوق بوصفه عملية تكيفية. هذا التوق والشهية لتناول الأغذية السريعة هو عبارة عن نتيجة ثانوية. وقد باتا الآن في منتهى الخطورة ويشكّلان تهديداً جدياً لصحتنا، لأنها إذا لم يُضبَطا ويُسَيطَر عليهما، فإنهما سيؤديان إلى مشاكل صحية لم يسبق أن واجهها أسلافنا من قبلنا. وهنا نصل إلى موضوع الدين، أو بصورة أدق، السمات التكيفية التي تنبع منها معتقداتنا الدينية. هل ما نتوق إليه هو لصالحنا دوماً؟

(3) خبزنا كفاف يومنا: {التوق إلى وصيّ}

«بأيّة حال، علينا أن نعترف _كما يبدو لي_ أنّ الإنسان بكلّ ما فيه من صفات نبيلة... مازال يحمل في إطاره الجسدي طابعاً يتعذّر محوه عن أصله التدريجي والبطيء» [تشارلز داروين] هناك داخل عقولنا مجموعة كبيرة من القدرات العقلية البقائية بانتظار أن نوظّفها وننشّطها. هذه القدرات تساعدنا على توجيه وإرشاد أنفسنا ضمن هذا العالم، وبشكل خاص: العالم الاجتماعي. نحن بالكاد نستطيع ملاحظتها، وحتى عندما نلاحظها، فإننا نعتبرها من المسلّمات والبديهيات ولا نلقى لها بالاً، لكنها مقدرات رائعة ومذهلة، وكانت حيوية جداً من أجل بقائنا واستمرارنا خلال مسيرة تطورنا، ومازالت في منتهى الأهمية والحيوية. هذه السمات الحيوية هي أحجار البناء الأساسية للمعتقدات الدينية.

نظام الارتباط

كما تقول الأغنية الشهيرة: «كلنا بحاجة لكتف نتكئ عليه» نظام الارتباط attachment system هو أحد أقوى سماتنا التطورية وأكثرها فعاليةً. ما كان لنوعنا أن ينجو، ناهيك عن أن يتطور، لولا هذا النظام. فعندما نصاب بنكبة أو تحلّ بنا مصيبة، فإننا نلجأ إلى حضن أو وصيّ. هذه الحاجة الدافعة تبدأ منذ اليوم الأول الذي نخرج فيه من بطون أمهاتنا _ومن وجهة نظر عصبية-كيميائية، أبكر من ذلك على الأرجح. أول من تحدّث عن هذا النظام هو العالم النفساني البريطاني جون باولبي خلال أربعينات القرن العشرين، ثم تناولها لاحقاً وتعرض لها بشكل أكثر تفصيلاً عالمة النفس الكندية -الأمريكية ماري آينسوورث ضمن سلسلة من التجارب المحكمة مع أم وابنها، فنظام الارتباط يشكّل أساس العلاقة بين الأهل والأولاد. إنها ميراث تاريخنا كثدييات، تاريخنا الذي يعود إلى أكثر من عشرات الملايين من الأعوام أو أكثر حتى. يرى علماء الأعصاب المعاصرون أنّ الارتباط عبارة عن حاجة أولية لدرجة أنّ هناك شبكات كاملة من المشابك العصبية (عصبونات) في الدماغ مكرّسة لها، كما أنّ عملية تشكيل روابط ووصلات طويلة الأمد معزّزة بالأوكسيتوكسين، وهو ببتيد عصبي سنناقشه لاحقاً بتفصيل أوسع. يمثّل نظام الارتباط عندما نكون صغاراً وضعفاء حلاً لمشكلة العثور على المصدر الأساسي لشعورنا بالأمان والطمأنينة والتعلّق بذلك المصدر. وعندما نكبر، فإننا نستخدم نفس نظام الارتباط في علاقاتنا الرومانسية. وبعد خبوّ هالة العلاقة الرومانسية بين الشريكين، يظلّ نظام الارتباط باقياً. فهو يستخدم العلاقة الأصلية بين الأبوين-الابن لتوطيد العلاقات والروابط بين البالغين وتعزيزها. الارتباط أيضاً يؤثر على علاقات الراشدين الأخرى، فعلاقات الصداقة القريبة يتمّ توظيف

نظام الارتباط فيها، لهذا السبب تجد نفسك منجذباً نحو أصدقاء معينين دون غيرهم عندما تشتدّ بك الظروف. فخلال عملية تطورنا وتشكيلنا في جماعات صغيرة، ساعدت الارتباطات مع شركاء آخرين وأفراد آخرين على تعزيز ودعم وجودنا وبقائنا كأفراد وكنوع. أحد الأمثلة الصارخة والواضحة على نظام الارتباط عند أسلافنا يورده علينا عالما الأنثروبولوجيا الحفرية ألان واكر وبارت شيبمان في متن حديثهما عن امرأة من فصيلة "الإنسان المنتصب/ هومو أريكتوس" تمّ اكتشاف بقاياها في أفريقيا. وقد أظهرت البقايا المكتشفة أنها ماتت نتيجة تسمّمها بفيتامين أ، على الأرجح لأنها تناولت كبد حيوان ما. من المرجّح أنه بعد التسمم، عاشت فترة أسابيع، وربما أشهر، وكانت تعاني من نزيف حاد مترافق مع ألم مبرّح. هذه المرأة ما كانت لتنجو بين السافانا منذ أكثر من مليون عام لو لم يكن بجانبها وصيّ أو أحد ما يعتني بها ويرعاها. لابد أنّ هناك أحد ما كان يوفّر لها الطعام والماء، وحماها من الحيوانات المفترسة خلال الليالي الإفريقية الموحشة. اليوم، بتنا نرى نظام الارتباط كل يوم في حياتنا وخلال علاقاتنا الشخصية الخاصة مع الأصدقاء، الأحبة، الشريك، والأولاد. في الحقيقة، نظام الارتباط هذا مقبول على نطاق واسع وإن ليس بشكلٍ شعوري معظم الأحيان. الناس لا يتعلّقون بعائلاتهم فقط، إنّما يتعلّقون بحيواناتهم الأليفة، أحبّتهم، وأصدقائهم المقرّبين. وحتى صديق تشارلي براون "لينوس" مرتبط بملاءته ومتعلّقٌ بها، كما يتعلّق أي طفل صغير بحيواناته المحشوّة المفضّلة لديه. جميع هذه الأمور تجعلنا نشعر بالأمان والطمأنينة. وبالطبع، الأشخاص المتديّنون شديدو التعلّق والارتباط بإلههم/ آلهتهم. الأمر هنا ليس من قبيل الإيمان في شيء، أو له شأن بالقفزة الإيمانية لرؤية نظام الارتباط وهو يعمل ليس فقط على مستوى التفاعلات الجسدية والبدنية، إنّما أيضاً على مستوى الميل الإنساني بالرغبة في الانتماء أو الارتباط

بأي بنية دينية، بالإضافة إلى عبادة كائن أزلي، محب، ومطلق لا يتغيّر. تصوّر طفلاً في الثانية من عمره يريد منك أن تحمله وترفعه وتلاعبه. ستراه يمدّ يديه نحو الأعلى إلى ما فوق رأسه ويستعطفك متوسّلاً. تصوّر أتباع مذهب العَنصَرَة من المؤمنين الملتزمين الذين يتحدثون بلهجات غير مفهومة، تراهم يرفعون أيديهم على طولها حتى تعلو رؤوسهم متوسّلين مستعطفين الله بنفس الإشارة الطفولية "إحمِلني وضمّني إليك".

قد نفقد العلاقات والروابط بالموت، وبسوء التفاهم، وببعد المسافات، لكنّ الله موجودٌ دوماً في داخلنا ومن أجلنا. نحن نرى ذلك غالباً في علم النفس العملي/ أو العلاج النفسي التطبيقي. شابّة مريضة تمّت الإساءة لها جسدياً، نفسياً، عاطفياً، وكلامياً من قبل والدها الذي بحثت عن نقيضه في الدين المسيحي: والد محبّ وحنون سيحبها ويقبل حبها من دون شروط. وستطلب المشورة والرشاد من الله من أجل قرارات حياتها، تتحدث إليه كما يتحدث أي شاب يافع مع والد محب ومعطوف وداعم، وقلعة حول ردّة فعله كما تقلق الفتاة الشابة من ردّات فعل والدها. والحقيقة هي أننا لا نفقد أبداً التوق لوصيّ أو شخص ما يهتم لأمرنا. من الذي سيحميك أنت وأحبّاءك من الجوع، المرض، الكوارث الطبيعية والإنسانية، الموت، وغيرها من مآسي الحياة؟ والداك؟ عندما كنت طفلاً صغيراً قبل أن تكون قد تعلّمت مفهوم الله حتى، كانا هما _والداك_ إلهين بالنسبة لك، فقد كانا قادرين على فعل أي شيء. اليوم، إذا كانا ما يزالان على قيد الحياة، فإنك تنظر إليهما على أنهما مجرد إنسانين عاديين، من دون أي قوى أو قدرات أخرى أكثر من مجرّد الحماية، تهدئة الجروح، وإرشادنا خلال معترك حياتنا. بل ربما أصبحا الآن يعتمدان عليك أنت لتعيلهما. الأب السماوي المطلق العلم والقدرة _إذا استعطفته وتوسّلت إليه بإخلاص_ لا يحمينا نحن وأصدقائنا وأحبائنا فحسب، بل يساعدنا أيضاً على إيجاد

مجتمع يحمل أفكاراً شبيهة بأفكارنا، يحمينا من الخوف من الموت، يضمن لنا خلاصنا ويمنحوا حياةً أخرى تعوّضنا عن آلا ومآسي جميع البشر. ذلك هو وعد الدين. أهلنا لا يستطيعون الاعتناء بنا ورعايتنا إلى الأبد، لكنّ بهوه يمكنه ذلك. لا يوجد ملحدون في جحر الثعلب [أي أنّ المتدينون المؤمنون وحدهم هم من ينالون رعاية الله وهم وحدهم في جحر الثعلب، أما غير المؤمنين فلا رعاية أو عناية إلهية لهم]. الدين يمنحنا "أبوين ما ورائيين"، شخصيات ارتباطية عظيمة لم نختبرها في حياتنا اليومية من قبل، ولن نختبرها. فعندما نصاب بنكبة، فإننا نلجأ للإله الذي يسمع صلواتنا ويستجيب لها، يحقق لنا أمانينا، يحمي أحباءنا وأصدقاءنا، ويضمن لنا مكافأة مجزية مهما بلغت فداحة مشكلاتنا. وعلى غرار ذلك التوق والشهية للأغذية والمأكولات السريعة، والذي نتج عنه نتائج عكسية، تنبع الأفكار الدينية من السمات التكيفية، لكنّ أديان اليوم تمنحنا دوافع ومحفّزات فائقة وجوائز عظيمة بإمكانها أن تدفع الإنسان نحو البحث اليائس عن المزيد منها. مثل شهيّتنا للأغذية السريعة وتوقنا الشديد لتناولها تظهر الأفكار الدينية من السمات التكيفية التي ساعدت أسلافنا على النجاة والبقاء أحياء والاستمرار _ لكن ذلك لا يعني أنّ هذا التوق وتلك الشهية مفيدين لنا ولصحّتنا. ما الذي تفضّله، الصويا أم قطعة من اللحم المشوي؟ نبات البروكولي أم قالب من الحلوى؟ أياً من هذه المأكولات تمنحك إحساساً عميقاً بالسعادة وشعوراً باللذة؟

الارتباط والرفض

هذه الحاجة إلى الارتباط والتعلق تساهم في تسهيل تقبّلنا للدين وتصعّب علينا رفضه والتخلّي عنه ببساطة شديدة، نحن نريد أن نؤمن بشيء ما محب وأزلي. ويمكننا ملاحظة ذلك في حياة تشارلز داروين الخاصة. فعندما ذهب في

رحلته الشهيرة على متن "البيغل" من سنة 1831 إلى 1835، كان ما يزال تكوينياً يؤمن بنظرية الخلق والتكوين. وعندما عاد من رحلته، قدّم العينات التي كان قد جمعها من طيور غالاباغوس إلى عالم الطيور جون غولد. كان داروين قد وضع في اعتباره فكرة أنّ الأنواع لم تكن ثابتة أو غير قابلة للتغيّر، غير متطورة مع الزمن _لنكون أكثر تحديداً، ليست هي الخلق الثابت وغير المتغيّر لله. وعندما أخبره غولد أنّ طيور غالاباغوس كانت نوعاً من العصافير غير المعروفة، ولم يتحدث عنها أحدٌ من قبل، أصبح من الواضح بالنسبة له أنّ الأنواع كانت تتغيّر حسب البيئة ومع مرور الزمن. في صيف عام 1837، فتح داروين دفتر ملاحظاته الشهير وشرع في رسم شجرة الحياة، مصوّراً الفكرة التي تنصّ بأنّ الأنواع تتطور. وأشار بأنّ «الإنسان بتكبّره وغطرسته يعتبر نفسه أنه حصيلة عملٍ رائع، جديرٌ بتدخّل إلهٍ عظيمٍ من أجله. ومن التواضع _باعتقادي_ اعتباره أنه انحدر من حيوان». لم يكن داروين قد فهم بعد الآلية التي تحدث بها التغيرات على الأنواع مع مرور الوقت، وفي شهر سبتمبر من عام 1838، قرأ كتاب مالتوس "مقال في مبادئ علم السكان" التي جاء فيها أنّ الحيوانات تتكاثر وتتناسب وتنجب أكثر ممّا تحتاجه لتظلّ وتحافظ على بقائها واستمرارها. لذا توصّل إلى اعتقاده بأنّ هناك صراع يجري من أجل البقاء، وهؤلاء الأفراد الذين كانوا يمتلكون السمات والخصائص والميزات اللازمة للبقاء والتكاثر هم الذين بقوا واستمروا في المستقبل. لقد فهم العملية واستوعبها جيداً. لكن حتى داروين كان قد واجه صعوبة في رفضه للدين وتخلّيه عنه . لقد كان _في ذلك الوقت_ خاطباً ابنة عمه إيما ويرجوود. وفي يومٍ من أيام خريف عام 1838 كان قد أطلعها على أفكاره. كتبت تقول في رسالة وجّهتها مازالت موجودة حتى الآن «عقلي يخبرني أنّ الشكوك النزيهة والوجدانية لا تعتبر خطيئة على الإطلاق، لكنني أعتقد أنّ هناك

شرح كبير سيفصل بيننا». لكنهما تزوّجا في شهر يناير من عام 1839. كان داروين بالتأكيد قد أكمل فكرته عن الانتقاء الطبيعي في ذلك الوقت، لكنها بقيت على الرفوف من دون أن تنشر لحوالي عشرين عاماً، ربما لأنه كان يعرف مدى الحزن والتعاسة التي ستجلبها نشر فكرته لزوجته العزيزة. لكن خلال فترة خمسينيات القرن التاسع عشر، بات من الممكن ملاحظة الفرق والاختلاف بينهما في أيام الآحاد. كان يسير برفقة إيما والأولاد إلى الكنيسة. كانت تدخل هي والأولاد إليها، أمّا هو فكان يكمل سيره. توفيت ابنته الغالية آني بعد إصابتها بمرض السل، وبموتها مات إيمانه بالله. قبل عامٍ واحدٍ من وفاته عام 1881، عندما كان على وشك الانتهاء من وضع سيرته الذاتية، أعاد داروين قراءة الرسالة التي بعثتها له إيما في شهر فبراير عام 1839، حيث كتبت له فيها قائلةً: «عسى ألا تؤدي عادات البحث العلمي في عدم الإيمان بشيء حتى يتمّ إثباته، إلى التأثير على عقلك فيما يخصّ الأشياء الأخرى التي لا يمكن إثباتها». كانت إيما مسيحية ملتزمة، وكانت على الأرجح تشعر بالتعاسة والكرب من أفكار زوجها، وبالتأكيد من عدم إيمانه بعد أن كان قد فقده. وفي نهاية تلك الرسالة كتب داروين الملاحظة التالية:«عندما أموت، فلتعلمي عزيزتي بأني قد بكيت عدّة مرات وقبّلت هذه الرسالة... ت.د». لا يقتصر الأمر على كون نظام الارتباط يعتبر جزءاً أساسيا من الإيمان الديني فحسب، بل على الأرجح أنه واحدٌ من السمات التكيفية التي تجعل من عملية التخلي عنه والخروج منه أمرا في غاية الصعوبة. يقول كارل غيبرسون في كتابه "إنقاذ داروين: كيف تكون مسيحياً وتؤمن بالتطور":«لديّ سببٌ مقنع وكافٍ للاعتقاد بالله. كان والديّ مسيحيين ملتزمين ومؤمنين مخلصين، وأعتقد أنهما كانا ليشعرا بخيبة الأمل لو أني رفضت ديني، زوجتي وأولادي يؤمنون بالله، وترك الإيمان بالله وإنكاره سيكون أمراً كارثياً، سيشتت

عائلتي ويحزن زوجتي». لكنّ أحبائنا ليسوا بحاجةٍ لإخبارنا بشكلٍ مباشر وصريح بأنّ تخلّينا وهجرنا كما كان سيعتبر سابقاً معتقد مشترك، أو عدم رغبتنا في مشاركة هذه المعتقدات بعد الآن، سيجعلهم تعساء ومكروبين. نحن نعلم ذلك جيداً، لأنّ السمات التكيفية البشرية الأخرى _التي أصبحت الآن أجزاء حيوية من أدمغتنا_ تسمح لنا بتوقع ردّات فعلهم تجاه قراراتنا، حتى وإن لم يقولوا شيئاً. وهي تبدأ مع قدرتنا على فصل عقولهم عن أجسادهم وتجريدها عقلياً، والتي ترجع أصلاً إلى قدرتنا ليس على الإيمان بما لا نستطيع رؤيته فحسب إنما أيضاً على التفاعل مع الخفي وغير المرئي. لقد ولدنا ونحن مزوّدين بالمقدرة على قراءة ما قد يفكّر فيه الآخرون حتى وإن لم يكونوا بجانبنا ليخبرونا عن رأيهم. بطريقةٍ ما، جميع هؤلاء الذي نرتبط بهم يتحوّلون أحياناً إلى أصدقاء خياليين.

(4) كل ما هو ظاهر وخفي: {تصوّر الأرواح}

« إنّ أعلى مستوى ممكن في أي ثقافة أخلاقية يكون عندما ندرك أنّ علينا السيطرة على أفكارنا» [تشارلز داروين]

ثنائية "روح/ جسد"

لأننا نحتاج لأن نعمل ونتعاون مع الآخرين لكي نحيا ونحافظ على بقائنا، فقد طوّرت عقولنا القدرة على إصدار افتراضات بشأن الآخرين، لخلق حدس أو تخمين يساعدنا على البقاء والتعايش المشترك في الأوضاع الاجتماعية. لقد وُلِدنا وَوُلِدَ معنا قبولنا لواقع أنّ الآخرون مثلنا تماماً، عملاء قصديون لديهم نوايا ومقاصد وعقول مثلنا تماماً، مع أننا لسنا قادرين على رؤية ما يدور بداخل عقولهم. أحد جوانب هذه العملية يسمى "فاصل الروح والجسد"، أو "ثنائية روح/ جسد"، وهو الرأي القائل بأنّ العقل والجسد كلٌ منهما يعمل بطريقة مختلفة ومستقلة، ومن دون أي تداخل بين

الجانبين. نحن لا نستطيع تصوّر الأرواح ما لم نعتبر العقل كيان مستقل عن الجسد. ونحن نقوم بذلك، لأنّ عقولنا مكوّنة بهذه الطريقة ولهذا الغرض بالضبط. المنطقة الجبهية الوسطى في أدمغتنا، الواقعة ضمن التجويف بين العينين، تحتوي على الدارات والأدوات التي تساعدنا على الاستبطان وسبر أغوار الآخرين، وعلى إدراك وجودنا غير المادي، حالاتنا الشعورية والعاطفية، ورغباتها وأمانينا. هذه المنطقة أيضاً هي ذلك الجزء من دماغنا الذي يساعدنا على تأمّل "الأمور المجرّدة": عقول الآخرين، نواياهم ومقاصدهم، معتقداتهم، رغباتهم، مشاعرهم _أي كافة جوانبهم غير المادية. هذه المقدرة غير مكتسبة، لا نتعلّمها، بل متجذّرة بأدم غانا فطرياً. الدماغ يمثّل العقل والجسد في دارات عصبية منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض. وهذا ما يسمح لنا بالفصل بين العقول والأجساد، لكي نشعر ونؤمن بأنهما كيانين منفصلين ومختلفين تماماً. الجزء الجانبي من الدماغ هو الجزء الذي ندرك من خلاله الأشياء المادية، الصلبة، والمرئية، كوجوهنا وأجسامنا وحركات الآخرين من حولنا. كما أنه الجزء الذي ندرك من خلاله العمليات غير الطبيعية أو العادية التي تحدث من حولنا، كإدراك شيء ما يتحرك في حين أنه ليس من المفروض أن يتحرك. الأفكار الدينية فعّالة ومؤثرة وراسخة لأنها تتناسب بشكلٍ تامٍ مع هذه البنية، هذه الثنائية، هذا الانفصال والانقسام بين الروح والجسد. وعلى غرار العديد من المفاهيم المهمّة للدين، فإنّ الانفصال بين المتحرّك والثابت يمكن ملاحظته عند الأطفال والأولاد الصغار. الطفل ذو الخمسة أشهر الذي يرى صندوقاً يتحرك من تلقاء نفسه سيخاف ويجفل. بينما الشخص المتحرك هو جزء طبيعي من حياتنا اليومية ولا يسبب أي اضطراب أو خوف لنفس ذلك الطفل. م الطبيعي جداً في عقل ذلك الطفل أن يفكّر في العملاء القصديون المتحركون، لكنّ شيء ما مادي وساكن _الصندوق_ من

المفروض أنه لا ينبغي أن يتحرك مثل العملاء القصديين_الإنسان في هذه الحالة. في تجربة رائدة أجريت على الأولاد، قامت عالمة النفس من جامعة كوينز بإيرلندا، جيسي بيرينغ، بإقامة عرض للدمى. ضمن هذا العرض، يقوم التمساح–الدمية بابتلاع فأر–دمية. عندها سألت بيرينغ الأطفال عدّة أسئلة حول الفأر. هل مازال الفأر يأكل؟ كان الأطفال يعرفون أنّ الفأر لم يعد بمقدوره الأكل، لكنهم كانوا يعتقدون أنه اشتاق لأمه. هؤلاء الأطفال الصغار نسبوا إلى الفأر الميت حالة عقلية، أي أنهم لم يكونوا قادرين على استيعاب فكرة أنّ الفأر لم يَعُدْ موجوداً. هذا المفهوم يظهر غالباً خلال النقاشات حول الحق بالإجهاض، ويبدو بصيغة مختلفة بعض الشيء: "كيف سيكون شعورك لو أنهم أجهضوك وأنت في رحم أمك؟" تظهر تجربة بيرينغ البسيطة والرائدة أنه حتى الأطفال يظهرون نمطاً من الفصل بين العقل والجسد، وهذا يعني أنّ الإيمان بالغيبي والماورائي هو شيء لا نكتسبه أو نتعلّمه من ثقافتنا خلال نموّنا وانتقالنا من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة والرشد. الإيمان بالماورائي هو أداة أصلية، ولا تحتاج لأي تلقين أو تعليم اجتماعي. الأطفال يظهرون أيضاً جانباً آخر من جوانب أساس الاعتقاد الديني. أكثر من حوالي نصف الأطفال الذين بلغوا عامهم الرابع لديهم أصدقاء خياليون. ويتبيّن أنّ هؤلاء الذين يملكون أصدقاء خياليين يتجون ليصبحوا أفراداً أكفّاء أكثر اجتماعيا. بشكلٍ أو بآخر، الله هو صديقنا الخيالي. مهما كان نوع الماورائي الذي تفرضه علينا ثقافتنا، فإنه يسقط على عقول مبرمجة مسبقاً وجاهزة لقبول تلك الحياة العقلية البشرية والمقدرات التي تنفلت من الجسد الحي أو الميت. المعتقدات الماورائية للدين بالكاد تستغلّ الطريقة التي تفكّر فيها عقولنا فيما يتعلّق بالآخرين، عقولهم، ورغباتهم. لذا يبقى العقل وكل ما يدور في فلكه منفصل عن الجسد. إنّ الفهم الأوسع لنظام الارتباط وثنائية الروح/ الجسد

هو مجرّد نقطة البداية لفهم الطرق التي يمكن من خلالها خداع العقل والتلاعب فيه لكن يؤمن ويصدّق.

الوجودية

القسم الأول : مقتطفات من المعجم التاريخي للوجودية

ستيفن مايكلمان

هذا الفصل هو ترجمة لمقدمة كتاب "المعجم التاريخي للوجودية" لستيفن مايكلمان. وذلك لإعطاء لمحة تاريخية وافية عن تاريخ الفلسفة الوجودية ونشأتها وفلاسفتها.

Historical Dictionary of Existentialism Stephen Michelman. The Scarecrow Press 2008.

[1] الوجودية: فلسفة إنسانية نحن بأمس الحاجة إليها

ما الفلسفة الوجودية؟... وكيف نفهمها؟... ومَنْ هو الإنسان الوجودي؟... بوسعنا القول أنّ الوجودية _من حيث تعريفها الأشمل_ فلسفة تجعل الحياة ممكنة. ويقدر ما يبدو هذا التعريف ناقصاً ومطّاطاً، فعندما نفهم ما معنى الوجودية سنعرف عمّا تدور الفلسفة الوجودية وحول ماذا يتركّز تفكير الفلاسفة الوجوديين. ولكن إذا كانت الوجودية هي الفلسفة التي تجعل حياتنا ممكنة ومحمولة، عندها يمكننا أن نتساءل: لماذا نحتاج إلى "فلسفة" لكي نستطيع عَيش حياتنا؟ أليس الأمر أبسط من ذلك بكثير؟ أليس الأكسجين كافياً؟... في الحقيقة، نعم، إنّه يكفي. هذا إذا كنتم جلّ ما تريدون فعله هو التنفّس فقط. فطبقاً لما يراه الوجوديون أنفسهم، الإنسان لديه رغبة شديدة في أن يحيا حياةً مليئة وأصيلة، حياة سعيدة وممتلئة تتماشى مع نزاهته وجوهره الإنسانيين. ولهذا السبب، كما يقولون،

نحن بحاجة _على أقل تقدير_ إلى الأكسجين، مع جرعة معتدلة من الوجودية. ولكي نفهم السبب في ذلك، لابد أن نضع في حسباننا حقيقة أنّ معظم الفلسفات والمذاهب الفكرية قد نشأت كردود فعل لمشاكل معينة. فالضرورة، بالنهاية، أمّ الاختراع. بشكلٍ عام، المشكلة التي تركّز اهتمام الفلاسفة الوجوديين عليها كانت مشكلة "المعنى". معنى الحياة، ومعنى الوجود، ومعنى الألم، ومعنى الوحدة والشعور بالغربة، والمعنى من هذا كله. فالإنسان توّاق للمعنى، إنه يتوق لعالمٍ منظّم ورتيب يستطيع فهمه والتحكم به. عالم له معنى. ولكن عندما يصطدم بصخرة الواقع، ويدرك أنّ العالم أصم وصامت، وغير متجاوب، عندما يكتشف عُقم القصص التي رواها لنفسه وأقنع نفسه بها كمحاولة لإضفاء المعنى على العالم، سيشعر بأنّه غريبٌ عن هذا العالم ووحيد

[2] : هذا الظرف التاريخي الهام هو الظرف الذي وجد الوجوديون أنفسهم أنهم عالقون فيه. فمع مجيء الثورة الصناعية والعلمية في القرن التاسع عشر، وتغيّر النماذج والقوالب الفكرية في المجتمع وعلمانيته، طرأ على النظام الاجتماعي التقليدي تغيّر حادّ وخلال فترة زمنية قصيرة. فخلال هذه الفترة، بدأ الناس يشعرون بأنهم منفصلين عن المنظومات العقائدية التقليدية التي كانت تساعدهم _سابقاً_ في فهم العالم من حولهم واستيعاب حياتهم ضمن أُطُر ونماذج مُعَدّة. في ظلّ هذه الظروف، يمكننا القول أنّ الناس كانوا ينتحرون روحياً، إن لكم نقل أنّهم كانوا ينتحرون بالمعنى الحرفي، بل كانوا يعانون من حالة "مَوَات روحي" أو خَوَاء، الأمر الذي كان مؤشّراً خطيراً عن السبيل الذي ستمضي فيه الحضارة. وهذا ما يحدث عندما يستسلم البشر للعَطالة الروحية ويسقطون أمام ما يرونه على أنه وجودهم العَبَثي الخاوي غير المُجدي.

[3] : لذلك يمكننا القول: أنّ الوجودية هي الفلسفة التي وضعت يدها على المشكلة وتحاول جاهدةً تحديد معالمها وتفسيرها وإيجاد العلاج الناجع لها. فإذا أردت عزيزي القارئ تنظيم التعريف الذي انطلقنا منه، يمكنك القول أنّ الوجودية هي الفلسفة التي تجعل "الحياة الإنسانية الأصيلة" أمراً ممكناً في عالم عَبَثي خالٍ من المعنى. ولأنّ الوجوديين كانوا مستقلين عن بعضهم الآخر ومختلفين فيما بينهم من حيث طريقة تناول كل منهم للمشكلة، وفي تفاصيل ردود أفعالهم وآرائهم نحوها، الأمر الذي يصعّب علينا صياغة تعريف جامع مانع ومحدد للفلسفة الوجودية. لكن الشيء المشترك الذي يوحّد جميع الوجوديين _فضلاً عن بحثهم في مشاكل المعنى والوجود والأصالة_ _ يتمثّل في مجموعة من الثيمات والمشاغل التي جمعتهم وأغنَت نقاشاتهم ونوّعتها.

[4] : لو تسائلتم من قبل «ما معنى هذا كله؟» أو «لماذا نحن هنا؟» أو «ما الذي أفعله بحياتي؟»، عندئذٍ أنتم تتسائلون أسئلة وجودية. طبعاً هذه الأسئلة كانت موجودة دائماً منذ طفولة الجنس البشري. أو على الأقل منذ هبطوا عن الأشجار واكتشفوا الزراعة، واستقروا، ووجدوا الوقت الكافي والرفاهية الكافية ليطرحوا على أنفسهم تساؤلات أعمق من «أين أجد وجبتي التالية؟» و «كيف سأجد طعامي اليوم؟» و «كيف سأنجو من هذه الليلة دون أن يأكلني الدب في الغابة حتى يتسنّى لي العيش حتى ذلك اليوم الذي سأتسائل فيه عن معنى الحياة والوجود؟» ولكن الشروع في تساؤلات عميقة لا يجعل منك فيلسوفاً. إذن ما الذي يجعل من الوجودية فلسفة عن الوجود؟... الفلاسفة يحلّلون، إنّهم يفكّرون ويبحثون عن حجج وأدلّة، ويستنبطون أسباباً تبرّر معتقداتهم وأجوبة مدروسة ومعقولة لتساؤلاتهم. كما أنّهم يميلون إلى تطوير المنظومات الفكرية، ولكنّ الوجوديون ليسوا من أنصار المنظومات

والأنساق الجاهزة. ففي الأزمنة البدائية، لم يكن لدى البشر الوقت الكافي أو المعرفة اللازمة لممارسة مثل هذا النشاط الذهني المترف كالتأمّل أو البحث. وحتى في المجتمعات الحديثة كمجتمعاتنا العربية لا يبدو الأمر مختلفاً أيضاً. فكّر في حياتك الخاصة، لابد أنّك طرحت بعض التساؤلات الوجودية البدائية من وقتٍ لآخر، ولكن مابين سعيك المحموم لتأمين لقمة العيش لعائلتك، وضغوط العمل والحياة، والغلاء وارتفاع سعر الدولار، وأقساط الأولاد، وخلافاتك أنت وزوجتك، أو التزاماتك المادية والعائلية المتراكمة، وبين الحرب الطاحنة الدائرة في عدد لا يعلمه إلا الله من الأطراف المتنازعة، هل سبق ووجدت الوقت الكافي لتعثر لنفسك على إجابات مُرضية عن تساؤلاتك الوجودية العادية؟

[5] : جادل البعض بأنّ الوجودية، وخصوصاً في صيغتها البدائية عند الفلاسفة الوجوديين الأوائل، لايمكن أن يقال عنها أنها "مذهب فلسفي"، لأنّ الفلسفة تبحث عن أسباب ومبادئ وتبنيها على أسس منطقية وعقلانية. ولكن هناك سمة هامة تميّز الفكر الوجودي وهي "اللاعقلانية": اي إيمانها بأنّ العقلانية ليست هي النموذج الوحيد للفهم الإنساني المرتبط بالعالم. علاوة على ذلك، أغلب المفاهيم والأفكار الفلسفية الوجودية يتمّ توصيلها عن طريق الروايات، والشعر، والأمثال. وهذا ما أدّى ببعض الفلاسفة النّسقيين باعتبار الوجودية مجرّد صيحة أو حركة ولا ترقى لمستوى الفلسفة. وأنا أعتقد بدوري، كحال الكثيرين الذين درسوا الوجودية وتاريخها ومفاهيمها، أرى أنّ الوجوديين طوّروا مواقفهم الخاصة واكتشفوا الكثير من الأمور التي تبيّنت صحّتها وصوابيتها عن طريق التفكير المنظّم. ولكن هل هذا يجعل منهم مجرّد منافقين يدّعون ما لا يعتقدون؟... طبعاً لا. يخبرنا بطل نيتشه في كتابه "هكذا تكلّم زرادشت" بأنّه التقى بأُذُن لم يدرك سوى مؤخّراً أنها كانت متّصلة

ببقايا إنسانٍ. وقد قيل له أنّ هذه الأذُن كانت إنساناً عظيماً فيما مضى، لكنّ زارا يعتقد أنّه بالغ بتطوير عضو واحد من جسده دون غيره من الأعضاء. لكنّ الوجوديين لم يرتكبوا نفس الغلطة، فهُم يرفضون التحسين الحصري والمفرط للعقل وحده دون سواه، ويعتنقون مفهوماً أوسع وأشمل.

[6] : تبدأ الفلسفة وتزدهر في مجتمع يصل إلى نقطة يجد فيها بعض أفراده الوقت الكافي والرفاهية الكافية ليس لطرح أسئلة كهذه فحسب، بل أيضاً والبحث عن إجابات دقيقة ومفصّلة ومنظّمة عنها. وبسبب الطبيعة المجرّدة والمركّبة للفلسفة، سيكون من المفيد تدوين هذه الأفكار والتفاصيل وتسجيلها. فالتناقل الشفوي عظيم في رواية قصص تاريخية ودينية. وهذه القصص تنطوي في داخلها على قدرٍ كبيرٍ من التعقيد والعُمق والحكمة، وأغلبها _كملحمة كلكامش مثلاً أو عندما في الأعالي/ إينوما إيليش_ ذات طبيعة وجودية. إنّ السمات البارزة والمفاهيم القوية التي تكمن في هذه القصص قد تجرّدت بالكامل من تلك القصص مع اختراع الكتابة. مشاركة الآلهة في حرب طروادة بسبب أجمل مرأة في العالم هي قصة جميلة جداً ومشوقة وتستحق أن تُروى خلال أمسيات السهرات بين الأقارب والعجائز. وستسمعونها مراراً وتكراراً حتى تحفظونها عن ظهر قلب، وتبدأون بقصّها بأنفسكم ومناقشة معانيها الكامنة مع الآخرين في سهرات مسائية أخرى. أما نظرية المُثُل لأفلاطون؟ أو نظرية هيدغر عن الدازاين؟ أو تفسير سارتر للموجود بذاته؟... فهي أمور لا نتناولها عادةً خلال سهراتنا. مع مرور الزمن وقفت الفلسفة على قدميها ومضت في مسيرتها، ولكن مع تقدّمها كان لمعظم هذه التساؤلات إجابات كانت مقبولة ومنتشرة على نطاق واسع، مع أنها كانت مزيّفة وغير حقيقية، ولا تقدّم الكثير. ومع بعض الاستثناءات، وبعض المتمرّدين هنا وهناك، استمر هذا القبول العام

والواسع حتى نهاية العصور الوسطى. عندها فقط يمكننا ملاحظة الإرهاصات الأولى للفكر الوجودي المعاصر، ولكن حتى في تلك الفترة، كانت الفلسفة بالكاد مجرّد همسات غير مسموعة داخل زوبعة من صخب القرون: حوار صغير ضمن مسرحية لشكسبير، وربما بضعة أبيات شعرية لميلتون، أو مقطع من رواية. ولكن مع حلول القرن الثامن عشر، بدأت عناصر ممّا يمكن تسميته الآن بالفكر الوجودي بالنمو بشكل تدريجي في الأدب وحتى في الفلسفة، وارتفعت وتيرة الهمسات لمستوى مسموع لتتحوّل إلى تمتمات صاخبة. وخلال القرن التاسع عشر، انتعش الفكر الوجودي ليصبح نداءً وسط الصحراء، ومع حلول القرن العشرين، تحوّل إلى صراخ مُدَوٍّ من على أحد جوانب المحيط الأطلسي.

[7]: هناك عشر سمات ومشاغل وجودية شائعة مشتركة بين جميع الوجوديين، وتظهر في جميع أعمالهم وكتاباتهم مراراً وتكراراً، في أعمالهم الفلسفية، إلى جانب الأفلام، والفنون، هي: 1] العَبَث/ المُحال: بالنسبة للوجوديين، الحياة عَبَثية، لا معنى لها، وغير مُجدية، ولا غاية تُرجى منها، لكنّ البشر بحاجة لإضفاء المعنى عليها، أن يكون للحياة معنى وهدف. 2] رفض كافة أساليب إضفاء المعنى: لا يكتفي الوجوديون بالقول أنّ الحياة عبثية وتخلو من كل معنى، بل يؤكّدون باستمرار أنّ أساليب إضفاء المعنى كالفلسفة والدين والعلم فشلت في إضفاء أي معنى على الحياة والوجود. 3] الاغتراب: يعني الشعور بأنك غريب عن حياتك الخاصة، غريب في هذا العالم الموحِش واللامبالي. 4] القلق: يعني الشعور بالخيبة والتوتر الذي ستشعر بها عندما تدرك بأنّ بلامبالاة العالم وعبثية الحياة وتفاهتها. 5] الهجران: يعني الشعور بالوحدة والهجران الذي ينتابك عندما تدرك أنّ وحيد في هذا العالم الغريب، وأنّه ليس بمقدور أحد مساعدتك كي تشعر بوجودك وكينونتك. 6] المسؤولية:

كلنا يحمل على كاهله مسؤولية. جيعنا تثقله المسؤوليات. لم يسلّمنا أحد كتيّب لكي نعيش حياتنا بالوجه الأمثل، لذا علينا تحمّل مسؤولية خياراتنا والطريقة التي نختارها كي نعيش حياتنا ونضفي معنىً شخصياً خاصاً بنا عليها. 7] الأصالة: الناس يريدون العيش بأصالة، أي أن يعيشوا حياتهم بطريقة تتناغم مع حقيقتهم كبشر يعيشون في عالم موحِش ولا مبالٍ بهم. 8] الفردانية: أهم جزء في عملية تطوير حياة وجودية أصيلة ومُرضية يتمثّل في التفرّد أو الفَرادة. إنّ العقل، والعلم، والأنساق الأخرى تسعى لتغطية وتزيين عبثية الحياة تنزع منّا فردانيتنا وتقوّض أصالتنا. 9] الشغف/ الارتباط: كوننا نمتلك شغفاً تجاه شيء ما أو ارتباط بشيء ما جانب محوري آخر لعيش حياة أصيلة وحقيقية، والتي تتعرض لهجوم من نفس القوى التي تسعى لتقويض فردانيتنا. 10] الموت: وهو السياق النهائي والإطار الأقصى لجميع الأفعال الإنسانية، المصدر الأكبر لعبثية الحياة وتفاهتها.

[8] لماذا سُمّيَت الوجودية بـ"الوجودية"؟

إنّ وجود تعريف أكثر تحديداً وتفصيلاً للوجودية يوضّح لنا سبب تسميتها بذلك. الوجودية تعني دراسة الوجود. إذ كنتَ تعني تعني بالوجود كل ما هو موجود _كالكراسي والطاولات، الناس والجبال والأحصنة والأشجار_ فكافة الفلسفات والعلوم والأديان تبحث في نفس الموضوع. ولكنّ الوجودية ليست دراسة كل ما هو موجود، بل هي دراسة "الوجود" بذاته _دراسة "معنى" وجود الشيء مقابل عَدَمَ وجوده. كما أنّه دراسة معنى وجود الشيء بدلاً من لاشيء. طبعاً الموضوع الأساسي للفلسفة الوجودية نوع معيّن من الوجود، نفس نوع الوجود الذي يتضمّن وجود اشياء كالإنسان مثلاً، لأنّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يدرك وجوده ويعي كينونته.

[9] موقع الوجودية في تاريخ الفلسفة:

كانت الفلسفة في العالم القديم تُعنى بدراسة كل شيء يمكن دراسته بالعالم. أمّا التخصّص بالدراسة فلم يكن موجوداً حينذاك. وهذا ما مَنَحَ الفلسفة منظوراً أوسع للأمور، ولم يكن هناك شيء خارج نطاق عدستها. وكانت الأسئلة المتعلقة بمكانة الإنسان في الكون والمغزى من الحياة وتناولها الفلاسفة الأوائل بإسهاب. من أبيقور، الذي نادى بالسعي وراء السعادة واللذة الفكرية، إلى أرسطو طاليس الذي دافع عن السعي لتحصيل الفلسفة، وحاولا تحديد ما يميّز الحياة الجيدة والمليئة عن الحياة السيئة والتعيسة، وكيفية تحصيلها. انشغل كلٌّ من سقراط وأفلاطون، وهما من كبار الفلاسفة المبكرين، بالأخص بكيفية قضاء الإنسان لحياته وطريقة عيشه. فبالنسبة لهما كانت المسألة في الأساس مسألة أخلاقية وروحية. فقد رأى أفلاطون العدالة بوصفها النظام الصحيح والحقيقي للنفس وشبّه الفيلسوف بالطبيب الذي يهتم بصحة الروح وسلامتها. فالفلسفة حسب رأيه كانت نشاطاً براغماتياً بامتياز يهدف لحسين نوعية الحياة والوجود. ومع تطور الفلسفة والمجتمع، تغيّر هذا التوجّه تماماً. فخلال القرون، كان النزوع العام في الفلسفة ينحو باتجاه التخصّص والتجريد أكثر وأكثر . وبعد أنّ أصبح السير إسحق نيوتن الشغل الشاغل وأصبح نموذج النموذج السائد في مختلف المجالات المعرفية، اتجهت الفلسفة نحو الطابع العلمي أكثر. أمّا التساؤل عن معنى الحياة وسلامة النفس فقد أفسح المجال أمام مسائل أكثر تقنية وعلمية، واختفى من مختلف مجالات الحياة اليومية. حتى مجال الأخلاق أصبح مجالاً ضيقاً مقتصراً على التفريق بين الخطأ والصواب، بدلاً من تقرير ما يجعل الحياة ذات قيمة ومعنى وجديرة بأن تعاش. هنا، في هذه المرحلة، ظهرت الفلسفة الوجودية على الحلبة، ومن هنا نفهم لماذا كان يُنظَر إلى الوجوديين بصفتهم نقلة نوعية من الفكر

الفلسفي الذي كان سائداً إلى نوع جديد من النماذج الفكرية الفلسفية. وأعتقد أنّ الوجودية، بطرق شتى، تمثّل عودة إلى الجذور الأصلية للفلسفة، عودة إلى المشاغل الأساسية الأصلية المتعلّقة بنوعية الحياة والطريقة التي ينبغي أن نحيا وفقها، وسلامة النفس. ومع أنّ أغلب الوجوديين لن يتقبّلوا فكرة وجود الروح أو النفس الماورائية بالمعنى الأفلاطوني، إلا أنهم كانوا يهتمون بسلامة جميع الأمور والمفاهيم المتعلقة بالروح والنفس، كالإرادة، والحيوية، والمتعة، والقوّة العقلية.

[10] التعاقب التاريخي لأهمّ الأحداث:

1813 ولادة سورين كيركغارد 1831 وفاة فلهلم هيغل 1844 ولادة فريدريك نيتشه 1855 وفاة كيركغارد 1856 ولادة إدموند هوسّرل 1878 ولادة مارتن بوبر 1883 ولادة خوسيه أورتيغا إي غاسيت، ولادة كارل ياسبرز 1889 ولادة مارتن هيدغر، ولادة غابرييل مارسيل 1900 وفاة نيتشه 1901 ينشر هوسّرل كتابه "تحقيقات منطقية" 1905 ولادة جان بول سارتر 1908 ولادة سيمون دي بوفوار، وولادة موريس ميرلوبونتي 1909 طبعة كاملة لجميع أعمال كيركغارد باللغة الألمانية 1913 ولادة ألبير كامو. هوسّرل ينشر عمله "أفكار: مقدّمة عامّة إلى الفلسفة الظاهراتية المحضة". وينشر ميغيل دي أونامونو كتابه "الشعور المأساوي بالحياة". 1914-1918 الحرب العالمية الأولى 1919 ينشر ياسبرز كتابه "علم نفس وجهات النظر". 1921 يرسل هيدغر إلى ياسبرز مراجعة مطوّلة لكتابه "علم نفس وجهات النظر"، وكانت بداية علاقة صداقة فلسفية طويلة استمرّت طوال فترة ثلاثينيات القرن العشرين. 1922-1926 يطوّر هيدغر تأويلاً وجودياً أصيلاً للفلسفة خلال محاضرات الجامعية. 1923 ينشر مارتن بوبر كتابه "أنا وأنت" 1927 ينشر هيدغر كتابه "الكينونة والزمان"، وينشر مارسيل مجلته

"الدورية الميتافيزيقية". 1929 يلفت هيدغر انتباه الأوساط الفلسفية إلى محاضرته "ما الميتافيزيقا؟". وتتمّ ترجمة أعمال كيركغارد إلى اللغة الفرنسية. تنهار الأسهم المالية في وال ستريت، ممّا يخلق حالة كساد عظمى تترك تأثيرها على العالم كله. 1931-1932 ينشر ياسبرز كتابه "الفلسفة" ضمن ثلاث مجلّدات، مستعرضاً مفهومه عن فلسفة الوجود Existenzphilosophie. 1933 يُنَصَّب أدولف هتلر مستشاراً في ألمانيا 1933-1934 ينضمّ هيدغر للحزب النازي ويشغل لإثني عشر شهراً منصب رئيس جامعة فرايبورغ. وفي هذا العام أيضاً يدرس سارتر فينومينولوجيا هوسّرل ببرلين. 1933-1936 أكسندر كوجييف يحاضر عن هيغل بباريس 1935 ينشر مارسيل كتابه "الكينونة والتملّك" 1938 ينشر سارتر روايته "الغثيان". 1939-1945 الحرب العالمية الثانية 1940-1944 تحتل ألمانيا النازية فرنسا 1942 ينشر كامو روايته "الغريب"، ومقالته الطويلة "أسطورة سيزيف" 1943 ينشر سارتر كتابه الضخم "الوجود والعدم". وينشر كتاب بوفوار "جاءت لتبقى". 1944 تقديم مسرحية "لا مخرج" لسارتر بباريس. 1945 ينشر ميرلوبونتي كتابه "فينومينولوجيا الإدراك" 1945 سبتمبر، ينشر سارتر كتابه "عصر العقل" و"المُهْلَة"، وهما أول جزأين من ثلاثية "الطريق إلى الحرية". 15 أكتوبر، أول إصدار لمجلة "الأزمنة الحديثة" Les Temps Modernes، التي تشارك في تحريرها كلٌّ من سارتر وميرلوبونتي، وكانت أول منبر للتعبير عن الفكر والأدب الوجوديين في فرنسا. 29 أكتوبر، سارتر يلقي محاضرته "هل الوجودية مذهب إنساني؟"، مُدَشّناً عهد الوجودية في فرنسا والخارج. 1947 منع هيدغر من التعليم، ونشر كتابه "رسالة حول المذهب الإنساني". وينشر كامو رائعته "الطاعون"، وتنشر بوفوار كتابها "أخلاق الغموض". وينشر ياسبرز كتابه "مسألة

الذنب الألماني". 1948 يصنّف عمل سارتر ضمن قائمة الكتب الممنوعة والمحرّمة من الفاتيكان. 1949 تنشر بوفوار كتابها "الجنس الآخر" 1950 إعلان بابوي بعنوان Humani Generis يدين الفلسفة الوجودية ويعتبرها منهباً "فاسداً" يهدف إلى هدم وتقويض دعائم المذهب الكاثوليكي. 1950-1953 الحرب الكورية 1951 كامو ينشر كتابه "الإنسان المتمرّد" ينتقد فيه دولة جوزيف ستالين الراعية للرعب والاضطهاد في الاتحاد السوفياتي 1952 تنشر مجلة "الأزمنة الحديثة" نقداً سلبياً لكتاب "الإنسان المتمرّد"، وتنتهي على أساسه صداقة كامو وسارتر 1952-1956 تحوّل سارتر إلى الشيوعية، لكنه تراجع عنها بعد الغزو السوفياتي لهنغاريا 1953 ينفصل ميرلوبونتي عن سارتر ويتنازل عن منصب المحرّر لمجلّة الأزمنة الحديثة. 1954 يفوز كتاب بوفوار "البرتقال" بجائزة كونكورت بريكس 1955 وفاة خوسية أورتيغا إي غاسيت 1957 يفوز كامو بجائزة نوبل للأدب. 1960 ينشر سارتر كتابه "نقد العقل الجدلي"، ويتوفّى كامو إثر حادث سيارة مميت. 1961 وفاة ميرلوبونتي إثر أزمة قلبية 1964 يرفض سارتر تسلّم جائزة نوبل للأدب 1965 وفاة مارتن بوبر 1969 وفاة كارل ياسبرز 1973 وفاة غابرييل مارسيل 1976 وفاة مارتن هيدغر 1980 وفاة جان بول سارتر 1986 وفاة سيمون دي بوفوار

[11]: من المعقول أنّ الفلسفة الوجودية ظهرت بشكلها الكامل في القرن التاسع عشر، فترة مليئة بالاضطرابات والتغيّرات الاجتماعية المتطرفة. كان العلم يزدهر باطراد، وكان الإيمان بقوى العقل البشري يصل إلى أوجه، والثورة الصناعية كانت تعصف بالنظام الاجتماعي التقليدي. وتلك القوى التي كانت تنضج باستمرار وببطء خلال تلك القرونقد اتحدت وتضافرت مع بعضها لينتج عنها أسلوب جديد

في الحياة. كان العالم في هذه الأثناء يتسارع بتهوّر ليتحول إلى هذا العالم الصناعي، والعِلمي، العَلماني، والرأسمالي الذي نعرفه اليوم. وفي هذا العالم الغريب ولد اثنان من أعظم الفلاسفة الوجوديين، سورين كيركجارد وفريدريك نيتشه، اللذان أدركا أنّ شيئاً ما ما زال مفقوداً، أنّ هناك شيء ما خاطئ في هذا العالم الجديد والشجاع. وربما أنهما كانا عالقين بين نُسُك الماضي البالي والانبهار العفوي بالجديد، طالبا بإجراء تقييم لمفهوم الإنسان، ومعنى الحياة، ومعنى الوجود. كلاهما بدأ حياته كولد تقي في عائلة متديّنة رَبّها شديد الإيمان. ومن هناك، اختار كلٌّ منهما واحداً من السبيلين اللذين قاداهما إلى ما هما عليه، لقد أصبح كيركجارد رجلاً مسيحياً متديّناً وملتزماً، أمّا نيتشه فقد أصبح نموذجاً مختلفاً تماماً.

[12] سورين كيركجارد:

كان سورين كيركجارد (1813–1855) ابن رجل أعمال هولندي ثري. كان والده ذكياً وداهية، وتقي إلى حدّ التعصّب، ويحمل على كاهله عبئاً ثقيلاً بالخطيئة لدرجة السوداوية. السبب ليس معروف حقيقةً، لكنّ مايكل كيركجارد كان يؤمن بأنّ عبئاً ثقيلاً بالذنب يثقل كاهله وأنّ حياته كانت ملعونة بسبب خطيئته. ربما كان ذنبه أنه جدّف بالرب في شبابه أو ربما ارتكب زنى مع فتاة أصبحت في مابعد زوجته ووالدة ابنه سورين. لكن بغضّ النظر عن السبب، فقد أورثه لابنه إلى جانب ذكائه وفطنته. هناك سمات معيّنة كالذنب والأسى والألم والمعاناة تظهر بشكل دائم في كتابات كيركجارد، التي تتميّز بطابعها الشخصي والسِيَري. الحَدَث الرئيسي الثاني الذي يظهر باستمرار في أعماله هو خطبته لريجينا أولسِن. كانا هو وريجينا قد أحبّا بعضهما البعض، وتقدّم كيركجارد الشاب لخطبتها، وقبلت. وقبل مرور عام على خطبتها، فسخ كيركجارد الخطبة. ولا أحد يعرف السبب سواه _وربما هو نفسه لك

يكن يعرف السبب. فمن ناحية، ربما اعتقد أنّ سوداويته جعلت من شريكاً غير مناسب لها، ولكن يبدو أنّه بالغ في قراره بشأن مسألة الزواج إلى التساؤل عن نوعية الحياة التي سيحياها. يبدو أنّه اعتقد أنّ الزواج يتعارض من الدراسة والتقوى التي اختار تكريس باقي حياته لها. لقد أفزعه هذا القرار، وعاش باقي حياته هائماً في حبّ الفتاة التي خذلها وتخلّى عنها. ولطالما استعرض قراره هذا وراجعه كثيراً في كتاباته. وكونه يُرى من قبل الأغلبية على أنّه مؤسس الوجودية ووالدها الروحي، إلا أنّ كيركجارد حمل على عاتقه سوداويته وبؤسه وأساه وانطلق في رحلة استكشاف للذات. ما كان قد اكتشفه ليس حقيقة نفسه فقط، بل حقيقة الشرط أو الوضع الإنساني. وكان أوّل من طوّر بصورة موسّعة (إن لم يكن بطريقة منتظمة) عدّة سمات ومفاهيم وجودية محورية، كعَبَثِيَّة الحياة وتفاهتها، وأهمية الاختيارات ووزنها، وحاجتنا للعيش بشغف وبأصالة. وقد طوّر كل هذه السمات ضمن سياق مسيحي جديد بالكامل. لقد رفض التقوى التقليدية والأجوبة المنمّقة والجاهزة للفلسفة القديمة والمسيحية الأرثوذكسية السائدة في زمنه. وبدلاً من ذلك اعتنق رؤية إيمانية يعتقد فيها أنّ الإيمان عبارة عن اختيار مَحض لا يمكن إثباته بشكل مطلق أو تبريره منطقياً. إنّ ما يجعله واحداً من أهم مؤسّسِين للفلسفة الوجودية، أكثر من أي شيء آخر، هو الطريقة التي جعل من خلالها الفلسفة سعياً شخصياً وذاتياً. فالتساؤلات الجوهرية الكبرى لا معنى لها إلا ضمن سياق النظرة الفردانية لكل شخص يحياها. فالحسابات العقلانية والوصايا الإلهية أو الكَنَسية لا تتضمن أيّة إجابات عن تساؤلاتنا حول الطريقة التي ينبغي أن نحيا وفقها. كل ما علينا فعله هو أن نبحث عن إجاباتنا الخاصة عن هذه الأسئلة الجوهرية في أعماق أنفسنا وفردانيتنا. نحن مَن

علينا أن نقرّر كيف نعيش أو إذا ما كان لِزاماً علينا أن نؤمن أم لا، وما الذي ينبغي علينا فعله في أوج وحدتنا وعزلتنا.

[13] نيتشه يُعلن موت الإله:

مع أنّ أغلب الناس يقولون عن كيركجارد، وأنّه مؤسّس الفلسفة الوجودية، إلا أنّ تصوّر وجودها من دون الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه (1844-1900) قد يكون أمراً في غاية الصعوبة. فأغلبهم قد ينسبون إليه فضلاً كبيراً في تأسيسها وإيجادها وترسيخ مفاهيمها. إلا أنّه أقصى نفسه عن الحركة التي ساعد في إنشاءها. وقيل سابقاً أنّ وصف نيتشه أنّه وجودي يشبه وصف يسوع المسيح بالمسيحي: فكلاهما يشكّلان الأرضية التي التي يقوم عليها كل شيء جاء لاحقاً، لكنهما يتعاليان عنها في نفس الوقت. يعتبر فريدريك نيتشه واحداً من أهم المفكّرين في تاريخ الجنس البشري، بل وأعظمهم على الإطلاق. وبالتأكيد يمكننا القول عن الوجودية أنّها ابنته العزيزة، لكن في الحقيقة لديه الكثير من الأبناء، الكثير من الأبناء إلى جانب ميراث فكري ضخم.

[14]: كان نيتشه ابناً لقسيس لوثري، الذي كان بدوره آخر رجل دين لسلالة طويلة من رجال الدين الملتزمين ضمن العائلة. وكان نيتشه يسير على خطا أجداده ليمضي نفس حياة الرهبنة، حتى أنّه اعتنقها وكرّس نفسه لتعاليمها خلال فترة شبابه. لقد انتقد نيتشه الدين من الداخل، كابن لهذا الدين، كمؤمن ملتزم سابق، أو كشخص يعرف كل شيء عن الديانة المسيحية ومكانتها وتأثيرها أكثر من أي أحدٍ آخر ينتمي إليها. وعلى غرار الكثيرين ممّن فقدوا إيمانهم بالعقيدة المسيحية، قضى نيتشه معظم حياته موجّهاً نقده إلى الكنيسة للأخطاء الذي لقّنته إياها والزيف الذي زرعته فيه منذ صغره.

[15]: لم يقصر نيتشه نقده على الكنيسة والديانة المسيحية، بل كان ناقداً اجتماعياً مهمّاً أيضاً، حتى أنّه لم يدع شيئاً ينجو من مِبضَع نقده. لقد عمل على تقويض كل ما رآه خاطئاً ومزيّفاً، مضلّلاً، ومؤذياً للوعي البشري. لكنّ نيتشه لم يكن هَدّاماً فقط، أو مِعولاً للهدم، كما سمّاه بعض الكتاب، فقد تحدّث في كتاب "العلم الجذل" عن أنّه ينتظر لكي يصبح "موافقاً" لكل شيء، أن يجد سبيلاً لتأكيد كل شيء في الحياة. لهذا تستقي الوجودية تفاؤلها العميق من فلسفته. فقد رأى أنّنا بعد أن نكون قد قوّضنا وهدّمنا كل شيء خاطئ ومضلّل بنيناه لأنفسنا، سيكون بإمكاننا أن نحبّ العالم كما هو على حقيقته، وأن نخلُق معنىً خاصاً نضفيه عليه، لنعيش حياتنا بامتلاء وتحقّق وسرور حتى.

[16]: إلى هذا الحد، حوّل نيتشه أعماله إلى تُحَف فنيه من الرقص الهدّام، ثم خلق من جديد، وأخيراً الاحتفال بعملية الخلق هذه. فنراه أحياناً محتدّاً غاضباً، وفي أحيان أخرى شاعرياً، لكنه في معظم الأوقات نراه لَعوباً متجنّباً التأويلات السهلة، مبتعداً عن النمطية والنسقية. كتب نيتشه بأسلوب غير تقليدي أكثر من أي فيلسوف وجودي آخر. حتى انّه كتب أعماله على شكل شذرات انطباعية عميقة وقصيرة نسبياً. وفي خِضَم هذا الاضطراب الفكري والفوضوي والمتناسق بطريقة عجيبة، تظهر عدّة سمات بشكلٍ متكرر في أعماله، متآلفة مع مقاطع أخرى، لتشكّل ببطء أفكاراً أكثر ترابطاً ورسوخاً. من تلك الأفكار، سنركّز أساساً على تلك التي شكّلت قاعدة الأساس للوجوديين اللاحقين، وبالأخص تلك التي تقول أنّ العالم يظهر نفسه لنا خالياً من أيّ معنى أو هدف أو غاية، وأنّ عملية الخلق _خلق القيم، وخلق الذات، وخلق المعنى الخاص بحياتنا_ هي مهمّتنا الأساسية الوحيدة في هذه الحياة.

[17]: كان نيتشه هو مَنْ نادى بفكرة "موت الإله"، وكما سنرى لاحقاً بتفصيل أكبر عن هذا المفهوم، ونفهمه بشكلٍ أعمق، نكتفي هنا بالقول أنّه كان القاعدة الأساسية الذي تنطلق منها الفلسفة الوجودية، وحتى فلسفة كيركجارد نفسها وكل مَنْ جاء بعده من الفلاسفة الوجوديين.

[18] هيدغر: يجعل من الوجودية فلسفة منتظمة

على غرار يوحنّا المعمدان، كانت صرخات الفلاسفة الوجوديين ونداءاتهم شبيهة بالصراخ الفوضوي في صحراء شاسعة. إذ كانت كتاباتهم مقروءة من قبل عدد قليل من الناس، أمّا الذين فهموها فكانوا أقل بكثير. وبسبب هَزلهم ومرجهم، وأسلوبهم غير التقليدي بالكتابة، والمضمون الشخصي في كتابات سورين كيركجارد بالأخص، ظلّ الوجوديون مجهولين ومُهملين من قبل العامة بشكلٍ عام، ومن قبل التيار الأكاديمي بشكل خاص، حتى جرى تهميشهم وتجاهلهم عن عَمَد، ثم تناسيهم. هؤلاء المجانين لا ينفكّون يثرثرون عن الألم والمعاناة وإضفاء المعنى... هُراءٌ بهُراء! وكانت الفلسفة تتابع مسيرتها في طريقها التقليدي والعقلاني. أي استمرت محاولات المزاوجة بين العلم والفلسفة، بين الموضوع والكُل، وليس بين الفردي والشخصي.

[19]: ظلّت الفلسفة في أمريكا وبريطانيا كما هي سائرةً على مسارها التقليدي حتى يومنا هذا. أمّا في أوروبا، تزايدت أعداد الناس الذين أدركوا أنّ هذا المسار لم يصل بهم إلى أيّ إجابات. فالشيء الوحيد الذي كان يفتقر إليه الوجوديون هو الاحترام الأكاديمي. وكانت الفلسفة الوجودية تحتاج لمعالجة أسسها: أي تحتاج إلى التطوير الفلسفي لأفكارها ومفاهيمها إلى أعمال فلسفية منتظمة وموسّعة يتعامل معها الأكاديميون كأعمال جديرة بانتباههم واهتمامهم وأبحاثهم واحترامهم. وقد

تحقق ذلك ليس لمرّة واحدة فحسب، بل مرّتين: الأولى مع الفيلسوف مارتن هيدغر في تحفته الفلسفية الكبرى "الكينونة والزمان"، والمرة الثانية مع تلميذه الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر في عمله الضخم "الكينونة والعدم".

[20]: من بين جميع الفلاسفة الوجوديين، كان مارتن هيدغر (1889-1976) هو الفيلسوف الوجودي الأكاديمي الوحيد بامتياز. ومع أنّ معظم الأفكار والمفاهيم ضمن أعماله راديكالية ومتشدّدة، بل وثورية أيضاً، إلا أنّه قدّمها في أعماله بصورة نمطية نسقية أكاديمية ومنتظمة. وعلى غرار معلّمه وأستاذه، إدموند هوسّرل" حاول هيدغر توصيف وتحليل الوجود بطريقة تشبه صَرامَة واكتمال الفيزياء النيوتونية، بل شرع من الداخل أيضاً، من وجهة نظر ذاتية-إنسانية. ولكنّ الأمر الذي جعل معالجة هيدغر أمراً مختلفاً كان الاهتمام الجاد الذي أولاه للسمات والخصائص الوجودية كاللاعقلانية، وأهمية التأويل، والعيش بأصالة، ومكانة الموت في تحديد أوجه الوجود الإنساني.

[21] كان هيدغر هو أول مَن أدخل مفهوم "الموجود exist" إلى الفلسفة الوجودية. كان هيدغر مهتماً ليس فقط بموضوع كيف نعيش، بمعنى أن "نكون" (كمعاكس لمفهوم "لا نكون" أو العَدَم). بمعنى، أنّه حوّل الوجودية إلى "علم الكينونة". إلا أنّه، انطلاقاً من وجهة نظر ذاتية، إنّه العلم الذي لم ولَن يحوّل الذات البشرية إلى موضوع. طبعاً، كان هيدغر يسعى لتجنّب ذلك النوع من التنميط والنسقية التي تفقد فيه الأشياء هويتها. وهناك عنصر هام يتخلّل فلسفته يتمثّل في الطريقة التي يصنّف فيها الناس خبراتهم وتجاربهم باستخدام الكلمات، التجربة التي غالباً ما تكون سبباً في شعورهم بالعُزلة والاغتراب. من هنا نكتشف أنّه لن يعترض أحد من الشخصيات التي نطلق على أصحابها صفة "وجوديين" على مقولات

هيدغر. إنّ عمل هيدغر يمضي لأبعد بكثير ممّا نقول عنها أنّها "مشاغل وهموم وجودية"، كما يُنظَر إليه بوصفه واحداً من أعلام الحركة وكبارها، إضافةً إلى غيرها من الحركات الأخرى، كالظاهراتية أو الفينومينولوجيا ومابعد الحداثة. إنّ توضيحه وشرحه للسمات الوجودية الجوهرية وتأثيره على الوجوديين اللاحقين، جعله شخصية محورية وهامة في تاريخ الفلسفة، والفلسفة الوجودية على وجه الخصوص.

[22] الوجودية الفرنسية:

أخذ الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر (1905–1980) الخصائص والمفاهيم الوجودية التقليدية ودمج معها أطروحة مجدّدة حول معنى وأهمية الحرية الإنسانية. ومع أنّ كتابه الهام "الكينونة والعدم" يعتبر مَعلَماً من المعالم الكبرى، فقد أقرّ هو بنفسه أنّه كتب أجزاء منه خلال ليالٍ طوال حُرِمَ فيها من النوم، حيث ملأ جسمه بالكافئين، وتأرجح ما بين اليقظة والنوم، وأنّ تلك الأجزاء مكتوبة بأسلوب سطحي وفقير وغير معقولة أبداً. لكن ما حقّقه سارتر أفضل من أي كاتب سابق كان أنّه جعل من الوجودية فلسفة يمكن إيصالها لجميع الناس الذين كانوا معنيين بها. إحدى الطرق التي فعل بها ذلك كانت من خلال الحوار المستمر التي انخرط فيه مع حركات أخرى ذات أهمية كبرى، من بينها الديانة المسيحية والحركة الماركسية. كان سارتر أقرب إلى كونه شخصية عامّة شعبية منخرطة في مجالات أخرى إلى جانب الفلسفة كالسياسة والفنون والأدب. ومع أنّه صرّح لاحقاً أنه نَدِمَ على ذلك، فقد لخّص الموقف الرسمي والأقصى للفلسفة الوجودية في كتابه القصير "الوجودية: مذهب إنساني"، وهو عبارة عن مقال قصير يحاول فيه تفسير وشرح فلسفته بصورة غير تقنية لنقّاده وعموم جمهوره بشكل أوسع.

[23]: على غرار سارتر، كانت سيمون دي بوفوار (1908–1986) منخرطة في السياسة وفي عدد من المسائل والقضايا العامة. أمّا أكبر مساهمة لها في تاريخ الفكر فكانت تتمثّل في وضع أسس، طوال جيلٍ كامل، الحركة النسوية في أوروبا وأمريكا. ومع أنّ كتابها الهام "الجنس الآخر" لا يعالج المسائل الوجودية البحتة بصورة مباشرة، إلا أنّ تحليلها لمكانة المرأة ضمن المجتمع قد انبثق من صلب الفلسفة الوجودية. قد لا يدرك الناس هذه الحقيقة، ولكنهم عندما يناقشون فيما بينهم مسائل نسوية عامة، فإنهم يتناقشون في مسائل وجودية على حدٍ سواء.

[24] نلاحظ أنّ الخاصية الأهم التي تجمع مابين سارتر ودي بوفوار وألبير كامو (1913–1960) هي أنّهم جميعاً كانوا يؤلّفون روايات ومسرحيات، إلى جانب كونهم فلاسفة متمرّسين. فصياغة أفكارهم على شكل روايات وقصص خيالية يعني وضع أفكارهم ضمن سياق يفهمه العامّة ويتشرّبونه بشكل جيّد ومستساغ. وكما نال هيدغر احتراماً أكاديمياً في الأوساط العلمية على كتبه الأكاديمية النسقية المنتظمة، كذلك منح الفرنسيون الوجودية سبيلاً سهلاً للوصول إلى الشارع العام والتفاعل مع الناس العاديين من خلال رواياتهم ومسرحياتهم التي حملت سمات وخصائص وجودية عبر شخوصها وأفرادها. وأعظم هذه الأعمال الروائية الوجودية، والذي مازال منتشراً حتى يومنا هذا، هو بكل بساطة رواية كامو الفريدة "الغريب". حتى أنّها منتشرة على نطاق واسع وتدرّس تقريباً في جميع المراحل المدرسية والجامعية، وضمن كافة الأفرع والاختصاصات. ويمكنني القول أنّه لم يسبق لأي عمل وجود أن وصل إلى الناس بهذا الشكل كما وصل كتاب الغريب. وهو عبارة عن رواية تتناول موضوعات كالعَبَث والموت وإدراك حقيقة وجود الإنسان ذاته.

[25] هل هناك وجوديون يؤمنون بوجود الله؟

يبدو أنّ التيار الإلحاد من الفلسفة الوجودية كان هو التيار السائد عبر تاريخ الحركة، وذلك ـ إلى حدٍ كبير ـ بسبب أنّ سارتر نفسه كان ملحداً إلى جانب غيره من فلاسفة الحركة الذين عملوا على الترويج لها ونشرها. إلا أنّه ومنذ عهد كيركجارد، كان هناك تيار مؤثّر آخر من الوجودية يؤمن بوجود الله، مفكّرين من أمثال الفيلسوف الكاثوليكي غابرييل مارسيل (1889-1973)، والفيلسوف اليهودي مارتن بوبر (1878-1965)، فقد طوّروا فلسفة وجودية مؤمنة تؤكّد ـ من بين أمور أخرى ـ على أهمية أن يقيم الناس علاقة شخصية خاصة وأصيلة مع الله. وعلى غرار معظم الوجوديين، فقد فضّلوا الشخصي، الحميمي، والخاص، على النسقي والتنظيمي والعام. كما أنهّم يرون الدين كتجربة خاصّة مُعاشة يختبرها الأفراد بشكل شخصي وخاص وليس تجربة منتظمة ومؤطّرة وفق أفكار وأنساق وأطر فكرية مقولبة من قبل الكنيسة أو المسجد أو حتى الكتب المقدسة. وعلى غرار كيركجارد، المسيحي الوجودي الأصلي، رفضوا فكرة المصالحة بين الإيمان والعقل. فالعقل له مكانه الخاص ومجاله، ولكن لا ينبغي له أن يسمح بإعاقة ما هو شخصي وفردي وخاص، أي العلاقة الحميمية الخاصة بين الفرد والله، مع غياب أي دليل مادي أو قاطع على وجود الله. وكأي تجربة من تجارب الحياة الإنسانية، فإنّ الإيمان وتجربة محبة الله هي تجارب غير عقلانية في الأصل، ولا يرى هؤلاء الوجوديون أي سبب يدفعهم للخجل أو الهروب من هذه الحقيقة. إنّ فلسفاتهم عبارة عن نداء للعوة إلى الجذور البدائية الأولى ـ إلى زمنٍ كان في الدين علاقة شخصية خاصة ومليئة بالشغف، كمعاكس للديانات المنسقة والمتظمة ذات القوالب المصاغة مسبقاً.

[26]: والآن نصل إلى السؤال التالي: هل هناك وجوديون معاصرون يعيشون بيننا الآن؟ هل ما زال هناك مفكّرون رومانسيون وجوديون؟ هل ما زال هناك فلاسفة يطوّرون أفكارهم الوجودية الخاصة؟ على غرار كافة الفلسفات والحركات الفكرية في العالم وعبر التاريخ، كانت الفلسفة الوجودية وليدة زمانها ومكانها على حدٍ سواء، لكنّها انفلتت خارج حدود الزمان والمكان. ربّما لم يكن هناك، ولن يكون، أي فيلسوف وجودي نقي وأصيل بمكانة سورين كيركجارد، أو هيدغر، أو سارتر. مع أنّنا نلاحظ أنّ الفلسفة الوجودية مهمة جداً في عالمنا المعاصر وحياتنا الحديثة والمعاصرة، فقد ساهمت في طور الفكر البشري وتطورّت تيّاراتها حتى تلائمت مع كل مجتمع وكل بيئة. أمّا بالنسبة للفلاسفة الوجودين القدماء فنستطيع أن نقول عن المعري والمتنبي وعديدون غيرهم كفلاسفة وجوديين صاغوا تأمّلاتهم وأفكارهم الوجودية ضمن أبيات وقصائد شعرية تتحدث عن الفناء والموت وسر الحياة، وكيف نعيش حياةً سليمة ومليئة. أمّا بالنسبة للوقت الحاضر فلا يمكننا أن نميّز كفلاسفة وجوديين سوى عبد الرحمن بدوي ويمكن أن يقال أنّه هيدغر العرب، وعبد الرحمن بن ذريل... أماّ غيرهما فلا يمكن أن نعثر إلا على شذرات وتساؤلات وجودية ضمن الأدب العربي كرواية الوجه الآخر للسقوط لحسن صقر، وأدونيس والشاعر محمود درويش.

[27]: تستمدّ الوجودية Existentialism تسميتها من دراستها الفلسفية للوجود الإنساني، أي لسمات الوعي الذاتي والتقريري للحياة الإنسانية كما يعيشها ويحياها ويعانيها ويستمتع بها الإنسان ذاته، وليس كما يصفها أو يشرحها أو يفسّرها شخص آخر ويقدّمها من وجهة نظره الخاصّة. إنّ محاولة تقديم سرد فلسفي للسمات الفارقة والخصائص المميزة للوجود الإنساني التي تميّز "الحياة الإنسانية" عن غيرها

من أشكال "الوجود الشكلي" للحيوانات أو النباتات أو الأشياء، هذه الأمور هي الهدف الموحّد والمشترك بين الفلاسفة الوجوديين. هذه السمات والخصائص تنطوي على وعي حيّ بالزمن، وعلاقة وثيقة بالموت: إدراك متفاوت في وضوحه لحرية السلوك وتفسير العالم وتأويله على أساس فهم المرء الخاص ومسؤوليته للقيام بذلك، واهتمام حيوي بنوعية حياة المرء وخصائصها، سواءٌ أكان يعيشها بصورة أصيلة authentically على أنّها حياته الحقيقية أو بصورة مزيّفة وغير أصيلة inauthentically غير مسؤول عنها في النهاية. من خلال التركيز على هذه الخصائص ودراستها، يسعى الوجوديون نحو هدف مشترك: تصحيح وتقويم صورة الإنسان التي تصوّره "عارفاً" منفصلاً ومستقلاً، هذه الصورة التي عملت الفلسفات والعلوم التقليدية القديمة على ترسيخها. إنّ تصوّر الشخص بوصفه عقلاً مستقلاً أو وعياً منفصلاً عن العالم متجذّرٌ عميقاً في التراث الفلسفي. وقد حدّد وجهة النظر هذه وعرّفها في القرن السابع عشر الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت وتصوّره للكائن البشري، أو الإنسان، "كجوهر مفكّر" res cognitans مستقل عن الجسد والعالم. وبالنسبة للفلاسفة الوجوديين، إنّهم يعتبرون وجهة النظر الديكارتية هذه ضارّة وقاصرة لأنّها توافق ضمنياً على فكرة أنّ العقل والعالم منفصلين أساساً عن بعضهما، وأنّ الإنسان مجرّد مشاهد سلبي أكثر من كونه فاعل يؤدّي دوره فوق خشبة الوجود، وجهة النظر هذه التي تصوّر الإنسان مجرّد عقل منفصل ومستقل يتأمّل عالماً خارجياً صامتاً غافلاً عنه. كما أنّ هذه النظرة تفصل بين عقل وآخر، مطوّقةً كل شخص على حلبة الوجود بتصوّراته ومفاهيمه العقلية الخاصة. على العموم، رفض الوجوديون كِلا وجهتي النظر هاتين وانتقدوهما. فهم يرون أنّ الوجود الإنساني "متجسّد" أو "مُتَمَوضِع" في "عالم"، ويعاش ضمن إطار "العلاقة مع الآخرين". لهذه الأسباب

بالذات، يصرّون على أنّ الوجود لايمكن إسناده إلى وعي منعزل. وحسب المقولة الشهيرة عند الفلاسفة الوجوديين: الوجود هو "الوجود-من-أجل-الذات"، و"الوجود-مع-الآخرين"، و"الوجود-في-العالم" بآنٍ واحدٍ معاً.

[28]: المرحلة الأولى من مراحل الفكر الوجودي كانت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى، حيث تمّ خلال فترة عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين تطوير فلسفة وجودية أصيلة على يد الفيلسوفين كارل ياسبرز ومارتن هيدغر. وقد طرأ تطوّر مكافئ في الفكر الديني على يد المفكّر اللاهوتي اليهودي مارتن بوبر، وعالِمي اللاهوت البروتستانتيين رودولف بولتمان وبول تيليتش. المرحلة الثانية في الفكر الوجودي كانت عندما تشرّبت أفكار هيدغر وياسبرز، بالترافق مع فينومينولوجيا إدموند هوسّرل، والفلسفة الديالكتيكية لهيغل، الفلسفة الذاتية الراديكالية لسورين كيركغارد وفريدريك نيتشه، جميع هذه المذاهب والأفكار تشرّبت في الحياة الفكرية الفرنسية خلال فترة ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين.

[29]: أهم الشخصيات الوجودية الرائدة في الفكر الوجودي كان الكاتب والفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر. ولأن سارتر كان قد حقّق نجاحاً عالمياً بعد الحرب العالمية الثانية، ارتبطت الوجودية باسمه ومازالت مرتبطة حتى يومنا هذا. لكن، بطبيعة الحال، يجدر التنويه هنا إلى أنّنا لا يجب أن نقارن فلسفة سارتر بالفلسفة الوجودية ككل. فأفكاره تجسّد مساراً واحداً من مسارات الفلسفة الوجودية، قطب من عدّة اقطاب فلسفية. وفي عام 1945 تمّ قذف سارتر إلى أعلى قمم الشهرة بوصفه "زعيم حركة الوجوديين" الوليدة. وقد أطلق بالتعاون مع زميليه الفيلسوفة الفرنسية سيمون دي بوفوار والفيلسوف موريس ميرلوبونتي مجلّة "الأزمنة الحديثة"، وهي مجلة يسارية تعنى بالأفكار والمسائل الفلسفية، وتحوّلت لاحقاً إلى منصّة

للترويج للفلسفة الوجودية السارترية. ومن جهةٍ أخرى؛ نشأت علاقة صداقة وطيدة بين سارتر وألبير كامو، الذي كان مشهوراً آنذاك ككاتب وروائي ومحرر لصحيفة "كومبا" النضالية، وكانت أساس صداقتهما العلاقة التي تربط كلاً منهما بالوجودية، أو في أعين الناس على الأقل. وقد زعم الفيلسوف الكاثوليكي الفرنسي غابرييل مارسيل _الذي كان من أقوى نقّاد سارتر_ لنفسه السبق كأول فيلسوف فرنسي للوجود، وارتبط اسمه بالحركة كأحد أكبر نقّاد سارتر ومعارضيه. من هذه اللحظة فصاعداً، سيتمّ اعتبار مارسيل وياسبرز وكيركغارد كممثّلين للحركة الوجودية المؤمنة/ المتديّنة، وقد اعتمد سارتر هذا التصنيف لتمييز فلسفته الوجودية اللادينية عن فلسفاتهم. أمّا في إسبانيا خلال ثلاثينيات القرن العشرين، نشأت حركة وجودية مشابهة لحركة سارتر، لكنّها قد تأسّست بشكل مستقل على يد الفيلسوف خوسيه أورتيغا إي غاسيت. وفي إيطاليا خلال فترة أربعينيات وخمسينيات القرن نفسه، نشأ جنس مختلف من الفكر الوجودي متمحوراً حول أعمال الكاتب والفيلسوف الإيطالي نيكولا أبّاغنانو.

خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي، تمّ تصدير الفكر الوجودي إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى جميع بلدان العالم. لقد تمّ تطوير أفكار ومفاهيم الفلسفة الوجودية وتهذيبها وتنظيمها وإدخالها في مختلف المذاهب والمجالات على اختلاف أنواعها: الطب النفسي، علم النفس والتحليل النفسي، علم اللاهوت، نظرية الأدب، ونظرية العِرق والجنس. وقد تسرّبت الكلمات والألفاظ الوجودية مثل "قلق"، و"عبث" و"معنى الحياة" أو "حياة تخلو من المعنى" في اللغة اليومية العادية. كما أنّ صورة البطل الوجودي، المهجور والمتروك وحيداً ومهزوماً داخل هذا الكون الأصم والبارد، وجدت لها طريقاً إلى الفن والأدب خلال فترة الحرب الباردة. بأيّة

حال، دخلت الفلسفة الوجودية الثقافة الشعبية العامة، وانتشرت على نطاق واسع. قام أنصار الوجودية وأعلامها أمثال بول تيليتش بتقريظ الوجودية ووصفها على أنّها «الفن العظيم، والأدب العظيم، والفلسفة العزيمة للقرن العشرين»[1].

لكنّ نُقّادها قالوا عنها أنّها مجرّد «بدعة بوهيمية»، ومذهب ديني من نوع ما، أو أنّها نوبة "عَدَمية" أثارتها الحرب العالمية الثانية. وقد أرجع المعلّقون والشُرّاح جدورها إلى الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال، والقديس أوغسطين، وسقراط، وأنبياء العهد القديم. واقتباساً من عبارة الفيلسوف موريس ميرلوبونتي الشهيرة، كانت الوجودية في منتصف العقد الخامس من القرن الماضي تبدو أنّها «في كل مكان ولامكان»: كانت "مناخاً"، "موقفاً"، "مَيلاً عاماً" واضحةً معالمه في كافة جوانب البحث الإنساني، لكنّها كانت تفتقر إلى التعريف والتحديد. فمشكلة وضع تعريف أو تحديد اصطلاحي لهذا الكيان اللامتبلور واللامُنتظم لخّصها الفيلسوف الأمريكي ألاسدير ماكنتاير: «قيل في زماننا أنّها [الوجودية] مذهب الكُتّاب باختلاف أنماطهم كميغيل دي أونامونو ونورمان ميلر... وقد زعم هذين الكاتبين أنّها وجوديان، وأنّه لا يلزم اتفاقها حول أي نقطة أساسية مهما كانت. في النهاية... أي صيغة واسعة ومطّاطة تسعى لتعريف جميع الميول الوجودية الأساسية والإحاطة بها سوف... تكون عامّة للغاية، كما هي مبهمة للغاية، بقدر ما ستكون فارغ»[2].

Historical Dictionary of Existentialism Stephen Michelman. The Scarecrow Press 2008.

---

[1] Paul Tillich, The Courage to Be (New Haven: Yale University Press, 1952), 143.

[2] "Existentialism," in The Encyclopedia of Philosophy, Volume 3, ed. Paul Edwards, 147 (New York: Macmillan, 1967).

[30] : فقدت الوجودية بريقها خلال سبعينيات القرن العشرين عندما حلّت محلّها اتجاهات فلسفية أكثر حداثةً وعَصرَنَة من أوروبا، وبالأخص الفلسفة الفرنسية مابعد البنيوية ومابعد الحداثة الفرنسية. وظهر جيل جديد من الفلاسفة الفرنسيين الذين تلقّوا تدريبهم خلال خمسينيات وستينيات القرن العشرين _فلاسفة ما بعد الحداثة_ أمثال: ميشيل فوكو، وجاك دريدا، وجيل دولوز، رفضوا الفلسفتين الظاهراتية والوجودية بوصفهما «فلسفات سطحية ساذجة تتمحور حول الذات»، والتي بحسب قولهم تبنّت _بصورة غير نقدية_ مركزية التجربة الإنسانية وحشرها في قوانين هذا العالم ونواميسه. لقد أعلن فلاسفة مابعد الحداثة "موت الذات" ودافعوا عن الوضع "مابعد الإنساني" للفكر الذي يتمتّع بحساسية تجاه القوى والعوامل اللسانية والتاريخية التي تصوغ الوعي الإنساني الفردي. المثير أكثر للاهتمام والضحك في آنٍ معاً هو أنّ معظم فلاسفة مابعد البنيوية كانوا يدينون لأبعد حدّ لهيدغر وفلسفته. لذلك ساهموا في الترويج لفكرة أنّ هيدغر لم يكن "وجودياً" حتى خلال الفترة المبكّرة من حياته. لقد أطلقوا هذا النعت على سارتر وبوفوار، وأحياناً ميرلوبونتي. ومع مرور الوقت، أضحَت الفلسفة الوجودية ومعها الفلسفة الظاهراتية تمثّلان المؤسسة الفلسفية في فرنسا. وبحلول فترة ثمانينيات القرن العشرين، اعتبر المفكّرون في فرنسا، وفي مختلف أرجاء العلم، الفلسفة الوجودية نموذجاً فكرياً بائداً، ونظروا لها كموضوع قابل للحياة والتطبيق بالنسبة لمؤرّخي الفكر فقط، ولم تعد فلسفة قابلة للحياة والتطبيق.

[31] فلسفة الوجود عن الألمان:

تطورت فلسفة الوجود **Existenzphilosophie** ضمن بيئة غير مستقرّة بألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى. ومن أهم أنصارها كان الفيلسوف الألماني مارتن

هيدغر، والفيلسوف ذو التوجّه اللاهوتي الطبيب النفسي كارل ياسبرز. وكان اللاهوتيين البروتستانيين رودولف بولتمان وبول تيليش، زميلي هيدغر خلال عشرينيات القرن الماضي، معجبان بتحليل هيدغر الجريء والأصيل للوجود التاريخي. وقد طبّقوا المفاهيم الهيدغرية على التأويل اللاهوتي والكتابي ليؤسّسا معه مجال جديد عُرِفَ "باللاهوت الوجودي". وهناك نسخة بديلة عن فلسفة الوجود دافع عنها وروّج لها الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر. بالنسبة لبوبر، لم تكن محنة الوجود تعمل داخل الذات أساساً، بل في السعي لتحقيق حالة "حوار أو ديالوج" مع الآخر، ومع الله من خلال ذلك الآخر.

[32]: أول تعبير واضح عن الفلسفة الوجودية الألمانية كان كتاب ياسبرز "علم نفس وجهات النظر"، المنشور عام 1919. وسرعان ما أصبح كتاب ياسبرز، المكتوب بلغة مفهومة وأسلوب واضح، من أكثر الكتب مبيعاً، وعلى أساس نجاح كتابه منقطع النظير، عُرِضَ عليه كرسي أستاذ الفلسفة بجامعة هيدلبرغ عام 1922. لكنه لم يكن كتاباً في الفلسفة إذا ما أردنا وصفه حصرياً (لم يكن ياسبرز قد أتمّ انتقاله من الطب النفسي إلى الفلسفة)، إنّما كان كتاباً هجيناً من علم النفس وفلسفة وجهات النظر أو الآراء، استلهمه من الفيلسوف فلهلم ديلثي وعالم الاجتماع ماكس فيبر، إضافة إلى كيركغارد ونيتشه. سعى ياسبرز، بخطوات فلسفية متعرّجة ومتعثّرة، لوصف الطرق العديدة التي يمكن من خلالها صياغة المواقف الجوهرية للوجود الإنسانية وقولبتها في أنماط محدّدة ومتصلّبة. وبالتحديد كانت أفكاره عن "المواقف المحدّدة" Grenzsituationen، تجارب الذنب المفرطة، الموت، المعاناة، والفرص التي يتمّ من خلالها التركيز على السمات والخصائص الرئيسية للوجود بالنسبة للفرد. وجديرٌ بالتنويه إلى أنّ فكرة ياسبرز عن الموت كوقف محدّد خَدَمَت لاحقاً كنموذج

أولي لفكرة هيدغر عن "الوجود-باتجاه-الموت" في كتابه "الكينونة والزمان". ربّما أثّر ياسبرز على هيدغر بطرق مختلفة: إحدى صيغ هيدغر المبكّرة عن موقفه الوجودي الخاص ظهرت خلال مراجعة نقدية طويلة لكتاب "علم نفس وجهات النظر" أرسلها إلى ياسبرز عام 1921[3]. أدخل ياسبرز فكرة الموقف المحدّد في آراءه الفلسفية اللاحقة، التي نشرها في كتاب بعنوان "فلسفة"، ضمن ثلاث مجلّدات (1930-1932). في المواقف المحدّدة، يواجه الفرد حقيقة مجهولة بالنسبة له لايقدر على سبر أغوارها، فيجد نفسه مَلقيّاً به إلى شكل من أشكال التشويق الإدراكي: "مؤسّسو" المعرفة، عادات، ومواقف متحيّزة متصلّبة غير مجدية. وعن طريق مواجهة كثافة من المواقف المحددة، قد يختبر الفرد اتساعاً في مداركه ووعياً بذاته، شعوراً مستنيراً بالحرية والإمكانية، ويشير إليه ياسبرز باسم "الوجود" Existenz. فالوجود هو "كينونة المرء الأصيلة". إنه ليس حالة معينة أو موقف محدّد، إنما ينبثق من خلال أعمال "الصراع الداخلي"، و"القلق"، و"القرار". الوجود Existenz ليس حالة اكتفاء ذاتي. إنّما "انفتاح" _بالضرورة_ على "المتعالي"، الواقع الأقصى، أو "الوجود بذاته"، الذي يتجاوز الذات و"يحيط" بمفاهيمه المحدودة. رأى ياسبرز أنّ الذات تنبثق ككيان منفرد حقيقي عندما "تدرك ذاتها أمام المتعال"، وقد أصبح هذا الرأي السمة المحورية في الفلسفة الوجودية الدينية.

[33]: أكّد هيدغر بدوره على حدوث مثول أمام الفناء/ العَدَم، أو "الوجود-نحو-الموت"، كسمّة محدّدة للوجود الإنساني. ويرى هيدغر في فلسفته، بأيّة حال، أنّ

---

(3) Published as "Comments on Karl Jaspers's Psychology of Worldviews," trans. John van Buren, in Martin Heidegger, Pathmarks, ed. William McNeill (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), 1–38.

الإنسان مقذوف أو مُلقى به وحيداً في "عَدَمِهِ" أو "فَنَائِهِ" الخاص، بجون أي دليل يشير إلى وجود قوى غير طبيعية. وعن طريق مواجهة الموت وتقبّل المرء "لهشاشة" كينونته، ينتاب المرء شعورٌ بحريته/ ها الأساسية واللامتناهية، وبذلك يدخل نطاق "الوجود الأصيل". ويعتبر هيدغر من قبل الكثيرين بأنّه الشخصية المؤسّسة للفلسفة الوجودية اللادينية. وقد أكّد نشر كتابه "الكينونة والزمان" عام 1927 مكانة هيدغر كمفكّر ثوري مجدّد، وأكسبه سُمعة وطنية مرموقة في ألمانيا. حيث ارتبطت فكرة هيدغر في هذا الكتاب عن ضرورة وجود أصيل يحيا وفقه الإنيان بتحليل شامل وحاذق وأصلي للتجربة اليومية المُعاشة والمألوفة، وقد استقاه هيدغر من فينومينولوجيا هوسّرل، أستاذه السابق، والذي كرّس كتابه تخليداً لذكراه.

[34]: إنّ مفهوم هيدغر "للدازاين" أو "الوجود-في-العالم" تمّ الإقرار بصحّته وأصالته وعمقه، وعلى أساسه استلهم كلٌّ من سارتر وميرلوبونتي لاحقاً أفكارهما في الفينومينولوجيا الوجودية. ومن بين تأثيرات أخرى، قدّم هيدغر الأساس المتين الذي يقوم عليه "علم التأويل hermeneutics"على يد تلميذ هيدغر، هانز-جورج غادامير. نشأت بين ياسبرز وهيدغر علاقة صداقة متينة وطويلة خلال بداية عشرينيات القرن العشرين، ولتي استمرّت حتى عام 1933. خلال ذلك العام، انضمّ هيدغر للحزب النازي، وقطع ياسبرز أي علاقة كانت تجمعه بصديقه السابق، الذي لم يعد يعترف بآرائه من الناحية المبدئية. وكانا يريان بعضيهما كروحين مترابطتين: شايين، كلٌّ منهما أستاذ جامعي في الفلسفة، تجمعهما الرغبة بإحداث ثورة في الفلسفة الألمانية. وكلاهما عبّرا عن ازدرائهما للفلسفة الأكاديمية التقليدية، التي اختزلت الفرد التاريخي الثابت إلى مجرد "ذات عارفة" لا تاريخية. كلٌّ منهما ندّد أيضاً بهيمنة العلوم الطبيعية والرياضية، التي عملت منذ القرن السابع عشر على تجسيم

السلوك الإنساني واختزال العالم إلى مجموعة من الحقائق والوقائع المحايدة. كلُ واحدٍ منهما سعى _بشكلٍ مستقل_ في دربه الخاص باتجاه فلسفة الوجود: حالة فكرية موجّهة نحو الأبعاد التاريخية والعملية والعاطفية للحياة الإنسانية التي أصبحت مبهمة ومشوّشة بتأثير التراث والتقاليد المتراكمة. ومن خلال الإشارة إلى الوجود التاريخي الصلب والمتماسك، اعتقد أنّه من الممكن إنقاذ الفلسفة من براثن النزعتين العقلانية والمثالية العمياء، وإعادة تأسيسها وترتيب أفضليتها على العلوم الطبيعية.

[35]: وعلى غرار العديد من معاصريهم، استمدّ كلٌّ من ياسبرز وهيدغر إلهامهما إلى حدٍ كبيرٍ من الفيلسوف الدنماركي اللوثري سورين كيركجارد. فبعد أن كانت كتاباته شبه منسية في الدنمارك طوال نصف قرن، تمّت ترجمة أعماله إلى اللغة الألمانية بدءاً منذ العام 1909، وكان لها بالغ الأثر على جيل الفلاسفة اللاهوتيون الألمان الذين بلغوا مرحلة نضجهم مع بداية الحرب العالمية الأولى، ومن ضمنهم ياسبرز وهيدغر، إضافة إلى عالم اللاهوت البروتستانتي كارل بارث. إنّ إشارات كيركجارد ذات النزعة الذاتية ونقده للعقلانية الهيغلية أصابت وتراً حساساً مع انعتاق المفكرين الألمان وتحرّرهم من قيود الخصائص المجرّدة للفلسفة الكانطية الجديدة، ومن النزعة الاختزالية التي صبغت العلوم المادية والطبيعية. قام كيركجارد بأول معالجة فلسفية للوجود بصورة واضحة: السمة المحدّدة، والمباشرة، والذاتية _بصورة غير قابلة للاختزال_ للحياة الإنسانية كما يعيشها الفرد داخل سياق الزمان. ويؤكّد كيركجارد في كتاباته التي تعود إلى أربعينيات القرن التاسع عشر على أنّ النزعة الذاتية الإنسانية لايمكن اختزالها إلى مجرّد صيغة موضوعية عن طريق الفلسفة أو العلم [أو حتى الدين]. فقد أشار بأنّ النزعة الذاتية الحقيقية متجذّرة عميقاً من خلال الالتزام الأخلاقي والديني، لتصبح غامضة ومبهمة على يدي "الفيلسوف التأمّلي" الذي

يسعى إلى تصنيف الفرد ضمن فئات عامّة وشاملة، أي اختزال الذات الإنسانية إلى مجرّد تعبير عن "روح" متجسّدة موضوعية، كما سعى هيغل لذلك. فقد أشار هيغل إلى أنّ أعلى وأرقى درجات الذاتية يتمثّل في الإيمان والاعتقاد الديني. الإيمان الأصيل يتجاوز العقل، إنّه يقوم على أساس "العَبَث".

[36]:ألْبَسَ ياسبرز وهيدغر العديد من أفكار كيركجارد وبصائره حِلَّة فلسفية عَلمانية. فبالنسبة لياسبرز، كان كيركجارد يجسّد أوّل فيلسوف وجودي حقيقي، "الاستثناء" الأول لقاعدة الحوار الفلسفي العقلاني. ولأنّه غَمَرَ نفسه بالكامل في تفكيره بدلاً من الاختباء خلف قناع الحِياد والموضوعية، كان كيركجارد، ومعه نيتشه، بالنسبة لياسبرز فيلسوفا الوجود النموذجيان، فبدلاً من مجرّد التنظير عن العالم والحياة، فإنّهما وضعا تجاربها الشخصية الأعمق والأصدق في مركز تفكيريهما. كان ياسبرز من أوائل الفلاسفة الوجوديين الذين وضعوا كيركجارد ونيتشه على رأس فلاسفة الوجودية بالقرن العشرين. كان هيدغر مديناً إلى حدٍ كبير لمفهوم كيركجارد عن "اللحظة" إضافةً إلى فكرته الميتافيزيقية المتعلّقة بالقلق والشعور بالذنب. وصف هيدغر في كتابه "الكينونة والزمان" _متبعاً بذلك كيركجارد_ الذنب والقلق ليس بوصفهما مجرّد حالات سيكولوجية، بل كأمزجة حيوية تكشف حقائق عميقة حول الإنسان. وفي حين أنّ هيدغر يقدّر بشكلٍ كامل وجهة النظر الدينية للوجود كصراع شخصي لتحقيق الخلاص من الخطيئة _في الوقت الذي كان فيه منشغلاً بدراسة مارتن لوثر، وقد تدرّب في إحدى الصباحات ليصبح قسّيساً يسوعياً، كان قد فقد إيمانه مع نهاية الحرب العالمية الأولى. والآن نجح بإلباس أفكار ومفاهيم كيركجارد الدّينية ثوب البحث العَلماني عن "الأصالة": صراع من أجل تخليص النفس من "سقوطها" الدائم بالحياة الاجتماعية اليومية، والإمساك بالممكنات التاريخية التي

قدّمها تراث النفس، ولإدراك الذات وفهمها ككيان محدود، متناهٍ، حُرّ، و"قَلِق".
فكرة كيركجارد عن القلق في كتابه "مفهوم القلق" كانت ذات تأثير بالغ. وفي حين أنّ الخوف إحساسٌ موجّه نحو شيء ما موجود في هذا العالم ويتهدّدنا، يشير كيركجارد أنّ القلق ليس له موضوع محدّد: يظهر شعور "القلق" حيال لاشيء. وعلى غرار كيركجارد، جادل هيدغر بأنّ الموضوع المراوغ للقلق هو الوجود ذاته، الإنسان "الموجود-في-العالم". ومن أوضح الرسائل في كتاب "الكينونة والزمان" تصف القلق من "الوجود-نحو-الموت". فعندما نقف أمام الموت وجهاً لوجه، تتقبّل الذات الأصيلة هَشاشة الكينونة _مقذوفيتها في الزمان والثقافة_ لكنها تتحمّل مسؤولية صناعة نفسها تمشياً مع خياراتها الخاصة.

[37] السياسة والوجود: هيدغر والاشتراكية القومية:

إنّ قرار هيدغر في شهر أبريل من عام 1933 بشغل منصب الرئيس النازي لجامعة فرايبورغ لهو أحد أقتم وأكثر الفصول إثارةً للجدل في تاريخ الفكر الوجودي. أفعال هيدغر وخياراته تستدعي منّا مقارنةً بعلاقة أفلاطون المشؤومة _قبل ذلك بحوالي 2300 عام_ مع ديونيسوس الأصغر، طاغية سيراكيوزه. على غرار أفلاطون، وضع هيدغر الفلسفة على أساس المُثُل الدنيوية للبحث الإنساني، وعلى غرار ذلك الفيلسوف اليوناني، من الواضح أنه رأى نفسه على أنّه "الملك الفيلسوف" الذي كان بوسعه توظيف الحكمة لأغراض ولأهداف سياسية. وفي قمّة تورّطه كتب هيدغر إلى صديقه كارل ياسبرز مبرّراً قبوله بتولّي منصب الرئاسة بأنّ هدفه كان "قيادة القائد" den Fufrer zu Fuhrer،[4] بمعنى إرشاد هتلر في سعيه لإعادة إيقاظ روح

[4] Julian Young, Heidegger, Philosophy, Nazism (Cambridge: Cambridge University Press, 1997), 17.

الشعب الألماني. بالعودة إلى الوراء، نلاحظ أنّ معتقدات هيدغر كانت ساذجة لأبعد حد. يبدو أنه كان مقتنعاً بأنّ وجهة نظره الفلسفية كانت ضرورية لتوجيه عمليه نتطوّر الاشتراكية القومية نحو تحقق أفضل في المستقبل، يقظة حقيقية ضمن "المجتمع الروحاني" للشعب الألماني Volk.

[38]: استقال هيدغر من منصبه كرئيس لجامعة فرايبورغ عام 1934، ولم يخُض أي جولات في عالم السياسة بعد ذلك. بأية حال، ظلّ يشغل منصبه كمحاضر في جامعة فرايبورغ طوال فترة الحرب العالمية الثانية. وفي عام 1946، مُنِع من التدريس لخمس سنوات من قبل لجنة اجتثاث الحزب النازي الفرنسية، ثمّ، في عام 1951، أحيل إلى التقاعد بدرجة أستاذ مساعد. إنّ منصب هيدغر كرئيس وتبريراته اللاحقة وتهرّبه كان موضوعاً لدراسات نقدية ظهرت منذ أواخر العقد الثامن من القرن العشرين.[5] في حين أنّ سذاجة سلوك هيدغر وسطحية لم تكن مثار جدلٍ عام، هناك خلاف عام في الآراء بين العلماء حيال درجة ارتباط الفلسفة الهيدغرية بالإيديولوجيا الناوية ودرجة تأثير الأخيرة فيها. هيدغر نفسه أكّد أنّه كان مقتنعاً في زمن العظمة الممكنة للحركة الاشتراكية القومية. إلى أنّه من الواضح أنّ هيدغر فهم الحركة كمحاولة لتوحيد الشعب الألماني حول قضية ماضيه الفكري والأدبي والفلسفي، وليس على أساس تفوّقه العرقي والبيولوجي المزعوم. هذه الآمال والتطلّعات بشأن "الولادة الروحية" لألمانيا كان يتشاركها الكثيرون من المفكرين والأدباء الألمان خلال فترة الحرب العالمية الأولى، من بينهم ماكس شيللّر وعالم النفس فلهلم وونت. يبدو أنّ هذه الصحوة أو الولادة الروحية، هذه النزعة القومية الروحانية هي التي

---

[5] لقائمة عن الحجج التي دافعت عن هذا الموقف انظر:
Young, Heidegger, Philosophy, Nazism.

قادت أفعال هيدغر في فترة الثلاثينيات، وليس فكرة التفوق البيولوجي والعرقي للشعب الألماني ومعاداة السامية التي انغمس فيها الحزب النازي.

[39]: هذا التفسير متوافق مع تصريحات هيدغر الفلسفية في تلك الفترة. في سلسلة من المحاضرات التي ألقاها عام 1935، بعنوان "مقدّمة إلى الميتافيزيقا"، وصف هيدغر الوضع الحالي بكلمات وتعابير ردّدت صدى الأحكام العَدَمية للمحافظين الثقافيين والسياسيين في تلك الفترة: «إنّ الانحطاط الروحي للأرض قد تفاقم لدرجة أنّ الأمم باتت في خطر فقدان... طاقتها... لرؤية الانحطاط... والسيطرة عليه بوصفه (...) إظلامٌ للعالم، رحيلٌ للآلهة... تحوّل البشر إلى قطيع، الكره وإساءة الظن بكل ما هو حُرّ وخَلاق، ، قد فَرَضَ هذه النسب على الأرض لدرجة أنّ هذه الفئات والتصنيفات الضبابية كالتشاؤم والتفاؤل قد أضحت عبثية منذ أمَدٍ بعيد»[6].

استنتج هيدغر بأنّ الحلّ الوحيد لهذه الأزمة الروحية العالمية يمكن في أيدي الألمان "أكثر الأمم الميتافيزيقية في العالم". لقد أعلن أنّ «هذه الأمة [الشعب Volk] بوصفها أمّة تاريخية، يجب أن تحرّك نفسها، وبذلك تحرّك تاريخ الغرب... نحو العالم الأولي لقوى الوجود».[7] من هنا نستنتج أنّ نزعة هيدغر القومية مبنية أساساً على أسس فلسفية وميتافيزيقية. لقد آمَنَ فعلاً أنّ "النزوع الروحي" الفريد للشعب الألماني ـ بمعنى تجذّرهم عميقاً في اللغة الألمانية والتراث الفكري الألماني ـ قد يضخّ الطاقة الروحية لقيادة القارة الأوروبية إلى مابعد دروب الشيوعية والرأسمالية

---

[6] Heidegger, An Introduction to Metaphysics, trans. Ralph Manheim (New Haven: Yale University Press, 1959), 38.

[7] مقدّمة إلى الميتافيزيقا، صـ38.

المسدودة والتي كانت تتهدّدها من كلا الجانبين. الغريب، أنه آمن بأنّ الاشتراكية القومية هي النزعة الوحيدة التي تمثّلت في هذه الصحوة والنهضة للروح الألمانية، أفضل فرصة لمحاربة قوى التغريب والعَصرَنَة التي وضعت أوروبا على طريق الانحطاط والدمار.

[40]: مهما بَدَت أراء هيدغر وأفكاره مضلّلة ومشوّشة بالنسبة إلينا اليوم، يجدر بنا التنويه إلى أنّ شعوره بالانحطاط العالمي قد شاركه به العديد من الآباء والمفكرين الألمان في تلك الفترة لأنّ ألمانيا كانت خلال فترة عشرينيات القرن الماضي وباكورة الثلاثينيات عرضةً للثوران الاجتماعي بشكلٍ مستمر، والغليان السياسي، والكساد الاقتصادي. وبعد صدمة وعار الهزيمة التي لحقت بألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى، والإصلاحات التي فرضتها عليها معاهدة فرساي المُذِلّة تطلّع أغلب الألمان لحكومة فيمار الغرّة (حكومة برلمانية ديمقراطية) كحكومة ضعيفة وغير فعّالة. وفي خضمّ موجة الصحوة الصناعية المتسارعة جرّاء الحرب، اندفعت أفواج من سكان الأرياف نحو المدن الصناعية، وتعطّلت المناطق الريفية التقليدية. وبقيت الشيوعية تمثّل الخطر المُحدِق مع تزايد المخاوف من انتقال الثورة الروسية إلى الغرب. أمُلَ المحافظون أنّ العودة إلى نظام الحكم الاستبدادي سيخلق ألمانيا جديدة وموحّدة وأقوى من قبل. اعتقد البعض أنّ الاقتراب من حافة الهاوية قد يحفّز عملية "ولادة جديدة" للعظمة الألمانية.

[41]: لذلك كانت كلمة "أزمة" تتردّد باستمرار على أفواه الكُتّاب والخطباء الشعبيون الديماغوجيون في تلك الفترة. وأشهرهم على الإطلاق كان أوزفالد اشبنجلر، مؤلّف الكتاب الأكثر مبيعاً آنذاك "سقوط الغرب"، الذي حَذَرَ فيه بأنّ الأحوال والشروط التي كانت سائدة في ألمانيا آنذاك مثّلت مركز الزلزال للأزمة

التاريخية–العالمية التي بشّرت بسقوط الحضارة الغربية. وقد أعلن اشبنجلر أنّ الحرب الحرب العالمية الأولى كانت «أوّل عاصفة برقية رعدية منذرة في غيمة تعبر من سماء قرننا مُثقَلَة بالقَدَر. لقد تمت إعادة صياغة شكل عالمنا من أساسه»[8]. في حين أنّ تفاصيل حجّة اشبنجلر الهيغلية المَطّاطة قد جرى انتقادها من قبل المؤرّخين والفلاسفة الألمان، ومن بينهم هيدغر نفسه، فإنّ إدراكه بأنّ أزمة عالمية على وشك الوقوع كان مقبولاً على نطاقٍ واسع، لقد أصبح تشخيص اشبنجلر أكثر منطقية بعد دخول ألمانيا فترة الكساد العظيم عام 1930.

وكانت هناك أصوات مؤثّرة أخرى لها ثقلها، من ضمنها المشرّع الرجعي والمنظّر تاسيتسي كارل شميت، الذي _يوصفه أستاذاً جامعياً ناجحاً_ دافع عن ضرورة العودة إلى نظام حكم استبدادي شمولي لتحقيق القوة والوحدة الوطنية. (لقد مضى شمست ليصبح المنظّر الشرعي الأول للحكم النازي). وهناك إرنست يونغر، وهو محارب قديم ومتمرّس شارك في الحرب العالمية الأولى، ويتميّز بمكانة رفيعة في المجتمع، وصف التجربة شبه الدينية للمحارب المندفع في المعركة. وقد بشّر يونغر في كتابه الطليعي "العامِل" بزمان "التعبئة الشاملة" الذي ستشُنّ فيه قوى حشود وجماهير المجتمع التكنولوجي (الشيوعية في الشرق، والرأسمالية في الغرب) صراعاً للسيطرة على العالم. أمّا الفرد، المتماهي داخل الجماعة، فسيتحوّل إلى إنسان من "نمط" جديد، جندي–عامِل إيثاري، ليس لديه أي شعور بالأنانية وحُبّ الذات.

[42]: وبالنظر إلى خلفية هيدغر ومزاجه المحافظ، فقد كان رهيفاً تجاه هذا التكهّن العَدَمي. حيث أنه قد نشأ في بلدة ريفية صغيرة وبسيطة، وضمن عائلة

---

(8) Hans Sluga, Heidegger's Crisis: Philosophy and Politics in Nazi Germany (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1993), 55.

كاثوليكية محافظة لا تملك الكثير وبإمكانيات متواضعة، مَقَتَ هيدغر النشاط المحموم والصاخب للمدن الكبرى، وتاق على ما يبدو للعودة إلى أشكال الحياة البسيطة لمجتمع ما قبل الصناعة. وكان هيدغر ، في صميم فؤاده، معادٍ للحداثة وللديمقراطية على حدٍ سواء _لقد كان مُرتاباً من النزعة العملية والنفعية التي تميّزت بها السياسة المعاصرة وتصوّر ألمانيا كمجتمع موحّد ومتكاتف يشترك في عادات وتقاليد وخصائص تراثية مشتركة. ولهذه الأسباب، ليس من الصعب تصوّر سبب كون رمزية النظام الاشتراكي القومي خلال فترة ثلاثينيات القرن العشرين، وبالتحديد إشاراتها الدائمة إلى قيمة العمل، والتعاون، والعيش الطبيعي، ورفضها للحياة المدنية المعاصرة المغتربة، جميعها كانت أسباباً مُلزِمَةً له.

[43] الظاهراتية/ الفينومينولوجيا وفلسفة الوجود الفرنسية:

هناك جنسٌ آخر من الفلسفات الألمانية في القرن العشرين، الظاهراتية Phenomenology كان يتميّز بأهمية ومكانة بالغتين ضمن سياق عملية تطوير الفلسفة الوجودية في القرن العشرين. فمن دونها، لما تمكّن لا هيدغر ولا سارتر ولا ميرلوبونتي في الوصول إلى فلسفاتهم الخاصة وتطويرها لتبلغ مرحلة النضج. كانت الظاهراتية هي فلسفة الوعي، طوّرها الفيلسوف إدموند هوسّرل، وكان فيلسوفاً ألمانياً مختصّاً بالرياضيات والمنطق. تصوّر هوسّرل الظاهراتية كمنهج لوصف الوعي الذي قاوم نزعة العقل الاختزالية إلى مجرّد أسباب سيكولوجية أو مادية، وهذا كان الهدف الأساسي لعلوم القرن التاسع عشر المادية. بعد الالتفات بعناية إلى العمليات التي من خلالها تصبح الأشياء ذات معنى بالنسبة للإنسان، اعتقد هوسّرل أنه من الممكن تحديد وجود "جواهر" ثابتة لا متغيّرة أو أنماط جوهرية تحكم كافة أنواع الوعي الإنساني. هذه الجواهر، خمّنَ هوسّرل، تعطينا أساساً ضرورياً وشاملاً لنشاط

أي وعي إنساني مهما كان نوعه. لذلك، لا يمكننا اختزال أنماط الوعي المختلفة التي يرتبط الإنسان من خلاها مع العالم _كالتفكير، الإدراك، التصوّر، التذكّر، الشعور، وهكذا_ إلى مجرّد عمليات ذاتية داخل عقل الفرد أو دماغه، إنما هي تكشف عن وجود بنية شاملة ثابتة لامتغيرة، بنية حقيقية بالنسبة لجميع الذوات الإنسانية وفي كل زمان. لذا رأى هوسّرل الظاهراتية "كعلم أساسي"، "صارم ودقيق"، حيث أنه في وصفِ للبُنى الجوهرية للوعي، سيكشف عن الأساس المعرفي المتين لجميع المعارف الإنسانية.

[44]: بالنسبة للفلاسفة الشباب خلال فترة الثلاثينيات، كانت تعتبر فلسفة هوسّرل الظاهراتية عالماً مثالياً: وعدٌ بالعودة إلى "قلب الوجود". لقد اعتُبِرَت الفلسفة الظاهراتية على أنها تقدّم نمطاً للولوج إلى عالمٍ خالٍ من أي وسائط نظرية، أو عملية وصفاً "مباشراً" للتجربة في تنوّعها وغِناها بدلاً من تفسيرها على أساس مسلّمات ميتافيزيقية مشبوهة. في عام 1932، عندما عَلِمَ سارتر من صديقه رايموند آرون أنّ باستطاعة الفيلسوف الظاهراتي أن يتفلسف حيال عصير المشمش أو كأسي الجعة، "شحبَ لونه من شدّة مشاعره"، لأنها كانت المقاربة الدقيقة للفلسفة التي كان يبحث عنها. إنّ أعمال سارتر المبكرة عن التخيّل، والمشاعر، والوعي، مع أنها كانت متشعّبة جداً من هوسّرل إلى مجموعة من المواضيع، جميعها كُتِبَت بوحي من الفلسفة الظاهراتية الهوسرلية. كرّس ميرلوبونتي نفسه لدراسة مخطوطات هوسّرل غير المنشورة خلال الحرب العالمية الثانية، ممّا قاده للعثور على أساس ناضج ومتين لآرائه ومفاهيمه في كتابه "فينومينولوجيا الإدراك" [1945].

[45]: من هنا، وفي خضم هذا الوضع الوجودي الراسخ في فرنسا خلال ثلاثينيات القرن العشرين، كما في ألمانيا خلال عشرينيات القرن، تحوّلت فلسفة

هوسّرل العقلانية، الظاهراتية اللاتاريخية إلى ظاهراتية وجودية Existential Phenomenology: عملت على تفسير العالم كما هو مكشوفٌ لنا عن طريق التجارب العاطفية والعملية والاجتماعية. لا كونه مجرد "جواهر" تحكم بشكل ظاهري هذا الكَشف. كان كتاب هيدغر "الكينونة والزمان" النموذج الأساسي لعملية التحول هذه، وكانت الفينومينولوجيا الهوسّرلية يُنظَرُ إليها عادةً عبر عَدَسة هيدغر الفلسفية الوجودية.[9] هناك عوامل مفتاحية أخرى كانت تتمثّل في فلسفات كلٍ من هيغل وكيركجارد، والتي دخلت الفكر الفرنسي في تلك الفترة عن طريق أعمال فلاسفة مثل جان فال، وجان هيبوتي، وغابرييل مارسيل، وألكسندر كوجييف. إضافةً إلى أعمال وكتابات فريدريك نيتشه وعالم الظاهريات الألماني ماكس شيللر جميعها كانت ذات تأثير بالغ على طليعة الفلاسفة والمفكّرين الباريسيين.

[46]: بهذا الشكل، وقبل ظهور الفلسفة "الوجودية"، بلغ كلٌّ من سارتر ودي بوفوار، وميرلوبونتي مرحلة النضج في مناخ يسوده الفكر الوجودي. وعلى غرار أسلافهم الألمان الذين ألهَموهُم، دافع فلاسفة الوجود الفرنسيون عن العودة إلى الوجود الإنساني الشخصي والتاريخي بوصفها حركة تصحيحية للسهو والزلل الأكاديميين. وفي نفس الوقت، قاموا بتطوير نظرة مُرَكّزة وفارقة نحو التجسيد والعلاقات الشخصية المتقاطعة، التي استمرت في أعمال سارتر ودي بوفوار وميرلوبونتي اللاحقة. وكان هناك فارق مهم آخر يتمثّل في المكانة الهامة والحيوية للفلسفة الماركسية بالنسبة للمفكرين الفرنسيين في ذلك الوقت. ففي أعقاب الحرب

---

[9] أنظر أيضاً:

See, e.g., Emmanuel Levinas, The Theory of Intuition in Husserl's Phenomenology, trans. André Orianne Evanston, Ill.: Northwestern University INTRODUCTION • 21 Press, 1998 first published 1930).

العالمية الثانية، لعبَت الفلسفة الماركسية دوراً هاماً ومحورياً في عملية تطوّر كلٍ من سارتر وميرلوبونتي، وخلال خمسينيات القرن العشرين، في السقوط اللاحق للفكر الوجودي في فرنسا.

[47] : سارتر والحركة الوجودية الفرنسية

تمّ تداول كلمة "وجودية" في البداية كنعت أو تسمية لفلسفة سارتر ضمن أجواء مشحونة سياسياً بفرنسا عقب تحرير مدينة باريس في أغسطس عام 1944. ومع تقديمه لمسرحيتين ناجحتين، والاهتمام المتجدّد في رواياته ما قبل الحرب، ونشر التحفة الفلسفية الهيدغرية "الكينونة والزمان"، أصبح سارتر شخصية أساسية مشهورة في باريس خلال فترة الاختلال الألماني. شعبية سارتر التي حَظِيَ بها أقلقت مسؤولي الحزب الشيوعي الفرنسي، الذين رأوا في الفلسفة الوجودية خطراً داهماً على هيمنة الإيديولوجيا الشيوعية السوفياتية على الشباب الفرنسي. لذا هاجمته الصحافة الشيوعية،[10] وردّ سارتر في التاسع وعشرين من شهر ديسمبر عام 1944 بمقال نشره عبر صحيفة شيوعية اسمها "أكشن"، عنوانه "بخصوص الوجودية: توضيح" A Propos de L'existentialisme: mise au Point. أكّد فيه التزامه بقضية "الصراع الطبقي"، كما استنكر الاتهامات بأنّ الفلسفة الوجودية كانت تعبيراً عن النزعة الفردية الغربية المنحلّة "والمثالية" أيضاً. وعلى غرار العديدين غيره من المفكرين الفرنسيين في تلك الفترة، اكتشف سارتر الفلسفة الماركسية ولم يكن مرتاحاً من تصويره على أنّه مؤسس وقائد الحركة التي تعارض فكره الأصلي. لقد عارض وبشدّة لقب "الوجودي" الذي أُلصِقَ به رُغماً عنه. وفي أواخر عام 1945، كتبت

[10] انظر أيضاً: انتقادات هنري ليفبري، وهو عالم اجتماع ماركسي، في
Henri Lefebvre, in Action (June 8, 1945).

سيمون دي بوفوار في مذكراتها: "رفض سارتر السباح لغابرييل مارسيل إطلاق صفة "وجودي" عليه قائلاً: "فلسفتي هي فلسفة الوجود، حتى أني لا أعرف ما هي الوجودية"»[11]. هذا المصطلح الجديد تمّ صَكّه في ظل نوايا خبيثة المراد منه التحقير والاستهانة، فهو يشير إلى نظام فكري موحّد وخاوٍ. أضِف إلى ذلك، أنّه يشير إلى وجود علاقات والارتباطات مع غيره من المذاهب والإيديولوجيات التي سادت في تلك الفترة _الشيوعية، الاشتراكية، الفاشية، السوريالية_ والتي خاطرت بإساءة فهم وتفسير أفكار سارتر.

[48]: لكن كل شيء قد تغيّر في خريف عام 1945، الخريف هو ذلك الفصل من السنة الذي يطلق عليه الفرنسيون تسمية la rentrée،العودة السنوية من العطلة الصيفية، حيث تبدأ الحياة في باريس من جديد. وخريف ذلك العام كان خريفاً استثنائياً، حيث أنّه كان أول مرة يختبر فيها الفرنسيون الحرية بعد أربع سنوات من الاحتلال الألماني. ظهرت في النور عشرات المجلات والصحف، إلى جانب أحزاب سياسية جديدة قد تشكّلت وتنافست فيما بينها على الحكم، والصحافة الفرنسية _من جهةٍ أخرى_ التي تحرّرت من قبضة الرقابة الألمانية النازية، كان تتضوّر توقاً لقصص وتقارير من أجل نشرها. وفي هذا الجو من الغليان والإثارة، فهم كُلٌ من ي بوفوار وسارتر أنّ "الوجودية" يمكن أن تكون شيئاً ذا قيمة كبيرة، وليس مجرّد عائق، فقرّرا اعتناق التسمية "واستعمالها" لأغراضهما وأهدافهما الخاصة. هذه الأهداف وضّحها سارتر في كتابه "الكينونة والعدم"، لكنّ هذا الكتاب، الذي تتجاوز عدّد صفحاته

[11] انظر:
Simone de Beauvoir, Force of Circumstance, trans. Richard Howard (New York: G. P. Putnam's Sons, 1964), 38.

الستمائة صفحة، ومكتوبٌ بلغة مكثّفة وتقنية جداً، لم يتلقّفه قُرّاء كُثر عندما نُشِرَ في عام 1943. إلا أنّ أهداف الفلسفة الوجودية نقلها بوضوح كلٌّ من سارتر ودي بوفوار من خلال رواياتهما ومسرحياتهما ومقالاتهما التي نشروها في مجلّتهما "الأزمنة الحديثة". وخلال فترة زمنية لا تتجاوز شهراً واحداً في شتاء عام 1945، أعلَن سارتر عن خطتّه الوجودية بوضوح ضمن أوّل روايتين له في مجلّته "الأزمنة الحديثة". الوجودية كانت فلسفة الحرية الفردية الراديكالية والمسؤولة، والالتزام الاجتماعي، وهدفها فضح نفاق وزيف القيم التقليدية الجادّة، واستبدالها بمذهب الخيار الفردي الحرّ والخلّاق. فعن طريق إلزام الناس بمواجهة "ازدواجيتهم"، وتحميلهم "مسؤولية" أنفسهم وخياراتهم وقراراتهم "بدون أيّة أعذار"، سعى كلٌّ من سارتر ودي بوفوار إلى خلق مجتمع فرنسي أكثر تحرّراً.

[49]: هناك حدث حاسم تمثّل في محاضرة لسارتر في التاسع والعشرين من أكتوبر عام 1945، بعنوان "الوجودية مذهب إنساني". يقدّم فيها سارتر بطريقة مباشرة اهم النقاط في موقفه، ويدافع عن "الوجودية" ضدّ مناوئيها من المحافظين الكاثوليكيين والشيوعيين المتطرفين في خِضَم هذه العملية، قدّم سارتر صيغة جادة وجريئة، حيث زعم أن "الوجود يسبق الماهية"، والتي سرعان ما أصبحت إحدى أهم وأشهر مقولاته في الأدب الوجودي. وعندما جرى نشر المحاضرة على شكل كُتَيِّب صغير الحجم، بيعَت منه آلاف النسخ وتُرجِم من فوره لعدّة لغات. وفي حين أنّ سارتر ندم على بعض العبارات المتسرّعة في الكتاب، لكنّه كان راضياً عن التفاعل وردود الأفعال التي لقيها. ومنذ هذه اللحظة فصاعداً، أشرق فجر الوجودية، وبدأ عصرها. في هذه المحاضرة يرسّخ سارتر أُسُس "النزاهة" الوجودية أو "الأصالة" التي استوحاها من فكر كلٍ من هيدغر وكيركجارد. وقد أشار إلى أنّ الوجود مُخَضّب

بالقلق anaoisse/anguish، جرّاء المسؤولية التي يجب أن نتحمّلها من أجل حرّيتنا. القلق، بدوره، إلى جانب "الحرية" و"المسؤولية" التي ينادي بها، يمكن تقبّله "بنزاهة" أو، بصورةٍ أعَمّ، يمكننا إنكاره و"الهروب منه" عن طريق "الكَذِب والزيف". الكذب الوجودي يتمثّل في التصرّف وكأنّ المرء محكومٌ بظروفه وعواطفه، أو كأنّ خيارات المرء كانت مَقضيّة مسبقاً بقيم وأحكام سابقة للوجود. النزاهة الوجودية/ أو الأصالة تكمن في الأفعال الصادرة عن المرء عندما يكون واعياً بشكلٍ كامل بحريته لخلق القيمة ولإضفاء المعنى من دون الرجوع إلى سلطة خارجية غيبية. علاوةً على ذلك، يصرّ سارتر على أنّ الأمر يتطلّب من المرء إدراك حقيقة أنّ حرية الآخرين تعتمد على حرّيتنا[12].

[50]: إنّ تصوّر سارتر للوجود _المسؤول والحرّ في آنٍ معاً، الملتزم بالآخرين والمنشغل بذاته، "القَلِق"، والمتفائل الخلّاق_ كان موجّهاً إلى الإنسان الأوروبي في تلك الفترة، الذي خاطبه في محاضرته هذه. لقد اعلَنَ لرجال ونساء فرنسا المُحَطّمين أخلاقياً وجسدياً جَرّاء حوادث الحَرب وويلاتها أنّ الماضي لا يحدّد الحاضر، لأنّ الحاضر يُصنَعُ باستمرار _عن طريق أفعال الإنسان وخياراته. كما أكّد في محاضرته على تحمّل مسؤولية الماضي، وفي نفس الوقت الانفتاح على إمكانية تجديد المستقبل. لقد أصبحت الوجودية على يدي سارتر فكراً يذكّرنا بأنّ الحياة الإنسانية هي مشروع مستمر من عملية خلق الذات، وليست تأدية أو تحقيق لأدوار مقرّرة مسبقاً أو إعادة/ استرداد للماضي. وفي ذروة شهرة سارتر، وسوء سمعته، انتشرت صور

(12) انظر:
Jean-Paul Sartre, "Existentialism," in Existentialism and Human Emotions, trans. Bernard Frechtman (New York: Philosophical Library, 1957), 46.

شعبية عن الوجودية عبر مختلف المجالات الثقافية في أوروبا وأمريكا. تماثيل ومنحوتات ألبيرتو جياكوميتي، مسرحيات صامويل بيكيت ويوجين يونيسكو، وحتى بعض أعمال رسامين انطباعيين أمريكيين، أظهرت بوضوح شديد "الروح الوجودية" وللاغتراب، والقلق، والعَبَث. وقد تحولت رواية ألبير كامو "الغريب" إلى عمل وجودي كلاسيكي فارِق بامتياز. وعند بداية الحرب الباردة، أسَرَت فكرة الفرد البطل البائس والوحيد الذي يواجه عالماً يخلو من أي معنى وعبثي، خيال المفكرين والقُرّاء في تلك الفترة، بغضّ النظر عن دقّتها الفلسفية.

[51]: لكن في الجهة المقابلة عملت الصحافة الباريسية على خلق صورة موازية تصوّر الوجودية كبدعو بوهيمية، تقول دي بوفوار في مذكراتها: «أطلِقَت صفة "وجودي" على جميع كتبنا _حتى تلك التي تعود لفترة ماقبل الحرب_ وعلى أصدقائنا أيضاً... وعلى نمط محدّد من الرسم، ونوع محدّد من الموسيقى. خرجت آن-ماري كازاليس بفكرة الانتفاع من هذه الصيحة... فقد وصفت... الشبّان الصغار المتجوّلين بين تابو وبيرغولا بالوجوديين»[13]. طبقاً لهذه الأسطورة، كان الوجوديون أشخاصاً ذوي مظاهر رَثّة، يرتدون أثواباً غريبة وبالية، يعشقون معاقرة الخمر بكثرة والرقص في كهوف _سان جيرمان-دويري. كما أنّ سارتر كان "الكاهن الأعلى" ودي بوفوار "الكاهنة الأم" في المذهب الوجودي، يجوبان البارات والمقاهي ويقيمان حفلات جماعية صاخبة. لكن مثقال الحقيقة في هذه القصص الغريبة هوأنّ سارتر ودي بوفوار كانا يقطنان فعلاً في حي سان جرمان، ونشأت بينهما صداقة مع بعض الأشخاص الذين وسموا أنفسهم "بالوجوديين"، وبالأخص المثلة والمغنية جولييت غريكو. وأشارت دي بوفوار لاحقاً أنّ صورة الانحلال البوهيمي قد

(13) انظر: Beauvoir, Force of Circumstance, 141.

استغلّها أعداء سارتر ونقّاده للإساءة له ولسمعته: «أيُّ ثقةٍ يمكن إيلاؤها لفيلسوف تشجّع تعاليمه على الرذيلة والحفلات الخلاعية الصاخبة... تلاميذه لايعيشون في سبيل أيّ شيء سوى من أجل قضاء بعض الوقت الممتع؟»[14].

[52]: ازدادت شهرة سارتر بصورة متهوّرة خلال العقد الرابع من القرن العشرين، وبداية العقد الخامس منه، وازدادت معه سمعة الفلسفة الوجودية سوءاً، فبالنسبة للحزب الشيوعي الفرنسي، الذي تسيطر عليه وتتحكّم به موسكو بشكلٍ مباشر، بقي سارتر بالنسبة لهم فيلسوفاً غريباً وخطيراً ومنحلاً. أمّا بالنسبة للنقّاد الكاثوليك الذين يشكّلون التيار المتديّن الرسمي، كان سارتر يفسد الشباب "العزيز". وفي عام 1948، صُنّفت أعمال سارتر من بين الأعمال المحرّمة من قبل الفاتيكان، وفي عام 1950، أصدر الباب بيوس الثاني عشر بياناً بابوياً قدّم فيه تعريفاً للفلسفة الوجودية كواحدة «من المذاهب الهدّامة والعقائد الفاسدة التي تهدّد بتقويض دائم المذهب الكاثوليكي».[15]

أمّا نهاية الحقبة الوجودية فكانت في بدايات العقد الخامس من القرن العشرين، عندما انخرط سارتر أكثر في جدالات ونقاشات سياسية حول الماركسية والشيوعية، وانتهت علاقته بميرلوبونتي وبكامو على خلفية بعض الخلافات السياسية.

[53] : الوجودية بعد سارتر

على الرغم من رغبته بالتحدث نيابةً عن جميع الوجوديين، إلا أنّ تعريف سارتر للفلسفة الوجودية لم يتعدّ أكثر من كونه تعريفاً للوجودية السارترية. فقد ترجم

---

(14) انظر: Beauvoir, Force of Circumstance, 142.

(15) انظر: Humani Generis (August 12, 1950).

بصورة مفصّلة جميع الجوانب المحورية في فلسفة سارتر _أولوية الحرية والمسؤولية الفردية، أهمية العمل والالتزام، وكثرة ممارسة الخداع الذاتي_ إلى لغة غير تقنية. لكنه لم يعكس دائماً وجهات نظر وآراء باقي الفلاسفة الوجوديين الذين زعموا أنّه يمثّلهم. وفي نهاية المطاف، إنّ تأكيد سارتر على عملية الخَلق وخلق الذات، والخيار كمصدر للقيمة، «والاعتباطية المطلقة والحرية المطلقة... للوجود» ضمن عالم يخلو من أي عناية إلهية،[16] من خلال نفس الرمز الذي جذب الأوروبيين العاديين عام 1945، قد غيّب بقية الفلاسفة الوجوديون الآخرين، وحَثّهم _ومعهم العديد من المفسّرين والشُرّاح_ على إعادة تقييم معنى الوجودية.[17]

[53]: من أهم وأكبر المتنصّلين من الفلسفة الوجودية بسبب محاضرة سارتر كان مارتن هيدغر في رسالته "رسالة في المذهب الإنساني".[18] ولتصوّر مدى أهمية هذا التنصّل، يجب علينا التنويه بأنّ سارتر وغيره من المفكرين الفرنسيين كانوا يعتبرون هيدغر كمؤسّس للفلسفة الوجودية في القرن العشرين. حتى أنّ بعضهم _على غرار الفيلسوف الظاهراتي إيمانويل ليفيناس_ قد مضى لأبعد حدّ عندما زعم أنّ هيدغر كان في الحقيقة "الوجودي الحقيقي الوحيد".[19] وعقب نشر كتيّب "الوجودية

---

(16) انظر:

Sartre, "Existentialism" in Existentialism and Human Emotions, 46.

(17) ما تزال أفكار سارتر تترك تأثيرها على مختلف التعاريف الواردة حول الوجودية في مختلف القواميس والمعاجم. أنظر:

The Oxford English Dictionary On-line, (http://dictionary.oed.com/).

الذي يعرّف الوجودية بأنّها مذهب مرتكز على... الفرد. الذي _كونه كائناً حُرّاً ومسؤولاً_ سوف يكون ما يصنع هو من نفسه عن طريق التطوير الذاتي لماهيته وجوهره من خلال أفعال الإرادة...».

(18) منشور في:

Martin Heidegger, Basic Writings, ed. David Farrell Krell (San Francisco: Harper Collins, 1993), 190–242.

(19) جادل ليفيناس بذلك في عام 1946 على طاولة حوار حول الوجودية التي أنتجها جان فال.

مذهب إنساني" عام 1946، وكردّ على الأسئلة التي طرحها الفيلسوف الفرنسي جان بوفري، نشر هيدغر نصاً مؤلّفاً من 50 صفحة ينكر في أي صلة تربط بين أفكاره وأفكار سارتر.[20] فحسب هيدغر، في حين أنّ سارتر يضع الذات الإنسانية في المركز الخلّاق للعالم لدرجة أنّه يستبعد ويقصي أيّة أبعاد إنسانية أخرى، فإنّه _أي هيدغر_ يضع الإنسان في علاقة حسّيّة وإلزامية مع الفكر، واللغة ، والتراث، مع "الوجود" الذي "ينادينا": «الإنسان لا يقرّر ما إذا كانت الموجودات ستظهر أو كيفية ظهورها، ما إذا كان "الله" والآلهة، أو التاريخ والطبيعة تتقدّم إلى ضوء الوجود... إنّ ظهور الموجودات يكمُن في قَدَر الوجود... والإنسان هو راعٍ هذا الوجود».[21]

[55]: بقيت "إنسانية" سارتر بالنسبة إلى هيدغر مذهباً ميتافيزيقياً كلاسيكياً يتمحور حول الذات، يمجّد قوى الإنسان علة المعرفة، والتصرف على أساسها، والخلق، والسيطرة على الواقع المحيط به. يرى هيدغر أنّ بداية المذهب الإنساني ستبدأ من خلال إعادة التفكير في معنى الإنسان ليس بوصفه ذاتاً للعقل أو الفكر، تتأرجح فوق عالم من الأشياء والموضوعات الخارجية، بل بوصفه "انفتاحاً نحو الوجود". وهذا ما يسمّيه هيدغر الآن exsistence، ويعني وقوفاً منصتا ومتيقظاً "في ضوء الوجود".

[56]: لعلّنا نتسرّع إذا قلنا _ما فعل بعض المفسرين_ أنّ رفض هيدغر لوجودية سارتر قد يكون دليلاً على أنّ هيدغر لم يكن وجودياً. فمن جهة، كتب هيدغر رسالته

Jean Wahl, A Short History of Existentialism, trans. Forrest Williams and Stanley Maron (New York: Philosophical Library, 1949), 48.

[20] في المحاضرة، أعلن سارتر أنّه هو ومعه هيدغر ينتميان لنفس المعسكر التابع للوجودية الإلحادية (رسالة الوجودية والمشاعر الإنسانية)، صـ13.

[21] انظر: Jaspers, "Philosophical Memoir" in Philosophy and the World, trans. E. B.

القصير "رسالة في المذهب الإنساني" عام 1947، أي بعد عشرين عاماً من نشره لكتاب "الكينونة والزمان"، أهم الأعمال الفلسفية. وبقدر ما يعكس هذا الحكم، الذي أطلقه هيدغر خلال فترة مابعد الحرب، تحوّلاً جذرياً في فكره، لاينبغي أن نأخذه كحكم مرجعي بالنظر إلى أعماله السابقة. والأكثر من هذا، أنّ تقييم هيدغر لسارتر وللتباين الكبير بين فلسفة كل واحدٍ منهما قد لايكون دقيقاً دوماً. فنظرية سارتر عن الوعي في كتابه "الوجود والعدم"، على سبيل المثال، ربّما وصفت بالتناسب مع فكرة هيدغر عن "الوجود-في-العالم". ومع ذلك عملت رسالة هيدغر "رسالة في المذهب الإنساني" على تعزيز وتقوية الافتراض القائل بأنّ الوجودية كانت من صنع يديّ سارتر أساساً، وينبغي الحكم عليها وفق شروط سارتر وحده. وتمّ تأكيد هذه الفكرة من خلال سلسلة من حالات الارتداد عنها بعد عام 1945، من قبل العديد من الكُتّاب والمشاهير الذين ارتبطت أسماؤهم يوماً بالوجودية. ألبير كامو، الذي كان مقرّباً جداً من سارتر برأي النقاد والذي فاقت شهرته الأدبية شهرة سارتر بعد الحرب، رفض بتعنّت لقب "وجودي". أمّا في ألمانيا، فقد شعر كارل ياسبرز أنّ وجودية سارتر كانت بداية موت فلسفة الوجود الحقيقية التي زعم أنّه يمثّلها الفعلي.[22]

وبصورة مماثلة، أصبح الفيلسوف الكاثوليكي في فرنسا غابرييل مارسيل ناقداً عنيداً لفلسفة سارتر، وخصوصاً من ناحية إلحاده وتأكيد المبالغ فيه على الحرية والخيار

---

[22] انظر:

Heidegger, Basic Writings, 234.

الفرديين. في نفس الوقت، زعم مارسيل أنّه هو نفسه كان "أوّل من وضع الخطوط الرئيسية والعريضة لهذا التطور [الوجودية] الجديد" في فرنسا منذ عام 1925.(23)

[57]: كان موريس ميرلوبونتي _الذي كانت خلفيته الفلسفية مشابهة لفكر سارتر، والذي شغل منصف المحرّر السياسي والمشرف العام مع سارتر في صحيفة "الأزمنة الحديثة"_ متردّداً حول ربط اسمه بسارتر. لقد فضّل ميرلوبونتي عدم ظهور اسمه في الصحيفة ومَهَرَ مقالاته بالحرفين الأولين نت اسمه "ت. م". مع أنّ فلسفته كانت قريبةً جداً من فلسفة سارتر فيما يخصّ الكثير من الجوانب المشتركة بينهما، فهو الآخر أيضاً، كان متردّداً حيال نعت "الوجودي". وعلى غرار هيدغر، شكّك بتأكيد سارتر على السمة المطلقة للحرية الفردية والخيار الفردي. ألا تفترض الحرية والخيار مسبقاً وجود خلفية سابقة ذات معنى ثقافي وتاريخي تكون فعّالة بالضبط لأنّها ليست مُختارة؟ فإذا كان الإنسان "مقذوفٌ به أو مُلقى" بالفعل في الزمان، هل يمكنه عندئذٍ التحرّر والانعتاق بشكلٍ كامل من قبضة التاريخ؟ لذا فضّل ميرلوبونتي وسم الوجودية الفرنسية خلال فترة مابعد الحرب كاستمرار "لفلسفة الوجود" التي بدأت في فرنسا خلال ثلاثينيات القرن العشرين. يقول ميرلوبونتي في تقييمه، أنّ كلاً من مارسيل، وهوسّرل، وهيدغر، وياسبرز كانوا روّاداً سابقين وضروريين ساعدوا على ظهور وجودية سارتر، كما أنّهم أثّروا فيه هو ذاته، وأنّ كليهما _هو وسارتر_ لا يمكن فهم أفكارهما وفلسفتهما بشكلٍ مناسب إلا بالرجوع إلى إنجازات الذين سبقوهما.(24)

(23) Gabriel Marcel, The Philosophy of Existentialism (New York: Citadel Press, 1984), 5.

(24) Gabriel Marcel, The Philosophy of Existentialism (New York: Citadel Press, 1984), 5.

اكتملت حلقة الرفض والارتداد عن الوجودية عند نهاية خمسينيات القرن الماضي، عندما خرج سارتر نفسه من صفوفه وعاد إلى حويته القديمة: «لا أحبّ الحديث عن الوجودية. إنّها طبيعة البحث الفكري دون أن نحدّدها. وأن نسمّيها أو نحدّدها معناه أن نغطّيها ونلفّها ثم نحكم ربطها وأقفال العقدة. ما الذي سيبقى؟ نسق ثقافي عتيق ومنتهي الصلاحية، شيء ما يشبه الصابون _بمعنى آخر: فكرة».[25] إنّ ملاحظات وإشارات سارتر الانتقاصية يجب وضعها ضمن إطار انضمامه اللاصق للحركة الماركسية. إنّ "فكرة" الوجودية، في حين أنّها عملت جزئياً كأداة تسويق ___ لم تكن قابلة للاختزال إلى شكلها الإعلامي المختصر. كان جوهرها فلسفة راديكالية في الفردية، والمسؤولية، استلهمها من كتابات وأعمال هيدغر، وبالرغم من جميع ظنونه وشكوكه، بقيت هذه الأفكار تجسّد مساهمة سارتر العظمى في فلسفة القرن العشرين.

[58] : الوجودية اليوم:

إنّ آفاق الفلسفة الوجودية اليوم أوسع بكثير وأكثر تفاؤلاً ممّا توقّع سارتر عام 1960. وتم تحضير مناهج تقديمية عن الفلسفة الوجودية من قبل العديد من أقسام الفلسفة والأدب واللغات الأجنبية لطلاب الجامعات والكليات الأمريكية. كما أنّ الجمعية الظاهراتية الوجودية _التي تأسست عام 1926_ لقيت إقبالاً واسعاً بين صفوف الأدباء والكُتّاب والفلاسفة الأمريكيين. كما تأسست الكثير من الجمعيات والنوادي الفلسفية باسم كلٍ من هيدغر وياسبرز وبوفوار في أمريكا.

---

(25) انظر:

See Merleau-Ponty, "The Philosophy of Existence," in The Debate Between Sartre and Merleau-Ponty, ed. Jon Stewart (Evanston, Ill.: Northwestern University Press, 1998).

[59]: هناك الكثير من الأبحاث والدراسات الفردية التي ظهرت وتناولت أفكار كلٍ من هيدغر، وياسبرز، وبوفوار، وسارتر، وميرلوبونتي، والعديد من الفلاسفة تاذين ارتبطت أسماؤهم بالفلسفة الوجودية. وقد تضاعفت أعداد تلك الدراسات والأبحاث خلال فترة الثمانينيات والتسعينيات. اليوم بات هناك كتب ودراسات موسوعية تقريباً حول كل واحدٍ من هؤلاء الأعلام في الفكر الوجودي. ويعود الفضل في هذه النقلة النوعية إلى ظهور ترجمات إنكليزية لكتاب "الكينونة والزمان" Being and Time عام 1962، وكتاب "الكينونة والعدم" Being and Nothingness عام 1965. كما ظهرت الكثير من النصوص الهامة لكلٍ من سارتر وهيدغر بعد وفاتهما مترجمة إلى اللغة الإنكليزية خلال السنوات الأخيرة،تسلّط الضوء من جديد على مراحل تطوّر الفلسفة الوجودية وفحواها. من بين أهم هذه النصوص: _كتاب سارتر "مذكرات الحرب" War Diaries عام1984. _كتاب "كرّاس من أجل أخلاق" Notebook for an Ethics عام 1992. _ وكتاب "مشكلات رئيسية في الفينومينولوجيا" The Basic Problems of Phenomenology لهيدغر، عام 1982 _وكتاب "كانط ومشكلة الميتافيزيقا" Kant and the Problem of Metaphysics عام 1990. _وكتاب "المفاهيم الأساسية في الميتافيزيقا" The Fundamental Concepts of Metaphysics، عام 1995. إضافة إلى ترجمة كاملة لكتابات هيدغر، من بينها مئات المحاضرات والمناهج الجامعية، كانت تستمرّ بالظهور منذ عام 1976، ويجري الآن دراسة احتمال تصنيفها ضمن مئة مجلّد.

[60]: لكن مع ذلك ظلّت الدراسات العامّة عن الوجودية شحيحة ونادرة منذ أوائل العقد السابع من القرن الماضي. لكن باستثنء عمل طليعي لديفيد أي كوبر:

"الوجودية: إعادة بناء" الذي نُشِرَ لأول مرة في عام 1990. وقد ساعد كتاب كوبر هذا في إعادة الاهتمام من جديد بالمسائل العامة للفلسفة الوجودية. وسيراً على الطريق الذي خَطّه الشُرّاح الأوائل أمثال فريدريك أولافسون، وجون ماكغواير، سرد كوبر أفكار وآراء هيدغر ونيتشه وسارتر وميرلوبونتي وغيرهم من الفلاسفة الوجوديين ضمن محاولة مكثّفة لإعادة بناء وجهة النظر الوجودية. ومن خلال تفاديه لتكريس فصول خاصة ومنفرجة لكل كاتب أو فيلسوف وجودي _الأمر الذي وقع فيه معظم الكتاب_ وبذلك يدفع القارئ للتركيز على رؤية شجرة واحدة حيث يفوّت على نفسه رؤية منظر الغابة، نجح كوبر في تقديم صورة كاملة وعامة للفلسفة الوجودية بوصفها «فلسفة كاملة ومتماسكة ومحدّدة... لا تقلّ تجانساً _ولا تزيد أيضاً_ من الفلسفة الوضعية المنطقية أو... البراغماتية». إلى هذا الحد، نجد أنّ إحدى أهمّ المساهمات التي جسدّها هذا الكتاب تتمثّل في دفاعه الفعّال والجرء عن كلٍ من سارتر وهيدغر بوصفهما فيلسوفان مكمّلان وضروريان، وليسا معارضين في مفهومهما للوجود الإنساني.

[61]: بما أنّ الفلاسفة البريطانيين لم يهتمّوا بالفلسفة الوجودية، بل نظروا لها نظرة انتقاص، من الجدير بالتنويه أنّ كتاب كوبر هذا لم يكن ليُرَحَّبَ به قبل ثلاثين أو أربعين عاماً. أمّا اليوم فقد تحسّن الموقف البريطاني تجاه الفلاسفة القاريين أمثال هيدغر ونيتشه وسارتر وميرلوبونتي بصورة دراماتيكية، ويبدو أنّ هناك اهتمام متزايد بمسائل الفينومينولوجيا الوجودية، لكنه أقل بكثير من الولايات المتحدة بشكلٍ ملحوظ. في كندا، ساعد فلاسفة أمثال تشارلز تايلور على إعادة إيقاد شعلة الاهتمام بالفكر الوجودي. لقد نجح تايلور في جمع أفكار هيدغر وسارتر وميرلوبونتي وتطويرها في سياق فلسفته الخاصة. كما أنّ عمله حول الأخلاق وحول تكوين الذات

كان له تأثير عظيم أيضاً. ومن بين الفلاسفة الأمريكيين الذين ساعدوا مؤخراً على إعادة لفت الانتباه إلى المشاكل الفلسفية الوجودية: ستانلي كافيل، هوبرت دريفوس، تشارلز غويغنون، ريتشارد رورتي، وروبرت سولومون.

[62]: وفي فرنسا اليوم، يتمّ التعامل مع وجودية سارتر وبوفوار وميرلوبونتي كفلسفة أكل عليها الزمن وشرب. وغالباً ما تلقي عليها فلسفة هيدغر ظلالها، هيدغر الذي _كما سبق ونوّهنا_ لا يصنّف على العموم ضمن قائمة الفلاسفة الوجوديين، بل كمفكّر من نوع خاص وفلسفة خاصة به وحده. من الناحية العملية، كل مفكّر فرنسي رئيسي ارتبط اسمه بالفلسفة مابعد البنيوية وما بعد الحداثة خلال السنوات الثلاثين أو الأربعين الماضية أقرّ بفضل هيدغر عليه أو عليه بصورة أو بأخرى، إلى جانب فلسفة نيتشه. وفي ألمانيا، استمرّ الاهتمام بفلسفة هيدغر على نحوٍ كبير، مع أنّه لا يعتبر وجودياً في فرنسا. وكان يورغن هابرماس، الفيلسوف الألماني المعاصر العظيم، ناقداً قوياً وصعباً للوجودية الهيدغرية. وعلى العموم، يعتبر هيدغر أحد أهم الفلاسفة الألمان في القرن العشرين، والذي تعادل مكانته مكانة فيخته أو شيللينغ أو هيغل.

[63]: إنّ أثر الفلسفة الوجودية مازال كبيراً وطاغياً يسمع صداه في أنحاء أخرى من العالم أيضاً، وبشكلٍ خاص في اليابان وأمريكا اللاتينية. فنلاحظ أنّ فلسفات كل من هيدغر وسارتر وخوسيه أورتيغا مازالت تمارس تأثيرها على الجامعات اللاتينية، وتعتبر كلٌّ من الفلسفة الوجودية والظاهراتية نموذجاً فلسفياً رئيسياً. في اليابان، كان الفلاسفة اليابانيون مُلِمّين بفكر سارتر وهيدغر ونيتشه وميرلوبونتي منذ العقد الخامس من القرن العشرين. وسيراً على خطا مفكريهم أمثال كيجي نيشيتاني، استمرّ الفلاسفة اليابانيين بدراسة العلاقة التي تربط بين الفكر الآسيوي التقليدي وبين

الفكر الوجودي، مُمَهّدين طيق التواصل والتبادل بين التقاليد والأفكار الفلسفية الشرقية والغربية. انتهينا هنا التقديم التاريخي للفلسفة الوجودية واستفضنا بذلك آملين أن نكون قد قدّمنا شرحاً كافياً ووافياً، لعلّنا يمكننا البدء بمناقشة والتوسع في تحليل أهم الأفكار الفلسفية الوجودية.

القسم الثاني : قضايا وجودية

[1] : مقدمة :

يجادل سارتر في عمله المهم "الوجودية مذهب إنساني" بأنّ مجمل الفكر الوجودي مختصر في مقولة "الوجود يسبق الماهية". ولكن لا يتفق مع الجميع حول هذه التسمية (ومنهم هيدغر) ولكنه بالتأكيد مفهوم هام جداً. ولكي نكون أكثر دقةً، مايقوله سارتر هو أنّ ___ وجودنا يسبق ماهيتنا... لنوضّح أكثر. سيكون الأمر أوضح إذا وضعنا على مفهوم الجوهر. فعندما نقول أنّ شيئاً ما أمر جوهري، فمعناه أنه أمر حيوي وضروري. إذا صنعنا حساء بالفطر، ولم نضع فيه فطراً، عندها لن يكون هذا الحساء حساء الفطر. فالفطر جزء حيوي وجوهري بالنسبة لحساء الفطر ليكون الحساء حساء الفطر، وليس حساءً آخر. إنّ جوهر الشيء هو مايجعله على ماهو عليه. لذا من خلال القول أنّ الوجود يسبق الماهية يقصد سارتر أنّ الكائنات البشرية توجد أولاً _أي تولد وتعي حياتها_ قبل أن يصبحوا على ماهُم عليه. وليس هناك أي مكوّن أساسي وجوهري يحدّد ماهية الكائن البشري. لاشيء، باختصار، يمكن اعتباره جوهراً أو طبيعةً تجبر جميع البشر على أن "يكونوا" وفقاً لصورة مسبقة ما. ليس هناك طبيعة بشرية، وليس هناك كينونة محدّدة سلفاً تحدّد ماهيته. فالإنسان يبدأ حياته بصفته لاشيء، كشيء مجهول وصفحة بيضاء تماماً. سأشرح بعد قليل معنى ذلك كله ومدى أهميته، وبالأخص بالنسبة لمسائل كالحرية الإنسانية والمسؤولية والقيمة. يمكنك التفكير في الحرية كنموذج أبيض خام عليك أنت أن تعبئه. إنّه موجود، لكنه موجود فقط لتتمّ تعبئته بشيء آخر. وفي حالة الكائنات البشرية، ذلك الشيء الآخر هو ماهيتك وهويتك.

[2]: كائن بشري وليس مجرّد ساعة

يشرح سارتر معنى أهم عبارة من عباراته من خلال المقارنة بين الكائنات البشرية وآلة مصنّعة. ونحن سنستخدم مثال الساعة هنا، أمّا سارتر فقد استخدم مثال قطّاعة الورق، لكنّ النقطة التي نريد توصيلها هي نفسها تماماً. الساعة لها وظيفة محدّدة: إنّها موجودة لك تخبرنا الوقت. ومع أنّ بعض الساعات تكون ذات عقارب أو قد تكون رملية أو حتى رقمية أو مرفقة بسكين للقطع، فإذا كان الشيء لايخبرنا عن الوقت لا يمكن أن نقول عنه أنه ساعة. بإمكاننا القول (بطريقة فلسفية إن أردت) أنّ الإخبار عن الوقت هي سمة جوهرية ليكون الشيء ساعة، وهذا مايجعل من الآلة ساعة. علاوةً على ذلك، هذه الوظيفة موجودة مسبقاً في ذهن صانع الساعات قبل صناعة أي نوعٍ من الساعات. لا أحد يصنع ساعة دون أن يدور في خلده مايلي: «سأصنع شيئاً يخبرنا بالوقت». لكنّ جوهر الساعة مايجعل منها ساعةً فعلاً ـ يسبق وجودها الفعلي لأنّ ذلك الجوهر، ذلك الغرض منها، كان موجوداً داخل عقل المصمم قبل أن صنع الساعة ويصبح لها وجود في هذا العالم. لذا هناك خاصيتان مثيرتان بالساعات هما: 1) إنّ لها جوهر ثابت أو تعريف محدّد يحدّد ماهيتها. وهو جزء ممّا يجعلها ساعة، أي أنّها شيء يخبرنا عن الوقت. فالإخبار عن الوقت يعتبر سِمة جوهرية في أي ساعة. 2) الجوهر موجود قبل الساعة الفعلية. الجوهر موجود كفكرة أو مخطط قبل أن تُصنَعَ الساعة، ويلعب دور المُرشِد في صناعتها. يشير سارتر بصورة دراماتيكية أنّه إذا لم يكن الله موجوداً، فإنّ هذه المعادلة تصبح معكوسةً تماماً، أو على الأقل بالنسبة لكائن واحد موجود في هذا العالم. لأنّ الله لم يُصَمّمنا أو يخلُقنا، فإنّنا لم نُخلَق ولنا خطّة مُسبَقَة موجودة داخل عقولنا، كحال الساعة. وعلى عكس مثال الساعة، لم يكن هدفنا أن نعيش وفق وظيفة محدّدة ـ أو تُدرِكَ نَمَطاً معيناً، فعندما نولد، نوجد في

هذا العالم ببساطة، بدون أي سبب أو هدف أو غاية. ليس هناك أي خالق لديه تصميم أو ماهية مسبقة ف عقله بشأننا، لذا فنحن موجودون قبل أن يكون لوجودنا أي معنى أو هدف أو غاية. لذا، وحسب سارتر، نحن خلاف الساعة بطريقتين مختلفتين: الأولى: ليس لدينا جوهر ثابت أو تعريف محدّد. فكوننا بشراً لايعني هذا أنّ هناك أيّ معنى أو غاية أو مغزى من وجودنا، "فالطبيعة البشرية" مفهوم خاطئ ولاوجود له. الثانية: نحن نوجد قبل أن تكون لنا ماهية أو تعريف أو هدف أو غاية. مع أنّ الساعة تبدأ وجودها كأداة لإخبارنا عن الوقت، فإنّنا كبشر نبدأ كلا شيء إطلاقاً، كخواء أو قشرة خاوية، مجرّد جسد خام. ماهيتنا الوحيدة هي أنّنا كائنات تفتقر إلى أي ماهية مسبقة. ولكن لاحظ معي عزيزي القارئ، الكلمتين الغريبتين "ثابت/ محدد" و"قبل". إنّ الماهية والفرض والمعنى _بالنسبة للبشر، هذه الأمور تأتي لاحقاً. فنحن نولَد من دونها، لكننا علينا تقع مسؤولية صنعها وتطورها بطريقة خاصة بنا وحدنا. لهذا السبب نجد أنّ "الوجود يسبق الماهية". إنّ الكائنات البشرة من الناحية الجوهرية هي مخلوقات تصمع جوهرها الخاص بنفسها. عليك أن تحدد وتعرّف نفسك عن طريق خياراتك وأفعالك. فبعد ممارستك لحريتك وإرادتك الخاصة واختيارك طريقة تصرّفك في هذا العالم الذي تبدأ فيه بتعريف ماهيتك وتطوير أو خلق المعنى لوجودك الخاص.

[3]: الوجود يسبق الماهية:

عبارة صاغها جان بول سارتر في مقالته الطولة "الوجودية: مذهب إنساني" لتعرف الأساس الفلسفي للفلسفة الوجودية. ومع أنّ سارتر أقصى نفسه تماماً عنها لاحقاً، إلا أنّ هذه الصيغة أصبحت من أشهر وأكثر الصيغ تداولاً. في هذه المقالة، يوضّح سارتر مقصده من خلال فكرتين أساسيتين:

1) "الإنسان ليس سوى مايصنعه هو بنفسه"

و2) "لايكون للإنسانية شيء اسمه الطبيعة البشرية، لأنّه لايوجد الرب الذي تمثّل وجود هذه الطبيعة وحققها لكل فرد". وبذلك صبح معنى هذه العبارة أنّ البشر يعرفون أنفسهم ويحدّدون ماهيته من طريق أفعالهم وخياراتهم في معرِض عملية الوجود بدلاً عن طريق الكينونة المسبقة من خلال طبيعة مقرّرة مسبقاً أو جوهر محدّد، بطريقة الصناعة البشرية، أو الأشياء الرياضية، أو أي كائن إلهي غيبي مفارق. إنّ صيغة سارتر الوجودية تسري في الفلسفة التقليدية القديمة على التفريق بين ماهية الشيء أو "جوهره": "وجوده". تقليدياً، الجوهر هو الطبيعة أو الشكل أو الفئة الثابتة والكلية التي يوجد وفقها شيءٌ ما. وتُفهَم الجواهر تقليدياً بوصفها الشيء الأكثر ملائمةً للبحث الفلسفي، لأنها تعبّر عن الجوانب الضرورية والثابتة للواقع. بينما يؤخذ الوجود للتعبير عن كل ماهو طارئ وعابر. المثلث الموجود في ورقتي لأنني رسمته هو أقلّ الأشكال واقعيةً _أقلّ كمالاً، وأقل اكتمالاً، وأكثر قابلية للزوال_ من جوهر المثلث الذي أتمثّله في عقلي. على غرار جميع الموجودات، إنّ المثلث الموجود على الورقة هو إنشاء ناقص شبيه بالمثال الموجود داخل عقلي، يشرح سارتر كيف يتم عكس هذا الوضع في حالة البشر. إذ يختلف البشر عن الموجودات الأخرى من ناحية أنّهم لايملكون جواهر ثابته مقرّرة مسبقاً بالمعنى التقليدي، ولاطبيعة محدّد مسبقاً أو غاية أو هدف، كالتي تضفيها التعريفات الكلاسيكية القديمة على الإنسان، بوصفه "كائناً عاقلاً" أو "كائناً مخلوقاً". "فماهية" الشخص ماهي إلا نتاج الطريقة التي يختارها أو تختارها لممارسة الوجود، إنّها مجموع أعماله/ ها وقراراته/ ها. وبالتالي يكون معنى عبارة "الوجود يسبق الماهية" أنّه لايمكن معرفة خصائصي أو "جوهري" قبل وجودي، لأنّ نوع الشخص الذي أنا عليه يتحدّد بالالتزامات التي أختار متابعتها في

حياتي. إنّ الخصائص الإنساني الشاملة المزعومة كالعقلانية والأخلاق هي _بالنسبة لسارتر_ نتائج وأعراض وليست علل للوجود. الوراثة والظروف الاجتماعية، أيضاً، هي في النهاية "ما أصنعها أنا" من خلال مشاريعي والتزاماتي. على الأغلب إنّ مصدر صيغة سارتر هو عبارة لمارتن هيدغر ف كتابه "الكينونة والزمان" بأنّ ("جوهر" الدازاين يكمن داخل وجوده). ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أنّ هيدغر لم يشارك سارتر فهمه للوجود، والذي اعتبره _مخطئاً_ بأنه مرتكز حول الإنسان وذاتي النزعة. لذلك انفصل بشكل واضح وصارخ عن وجودية سارتر في رسالته "رسالة حول الإنسانية".

[4] : إذا مات الله، هل تغدو الحياة بلامعنى؟

آينشتاين قال: E=mc2 ديكارت قال: "أنا أفكر، إذن أنا موجود".

أما نيتشه فقد قال: "الله مات". إذا لم تكن تعرف من هو فريدريك نيتشه، خصوصاً إذا كنتَ من المتدينين الملتزمين، لا غرابة إذن لو افترضت أنّ نيتشه يقولها بصورة تهكمية. قد يكون نيتشه مخادعاً بعض الشيء، وبالتأكيد لم يتوانى في استخدام لهجته هذه مع أعداءه (أو حتى أصدقاءه) ومن بينهم المسيحيين على وجه التحديد. عندما تكلّم عن موت الإله، تكلّم عنه بلكنة كئيبة وداكنة. «قفز المجنون إلى وسطهم واخترقهم بنظرات من عينيه. "أين الإله؟" صاح فيهم "أنا سأخبركم! لقد قتلناه _أنتم وأنا. نحن جميعاً قَتَلَة. مات الإله! ويظلّ الإله ميتاً! ونحن مَنْ قَتَلناه! كيف يمكننا أن نُعَزّي أنفسنا، نحن أكبر القَتَلَة؟ إنّ أكبر وأعظم ما امتلكه العالم قد نزف دمه حتى الموت بطعنات مُدانا: مِنْ سيمسح هذه الدماء عن أيدينا؟ أيُّ ماءٍ سيُطَهِّرنا؟ أيّة مراسم تكفيرية، أيّة ألعاب مقدسة يجب علينا أن نبتكر؟ أليس عِظَمَ هذه الفعلة شيئاً يفوق طاقتنا؟ ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنا آلهة لمجرّد أن نبدو جديرين

بهذه الفعلة؟ ولكن كيف فعلنا ذلك؟ كيف كان أن بمقدورنا أن نفرغ البحر؟ من أعطانا الإسفنجة لِمحو الأفق بأكمله؟ ماذا فعلنا بإبعادنا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين نسير الآن؟ إلى أي شيء شيء تقودنا حركتها؟ أبعيداً عن كل الشموس؟ ألَمْ نسقط في مُنحَدَرٍ طويل؟" [الرجل المجنون من كتاب العلم المرح] إذن "موت الله" هو مسألة مؤلمة ودموية حقاً. لكن ماذا عن السؤال الذي طرحناه سابقاً: هل موت الله يعني أنّ الحياة غَدَت بلامعنى أو هدف؟ الجواب على هذا السؤال بسيط للغاية: إنّه نعم... ولا في نفس الوقت. هههههه. "الله" بمختلف المعاني هنا كان مصدر جميع القيم والمعاني في هذا العالم. وعندما نقتل الإله، فإنّنا نخسر هذا المصدر. وكما يقول نيتشه: "نمحو الأفق بأكمله". عندما نمحو هذا الأفق الإلهي، سنجد أنفسنا في عالمٍ خالٍ من أي معنى أو هدف؟ إذن نعم، الحياة من دون إله لامعنى لها. لكنّ الله يحبّ الاستحواذ على كل شيء تقريباً. فقد أبقى كل المعاني وكل القيم لنفسه _واحتفظ بها جميعها في السماء عنده. لذا _كما سيتّضح لاحقاً_ فإنّ العالم كما تختبره وتعيش فيه يوماً بيوم كان خالياً من المعنى فعلاً. كان مسموحاً له أن يتحصّل على مقدار معين لتبرير وجوده، لكنه لم يكن له معنى خاص به. لهذا نجد أنّ مسألة موت الإله ذات أهمية بالغة بالنسبة لنيتشه _ولماذا نراها نقطة انطلاق للفلسفة الوجودية. فبعد موت الإله فقط يصبح بإمكان الإنسان مواجهة عدم جدوى العالم ولامعقوليته وعبثيته ويدركها، ويصبح الأمر عائداً لك لتتحمّل مسؤولية الطريق التي ستمضي فيه حياتك. وهذا المعنى هام جداً بالنسبة للجواب "لا". فعند تأمّل مفهوم موت الإله يسأل نيتشه "أليس عِظَمَ هذه الفعلة شيئاً يفوق طاقتنا؟ ألا يجب علينا أن نصير نحن أنفسنا آلهة لمجرّد أن نبدو جدِيرين بهذه الفعله؟ لم يسبق أن وقع أمر أعظم، وكل من سيولد من بعدنا _من أجل هذا العمل، سيكون جزءاً من تاريخ

أسمى من كل تاريخ حتى الآن". العالم خالٍ من المعنى في الأصل، لكنّ الحركة الأساسية للفلسفة الوجودية هي التأكيد على عدم حاجتنا للبقاء هكذا. نحن نتحمّل مسؤولية إضفاء معنى على العالم. إنها ليست بالمهمة السهلة، ولاينبغي الاستخفاف بها. لقد قام بها الله على مدى ألفي عام، ويمكننا أن نتوقّع مرور بعض الوقت قبل سماع رَدّ منه. إنّ "موت الله" يعني أنّ البشر لم يعد لديهم مصدر فعلي حقيقي يستمدّون منه قيمهم، ويعني أيضاً أنّه مهما كانت القمة التي نجدها، أو نصنعها، لن تصمُد معنا في خِضَمّ هذا العالم الشرس الذي نعيش فيه إن لم تَكُن صادرة عن الله. سنرى الآن إذاً ما الذي عَناه نيتشه بموت الإله، وكيف أنّ هذا التصريح لايشمل فقط ذلك الإله الموجود في الكتب السماوية الثلاث: التوراه والإنجيل والقرآن (من بين كتب مقدسة أخرى). وسنرى بالأخَصّ كيف أنّ هذا المفهوم يَمُسّ الأنظمة الفكرية المطلقة الثلاثة: العَقلانية والدين والعلم.

[5] : مَنْ ذا الذي مات؟ وماذا نعني "بموت الإله"؟

على أحد الأصعدة، يمكننا أخذ فكرة موت الإله حرفياً إلى حَدٍ ما. الله ميّت، أو لم يَعُد قابلاً للحياة، بوصفه مفهوماً فلسفياً. فلطالما أحَبّ الفلاسفة ولقرون عديدة الجدال حول وجود الله. وتمّ وضع مقدمات لاتُعَد ولاتُحصى لإثبات وجود الله _ولا نقول أنها صحيحة_ ومقدّمات أقل حول عدم وجوده، والحجّة الأساسية بينها هي حجّة وجود الشر. إلا أنّ نيتشه وغيره من الوجوديين لايشغلون بالَهم بهذه المسائل. إنّ موت الله ليس نداء انتصار لطرف من الأطراف وقوله "أنا فُزت، أنا رَبحتُ الجِدال". إنه بالكاد إقرار بما يعتبره هؤلاء الفلاسفة والمفكّرون الوجوديون حقيقة سوسيولوجية يمكن ملاحظتها والتحقّق منها _والأهم من ذلك، أنّهم لم يعودوا يسيطرون على تفكيرِ الناس وعلى عقولهم وقلوبهم، ولم يعودوا يتمتّعون بأي

سلطة أو نفوذ للتأكيد على القيمة والمعنى في هذا المجتمع الحديث والمعاصر. بهذا المعنى إذن، الله هو ذاك الكائن المقدس والمبجّل الذي _حسب ما تقترحه الديانات التوحيدية الكبرى_ صاغ وجودنا ومنح المعنى والغاية لحياتنا ووجودنا. في هذا الإطار، أنت _كإنسان_ لك قمة، أنتَ كائن مميّز، لأنّ الله يحبك ولديه خطّة من أجلك. إذا خلق الله كل شيء، فإنّ كل شيء _مثلك_ له هَدَف ومعنى وغاية ="مَكانٌ لكل شيء وكلُّ شيءٍ في مكانه"، كما يقول المَثَل القديم. فالوجود في عالمٍ يكون فيه الإله حياً، سيكون هذا العالم مكاناً منتظم ومُرَتّب جداً. كل شيء له غاية، كل شيء له سبب، وكل شيء له قيمة، لأنّ الله خلقه بهدف وغاية في عقله، وهو يحب مخلوقاته ومصنوعاته.

[6] : موت الأنظمة الفكرية الشمولية:

على الرغم من أنّ الديانات التوحيدية الثلاث قد قامَت بعملٍ رائع في فهم العالم حسب نظرتها وجعله مكاناً منتظماً ومرتباً له معنى وهدف واضحين، لكنها لاتحتكر هذا المجال لنفسها. إنّ الفلسفة والعلوم والأديان التعددية جميعها تؤمن وتسعى لتطوير _من بين أمور أخرى_ نماذج مساعِدَة عساها تسهّل فهمنا للعالم ومكاننا فيه. وبذلك فهي تميل للمُضِي أبعد قليلاً في ذلك. إنها تحاول إنشاء أنظمة فكرية أو نظريات مطّاطة واسعة أو وجهات نظر دخانية تسعى لتفسير كل شيء. علاوةً على ذلك، إنّ التفسيرات التي تقدّمها تميل لأن تكون من الأعلى إلى الأسفل، فوجهات النظر التي قدّمتها الفلسفة والعلوم والأديان تقدّم لنا أجوبة مطبوخة وجاهزة، بدلاً من مشاركتنا في عملية إنتاج المعرفة وصياغة أجوبتنا الخاصة بنا وحدنا. عندما يعلن نيتشه موت الإله، فإنّه يعلن عملياً موت جدوى جميع هذه السمات والنماذج التفسيرية من الأعلى إلى الأسفل. من أجل التبسيط، سنشير إلى جميع هذه المحاولات لتنظيم

العالم بطريقة عقلانية "بالمنظومات الفكرية الشاملة". ويمكن النظر إليها كنماذج تفسيرية مطلقة لأنّها تسعى إلى تنظيم وترتيب كل شيء في هذا العالم في إطار رواية مُتّسقة ومتناسقة، يمكن من خلالها تفسير كل شيء. هذه التفاسير، أو النماذج أو المنظومات المطلقة تقدّم لنا محاولة لإضفاء معنى وغاية على العالم. لهذا السبب، غالباً ما يَشار إلى هذه التفسيرات باسم نماذج سردية لإضفاء المعنى. على سبيل المثال، تُعَدّ مفاهيم الجنّة والنار جزءاً من النموذج السردي الذي تقدّمه العديد من الديانات كالديانات التوحيدية، وليس كلها، لوضع العمل الإنساني في سياق ذو معنى لإفهامنا بأنّ الخيرَ يُثاب والشرّ يُعاقَب عليه. _إنّ الأنظمة المطلقة هي مطلقة بمعنيين: الأول: أنّها تفسّر، أو على الأقل تقدّم سياقاً لكل شيء: فطبقاً لهذه الأنظمة الفكرية، لايمكن فهم شيء _نظرياً على الأقل_ في سياق المنظومة. فخلال كتابتي لهذه الكلمات، هناك آلاف الشيوخ والدُعاة يبشّرون أنّ مايحدث من مآسٍ وكوارث وحرائق كحرائق الأمازون والحروب تجري نتيجة غضب الله على البشرية. في حين أنه في الدوائر الأكاديمية يتحدّث علماء البيولوجيا والسوسيولوجيا التطوريين عن أنّ الأخلاق يجب فهمها ضمن إطار نظرة داروين في التطور. كل منظومة مطلقة تؤكّد على وجوب فهم الأمور وكيفية سيرها ضمن إطارها الخاص. الثاني: تصبح المنظومة الحكم النهائي للحقيقة والواقع. كما أنّ المحكمة الدستورية العليا هي الفيصل النهائي في أي حكم دستوري، كذلك النظام الفكري الشمولي _سواءٌ أكان المسيحية، أو الوثنية، أو العَلمانية، أو الأفلاطونية_ هو بمثابة المحكمة الدستورية العليا لأي حكم يصدر حول الحقيقة والواقع. لهذا السبب نرى معظم الوجوديين حسّاسون بعض الشيء نحو مسألة وصمهم بالوجوديين، فهُم لايريدون لأفكارهم أن تتقولب لتصير نظاماً فكرياً شمولياً مطلقاً. شيء آخر لابد من التنويه إليه يتعلق بالأنظمة

الفكرية الشمولية هو أنّها تنزع لأن تكون أكثر تجريداً وعمومية. فمن جهة يمكن لذلك أن يكون أمراً جيداً. فالقوانين الوضعية مُستقاة حتماً من شرائع تقليدية دينية قديمة عندما يتعلّق الأمر بموضوع الإرث والأحوال الشخصية. ولكن انظر من جديد إلى طبيعة هذه الأنظمة الفكرية الشمولية. مع أنّ لها فوائدها حتماً، إلا أنّ أهمّ مشكلة تنشأ عنها هي أنّها شمولية بالمطلق. لدينا دائماً ذلك التوتر بين متطلّبات النظام المطلق وتطبيقه على الأفراد الماديين. حتى عندما يوفّر النظام الشمولي معنى ما، فإنّه يفعل ذلك على مسافة عن الفرد. فغالباً ما يتمّ تغليف هذا المعنى وفصله عن الحياة الإنسانية التي يُقصَدُ منه المحافظة عليها. وكما سنرى لاحقاً: فإنّ معظم الأنظمة الشمولية قد خَطَت تاريخياً خطوة أبعد وأزالت عن عَمد المعنى والقيمة عن الكائنات البشرية والعالم الذي يعيشون فيه. مع أنّ الأنظمة الفكرية الشمولية تؤدّي وظيفة معينة، إلا أنّها لا تأتي بصورة مجانية، بل هناك ثمن لها. ومع أنّ "موت الله"، وموت الأديان، وموت جميع الأنظمة الفكرية الشمولية يُنظَر إليها كحوادث رَضّية مؤلمة، فإنّها تثير أيضاً إمكانات هائلة لإضفاء الطابع الإنساني على مواجهتك لوجودك. فعندما نزيل نظاماً فكرياً شمولياً، عندئذٍ علينا أن نواجه ذلك الوجود بشكلٍ مباشر ومن دون أي خلفيات إيمانية أو عقائدية، أو نماذج تفسيرية جاهزة ومزيفة. كما أنه علينا أن نواجه وجودنا مباشرةً، بصراحة، ونزاهة، وصدق إنسانيين. بإمكانك مواجهة وجودك بنزاهة وصدق من خلال وجهات نظر مستقاة من العقل والفلسفة والدين والعلم.

[7]: مقياس جميع الأشياء:

هناك مقولة شهير للفيلسوف اليوناني بروتاغوراس تختصر مجمل نواح الفلسفة الوجودية قول فيه «الإنسان هو مقياس جميع الأشياء. هو مقياس وجود ما يوجد،

ومقياس وجود ما لايوجد». لكنّ أفلاطون شنّع عليه لأنّه كان سفسطائياً _كان يعلّم تلاميذه أساليب صياغة وتطوير الخطب المقنعة دون أي اعتبار للمنطق والعقل أو السعي خلف الحقيقة. ملاحظة جانبية (السفسطائيون لم يكونوا وجوديين بالمعنى الصحيح للكلمة، بل كانوا محامين أكفّاء من ناحية، ومستشارين سياسيين خبراء من جانبٍ آخر).

[8] : قتل الإله الذي يسمّونه عقلاً

لطالما كان "العقل" مركز اهتمام الفلسفة الغربية لأكثر من ألفي عام. وقد غدا أفلاطون وفق رأي أغلبية المفكرين على أنه أحد قديسي الفلسفة العقلية. إنّ معالجة أفلاطون للعقل والمشاعر الإنسانية أكثر تعقيداً ودقةً من جميع أولئك الذين جاؤوا بعده. في الحقيقة تعود الوجودية في نواحٍ كثيرة إلى وجهة النظر الأفلاطونية الأكثر توازناً ووسطية للإنسانية، حيث يُنظَرُ إلى العقل على أنّه يعمل جنباً إلى جنب مع بعض المشاعر الإنسانية الصحيحة. في النهاية، إنّ مركز الاهتمام الأساسي للفلسفة الأفلاطونية، التي تمّ تضخيمها وتشويهها والزيادة عليها في التفاسير والتأويلات اللاحقة _من بينها تلك التفاسير والتأويلات المسيحية_ ينصبّ أساساً على قدرتنا على التفكير واستخدام العقل. ومن بين أمور أخرى، أشاد أفلاطون بقدرة العقل على السيطرة على المشاعر الإنسانية والتحكم بها، وبخاصة المشاعر الجسدية، التي كانت تعتبر إلى حدٍ بعيد (ومازالت في كثيرٍ من الأوساط) خطيرة ومدمّرة، لاتساوي شيئاً في سبيل الميزات والصفات المُحَرّرة. أي نسبة دقة في عقلانية أفلاطون قد تبخّرت تماماً في الفترة التي كَتَبَ فيها الوجوديون. فالعقل، بالمعنى الحديث، تشير إلى قدرتك على الحساب _من بين أمور أخرى_ والتفكير بشكل منطقي وتجريدي، وتقييم الدليل، ومعالجة الخبرات وتصنيفها. بهذا المعنى، غالباً مايندمج في تاريخ الفكر الغربي مع

وعيك، وإرادتك، وحتى مع ذاتك. إنّ الفلسفة الغربية هي فلسفة عقلانية إلى حدٍ كبير بمعنى أنها تمجّد قدرتنا على التفكير واستخدام العقل على بقية سماتنا وخصائصنا الأخرى. العقلانية هي أساساً اعتقاد بفعالية تفكيرنا وتركيزه على هويتنا وماهيتنا. فالعقل، من خلال هذه الطريقة في التفكير، لايسمح لنا فقط بالتخطيط وعكس خططنا للحصول على مانرغب فيه، بل أيضاً يمتلك القدرة على تقرير وتحديد مانريد _تحديد أفضل نمط للحياة يناسبنا. العقل هو الأب الروحي والعَراب لجميع الأنظمة الفكرية الشمولية، لأنّ العقل هو الذي يخلق ويصوغ هذه الأنظمة بتفصيلها ومعالجتها وتصنيفها ثم تجريدها عن التجربة. ومن خلال خلقه لهذه الأنظمة _من بينها الأنظمة الدينية والعقائدية_ يقدّم العقل البشري عدّة نماذج مُضفَة للمعنى. إذاً لماذا نتمرّد على العقل؟

يمكننا فهم مشكلة الوجوديين مع العقلانية بشكل أفضل إذا سَرَدنا بعض السمات والخصائص التي يتميّز بها العقل:

_ 1) العقل يكتشف حقائق عامة ومطلقة: (2+2=4). وليس 4 بالنسبة لك و3 بالنسبة لي. فالرياضيات أحكامها ومقدماتها ونتائجها شاملة وكونية ومطلقة. بنفس الشكل، إذا كنتَ على القمر ونحن على المشتري، ستشعر أنت بتأثير قوة الجاذبية بشكل مختلف عنّا نحن حتماً. لقد تمكّن السير إسحاق نيوتن، مستخدماً عقله فقط، من اكتشاف وتطوير قانون الجاذبية العالمي والشامل، الذي يفسّر تأثير الجاذبية على كلا الكوكبين وكل مكان آخر. فالعقل بطبيعته، يسعى لتبرير الفروقات وتفسير كيف يتلائم كل شيء تحت منظومة موحّدة من القوانين. 2) العقل مجرّد: لكي تكون قوانين العقل عامة وشاملة، يجب ألا تعتمد على الجزئيات، أو تكون مقتصرة على

حالة معينة، لافرق إذا أضفت تفاحتين إلى تفاحتين، أو ليمونتين إلى ليمونتين، أو تفاحتين إلى ليمونتين، النتيجة ستكون واحدة: 4. الجزئيات لا تعنينا في شيء. طبعاً، بعض التفاصيل مهمة فعلاً، لكن مجمل العملية الفكرية العقلية تسعى لتجريد نفسها عن الجزئيات قدر الإمكان. على سبيل المثال، الجاذبية تؤثر في الأجسام ذات الكتل الكبيرة بشكل مختلف عن الأجسام ذات الكتل الصغيرة. هذا التفصيل الصغير أو هذه الجزئية الصغيرة مهمّة للعلماء الذين يدرسون الجاذبية. ولكن أهي مهمة سواء إذا كانت الكتلة فيل بالغ أو سيارة تويوتا؟ سواء أكانت زرقاء أم بيضاء؟ سواء أكانت كائن بشري أم حجر؟... إطلاقاً. 3) العقل غير شخصي: ضمن النموذج العلمي التقليدي، يفترض بنا استخدام العقل بعيداً عن المشاعر أو الأحاسيس. هذه الفكرة ـإلى حدٍ ماـ هي النتيجة المنطقية للفكرتين السابقتين: إنّهما تزيلان أي مضمون عاطفي محتمل عن الموضوعات العقلية من خلال تجريدها حتى تتوقف عن كونها موضوعات تتخلّلها أي مشاعر أو مواقف. عندما يتحوّل شخص إلى مجرّد رقم، لم يتبقَّ شيء للتعاطف معه. ولكنّ الافتقار لمضمون عاطفي هو ـمن الناحية المثاليةـ سِمَة من سمات الأداة العقلية التي تقوم بعملية التفكير. فأن نفكّر بطريقة عقلانية مُثلى معناه أن نصبح أكثر شَبَهاً بأجهزة الحواسيب: كلٌ منها يتألف من معالج مُحايد مَحض لحقائق جامدة غير شخصية.

ولكن أين العنصر البشري؟ يرفض الوجوديون فكرة أنّ تجربة العقل يمكن أن تكون التمرين النموذجي لإنسانيتنا، لأنّ الحياة بالنسبة لهم تجربة ذاتية أساساً وثابتة. إنّ إنسانيتنا تتواجد في جميع تلك الأماكن التي نستبعدها عندما نحاول النظر إلى الأمور بطريقة عقلانية. كلما ازدادت الأسس عقلانية، أضحَت أمثر تجريداً وبُعداً. من المحتمل أن تكون لدينا تجارب في التعامل مع الأفراد العقلانيين لدرجة أفقدتنا

عقولنا وجعلتنا نرغب بالصراخ. في بعض الأحيان، حتى عندما يكونون على حق، هم على خطأ. إنهم يفوّتون على أنفسهم أهم نقطة في المسألة _إنهم يفوّتون العنصر البشري/ الإنساني. على سبيل المثال، مرض صديقي أثناء طفولته، وكان مريضاً جداً، فأخذه والداه إلى المستشفى. وحين كانا ينتظران في البهو مَرّ بهما طبيب عابر سبيل، فسألاه عن وضع ابنهما، فقال لهما أنّ ابنهما لن يتمكّن من العيش حتى نهاة الأسبوع ثمّ استدار وتابع طريقة بدون أي مبالاة، بصرف النظر عن هذا الخطأ الواقعي، يمكن اعتبار هذا اللقاء الصغير كناية عن العنصر اللاإنساني ف مختلف الأنظمة العقلانية. مع أنّها تمنحنا نوعاً من الإرشاد والتوجيه، على غرار جميع الأنظمة العقلانية في المجتمع، إلا أنّها تفعل ذلك على مسافة منا، كالطبيب تماماً. نحن جالسون في غرفة الانتظار الكونية آملين سماع كلمة مريحة أو مُعَزّية من أحد الأنظمة الفكرية الشمولية التي تنسينا همومنا وتخفف عنّا وضعنا _يضف على وجودنا معنى_ لكنها لاتفعل ذلك إلا بشروطها المجردة والخاصة وغير الشخصية. العقل ميّت، لكن ذلك ليس لأنّه غير قادرٍ على العثور على إجابات، بل لأنّ الإجابات التي يقدّمها العقل أو أي نظام فكري شامل وحده لايمكنه تلبية الاحتياجات الإنسانية الحقيقية.

[9] : العقل كمصدر للدين:

قد يبدو من قبيل التناقض القول أنّ العقل هو مصدر الدين. الدين برمّته يدور حول الأمور الروحية، والصوفية، والغامضة، صحيح؟ هذا صحيح، ولكن مع أنّ القطع والشذرات المفردة للدين قد تكون سحرية ومبهمة، وعندما يتمّ جمع هذه الشذرات في نظام عقائدي، والتصرفات المتوقعة منها في نظام أخلاقي، سنرى العقل وهو يعمل. العقل يأخذ خليط مجموعة من المعتقدات الصوفية والممارسات والطقوس العرفانية وتصوغها على شكل ديانة. والكنيسة الكاثوليكية أوضح مثال،

لكنها بالكاد تعتبر المثال الوحيد عن مؤسسة تقدم بنية دينية منتظمة بطريقة رتيبة ومصاغة بشكلٍ شامل. لم تكن محاكم التفتيش نتاج تجربة الإله المُحِبّ، لقد كانت تطبيق لمجموعة معينة من التعاليم المرتبة والمنتظمة عقلانياً حول ذلك الإله الذي اعتبرته الكنيسة ضرورياً لكونها مسيحية. وبنفس الشكل اليوم، عندما يصرّح مشايخ ودعاة الإسلام والمسيحية أنّ الكوارث والزلازل والحوادث والحروب والأوبئة ماهي إلا نتيجة حياة آثمة، قد تبدو جنونية حقاً. إنّهم يحاولون نسج الأحداث والمعتقدات ببعضها البعض لتشكيل سرد متماسك وثابت. ويشير العديد من العلماء والملحدين العقلانيين إلى أمثلة كهذه لتوضيح الضرر الذي يسببه الإيمان بالله. إنّ الحقيقة هي تجربة الإيمان _بالنسبة لهم_ تجربة محبّة الله، ومحبّة الجار، نادراً ماتجعل الناس يقعون في المشاكل. فعندما نضع هذه المشاكل جانباً أو نشوّهها عن طريق التفكير الأعوج أو المفرط في إطار نماذج لاإنسانية هنا تبدأ المشكلة. هذه الفكرة هي نقطة الانطلاق التي انطلقت منها الوجودية بشقّها المسيحي، التي تحاول تجريد الدين من بنيته العقلانية والمنتظمة ومن ثمّ العودة إلى التجربة المباشرة للألوهية والإنسانية.

[10] : المُثُل في مكانٍ آخر

«المسيحية ماهي إلا أفلاطونية للجماهير» [ما وراء الخير والشر] لقد قيل أنّ كل ما جاء من فلسفات لاحقة ماهية إلا هوامش وملاحظات على أفلاطون. إذا كان هذا صحيحاً، يمكن القول عن الفلسفة الوجودية إنها حاشية طويلة موسّعة وغاضبة اعتراضاً على إساءة أفلاطون لمعنى الحياة. لكنّ أفلاطون لايهم فقط الفلاسفة الأكاديميين. لقد تمّ أخذ أفكار أفلاطون بجدية بالغة كما أنها شكّلت وصاغت معظم تأويلاتنا ونظرتنا إلى العالم، فضلاً عن كلمات نجّار بوهيمي من بيت لحم أثّر بدوره بعض الشيء على المجتمعات. معظم الانتقادات الموجّهة إلى العقيدة المسيحية (لكن

ليس كلها) يمكن إرجاعها إلى ما قاله البعض _ومن بينهم نيتشه نفسه_ عنها أنها شكل من أشكال الأفلاطونية. لابد من التنويه إلى نقطة هامة بشأن صورة كل من أفلاطون والمسيحية: كلاً من الأفلاطونية والمسيحية هما منظومتان فكريتان بالغتا الاتساع والتعقيد. مع أنّ نيتشه يقدّم نفسه غالباً كمفكّر مناهض للمسيحية والأفلاطونية، إلا أنّ أفكاره ومشاعره حولهما متضاربة أغلب الأحيان. لقد كان في علاقة حُب-كراهية مع كلا المنظومتين. فيما يلي، سنركّز على جانب فكري واحد وتطوّره التي بدأت كنواة لفلسفة أفلاطون ليتحوّل إلى قوّة بالغة التأثير في الفكر المسيحي. ما يعترض عليه نيتشه هو فكرة وجود عالم حقيقي وفعلي، إلى جانب ما تتلقّاه حواسنا كنسخة محرفة ومشوّهة. هذه الفكرة عن العالم الحقيقي قد رُفِضَت لاحقاً من قبل الوجوديين الذين يؤكّدون على ضرورة التركيز على هذا العالم الماثِل أمامنا_العالم البشري.

بحثاً عن المُثُل

نحن لانحاول هنا شرح فلسفة أفلاطون المعقدة كلها، ولكن أكثر ما يهمّنا هنا يمكن تلخيصه باختصار في نظريته عن المُثُل، وهي نظرية يفسّرها نيتشه على أنها تجرّد كل ما هو خير في هذا العالم وتضعه في مكان خارجه ممهّدة الطريق لما يعتقد أنّه أكثر ما يثير اعتراضه في المسيحية. كان الإغريق القدماء مولعون بالعلاقة بين الواحد والكثرة. خُذ مفهوم الرجال على سبيل المثال، هناك رجال طوال القامة، ورجاء قصيرو القامة، رجال سُمَناء، ورجال نُحَناء. رجال شُجان، ورجال جُبَناء. رجال بقدمٍ واحدة، ورجال بعينٍ واحدة، ورجال لايملكون حتى أدنى مقوّمات الرجولة. المخصيون يبقون رجالاً. منذ فترة ليست بالطويلة أذاعت الأخبار عن وجود رجلٍ حامل. لايبدو أنّ هناك تعريف مانع ومحدّد يغطّي جميع الاستثناءات. إذن ما الذي

يجعل هذا رجلاً، وذاك رجلاً أيضاً؟ يمكننا طرح السؤال ذاته حول أمور كالخير والعدالة والشجاعة والحب. معظم حوارات أفلاطون تصف لنا مجادلات قائمة بين أستاذه القديم سقراط وهو يشرح لخصمه ماهية ومعنى هذه الكلمات. المشكلة هنا، كما هو الحال مع مفهوم الرجال، أنك كلّما خَرَجت بتعريف تعتقده مناسباً، يظهر لك مثال أو استثناء ما يقوّض كل ما بنيته من معتقدات. إذن ما هو جواب أفلاطون على هذه المسألة؟... يقول أفلاطون: إنها "المُثُل". خُذ المِثال على أنه قالب، نموذج أولّي. لكل شيء، ولكل مفهوم أو فكرة، هناك مثال كامل لذلك الشيء أو لتلك الفكرة. عندما تقول كلمة على غرار "خَير" مثلاً، أو "رجل" أو "عدالة" أو "شجرة"، فأنت تشير عملياً إلى هذا المثال الأكمل، هذه النسخة المثالية والكاملة للشيء أو الفكرة. أمّا جميع الأمثلة الأخرى لهذه الأشياء، كهذه "الشجرة" أو تلك "الشجرة"، ماهي إلا نسخ معيوبة وناقصة. والآن أين هي جميع هذه المُثُل؟ أين تكمُن؟ وكيف نتعرّف وجودها؟... بالنسبة للشق الأخير من السؤال، يمكننا التأكيد من وجودها لكن ليس عن طرق رؤيتها ومعاينتها، بل من خلال إعمال عقلنا، وهو وحده القادر على إدراك المجرّدات والكلّيات. حواسنا لا تستطيع إدراك إلا كل ما هو محدود ومادي. لكنّ عقلنا يستوعب الكامل والمِثالي، كما أنّه يدرك الحقائق الكلية المجرّدة كتلك المفاهيم الرياضية كالأعداد والأشكال الهندسية كالمثلث والدائرة. لا يمكننا رؤية دائرة كاملة أو مثالية، فجميعها تتخلّلها عيوب ونواقص. لكنّ عقلنا يمكنه تحديد كيف يمكن لنصف قطر دائرة كاملة أن يتناسب مع قطرها.

عالم المُثُل هو عالم الخير المُطلق، وعالم المادة والمحسوسات هو عالم الشر والنقصان

إذن أين هي تلك الدائرة الكاملة وأين توجد باقي المُثُل الأخرى؟ هل هي موجودة في بيت أفلاطون؟ أو في المتاحف؟... كلا، المُثُل غير موجودة في العالم

المادي. يرى أفلاطون في فلسفته أنها موجودة في عالم خاص بها وحدها، عالم الحقائق المطلقة والمجرّدة والكلية. إنّه مكان الكمال المطلق، مكان مجرّد غير مادي وغير محسوس... مكان سماوي. وكافة المُثُل تدور حول المثال الأقصى والأكمل، مثال الاتحاد المطلق والكمال الكلي: مثال الخير. تأتي الأرواح من هذا المكان، ثمّ تتوق للعودة إليه. وإذا كنتَ إنساناً خيّراً وصالحاً، وقضيت وقتك في إعمال عقلك وتجاهل ملذّاتك ورغباتك الجسدية، ستعود في النهاية إلى عالم المثل. وحتى ذلك الوقت، ستبقى هنا على هذه الأرض، معنا كلنا نحنا الذين نعاني من العيوب والنواقص، في أجساد معيوبة وأبدان مادية ثقيلة، في عالم ناقص، عالم الظلال وانعكاسات العالم الحقيقي. ما تمثّله الأفلاطونية هنا هو مبدأ "الثنوية الكونية"، انفصال تام بين العالم الروحاني والعالم المادي، بين الأرواح العاقلة والأجساد غير العاقلة المليئة بالشهوات والرغبات، والأهم من ذلك بين العالم الحقيقي وعالم الظواهر الظلّية. الأولى حقيقية وخيّرة، والأخيرة ناقصة وشريرة، أو على الأقل تفتقر إلى الكمال الكامن في مكان آخر مفارق. حتى أفلاطون نفسه يدرك هذه الإشكالية ويحاول معالجتها وتصحيحها من خلال القول أنّ الأشياء المادية المحسوسة تتشارك خصائصها في المُثُل. بهذا الشكل أو بآخر، إنّه يحاول توحيد العالمين، أو الوصل بينهما. لكنّ مفاهيم كالمشاركة لم يفسّرها أفلاطون لنا. لذا مايبدو كصدع في فلسفة أفلاطون قد تطوّر ليصبح شق كامل وفاصل نسبه نيتشه وغيره إلى أفلاطون نفسه.

[11] : الاعتراض الوجودي

لحظة! لقد بدأنا بحثنا في الوجودية حول سؤال عن معنى الحياة والوجود، والآن، فجأةً، نرى أنّ كل معنى، وكل قيمة قد انتزعت منّا ووُضِعَت في مكان آخر مفارِق بعيد عن متناولنا. إنّ أفلاطون يصوغ منظومة فكرية كاملة متكاملة يتحوّل

فيها العالم إلى مكان بائِس وتعيس، نسخة معيوبة وناقصة عن شيء آخر، شيء لا يمكننا رؤيته أو معاينته. إنّه يقول أنّ معظم مشاعرنا وأحاسيسنا مضلّلة. «هذا ضلال! خطأ» ينادي الوجودي «أنا أريد معنى لحياتي، أنا أريد قيمة لوجودي هنا في هذا العالم! كيف تجرؤ على أخذ كل هذا مني يا أفلاطون؟... أريد إنسانية نزيهةً! كيف تهينني!» لكن طبعاً أفلاطون لم يكن لوحده. إذ يرى نيتشه أنّ قصة أفلاطون عن العالم الحقيقي تكرّر نفسها مرّةً بعد أخرى عبر التاريخ ضمن كل من الدين والفلسفة. فمعظم العقيدة المسيحية على سبيل المثال تتبنّى النظرة الثنوية للفلسفة الأفلاطونية. فالله والجنة والملائكة والأرواح الخالدة جميعها أشياء ومفاهيم حقيقية، كما أنّ الخير والعدالة والصواب جميعها قيم حقيقية خيّرة بالمطلق. أمّا العالم المادي، من جهةٍ أخرى، فهو ملعب الشيطان، ومسرح العيوب والنواقص والشرور. إنه عالم الألم والمعاناة والبؤس والحيرة واليأس، ولا وجود للأمل فيه إلا من خلال الإيمان أنّ روحنا مرتبطة بشيء أكمل وأعظم من هذا العالم، وأنّ هذه الروح في يوم من الأيام ستغادر هذا السجن المادي وتلتحق بذلك العالم الحقيقي. يرى أفلاطون أنّ العالم الحقيقي والكامل يمكننا لمحه والإحساس به هنا والآن من خلال العقل وحده. فبالنسبة للمؤمنين المسيحيين التقاة، وخصوصاً في الوقت الذي كان فيه الدين في أوجِهِ، فالعالم الحقيقي ليس ذلك الشيء الذي مكننا رؤيته في هذا العالم/ لكنّ لوعد به حقيقي ومؤكّد لدرجة أنه قابل للتحقق. ومع تقدّم العلوم، تمّ دفع العالم الحقيقي من السماء والواقع الأقصى إلى أبعد مسافة ممكنة. وأصبح هذا العالم هو العالم الواقع وموقع التركيز. لكننا نلاحظ أنّ هذا التركيز على العالم الحقيقي لم يناقض ما قام به أفلاطون، بل إنّ الانقسام بين عالم القيمة وبين هذا العالم الذي نعيش فيه ظل قائماً، حتى جاء الوجوديون ورفضوا رفضاً قاطعاً وعارضوه.

[12]: السعادة مقابل المعنى

يرى نيتشه من مسألة موت الله عن أنها المشكلة الحقيقية. إنها مشكلة حاول العديد من معاصريه معالجتها والتصارع معها في مجتمع العَلماني بشكل مُطرد. فقد طوّر الإنكليز في القرن الثامن عشر منظومة أخلاقية عقلانية-عَلمانية مازالت تأثيراتها موجودة حتى يومنا هذا. ويدعى بمذهب "النفعية" الذي يسعى لتفسير كيف يمكن للبشر السلوك والتصرف في عالم عصري وعلمي خالٍ من الخرافات. لقد انطلقوا من مقدمة بسيطة جداً: جلّ ما يسعى إليه معظم الناس هو السعادة. ومن هنا تابعوا في تأكيدهم بطريقة منطقية ومنهجية وعلمية أنّ كل الأفعال والتصرفات الصائبة تهدف إلى زيادة السعادة وأنّ أفضل ما يمكن فعله في أي وضع هو حصيلة حساب يزن عواقب أي عمل ووقعه على سعادة الإنسان والآخرين. إحدى الطرق لفهم الوجوديين واستيعاب أفكارهم هو من خلال النظر إلى هؤلاء الفلاسفة الإنكليز وإدراك أنّ يفعله هؤلاء الوجوديون هو عكس ذلك. كما يقول نيتشه في رده على هؤلاء الفلاسفة «الإنسان لايرغب في السعادة. الإنكليز فقط من يرغبون فيها». وحسب نيتشه، إنّ مانريده حقاً، ما نحتاجه ونرغب به، هو المعنى. نحن نحتاج أن يكون لحياتنا معنى وقيمة، وأن يكون لها إطار معيّن. ويبيّن لنا التاريخ مراراً وتكراراً أنّ البشر يمكن أن يعانوا بصورة شنيعة إذا آمنوا أنّ المعاناة تعني شيئاً، إذا ضحّوا من أجل شيء يؤمنون به.

[13]: مع أنّ موت الله حدثٌ لم يكن يتعلّق بالله وحده، إلا أنّه يتمحور حول مفهوم الله. بالأصح ربما كان يتمحور حول الدين والله. فالدين بطبيعة الحال يقدّم الجواب ويمنح الله مكانته ومعناه. فكّر بالفروقات بين الديانة اليهودية وكتابها المقدس، حيث أنّ إرادة الله مُعَبَّرٌ عنها من خلال كثرة القواعد والقوانين وتنوّعها،

والديانة المسيحية حيث يصهر المسيح جميع هذه القواعد والقوانين في قاعدة واحدة تتمثّل في محبّة الله ومحبّة الجار. هنا، لدينا تصوّران مختلفان عن نفس الإله، بل وحتى عن نفس القوانين والقواعد، ضكن تقليد واسع وشامل. ثمّ لدينا فرق كبير وواسع بين التصوّر/ التصورات اليهودية-المسيحية للإله، ومفهوم الألوهية في الديانات الوثنية والشرقية. الدين يضع كل شيء في مكانه، حتى الله نفسه. إنّه يحكم الكون ويساعدنا على فهمه، ويمنحه المعنى والغاية. وهو يفعل ذلك من خلال خلق أو تصوّر قصّة عن الله، عن ماهيته وهويته، وعن مشيئته، وعن علاقتك به. إنّ معناك/ غايتك/ هدفك/ مقصدك، فهمك لمكانك في الكون، بل حتى فهمك لعلاقتك بالناس الآخرين محدّدة ضمن إطار علاقتك بالله. إنّ موت الإله، فيما يتعلّق بالدين، يعني القول أنّ الرواية التقليدية حول هذه العلاقة قد انهارت. لم تعد تمتلك المقوّمات التي تساعدك على صاغة فهمك للعالم من حولك ولمكانك فيه. كيف ماتت المسيحية على سبيل المثال؟

مرّت الديانة المسيحية عبر مرحلتين خبرت فيهما نجاحاً باهراً، إذ مهما كان النقد الذي قد توجّهه إليها أو ضدّها، سيتوجّب عليك الاعتراف بأنّ الله كان حياً وعلى أحسن مايرام. هنا نتحدث قليلاً على كل مرحلة من المرحلتين: الأولى: / المسيحية المبكّرة/ كان المسيحيون الأوائل يميلون إلى التكتّم والانعزال، لقد عاشوا ضمن جماعات صغيرة وقروية عادةً. في ذلك الوقت، لم تكن المسيحية عقيدة أو منظومة عقائدية، بل طريقة في الحياة. حتى الطغاة من الرومان الذين اضطهدوا المسيحيين كانوا يشهدون بنزاهتهم وبساطتهم وصدقهم وإخلاصهم لمعتقداتهم. قال نيتشه أنّ الناس يجب أن يعيشوا في خطر، والمسيحيون الأوائل كانوا يعيشون وفقاً لهذه المقولة. فمجرد قولك أنّك تحبّ يسوع المسيح كان كافياً لأن يجعل منك إنساناً ممقوتاً، بل

حتى طعاماً لذيذاً للأسود. وقد تتعرّض في أحسن الأحوال للنبذ. لم تكن العقيدة المسيحية مجرّد شيء ورثته عن الناس أو عرفاً من الأعراف أو التقاليد الت يمارسونها. بل كانت نتاج خيار متورّط أو متحمّس. كانت المجتمعات المسيحية الأولى تتشارك هذا المعتقد من خلال الشغف المتبادل والمشترك بينهم والنمط المشترك للحياة فيها بينهم وليس عن طريق التبشير أو الفرض على الآخرين. فلو نظرت إلى اليهود الحسيديين اليوم أو شعب الأميش في ولاية بنسلفانيا اليوم، لتعجّبتَ حقاً وتساءَلت ما إذا كان الله ميتاً بالنسبة لهؤلاء القوم. وعلى غرار المسيحيين الأوائل، فقد نظّموا كامل حياتهم وفقاً لرؤية دينهم الجديد. الثانية: / المسيحية الوسيطة/ المجتمعات الصغيرة يمكن ترتيبها وتنظيمها حسب طريقة المسيحيين الأوائل، ولكن مع تزايد أعداد الناس في المجموعة، وازدياد عدد أفرادها وتابعيها، تتغيّر طبيعة المعتقد نفسه. يبدو أن البشر يميلون بشكل طبيعي نحو البنى التراتبية ويقبلون بها. ومع تطوّر العقيدة المسيحية إلى ديانة، فقد انتقلت من مرحلة الخبرة والتجربة إلى مرحلة المنظومة العقائدية _نظام لاهوتي قائم ببنية عقائدية منظّمة ومعقّدة جداً إضافةً إلى نظام سياسي أدخل المعرفة والسلطة في صميم البنية التراتبية/ الهيراركية. مع أنّ معظم الناس اعتبروا ذلك نهاية الدين المسيحي الحقيقي، إلا أنّ الكنيسة قد ازدهرت وانتعشت كنظام تراتبي مطلق واضعةً كل شيء _من الله نفسه، إلى الوجود والكون، والملوك وحتى الفلاحين وباقي المخلوقات_ في مكانه بالضبط. وخلال ظهور هذا النظام، عرف كلّ مكانه الذي رُسِمَ له، وعرف كلّ ما معنى أن يكون حياً. كان رواية الكنيسة (أساساً) مقبولة عالمياً وقدّمت الأرضية المناسبة التي يقوم عليها المجتمع وكل شيء آخر. وبعد أن أصبحت الكنيسة نظاماً عقائدياً مطلقاً، أصبحت كياناً منيعاً. والمشكلة مع الأنظمة المنيعة المطلقة هي أنّها مطلقة. أحد الأسباب في أنّ

المؤسسات العقائدية كالكنيسة مثلاً محافظة جداً وعدائية بصورة عنيفة تجاه أي معتقدات أو أفكار أخرى لا تتوافق أو تتناسب معها هو أنّ أساس النظام المطلق يتمثّل في أنّ كل شيء يتناسب معه. فبعد أن تبدأ بالتلاعب بافتراضاتها الأساسية، ستغدو قادراً على إعادة صياغة الأمور فكرياً وتنظيمها حتى تتناسب مع الأفكار الجديدة. لكنك قد ناقضت مسبقاً وعلى نحو صعب التغيير أكثر الافتراضات الأساسية لدى النظام: أنّ الكون مكان منظّم وأنّ هذا النظام يكشف ذلك التنظيم، ويفهم مكان كل شيء، ويمكن أن يكون دليلاً لفهم مكانك في الكون. لذا عندما يدّعي مثيرو المشاكل أمثال كوبرنيكوس أنّ، من الناحية العلمية، القول بأنّ الأرض تدور حول الشمس يبدو أكثر منطقية وعقلانية، فإنّ هذا كافٍ بالنسبة للكنيسة القول أنّ هذا الزعم هرطقة وأنّه من شأنه أن يقوّض اسس الإيمان القويم. وسيحدث ذلك فعلاً على المدى البعيد. إنّ التقدّم البطيء للعلم قد قوّض النظرة المثالية والحصرية التي صاغتها الكنيسة إلى جانب دور الكنيسة كَحَكَم نهائي للحقيقة وكصائغ لتلك النظرة. ومع تزايد السلطة السياسية للكنيسة، أصبحت واحدة من القوى المتنافسة ذات التأثير على المجتمع. لكنّ الأنظمة الشمولية المطلقة تنتعش وتزدهر على فردانيتها وواحديتها وإقصائها لمختلف النظم الأخرى. لم تكن سلطة الكنيسة وتأثيرها هما الأمران الوحيدات اللذان تعاظما، بل أيضاً قدرتها على إضفاء المعنى والقيمة على عناصرها. وبعد أن أصبحت الكنيسة قوّة بين عدّة قوى متنافسة، أصبحت خياراً متاحاً بين عدّة خيارات متاحة بدرجة أو بأخرى. لكن ذلك يتضمن سؤالاً مفتوحاً. وبعد أن يحدث ذلك، فإنّ بريق وأمان اليقين المطلق يُفقَد، وتنكسر القبضة التي كانت الكنيسة تُحكِمها على المجتمع. وبدون القوّة الثقالية لهذا اليقين المطلق وحالة

الاطمئنان والاستقرار التي يقدّمها، يميل الناس للابتعاد ليس فقط عن عضويتهم في الكنيسة، بل أيضاً عن التقبّل الكامل للنظرة الكنسية.

مع حلول القرن التاسع عشر، عندما كان الوجوديون الأوائل يكتبون نصوصهم، كان نظرة الكنيسة إلى الوجود والعالم قد قوّضت وتفكّكت مسبقاً. إذ أنّ معظم أوجه التقوى والاستقامة في ذلك العصر كانت مجرّد مظاهر شكلية وسطحية مفروضة من خلال العُرف الاجتماعي. حتى أنّ مرتادو الكنائس كانوا عالقين في نفس المأزق وشاعرين بالاغتراب بنفس درجة هؤلاء الذين كانوا قد ابتعدوا عن الكنيسة. لماذا؟ لأنّ المسيحيون يشبهون في تنظيمهم تنظيم الساموراي. من المتعارف عليه في اليابان أنّك لا تستطيع أن تصبح ساموراي. قد يكون بإمكان حمل سيف، أو أن تضع نفسك تحت تصرّف أحدٍ ما، أو أن تتبع قاعدة شرف خاصة بك، لكنك لن تصبح ساموراي أبداً. لأنّ كون الشخص من الساموراي معناه أنّه شيء أكبر من ذلك بكثير. فأن تكون ساموراي معناه أن تكون جزءاً من شيء أكبر منك بكثير، يعني أن تكون ضمن إطار شيء يحمل أهمية ثقافية وحضارية معيّنة. أن تكون ساموراي معناه أن تكون جزءاً من تقليد ذو معنى يشمل المجتمع بكامله. هل يمكن للناس أن يكونوا مسيحيين اليوم؟ بالتأكيد، لكنهم لن يكونوا مسيحيين بالمعنى الذي كان فيه المسيحيون خلال المئة عام التي سيطرت فيها الكنيسة على مختلف المؤسسات السياسية والفكرية والثقافية والحضارية في أوروبا. فالمسيحية كنظام شمولي مطلق يقدم نظرة ذات معنى متجانسة لمجتمع بكامله، قد ماتت الآن. والعالم الذي كانت فيه تعاليم الكنيسة تنعكس في جميع حقائق العالم المادي لم يعد موجوداً. حتى إذا كنت تؤمن بالله، وتؤمن بألوهية يسوع المسيح، فإنّ ذلك النمط من المسيحية قد مات واندثر كما اندثر نظام الساموراي. بالنسبة للوجوديين المسيحيين، كان هذا الأمر جيداً إلى حدٍ

ما. فقد كان ثمن الاطمئنان المطلق الذي منحته الكنيسة التنازل عن مسؤوليتك الفردية والشخصية تجاه إيمانك وانخراطك الشغوف فيه. وهذا _بالنسبة للوجودي_ مكافئ للتنازل عن إنسانيتك (ويمكن القول عن روحك وبيعها للشيطان). وبعد أن تفقد الكنيسة هذه المكانة الميزة والمطلقة، يصبح لزاماً على الفرد أن يعيد تعريف نفسه. فالمسيحية _المسيحية الحقيقية، الشخصية، الشغوفة_ تصبح مرةً أخرى خطيرة وتصبح مرةً أخرى ممكنة. لكنّها ليست شيئاً يمكننا أن نستهين به. إنه أمر صعب. لأنّ المسيحية قد خسرت مكانتها كنظام سائد، فقدت بريقها، فالإله ميّت بالنسبة للمسيحي كما هو بالنسبة للملحد.

سيمون كريتشلي

[1]: لماذا هيدغر يهمّنا؟

أهم الفلاسفة القاريين وأكثرهم تأثيراً خلال القرن الماضي كان نازياً. كيف حدث ذلك؟ وماذا يمكننا أن نتعلّم منه؟

كان مارتن هيدغر (1889-1976) أهم الفلاسفة القاريين وأكثرهم تأثيراً خلال القرن العشرين. ويعتبر كتابه الطليعي «الكينونة والزمان»، الذي نشر لأول مرة عام 1927، تحفته الفلسفية العظيمة. وليس بوسع أحدٌ فهم ما حدث في عالم الفلسفة القارية بعد هيدغر بدون الرجوع إلى كتابه "الكينونة والزمان". علاوةً على ذلك، وبخلاف معظم الفلاسفة الأنغلو-أمريكيين، مارس هيدغر تأثيراً كبيراً خارج مجال الفلسفة، وضمن مجالات متنوعة كفنّ العمارة، والفن المعاصر، والنظرية السياسية والاجتماعية، التحليل النفسي، والعلاج النفسي، واللاهوت.

بأية حال، وبسبب انتمائه السياسي للحزب القومي الاشتراكي عام 1933، حيث شغل منصب رئيس جامعة فرايبورغ جنوب غرب ألمانيا، مازال هيدغر فيلسوفاً مثيراً للجدل حتى الآن، كما أنه يعتبر مكروهاً في بعض الأوساط والدوائر وعرضةً لسوء الفهم.

إنّ العلاقة بالغة الأهمية التي تربط بين هيدغر والفكر السياسي هو موضوع آخر يمكن مناقشته في مقالة أخرى. طبعاً، وبرأيي الشخصي، إنّ طبيعة ومدى انخراط هيدغر في الحزب القومي الاشتراكي لا يصبح مفهوماً من الناحية الفلسفية إلا إذا

بدأنا نفهم ونستشعر القوة المقنعة التي تكمن في أعماله المكتوبة، وبشكل خاص "الكينونة والزمان".

المهمة التي ألقيتها على عاتقي في هذه المقالات تختصر في تذوّق ذلك الكتاب، على أمل أن نتعمّق في قراءته ودراسته أكثر. لكن ما أن تنتهي من قراءة كتاب "الكينونة والزمان" وتصبح خاضعاً لتأثيره، عندها ستلمح السؤال المعلّق فوق النص، كسيف داموقليس، على النحو التالي: كيف يمكن لأعظم فيلسوف على سبيل الاتفاق في القرن العشرين أن يكون نازياً؟ ما الذي يخبرنا به هذا الانتماء السياسي مهما طال أمده أو قصر بخصوص طبيعة الفلسفة والمخاطر والعواقب المترتبّة عنها عندما تدخل إلى عالم السياسة؟

الكينونة والزمان

"الكينونة والزمان" عمل طويل وصعب للغاية (437 صفحات في لغته الأصلية التي كتب بها: الألمانية). أمّا صعوبته البالغة فمردّها إلى أنّ هيدغر وضع على عاتقه مهمّة "هدم" حسب تعبيره التراث الفلسفي. وسنرى نتائج هذه العملية لاحقاً، لكنّ النتيجة الرئيسية تتمثّل في أنّ هيدغر يرفض الاعتماد على المصطلحات والمفاهيم الفلسفية المعاصرة والنمطية، وحديثها عن الأبستمولوجيا (نظرية المعرفة)، الذاتية، التقديم، المعرفة الموضوعية، وما إلى هنالك من مفاهيم.

هيدغر يمتلك الجرأة للعودة إلى لوح الكتابة من جديد وابتكار مفردات فلسفية جديدة. على سبيل المثال، هو يعتقد أنّ جميع مدركات الكائن البشري كالذات والأنا والشخص والوعي، أو طبعاً وحدة "عقل ـ دماغ"، جميعها رهينة تراث متأصّل من الفكر، لم يتمّ تمحيص افتراضاته وبديهياته بصورة راديكالية كافية. وهيدغر ما هو إلا

مفكّر راديكالي يمضي لأبعد حدٍ ممكن: إنّه مفكّر يحاول الحفر عميقاً للوصول إلى جذور تجربتنا الحياتية للعالم بدلاً من قبول مرجعية التراث والتسليم بها والخضوع لها.

يطلق هيدغر على الكائن البشري اسم "الدازاينDasein "، وهي كلمة يمكن ترجمتها بعدّة أشكال: "الوجود-هناك"، "الكينونة-هناك"، أو "الكائن-هناك"[1]. والفكرة الأساسية هنا هي أنّ وجود الكائن الإنساني يسبق ماهيته. فهي تعني الوجود الإنساني بوصفه وجوداً في العالم منذ البداية. وبذلك فالكائن الإنساني أولاً وقبل أي شيء ليس ذاتاً منعزلة، مفصولة عن عالم الأشياء والموجودات التي تحيط بها، وتتوق هي لمعرفتها. إنّما نحن كائنات موجودون مسبقاً في هذا العالم، ومنذ البداية كما قلنا، موجودون خارج وبجانب عالم لا نستطيع الانفصال عنه وتمييز أنفسنا منه.

ما ينطبق على "الدازاين" ينطبق أيضاً على أغلب مفاهيم هيدغر الأخرى. وهذا ما يجعل من قراءة كتاب "الكينونة والزمان" أمراً صعباً بعض الأحيان، وذلك أنّ هيدغر يوظّف أكثر من أيّ فيلسوف ألماني أو غربي آخر كافّة الإمكانيات اللغوية للغته الأصلية التي ألّف بها الكتاب، وهي الألمانية. ومع أنّ كلاً من ماكغواري وروبنسون قدّما في ترجمتها الإنكليزية للكتاب (نسخة بلاكويل 1962) واحدة من أفضل الترجمات الفلسفية الكلاسيكية، إلا أنّ قراءة الكتاب تجعل المرء يشعر وكأنّه يخوض عبر بركة أوحال مفاهيمية من المفاهيم والأفكار الغريبة وغير المألوفة.

الفكرة الأساسية في الكتاب

الفكرة الأساسية المطروحة في كتاب "الكينونة والزمان" بسيطة للغاية: "الكينونة" أو "الوجود" هو "الزمان". أي لكي كون الإنسان موجوداً، كائناً، فعليه أن يتواجد ضمن خط زمني يمتدّ بين الولادة والموت. الوجود هو الزمان، والزمان

محدود ومتناهٍ، حيث يبلغ الزمان نهايته بموتنا. لذلك، إذا أردنا أن نفهم معنى أن يكون الإنسان كائناً أصيلاً، من المهم أن نسلّط حياتنا باستمرار على أفق فنائنا، وهذا ما يسمّيه هيدغر "الوجود نحو الفناء".

من الناحية المبدئية، يرى العديد من الفلاسفة أمثال القديس بولس، والقديس أوغسطين، ولوثر، وكيركغارد، أنّ الذات تحقّق ذاتها عن طريق علاقتها مع الله. أمّا بالنسبة لهيدغر، إنّ مسألة وجود الله أو عدم وجوده ليست ذات قيمة فلسفية. ويمكن للذات أن تحقق ذاتها من خلال مواجهتها مع الموت. أي عن طريق خلق معنى من تناهي وجودنا ومحدوديته. فإذا كان وجودنا محدوداً، فإنّ إنسانيتنا تتضمّن فهم وإدراك هذه المحدودية، أي عن طريق "تحقيق المرء لوجوده" حسب تعبير نيتشه. وسنبيّن لاحقاً مدى وكيفية تعمّق هذه النظرة إلى محدودية الوجود وتناهيه عندما نتناول مفهوم الوعي عند هيدغر وما يطلق عليه "النشوة المؤقّتة".

يبدأ كتاب "الكينونة والزمان" بمقدمة طويلة ومنتظمة، يتبعها قسمان، كل واحدٍ منهما يتألّف من ستّة فصول. لقد انتهيت لتوّي من تدريس الكتاب بكامله في الكلية الجديدة للأبحاث الاجتماعية بنيويورك. وسأحاول خلال الأجزاء التالية من هذه الدراسة أن أجعل القارئ يتذوّق طعم الكتاب، وأقدّم له بعض النقاط الأساسية حتى يسعه التعمّق فيها أكثر عند مطالعته للكتاب.

[1] الدازاين :**Dasein** كلمة ألمانية تعني الوجود الحاضر، أو الوجود المقابل للاوجود. ويستخدمها هيدغر للدلالة على كينونة الموجود الإنساني أو كيفية وجوده، أي الإنسان من حيث هوالكائن المنفتح على الكون في تغيّره وعدم استقراره، وهذا يعني أنّ الدازاين يختلف عن كل الكائنات الأخرى من حيث أنه ينجز كونه، على حدّ تعبير هيدغر.

وصف الكتاب

ظهر كتاب الكينونة والزمان لأوّل مرّة في مطلع عام 1927 ضمن المجلّد الثامن من حوليات الفلسفة والبحث الفينومينولوجي، والتي كانت تُنشر تحت إشراف هُوسِرل، وفي نفس الوقت ضمن سحب خاص. ولأنّه أحد أشدّ الكتب الفلسفية للقرن العشرين ابتكاراً وخطورة، فهو ما فتئ يتحوّل إلى مصدر إلهام أو إلى خصم أساسيّ لأجيال من الفلاسفة والمفكّرين، من سارتر إلى درّيدا، ومن أدورنو إلى هابرماس. وليس من قبيل الصدفة أنّه قد تُرجم إلى أكثر من عشرين لغة في العالم. ورغم مرور ما يزيد على ثلاثين عاماً على موت هيدغر (1889–1976)، فإنّ سؤاله عن معنى الكينونة لا زال يُطرح في نضارته الأولى وبحماسة مثيرة. إنّ تساؤلات هيدغر وبحوثه عن زمانية الكائن في العالم بعامة وماهية العقل الإنساني وتاريخ الحقيقة الذي يستند إليه، وهشاشة تصوّراتنا عن الإنسانية، وأزمة حداثة التنوير، والتباس جوهر التقنية النابع من تصوّر خطير وغامض للعلاقة بالكائن، وانسحاب آداب التألّه من أفق الإنسانية الحالية، والخطر المحدق ببيئة العالم...، هي اليوم أطرف وأقوى ما تمتلكه الفلسفة المعاصرة من أدوات تفكير في مشاكلها وفي مستقبلها.

[2] الأنا:

كما يوضّح هيدغر خلال الصفحة الافتتاحية غير المُعَنوَنَة التي يستهلّ بها كتابه "الكينونة والزمان"، أهمّ مسألة جوهرية في هذا الكتاب هي مسألة "الكينونة". إنّه السؤال الذي أثاره أرسطو ضمن مخطوطة غير مُعَنوَنَة أصلاً يعود تاريخها إلى ما قبل 2500 عام، لكنّها أصبحت تعرف لاحقاً بكتاب ماوراء الطبيعة أو "الميتافيزيقا".

بالنسبة لأرسطو، هناك علم يُعنى بدراسة مايطلق عليه تسمية "الوجود بذاته"، بدون أي اعتبار لأي عوالم معيّنة للوجود، كوجود الأشياء الحية (علم الأحياء/ البيولوجيا)، أو وجود العالم الطبيعي (المادي/ الفيزيائي.(

الميتافيزيقا هو مجال البحث الذي يطلق عليه أرسطو نفسه اسم "الفلسفة الأولى" ويحتلّ مرتبة الصدارة من ناحية الأولوية قبل أي شيء آخر. إنّه المجال الفلسفي الأكثر تجريداً وعموميةً، كما يتعذّر تحديده أو تعريف ماهيته. لكنّه أيضاً المجال الأهم والأكثر حيويةً.

بكثير من الكبرياء الذي يُشكَر عليه، يشرع هيدغر في البحث حول هذه المسألة وإيجاد الأجوبة عليها في كتابه "الكينونة والزمان". فهو يبدأ من سلسلة من التساؤلات العشوائية والاعتباطية على غرار: هل نمتلك جواباً على السؤال عن مهنى الوجود؟ فيجيب: على الإطلاق. وهل نشعر بالحيرة والقلق بشأن هذا السؤال؟ يعيد هيدغر مكرّراً جوابه: أبداً. لذا فإنّ أوّل وأهم تحدٍ أمام كتاب هيدغر هو لكشف عن حيرتنا وقلقنا تجاه هذا السؤال مصدر جميع الأسئلة، سؤال هاملِت لنفسه: "أكون أو لا أكون؟".

بالنسبة لهيدغر، ما يميّز الكائن البشري أو الإنسان، هو هذه القدرة على التحيّر والقلق والتساؤل حيال أعمق الأسئلة وأكثرها غموضاً: لماذا هناك شيء بدلاً من لاشيء؟. لذلك، نجد أنّ وظيفة كتاب "الكينونة والزمان" هي إيقاظ حسّ الحيرة والقلق والتساؤل فينا. فالتساؤل كما سيعبّر هيدغر لاحقاً خلال مسيرته الفلسفية هو "تقوى الفكر".

أوّل عبارة عظيمة يفتتح بها هيدغر كتابه هي: «نحن أنفسنا الكيانات التي ينبغي تحليلها»، هذه العبارة هي مفتاح المفهوم الحيوي والأساسي "للأنا"

Jemeinigkeit، الذي يبدأ به الكتاب: إذا كنتُ أنا هو الكائن الذي يُوَجّه إليه السؤال أكون أو لا أكون عندئذٍ ستكون مسألة الوجود أو الكينونة عائدةً إليّ "أنا" لأكون، بطريقة أو بأخرى.

فيمَ، إذن، تكمن كينونة الإنسان؟ يجيب هيدغر: في الوجود .Existenz لذلك، يجب مقاربة مسألة الكينونة عن طريق مايسمّيه هيدغر "بالتحليل الوجودي". لكن ما نوع هذا الوجود الإنساني، وما هو شكله؟... من الواضح أنّه محدود بالزمن: فنحن كائنات لنا ماضٍ، ونسير عبر الحاضر، وأمامنا سلسلة من الإمكانيات والاحتمالات المستقبلية، وهذا ما يطلق عليه هيدغر "أشكال الوجود" أو "أنماط الوجود". والنقطة التي يثيرها هيدجر هنا في منتهى الأناقة والبساطة: الكائن البشري/ الإنسان لا يمكن تعريفه بالسؤال "ماذا/ ما" فهو ليس مجرّد كرسي أو طاولة، بل بالسؤال "مَنْ"، لأنّه الكائن الذي تشكّل من خلال وجوده عبر الزمان. فأن تكون إنساناً معناه أن تكون موجوداً في ماضٍ ما، ضمن سياق تاريخ شخصي أو ثقافي، وعبر سلسلة مفتوحة من الاحتمالات والإمكانيات يمكنك بلوغها وتحقيقها أم لا.

هذا الكلام يصل بنا إلى نقطة في غاية الأهمية: إذا كانت كينونة الإنسان محدّدة بالأنا، فإنّ كينونتي ليست مسألة لامبالاة أو عدم اكتراث بالنسبة إليّ. فالطاولة أو الكرسي لا تستطيع مناجاة نفسها كما فعل هاملِت، أو المرور بتجربة مُساءَلَة الذات والشك الذاتي التي عبّر عنها هاملت بمناجاته. لكنّنا نستطيع.

ذلك هو أساس فكرة هيدغر عن "الأصالة"Eigentlichkeit ، والتي تعبّر بدقّة أكبر عمّا هو الأنسب بالنسبة للإنسان، حقيقته، ذاته الحقيقية الأصلية. بالنسبة لهيدغر، هناك حالتين أساسيتين للوجود الإنساني: حالة الوجود الأصيل، وحالة

الوجود الزائف. علاوةً على ذلك، نحن نملك الخيار لاختيار مابين هاتين الحالتين: أن نكون أنفسنا، أو ألا نكون، أن نكون أصحاب ذواتنا وصُنّاعها، نصنعها ونصيغها كما نريد ووفقاً لحقيقتنا أو لا. يؤكّد هيدغر بأصرار، كما سيفعل عبر صفحات كتابه "الكينونة والزمان"، أنّ الوجود الزائف لايعني بالضرورة وجود أقل أو كينونة أدنى، لكنّ معظم القرّاء لديهم سبب للشك في هذه الضمانات. يتسائل تيودور أدورنو، الناقد الشهير لهيدغر: أليست الأصالة أو الوجود الأصيل في نهاية المطاف من الكلمات الاصطلاحية التي سنكون أفضل حالاً من دونها؟... دعونا نكتفي بالقول هنا أنّ هذه النقطة مُتَنَازَعٌ عليها، ومازال محلّ جدالٍ ساخن.

بالرغم من وجود حالتين سائدتين للوجود، الوجود الأصيل والوجود الزائف، يقول هيدغر بإصرارٍ في مُستَهَلّ كتابه أنّ الإنسان يجب أن يُقَدّمَ أولاً في صورة البدائية اللامبالية أو غير المكترثة، السابقة لأي خيار في أن يغدو أصيلاً أو لا. وبكلمات سرعان ما تحوّلت إلى مَثَل أو حكمة في الكتاب، يصف هيدغر الإنسان «مبدئياً وعادةً» Zunächst und Zumeist ، أي كما هو منذ البداية، وكما هو في العادة في معظم حالاته.

لاحظوا الطبيعة الراديكالية المتطرفة لهذه الخطوة المبدأئية: الفلسفة ليست مجرّد تأمّلات هوائية تطفو في عوالم مفارقة ومغايرة، أو تطرح أسئلة خارجية كالسؤال: هل هذا العالم موجود حقاً؟ أو ما إذا كانت هذه الكائنات التي تشبه البشر من حولي هم بشرٌ فعلاً وليسوا رجالاً آليين أو أي شيء آخر. بل على العكس، الفلسفة تبدأ من وصف يسمّيها هيدغر "الظاهراتية" Phenomenology الإنسان انطلاقاً من تجاربه وخبراته الحياتية اليومية، ووجوده اليومي المعاش. كما أنها تسعى لاشتقاق بُنى عامة مشتركة عبر تلك التجارب اليومية.

لكننا ينبغي علينا الانتباه إلى المهمّة التي ألقاها هيدغر على عاتقه. بأنّ ما هو أقرب وأوضح إلينا، هو الأصعب علينا وصفه وتحديده. لا شيء أقرب إليّ من نفسي بطبيعتها وكما هي في معظم حالاتها، وجودي اليومي السَوَاء والمليء باللامبالاة وعدم الاكتراث والإنكار، لكن كيف أستطيع وصف ذلك؟ كيف لي أن أعبّر عن ذلك؟ كان هيدغر مولعاً بالاقتباس عن القديس أوغسطين وبالأخصّ من كتابه "الاعترافات" الذي كتب فيه قائلاً: «يقيناً، أنا أعمل هنا وأعمل داخل نفسي، لقد أصبحتُ لنفسي أرضاً من المتاعب والعرق المتساقط بغزارة». بالتأكيد هيدغر يريد إثارة المتاعب، كما أنّ المرء سيتساقط عرقه بغزارة عبر هذه الصفحات، لكنّ لحظات الكشف عظيمة وتخطف الأنفاس بوضوحها.

[3] الوجود في العالم:

«تنويه: الدازاين Dasein معناه "الوجود-هناك" في العالَم»

كيف قَلَبَ هيدغر ديكارت رأساً على عَقِب: لنكون أولاً، ثمّ نفكّر بعدها.

تحدّثتُ في مقالتي الأولى عن محاولة هيدغر هدم ألفاظنا ومصطلحاتنا الفلسفية التقليدية المألوفة، واستبدالها بشيء آخر جديد تماماً. أمّا ما يسعى هيدغر بالتحديد لهدمه فهو ذلك التصوّر الشائع في الفكر الفلسفي للعلاقة بين الإنسان والعالم. ذلك التصوّر الذي أدخَلَهُ الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (طبعاً ديكارت هو المتّهم الرئيسي الذي يقف على منصّة الاتهام في هذا الكتاب). باختصار شديد، إنّها الفكرة التي تقول أنّ هناك نوعان من الجواهر في هذا العالم: الأشياء المفكّرة والواعية مثلنا نحن البشر، والأشياء المُمتَدّة، أي ذات الامتداد في المكان كالطاولة والكرسي، وبالتأكيد كامل نسيج المكان والزمان.

إنّ العلاقة بين الأشياء المفكّرة والأشياء الممتدّة علاقة معرفة، وتكمن الوظيفة الفلسفية والعلمية في ضمان وصول الذات كما سُميَت لاحقاً إلى عالم الأشياء. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه "الترجمة الأبستمولوجية" للعلاقة بين الإنسان والعالم، حيث أنّ أبستمولوجيا تعني "نظرية المعرفة"، وهيدغر لا ينفي أهمية المعرفة، بل يرفض أولويتها وأسبقيتها بكلّ بساطة. هناك وحدة عميقة سابقة لهذه الصورة الثنائية للعلاقة بين الإنسان والعالم يحاول هيدغر وضع يده عليها ضمن صيغته الشهيرة: «الدازاين هو: الوجود- في-العالم». لكن ما الذي يعنيه بذلك؟

إذا كان الإنسان "موجوداً-في-العالم" فعلاً، عندها يستلزم ذلك أنّ العالم نفسه هو جزء من القانون الأساسي لِما يعني أن تكون إنساناً. هذا معناه: أنا لستُ ذاتاً منفصلة هائمة، أو "أنا" حرّة مستقلّة تواجه لوحدها عالماً من الأشياء التي تقابلني وتصطفّ أمامي. بل أنا هو عالمي، على حدّ تعبير هيدغر. العالم جزءٌ مني، قطعة من كينونتي، من نسيج وجودي. يمكننا أن ندرك لُبّ فكرة هيدغر هنا بالنظر إلى الدازاين ليس كذات منفصلة عن عالم الأشياء، بل كتجربة انفتاح، حيث أنّ كينونتي غير منفصلة عن كينونة العالم. فأنا متّصل ومُتَشَرّب بعالمي، ولستُ مفصولاً عنه بنوعٍ من "العقل"، أو ما يسميه هيدغر "خِزانة الوعي".

حجّة هيدغر الأساسية في نقاشه عن العالم بكتابه "الكينونة والزمان" هي أنّ العالم يعلن عن ذاته "مبدئياً وعادةً" Zunäscht und Zumeist كشيء مفيد وفي متناول اليد، عالم التجربة الحياتية اليومية العادية والمألوفة. تفاعلي القريب مع الطاولة التي أكتب عليها هذه الكلمات ليس بوصفها شيئاً مصنوعة من مواد معروفة موجودة في العالم (خشب وحديد على سبيل المثال)، وموضوعة ضمن حيّز مكاني منتظم ومرتّب هندسياً. بل هي مجرّد طاولة أستخدمها للكتابة عليها، وهي شيء مفيد لتنظيم

أوراقي فوقها، وحاسوبي الشخصي وفنجان قهوتي. ويشير هيدغر بإصرار بأنّنا يجب أن "تتجاهل ميولنا التفسيرية ونضعها جانباً، تلك الميول التي تلقي بغطائها كاملاً على كامل تجربتنا اليومية للعالم وتنزع لإضفاء صبغتها على الأشياء من حولنا".

العالم يعجّ بالأشياء المفيدة التي تتواجد معنا ككل، وهي في متناول يدي، وذات معنى بالنسبة لي. وبصورة أكثر تبسيطاً، العالم مليء بالأشياء المترابطة فيما بينها: حاسوبي الشخصي على مكتبي، نظارتي التي تستند على أنفي، المكتب فوق الأرض، ويمكنني النظر خارج نافذة غرفتي، وأرى الحديقة وأسمع ضجيج المدينة وهدير سيارات الشرطة والإسعاف وجميع الأمور التي تشير إلى الحياة في المدينة. وهذا ما يطلق عليه هيدغر اسم "البيئة/ الوسط" Umwelt ، حيث يحاول وصف العالم الذي يحيط بالإنسان والذي هو مغمورٌ وغارقٌ فيه بكليته.

يشير هيدغر إلى أنّ هذه التجربة المعاشة للعالم قد تمّ نسيانها أو فقدانها أو صرف النظر عنها من خلال البحث العلمي أو عن طريق فلسفة العقل التقليدية، والتي تفترض مسبقاً وجود فصل ثنائي بين العقل والواقع. كل ما يتطلّبه الأمر هو نوع من الفلسفة الظاهراتية لتجاربنا الحياتية للعالم، تلك التجارب التي قد تبدو حقيقية للشخص الذي تظهر نفسها أمامه أولاً وقبل كل شيء في تجاربنا. وللتعبير عن هذه الفكرة بكلمات أخرى أبسط وأسهل على الأفهام، يمكننا القول أنّ هيدغر يحوّل التفريق المألوف بين النظرية والممارسة: تفاعلي المبدئي مع العالم ليس نظرياً، إنّه ليس تجربة أحصّلها من خلال منظاري أو مجهري أوجّهه نحو عالمٍ منزوع القيمة. بل أتفاعل مبدئياً مع هذا العالَم بصورة عملية تجريبية بصفته عالَماً من الأشياء، تلك الأشياء مفيدة وفي متناول يدي ومشبعة بالأهمية والقيمة الإنسانية. إنّ المقاربة النظرية

أو العلمية إلى الأشياء الموجودة عند بعض الفلاسفة أمثال ديكارت مبنية على أساس خبرة عملية مفتونة ومهتمّة بالأشياء.

يميّز هيدغر بين نوعين من المقاربات إلى العالم، نوعين من أساليب النظر إلى العالم وتجربته: تجربة المُثول Vorhandenheit، وتجربة الخبرة Zuhandenheit، تشير تجربة المثول إلى مقاربتنا النظرية لعالم مكوّن من أشياء. إنّه النظرة إلى العالم التي ينطلق منها العلم. أمّا تجربة الخبرة فتصف علاقتنا العملية بالأشياء المفيدة لنا والتي بمتناولنا. يقول هيدغر أنّ الخبرة أو الممارسة Practice تسبق النظرية .Theory وأنّ الخبرة تسبق المثول. ومشكلة أغلب الفلسفات التي جاءت بعد ديكارت هي أنّها تدرك العالم بطريقة نظرية وبذلك تتخيّل، أو تتصوّر على غرار يكارت، بأنّ الإنسان يمكنه الشكّ في وجود العالم الخارجي، بل وحتى الشك في وجود الأشخاص الموجودون فيه والذين يملأونه _فَمَنْ يدري، قد يكونون رجالاً آليين.!

بالنسبة لهيدغر، الأمر يجري على العكس تماماً. إنّ ماهيتنا وحقيقتنا ككائنات بشرية مرتبطة ومترابطة فيما بينها عبر شبكة معقدة من النشاطات والممارسات الاجتماعية التي تشكّل العالم. العالم هو جزء من كينونتي وكينونة كل شخص فيه. بالنسبة لهيدغر، انفصال المرء عن العالم وانقطاعه عنه، كما جرى مع ديكارت، يعني فقدانه لكينونته: فنسيج انفتاحنا على العالم هو كلٌّ شاملٌ. ولا ينبغي تقسيم ذلك الكل وتقطيع أوصاله. أضِف إلى ذلك، العالم ليس مليئاً فقط بأشياء مفيدة ذات معنى بكل هذه البساطة، إنّما مليء بالناس/ الأشخاص. إذا كنتَ جزءاً متّصلاً بعالمي، عندها سيكون هذا العالم عالماً مشتركاً أختبره وأعيش تجاربه مع آخرين. وهذا ما يطلق عليه هيدغر "الوجود-مع".Mitsein .

[3] : المقذوفية في العالم:

كيف نعثر على أنفسنا في هذا العالم، وكيف نجد حريتنا فيه؟

كما تحدّثنا سابقاً، سيحاول هيدغر إيقاظ حسّ التحيّر والتساؤل فينا حول الوجود، وهو الموضوع الأساسي في علم ما وراء الطبيعة/ الميتافيزيقا. يسعى هيدغر في كتابه "الكينونة والزمان" للإجابة عن هذا السؤال عن طريق تحليل الإنسان أو ما يسميه هو بالدازاين. فكينونة الدازاين هي الوجود ذاته، ويمكن فهمها على أنّها التجربة العادية المألوفة أو الوجود اليومي المُعاش، أو بالأحرى حياتنا العادية في هذا العالم، وقد ناقشنا هذه المسألة في الجزء السابق؟ لكن كيف يمكننا أن نضفي معاني أكثر على هذه الفكرة الصورية للوجود.

يقدّم لنا هيدغر إشارة واضحة في الفصل الخامس من القسم الأول من كتابه، وهو فصل طويل وشاق جداً، لكنّه غنيّ وينضح بالمعاني حيث تبدأ الأمور تتّضح فيه أكثر، وتصبح أكثر إثارةً. الفكرة الأساسية في هذا الفصل والتي تترسّخ لاحقاً بشكل أعمق خلال صفحات الكتاب هي أنّ الدازاين عبارة عن إسقاط مقذوف أو مُلقى به Dasein ist geworfener Entwurf. دعوني أوضّح لكم الفكرة أكثر.

يسعى هيدغر إلى تعزيز أبحاثه وتحسينها ضمن مجموعات من المفاهيم. أحد تلك المجموعات المفاهيمية تتضمّن ثلاثة مفاهيم: الحالة العقلية، المزاج، والمقذوفية/ الإلقاء. الحالة العقلية تمثّل انعكاس مشكوك فيه "للموقف" Befindlichkeit، حيث ترجمها وليم ريتشاردسون بلطف-already-having found-one-self-there-ness، وباختصار شديد معناها «الحالة التي تكشف للإنسان بأنّه كائن في موقف الوجود». حسناً، ربما هذه الفكرة بهذه البساطة، لكّن تنصّ باختصار على أنّ الإنسان موجود أو مكشوف في مكانٍ ما هناك، و"هناك"

بالتحديد "في-وجوده-في-العالم". هذه الـ"هناك" هي الـ" "Daفي مصطلح Dasein.

أضِف إلى ذلك، أنا موجودٌ دوماً في حالة مزاجية معينة، مزاج / Stimmung، هذا المزاج هو الحسّ الأرسطي الأقوى للباثوس، (الانفعال المفرط أو الرثاء)، إنّه عاطفة الروح أو الشعور العاطفي، شعور ما ينتابنا ونجد أنفسنا فيه. العواطف، بالنسبة لهيدغر، ليست مجرّد مظاهر سيكولوجية لجواهر عقلانية مبطّنة. إنّما هي الوسائل الرئيسية التي نتناغم من خلالها مع عالمنا. طبعاً، من الناحية الموسيقية، العواطف تساعدنا على التناغم، لكنّها عمياء تماماً: فالإنسان يتناغم مع عالمه أولاً وغالباً عن طريق المزاج. أحد الجوانب الرئيسية التي اتّسم بها عمل هيدغر هو محاولته تقديم فينومينولوجيا المزاج، وهو علم يدرس المشاعر ظاهراتياً التي تشكّل وتصوغ حياتنا اليومية العادية في هذا العالم.

هذه طريقة أخرى لمقاربة فكرته الأساسية: بأنّنا لا يمكننا أن نوجد بصورة مستقلّة ومنفصلة عن العالم وعلاقاتنا به، وهذه العلاقة هي علاقة مزاج وتذوّق، وليست علاقة تأمّل عقلاني بحت.

هذه الأمزجة والأذواق والمشاعر تكشف الإنسان بصفته مقذوفاً أو مُلقى إلى "هناك" في كينونته في العالم. وكما غنّى جيم موريسون قبل عدّة عقود "إلى هذا العالم أُلقِيَ بنا". فالإلقاء أو المقذوفية أو الإسقاط Geworfenheit ببساطة بالغة يعني الوعي، أو إدراكنا بأنّنا نجد أنفسنا دائماً في مكانٍ ما، أو بالأحرى تمّ وضعنا داخل عالم نشعر بالذهول والدهشة حياله والانغماس فيه، عالم نتشاركه مع آخرين.

نحن دائماً نشعر بأننا عالقون ومكشوفون في حياتنا اليومية في العالم، في حالة إلقاء أو قذف عدّة أمزجة مختلفة، سواءً أكانت خوف، أم سأم، أم حماس، أم كما ستتحدّث في الجزء التالي القلق anxiety .

لكنّ الدازاين يتابع هيدغر خطّ تفكيره بإصرار ليس مجرّد إسقاط أو مقذوف في العالم. لأنّه لأننا/ نحن قادرون على الفهم والاستيعاب، يمكننا نزع حالة المقذوفية الخاصة بنا. الفهم، بالنسبة لهيدغر، مفهوم لنشاط .activity إنّه دائماً يتمثّل في فهم كيفية القيام بعمل ما أو تنفيذ شيء ما. الفهم يعني امتلاك قدرة .etwas können والإنسان الأصيل أو الحقيقي يتميّز بالقدرة والإمكانية على أن يكون .Seinkönnen

إذاً، الكائن البشري، الإنسان، الدازاين، ليس مجرّد كائن مُحَدّد بحالة إلقاءه أو مقذوفيته في العالم. فهو كائن يمكنه أن يخلع عن نفسه حالة المقذوفية من خلال حركة يمسك فيها بكافة ممكناته، ويسلك بصورة ثابتة ومتّزنة. هذه الحركة يطلق عليها هيدغر اسم "الإسقاط" Entwurf، وهو نفس التجربة التي سيطلق عليها هيدغر لاحقاً اسم: "الحرية". الحرية ليست مجرّد مفهوم فلسفي مجرّد، بل حالة، تجربة يستعرض الإنسان من خلالها ممكناته عبر الفعل أو السلوك في العالم. والسلوك بهذا الشكل معناه أن يكون الإنسان أصيلاً.

[4] : القلق:

القلق هو المزاج الفلسفي بامتياز، تجربة الانفصال التي يمكنني من خلالها البدء بحرية في التفكير بنفسي .

كما بيّنتُ سابقاً، تُعَدُّ الحالات المزاجية طُرُقاً أساسية لإزالة الغطاء عن الوجود البشري عند هيدغر. ومع ذلك، هناك مزاج واحد على وجه الخصوص يكشف عن

الذات بشكل صارخ ولأول مرّة. تلك هي وظيفة القلق anxiety أو Angst والتي ينسّيها هيدغر بالمزاج الأساسي .Grundstimmung ويسمّي سفرانسكي مصيباً القلق بأنه «مَلِكَة غامضة بين الأمزجة».

يظهر القلق في القسم الأول، الفصل السادس، حيث يسعى هيدغر لتعريف وجود الدازاين على أنه ما يسمّيه "رعاية" .Sorge وسيتطلّب الأمر أكثر من مجرّد عدّة تدوينات لكي أشرح بالتفصيل المناسب بنية الرعاية ومعناها. لكن يمكننا الحصول هنا على أكثر من مجرّد التلميح بالنظر إلى القلق.

الدازاين يعني "الوجود-في-العالم". ويتميّز وجودنا اليومي بالانغماس الكامل في طرق العالم ومشاغله. العالم يسحرنا وحياتي محاصرة تماماً وعالقة في تيار إيقاعاته وأنشطته. والسؤال الذي يطرحه هيدغر في الفصل السادس هو: كيف يمكننا الكشف عن "وجودنا-في-العالم" ككل؟ هل هناك تجربة حيث يتكشّف لنا العالم هكذا وككل أمامنا؟ هل هناك حالة مزاجية ننسحب فيها من العالم وننظر إليه على أنه شيء خارج ومستقلّ عنا؟ يدّعي هيدغر أنّ تجربة الوجود-في-العالم ككل تنكشف لنا في حالة القلق ثم يُعَرّف لاحقاً على أنه "رعاية". وعلى هذا النحو، للقلق وظيفة منهجية بالغة الأهمية ضمن حبكة كتاب "الكينونة والزمان".

لكنّ الرنين الوجودي للقلق هو أكثر بكثير من مجرّد منهجي/ ميتودولوجي. فأول شيء ينبغي فهمه هو أنّ القلق لا يعني حالة القلق المستمرّة أو القلق المتطقّع حول شيء ما أو أمرٍ ما. بل على العكس من ذلك، يقول هيدغر إنّ القلق هو حالة مزاجية نادرة ودقيقة وفي مكانٍ ما يقارن ما بين القلق وبين الشعور بالهدوء والسلام. ففي حالة القلق، تظهر الذات الأصيلة أولاً. المزاج طبعاً هو الذي ساعد على إطلاق

العديد من الروايات الوجودية (كرواية "الغثيان" لجان بول سارتر و"الغريب" لألبير كامو) على الرغم من أنّ هيدغر كان شديد النقد للفلسفة الوجودية .

لكي نفهم ما يعنيه هيدغر بالقلق، علينا أنّ نميّز بينه وبين حالة مزاجية أخرى هي: الخوف. تحدّث هيدغر عن فينومينولوجيا الخوف في بداية كتابه "الكينونة والزمان"، وحُجّته أنّ الخوف هو خوف دائم من شيء يتهدّد الإنسان، شيء محدّد في العالم. لنفترض بأنني أخاف من العناكب. الخوف له موضوع أو شيء محدّد، وعندما تتم إزالة هذا الموضوع، ينتفي الشعور بالخوف. أرى عنكبوتاً في الحمّام فأشعر بالخوف فجأةً. ولكن عندما يزيل صديقي المقدام الذي لا يخاف العناكب هذا العنكبوت من الحمام، لا أعود أشعر بالخوف .

لكنّ الأمر مختلف جداً في حالة القلق، إذا كان الخوف هو خوف من شيء محدّد ومحسوس، فإنّ القلق هو قلق حول لا شيء على وجه الخصوص، لا شيء محدّد. إذا كان الخوف موجّهاً نحو شيء محدّد في هذا العالم، كالعناكب أو أي شيء آخر، فإنّ القلق يكون قلقاً بشأن الوجود في هذا العالم على هذا النحو. نشعر بالقلق عندما نواجه شيئاً غير محدّد. ويصرّ هيدغر قائلاً: "لا شيء ولا مكان" .

لكن دعونا نتوقّف للحظة ههنا. إنّ زعم هيدغر في القسم الأول من "الكينونة والزمان" (الذي ناقشناه سابقا في الحلقة الثالثة) هو أنّ الإنسان يجد نفسه في عالم غني بالمعنى حيث يفتَنُ به. بعبارة أخرى، العالم أشبه بعائلة (heimlich)، ومكانٌ دافئٌ أيضاً. في حالة القلق، يتغيّر كل ذلك. فجأةً، يتملّكني شعورٌ طاغٍ بالقلق الذي يجعل العالم يبدو أمامي بلا معنى. يبدو لي كمشهد زائف. نوع من النشاط الهادئ الذي لا طائل من ورائه. في حالة القلق، ينزلق العالم اليومي بعيداً ويصبح منزلي غريباً عني

(unheimlich). وفجأة أتحوّل من كوني لاعب مشترك ونشط في لعبة الحياة التي أحببتها إلى مراقب لها لم أعُد أرغب بها ولا أرى الهدف من المشاركة فيها .

أول ما نلمحه في حالة القلق هو الذات الأصيلة. فبينما ينزلق العالم منّا، نصبح غرباء عنه ودُخَلاء. أحبّ أن أفكّر في الأمر من وجهة نظر بحرية. ترتبط الحياة الزائفة في العالم ارتباطاً وثيقاً بالأشياء وبالأشخاص الآخرين في نوع من "الطفو الذي لا أساس له" - على حدّ تعبير هيدغر. الحياة اليومية في هذا العالم تشبه الغطس في البحر والغرق في تفاهة العالم الخانقة. القلق هو تجربة خروج المَدّ، وجفاف مياه البحر، كاشفاً عن ذات تقطّعت بها جميع السبل، كما كانت. القلق هو ذلك المزاج الأساسي عندما تميّز الذات نفسها أولاً عن العالم وتصبح مُدرِكَة لذاتها .

القلق لا يحتاج إلى ظلمة، ويأس، وتعرّق ليلي. بل يمكن أن يظهر القلق خلال أكثر الأوقات هدوءاً واسترخاءً: عندما تكون جالساً في مترو الأنفاق صارفاً انتباهك بقراءة كتاب ما مستمتعاً بمحادثات الآخرين، ثم فجأةً ينتابك شعورٌ بالقلق وبانعدام المعنى، وذلك من خلال التميز العميق بين ذاتك و العالم الذي تجد نفسك فيه. يقول هيدغر أنّه مع تجربة القلق هذه، يكون الدازاين فردياً ومُدركاً لذاته .

القلق هو أول تجربة نختبر فيها حريتنا، تجربة تحرّر من الأشياء والآخرين. إنها حرية أن أبدأ بالشعور بنفسي وأصبح نفسي. ربما يكون القلق هو المزاج الفلسفي بامتياز، إنه تجربة الانفصال عن الأشياء وعن الآخرين حيث يمكنني البدء في التفكير بحرية بنفسي. ومع ذلك، وكما كان هيدغر يدرك جيداً، إنّ القلق هو أيضاً حالة مزاجية يتم تحليلها عن قرب في التراث المسيحي، من القديس أوغسطين إلى الفيلسوف الدنماركي كيركغارد، حيث يصف جهد الذات في تحويل نفسها، أن تخضع

لنوعٍ من التحوّل. الفرق بين هيدغر والمسيحية هو أنّ تحوّل الذات لا يتمّ بالرجوع إلى الله، بل فيها يتعلّق بالموت فقط، وموضوع حلقتنا القادمة.

[5] : الموت

بعيداً عن كونه حَدَثاً مروّعا، فإنّ تصوّر هيدغر للحياة في ظل معرفتنا للموت هو مفهوم محُرِّر.

كما سبق وأسلفتُ خلال أول مقال لي عن هيدغر، إنّ الفكرة المحورية في كتاب "الكينونة والزمان" بسيطة للغاية: الكينونة هي الزمن، والزمن محدود. بالنسبة للبشر، ينتهي الزمن بموتنا. لذلك، إذا أردنا أن نفهم معنى أن تكون إنساناً حقيقياً، من الضروري أن نُسقطَ حياتنا دوماً على أفق موتنا. وهذا ما يسمّيه هيدغر "بالوجود-باتجاه-الموت". إذا كانت كينونتنا محدودة، فلا يمكن إيجاد حياة بشرية أصيلة إلا من خلال مواجهة المحدود ومحاولة صنع معنى لحياتنا ووجودنا من حقيقة موتنا. ويؤيّد هيدغر الحكمة القديمة القائلة "الفلسفة هي أن نتعلّم كيف نموت". فالفناء هو ذلك الذي نصوغ ونشكل فيه ذواتنا.

هناك أربعة معايير رسمية إلى حدٍ ما في مفهوم هيدغر للوجود-باتجاه-الموت: إنه غير علائقي، ومؤكّد، وغير محدّد، ولا يمكن تجاوزه. أولاً، للموت غير علائقي بمعنى أنّ المرء يقطع كل صلة له بالآخرين بوقوفه أمام الموت. لا يمكن اختبار الموت ومعرفة معناه من خلال موت الآخرين. بل من خلال علاقتي بموتي أنا. سأتصدّى لهذا المعيار لاحقاً.

ثانياً، من المؤكّد أننا سنموت جميعاً. على الرغم من أنّ المرء قد يتهرّب من هذه الحقيقة أو يهرب من مواجهتها، لكن لا أحد يشك بأنّ الحياة تنتهي بالموت. ثالثاً، الموت غير محدّد بمعنى أنّه بالرغم من معرفتنا المؤكّدة بحقيقة موتنا وأنه أمر محتوم، إلا

أننا لا نعرف متى سيحدث ذلك. معظم الناس يرغبون في حياة مديدة وطويلة، لكن لا يمكننا ان نعرف أبداً متى سيطرق حاصد الأرواح بابنا .

رابعاً، القول بأنّ الموت لا يمكن تجاوزه (unüberholbar) يعني بأنّ الموت أمرٌ مهمٌ جداً. إذ لا توجد طريقة للتغلّب عليه كما أنه يفوق كل الاحتمالات التي يمكنني تصوّرها. هذه هي الفكرة وراء مقولة هيدغر الشهيرة والمتناقضة بأنّ الموت هو "إمكانية الاستحالة". الموت هو ذلك الحد الذي يجب على أساسه أن أقيس قدرتي-على-الوجود .(Seinkönnen) إنه ذلك العجز الأساسي الذي تتحطّم فيه قدرتي وقوّة حريتي نفسها .

في نهاية مقدمة "الكينونة والزمان"، كتب هيدغر: "أعلى من الواقع ينتصب الإمكان". "الكينونة والزمان" هي ترنيمة طويلة من الثناء على الإمكان وتجد أعلى تعبير لها في الوجود-باتجاه-الموت. يميّز هيدغر بين التوقع (Vorlaufen) والتأمّل أو الانتظار .(Erwarten) إنّ زعمه أنّ انتظار الموت لا يزال يحتوي على الكثير من الواقع، حيث يكون الموت هو تحقّق الاحتمال أو الإمكان. قد تكون هذه فلسفة سوداوية ومتشائمة بالنسبة للمرضى. لكن على العكس من ذلك، بالنسبة لهيدغر، التوقّع لا يعني الانتظار السلبي للموت، بل يستحضر الفناء كشرط للفعل الحر في العالم .

ينتج عن ذلك فكرة مهمة للغاية وقد تبدو متناقضة: الحرية ليست غياب الضرورة، على شكل موت. على العكس، تتمثّل الحرية في التأكيد على ضرورة موت المرء. فقط في الوجود-باتجاه-الموت يمكن للمرء أن يصبح الشخص الذي هو عليه حقاً. إذ تخفي حقيقة الموت "كإمكانية الاستحالة" القبول بالحد النهائي للفرد والإقرار به كأساس لتأكيد حياة المرء .

إذن ليس هناك شيء كئيب ومحزن في فكرة الوجود-باتجاه-الموت. فكّر هيدغر أنّ الوجود-باتجاه-الموت يسحب الدازاين من انغماسه في الحياة اليومية وتفاهاتها الزائفة ويسمح له بالاندماج في ذاته. فقط فيما يتعلق بالوجود-باتجاه-الموت أصبحُ مُدرِكاً تماماً لحريتي.

. على الرغم من لبوسها اللغوي الباروكي، فإنّ تحليل هيدغر للوجود-تجاه-الموت تحليل قوي ومباشر بشكل استثنائي. ومع هذا فهو مفتوح للاعتراض التالي: يجادل هيدغر بأنّ الموت الحقيقي الوحيد هو موت المرء نفسه، وقد كتب أنّ الموت من أجل شخصٍ آخر يعني ببساطة "التضحية بالنفس". إلى هذا الحد، بالنسبة لهيدغر، إنّ موت الآخرين حادث ثانوي بالنسبة لموتي أنا، وهو أمر أساسي. برأيي (وهذا النقد قدّماه لأول كلاً من مرة إيديث شتاين وإيمانويل ليفيناس) إنّ مثل هذا المفهوم للموت خاطئ وخبيث من الناحية الأخلاقية. على العكس من ذلك تماماً، أعتقد أنّ الموت يدخل عالمنا من خلال موت الآخرين، سواءً كان ذلك قريباً من أحد الوالدين أو الشريك أو الطفل أو بقدر الضحايا المجهولة العدد لمجاعة قاسية أو حرب طاحنة. إنّ العلاقة مع الموت لا تتمثّل في المقام الأول لخوفي من زوال نفسي واندثارها، بل إحساسي بالضعف إزاء تجربة الحزن والحداد .

ويجب ألا ننسى أنّ هناك نزعة إنسانية تقليدية تفعل فعلها في نظرة هيدغر إلى الموت. ففي رأيه، البشر وحدهم يموتون، أما الحيوانات والنباتات والحشرات فتنفق وتندثر ببساطة. لا يمكنني التحدّث بأي خبرة مزعومة عن موت النبات، لكن يبدو أنّ الأبحاث والدلائل التجريبية تظهر بالتأكيد أنّ الثدييات العليا - كالحيتان، والدلافين، والفيلة، والقطط والكلاب أيضاً- لديها أيضاً تجاربها في الموت، سواءً من

جانبها أم ممّنْ هم حولها. نحن لسنا الكائنات الوحيدة في الكون التي تتأثر بمشاعر الفناء.

[6] : الضمير

بالنسبة لهيدغر، "نداء الضمير" هو بحدّ ذاته نداء يُسكت ثرثرة العالم، ويعيدني إلى نفسي .

بعد الدراما الوجودية لمفهوم هيدغر في الوجود-باتجاه-الموت، لماذا نحتاج لمناقشة مسألة الضمير؟ كما هو الحال في كثير من الأحيان في كتاب "الكينونة والزمان"، يصرّ هيدغر على أنّ وصفه للوجود-باتجاه-الموت صحيح رسمياً أو من الناحية الوجودية، إلا أنه يحتاج إلى محتوى أكثر إقناعاً على المستوى "الأنطولوجي" كما يسمّيه هيدغر، أي على مستوى الخبرة والتجربة. يهيمن المحدود ويُحكِم قبضته على الذات من خلال تجربة الضمير. بالنسبة لي، إني أرى الصفحات التي تناقش مسألة الضمير في الكتاب من أكثر الصفحات إمتاعاً وتحدياً. اسمحوا لي أن أرسم الخط المعقّد لحجّة هيدغر بشكل بسيط .

الضمير نداء. إنه شيء يُبعِد المرء عن انغماسه المزيّف وغير الأصيل في الألفة المعتادة للحياة اليومية. يكتب هيدغر أنّ تلك التجربة الغريبة مثل الصوت الخارجي في رأس المرء، هي التي تسحب المرء من ضجيج وثرثرة الحياة في العالم وتوقِف انشغالنا المستمر .

يبدو ذلك قريباً من تجربة الضمير المسيحية التي قد نجدها عند كل من أوغسطين أو لوثر. ففي الكتاب الثامن من "الاعترافات" يصف أوغسطين الدراما الكاملة لعملية التحوّل من حيث وصفها بسماع صوت خارجي، "كطفل"، الذي يقوده ي

النهاية إلى تناول الكتاب المقدّس والابتعاد عن الوثنية إلى المسيح. ويصف لوثر الضمير بأنه عمل الله في ذهن الإنسان .

بالنسبة لهيدغر، على العكس من ذلك، الضمير ليس صوت الله، بل صوتي وهو يتحدّث إليّ. أمّا نداء الضمير الحقيقي والأصيل وخزات وآلام ظهور المفاجىء يبدو وكأنه صوت غريب، لكنه، كما يصرّ هيدغر، الدازاين ينادي على نفسه. لقد تمّ استدعائي من الحياة الزائفة في العالم، أكمل ذلك مع ما أطلق عليه سارتر "خلودها المزيّف" تجاه نفسي. علاوةً على ذلك، هذه الذات، كما رأينا في الحلقة السادسة، تُعرَف من حيث الوجود-باتجاه-الموت. إذن، الضمير هو تجربة الإنسان الذي يدعو نفسه إلى الموت على غرار هاملت وهو في القبر مع جمجمة يوريك .

ماذا يُقال في نداء الضمير؟

هيدغر واضحٌ تماماً: مثل كورديليا في مسرحية الملك لير، لا شيء يُقال. نداء الضمير صامت. لا يتضمّن أي تعليمات أو نصائح. ولفهم ذلك، من المهم أن ندرك أنّ الحياة الزائفة، بالنسبة لهيدغر، تتميّز بالثرثرة _على سبيل المثال، الصخب الغامض والمستمرّ في عالم المدوّنات والتواصل الاجتماعي.

يستدعي الضمير الدازاين من هذا العالم المليء بالثرثرة بصمت. إنه يتّسم بسمة مميّزة يسمّيها هيدغر "التحفّظ" (Verschwiegenheit) وهو النمط المميز للغة عند هيدغر. لذا فإنّ نداء الضمير هو نداء صامت يُسكِت ثرثرة العالم من حولي ويعيدني إلى نفسي .

وأكن ما الذي تقدّمه تجربة الضمير الحقيقية هذه للمرء ليفهم؟ يمكن اختصار مفهوم نداء الضمير بكلمة واحدة فقط: مُذنِب! لكن ما الذي يعنيه ذنب الدازاين/ الدازاين المُذنِب حقاً؟ هذا يعني أنّه -كما أسلفنا في الحلقة الرابعة- لأنّ

الكائن البشري يتمّ تعريفه من حيث إسقاط المقذوفية، على الكينونة أن تكون أبداً. أي أنّ الوجود البشري نقص، إنه شيء بفضل الدازاين، دَيْنٌ يسعى جاهداً لسداده. هذا هو المعنى الأنطولوجي للذنب (Schuld)، والذي يمكن أن يعني أيضاً "الدَّين". كما كُتب هيدغر بشكل مفاجئ، على الرغم من أنه يجب التذكير بأنه كان يكتب في أوقات اقتصادية مضطربة، «الحياة عمل سواء كانت تغطّي تكاليفها أم لا» الدَّين وسيلة للوجود. لذلك أنا موجود .

يمضي هيدغر لأبعد من ذلك ليوضّح أنّ هذا المعنى الأنطولوجي للذنب كمديونية هو الأساس لأي فهم أخلاقي تقليدي للذنب. إنّ فينومينولوجيا الذنب لدى هيدغر، وهنا هو يقترب من نيتشه في أصل الأخلاق وفصلها، يدّعي الكشف عن البنية العميقة للذات الأخلاقية التي لا يمكن تحديدها بالأخلاق، بما أنّ الأخلاق تفترض ذلك. يرفض هيدغر أي فكرة مسيحية عن الشر باعتباره حرماناً من الخير (privatio boni)، فإنّ ادّعاء هيدغر هو أنّ الذنب هو المصدر الما قبل أخلاقي لأي أخلاق. وعلى هذا النحو، فهو ما وراء الخير والشر. هل الذنب أمر سيء؟ كلا. ولكنه ليس جيدٌ أيضاً. إنه ببساطة ما نحن عليه، بالنسبة لهيدغر. نحن مذنبون. وذلك هو نصيب كافكا من الحقيقة الأبدية .

يصرّ هيدغر أنّ الدازاين لا يحمّل نفسه أي ذنب. بل إنه مذنب بكل بساطة، دائماً وفعلاً، كما أحبّ هيدغر أن يقول. ما يتغيّر في كون المرء أصيلاً هو أنه يفهم نداء الضمير ويأخذه في حدّ ذاته. يفهم الدازاين الأصيل نفسه على أنه مذنب. وبفعله هذا، اختار الدازاين نفسه، كما كتب هيدغر. هذا مثير للاهتمام للغاية: ما يتم اختياره هو عدم وجود ضمير، وهو ما يمتلكه الدازاين بالفعل بسبب حاجته الوجودية أو مديونيته، بل ما يسمّيه هيدغر، بشكل غريب، "الرغبة في امتلاك ضمير"

(Gewissen-haben-wollen) . يمكنك القول عن هذه _ إذا أردت أنها رغبة كن الدرجة الثانية: أختار أن أريد الرغبة على ما أنا عليه. بهذه الطريقة فقط، يضيف هيدغر، يمكن للإنسان أن يكون مكلّفاً أو مسؤولاً .(verantwortlich) وهكذا فإنّ المسؤولية التي ستكون المفتاح لأي فهم للأخلاق فيما يتعلق بعمل هيدغر، التي هي، على أقل تقدير، نقطة خلافية – تتمثّل في فهم النداء، في امتلاك ضمير. ويصرّ هيدغر على أنّ اتخاذ خذ القرار يعني أن تكون حازماً.

[7] : الزمانية:

ينبغي فهم الزمان بذاته وفي حدّ ذاته كوحدة من ثلاثة أبعاد هي: المستقبل والماضي والحاضر .

من الواضح أنّ محاولة اختزال ٤٣٧ صفحة كثيفة من كتاب "الكينونة والزمان" في ثمان مدوّنات مختصرة كان تمريناً كان تمريناً صعباً منذ البداية. لكن يجب أن أعترف أنّ هذا كان أيضاً جزءاً من الانجذاب. على الرغم من حدود هذه الوسيلة الافتراضية، آمُلُ أن أكون قد وُفّقتُ في نقل شيء من الكتاب بطريقة قد تشجّع الناس على القراءة أكثر فأكثر. إنّ "الكينونة والزمان" عمل فلسفي ثري جداً وصعب ومنهجي يستحقّ قراءة متأنّية ثم إعادة القراءة .

كون هيدغر مستمراً في إثارة الجدل وسوء الفهم الحاد يبدو واضحاً من بعض الردود على هذه المدوّنات، كل ما أودّ أن أطلبه من منتقدي هيدغر هو أن يتكلّفوا عناء إعادة قراءة أعماله مع القليل من الحذر والتأنّي قبل الرّدّ .

على الرغم من وجود الكثير ممّا يمكن قوله حول القسم الثاني من الكتاب، إلا أنّ هناك نقطة أخيرة أودّ التطرّق إليها قليلاً إذ يظنّ أغلب القرّاء أنها ذروة الكتاب:

الزمانية. اسمحوا لي أن أشرع في وصف ما يحاول هيدغر تجنّبه خلال مناقشته لموضوع الزمان.

أولاً، يحاول انتقاد فكرة "الزمان" على أنه سلسلة موحّدة وخطّيّة ولانهائية من "اللحظات أو النقاط الآنية". في هذا النموذج، الذي اشتُقّ في نهاية المطاف من فيزياء أرسطو، المستقبل لم يَحِن بَعد، أمّا الماضي لم يَعُد موجوداً، أمّا الحاضر فهو الآن الذي يتدفّق من المستقبل إلى الماضي في كل لحظة تمرّ. هذا ما يسمّيه هيدغر بالمفهوم "المُبتَذَل" أو العادي للزمان حيث تُعطى الأولوية دائما للحاضر. يعتقد هيدغر أنّ هذا المفهوم الأرسطي للزمان قد هيمن على التساؤلات الفلسفية عن الزمن منذ عهد الإغريق القدامى إلى عهد هيغل بل وحتى لمعاصره القريب برغسون.

ثانياً، يحاول هيدغر تجنّب أي تصوّر للزمان يبدأ بالتمييز بين الزمان والخلود. وبناءً على هذا الفهم للزمان، الذي تمّ التعبير عنه بشكل تقليدي في اعترافات أوغسطين، تُشتَقّ الزمانية من حالة أبدية اعلى غير زمنية، والتي تشترك في اتساعها مع الآنية اللامحدودة واللامتناهية لله.

لكي نفهم ما يعنيه هيدغر بالزمانية، علينا أن نضعها في سياق التحليلي الوجودي للدازاين الذي سعيتُ لوصفه. أدّت مناقشتنا للوجود-باتجاه-الموت في الحلقة السادسة إلى فكرة الترقّب أو التوقّع، أي أنّ الإنسان يتقدّم دائماً باتجاه نهايته. بالنسبة لهيدغر، فإنّ الظاهرة الأساسية للزمان تتمثّل في المستقبل الذي تكشّف لي في وجودي-باتجاه-الموت. يلعب هيدغر دور الرابط بين المستقبل (Zukunft) والتقدّم باتجاه .(zukommen) بقدر ما يترقّب الدازاين، فإنه يتقدّم باتجاه نفسه. الإنسان ليس محصوراً في الحاضر، بل يتّجه دوما نحو المستقبل.

لكن ما سيهيمن عليه الدازاين في المستقبل هو مديونيته الوجودية الأساسية، ذنبه، كما نوقش في المدوّنة السابقة. هناك فكرة صعبة ولكنها مقنعة تعمل هنا: في حالة الترقّب، فأنا أتوقّع المستقبل، لكن ما يخرج من المستقبل هو ماضيَّ، أمتعتي الشخصية والثقافية، وما يطلق عليه هيدغر "ماضيَّ" .(Gewesenheit) لكن هذا لايعني أنني محكومٌ بطريقة ما بالماضي. على العكس من ذلك، يمكنني أن أتّخذ قراراً بالتحكم في حقيقة من أنا بفعل حُر. وهذا ما يسمّيه هيدغر "بالحزم" .

هذا يقودنا إلى الحاضر. فبالنسبة إلى هيدغر، الحاضر ليس سلسلة لانهاية لها من النقاط واللحظات التي أشاهدها وهي تتدفّق. وبدلاً من ذلك، الحاضر هو شيء يمكنني الاستيلاء عليه بحزم. إنّ ما يُفتَح في حالة الترقّب للمستقبل هو حقيقة وجودنا الذي طلق نفسه في لحظة العمل الحالية .

هذا ما يسمّيه هيدغر "لحظة الرؤية" (Augenblick) وتعني حرفياً "نظرة العين"). يمكن الاقتراب من هذا المُصطلح المُستَعار من كيركغارد ولوثر، على أنه ترجمة لمصطلح الكايروس اليوناني، اللحظة المناسبة. في اللاهوت المسيحي كان الكايروس هو اكتمال الوقت أو الوصول إلى نهايته الذي حدث مع ظهور المسيح. يتمثّل الاختلاف بين هيدغر واللاهوت المسيحي في أنه يريد التمسّك بفكرة "لحظة الرؤية، ولكنه يريد القسام بذلك من دون أي إشارة إلى الله. ما يظهر في لحظة الرؤية هو الدازاين الأصيل والحقيقي. وبعبارة ملطّفة، إنّها نقطة خلافية ما إذا كان هيدغر يستطيع تطويع هذه المُثُل المسيحية دون قبول أو على الأقل تقليد محتواها .

إنّ مفتاح فهم هيدغر للزمان هو أنه لا يمكن اختزاله ببساطة في التجربة المبتذلة للزمن، ولا ينشأ أيضاً عن تمييزه عن الخلود. يجب أن يُفهَم الرمان في حَدّ ذاته بوصفة وحدةً للأبعاد الثلاثة -ما يسمّيه هيدغر "نشوات"- المستقبل والماضي والحاضر.

وهذا ما يسمّيه "بالزمن البدائي" أو "الأصلي" ويصرّ على أنه محدود. فهو ينتهي بالموت.

بالنسبة لهيدغر، نحن الزمن. والزمانية هي عملية من ثلاثة أبعاد تشكّل وحدة. والمهمة التي وضعها هيدغر في كتاب "الكينونة والزمان" هي وصف بمحدودية حركة الإنسان. كما أشار العديد من القرّاء واعترف هيدغر نفسه، فإنّ الكينونة والزمان لم ينتهيا. السؤال الذي يتركه معلقًا في نهاية الكتاب هو القضية التي بدأت المشروع بأكمله، أي مسألة الكينونة بحدّ ذاتها. لقد أُعطينا إجابة للسؤال "ماذا يعني أن تكون إنساناً"، ولكن لا أثر كيف يمكننا الإجابة على سؤال الكينونة بحدّ ذاتها. كانت المهمة التي حددها هايدجر لنفسه، منذ نشر كتاب "الكينونة والزمان" في عام 1927 وحتى وفاته بعد نصف قرن تقريباً في عام 1976، هي توضيح هذا السؤال.

هل هناك إله؟

ستيفن هوكينغ

الفصل الأول من أخر كتاب له " كتاب أجوبة بسيطة على أسئلة كبيرة"

هل هناك إله؟

. بات العلم يجاوب بشكل متزايد على جميع الأسئلة التي كانت تعتبر أنّها من اختصاص الدين وحده. كان الدين محاولة مبكّرة للإجابة عن الأسئلة التي نطرحها جميعنا: لماذا نحن هنا؟ ومن أين أتينا؟. منذ زمنٍ بعيد، كانت الإجابة هي نفسها دائماً: لقد خلقت الآلهة كل شيء. كان العالم مكاناً مخيفاً وموحشاً، فحتى أقسى الشعوب وأعتاها كالفايكينغ كانوا يؤمنون بكائنات غيبية خارقة لفهم الظواهر الطبيعية كالبرق أو العواصف أو كسوف الشمس. وفي الوقت الحاضر، أصبح العلم يقدّم إجابات أفضل وأكثر اتساقاً، ولكنّ البشر دائماً يتشبّثون بالدين، لأنّه يمنحهم الراحة والطمأنينة، ولا يمنحون ثقتهم للعلم أو يفهمونه.

قبل بضعة سنوات، نشرت صحيفة التايمز عنواناً على صفحتها الأولى جاء فيها: «هوكينغ: الله لم يخلق الكون». وكان المقال مرفقاً بصورة ظهر فيها الله كما تصوّره مايكل أنجلو، حيث بدا مدوّياً بارقاً. وطبعوا صورةً لي، أبدو فيها متعدّاً بنفسي. صوّروا المشهد وكأنّ هناك مبارزة تجري بيننا. لكن ليس لديّ ضغينة ضدّ الله. لا أريد أن أعطي انطباعاً بأنّ عملي يتعلّق بإثبات وجود الله أو دحضه. عملي يتمحور حول صياغة إطار عقلاني لفهم الكون من حولنا.

لقرون عديدة، كان يعتقد أنّ الأشخاص المعاقين أمثالي كانوا يعيشون تحت لعنة حلّت بهم من الرب. حسناً، أفترض أنّه من المحتمل بأنني قد أغضبت أحداً ما هناك في الأعلى، لكنني أفضّل أن أعتقد أنّ كلّ شيء يمكن تفسيره بطريقة أخرى، وفقاً

لقوانين الطبيعة. إذا كنت مؤمناً بالعلم، مثلي، فلابد أنك تعتقد أنّ هناك قوانين معينة تسير الأمور وفقها دوماً. إذا أحببت، يمكنك القول أنّ القوانين هي من عمل الله، ولكن هذا مجرّد تعريفٍ لله أكثر من كونه إثباتٌ لوجوده. ففي حوالي عام 300 قبل الميلاد، كان هناك فيلسوف إغريقي يدعى أريستارخوس مفتوناً بظاهرة الكسوف والخسوف، وبالأخص خسوف القمر. كان لديه قدرٌ من الشجاعة يكفي للتساؤل ما إذا كانت الآلهة هي سبب هذه الظاهرة فعلاً. كان أريستارخوس رائداً علمياً حقيقياً. قام بدراسة السماء بعناية ووصل لنتيجة جزئية: أدرك أنّ الخسوف كان في واقع الأمر ما هو إلا ظلّ الأرض يمرّ على القمر، وليس حَدَثاً إلهياً. وبعد تحرّره بفضل هذا الاكتشاف، تمكّن من تخيّل ما كان يجري فعلاً فوق رأسه بالسماء، وقام برسم مخططات توضّح العلاقة الحقيقية بين الشمس والأرض والقمر. ومن هناك توصّل إلى نتائج أكثر روعةً. فقد استنتج أنّ الأرض لم تكن مركز الكون، كما كان يُعتقَد، بل إنّ الأرض تدور حول الشمس. في الحقيقة، إنّ فهم هذه الترتيبات يفسّر كل حالات الكسوف والخسوف. فعندما يلقي القمر بظله على الأرض، يسمّى ذلك بالكسوف الشمسي. وعندما تلقي الأرض ظلّها على القمر، يسمّى بالخسوف القمري. لكنّ أريستارخوس مضى بالأمر أبعد من ذلك. لقد اقترح أنّ النجوم لم تكن شقوقاً في أرضية السماء، كما كان يعتقد معاصره، لكن كانت شموساً أخرى مثل شمسنا، لكنّها بعيدةٌ جداً عنا. كم كان هذا الإدراك صادماً. الكون عبارة عن آلة تحكمها مبادئ أو قوانين _قوانين يمكن للعقل البشري أن يفهمها.

أعتقد أنّ اكتشاف هذه القوانين كان أعظم إنجاز حقّقته البشرية، لأنّ قوانين الطبيعة هذه _كما نسمّيها الآن_ ستخبرنا ما إذا كُنّا بحاجة إلى إله ليفسّر لنا الكون. إنّ قوانين الطبيعة هي وصف لكيفية عمل الأشياء وسير الأمور في الماضي والحاضر

والمستقبل. في لعبة كرة المضرب، تذهب الكرة في الاتجاه الذي تقول القوانين أنّها ستذهب إليه. وهناك الكثير من القوانين الأخرى تعمل عملها هنا أيضاً. إنّها تحكم كل ما يجري، من كيفية إنتاج طاقة الضربة في عضلات اللاعبين إلى السرعة التي ينمو فيها العشب تحت أقدامهم. لكنّ النقطة الأهم هي أنّ هذه القوانين الفيزيائية _بالإضافة إلى كونها ثابتة وغير قابلة للتغيير_ عالمية. فهي لا تنطبق على طيران الكرة فحسب، بل على حركة كوكب الأرض أيضاً، وكل شيء آخر ف الكون. على عكس القوانين التي يضعها البشر، قوانين الطبيعة غير قابلة للكسر أو الانتهاك _وهذا هو السبب في أنّها قوية للغاية، ومثيرة للجدل أيضاً إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر دينية.

إذا قبلت، كما قبلت أنا، أنّ قوانين الطبيعة ثابتة، عندها لن يمرّ وقت طويل على السؤال: ما دور الله هنا؟ هذا جزء كبير من التناقض بين العلم والدين، وبالرغم من أنّ آرائي قد تصدّرت عناوين الصحف، إلا أنّه جدال قديم. يمكن للمرء أن يعرّف الله على أنّه تجسيد لقوانين الطبيعة. ومع ذلك، ليس هذا ما يعتقده أغلب الناس عن الله. إنّهم يتصوّرونه كائناً شبيهاً بالبشر، يمكن للمرء أن يقيم معه علاقة شخصية. عندما تتأمّل الحجم الهائل للكون، ومدى تفاهة حياة الإنسان وعبثيّتها فيه، يبدو ذلك أمر غير قابل للتصديق.

أنا أستخدم كلمة "الله" بمعنى غير شخصي، كما فعل آينشتاين، لذا فإنّ معرفة عقل الله يعني معرفة قوانين الطبيعة. وأتوقّع أنّنا سنعرف عقل بحلول نهاية هذا القرن.

إنّ المجال الوحيد الذي يمكن للدين الآن أن يرمي مزاعمه فيه هو أصل الكون، لكن حتى في هذا المجال بات العلم يُحرزُ تقدّماً وسيقدّم قريباً إجابة محدّدة عن بداية الكون. ونشرتُ كتاباً يطرح السؤال ما إذا كان الله هو خالق الكون، ونتج عنه شيء

من الضجّة. انزعج الناس من حقيقة أنّ العلماء لديهم ما يقولونه عن الدين. ليست لديّ أي رغبة في إخبار أي شخص بماذا عليه أن يعتقد، ولكن بالنسبة لي فإنّ السؤال ما إذا كان الله موجود فعلاً سؤال من اختصاص العلم. ففي النهاية، من الصعب تخيّل لغز أهم وأكثر حيوية من "ماذا"، أو "مَنْ" خلق الكون ويسيّره.

أعتقد أنّ الكون قد نشأ بشكل تلقائي من لا شيء، وفقاً لقوانين العلم. فالافتراض الأساسي للعلم هو الحتمية العلمية. فقوانين العلم تحدّد مراحل تطوّر الكون، بالنظر إلى وضعه في لحظة زمنية. هذه القوانين قد يكون الله هو من أصدرها، أو لا يكون، لكنّه لا يستطيع التدخّل لانتهاكها وخرقها، وإلا لما كانت قوانين. هذا يترك الله مع حرية اختيار الحالة الأولية للكون، ولكن حتى في هذه الحالة سيكون اسمها قوانين. عندها لن يكون لله حرية على الإطلاق.

بالرغم من تعقيد الكون وتنوّعه، يتّضح أنّه لكي تصنع كوناً فأنت بحاجة لثلاثة مكوّنات رئيسية. دعونا نتخيّل أنّنا يمكننا سردها عبر كتاب في الطبخ الكوني. إذن ماهي المكوّنات الثلاثة التي نحتاجها لطهي الكون؟ المكوّن الأول هو المادّة _الأشياء ذات الكتلة. المادّة تحيط بنا من كل جانب، في الأرض تحت أقدامنا، وفي الفضاء الخارجي. غبار، صخور، جليد، وسوائل. غيوم شاسعة من الغاز، عناقيد عملاقة من النجوم، وكل عنقود يحتوي بلايين الشموس، ممتدّة لمسافات هائلة لا تصدّق.

المكوّن الثاني الذي تحتاجه هو الطاقة. حتى إذا لم يخطر ذلك ببالك أبداً، جميعنا نعرف ما الطاقة. شيء نصادفه كل يوم. انظر إلى الشمس، ويمكنك أن تشعر بها على وجهك: الطاقة التي ينتجها نجم يَبعُد عنّا ثلاثةٍ وتسعين مليون ميلاً. الطاقة تتخلّل الكون، وتحرّك جميع العمليات التي تبقيه مكاناً ديناميكياً ومتغيّراً باستمرار.

الآن لدينا مادّة ولدينا طاقة. المكوّن الثالث الذي تحتاجه الآن لبناء كون هو الفضاء. الكثير من الفضاء. يمكنك أن تسمّي الكون أسماء كثيرة _جميل، رائع، وعنيف_ لكن شيء واحد لا يمكنك أن تقوله عنه: أنه ضيّق. أينما نظرنا نرى فضاء، فضاء أكثر، وأكثر. يمتدّ في جميع الاتجاهات. فضاء كافٍ ليجعل رأسك يدور. إذن من أين يمكن أن نأتي بهذه المكوّنات الثلاث: المادة والطاقة والفضاء؟ لم يكن لدينا أدنى فكرة حتى القرن العشرين.

جاء الجواب من رؤى رجلٍ واحد، وربما كان من أبرز العلماء الذين عاشوا في أي وقتٍ مضى. كان اسمه ألبرت آينشتاين. للأسف لم ألتقِ به، بما أنني كنت قد بلغتُ سنّ الثالثة عشرة عندما مات. كان آينشتاين قد أدرك شيئاً غير عادي: أنّ اثنين من المكوّنات الأساسية للكون _الكتلة والطاقة_ هما الشيء نفسه، وجهان لعملة واحدة إن شئت أن تسمّيهما كذلك. أمّا معادلته الشهيرة [$E=mc^2$] تعني ببساطة أنّه يمكن اعتبار الكتلة نوعاً من الطاقة. والعكس صحيح. لذا وبدلاً من وجود ثلاثة مكوّنات، يمكننا الآن القول أنّ الكون يحتوي على اثنين فقط: الطاقة والفضاء. إذن من أين جاءت كل هذه الطاقة وهذا الفضاء؟ تمّ العثور على الجواب بعد عقود من العمل من قبل العلماء: تمّ اختراع الطاقة والفضاء بصورة تلقائية في حَدَث كوني عظيم نسمّيه الآن بالانفجار الكبير Big Bang.

في لحظة الانفجار الكبير، جاء الكون كله إلى الوجود، ومعه الفضاء. تضخّم كل شيء، مثل بالون يجري النفخ فيه. إذن من أين أتت كلّ هذه الطاقة وهذا الفضاء؟ كيف يظهر كون بكامله مليء بالطاقة، وفضاء شاسع وكل شيء بداخله، ببساطة شديدة ظهر من لا شيء؟

بالنسبة للبعض، هذا هو المكان الذي يظهر فيه الله. فالله هو الذي خلق الطاقة والفضاء. والانفجار الكبير كان لحظة الخلق. لكنّ العلم يروي لنا حكاية مختلفة تماماً. وتحت خطر أن أجد نفسي في مشكلة، أعتقد أننا يمكننا فهم الظواهر الطبيعية التي أرعبت الفايكينغ بصورة أفضل. يمكننا حتى أن نتجاوز التجانس الجميل للطاقة والمادة الذي اكتشفه آينشتاين. يمكننا استخدام قوانين الفيزياء للتعامل مع مسألة أصل الكون، واكتشاف ما إذا كان وجود الله هو الطريقة الوحيدة لتفسير ذلك.

عندما كنت في إنكلترا بعد الحرب العالمية الثانية، كانت الفترة فترة تقشّف. قيل لنا بأنك لن تحصل على شيء ما من لا شيء. ولكن الآن، بعد حياةٍ كاملة من العمل، أعتقد أنك في الواقع يمكنك الحصول على كون كامل مجاناً.

إنّ اللغز الكبير الكامن في قلب الانفجار الكبير يتمثّل في تفسير كيف يمكن لكون كامل وشاسع من الفراغ والطاقة أن يظهر من لاشيء. ويكمن السر في واحدة من أغرب الحقائق عن الكون. تتطلّب قوانين الفيزياء وجود ما يسمّى "بالطاقة السالبة Negative Energy".

دعني أساعدك لكي أريح لك رأسك من هذا المفهوم الغريب لكن الحيوي للغاية من خلال تقديم مثال تشبيهي بسيط. تصوّر رجلاً يريد بناء تلّة على قطعة أرض مسطّحة. التلّة ستمثّل الكون. وليصنع هذه التلّة يحفر حفرةً في الأرض ويستخدم تلك التربة ليحفر تلّته. ولكن بالطبع هو لا يصنع تلّةً فقط _إنّه يصنع أيضاً حفرة، وهي بالتالي نسخة سالبة من التلّة. المواد التي كانت في الحفرة أصبحت الآن تكوّن التلّة، وبهذا توازن كل شيء على أحسن وجه. وهذا هو المبدأ الكامن وراء ما حدث في بداية الكون.

عندما أنتج حادث الانفجار الكبير كمية هائلة من الطاقة الموجبة، فقد أنتج بنفس الوقت نفس الكمية من الطاقة السالبة. وبهذه الطريقة، فإنّ القيمة الموجبة والسالبة تبلغ الصفر، دائماً. إنّه قانون آخر من قوانين الطبيعة.

إذن أين هي هذه الطاقة السالبة اليوم؟ إنّها في المكوّن الثالث في كتاب الطبخ الكوني: إنّها في الفراغ/ الفضاء. قد يبدو هذا الأمر غريباً، ولكن وفقاً لقوانين الطبيعة المتعلّقة بالجاذبية والحركة _من بين أقدم القوانين في العلم_ الفضاء نفسه عبارة عن مخزن ضخم للطاقة السالبة. كافة لضمان أنّ أي شيء سيساوي الصفر.

سأقرّ هنا أنّه ما لم تكن الرياضيات مجالك الخاص، فمن الصعب جداً فهم ذلك، لكنه الحقيقة. الشبكة اللانهائية من مليارات ومليارات المجرات، كل واحدة منها تسحب الأخرى بفعل قوة الجاذبية، تعمل كجهاز تخزين ضخم. الكون عبارة عن مُدّخَرة ضخمة تخزّن الطاقة السالبة. الجانب الموجب من الأشياء _الكتلة والطاقة كما نراهما اليوم_ مثل التلّة. أمّا الحفرة الموازية، أو الجانب السلبي من الأشياء، منتشرة في جميع أنحاء الفضاء.

إذن ماذا يعني ذلك ضمن إطار موضوعنا حول وجود الإله؟ هذا يعني أنّه إذا كان الكون لا يساوي شيئاً، فلسنا بحاجة لإله لإنشائه. فالكون هو وجبة الغداء المجانية.

وبما أنّنا نعلم أنّ القيمة الإيجابية والسلبية تصل إلى الصفر، كل ما نحتاج إلى فعله هو معرفة ماذا _أو مَنْ_ أطلق فتيل العملية برمتها في المقام الأول. ما الذي يمكن أن يكون السبب وراء ظهور الكون بصورة تلقائية؟ في البداية، تبدو مشكلة محيّرة _ففي النهاية، في حياتنا اليومية، لا تظهر الأشياء من العدم تلقائياً.

لا يمكنك أن تحضّر فنجان من القهوة بنقرة من إصبعك عندما ترغب. بل عليه صنعه من عدّة مواد أخرى كحبوب القهوة والماء المغلي، وربما بعض الحليب والسكّر. ولكن انتقل إلى قلب فنجان القهوة هذا _عبر جزيئات الحليب، وصولاً إلى المستوى الذري ودون الذرّي، وستدخل عالماً حيث يمكن استحضار شيء من لا شيء. لفترة قصيرة على الأقل. وذلك لأنّ الجزيئات، في هذا المستوى، كالبروتونات تتصرّف وفقاً لقوانين الطبيعة التي نطلق عليها اسم "ميكانيكا الكمّ" quantum mechanics. ويمكنها فعلاً أن تظهر بشكل عشوائي، تلتفّ لبعض الوقت ثمّ تختفي مرةً أخرى، لتعاود الظهور في مكانٍ آخر.

وبما أنّنا نعرف أنّ الكون نفسه كان صغيراً جداً _أصغر من البروتون ربما_ فهذا معناه أمراً في غاية الروعة. هذا يعني أنّ الكون نفسه، بكل اتساعه وتعقيده المحيّر للعقل_ يمكن أن يظهر إلى الوجود ببساطة وبدون انتهاك لقوانين الطبيعة المعروفة. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، تمّ إطلاق كميات هائلة من الطاقة خلال عملية توسّع الفضاء _مكان لحفظ وتخزين كل الطاقة السالبة اللازمة لموازنة الأمور. لكن مرةً أخرى يُطرَح السؤال الحيوي من جديد: هل خلق الله قوانين الكم التي سمحت بحدوث الانفجار الكبير؟ باختصار شديد، هل نحتاج إلى إله يرتّب جميع الأمور لحدوث الانفجار الكبير؟ ليست لديّ رغبة في الإساءة لإيمان أي شخص، لكنني أعتقد أنّ العلم يمتلك تفسيراً أكثر إقناعاً من نظرية الله/ الخالق.

إنّ تجربتنا اليومية تجعلنا نعتقد أنّ كل ما يحدث في العالم يجب أن يكون له سبب حدث في وقتٍ سابق، لذا من الطبيعي أن نعتقد بأنّ شيئاً ما _الرب مثلاً_ قد تسبّب في دخول الكون إلى حيّز الوجود. ولكن عندما نتحدّث عن الكون ككل، فالأمر ليس كذلك بالضرورة. دعني أشرح ذلك. تخيّل نهر، يتدفّق من على سفح جبل. ما

سبب النهر؟ حسناً، قد يكون المطر الذي هطل في وقتٍ سابق على الجبل. ولكن بعد ذلك، ما سبب المطر، الإجابة الصحيحة هي الشمس، التي أشرقت فوق المحيط وبخّرت مياهه إلى السماء وشكّلت السحب. حسنٌ، ما سبب إشراق الشمس وحرارتها؟ إذا نظرنا بداخلها فسنشهد العملية المعروفة باسم الانصهار fusion، التي تتّحد فيها ذرّات الهيدروجين لتشكّل الهيليوم، مُطلِقَةً كميات هائلة من الطاقة عبر هذه العملية. حتى الآن الأمور تجري على أحسن ما يرام. من أين يأتي الهيدروجين؟ الجواب: من الانفجار الكبير. ولكن هذا هو الجزء الحاسم. تخبرنا قوانين الطبيعة نفسها أنّ الكون لم يقفز إلى الوجود بدون أي مساعدة فقط، مثل البروتون، ولم يحتَج شيئاً من الطاقة، بل من المحتمل أنّ الانفجار الكبير حدث بشكل تلقائي، وبدون أي سبب. لا شيء.

يكمن التفسير في نظريات آينشتاين، وبصيرته حول كيفية تشابك الزمان والمكان أساساً. لقد حدث شيء رائعٌ جداً للزمن في لحظة الانفجار الكبير. لقد بدأ الزمن نفسه.

لفهم هذه الفكرة المحيّرة للعقل، تصوّر ثقباً أسود عائم في الفضاء. الثقب الأسود النموذجي نجمٌ ضخمٌ لدرجة أنّه قد انهار على نفسه. إنّه ضخمٌ للغاية لدرجة أنّ الضوء حتى لا يستطيع الإفلات من جاذبيته، ولهذا السبب ندعوه بالأسود. إنّ جاذبيته قوية للغاية، لدرجة أنّها لا تشوّه وتلوي الضوء فحسب، بل والزمن أيضاً. ولتصوّر الأمر، تخيّل ساعة تمّ امتصاصها إلى داخله. عندما تقترب الساعة أكثر فأكثر من الثقب الأسود، تبدأ بالتباطؤ. الزمن نفسه يبدأ بالتباطؤ. الآن تخيّل الساعة عند دخولها في الثقب الأسود _حسناً، بافتراض أنّها ستتحمّل قوّة الجاذبية الساحقة_ فإنّها

ستتوقف فعلاً. إنّها ستتوقف ليس لأنّها قد تحطّمت أو أصابها عطلٌ ما، بل لانعدام الزمن في داخل الثقب الأسود. وهذا بالضبط ما حدث في بداية الكون.

خلال المئة عام الأخيرة، أحرزنا تقدّماً مذهلاً في فهمنا للكون. فقد بتنا الآن نعرف القوانين التي تحكم سير الأحداث في جميع الظروف وأكثرها تطرّفاً، كأصل الكون، أو الثقوب السوداء. أعتقد أنّ الدور الذي لعبه الزمن في بداية الكون يمثّل المفتاح الأخير لاستبعاد أي حاجة إلى مصمّم أو خالِق، ومعرفة كيف خلق الكون نفسه بنفسه.

بينما نسافر في الزمن إلى الوراء نحو لحظة الانفجار الكبير، يصبح الكون أصغر وأصغر وأصغر، حتى يصل أخيراً إلى النقطة التي يكون فيها كله صغيراً جداً إلى حدٍ لا متناهٍ، ثقب أسود بكثافة لامتناهية. وكما هو الحال مع الثقوب السوداء الحالية، تطفو في الفضاء، فإنّ قوانين الطبيعة تملي شيئاً غير عادي بالمرّة. إنّها تخبرنا أنّ الزمن نفسه حتى سيتوقف هنا. لا يمكننا الوصول إلى زمن ما قبل الانفجار الكبير لأنّه لم يكن للزمن وجود آنذاك. لقد أوجدنا في النهاية شيء ليس له سبب، لأنّه لم يكن هناك زمن لوجود سبب فيه. بالنسبة إليّ، هذا يعني أنه لا توجد إمكانية لوجود خالق، لأنه لا يوجد زمن لوجود خالق فيه.

الناس يريدون إجابات عن الأسئلة الكبرى، مثل: لماذا نحن هنا؟ ولا يتوقعون أن تكون الإجابات سهلة، لذا نراهم مستعدّين للكفاح قليلاً. عندما يسألني الناس إن كان الله هو الذي خلق الكون، أقول لهم أنّ السؤال بحدّ ذاته لا معنى له. لم يكن الزمن موجوداً قبل الانفجار الكبير، لذا لا يوجد زمن يصنع فيه الله الكون. إنه أشبَه بالاتجاهات إلى حافة الأرض، فالأرض فَلَك كروي ليس له حافة، لذلك فالبحث عن حافة للأرض مسعى عقيم لا طائل منه.

هل أنا مؤمن؟ كلٌّ منّا حُرٌّ في تصديق ما نريد، وبرأيي أنّ أبسط تفسير هو أنه لا يوجد إله. لم يخلق الكون أحد، ولم يوجّه أحد مصيرنا أو يتحكّم به. ويقودني هذا إلى إدراك عميق: ربما لا توجد جنّة ولا أيّة حياة آخرة. أعتقد أنّ الاعتقاد بالآخرة مجرّد أمنيات. فلا يوجد أي دليل موثوق بشأنها، كما أنّها توجّه صفعة في وجه كل ما نعرفه وما تعلّمناه في العلم. أعتقد أنّنا حين نموت نعود إلى غبار. ولكن هناك معنى نعيش وفقه، في تأثيرنا، وفي جيناتنا التي نمرّرها لأولادنا. لدينا هذه الحياة الوحيدة فقط بتقدّر عظمة التصميم الكوني، ولهذا السبب أنا مُمْتَنٌّ للغاية.

كيف تتناسب فكرة وجود الله مع فهمك لبداية الكون ونهايته؟ وإذا كان الله موجوداً وأتيحت لك الفرصة للقائه، ما الذي ستطلبه منه؟

السؤال هو "هل اختار الله الطريقة التي بدأ بها الكون لأسباب تستعصي على أفهامنا، أم أنه تمّ تقرير البداية بموجب قانون علمي؟" أنا أؤمن بالافتراض الثاني. إذا أحبَبت يمكنك أن تطلق تسمّي قوانين العلم "الله"، لكنه لن يكون إلهاً شخصياً يمكنك أن تقابله وأن تطرح عليه أسئلة. ومع ذلك، إذا كان مثل هذا الإله موجوداً، فإنني أودّ أن أسأله ما إذا كان يفكّر في أي شيء معقّد كنظرية إم M-Theory داخل أَحَدَ عَشَرَ بُعداً.

Liberal Library

الدار الليبرالية

برلين

40 قضية لتحرير العقل

٤٠ مقال وبحث ستغير طريقة تفكيرك للأبد!

هل نستمدّ أخلاقنا من عند الله.. هل عثر العلم على الله.

العلم والإيمان ... الله والعلم

تصوّروا عالماً بلا أديان

ما الفائدة من الدين

لماذا يتحوّل الدين إلى عنف

الدين السياسي: بديل عن الدين، أم أنه دين جديد

الله قادر على كل شيء: حجّة الضعفاء عقلياً

هل تمّ إثبات نظرية التطوّر؟

متلازمة الصدمة الدينية (فاليري تاريكو)

من هو سيزيف؟

غريب- كامو: اللامبالاة تجاه العالم

دليل نيتشه لتجاوز وجودك والتغلّب عليه

المأزق الأخلاقي للحروب

نشأة الكون: طبيعية أم ماورائية؟



أسماء كبيرة في هذا الكتاب نذكر منها :

فيكتور ستينغر - جيمس جونز - إميليو جينتيل - ريتشارد كوينغبيرغ - كيري باتون - ريتشارد دوكينز - جيري كوين - نايجل باربر - فاليري تاريكو - ديفيد ميلز - ديل مكغوان - إيما غولدمان - بول كليتيور - أميل إيماني - جيمس هيرفي جونسون - روبرت إنغرسول - مايكل شيرمر - بات لاينز - ستيفن مايكلمان - آندرسون تومسون جونيور - وكلير أوكوفر - سيمون كريتشلي - ستيفن هوكينغ

الدار الليبرالية
Liberal Library